المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام

فى عصر الحروب الصليبية

للدكتور
أحمد رمضان أحمد محمد

طبعة - ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م
الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية
والوسائل التعليمية

المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام

فى عصر الحروب الصليبية

للدكتور
أحمد رمضان أحمد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

لقد عنى الباحثون فى تاريخ بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية بالجانبين السياسى والحربى ، لكن لم يحظ الجانب الاجتماعى الا بقدر ضئيل لايتناسب وأهميته فى التاريخ العام . وربما يرجع بعض السبب الى عدم عناية الكتاب المعاصرين بالتعرض للجانب الاجتماعى نتيجة لاهتمامهم بما كان بين الصليبيين والمسلمين من مساجلات وحروب استأثرت بجل اهتمامهم وانتباههم .

والواقع ان دراسة المجتمع الاسلامى بالشام فى عصر الحروب الصليبية تعتبر حتى الآن صفحة مجهولة فى تاريخ العصور الوسطى ، فضلا عن انها من أشد أنواع الدراسات تعقيدا ، وفى نفس الوقت اكثرها طرافة وتنوعا ، ذلك أنه قد اجتمعت فى بلاد الشام فى ذلك العصر طوائف متعددة الاصول والمشارب والعقائد والاتجاهات . وقد حرص كل فريق منها على التمسك بعاداته وتقاليده ومعتقداته مما أدى الى وضع اجتماعى خاص فريد .

ولايخفى أن هذا النوع من الدراسة يتطلب مادة غزيرة واسعة ، حيث أن مقوماته موزعة بين مختلف المصادر ، وربما كانت مختبئة بين سطور الكتاب المعاصرين . واذا كانت المعلومات الخاصة بالاحداث الحربية والسياسية قد وردت مفصلة فى المصادر المعروفة المعاصرة ، فان الاشارات الى الاحوال الاجتماعية قليلة ومتناثرة .

واذا كانت الاشارة الى الاحوال الاجتماعية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، قليلة ونادرة كما قلنا ، الا ان كثرة المصادر التاريخية التى تناولت بالبحث والتحقيق الفترة التى نحن بصدد دراستها ، كانت من أكبر الحوافز للكتابة فى هذا الموضوع ، فقد وجدنا فيها شذرات متفرقة هنا وهناك تارة صريحة وأخرى ضمنا فكانت بمثابة اللحمة والسداة التى نسجنا منها موضوع هذا الكتاب .

ومن هذه المصادر التى اعتمدنا عليها كتابات المؤرخ عبد الله بن محمد بن حامد الاصفهانى المعروف بالعماد الكاتب (سنة ٥١٩ هـ / سنة ١١٢٥ م الى سنة ٥٩٧ هـ سنة ١٢٠٠ م) ، الذى رحل الى دمشق (سنة ٥٦٢ هـ / سنة ١١٦٦ م) حيث عمل صاحب سر نور الدين وولاه الاشراف على ديوان الانشاء العربى الفارسى . وفى (سنة ٥٦٧هـ / سنة ١١٧١م) فوض اليه التدريس بالمدرسة النورية الشافعية ، والمعروفة يومئذ بالعمادية نسبة اليه . ولما تولى صلاح الدين أمر مصر والشام بعد وفاة نور الدين دخل العماد فى خدمته فعين نائبا فى الكتابة الديوانية . وهكذا لزم العماد باب صلاح الدين ينزل لنزوله ويرحل لرحيله ، ويغشى مجالسه السياسية والعسكرية والعلمية (١) .

---

(١) نظير حسان : المؤرخون المعاصرون ص ٢٠ .

ومن أهم مؤلفات العماد التى اعتمدنا عليها فى بحثنا تاريخ السلاجقة وعنوانه « نصرة الفطرة وعصرة القطرة » الذى اختصره البندارى تحت عنوان « زبدة النصرة » وكتابه الثانى عنوانه « البروق الشامى » تناول فيها العماد تاريخ حياته ونشأته ورحلته من العراق الى الشام ، وهو يقع فى سبعة مجلدات لايوجد منها سوى الجزء الثالث والجزء الخامس (٢) ، كما يوجد من هذا الكتاب مقتطفات فى لينتجراد بروسيا (٣) ، وقد أطلق العماد على هذا الكتاب « البروق الشامى » لانه شبه أوقاته التى قضاها فى الشام من (سنة ٥٦٢ هـ سنة ١١٦٦ م) سنة قدومه الى الشام الى (سنة ٥٨٩ هـ / سنة ١١٩٣ م) سنة وفاة صلاح الدين ، وكأنها مرت كالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها • وغداة وفاة صلاح الدين شرع العماد فى تأليف كتابه « الفتح القسى فى الفتح القدسى » تناول فيه فتح صلاح الدين لبيت المقدس وسيرته وحروبه فبدأه (سنة ٥٨٣ هـ / سنة ١١٨٧ م) وانتهى به فى (سنة ٥٨٩ هـ / سنة ١١٩٣ م) سنة وفاة صلاح الدين • وكتب بأسلوب نثرى مسجوع ، يصعب على الباحث استخراج الحقائق التاريخية منه •

وقد أفرد العماد كتاباً للاحداث التى أعقبت وفاة صلاح الدين أى من سنة (٥٨٩ هـ / سنة ١١٩٣ م) الى (سنة ٥٩٢ هـ سنة ١١٩٦ م) أسماه « العتبى والعقبى ونحلة الرحلة » • وتناول فى كتابه الخامس المعروف باسم « خطفة البارق وعطفة الشارق » (٤) عصر صلاح الدين بالدراسة ، وللاسف فقد الكتابان ولم يرد عنهما فى كتب التاريخ اللاحقة الا القليل المبتور •

وعلى الجملة فان مؤلفات العماد التاريخية تحتل مكان الصدارة بين مصادر القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى أهم قرون التاريخ الوسيط وأبلغها أثرا فى تاريخ الحضارة الاسلامية عامة وبلاد الشام خاصة • ولاشك ان قلم العماد الكاتب كان أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين (٥) ، اذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم ، وفى ذلك يقول : « وكان يأمرنى (صلاح الدين) باجابة كتب الملوك ، فى حالتى سلمهم وحربهم ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية الا بقلمى (٦) •

ومن المصادر الاساسية فى القرن الثانى عشر الميلادى وعصر صلاح الدين بصفة

---

(٢) يوجد فى مكتبة Bodloian بجامعة اكسفورد (رقم ١١) Bruce
Cahen (CLaude) : La Syrie du Nord â L : epoque des croisades . P . 51 ,
Brochlmann : Geschiche der Arabischen Iitteratur yol I.P.315.

(٣) Cahen : Ibid . P . 51 .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب ج ١ ص ٥ (نشر الشيال) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٤٧ •
Gahen : OP . Cit . P . 52 .

(٥) Gillb . H . A . R . The Arabie Sources Of fhe Iife of Saladin .
(A Journal of nidiayal Studies . January 1950) P . 59 , The Archiey - ement of Saladin. Bulletin of the John Ryr P.46.

(٦) العماد : الفتح القسى فى الفتح المقدسى ص ٣٤٥ •

(٧) نظير حسان سعداوى : المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الايوبى ص ١٧ •

خاصة كتاب بهاء الدين ابى المحاسن يوسف رافع بن شداد (سنة ٥٣٩ هـ / سنة ١١٤٥ م الى سنة ٦٢٢ هـ / سنة ١٢٣٤ م) الذى يعتبر من المؤرخين المعاصرين ، فقد دون كل ما وقع تحت سمعه وبصره ، تدوينا صادقا عن مشاعر صلاح الدين واحساساته ، باسطا خططه السياسية والعسكرية فى أسلوب سهل (٧) ممتع فى كتابه « السيرة الصلاحية والمحاسن اليوسفية » .

وتعتبر المعلومات التى سجلها ابن شداد فى السنوات الخمس (سنة ٥٨٤ هـ / سنة ١١٨٨ م الى سنة ٥٨٩ هـ / سنة ١١٩٣ م) التى قضاها فى خدمة صلاح الدين ، أصدق معلومات لاى أمير من أمراء العصر الوسيط . فقد حملت كتابته طابع الصدق ، ونطقت بحيدته ونزاهته وبعده عن التعصب ، أو « الميل الشخصى » أو المبالغة (٨) » .

ومن المصادر الهامة فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، كتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ المتوفى سنة (٥٨٤ هـ / سنة ١١٨٨ م) وكتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان » لابن الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧ هـ / سنة ١٢٠١) والذى يقع فى ثمانية مجلدات (٩) مخطوطة ، و « معجم الادباء » لياقوت الحموى المتوفى سنة (٦٢٦ هـ / سنة ١٢٣٠ م) كما لاننسى رحلة ابن جبير الرحالة الاندلسى المتوفى ٦١٤ هـ / سنة ١٢١٨ م .

وكان أبو على محيى الدين عبد الرحيم بن على بن محمد اللخمى البيسانى العسقلانى (سنة ٥٢٩ هـ / سنة ١١٣٥ م الى سنة ٥٩٦ هـ / سنة ١١٩٩ م) المعروف بالقاضى الفاضل ، بحق عمدة المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين ، فقد عاصر ثلاثة عهود ، شهد نهاية دولة الفاطميين الشيعية ، وقيام دولة بنى أيوب السنية ، كما شهد تفكك الدولة الصلاحية ، وقد كان للقاضى الفاضل أثره البالغ فى توجيه سياسة الجهاد ضد الصليبيين وقد وصفه ابن العماد (١٠) فقال : « هو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع وهو ضابط الملك بآرائه ورابط السلك بلألائه » . ولا غرابة اذن اذا وصف صلاح الدين الرجل فقال : « لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل » .

دون القاضى الفاضل مشاهداته فى تاريخه المعروف « بالمتجددات » أو « المياومات » وهى عبارة عن جريدة رسمية لديوان الانشاء رتبها القاضى الفاضل على اليوميات وسجل فيها المكاتبات الصادرة من الديوان والمتبادلة بينه وبين صلاح الدين فى

---

(٨) Lane - Poole : Saladin . P . 2 . , Gahen . op . cit . P . 82 .
(٩) Gahen : Ipid . P . 55 .
(١٠) ابن العماد : خريدة القصر جـ ١ ص ٣٦ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ٦ ص ١٥٦
(١١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٣٩ ، جـ ٢ ص ٢٥١
(١٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٥
(١٣) أبو شامة ذيل الروضتين جـ ١ ص ٢٢ ، لتفصيل ذلك أنظر : Hassanein Rabie : The Financial System of Fgypt , PP . 12 - 14 .

كل يوم . وللاسف لانزال آثار القاضى الفاضل الادبية والتاريخية المعروفة (بالرسائل) [١٤] متفرقة فى كتب من جاء بعده من المؤرخين وبخاصة (أبو شامة) .

ولعل أهم المصادر التى تناولت تاريخ دولة الاتابكة فى القرن الثانى عشر الميلادى كتاب « تاريخ دولة الاتابكة ملوك الموصل » للمؤرخ أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد ابن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى الملقب عز الدين (سنة ٥٥٥ هـ / سنة ١١٦٠ م الى سنة ٦٣٠ هـ / سنة ١٢٣٥ م) . اما كتاب ابن الاثير الثانى فى التاريخ فعنوانه : « الكامل فى التاريخ » فهو موسوعة كبيرة فى التاريخ العام للعالم الاسلامى ، ابتداء من اول الزمان وانتهى بعام (٦٠٨ هـ / سنة ١٢٣٣ م) . ويؤخذ على ابن الاثير أنه ظل حزبيا متطرفا متعصبا للزنكيين حتى بعد زوال تلك الاسرة .

ولم تقتصر مصادر صلاح الدين على المؤرخين العرب ، بل أثرتها مصادر مؤرخى اللاتين الذين عاصروا الحروب الصليبية ، ومن أهم هذه المصادر وليم الصورى الذى نشأ فى الشرق وتعلم العربية واليونانية (سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٨٧ م) وقد الف وليم كتابين احدهما عن تاريخ الشرق بصفة خاصة ، وكان ذلك تلبية لرغبة صديقه الملك عمورى . وللاسف فقد ضاع هذا المخطوط الكبير ولم يبق منه سوى ما نقله مؤرخو القرن الثالث عشر الميلادى [١٥] .

أما كتابه الثانى فقد كتبه على طريقة الحوليات فتناول تاريخ الحروب الصليبية منذ بدايتها (سنة ١٠٩٥ م الى سنة ١١٨٤ م) وهو يقع فى ثلاثة وعشرين جزءا آخرها ناقص .

والمصدر الثانى وضعه المؤرخ المعروف باسم الفارس (ارنول) ، الذى يعتبر كتابه امتدادا لتاريخ وليم الصورى ، فهو يعرض للاحداث التى وقعت من سنة ١١٨٤م الى الحملة الصليبية الثالثة . وقد نشرت حوليات أرنول فى أربع طبعات آخرها طبعة ماس لاترى (Mas Latris) سنة ١٧٨١ م .

وتعتبر منظومة الشاعر امبروز (L , Histoirs de la guerre Saint) التى دون فيها مشاهداته الشخصية للمعسكرين الاسلامى والمسيحى ابان الحملة الصليبية الثالثة ، من أوثق المصادر وأصدقها . وتوجد نسخة خطية من كتاب امبروز بمكتبة الفاتيكان ١٨٩٧ م [١٦] .

---

(١٤) تحتفظ المكتبة الملكية فى ميونيخ ببعض هذه الرسائل المخطوطة بخط القاضى الفاضل تحت رقم (٤٠٢) كما يوجد منها مقتطفات بجامعة لندن برقم (٩٩٤) وبمكتبة جامعة كمبردج برقم (٣٢٣٢) وبالمتحف البريطانى بلندن برقم (٧٣١٢)

(١٥) Rich (مقدمة مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين . Tome . I
R . H o O .
Runciman : A History of the crusades . P . 476 .

(١٦) Geston Paris : Legende de Saladin (Jou rnal des Saya - nts . Paris 1893) . P . 285 .

ويعتبر تاريخ ابن أبى طى (سنة ٥٧٥هـسنة ١١٨٠م) « كتاب السيرة الصلاحية »(١٧) مصـــدرا على جانب كبـــير من الاهميــةتناول فيه تاريخ العـــالم الاسلامى ، واعطى حلب قدرا ملحوظا من اهتمامه . كمـــا يعتبركتاب « السيرة الصلاحية » همزة الوصـــل بين السلطان نور الدين والسلطان صـــلاح الدين . وللاسف فهـــذا الكتاب مفقود . وقد اعتمـــد عليه أبو شامة ، فى كتابه الروضتين ، اعتمادا واضـــحا ، وكيفما كان الامـــر ، فان أسلوب أبى طى ، كما ورد فى مقتبسات ابى شامة يرعى جانب الحق .

ولعل من أهم المصادر التى اقتصرت فى حديثها على بلاد الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى ، كتاب « التاريخ الكبير لدمشـــق » لابن عساكر (سنة ٤٩٩ هـ/سنة ١١٠٤ م ـــ ٥٧١ هـ/١١٧٦ م) . ويقـــع فى ثمانين مجلدا عرض فيها لذكر من حلها أو اجتـــاز بهـــا أو بأعمالها من الانبياء والهداة والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء . وصـــدر الكتاب بجملة أبواب من الاخبـــار فى شرف الشـــام وفضله ومناقب سكانه وأهله . وقد التزم فى تأليفه وترتيبه الاســـماء ، منهج المحدثين .

ويعتبر المؤرخ أبو الفداء أحـــد أئمـــة الكتاب فى بلاد الشام فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (سنة ٦٧٣ هـ/ســـنة ١٢٧٥ م ـــ سنة ٧٦٤ هـ/ سنة ١٣٦٤ م) وقد استطاع فى سن مبكرة أن يسجل أحداث عصره فى كتابه « المختصر فى تاريخ البشر » كما كان عالما فقيها وجغرافيا (١٨) وفلكيا كما يتضـــح ذلك من كتابه « تقويم البلدان » .

ومن مصادر القرن الثالث عشر الميلادى الهامة كتاب « المقتفى » لتاريخ شهاب الدين أبى شامة (١٩) » للبرزالى ، الذى يعتبر ذيـــلا لكتاب أبى شامة « الروضتين » وهو يبدأ بذكر حوادث سنة ٦٦٥ هـ/سنة ١٢٦٦ م وهى سنة وفاة ابى شامة ، ويستمر حتى (سنة ٧٣٨ هـ سنة ١٣٣٨ م) ويعتبر كتاب « جواهر السلوك للجزرى من المصادر الهامة فى القـــرن الثالث عشر الميلادى وكذا كتابه « حوادث الزمان » . ويظهر من كتابات الجزرى انه ليس مؤرخـــا يختص بالشام فحسب بل مصـــدرا رئيســـيا اعتمد عليه وأخذ منه أغلب المؤرخين المصريين المعاصرين (٢٠) .

ولانستطيع فى هذا التقديم الموجز لاهم المصادر التى اعتمدنا عليها فى بحثنا أن نلم بها جميعا فهذا يحتاج الى رسالة خاصة ، ولكننا اكتفينا بانتقاء بعض منها عـــلى ســـبيل المثال لا الحصر . فمن هذه المصـــادر نذكر « مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان » لسبط بن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤هـ/سنة ١٢٥٦م ، ثم جاء بعده قطب الدين اليونينى ، الذى اختصر المصـــدر

---

(١٧) أبو شـــامة : الروضـــتين جـ ١ ص١٦٥ ، حـ ا جى خليفة : كشف الظنون جـ ١ ص ٢١٤
Cahen : Ibid . P . 57 .

(١٨) Little . D : An introduction . P . 42 .

(١٩) Rosen - thal : Al - BirZali . I . P . P . 1238 - 1239 .

(٢٠) احمـــد عبد الرازق : دراســـات فى المصادر المملوكية المبكرة ص ٧٥ .

السابق فى نحو النصف وذيل عليه ذيلا فى أربعة مجلدات عرف باسم « ذيل مرآة الزمان » (٢١) الذى تبدأ حوادثه سنة ٦٥٤ هـ/ سنة ١٢٥٦م وتنتهى فى سنة ٧١١ هـ سنة ١٣١٢ م • كما يعتبر كتاب « مسالك الابصار (٢٢) فى ممالك الامصار » لابن فضل الله العمرى المتوفى فى سنة ٧٤٩هـ/ سنة ١٣٤٩ م ، من المصادر الموسوعية • ومما اعطى كتاب « مسالك الابصار » أهمية خاصة اعتماده على مصادر أصيلة فيما يتعلق بحوادث السنوات الاولى من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى مثل ابن واصل وابن خلكان وابن عبد الظاهر وشرف الدين بن مزهر وأبو ثناء الاصفهانى (٢٣)

وهناك عدد كبير من المصادر تناولت تاريخ وخطط اجزاء ومناطق معينة من بلاد الشام نذكر منها كتابى « زبدة الحلب من تاريخ حلب » لكمال الدين عمر ابن العديم الحلبى من أواخر القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، فقد تناول تاريخ وحوادث وآثار منطقة حلب وفيها حمص وحماة والثغور • ولعل من أهم المصادر التى تناولت تاريخ بلاد الشام كلها ولم تقف عند سورية الشمالية فحسب كتاب « الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة (٢٤) الذى صرف فيه عز الدين ابن شداد الحلبى همه فى كتابة تاريخ بلاد الشام الطبوغرافى ، فتناول دمشق والاردن ولبنان وفلسطين ومسقط رأسه حلب فذكر ما فيها من مزارات وأماكن مقدسة •

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذه المناسبة أن الكثير من المصادر المعاصرة لفترة الحروب الصليبية فى بلاد الشام قد عنيت عناية خاصة بالآثار المادية والمعمارية لتلك الفترة بل ان جل ماكتبه وتركه معاصرو القرون (الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية) (السادس والسابع والثامن الهجرية) فى بلاد الشام يكاد يكون قاصرا على تلك الاثار •

فالمؤرخ عز الدين ابن شداد قام فى كتابه « الاعلاق الخطيرة » بعملية حصر شبه كاملة لآثار القرنين الثانى عشر الثالث عشر الميلاديين لبلاد الشام من أقصى الشمال من حلب الى الوسط حيث دمشق ثم الجنوب حيث الاردن وفلسطين •

ومن ثم فقد تناولت الاثار الباقية التى ترجع الى القرنين السادس والسابع الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) فى بلاد الشام فى الفصل الثانى ، وقد اعتمدت فى ذلك على كثير من المصادر القديمة منها مخطوطة (٢٥) « معادن الذهب فى تاريخ حلب »

---

(٢١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٨٢ .

(٢٢) مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم (٥٥٩) معارف عامة . ويمكن معرفة الاجزاء التى ترجمت منه وكذا المنشورة فى مرجع :

Gaudefroy : Demombynes ,

L : Afrique moins L : Egypte ,

L : Masalik al - absar fi mamlikel - amsar Par ibn Fadl allah al - Omari , Bibliotheque des geographes arabe , II P . P I - yl (Paris 1927) .

(٢٣) العمرى : مسالك الابصار جـ ١٦ ٥٤٣ الى ص ٦٥٨ .

(٢٤) نشرة سامى الدهان بدمشق (سنة ١٣٨٢ هـ / سنة ١٩٦٢ م) .

(٢٥) مخطوطة بمتحف حلب رقم (١١٥) آثار •

تأليف يحيى بن أبى طيىء النجـــار الغسانى الحلبى من علمـاء القرن التاســـع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وكتاب « الشمعة المضيئة فى اخبار القلعـــة الدمشـــقية » تأليف ابن طولون الذى أعطانا أخبــــارا ممتعة عن الحكام والعمال من خلال وصفه لقلعـــة دمشق وسرد تاريخها .

كما تناول تاريخ مدينة دمشق عند وصفه للمدرسة الصـــالحية وللحى الذى تقع فيه فى كتـــابه « القـــلائد الجوهرية فى تاريـــخ الصالحية » (٢٦) .

كذلك استطعت ان أجمع الكثير من المعلومات عن الحركة الثقـــافية فى المجتمع الشـــامى فى العصور الوسطى وبعض العادات والتقـــاليد وبعض الفرق المذهبية من دراستى للمدارس الكثيرة التى انشـــــئت بكثرة ملفتة للنظر فى القرنين السادس والسابع للهجرة (الثـــانى عشر والثـــالث عشر الميلاديين) فى العـــــالم الاسلامى عامة والشامى خاصـــة . ولعل من أهم المراجع فى هذا الخصوص كتاب « الدارس فى تاريخ المدارس » (٢٧) تأليف عبد القـــادر بن محمد النعيمى ، وكتاب «ثمار المقاصد فى(٢٨) ذكر المساجد » الذى تناول فيه مؤلفه يوسف بن عبد الهادى ، عند حصره لمساجد الشام التى ماتزال باقيه حتى القرن العـــاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) جانبا من جوانب المجتمع الشامى فى العصور الوســـطى ، وهو الجانب الاسطورى الذى يقترن عادة بالمعجزة والقدرة الفائقة التى تكون جزءا من تاريخ كل مسجد وكـــل مكان مقدس ، حتى يكثر زائروه والمترددون عليه . وكذلك كتاب « الاشـــارات الى م عرفة الزيارات » (٢٩) تأليف على ابن ابى بكر الهروى الذى تنـــاول الكثير من مشـــاهد الائمة وأضرحة الاولياء ببـــلاد الشـــام من الناحيتين المعمارية والتاريخية .

وقد أســـــتمر المؤرخـــون يستخلصون تاريخ بلاد الشام الاجتمـــاعى من خـــلال دراستهم للآثار الباقية فقد تناول ابن الامام البصراوى من علماء القرن الحـــادى عشر الهجرى المنشآت المعمارية البـــــاقية فى بلاد الشام ثم عرج على تاريخ المجتمع من خلالها فى مخطوطه « تحفـــــة الانام فى فضـــائل الشام (٣٠) » وقبله ابن الجورانى من علمـــاء القرن العاشر الهجرى فى كتابه « الاشارات فى أماكن الزيارات » وكتاب « مجمـــل فضـــائل الشام (٣١) » لأبى الحسن عـــلى بن محمـــد الربعى .

وقد حرصت المراجع الاجنبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين على تسجيل الكتابات التى وردت عـــلى تلك الآثار ، وقراءتهـــا وتفنيدها ، لما فى ذلك من قيمة تاريخية هامة ، اذ أنها الدليل الذى لا يتطرق اليه الشـــك فى ارجاع كل عمل الى أصله . كما أنه يعطى فكرة

(٢٦) نشرت هذه المخطوطة وحققها الاســـتاذ محمد احمد دهمان ـ دمشق سنة ١٩٤٩ .
(٢٧) نشره وحققـــه الامير جعفر الحسنى (دمشق) سنة ١٩٤٣) .
(٢٨) حققه الدكتور أسعد طلس وذيل عليـــه سنة ١٩٤٣ .
(٢٩) قامت بنشر هذه المخطـــوطة الدكتورة سورديل (SourdeL) بدمشق سنة ١٩٥٣ .
(٣٠) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٤٣ (والمخطوط غير مرقم الصفحات)
(٣١) تحقيق ونشر صـــلاح الدين المنجـــد (١٩٥٢ ـ ١٩٦٠) .

مؤكدة عن حالة المجتمع الذى أنشئت أو صنعت فى وقته تلك المنشئات ، سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الفنية ، لعل من أهمها كتاب أرنست هرتزفيلد Ernst HerZfeld عن الكتابات على آثار مدينة حلب الذى يقع فى ثلاثة مجلدات واسمه :
Materiaux Pour un Corpus inscriptionum :
Arabicarum . Tnscriptions et monuments d ,Alep .
وكذلك مؤلفات فان برشم Van Berchein عن الكتابات الأثرية فى سوريا وكتاب دسو Dussaud عن الكتابات الأثرية فى سوريا فى العصور القديمة والوسطى وكذا كتابات كومب Combe الأثرية المجموعة فى خمسة عشر مجلدا ،
Repertoire chronologique d , EpigraphicArabe
وكذلك مجموعة الآثار والكتابات الاثرية التى جمعها كلود كاهن Claud cahen فى كتابه :
La Syrle du Nord L , Epoque des croisades.
الذى تناول فيه شمال سوريا وبصفة خاصة حلب وتدمر •

أما عن المصادر والمراجع التى تناولت الحياة الاقتصادية لبلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) ، وهى دعامة أساسية وظاهرة بارزة فى حياة المجتمعات فهى كثيرة ومتنوعة ، وان لم يكن الاقتصاد هو موضوعها الخاص ، نذكر منها كتاب القلقشندى « صبح الأعشى » الذى أشار فيه الى نظام الاقطاع ، وهو قوام الاقتصاد فى العصور الوسطى فى مصر والشام • ومن المراجع الحديثة فى هذا المجال كتاب النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى لابراهيم طرخان وكذا كتاب بولياك (Poliak) •
Feudalism ln Egypt , Syria and lebanon .
ولما كانت دراسة العملة والسكة تعتبر من الموضوعات المكملة لدراسة الحياة الاقتصادية والتى تؤثر بدورها على المجتمع من حيث رفاهيته ورخائه أو فقره وعوزه ، فقد قمت بدراسة العملة والسكة التى عثر عليها فى بلاد الشام والتى ترجع الى القرنين السادس والسابع للهجرة (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) • ومن المصادر الهامة لدراسة العملة كتاب « شذور العقود فى ذكر النقود » للمقريزى وكتاب « النقود العربية وعلم النميات » للاب انستاس مارى الكرملى • كما اعتمدت على كتاب « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية (٣٢) » تأليف منصور بن بعرة الذهبى الكاملى • ومن المراجع الأجنبية مؤلفات بالوك (Balog) وأهمها The coinage of the mamluk sultan of Egypt . ولافو (Lavoix) ومؤلفاته فى العملة وخاصة ,, Cataloque des monaies
وكتاب ,, materiaux pour servir a l , hist - oire de la numi smatique et de le metrologie musulmanes ,, .

---

(٣٢) مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم (٢١) كيمياء وطبيعة قام بترجمة ونشر مقتطفات منها الاستاذ (Ehrenkreutz) ثم قام بتحقيقها ونشرها الدكتور عبد الرحمن فهمى •

وكتاب ,, Problem de L , or moyen Age ,, تأليف سوفير Sauvarè

وقد رأيت أن أضمن هذه المقدمة دراسةلجغرافية بلاد الشام وأثرهـــا فى المجتمع الاسلامى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشرلأستطيع فى ظلها أن أرسى الخطوط العـــامة للدراسة التى خصصتها للمجتمع الاسلامى فىبلاد الشام •

جغرافية بلاد الشام

تمتد بلاد الشام فى العصور الوسطى ،كما وصفها الجغرافيون العرب(٣٣) من الفرات الى مصر وظلت تعتبر كذلك حتى نهاية العصر العثمانى(٣٤) ، اذ تحدها من الشرق البادية من أيلة الى الفرات ومن الغرب البحر المتوسط ، أما غربها البرى فيمتد من طرسوس غرب أذنه(٣٥) الى رفح بين مصر والشام • ويحدها شمالا حد يمتد من بالس (٣٦) مع الفرات الى قلعة نجم ثم الى البيرة الى قلعةالروم الى سمساط الى حصن منصور الى بهنس الى مرعش الى بلاد سيس الىطرسوس • أما الحد الجنوبى فيمتد من رفح الى تيه بنى اسرائيل الى مابين الشوبك(٣٧)وأيلة الى البلقاء (٣٨) • ولعل من أهم العوامل

(٣٣) البكرى : معجم ما استعجم ، المقدسى :أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، أبو الفداء : ابن حوقل : المسالك والممالك ، ياقوت : معجم البلدان ، عبد المؤمن عبد الحق : مراصد الاطلاع الانبارى : اسماء البلدان ، الاصطخرى : المسالك على اسماء الامكنة والبقاع ، ابو بكر محمد والممالك ، ابو الحسين احمد بن فارس : كتاب اشتقاق اسماء البلاد •

(٣٤) ابو الفداء ص ٢٢٥ ، الاصطخرى ص ٥٥ ، Smith : historical geograph . p . 3 , 4 Arnod Toynbee :Survey of Internalional affairs vol . 1 . p . 8 & cornelius vanThe Islamic World . p . 347 (London 1927) .

(٣٥) احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء فى عصر الحروب الصليبية ، أيلة مدينة قديمة على مقربة من العقبة اليوم •

(٣٦) بالس : مدينة قديمة فى شمال الشام وتقع على الضفة الغربية لنهر الفرات ومحطة لها شأنها على مسيرة مائة كيلو متر من حلب ، وفى مدخل الجزيرة على الطريق من انطاكية والبحر المتوسط المؤدى الى بغداد والعراق مارا بالرقة ، وكان ازدهار المدينة التجارى والزراعى يرجع الى موقعها عند تقاطع طرق نهرية وبرية فى واد دفء ،كانت وسائل الرى فيه تساعد على تنمية الزراعة • وقد عرفت قديما بالاسمين الآرامى واليونانى(بيت بلس) وبرباليسوس Barbali - soss وقد أشير اليها فى قائمة ((peutengir) وفى (notitia Dignitatum) وبعد التقسيم الادارى لولاية سورية الذى حدث فى حوالى منتصف القرن الثانى الميلادى واصبحت بالس بمقتضاه تابعة لولاية الفرات الكبرى (Augusta Euphratenis) أدت المدينة دور الثغر على الحدود • وفى العصر البيزنطى أصبحت بالس نهبا للجيوش الفارسية عدة مرات •• وقد دخلت المدينة فى حوزة المسلمين بعد ان استولى ابو عبيدة بن الجراح على حلب ، واصبحت فى العصر الاموى جزءا من جند قنسرين ، وفى عهد هارون الرشيد ضمت الى العواصم ، ثم دخلت فى محيط الدولة الطولونية ثم الحمدانية ثم السلاجقة • وفى عصر الحروب الصليبية خضعت لفترة وجيزة للفرنجة • وماتزال اثارها الباقية تشهد بما كان لهذه المدينة من شأن فى العصر الايوبى والعصر المملوكى • واسم بالس الان (اسكى مسكين) . البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٠ ، ابن خرداذبة ص ٧٥ ، ابن الفقيه :ص ٩٢ ، قدامة ص ٢٢٨ ، الطبرى ج ٣ ص ٥٢ ، الاصطخرى : ص ١٣ ، ٢٧ ، ٦٢ ، ابن حوقل ص١٩ ، ٢٤ ، ١١٩ ، البلاذرى ص١٥٤ ، ياقوت ص ٤٧٧ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص .

(٣٧) الشوبك : حرص بلدوين الاول بعد ان سيطر على وادى عربة جنوبى البحر الميت بتشييد حصن الشوبك (سنة ١١١٥ م) ليكون مقرا للصليبيين يمكنهم من السيطرة على وادى عربة بأجمعه ويكون عينا لهم على شبه جزيرة سيناء المدخل الشرقى لمصر (احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء فى عهد الحروب الصليبية ص ١٢٢)

(٣٨) البلقاء : الاسم العربى للنصف الجنوبى من اقليم شرقى الاردن • والبلقاء فيما روى عن غزوة مؤتة ، تضم ايضا البلاد التى الى الجنوب من أرنون Arnon ويطلق على اقليم شرقى الاردن بأكمله اسم البلقاء او البثنية او حوران (الاصطخرى ص ٦٥ ، ابن حوقل ص ١٢٤ ، اليعقوبى ص٣٢٦ ، ابن خرداذبة ص ٧٧ ، ياقوت ج ١ ص ٧٢٨) •

التى أثرت فى تاريخ بلاد الشام ، وضعه الجغرافى الذى يتكون من بيئات طبيعية متعددة متباينة تجمع بين المتناقضات جميعها ، فهناك الجبل والسهل والصحارى والأراضى الزراعية . كما أن اقليم الشام يتميز بتنوع الارض من ارتفاع وانخفاض يسيران فى سمت واحد آخذا مسارا طوليا من الشمال الى الجنوب . لذلك فقد كان التقسيم الطولى هو انسب التقاسيم لطبيعة بلاد الشام .

تنقسم بلاد الشام الى خمسة أقسام طولية يحدها من الشرق بادية الشام ومن الغرب البحر المتوسط .

القسم الاول :

هو السهل الساحلى وهو عبارة عن شريط يقع شرق البحر المتوسط وغرب الجبل ويمتد من ساحل شبه جزيرة سيناء حتى خليج الاسكندرونة ، وهو متسع فى الشمال والجنوب فيبلغ اتساع السهل الساحلى عند عسقلان عشرين ميلا ، وضيق عند لبنان ، وينقطع امتداد السهل الساحلى فى نقطتين الاولى الى الجنوب من مصب نهر الكلب فيصل الجبل الى البحر . وقد أفاد السكان من هذه الميزة فائدة عظيمة اذ اعطتهم موقعا استراتيجيا هاما فقد شكل ذلك مانعا طبيعيا أمام القوات المعادية السالكة لهذا السهل . والنقطة الثانية عند جبل الكرمل حيث يتميز السهل بخصوبة ارضه وخاصة عند سهل صارونة وسهل فلسطين جنوبا ومنطقة الساحل عند لبنان شمالا . وبرغم امتداد السهل لهذه المسافة الكبيرة الا أننا لانجد خليجا نهريا عميقا اللهم الا خليج الاسكندرونة فى الشمال . وقد ترتب على ذلك عدم وجود موانى هامة .

القسم الثانى :

يقع الى الشرق من السهل الساحلى الذى يمتد من جبل الامانوس شمالا حتى جبل سيناء فى الجنوب ، مكونا سلسلة من المرتفعات التى تشكل عائقا أمام الاتصال بين البحر وداخل الشام ، ويمكن عبور هذا العائق فى عدة مواضع عن طريق الجسر السورى مع سهول مابين النهرين ، وعند تصدع مرج ابن عامر شرقى عكا وحيفا ، وعن طريق وادى النهر الكبير وشمالى طرابلس ، ولذلك فقد كان على الجيوش الصليبية المتجهة الى ظهير بلاد الشام ان تسلك أحد هذه الابواب . على ان أهم جبال هذه السلسلة هو جبل الامانوس الذى يفصل بين الشام وآسيا الصغرى ، ويقطع هذا الجبل نهر العاصى فى جزئه الجنوبى . ويعرف هذا الجزء بجبل الاقرع ويقطع طرقا تمتد الى أنطاكية وحلب مارة بمضيق بيلان المعروف بأبواب سوريا (Pyloe Syria) (٣٩) وتمر هذه الجبال باللاذقية وتعرف

---

(٣٩) Mexax Blankenhon , handbuch der regionlen (Weidelberg 1914) P . P5 , 14 , 29 : Alfred E . Day , geolgy of lebanon (Beirut , 1930) P . 30 .

بجبال النصيرية (٤٠) الى ان تصل الى النهر الكبير الجنوبى (٤١) .

وتضم جبال النصيرية أودية عميقة وكثيرة بعضها شديد الوعورة وشديد الارتفاع وذات ميل حاد مما جعل طائفة الحشاشين الاسماعيلية يفضلونها ويتخذونها مكانا لاعتصامهم كذلك جماعة النصيرية من المسلمين غير السنيين . وقد اتخذ الصليبيون من هذه المواقع الحصينة مكانا لبناء حصونهم وقلاعهم التى لاتزال خرائبها باقية حتى اليوم ، على ان أعلى قمم هذه السلسلة الجبلية جبال لبنان (٤٢) التى تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية مما يشكل صعوبة فى التنقل ، لذلك كانت ملجأ للافراد والجماعات ذات الميول السياسية المعادية للسلطة الحاكمة ، فنجد الموارنة والدروز والشيعة الذين يعرفون بالمتاولة فى سوريا (٤٣) يتخذونها سكنا .

وتستمر هذه السلسلة فى الاتجاه جنوبا فى شكل مرتفعات وهضبات تسمى الجليل (٤٤) الاعلى وأقصى ارتفاع فيه عند جبل (جرمق) شمال صفد ، وهو أعلى قمة فى فلسطين ، والجليل الادنى وأعلى قمة فيه عند جبل طابور قرب الناصرة . وتنقطع هذه السلسلة عند مرج ابن عامر الذى يجتاز فلسطين فيفصل تلال الجليل فى الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية فى الجنوب .

القسم الثالث :

يقع الى الشرق من سلسلة الجبال الغربية وتبدأ من الشمال بسهل العمق ، فسهل البقاع ويمتد فى وادى الاردن حتى البحر الميت ، ثم وادى عربة حتى خليج العقبة . على ان سهل البقاع يرتفع عند بعلبك حيث نقطة تقسيم فيتجه نهر العاصى نحو الشمال ، أما نهر الليطانى فيتجه نحو الجنوب وهما النهران الكبيران الوحيدان فى الشام ثم يأخذ نهر الليطانى مسار نهر العاصى فينعطف فجأة فى مجراه الاسفل نحو الغرب عند سفح قلعة الشقيف (التى كانت تعرف بقلعة (Belfort) الا ان مجرى هذا النهر منخفض مما يجعل

---

(٤٠) Pliny , Natural History , Bk . V , ch . 17 , 20

(٤١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥٥ (ليدن) ويقول ان اللكام يمتد حتى اللاذقية فى الجنوب ويسمى جبال النصيرية (بهراء) René Dussaud , Topogrphie historique du la Syrie antiqueet medievale (peris 1927) P . 146 .

(٤٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص ٣٥ « ومن جبالها لبنان ، وهو جبل مغمور بالابدان (قوم من الصالحين ، قيل لا تخلو الدنيا منهم اذامات واحد أبدل الله مكانه الآخر) . والسياح والمنقطعون الى الله تعالى عن الخلق لما فيه من الاشجار والانهار وفيه سائر الحشائش ومنها يرتزق الصالحون » ، ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٤٧ « انه جبل مطل على حمص يحيط بسوريا كلها » .

(٤٣) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٣٣ ، ٣٨ .

(٤٤) قال اليعقوبى فى كتابه « البلدان » : « ومن كور دمشق صيدا ، جبل الجليل . ذكر فى الانجيل . وانما سمى بذلك لان الله — تبارك وتعالى — لما أوحى الى الجبال انى أريد أن اتجلى لموسى على بعضك تطاولت وشمخت غير جبل الجليل فانه استخزى وتطامن فسمى جبل الجليل » كما قال : « ومن كور دمشق جبل الجليل ، وأهله قوم من عامله .

الرى منه متعذرا اللهم الا باستخدام النواعير (٤٥) وقد كان لهذين النهرين أكبر الاثر فى خصوبة سهل البقاع فان أراضى هذا السهل من أجود اراضى الشام وأخصبها مرعى ٠

وتتميز هذه المنطقة بوجود الزلازل والبراكين بها ، فالهضبة الواقعة شرقى جبل حرمون وجنوبى دمشق تخترقها خطوط البراكين الخامدة ، كذلك منطقة لبنان والوادى الكبير ووادى الاردن والبحر الميت تعتبر منطقة الزلازل ، فقد أصيبت انطاكية خلال القرون الستة الاولى للميلاد بهزات عنيفة (٤٦) حوالى عشر مرات ٠ كذلك تدل التصدعات الموجودة فى جدران معبد الشمس فى بعلبك على تعرضه لهزات عنيفة نتيجة الزلزال ٠ وكذا خراب سدوم وعمورة الشهير فى الطرف الجنوبى الغربى للبحر الميت ، بالاضافة الى النيران التى نجمت عن ترشيحات الزلازل من نفط وينابيع من الاسفلت ، وغيرها من التصدعات التى حدثت للقلاع الصليبية التى ما تزال باقية ٠

القسم الرابع :

يتكون من سلسلة الجبال الشرقية وتبدأ من جنوبى حمص وتقابل جبل لبنان الغربى بجبل لبنان الشرقى (سنير) (٤٧) ، ثم تنحدر نحو هضبة حوران ومنها الى هضبة الجولان فى الغرب ، ثم الى شرقى الاردن حيث تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة الى جبل سعير جنوبى البحر الميت ٠ والجدير بالذكر فى هذا القسم أن نهر بردى يبدأ من مرتفعات وادى الزبدانى فى جبال لبنان الشرقى ويتجه شرقا ويسقى قسما كبيرا من الاراضى ويمر بمدينة دمشق ويروى بساتين دمشق المشهورة ، ويتفرع هذا النهر الى خمسة أفرع تمر بدمشق ، ويحد هضبة حوران من الشمال الشرقى منطقة اللجا المعروفة (بالوعبر) ، ويطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم على كل من منطقة اللجا ومنطقة الصفا (٤٨) ٠ وقد اتخذت القبائل المتمردة من منطقة اللجا ملجأ ، ولعل هذا يفسر اسم هذه المنطقة كما يقول فيليب حتى ٠ وفى الجنوب الشرقى لهذه المنطقة يوجد جبل حوران أو جبل الدروز ، وبرغم قلة مصادر المياه بهذه المنطقة الا أنها تنتج القمح بكثرة كما تكثر بها المراعى الجيدة ٠ ومن القمم البارزة فى (٤٩) هضبة حوران جبل عجلون وجبل جلعاد الذى عرف عند الصليبيين باسم (La Coac)

---

(٤٥) فيليب حتى : تاريخ سورية ج ١ ص ٤١

(٤٦) Ellen c . Semple : The geography of the Mediteranean Region (London 1932) . P . 42.

(٤٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٣ ص ١٧٠ ، كرد على : خطط الشام ج١ ص ٥٣ ، «مادة سنير» وهو جبل بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة سنير ٠ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص ٣٨ ٠ وعد ابن أبى يعقوب فى كور دمشق جبل سنير وأهله بنو حنبه وبها قوم من كلب » ٠

(٤٨) George A . Smith : The Historical geography of the Holyland . P 615 q , Syria and the Holyland . P . 29 .

(٤٩) فيليب حتى : تاريخ سورية ج١ ص ٤٦ ٠

القســــم الخامس :

والى الشرق من سلسلة الجبال الشرقية سالفة الذكر نجد بادية الشام وهى تكون مثلثا رأسه عند حلب شمالا وقاعـــدته عند خليج الكويت فى الشرق وخليج العقبـة فى الغرب • وأرض بادية الشــــام قاحلة ، وهى امتـــداد لصحراء العرب وهى التى تفصل الشـــام عن العراق وقد سمى الجزء الشرقى من البادية ببادية مابين النهرين • أما الجــزء الجنوبى فيعرف ببادية العراق أو السماوة • وكان سكان البادية منذ عهد قديم يقومون بالتجارة وأعمال الوساطة التجارية أو كأدلاء للقوافل • وبالنظرة العامة لطبيعة بلاد الشام وعلاقتها بشـــبه جزيرة العرب نجدهما تتفقان فى ميلهما العـــام مـــن الغرب الى الشرق ، ومـــن الجنوب الى الشمال ، اللهم الا تلك الهضبات الانكســـارية التى تشرف على الساحل من الشـــمال الى الجنوب (٥٠) الا أننا نجـــد ان اتجاه الظهير السورى من الغرب نحو العراق فى اتجاه مـــن الجنوب الغربى نحو الشمال الشرقى (٥١) •

أما عن مناخ بلاد الشـــام فهو معتدل اذ يقع بين منطقة الرياح التجارية الجافــة التى تهب على الجزء الجنوبى من الشام ومنطقـــة الرياح الغربية المحملة بالرطوبة التى تهب على الجزء الشمالى من الشمال مسببة الامطار ، أما فى فصل الصيف فتسود الرياح التجارية الجافة التى تجعل هواء الشـــام حارا بعض الشىء • فالرياح الغربية التى تمر بالبحر المتوسط تكون محملة بالرطوبة وتقابل جبال لبنان ومنطقـــة التلال الوسطى فترتفع وبارتفاع الهواء يتمدد مما يتسبب فى سقوط الامطار ، وهذا هـــــو تعليل كثرة الامطار التى تسقط على غرب جبال سوريا ، على أن كمية المطر تتناقص كلما اتجهنا شرقا • فدمشق مثلا الواقعة خلف الحاجـــز المزدوج لجبال لبنان لا يصيبهـــا الا القليل من المطر ، كذلك الحال كلما اتجهنـــا جنوبا فتقل الامطار بعد مرتفعات فلسطين الوسطى وتلال شرق الاردن ، أما القســـم الشرقى من شرقى الاردن فلا يصـــبه الا النـــذر القليل من المطر (٥٢) •

وفى الشتاء تأتى البرودة الجافة الاتيـــة من آسيا الوسطى فوق منطقة الهضـــــاب الشرقية فى سوريا وتكون الصـــقيع والثلوج ، ويقل تأثير البرودة كلما اتجهنا صوب الساحل • وتعمل سلسلة الجبال عـــلى منع تسرب الرياح البحرية الباردة من الوصـــول الى داخل بلاد الشام • وفى الصيف تأتى الرياح الحارة الاتية من الشرق والجنوب الشرقى وتســـبب ارتفاع درجة الحرارة • أما رياح السموم أو الشرقية فتهب فى فصلى الربيع والخريف (٥٣) •

(٥٠) محمد السيد غلاب : الســـاحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ ص ٥٢

(٥١) فنجد أن ارتفاع حلب ٣٧٠ مترا بينمـــا بغداد ٣٧ مترا والكرك ٩٥٠ مترا بينما البصرة على مستوى البحر تقريبا ، والكرك ودمشــــق وحلب على خط طول واحد تقريبـــا من هذا يتبين ميل بلاد الشام بوجه العموم (أنظر : De vanmas 1950 P . P . 268 - 272) .

(٥٢) منصور جرداق : هواء جبل لبنان ص ٤١٣ ـ ٤١٤ D . Ashbel
,, Rainfall map of palestin , transjorn ,Southern Syria , Southern Lebanon ,, 3rd . (Jerusalem 1942) o P 127

(٥٣) فيليب حتى : تاريخ سورية جـ١ ص ٥٠

ونشير هنا الى ان مياه الامطار تتسرب فى الصخور الكلسية فيتجمع بعضها تحت الارض ويخرج على شكل ينابيع . ففى الجديدة على مقربة من بحيرة الحولة عشرات من العيون حيث (مرج العيون) . وفى ريحا بجانب حلب (٥٤) . أما المياه التى لاتتسرب فى الطبقات الكلسية فتكون جداول وأنهاراتتحول الى سيول بعد هطول الامطار بغزارة ، اما فى فصل الصيف حيث الجفاف فانها تقل ان لم تجف تماما . ولاشك أن السيول التى كانت تتدفق من المرتفعات العالية قد ساعدت على عامل التعرية والتآكل فى بعض الاراضى التى كانت خصبة فأمست قاحلة اليوم . الامر الذى حدا ببعض العلماء الى الاعتقاد بحدوث تغيرات طبيعية تتجه بالمنطقة نحو الجفاف عبر العصور التاريخية (٥٥) ، على أن انخفاض قدرة الارض على الانتاج نتيجة تعرية سفوح المرتفعات بفعل مياه الامطار والرياح وتضاءل بعض الينابيع والرعى وزوال الغابات التى كانت جذورها تساعد على تماسك التربة الرخوة واهمال وتخريب اعمال الرى نتيجة لهجمات البدو والغزوات ، وانهاك التربة ، لم يكن هو العامل الوحيد فى فقر المنطقة بل زاد الطين بله .

أما فى الجنوب فقد كان يغطى جبال لبنان اشجار الارز وغابات السنديان الفضية والصنوبر وقد أتت عليها يد الاستغلال والنهب والتخريب فى عصور التاريخ المتعاقبة فلم يبق منها الا مساحات ضئيلة من الارز (٥٦) . ولم ينم محل الغابات المزالة غيرها بل حل محلها الماكى وهى شجيرات قصيرة كثيفة ينتجع اليها رعاة الماعز والفحامون ، وقد ساهموا فى تخريب تلك الشجيرات وعرضوا بذلك التربة للتعرية وحيوان الماعز . فالماعز خفيف الحركة يتسلق الصخور والجروف ويصعد الى القمم العالية فيقرض الاخشاب وفروع الاشجار والشجيرات (٥٧) .

ويكفى أن نعرف أن اقليم النجب وهو صحراء مجدبة الآن كانت به مدينة ذكرت فى كتاب يوشع فما بالنا بغيره من اجزاء فلسطين أو سوريا نفسها (٥٨) .

لقد كانت لطبيعة وجغرافية بلاد الشام بالاضافة الى موقعها المتوسط (٥٩) بين دول الشرق الاوسط أثر كبير على تاريخها . فقد كانت منذ زمن بعيد تقوم بدور الوسيط بين الحضارات النهرية الكبرى : حضارة الرافدين وحضارة وادى النيل وبين الحضارات البحرية التى كانت تتخذ البحر المتوسط طريقا لها كالحضارة اليونانية . ولم يكن هذا الموقع الجغرافى مسئولا عن دور الوسيط الذى لعبته فحسب ، بل كان مسئولا عن مزاجها الحضارى ، فقد كانت فى موقع وسط بين العالم السامى من ناحية ، وبين العالم الايجى

---

(٥٤) كرد على : خطط الشام جـ١ ص ٥٥

(٥٥) EllsWorth Huntington , Palestne and itsTransfmatin (Boston 1911) chs 12 - 14 .

(٥٦) Werthington , E . B . Middle East Science London 1945 , P . P . 92 - 99 .
Wealersse , J , & Dudertrat , L . Ibid . P.P . 76 - 89 .

(٥٧) محمد السيد غلاب : الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٥٨) Grant , J , G . The Economic Backgroundof the gosples , (NeW York , 1926) .

(٥٩) محمد السيد غلاب : الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ ص ٢٤ ، ٢٥

من ناحية أخرى ، كما أنها كانت متأثرة بآسيا الصغرى وحضاراتها المختلفة . وكان لموقع بلاد الشام أكبر الاثر فى عبور كثير من الهجرات خلال فترات التاريخ المختلفة فقد عبرته كل الطرق البرية بين البحر المتوسط والخليج العربى عن طريق ممرات طبيعية خاصة هيأتها الطبيعة حيث عرفت سورية باسم المعبر السورى .

وكانت تسلك هذا المعبر قوافل التجار وجحافل الجيوش فقد كانت القوافل لاتجرؤ أن تسلك بادية الشام المجدبة بل كانت تتخذ طريقها عبر نطاق الحشائش شمالا ثم تتجه جنوبا بشرق وقد نجم عن هذا نشوء عدة مدن على حافة الصحراء توازى الساحل من الشمال الى الجنوب وهى مدن حلب وحمص ودمشق وعمان . كما قامت كل من تدمر وسلع (البتراء) فى ذات الوقت كانت هذه المدن محطات ونهايات القوافل البرية متصلة باستمرار بالموانى الساحلية (٦٠) .

وقد ساعدت طبيعة بلاد الشام لكى تكون حلقة وصل بين قارات العالم القديم حيث تكاد تلتقى أذرع المياه الداخلية بالبحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج العربى مما جعل من الساحل الشرقى للبحر المتوسط أهمية اهم طريق يصل بين الخليج العربى والبحر كبرى لاى دولة قامت فى العالم القديم وكان المتوسط ، هو ذلك الطريق البرى الذى يمر شرق نهر دجلة بحذاء مرتفعات فارس ، وهذا هو غربا فى سفوح شمال العراق الى انحناءة نهر طريق السفوح الذى يسير شمال الموصل ويتجه الفرات ثم الى حلب فممر أمانوس حتى البحر المتوسط . وكانت بهذا الطريق محطات مثل نصيبين ورأس العين وحران وقرقميش وحلب . ولقد كان أمام بدو الصحراء سلسلتان المرتفعات السورية هى اللجا والصفا وحوران والدروز بينهما سلسلة من الاخاديد والوديان جعلت اجتيازها صعبا ، وبذلك سيطرت على دخول البدو الى بلاد الشام ولولاها لكان مصير سوريا هو نفس مصير العراق (٦١) .

وقد أتى البدو الى بلاد الشام عن طريق ممرات هى حلب ـ الاسكندرونة فى الشمال واليرموك ومرج ابن عامر فى الوسط ثم النقب وهضبة جنوب يهوذا فى الجنوب . فمن الممر الاول اتصل البدو بغيرهم من الشعوب التى تسكن هضبات آسيا الصغرى لذلك أمسى اقليم حلب مستودعا للعديد من الثقافات . اما الفتحة الجنوبية فكانت أسهل الممرات الى بلاد الشام وعن طريقها تم استعراب جنوب فلسطين قبل غيره من أقاليم بلاد الشام . والتقسيم الطبيعى لبلاد الشام بخطوط مستقيمة تأتى من الشمال الى الجنوب وخطوط انكسارية اخرى تسير عمودية عليها من الشرق الى الغرب ، كان سببا فى وجود قوميات مختلفة بين سكان بلاد الشام ، فلقد كان سكان بلاد الشام فى العصور الوسطى

---

(٦٠) Smith , G . A . Historical geog . of the Holyland 1894 . P . P . 3 - 20 Huntington , E . (1910) . P o 20 .
Semple , E . G . R . 1919 P . P . 153 - 179 .
Kermeck , W . R . Soulhern . Palstineetc . Scot geo , Mag . 1918 . P . P99 - 105
Woolley , L . G . J . 1946 . P . P . 179 - 190 .

معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين وهم السوريان فى الشمال والشرق والسامريون فى الجنوب وبقايا الانباط فى الغرب يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل ايــاد وربيعة ، ويتخلل هذه الجموع شتــات من امم اخــرى كالجراجمة فى جبل اللكام (٦٢) والجرامقة (٦٣) فى شمال الشام واخــلاط من مولد اليونــان والرومــان على شـــواطىء ومولدى الفرس والاكراد فى الشمال وكانت جامعة الدين قــد غلبت على جامعة النســب او الجنس او اللغة فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية كالنصــارى واليهود والســامريين • وينقسم وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة •

على أنه من المفيد هنـــا أن نجمل أهم العوامل التى تركت أثرا عظيمـــا فى المجتمع الاسلامى ببلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولعل من أهم هذه العوامل وضع البـــلاد الجغرافى ، فهى تتكون من بيئــات طبيعية متعددة متبــاينة تجمع بين المتناقضات جميعهــا فهناك الجبل والســهل والصــحارى والاراضى الزراعية والانهار والبحار • وقــد سكن هذه المناطق المتباينة خليط من الســكان والجماعــات المتبــاينة الاجناس والحضارات واللغات والديانات وكذا المذاهب •

أما العامل الثــانى الذى أثر فى تاريخ الشام وفى مجتمعه فهو موقعه كحلقة اتصــال بين القارات الثلاث ومن ثم فقد كان طريقـــا للهجرات التى ارتحلت من قارة الى أخرى كما أنه كان عرضة للحروب والغزوات التى وفدت على الشرق الاوسط ، كما أن حدوده الطبيعية جعلته فى مهب الاطماع •

أما العــامل الثــالث فلعله اكثر العوامل تأثيرا فى المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ونعنى به الطرق التجارية الكبرى التى تتصل به ، منها الطريق الكبير أو كما يسميه فيليب حتى (٦٤) الطريق الدولى العظيم الذى يبدأ من دلتـــا النيل مارا بسيناء حيث يتفرع منه فرع يذهب الى مناجم النحاس والفيروز (٦٥) ، والفرع الثــانى يذهب الى اراضى البخــور وجنوبى الجزيرة العربية (٦٦) • ومن سيناء يتحــول الطريق شمالا نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر ، ومن هنـــاك يتفرع الطريق مرة اخرى الى فرعين احدهما يتجــه الى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانى الشــامية • ويسير الفرع الاخــر الى الداخل فيجتاز ســهل مجدو ويعبر الاردن فى واديه الشمالى ثم يتجه رأسا الى دمشـــق فى الشمال الشرقى (٦٧) • وفى مدينة دمشـــق يتفرع الطريق الكبير الى ثلاث شعب أحدهم

---

(٦١) فالعراق سهل منبســـط لا تقوم دونه الحواجز ، استطاع الساميون منذ الالف الثالث قبل الميلاد أن يتجاوزوه بسهولة ويقيموا فيه دولة بابل على انقاض دولة السوريين ولهذا كان تأثر العراق بالسامية تاما وكاملا •

محمد السيد غلاب : الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ ص ٤٤ •

(٦٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٦ (٦٣) أبو الفرج الملطى : مختصر الدول ص ١٣١

(٦٤) فيليب حتى : تاريخ سورية جا ص ٦٤

(٦٥) عباس عمــار : المدخــل الشرقى لمصر ص ٢٣ ، أحمد فخرى :

(٦٦) Alois Musil : Arabia Deserta P. 392 — 3 (1927).

(٦٧) ArchDuck Ludig : The caravan Rout between Eghpt and Syri (Trans. from german 1881) P. 76.

يعبر بادية الشام مارا بتدمر حتى يصل الى بلاد الرافدين والثانى يتجه نحو الغرب فيعبر لبنان الى البحر المتوسط والثالث يصعد شمالا عبر سورية متبعا نهر العاصى الى شمال سورية (٦٨) •

كان هذا الطريق تحمل منه مباشرة احمال العاج والذهب من افريقية والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبى بلاد العرب ،والكهرمان والحرير من آسيا الوسطى والصين، والقمح والاخشاب من سهول سوريا وجبالها (٦٩) • وانه كان ينقل بطريق غير مباشر الحضارات والثقافات المختلفة الى أثرت دون شك فى الحضارة السورية •

ويكاد يكون العامل الرابع من العوامل التى انفرد بها الشام وهو الصراع المتواصل بين البدو (٧٠) والحضر المستقرين وخاصة فى أطراف الشام الشرقية والجنوبية • فقد كانت هناك غزوات متكررة يقوم بها البدو والطامعون فى حياة الرخاء التى يتمتع بها سكان الحضر فى الاراضى المجاورة • والمتصفح لتاريخ سورية يجد أنه قصة متصلة الحلقات للموجات المتتالية التى كان يقوم بها سكان البادية محاولين تارة بالطريق السلمى وأخرى بالعنف والقوة احتلال الاراضى الزراعية (٧١)،ذلك أن الاقوام الرحل الذين ينتقلون من مكان الى آخر سعيا وراء الكلأ والمراعى ،كانوا أسرع حركة وأشد احتمالا من أهل الحضر المستقرين •

---

(٦٨) عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ص٣٠

(٦٩) Heyd : Histoire du Commerce du Levant au moyen Age. P. 16

(٧٠) Maspero: The Struggle of Nations. P. 282.

(٧١) Gardiner: The Military Road between Egypt and Palastine. P. 37.

الباب الأول

البناء الاجتماعى للمسلمين فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية

الفصل الاول نظرة عامة فى احوال بلاد الشام السياسية فى عصر الحروب الصليبية

١ ـ نهاية النفوذ الفاطمى ببلاد الشام .
٢ ـ الصليبيون والزنكيون .
٣ ـ نهاية النفوذ الصليبى ببلاد الشام على أيدى صلاح الدين وخلفائه من الايوبيين والمماليك .

الفصل الثانى ـ عناصر السكان :

١ ـ العرب والبيوت العربية الحاكمة فى طرابلس وشيزر وغيرها .
٢ ـ العناصر غير العربية :
الاتراك السلاجقة ـ الاراتقة ـ الاتابكة ـ الاكراد .
٣ ـ أهل الذمة ـ السريان ـ الارمن .

الفصل الثالث ـ الفرق الدينية :

١ ـ السنة .
٢ ـ الشيعة .

ان الموضوع الذى سنبدأ به دراستنا للمجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ، والذى نستطيع فى ضوئه أن نتحدث بالتفصيل عن أهم الظواهر الاجتماعية طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، هو الكشف عما نسميه بالبناء الاجتماعى للمسلمين فى بلاد الشام فى الفترة سالفة الذكر • وسوف تدور الدراسة حول ثلاث نواح :

الناحية الاولى : أحوال بلاد الشام السياسة فى عصر الحروب الصليبية •

الناحية الثانية : عناصر السكان من عرب وأتراك وسلاجقة وتركمان وأكراد الذين عاشوا أحداث هذه الفترة الهامة من تاريخ بلاد الشام فى العصور الوسطى •

الناحية الثالثة : الفرق الدينية ••

الفصـــل الأول

نظرة عامة فى أحوال بلاد الشـــام السياسية فى عصر الحروب الصـــليبية

١ ـــ نهاية النفوذ الفاطمى ببلاد الشام :

ساءت أحوال بلاد الشام فى الوقت الذى تنازعت فيه السيادة عليها الدولة الفاطمية وهى شيعية المذهب والدولة العباسية السنية المذهب خاصة عندما ساءت أحوال هـــاتين الدولتين بسبب ازدياد نفوذ الوزراء العظام فى الاولى وتفاقم سلطان بنى بويه وسيطرتهم على الخلفاء فى الثانية . ولم يقتصر الامر عـــــلى ذلك ، فقد ظهرت على مسرح الاحـــــداث فى بـــلاد الشام قوة فتية هى قوة الاتراك السلاجقة ، الذين بدأت دولتهم من بيت ألب أرسلان (١٠٩٤م / ٤٨٧هـ) واستمرت حتى (سنة ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ) .

وكان لظهور دولة السلاجقة فى بـــــلاد الشـــام ، أثر كبير فى تغير ميزان القوى مرة أخـــــرى بين المسلمين والبيزنطيين فى منطقة الشرق الادنى (٢) ، والـــذى كان مـــن أول نتائجه المباشرة هو مجىء الحملة الصـــــليبية الاولى . ذلك أن انتصار السلاجقة فى موقعة (مانزكرت) على الامبراطورية البيزنطية فى نهاية القرن الحادى عشر ، الســـــبب المباشر للدعـــــوة للحـــرب الصـــليبية فى الغـــرب الاوروبى (٣) .

ولا نود هنا أن ندخل فى تفاصيل الاسباب التى ادت الى قيام الحرب الصليبية كما لا يهمنا أن نتتبع سير الحروب والمعارك . وانما الذى يعنينا بالنسبة لموضوع بحثنا هو الظروف التى أحاطت ببلاد الشام ابان الحروب الصليبية . ومن ثم فاننا سنتناول فى ايجاز شديد مجريات الحوادث فى بلاد الشـــام فى تلك الفترة حتى تكون الرؤيا واضـــحة لمعـــرفة الظروف التى أحاطت بالبناء الاجتماعى للمسلمين فى بـــلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

ان الحروب الصليبية بمعناها العـــام قد بدأت فعلا قبل القرن الحادى عشر ، أما التنفيذ الفعلى وارســـال الحملات فلم يبدأ الا بحلول القرن الحادى عشر . فقد بدأت المرحلة النشطة فى الحركة الصليبية بارســـال حمـــلات كبرى لاســـترداد بيت المقدس من المسلمين . ولكن ما ان جاءت الحملة الاولى الى طرسوس حتى وقع الخلاف بين قادتها فقد اخذ كل واحد منهم ينفرد بخططه الخاصة بقصـــــد التوســـــع المحلى (٤) . فتحول بلدوين شرقا واحتل الرها (سنة ١٠٩٨ م) وهى وقتئذ تحت حكم الامين (٥) .

---

(١) ابن العبـــرى : تاريخ مختصر الـــدول ص ١٨٥ .

(٢) Setton: A History of the Crusades, vol. 1. P. 140

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٧٨

(٤) Stevenson (W.B): The crusaders in the East. P. 23

(٥) سعيد عاشور : سـلطنة المماليك ومملكة ارمينيا ص ١٤٣

واستطاع الامير بلدوين أن يحرز تقدماكبيرا وأن يستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع فى شمال الجزيرة ، وذلك بفضل مساعدة العنصر الارمنى ، الذى كانت له السيادة فى تلك الجهات ، والذى نظر الى تقدم الصليبيين بعين الرضا للخلاص من حكم السلاجقة . والواقع ان الصداقة التى قامت بين الارمن والصليبيين فى اول الامر انما كانت تستهدف مواجهة العدو المشترك ممثلا فى الدولة البيزنطية من ناحية القوى الاسلامية من ناحية أخرى (٦) . والواقع ان اماراة الرهاكانت عندئذ أشبه بجزيرة أرمنية مسيحية محاطة من كل الجهات بممتلكات السلاجقة بحيث بدا من المتعذر ان القدر الذى ينتظرها على أيديهم . ومن ثم فقد كان وصول الفرنج الى بلاد الشام فرصة مواتية لها (٧) .

على ان معظم الجيش الصليبى كان فى هذه الاثناء يتدفق على بلد الشام ، فقد كانت هى هدفه الاول . وكان يحكم شمال الشام امراء من السلاجقة مستقلون استقلالا فعليا ، وكانت أقسام أخرى منها فى قبضة زعماء محليين من العرب . فطرابلس وما حولها مثلا كان يحكمها منذ (سنة ١٠٦٩م / سنة ٤٦٥ هـ) بنو عمار وهم من الشيعة (٨) ، وشيزر فى منطقة العاصى تحت حكم بنى منقذ (٩) . هذا فضلا عن المنازعات المحلية والشقاق الاخوى بين الامراء ومشكلات الوراثة ، التى ولدت حالة مزمنة من الوضع القلق (١٠) .

أما أهل البلاد فقد كانوا بعيدين عن تكوين أى جهة داخلية موحدة ، ذلك أن الفرق العديدة التى تفرعت من الاسلام ، أخذت فى اقتسام البلاد ، فاعتصم الدروز فى جنوبى لبنان ، واستوطن النصيرية جبال سورية الشمالية ، واستقر الاسماعيلية ثم الحشاشون الى الشرق من مواطن النصيرية (١١) . وكان موارنة الجزء الشمالى من لبنان لايزالون يتكلمون السريانية (١٢) .

وبينماكان بلدوين يعمل فى محيط الجزيرة ، زحف بقية الجيش الصليبى الكبير على شمال الشام قاصدا انطاكية (١٣) . وقد أحدث وصول الفرنجة الى مشارف الشام هلعا كبيرا فى قلوب الاهالى ، ولما علم بذلك أمراء الشام من المسلمين قد رأى أصحاب أنطاكية وحلب

---

(٦) وتؤكد بعض المراجع بأن بلدوين اتجه تحت تأثير نصيحة الارمن تجاه الشرق بدلا من الاتجاه الى السهل القيليقى واصبح بذلك على اتصال مباشر بالقوات الارمينية .

(Pasdermadjian (H): Histoire de l'Armenie P. 201.

(٧) يقال أن أعيان الرها ومجلس شيوخها عندما علم بتهديد بلدوين بترك البلد والعودة من حيث أتى ، اغروه بالذهب والفضة ولكن ذلك لم يجد معه نفعا ، لذلك توجهوا الى حاكم الرها (ثوروس) وتوسلوا اليه الا يسمح بهذا الرجل النبيل والمدافع القوى بالعودة ، وأن يتخذه أى بلدوين شريكا لنفسه من أجل المحافظة على مصير الامارة (علية عبد السميع : امارة الرها الصليبية ص٥٣)

(٧) Grousset (R.) Histoire d'Armenie P. 53

(٨) Wiet (g): Memorial, Henri Masset, vol. II P. 279

(٩) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٣٥

(١٠) فليب حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ص٢٢٥ .

(١١) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٧٠ ، الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(١٢) اسطفان الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ص ١٩ — ٢٠ .

(١٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

ودمشق وغيرهم من صغار الامراء على الاستصراخ والاستنجاد (١٤) وتحصين أنطاكية واخراج النصارى نها • وقام رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق بمحاولات يائسة لفك الحصار الصليبي عنها • لكن الأمداد التى أرسلت اليهما ردت فى أعقابها (١٥) •

ولما سقطت انطاكية فى ايدى الصليبيين عادت عساكر الشام فتجمعت وحاصرت الصليبيين فى أنطاكية حتى عدم القوت منها وأكل الفرنجة الميتة ، فزحفوا وهم فى غاية الضعف على المسلمين ، وهم فى غاية من القوة • ومع ذلك هزم المسلمون وتفرقت جموعهم • ويعلل ابن القلانسى (١٦) السبب فى هذه الهزيمة فيقول : أن صاحب الموصل كان فى عسكره فى حصار أنطاكية مع صاحب دمشق وصاحب حلب وحمص وغيرهم من الامراء ، فأساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والامراء ، وتكبر عليهم ، فخبثت نياتهم على (كربوغا) صاحب الموصل فهزمهم عدوهم وهو فى ضعف وهم فى قوة •

وبعد انهزام المسلمين امام الفرنج فى أنطاكية ، سار هؤلاء بجملتهم الى المعرة (١٧) ففتحوها وغدروا بأهلها ومن احتمى فيها ، وقطعوا على أهلها القطائع التى لم يفوا بشىء منها ، كما طالبوا الناس بما لا طاقة لهم به • ثم استأنفوا سيرهم فى وادى العاصى محتلين فى طريقهم حصن الاكراد ، ذى الموقع الحصين المسيطر على الممر الخطير الذى يصل بين السهول الساحلية وسهل العاصى (١٨) • ثم رحلوا عن طريق الساحل قاصدين بيت المقدس هدفهم الاول ، فأجفل الناس من أماكنهم ، وكانت حلب (١٩) على قيد خطوة من خطر استيلاء الفرنج • ولكنهم أعلنوا يوم وصولهم، انهم لايقصدون الا الاستيلاء على ماكان للروم أى للبيزنطيين من المدن ، ليصرفوا فكر حكام الشام عن نجدة أهل انطاكية ، لكن أمراء المسلمين لم يصغوا لهذه الدعوة •

وتوجه الصليبيون بعد ان اجتازوا معظم الثغور حتى وصلوا الى الرملة (٢٠) فملكوها وانتقلوا الى بيت المقدس فضيقوا عليها الخناق فجاءهم الافضل شاهنشاه ، وزير الخليفة المستعلى الفاطمى فى جيش كثيف من مصر للايقاع بهم وانجاد البلاد • ومن العجيب أن المسلمين ظلوا حتى وصول الفرنجة الى بيت المقدس ، متفرقين متخاذلين لاتربطهم

---

(١٤) ابو الفداء : ج ٢ ص ٢٣٠ ، ابن الاثير ج ١٠ ص ١٨٧ •
(١٥) ابن القلانسى : ص ١٤٢ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١٥٣ •
(١٦) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢ •
(١٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ •
(١٨) يعرف هذا الحصن بقلعة الحصن ، الذى اقيم على انقاض قلعة قديمة بناها احد امراء حمص (سنة ١٠٣١ م/سنة ٤٢٧ هـ) وجعل فيها جماعة من الاكراد •
فيليب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ص ٢٢٧ •
(١٩) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٦٥ — ٨١ •
(٢٠) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ ، محمد كرد على : خطط الشام ج ١ ص ٢٨٢ •
Stevenson: The Crusaders in the East. P. 33

رابطة ولاتجمعهم نخوة الاســــلام ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى انهم ظلوا حتى ذلك الوقت لايدركون طبيعة الحركة الصـــليبيةوهدفهــــا (٢١) ، وليس أدل على ذلك من رغبة الفاطميين فى مصر فى التحالف مع الفرنجة حتى يقفوا معهم ضـــد خصومهم من أهل السنة ، العباسيين فى بغداد والسلاجقة فى بــــلاد الشام (٢٢) •

وقد ركب الصـــليبيين فى فتـــح بيت المقدس حقـــد أعمى لم يســــبق له مثيل (٢٣) ، مما أخذه عليهم المنصـــفون من مؤرخيهم (٢٤) ، فقد كانوا يلقون المسلمين من أعــــالى البروج ويجعلونهم طعاما للنــــار ويخرجونهم من الاقبية وأعمـــاق الارض ويجرونهم فى الساحات ويقتلونهم فوق جثث الادميين • امــــا عن عدد القتلى من المسلمين فيقول ابن العبـــرى (٢٥) : « ولبث الفرنج يقتلون فى المسلمين بالقدس أسبوعا ، وقتل من المسلمين فى المسجد الاقصى مايزيد عن سبعين (٢٦) ألف نفس منهم جماعة كبـــيرة من أئمـــة المســـلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور فى ذلك الموضع الشريف وغنموا مالا يقع عليه الاحصاء • ولم يكن اليهود أحسن حـــالا من المسلمين ، فقد جمعهم الفرنج فى الكنيسة وأحرقوها عليهم وهدموا المساجد وقبر الخليل وأحرقوا المصاحف (٢٧) •

وبعد فتح الصـــليبيين لبيت المقـــدس ،توغلوا فى البلاد ، وكانوا فى كل بلـــد يدخلونه يقتلون أهله ويخربون عمرانه ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره ، فهام الناس على وجوههم فى البرارى ومنهم من قصد الى داخل الشــــام ومنهم من فر الى مصر فى حالة رثـــة (٢٨) • وفى (ســـنة ١١٠٣ م / ســـنة ٤٩٢ هـ) ملك الفرنج ماحول بيت المقدس من مدن صور وعكا والرملة ويافا • كما بسطوا سيطرتهم على اقليم السواد (سواد طبرية) شرقى بحيرة طبرية ، وأوغلوا حتى اقتربوا من دمشق نفسها (٢٩) اما بقية مـــدن الســــاحل كطرابلس وبيروت واللاذقية ، فقد بقيت تقاوم ، معتصـــمة وراء أسوارها محصورة فى بقعة ضيقة من أرباضها معتمدة على معاونة الفاطميين لها من البحر •

كذلك عمل الصـــــليبيون بعد ان توطدت اقدامهم فى بيت المقدس على توسيع ممتلكاتهم

---

(٢١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ١٩٧ •
(٢٢) Chalandon: Premiere croisade. P. 196.
(٢٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ •
(٢٤) Michaud (J.F): Histoire des croisades. vol. 1 P. 425
(٢٥) ابن العبرى : تـــاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ •
(٢٦) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، Guillaume de Tyr. Vol. 1 P. 354.
(٢٧) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٠ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ •
(٢٨) ابن القلانسى : ص ١٧١ ، Grousset: Histoire des croisades vol. 1 P. 186.
(٢٩) Runciman: A History of the crusades vol 1. P. 311

جنوبا على أمل الاستيلاء ولو جـزئيا ، علىتجـــارة البحر الاحمر والمحيط الهندى (٣٠) ومن ثم فقد أقاموا القلاع والحصون ، وذلكلتهديد طريق القوافل من دمشق الى مصر والى الحجاز ،كانت قلعة الشوبك وحصـن الكرك ،بحكم موقعهما ، أمنع الحصون السـبعة التى أقاموها فى تلك المنطقة (٣١) .

وعنـــدما توفى بلدوين الاول ملك بيت المقدس سنة ١١١٨ م ،كانت مملكته قد امتدت من العقبة الى بيروت ، الا ان صور بقيت بيد المسلمين حتى سنة ١١٢٤ م ، وذلك بفضـــل قيامها على شبه جزيرة حصـــينة . كما بقيت عسقلان بيدهم حتى سنة ١١٥٣ م ، اما مـن حيث الاتســـاع شرقا فان المملكة لم تتجاوز وادى الاردن (٣٢) . وعنـــدما توفى بلدوين الثانى سنة ١١٣١م ، كانت المملكة اللاتينية مع اقطاعاتها الثلاث فى الشـــمال ، وهى طرابلس وانطاكيــــة والرها ، قد اكتملت وكانت تدين بالولاء الانسمى لملك بيت المقدس .

وهكذا نرى ان الصليبيين قد استطاعــوا حتى النصـــــف الاول من القرن الثانى عشر الاستيلاء على شمال وجنوب بلاد الشـــام . أما المنطقة الوسطى ، فلم يكن بها غير منطقـــة مسيحية صغيرة تحيط بها بلاد اسلامية مترامية الاطراف ، ولم يكن بين مدنها مايبعد عن العدو (المسلم) أكثر من مسيرة يوم واحـــد (٣٣) . أما المدن الداخليـــة مثل حلب وحمص وبعلبك ودمشق ، فلم تقع بيد الفرنج مع انهـــا كانت هدفا لغارات تشن عليها بين الحين والحين ، كما أجبرت أحيانا على دفع الجزية (٣٤) .

وكان عـــدد الفرنجة قليلا فى ولاياتهم الخاصة ، فقد كانوا حتى فى مدينة المقدس أقلية ضـئيلة ، ذلك ان كثيرين منهم بعـــد ان تحقق الاستيلاء على بيت المقدس اعتبروا ان تعهدهم قد انجز وعادوا أدراجهم الى أوطانهم . هــذا ولا يخفى ان بقاء مثل هذه الامارات الصليبية الغربية كان رهنا بوصول امدادات جـــديدة من المجندين بصورة متواصلة من أوروبا . ولو أضفنا الى الاعتبارات السابقة ان الصـــليبيين ظلوا معظم الوقت فى بلاد الشام مجتمعا مفككا لا تربطه جنسية ولا لغة واحـــدة ولا تجمعهم قيادة موحدة ، لتبين لنا السر فى ضـــعف الاثر الذى تركوه فى المجتمع الاسلامى رغم بقائهم فى بلاد الشام قرنين من الزمان .

---

(٣٠) فيليب حتى : تاريخ ســوريا ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٣١) Camille Enlart: Les Monuments croisées vol. I P. 119

(٣٢) فيليب حتى : تاريخ ســوريا ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣٣) William of Tyre vol. II P. 413

(٣٤) لقد أدت دمشق جزية لبلدوين الثانى (سنة ١١٢٦ م / ٥١٤ هـ) سهل البقاع الذى كان تابعا لهـــا .
(ابن الاثير حوداث سنة ٥١٤ هـ) . كمـــا دفع نـــور الدين جزية مقدارهـــا مبلغ (٨٠٠٠) دينار سنة ٥٥٢ هـ . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق سنة ٣٣٦) .
Gibb (H.A.R) The Damascus chronicale of the crusades P. 237

(٢) الصليبيون والزنكيون :

ولم يكد عماد الدين زنكى (٣٥) يظهر على مسرح الاحداث (سنة ١١٢٨م / ٥٢١ هـ) ويستولى على حلب حتى عزم الجهاد • اذ لم يكد يرسل له صاحب دمشق يلتمس منه العون على حرب الفرنجة حتى بادر الى تجريد وجوه عسكره ، وكتب الى ولده بحماة يأمره بالخروج فى عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقى • ولم يكد عماد الدين زنكى يطمئن الى جبهة العراق ويحصل على تأييد الخليفة المقتفى العباسى والسلطان مسعود السلجوقى ، حتى انصرف الى ميدان الشام (٣٦) • وقد بدأ عماد الدين بتوجيه هجماته ضد المراكز الصليبية شرقى نهر العاصى (سنة ١١٣٥ م / سنة ٥٣٢ هـ) واستولى على الاثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفرطاب (٣٧) • ولكى يعيد المسلمين الى أوطانهم التى اخرجوا منها قام زنكى بعدة غارات على مناطق شيزر وحمص وقنسرين حتى عاد الى الموصل (٣٨) •

وقد وجه زنكى أولى حملاته على الرها ، حصن الفرنجة الشمالى (سنة ١١٤٤ م / سنة ٥٣٩ هـ) واستولى عليها بعد حصار دام اربعة أسابيع ، وهكذا سقطت أولى الولايات الصليبية والتى كان وقع خبر سقوطها على أوروبا ، باعثا على تجهيز الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م •

أما عن أهالى الرها فقد تسامح (٣٩) زنكى مع العنصر السريانى وشجع الموجودين منهم بالمدينة وأعطاهم كثيرا من الامتيازات التى حرمها على الارمن (٤٠) الذين تضامنوا مع الصليبيين فى الماضى • وبذلك استطاع عماد الدين ان يكتسب الى جانبه السريان الوطنيين وان يقيم منهم جبهة مؤيدة له ضد الغزاة من الفرنجة ، وهى نفس السياسة التى انتهجها صلاح الدين فيما بعد (٤١) • على ان الارمن لم يرتاحوا لتلك التفرقة فى المعاملة ، فاستغلوا فرصة صغر حجم الحامية الزنكية فى المدينة وتآمروا مع الفرنجة للتخلص من النفوذ الاسلامى (٤٢) •

---

(٣٥) قال ابن الاثير (التاريخ الباهر ص٢٨ — ٢٩) عن عماد الدين زنكى « ولولا ان الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد (زنكى) لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه » . اذ لم يكد يظهر زنكى حتى تبدل الفرنج من مهاجمين الى مدافعين والمسلمين من مدافعين الى مهاجمين حتى انتهى الامر بالنصر المؤزر للمسلمين وذلك بخروجهم من آخر معاقلهم فى عكا فى نهاية القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى . ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٣٦ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٨ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٦٥٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٦٣ .

(٣٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٢١٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٢

(٣٧) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص٦٧١

(٣٨) ابن الاثير : الكامل فى حوادث سنة ٥٣٢ هـ .

(٣٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ص ٢٧٩ أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٥

(٤٠) Grousset: Histoire de l'Armenie P. 184

(٤١) علية عبد السميع : امارة الرها ص٣٤٩ Grousset: L,Epogedes croisade P. 164.

(٤٢) ابن القلانسى : ذيل دمشق ص ٢٨٢ Michel: Le Syrien. P. 268.

وانتقلت الزعامة الاسلامية من عماد الدين زنكى الى ابنه نور الدين محمود الذى استطاع انتزاع دمشق من أحد خلفاء ظفتكين (سنة ١١٥٤ م / سنة ٥٥١ هـ) . أما عن المدن التى كانت خاضعة للاسماعيلية مثل صرخد (صلخد) وبصرى وبانياس وغيرها من المدن الواقعة فى منطقة دمشق ، فربما عمدت أحيانا الى التماس العون من الفرنجة لمواصلة كفاحها ضد المسلمين الاخرين (٤٣) . أما بنوفضل المنحدرون من طى وهم أوسع القبائل انتشارا فى بادية الشام ، فاننا نجدهم يحالفون الصليبيين تارة والفاطميين تارة أخرى (٤٤) .

ويجب أن نذكر فى هذا المقام ، ان الصليبيين كانت لديهم فرق خفيفة من الفرسان عرفت بأبناء الاتراك (٤٥) كان كلهم من المسلمين المدربين ، كما كان لديهم فرق من المشاة الارمن وأخرى من النبالة الموارنة .

وبعد ان فرغ نور الدين من مشاكله مع بعض امراء المسلمين فى العراق والشام بدأ يوجه جهوده من جديد تجاه المشكلة المصرية ، رغبة منه فى تحقيق الفائدة المرجوة من وضع القدس بين شقى الرحى من الشمال والجنوب . فأرسل أسد الدين شيركوه الى مصر ، الذى استطاع بعد عدة انتصارات حققها فى ميدان الحرب والسياسة ان يتولى وزارة الخليفة العاضد (سنة ١١٦٩ م / سنة ٥٦٥ هـ) ، وبعد وفاته انتقلت شارتها من بعده الى ابن أخيه صلاح الدين الايوبى (٤٦) .

(٣) نهاية النفوذ الصليبى فى بلاد الشام على ايدى صلاح الدين الايوبى وخلفائه من الايوبيين والمماليك :

واذا كان عهد الانتصارات والفتوحات الاسلامية فى بلاد الشام قد استهلها عماد الدين زنكى ، فان صلاح الدين قد اختتمها بانتصاراته الباهرة (٤٧) . فقد عمد صلاح الدين منذ وطئت اقدامه أرض مصر على تحقيق ثلاثة أهداف (٤٨) ، أولها احلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى فى مصر وثانيها توحيد مصر والشام تحت سلطة واحدة وثالثها مواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وقد حقق الهدف الاول بعد وفاة الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية (سنة ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ) وأحل اسم الخليفة العباسى المستضىء فى خطبة الجمعة « دون أن ينتطح » فى ذلك عنزان » (٤٩) . أما هدفه الثانى فقد حققه بعد

---

(٤٣) أبو الفداء جـ ٣ ص ٢ – ٣ ، ابن القلانسى ص ٢٨٩ – ٣١٦ .
(٤٤) ابن خلدون : التاريخ جـ ٦ ص ٦ ، Tritton: op cit. P. 567
(٤٥) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٤٢٥ ، اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥١
(٤٦) ابو شامة : جـ ١ ص ١٦٠ – ١٦١ ، سبط ابن الجورى ص ١٧٥ .
(٤٧) أبو الفداء : المختصر جـ ٣ ص ٤٧ .
(٤٨) ابن الاثير : جـ ١ ص ١١ ص ٢٢٣ ، أبو شامة جـ ١ ص ١٥٥ .
(٤٩) أبو الفداء : جـ ٣ ص ٥٣ .

وفاة نور الدين ، فقد استطاع انتزاع سورية من اسماعيل بن نور الدين وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره (٥٠) .

وبعد أن تحقق لصلاح الدين الهدفان الاولان ، بات فى حكم المتوقع تحقيق الهدف الثالث ، الذى بدأ بسقوط طبرية وانتهى بحطين (٥١) ، (سنة ١١٨٧ م / سنة ٥٨٣ هـ) التى قضى فيها قضاء مبرما على جيش الصليبيين ، ولم تقم لهم بعدها قائمة . فقد غدت بلاد الشام الصليبية غداة موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين ، فشرع يفتتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد أخرى . فقد استسلمت القدس بعد حصار دام اسبوعا واحدا ، ثم اتجه جيش صلاح نحو الحصون الباقية ، فجر فى طريقه الشوبك والكرك الى الجنوب وقلعة كوكب والشقيف (٥٢) ارنون وصهيون الى الشمال . ثم سقطت عسقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبلة اللاذقية جميعها قبل نهاية (٥٣) ، (سنة ١١٨٩ م / ٥٨٥ هـ) . ولم يبق فى يد الفرنجة الا صور وطرابلس وانطاكية وبعض المدن والحصون الصغيرة (٥٤) .

لقد أثار خروج بيت المقدس من ايدى الصليبيين أوروبا ودفعها الى اعداد حملة ثالثة ساهم فيها كل ملوك أوروبا فى ذلك الوقت (٥٥) وبوفاة صلاح الدين (سنة ١١٩٣ م / سنة ٥٨٩ هـ) (٥٦) بدأت الحقبة الثالثة فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهى فترة تمتاز بالفتن بين صفوف المسلمين ، فقد انقسمت سورية بين ابنى (٥٧) صلاح الدين . على ان الملك العادل أخا صلاح الدين قد احرز بعد ذلك بوقت قليل السيادة على جزء كبير من سورية (٥٨) . وقد حاول الملك العادل طيلة حكمه المحافظة على الصلات الودية مع الصليبيين بهدف تحقيق السلام وتنمية الصلات التجارية مع الايطاليين (٥٩) . وقد توالت على حكم مصر وسورية بعد العادل سلاطين وملوك بنى أيوب ، الا ان الاضطرابات والمنازعات التى نشبت بين

---

(٥٠) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٨ .

(٥١) حطين فوة بركان خامد وفى الاخبار ، ان عظة السيد المسيح كانت فى هذا المكان . (فيليب حتى : تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٣٧) .

(٥٢) حصن جديد بناه الصليبيون فى الاردن الى الشمال من بيسان وكان اسمه (كوكب الهواء) (فيليب حتى : ج ٢ ص ٢٢٩) .
يقع على صخرة على نهر الليطانى وتبدو وكأنها عش نسر . وكلمة شقيف لفظة سريانية معناها الصخر العظيم وارنون بمعنى السيل المندفع .
(فيليب حتى : ج ٢ ص ٢٣٩) .

(٥٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٩ ، ١٠١

(٥٤) ابن شداد ص ٦٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٣ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٨ ، Ernoul and Bernard: le Tresories P. 172.

(٥٥) ابن واصل : ج ٢ ص ٣٢٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٣ .

(٥٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٥ .

(٥٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٢ ، ابن واصل : ج ٣ ص ٧٤ .

(٥٨) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١١٧ ، ابن الاثير فى حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(٥٩) ابو الفداء : ج ٣ ص ١٤٨ .

افرادها ، جعلت كثيرا من المدن التى اخذهـا صلاح الدين مثل بيروت ، وصفد وطبرية ، بل والقدس (سنة ١٢٢٩ م) تعود تباعا الى ايدى الصليبيين • فقد تخلى السلطان الكامل ابن العادل عن القدس لفردريك الثانى ملك صقلية بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات على ان يقدم فردريك مقابل ذلك العون الكامل على أعدائه وجلهم من الايوبيين (٦٠) •

الا ان الصليبيين لم يكن بوسعهم ان يستغلوا هذا التفسخ ، لان الشقاق كان قد دب أيضا فى صفوفهم ، فاشتدت المنافسة بين أهل جنوة وأهل البندقية (٦١) ، واستحكم التحاسد بين الفرسان الداوية والفرسان الاسبتارية ، فنشب النزاع بين زعمائهم ، الامر الذى جعلهم يلجأون الى تأييد المسلمين ضد الجانب الاخر ولو تركنا الجانب الاسلامى فى بلاد الشام ونظرنا الى احوال الصليبيين ،لوجدنا ان السنوات التى اعقبت رحيل الامبراطور فردريك (٦٢) الثانى من الشام شهد اضطراب احوال الصليبيين فى الشرق الادنى عامة ، سواء فى بلاد الشام أو قبرص •فقد حاول فردريك قبل رحيله ان يخضع امراء الشام الصليبيين بالطرق الودية بعد ان فشلت تجربته فى اخضاعهم بالقوة ، ولكن امراء الشام لم يرتضوا كذلك الاسلوب الودى (٦٣) •

ولم تكن احوال الصليبيين فى شمال الشام فى تلك الفترة أكثر استقرارا منها فى الجنوب فقد تجددت المنازعات مرة أخرى بين امراء انطاكية وطرابلس وملك ارمينية الصغرى (٦٤) وذلك بسبب التنازع على الملك وطمع الداوية فى الاستيلاء على بعض أملاك أرمينية الصغرى (٦٥) • ومن ثم فقد دخل الصليبيون فى بلاد الشام مرحلة جديدة من مراحل تاريخهم بالارض المقدسة ، اتصفت بالمنازعات والحروب الاهلية فيما بين الامراء والملوك من ناحية ، وبين فرق الدواية والاسبتارية (٦٦) من ناحية أخرى •

ولعل ابرز الاحداث التى وقعت فى منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) هو قدوم لويس التاسع ملك فرنسا قائدا للحملة الصليبية السابعة ضد مصر ، بعد ان قضى اربع سنوات فى بلاد الشام حصن فى أثنائها يافا وقيسارية وعكا وصيد (٦٧) •

---

(٦٠) Runciman: op. cit. vol. III P. 113
سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثانى والشرق العربى : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١١ (١٩٦٣) ص ١٩٥ – ٢١٣ •

(٦١) ابن الاثير ج ١٢ ص ٣١٥ •

(٦٢) Richard: Le Royanme Ialin P. 246

(٦٣) Runciman: op. cit. vol. III P. 203.

(٦٤) Iorga: L'Armanie Cilicienne. P. 120

(٦٥) L' Estoire d' Eracles vol. II P. 405

(٦٦) King (E.J) The knight Hospitallers in the Holyland P. 224
نبيلة مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (رسالة ماجستير لم تنشر – كلية الاداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ الفصل الثانى) •

(٦٧) لاتزال خرائب الحصن فى صيدا الذى اتخذه الفرسان الهيكليون مركزا لهم باقية حتى الان (فليب حتى ج ٢ ص ٢٤٣) •

وبرغم الصبغة الدينية التى اتصفت بها الحملة الصليبية السابعة ، الا انها اتخذت طابعـــا صليبيا فرنسيا (٦٨) • وقد كانت هذه الصـبغة الفرنسية سببا قويا فى النجـاح المعنوى الذى احـرزته تلك العملية وخاصـة فى بـلاد الشام (٦٩) ، فقد كان الصليبيون أنفسهم فى القرن السابع الهجرى فى بلاد الشـام يغلب عليهم الطابع الفرنسى ، كما كان كبار الامراء ينحدرون من أصل فرنسى • واذا اضفنا الى هـذا أن البيوت الحاكمة فى انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وعـكا ويافا ، كان معظمهم يرتبط بفرنسا من ناحية الاصل والميول ، لعرفنا السبب فى الترحيب بلويس التاسـع وامداده بفرق من جندهم تعمل معه وتأتمر بأمره (٧٠)•

وقد ساءت أوضاع الصليبيين فى بـلاد الشام ، بسبب الحروب الداخلية ، كما سـبق القول ، فى الوقت الذى كانت دولة المـماليك ، قد نجحت فى انزال الهزيمة بالمغـول فى عين جالوت ، وفى التخلص شـيئا فشيئا من امراء البيت الايوبى بالشام ، مما أدى دون شك الى سرعة التخلص من الصليبيين وتطهير بـلاد الشام منهم • ويعد السلطان بيبرس من أبرز سلاطين المماليك الذين سددوا الى بقايـا الصليبيين بالشام الضربات الاخيرة القاضية ، فقد قضى على مملكة كيليكية الارمينية ، كمـا اسـتطاع بعد أن أوقف الزحف المغـولى فى فلسطين (عين جالوت) أن يسترجع ما أخذوه من سورية واعادة توحيد مصر وبلاد الشام ، ومن ثم غدا قـادرا على مواصـلة الحرب المقدسة ضـد الصليبيين • فقد قـام بعدة غزوات شنها على معاقل الفرنجة حتى خضعت له تباعا • وبرغم ان حصون الفرسان الداوية والاستبتارية كانت بمثـابة المتراس للدولة الصليبية فى بلاد الشام ، الا انهم عجزوا عن الصمود ضد ضربات الظاهر بيبرس المتتالية ، ففى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) (٧١) احتـل بيبرس حصن الكرك ثم ظفر بقيسارية ، وبعد حصـار اربعين يوما اسـتلم ارسوف من من الفرسـان الاستبتارية (٧٢) • وفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٦ م) سلمت صفد السـلاح بعد ان أبيدت حاميتهـا عن آخرها (٧٣) ثم سقطت يافا واستسلمت شقيف ارنون • وكان لسقوط انطاكية وهى ثانى دولة صـليبية برزت الى الوجود أكبر الاثر فى سقوط معنويات اللاتين ، وعليه قد سارعوا الى اخلاء عدد من الحصون الصغرى •

---

(٦٨) Stevenson: op. cit. P. 325.

(٦٩) Longnon: Les Francais d'Outremer au Moyen Age. P. 103.

(٧٠) Joinville: op. cit. P. 137, 8.

(٧١) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦١ هـ/سنة ٦٦٢ هـ ، ابن الفرات تاريخ ج ٧ ص ٨٢ •

(٧٢) المقريزى : السـلوك ج ١ ص ٤٩٢ ، أبو الفداء ج ٤ ص ٣ •

(٧٣) لاتزال أسوار مدينة صفد تحمل عبارة منقوشة عليها تخليد ذكرى انتصار بيبرس جاء فيها (اسكندر زمانه وعماد دينه) كما يحمـل الجسر الذى بناه عبر الاردن يحمل رنكه وهـو الفهـد) •

Van Bercham: Recherches Archaeologiques en Syrie P. 107,
Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe vol. XII Pl. XXIV

الفصل الثانى

عناصر السكان

١ ـ العرب والبيوت العربية الحاكمة فى طرابلس ـ وشيزر ـ وغيرهما .

٢ ـ العناصر غير العربية :
الاتراك السلاجقة ـ الأرتقة ـ الأتابكة ـ الأكراد .

٣ ـ اهل الذمة ـ السريان ـ الأرمن .

١ ــ العرب والبيوت العربيـة الحاكمـــة فى طرابلس وشيزر وغيرهما :

لانريد هنـا ان يتحدث عـن القبائـل العربية التى وفدت على بلاد الشام منذ الفتح الاسلامى واستقرت فى مناطق متعددة منهـا ، انمـا سـوف نتعرض للطـوائف والبيوتات العربية التى سكنت بلاد الشام فى القـرنين الثانى عشر والثالث عشر بصفة خاصـة ، وهى الفترة الزمنية موضوع الدراسة . وسـوف ينحصر الحديث فى البيوتات العربية التى كونت الامارات العربية فى بلاد الشـام مثل امارة المرداسيين (٧٤) فى حلب وامارة بنى عمـار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر ، وسنحاول بقدر الامكـان ان نقتصر عـلى الجـانب الاجتماعى منهـا فقط مبتدئا بأقدم هـذه الامارات ثم احدثها وهكذا .

لاشك أن العنصر العربى هو الذى غلب منذ الفتح الاسـلامى على بلاد الشام بسبب الصـلات الوثيقة بين بلاد الشام وبين وسـط الجزيرة العربية وجنوبها (٧٥) . ومنذ أوائـل القرن العاشر الميـلادى (الرابـع الهجرى) أخذت بعض القبائل العربية فى أطراف العراق والشام تتجه الى داخل البلاد لتؤثر على بناء المجتمع الشامى فى عصر الحروب الصليبية . ومن القرن الحادى عشر الميلادى الخـامس الهجرى آثرت هذه القبائل العـربية حياة الاستقرار واتخذت سبيلها نحـو التمدن ، واستطاعت أن تؤسس امارات مستقلة (٧٦) .

وكانت أقدم هـذه الامارات امارة بنى مرداس فى حلب (١٠٢٤ ــ ١٠٧٩ م) وينسب بنو مرداس الى بنى كلاب ، وهم بطن من ربيعة بن عامر بن صعصـعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصـور بن خصـفة بن قيس أى أنهم من العرب المضرية .

وعاش بنو كـلاب قرابـة قرن فى بلاد الشام قبل اقامة امارتهم ، واستطاعوا بفضـل كثرتهم العددية من فرض ارادتهم فى منطقـة حلب ، كما خلقوا لانفسهم المناخ المناسـب لاقامة امارتهم وسط القوى المتصارعة فى ذلك الوقت وهى الدولة البيزنطيـة والخلافـة الفاطمية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى (٧٧) .

أما عن سياسة بنى مرداس ازاء الدولة الفاطمية ، فقـد كانت فى أول الامر تميل الى

---

(٧٤) برغم أن هذه الامارة قد انتهت من حلب فى نهاية القرن الحادى عشر ، الا أنه من المفيد التعرض لها بالبحث والدراسة ذلك لانها تركت اثرا عربيا لايمحى فى حلب ، كما انها كانت مقدمة لاستيلاء السلاجقة على تلك المدينة .

(٧٥) Demonbynes: Muslim Institutions. P. 15

(٧٦) انظر : ديسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ، ترجمة الدواخلى مراجعة د . زيادة ص ٣ .

(٧٧) عن المرداسيين فى حلب أنظر : Suhayl Zakkar: The Emirate of Aleppo (P. 1004 — 1094) (Beirut, 1971)

وأنظر ايضا : Lane - Poole: Mohammadan Dynasties. P. 110.
Kay: Notes on the History of Banu OKayl (J.R.A. May 1866) (P. 491 - 92)
أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ج١ ص١١٢
أبن خلدون العبر ج ٢ ص ٣١١ .

المسالمة وكسب الود والتأييد ، ذلك فى الوقت الذى اقتنع فيه خلفاء الدولة الفاطمية بفشل محاولاتهم فى الاستيلاء على حلب ، حتى أن الخليفة المستنصر بالله غضب على الوزير انجرجرائى لمحاولته غزو حلب وأمر بنفيه الى صور (٧٨) ، ولعل هذا قد قرب وجهات النظر بين الطرفين فأصبحا اكثر رغبة فى احلال السلام، خاصة عندما أمر الامير ثمار المرداسى باطلاق سراح الاسرى الفاطميين وارسالهم الى مصر ،ثم ما لبث أن بعث بما هو مقرر عليه من أموال• كما بعث ببعض الهدايا والالطاف الفاخرة ، فلم يسع المستنصر بالله الا أن يرسل اليه توقيعا بحلب وسائر أعمالها (٧٩) •

الا ان الامير ثمال المرداسى أدرك صعوبة الحفاظ على امارته وسط اطماع القوى المجاورة ، هذا فضلا عن مضايقات بنى كلاب له ، لهذا آثر التنازل عن حلب طواعية للخلافة الفاطمية وذلك فى أواخر سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٢م فمنحه الخليفة المستنصر مدينة بيروت وعكا وجبيل عوضا عنها • وتسلم مكين الدولة بن ملهم امارة حلب التى غدت لمدة اربع سنوات ولاية فاطمية ، الا أن أمراء بنى مرداس لم يقفوا جامدين ازاء هذا التصرف من ثمال ومن الدولة الفاطمية ، فشقوا عصى الطاعة وانتهى الامر باسترداد بنى مرداس لحلب من الفاطميين • وسارع الخليفة الفاطمى بانفاذ ثمار المرداسى المقيم بمصر حينذاك وطلب اليه استعادة حلب من ابن أخيه محمود ، وهكذا عادت حلب من جديد للحكم المرداسى فى ظل الحماية الفاطمية (٨٠) •

وقد اضطرت الدولة الفاطمية بعد وفاة ثمال الى تعضيد محمود بن نصر أقوى أمراء البيت المرداسى وقتذاك، فبادر الخليفة المستنصر بانفاذ رسوله ظفر المستفادى برسالة ودية اليه ولقبه بعظيم (٨١) أمراء العرب عضد الدولة سيف الخلافة • الا ان محمودا لم يكن يعبأ بالخلافة الفاطمية ، ومن ثم فقد تحول الى الولاء للسلاجقة والعباسيين والتماسه الحماية من السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٨٢) •وقد عبر محمود عن مشاعره نحو الدولة الفاطمية عندما قطع الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى واقامها للخليفة القائم العباسى سنة ١٠٧٠م وهكذا خرجت حلب من حوزة الدولة الفاطمية وحل محلها السلاجقة وكان قطع الخطبة للمستنصر الفاطمى فصل الخطاب •

أما عن العلاقة بين بنى مرداس والدولة البيزنطية فقد كانت تتأرجح بين مد وجزر وذلك تبعا لضعف الدولة الفاطمية صاحبة السيادة على امارة حلب او قوتها • فقد اتخذت العلاقات بين المرداسيين والبيزنطيين طابعا خطيرا ، عندما استعادت الدولة الفاطمية هيبتها

---

(٧٨) ابن ميسر : اخبار مصر ج ٢ ص ٥٢٤

(٧٩) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٦٦ ، انظر محمد محمد الشيخ : الامارات العربية فى بلاد الشام ص ١٠٨ (مخطوطة) (رسالة دكتوراه) •

(٨٠) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٨٦ •

(٨١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ص٧٩

(٨٢) أبن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٨ •

فى بلاد الشـــام ، وبسبب ماطرأ على الدولة البيزنطية نفسها من ضعف واضمحلال عنـــدما حكمها نساء وأباطرة أكفاء (٨٣) •

وقد انتهت العلاقة بين المرداسيين وبين الدولة البيزنطية حينمـــا تحول محمود من الولاء للـــدولة الفـــاطمية الى الولاء الى السلاجقة والعباسيين ــ كما ذكرنا آنفـــا ــ وطلب منه السلطان ألب ارسلان أن يقـــاتل البيزنطيين فى انطاكية ويحـــارب الفاطميين • فلما تلكأ محمود قاد أرسلان جيشه سنة ١٠٧١م ونزل على حلب وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت باذعـــان محمود واعترافـــه بالتبعية للسلطان (٨٤) ، كما تعرضت الدولة البيزنطية للهزيمة على يـــد الب ارســـلان فى موقعة(مانزكرت) فى نفس السنة (٨٥) •

ولم يحدث بعد هذه الموقعة ما يســتحق الذكر بين بنى مـــرداس فى حلب ،والبيزنطيين حتى سقطت حلب نفســـها فى يد شرف الدولة مسلم العقيلى سنة ١٠٧٩م ، فى حين استولى الارمن على انطاكية ثم مالبثت ان ســقطت فى يد سليمان بن قلتمش ســنة ١٠٨٥م ، وامتد النفوذ السلجوقى فشـــمل المنطقة كلهـــا تقريبا (٨٦) •

وهكذا يمكن القول بأن السلاجقة قـــد استولوا على امـــارة حلب بعد أن استطاعوا القضاء على القوتين العظيمتين المتنازعتين وهما الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية وكان ذلك سنة ١٠٧٩م •

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى قامت امارة عربية جديدة بطرابلس بعيدا عن السيطرة الفاطمية من جهة، والقوى الاسلامية المجاورة من جهة أخرى وهى امارة بنى عمار • ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت تسير فى طريق الضعف والاضمحلال ، ونتج عن حالة الضعف هذه أن استقلت صور تحت حكم قاضيها ابن أبى عقيل ، واستحوذ الاتراك عـــلى بيت المقـــدس والرملة (٨٧) ، وقطعت الخطبة للمستنصر فى حلب كما ذكرنا آنفا •

ولقد استغل ابو طالب ابن عمـــار هذه الظروف وأســـس امـــارته العربية بطرابلس سنة ٤٦٢ هـ/١٠٧٠م وتلقب بأمين الدولة، وكان رجـــلا ذكيـــا وفقيها شـــيعيا (٨٨) قد التزم

---

(٨٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣٨ •

(٨٤) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٩ •

(٨٥) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣٢ •
Omam: The Byzantine Empire. P. 253.

(٨٦) Grousset: L'Empire du Levant. P. 179.

(٨٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشـــق ص ٩٧ ، ١١٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٢ ،
Wiet: L'Egypte Arabe. P. 238

(٨٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٨ ص ٧٧ ، وقام الحسن بن عمار بتاليف كتـــاب « ترويح الارواح ومفتاح السرور والافـــراح » المنعوت « بجراب الدولة » ــ ذكره حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون بعنوان « كتاب مفتـــاح السرور والافراح » ولكنه لم ينسبه لاحد • وقـــد جاء فى بروكلين (ذيل تاريخ العـــرب ج ١ ص ٩٩) ان مؤلفه هو أبو العباس أحمد بن محمـــد بن علوية الشجرى والكتاب عنـــوانه « ترويح الارواح ومفتاح السرور والافراح » وهو مخطوط بباريس رقم (٣٥٢٧) والمخطوطة فى حاجه الى تحقيق • انظر ايضا : ابن شـــداد : الاعـــلاق الخطيرة ج ٣ ص ١٠٧ هامش «٤») •

سياسة الحكمة والاعتدال فلم يجهر بعدائه للخلافة الفاطمية مراعاة للغالبية الشيعية بطرابلس ، كما لم يلتزم بسياسة التبعية والخضوع للقوى المجاورة الاخرى طيلة حكمه حتى توفى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م (٨٩) • وقد صرف ابن عمار جل همه فى استعادة الازدهار الاقتصادى والاهتمام بالناحية العلمية (٩٠) •

ولم يترك ابوطالب بنى عمار ذرية فخلفه أحد أبناء أخيه محمد وهو جلال الملك وكان أقواهم واكثرهم دهاء ، وقد امتازت فترة حكمه التى دامت ثلاثين عاما بالحنكة والاقتدار ، وخاصة فى سياسة الحياد حيال الفاطميين من جهة ، والسلاجقة من جهة أخرى ، كما اهتم بالسياسة الداخلية لامارته فطهرها من العناصر المناوئة له (٩١) • وكانت علاقة جلال الملك بالامارة المرداسية التى كانت دائرة فى فلك السلاجقة منذ عام ١٠٧٠م سيئة ، مثله فى ذلك مثل سلفه ، مما جعله يتعرض لهجوم الجيش الحلبى الذى ضرب الحصار حول طرابلس ولم يتراجع عنها الا بعد أن «أخذ من أهلها مالا » (٩٢) • ولم يسلم جلالة الملك من المؤمرات الفاطمية نتيجة سياسته الاستقلالية(٩٣) الا أنه وجد من الحكمة التماس ود الخلافة الفاطمية ودرء خطرها (٩٤) •

وعمد جلال الملك بعد ذلك الى بسط نفوذه وتوسيع رقعة امارته فاستولى على جبلة سنة ٤٧٣هـ / سنة ١٠٨١م (٩٥) ، كما استولى على انطرطوس نظير دفع مبلغ من المال لتاج الدولة تتش الذى استولى عليها سنة ٤٧٧ هـ سنة ١٠٨٥م (٩٦) ، وضم اليه حصن عرقة الذى يقع الى الشمال من طرابلس واستولى على الجبيل الى الجنوب من طرابلس وبذلك احتوت امارة طرابلس على شريط ساحلى يمتد من جبله شمالا الى مشارف بيروت جنوبا •ولم تسلم اطماع هذا الامير من الخطر السلجوقى الذى اخذ يهدد بلاد الشام بأسرها منذ استولى

---

(٨٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢ ، ابن الفرات : تاريخه جـ ٨ ص ٧٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ١١١ ، السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٢٦٦ (مخطوط) ، Bull. Incyc. Isl. Art. Tarebulus ويقول ناصر خسرو الذى زار طرابلس حوالى منتصف القرن ١١ م أن سكانها يبلغون عشرين ألفا كلهم شيعة (سفرنامة ١٣) •

(٩٠) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ص ٣٥٣ ، Greusset, Hist des Croisades. I. P. 132.

(٩١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٠

(٩٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٢ •

(٩٣) اكتشف جلال الملك سنة ٤٦٨ هـ/سنة ١٠٧٦ م مؤامرة حيكت له فى طرابلس للاطاحة به والقبض عليه ، دبرها جماعة من وجوه المدينة بمؤازرة من الوزير الفاطمى بدر الجمالى فوقع فى يد جلال الملك رسالة من بدر الجمالى الى زعماء هذه المؤامرة « تنبىء عن موافقة تجرى بينهم للقبض على جلال الملك وتسليم البلد • فأسرع بالقبض على زعماء المؤامرة وصادرهم وقتل منهم جماعة » (ابن الاثير حوادث سنة ٤٦٨ هـ) •

(٩٤) انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٦ •

(٩٥) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ١٩٩ •

(٩٦) عماد الدين الاصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق (مختصر البندارى) ص ٦٥ ـ ٦٦ •

تتش سنة ٤٨٥ هـ/سنة ١٠٩٢م ، على عرقــةوكذلك على كلمن حمص وأفامية، بل لقد ضرب انحصـــار على طرابلس ذاتهـــا (٩٧) • وازاءالخطر السلجوقى ، لم يجد جلال الملك بدا من استخدام الفطنة والدهاء ، فالتمس عطف قادةتاج الدولة تتش واستمالهم اليه بالمـــــال والهدايا ، واستطاعبذلك اجتذاب قسيم الدولةآقسنقر مما اضطر تاج الدولة تتش الى الرحيل عن طرابلس غضــبا (٩٨) • على أن تتش لميعاود الكرة ضد طرابلس ذلك ان وفـــــاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / سنة ١٠٩٢م ،ادخلته فى منازعات الوراثة السلجوقية التى راح ضحيتها ، فتبددت امارته فى بلاد الشاممن بعده ولم يعد هناك خطر يهدد امـــارة بنى عمار بطرابلس • وكما تعرضت امارة بنى عمارفى طرابلس للخطر السلجوقى ، تعرضت كذلك للخطر الصليبى الذى وفد اليها من الشـــمالزاحفا الى الجنوب نحو بيت المقدس • فقـــد اســتولى الصــــليبيون فى حملتهم الاولى علىأنطاكية سنة ٤٩١هـ / سنة ١٠٩٨م ، وانزلوا الهزيمة بالجيوش الاســــلامية التى قدمت لاستعادة المدينة لهم ،وأخذت تتوالىانتصارات الصليبيين حتى وصلوا عرقة وهى ضمن أملاك امـــارة بنىعمـــارة (٩٩) • وبنفس ســـياسة المهادنة التى سبق أن اتبعها جلال الملك حيـــالكل من الفاطميين والســلاجقة تعامل مــــع الصليبيين (١٠٠) فأرسل رسولين الى ريموند دىسانت جيل (الصنجيلى) يعرض عليهم الدخول فى طاعتهم ويتعهد بدفع الاموال لهم وتـــأمينمرور جيوشهم بأمارته ، بل بالغ فطلب ارسال أعلام صليبية ليرفعها فوق طرابلس للدلالةعلىالتبعيه (١٠١) • وتمخضت سياسه المهادنة التى أتبعها جلالالملك لتأمينسلامة امارتهمن الخطر الصليبى بعد ان تعهد بدفع ١٥ الف دينـــــار للصليبيين ، وحرر نحو ثلاثمائة أسير وقدم لهمعددا من الخيول (١٠٢) ويقـــال أنه قد تعهـــد

---

(٩٧) لما قدم السلطان ملكشاه الى بلاد الشام سنه ١٠٨٧م اقطع حلب قسيم الدولة آقســـنقر للامير بوزان ، وانطاكيه لياغى سيان ، وحرم تتش يطلب من السلطان ان يدعه يقضى على مابقى من مراكز الحكم الفاطمى فى بلاد الشام والاستحواذ على الامارات المستقله بها ، فلم يجد ملكشاه باسا من ذلك ، بل أمر آقسنقر وبوزان بمساعدته فى ذلك (عماد الدين الاصـــــــفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ — ٦٦) فعمد تتش الى تنفيذ مخططه فاستولى على حمص وافاميه وعرقه وحاصر طرابلس •

(٩٨) ابن الاثير :الكامل ج ٨ ص ١٦٠ — ١٦١

(٩٩) Grousset: Hist des Croisades. I. P. 141.

(١٠٠) اختلفت الآراء حول من الذى كان يحكم طرابلس وقت الغزو الصليبى واعتقدت اغلبيـــة المؤرخين المحدثين انه فخر الملك أبو على • (Sobernheim: Encyc. I. Art «Iba Ammer»). وايده فى رأيه جاستون فييت (Wait: Ency Ist Art Banu Ammer). وأقر رأيهما د • حسن حبشى (الحرب الصليبية الاولى ص ٧٥) والدكتور السيد عبد العزيز سالم (طرابلس الشام ص ٧٣) • انظر أيضا كتاب د • محمد محمد الشيخ « الجهاد المقدس ضـــد الصليبيين حتى سقوط الرها ، الاســـــــكندرية ١٩٧٢م » •

الا أننا نرجح رأى د • محمد محمد الشـــيخ (الامارات العربية فى بلاد الشام • رسالة دكتوراة ص ١٣٠) القائل بأن جلال الملك هو الذى ساعد الصليبيين اعتمادا على نصين الاول للمؤرخ ابن الفرات والثانى لسبط بن الجوزى وعلى اسلوب التعامل الذى أتبعه الامير الحاكم لطرابلس وقت الغزو الصليبى ، وقد نجم هذا الاختلاف نتيجة اغفال المصادر المعاصرة ذكر هذا الموضوع فلـــم يذكر كل من ابن القلانسى وابن الاثير وابن العديم وابو الفداء وسبط بن الجوزى شيئا عنه » •

(١٠١) Gesta Francarm. P. 80 - 83.

(١٠٢) Runciman: A Hist of the croisades. I. P. 275.

بتسـليم طرابلس للصـليبيين اذا نجحوا فى الاستيلاء على بيت المقـدس (١٠٣) • وعـلى ذلك رحل الصليبيون عن امارة طرابلس فى ١٦ مايو سنه ١٠٩٩ م ، بعد ان فقدت الامـارة مدينتين من توابعها ، همـا جبلة وانطرطوس (١٠٤) وتوجه الصليبيون نحو بيروت يقـودهم ادلاء عينهم جـلال الملك (١٠٥) • وما لبث أن توفى جلال الملك فى يوليو سنه ١٠٩٩م ، وخلفه اخوه فخر الملك وهو ثانى الاخوة من أبناء محمد بن عمار (١٠٦) • وكان رجل سياسـه وعـلم وحرب معا ، ورث عن اخيه مهمة الحفاظ على الامارة ، لذلك استغل فخر الملك انشغال ريموند الصنجيلى وقـام بالهجوم على انطرسوس وملكهـا (١٠٧) • ورجعت املاك طرابلس الى سابق عهدها ايام جلال الملك ، لان فخر الدولة عاد واتبع سياسه المهادنه مع الصليبيين فقد احترم وفاده بلدوين البولندى أمير الرهـا عندما عبر امارته فى طريقـه الى بيت المقدس سنه ١١٠٠ م ، ليتولى عرشها بعد وفاة أخيه جودفرى ، وقد امدهم فخر الملك بما يحتاجونه من الميرة والعداء ، فى الوقت الذى كان سلاجقه دمشق يقطعون الطريق عليه ويودون القضاء عليه ، كما تعهد له بأن يحيطه علمـا بتحركات دقاق ملك دمشق السلجوقى (١٠٨) •

أدرك الصليبيون أهميـة موقع طرابلس الأسلامية ، فهى فى مكان متوسط بين امـارة الرها وامارة انطاكيه من الشمال ، وبين المملكه الصليبيه فى بيت المقدس من الجنوب (١٠٦) • فاخذ ريموند على عاتقه مهمه مهاجمه امـارة طرابلس فاستغل فرصـه وجود الاسـطول الجنوبى سنه ١١٠٣ م ، وهاجم جبيل الواقعة على الساحل بين طرابلس وبيروت واسـتولى

---

(١٠١) عمر كمال توفيق : مملكه بيت المقدس الصليبيه ص ٥٦ ، وتقول المصادر الصليبيه ان جلال الملك قد تعهد باعتناق النصرانيه اذا نجح الصليبيون فى الانتصار على الفاطميين (اعمال الفرنجه وحجاج بيت المقدس) ص ١١١ ترجمه د • حسن حبشى •

(١٠٤) اما جبله فقد خرج واليها ابو محمـد بن عبد الله بن منصور عن طاعه بنى عمار فى أواخر عهد جلال الملك واستقل بها واقام الخطبه للعباسيين (ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٦) أما انطرسوس فقد استولى عليها الصليبيون فى عهد جلال الملك اثناء زحفهم الى الجنوب فى فبراير سنه ١٠٦٦م (اعمال الفرنجه وحجاج بيت المقدس) ص ١١٠ ترجمه د • حسن حبشى :

(١٠٥) Grousset: op. cit. I. P. 275.

(١٠٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ٣ ص ١٠٧ ، مجهول : تاريخ المماليك وسلاطينهم وهو كتاب مجهول المؤلف حققه المستشرق سترستين طبعه ليدن سنة ١٦١٩ ص ٢٤٦ •

(١٠٧) لجأ ريموند سنة ١١٠٠ م الى الامبراطور البيزنطى للحد من نفوذ بوهيموند فى شمال الشام الا أن الامبراطور أوكل اليه قيادة الحملة اللمباردية الى الاراضى المقدسه فوجد فى هذه الحمله ضالته التى ستحقق اطماعه فى تكوين امارة له فى بلاد الشام الا أن مسار الحملة تغـير الى كبادوكيا لتخليص بوهيموند من الاسرة الا أن الحملة منيت بالهزيمة فى اغسطس سنة ١١٠١ وهرب ريموند ومابقى معه من صليبيى هذه الحملة الى القسطنطينية ثم استطاع ان يبحر هو وفلوله الى السويديه ميناء أنطاكية بحجة التوجه الى الاراضى المقدسة الا انه كان يرمى استغلالهم فى تكوين امارة له فى بلاد الشام ، الا انه وقع فى الاسر غريمه تنكرد الذى اتهمه بخيانة الصليبيين مع البيزنطيين ولم يتركه الا بعد ان تنازل عن كل مطالبه فى انطاكيـة واللاذقية • وقد ترتب على هذه المصالحة بين تنكرد وريموند نتائج بالغة الاهمية • لتفصيل ذلك انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨٤ ـ ٣٥٣ ـ ٣٥٤ Grousset: on. cit., I, PP. 324 - 5; Archer: The crusades, PP. 81 - 2.

(١٠٨) سعيد عاشـور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨٤

(١٠٩) Runciman: A Hist of the Crusades. II. P. 57.

عليها سنة ١١٠٤ م ، ونكل بأهلها وفتح ثلثيها للجنوية مكافأة لهم وبذلك حاصر ريموند طرابلس بعد أن ملك انطرطوس من شمالها وجبيل من جنوبها (١١٠) .

واضطر فخر الملك بن عمار الى الاستنجاد بالسلطان السلجوقي والخليفة العباسى بعد أن فقد الامل فى نجدة القوى الاسلامية المجاورة أو الدولة الفاطمية لمساعدته فى فك حصار الصليبيين لطرابلس (١١١) . فخرج فخر الملك الى بغداد بعد أن عرج على دمشق واصطحب معه ابن طغتكين تاج الملوك بورى لمقابلة الخليفة العباسى (١١٢) ، الا أن خروج فخر الملك من طرابلس وغيابه عنها قرابة أربعة أشهر ، كانت فترة بالغة الصعوبة بالنسبة للاوضاع فى المدينة، ذلك أن أهل المدينة كانوا قد ضجروا من طول الحصار ومن تأخر فخر الدولة فى بغداد ، فاضطروا الى الاستنجاد بالدولة الفاطمية التى مازال اسطولها يرتاد الموانى الشامية ، وكانت لديها امكانيات لمدهم بالمؤن والذخيرة، بعد أن خلعوا الطاعة لفخر الملك (١١٣) وذلك سنة ٥٠٢هـ / سنة ١١٠٨م . ولكن الاسطول الفاطمى تأخر وصوله الى طرابلس ، وعندئذ أيقن أهل المدينة بالهلاك ، ولم ير الوالى الفاطمى بدا من أن يطلب الامان لنفسه وللحامية الفاطمية من الصليبيين . وبعد ان سمح الصليبيون للقائد الفاطمى وحاميته بالخروج من المدينة ، استمات الصليبيون فى الهجوم عليها حتى سقطت فى أيديهم سنة ٥٠٢هـ / سنة ١١٠٩م (١١٤) .

أما عن امارة بنى منقذ فى شيزر (سنة ٥٧٤هـ / سنة ١٠٨١ ــ ١١٥٧م) ، فقد كانت قلعة شيزر الواقعة فى حوض نهر العاصى الاوسط التابعة للامبراطورية البيزنطية وبها حامية بيزنطية للدفاع عنها (١١٥) ، تأتمر بأمر أسقف البارة الذى اتخذ شيزر مقرا له . وقد عمل سديد الملك أبى الحسن على بن منقذ (١١٦) على الاستيلاء عليها منذ عام ٤٧٠هـ / ١٠٨٧م ، فوجدها جيدة التحصين ، وعلم انه لايستطيع الاستحواذ عليها الا بالحيلة والصبر، فقام ببناء حصن على تل قريب من قلعة شيزر يعرف بتل الجسر وجمع فيه اهله وعشيرته ، وكان بين تل الجسر هذا وقلعة شيزر حصن يعرف بالخراص فوثب عليه وأخذه بالسيف (١١٧) وأحسن الى أهله وكانوا من الروم ، مما جعل أهل شيزر انفسهم يأنسون لسديد الملك وعرضوا عليه تسليم الحصن دون الرجوع الى واليهم، مما جعله يتظاهر بالرفض فى بادىء الامر (١١٨) . الا أن سديد الدولة رأى استكمالا لسياسته التى سنها لنفسه أن

---

(١١٠) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢١٧ ، Grousset: Hist. des Croisades. I. P. 340 - 341.

(١١١) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥٠

(١١٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١

(١١٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١

(١١٤) أبو الفداء : المختصر جـ ٢ ص ٢٢٤ ، أنظر سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، م ١٦ (١٩٦٩) ص ١٥ وما بعدها) .

(١١٥) Grousset: Hist. des croisades. I. P. 126.

(١١٦) ابن الوردى : تاريخه جـ ٢ ص ٥٧

(١١٧) ابن الوردى : تاريخه جـ ٢ ص ٥٧

(١١٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٣

يسترضى أسقف شيزر بمال دفعه له ، مع بقاء أملاكه واموالـه، وسمح له بالاقامةبشيزر وظهر، اثر ذلك فى تعمير قلعـة شـيزر (١١٩) سـنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م ، وتحصينها ، وسمح لحاميتها البيزنطية بالرحيل عنها • الا أن استيلاء سديد الدولة على شيزر ، قد أثار حفيظة شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى أمير الموصل ، الذى سبق أن استولى على حلب وأراد الاستيـلاء عـلى القلعـة (١٢٠) ولكن شرف الدولة أدرك صعوبة الاستيلاء عليها فأقام عليها الحصـار وسار بجزء من جيشـه الى حمص • ولتأمين سـلامة شـيزر أرسـل سـديد الدولة الى شرف الدولة مالا يقدر بعشرة آلاف دينار بصحبة ابنه اباالعساكر وامرأته منصورة بنت المطوع ، وأخته رفيعه بنت منقذ فى مقابل فك حصار شيزر ، فرحل عسكره عن شـيزر سنة ٤٧٥هـ (١٢١) • غير أن سديدا توفى عقب عقد الصلح مـع شرف الدولة وخلفـه ابنـه عزالدولة أبى المرهف نصربن على شيزر (١٢٢) سنة ٤٧٥هـ / سنة ١٠٨٢م • وفى أوائل حكم عزالدولة (١٢٣) واجهه خطر سليمان بن قلتمش الـذى انتصر على شرف الدولة بن قريش العقيلى فى موقعة بين انطـاكية وحلب (١٢٤) ، وبالتالى استولى على كل املاكه فى بلاد الشام، فتملك معرة النعمان وكفر طاب ، وأصبح قريبا من شيزر وأخذ فى الهجوم عليها لولا أن نصرا « صالحه على مال يحمل اليه » (١٢٥) •

وانتهز نصر ابن منقذ فرصة الحرب الدائرة بين سليمان بن قلتمش وتاج الدولة تتش حول حلب التى انتهت بهزيمة وقتل سليمان بن قلتمش، فاسترد كفر طاب التى سبق ان استولى عليها سليمان • ولما قدم السلطان ملكشاه الى بلاد الشام ليضع حدا لانتصارات تتش دخل نصر ابن منقذ فى طاعته وأمره على اللاذقية وفامية وكفر طاب (١٢٦) • ثم ما لبث أن دب النزاع بين نصر بن منقذ وقسـيم الدولة آقسـنقر نائب السلطان ملكشاه على حلب سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م فصالحه على مال دفعه له (١٢٧) •

---

(١١٩) Honingmann: Encyc. Ict. Art «Shaizar».

(١٢٠) ابن العـديم : زبدة الحلـب جـ ٢ ص ٧٧•

(١٢١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص٧٧، سبط بن الجـوزى : مرآة الزمان جـ ١٠ ورقـة ٤٩ ــ ٥٠•

(١٢٢) ابن خلكان : وفيات الاعيـان جـ ٣ ص ٨٧

(١٢٣) كانت هناك ثلاث قوى تتصارع ببلاد الشام أولا : قوة العرب بزعامة شرف الدولة مسلم العقيلى أمير الموصل وكان يطمع فى بسط نفوذه على بلاد الشام • ثانيا ــ قوة سـلاجقة الشام بزعامه تاج الدولة تتش الذى اراد أن يقضى عـلى النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام وكذا القوى العربية ثالثا ــ القوة الجديدة وهى سلاجقة الروم بزعامه سليمان بن قلتمش الذى استولى على انطاكية من الأرمن ، أنظر : ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص١٣٢، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢ •

(١٢٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ١٣٧ ، Kay: Hist of the Bann - Okayl. P. 498.

(١٢٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٥

(١٢٦) أبو شامة :الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ١ ص ٦١ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ١٩٨ سبط الجوزى : مرآة الزمان جـ ١٠ ص ١٠٠

(١٢٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ ــ ١٢٠ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص١٤٨ (سنة ٤٨١ هـ) ــ سبط بن الجوزى مرآة الزمان جـ ١٠ ص ١١٧ •

وقد اظهر قسيم الدولة حسن نيته بأن أعاد فامية التى استولى عليها من خلف بن ملاعب الكلابى لنصر بن منقذ (١٢٨) • ثم مالبث أن وقعت فامية فى حوزة تتش وهو فى طريقه لحصار طرابلس (١٢٩) •

والجدير بالذكر هنا ان نصر بن منقذ لم ينضم مع باقى القوى الاسلامية لصد الهجوم الصليبى على بلاد الشام سنة ١٠٩٧ م ، فقد توفى فى العام التالى أى سنة ١٠٩٨ م •

وقد استطاع نصر بن منقذ أثناء حكمه ان يضم الى امارته بالاضافة الى اللاذقية وفامية وكفر طاب الكثير من القوى والقلاع والحصون الداخلة فى زمام هذه المدن وهى حصن لطمين قرب حمص بالقرب وحصن اسفونا من معرة النعمان ، وحصن أبو قبيس فى قبالة شيزر ثم حصن مصياف • ثم خلفه أخوه عز الدين أبو العساكر بن على بن منقذ « سلطان » سنة ١٠٩٨ م ، وفى عهده نعمت الامارة برخاء اقتصادى كبير (١٣٠) •

وأول ما واجه عز الدين بن منقذ كان الخطر الصليبى فى أواخر سنة ١٠٩٨ م الذى كان يسعى للاستحواذ على بلاد الشام البلد تلو الاخر وكانت سياسة عز الدين تنحصر فى مسألة الصليبيين ، فأنفذ رسولين الى القائد الصليبى ريموند لتوقيع الصلح وتقديم المعونة لهم بارسال أدلاء لارشادهم لعبور نهر العاصى عبر المخاضة ، وتقديم كافة الارشادات لهم فى اجتيازهم الاقليم نظير عدم تعرضهم لامارته بسوء (١٣١) •

أما علاقات شيزر فى فترة حكم سلطان بن منقذ بمن حوله من الملوك والامراء المسلمين فقد كانت حسنة ، فعلاقته برضوان فى حلب وبنى عمار فى طرابلس وبطغتكين (١٣٢) (١١٠٤ — ١١٢٨م) فى دمشق وبابنه بورى (١١٢٨ — ١١٣٥ م) لم تشبها شائبة ، لكن ما لبث أن ولى دمشق اسماعيل بن بورى ، ثم ساءت العلاقات بين دمشق وشيزر فقد حاول اسماعيل الاستيلاء عليها • الا أن سلطانا استرضاه بمبلغ من المال للانصراف عن المدينة فرحل عنها بصعوبة بالغة (١٣٣) • أما علاقته بكل من أمير فامية خلف بن ملاعب ووالى حماه محمود بن قراجا ، فقد كانت علاقة عداوة وحروب (١٣٤) ، الا أن العداوة بين شيزر ، ومحمود والى حماة انتهت فى النهاية بالتحالف ضد الفرنج بمهاجمة فامية التابعة للفرنج سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م (١٣٥) •

كان الصليبيون بزعامة تنكرد قد استفحل أمرهم بعد انتصارهم على القوات الاسلامية

---

(١٢٨) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٥

(١٢٩) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٢٢ •

(١٣٠) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٧ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٦٢

(١٣١) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ٧٤

(١٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق — ص ١٦٤ — ١٦٥ ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥٣

(١٣٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٤٠ — ٣٤١ (حوادث سنة ٥٢٧ هـ) •

(١٣٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ — ١٠٢ — ٥٦ — ٣٦ — ٣٨ — ٣٩ •

(١٣٥) المرجع السابق : ص ٤٦

والقلاع والضياع الاسلامية القريبة وبخاصةسنة ١١٠٥م (١٣٦) ، فغدا تنكرد يهدد المدن فى معركسة تيزين (Tizin) شرقى أرتاح مدينة شيزر ، فقام بالاغارة عليها سنة ١١٠٨ م وعلى القرى التابعة لها ونكل بأهلها ، واضطر أميرشيزر الى عقد صلح معه تفاديا لتلك الهجمات، وكانت مدة الصلح سنة واحدة (١٣٧) وبمجرد انتهاء مدة هذا الصلح عاود تنكرد الهجوم على شيزر ،مما اضطر الامير سلطان بن منقذ الى عقد صلح آخر بدفع مبلغ من المال ثمنا للسلام (١٣٨) واستمرت الهجمات المتكررة من قبل الصليبيين على شيزر فى عهد خليفة تنكرد روجر الانطاكى ، ونتيجة لحرص الصليبيين على الاستيلاء على طرابلس واستمرار حصارهم لها ، لم تسلم شيزر وتوابعها ،فأغار الصليبيون عليها ، ففى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٨ م أغار وليم جوردان على شيزر للحصول على المؤن ليستمر فى حصار طرابلس (١٣٩) ، وعندما سقطت طرابلس وآلت للصليبيين قاموا بدورهم بالهجوم على شيزر سنة ٥٠٣ هـ /١١١٠ م .

مما تقدم يتضح لنا أن شيزر تعرضت لهجمات الامارتين الصليبيتين انطاكية وطرابلس، وقد تزعم السلاجقة حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين بزعامة السلطان محمد بن ملكشاه وكانت الجيوش الاسلامية تحت امرة ثلاثة من قادتهم هم شرف الدين مودود وآقسنقر البرسقى وبرسق بن برسق فى الفترة بين سنوات (١١١٠ ـ ١١١٥م) (١٤٠) .

وقد شاركت شيزر فى حركة الجهاد وقدمت ما تستطيع للجيوش الاسلامية ، ذلك أن حركة الجهاد هذه جاءت فى وقت كادت فيه القوى الصليبية أن تحكم الخناق حول شيزر .

ولم تسلم شيزر من المؤامرات الداخلية المذهبية، فقد قام الباطنية سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣م بمؤامرة بغرض الاستيلاء على المدينة ، الا أن مؤامراتهم هذه باءت بالفشل (١٤١) .

وقد هددت الامبراطورية البيزنطية فى عهد امبراطورها الطموح حنا كومنين (١١١٨ ١١٤٣ م) شيزر ، الذى اراد استرجاع املاك الامبراطورية فى آسيا الصغرى وخاصة امارة انطاكية ، الا أن أميرها رأى أن يتحالف مع البيزنطيين والقيام بحملة صليبية مشتركة لانتزاع بعض المراكز الاسلامية الكبرى وهى حلب وشيزر وحمص لتكوين امارة صليبية جديدة يعهد بها الامبراطور البيزنطى لريموند دى بوانيه تعويضا له عن أنطاكية التى ينوى اعادتها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية (١٤٢) ولما فشلوا أمام حلب ، تركوها واستولوا على

---

(١٣٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ـ ص ١٦٩

(١٣٧) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٧٠ ـ ٧١ ، ص ٦٦

(١٣٨) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص٩٢ (١٣٩) المرجع السابق : ص ٥٠

(١٤٠) Browne: Accounts of a rare manuscript. P. 604 Rec. Histior I.P. 13).
أبو الفدا : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر ص ٥٩
الراوندى براحة الصدور ص ٢٣٥ ، ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٤

(١٤١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص ١٥١ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩
أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٦ ، ١٦٢

(١٤٢) Camb: Med. Hist. vol 4. P. 359 & Brehier: vie et mort de Byzance P. 324
Grousset: L'Empire du levant. P. 222 - 223 & Michaud. Hist of the crusades. I. P. 312.

الاثارب ثم معرة النعمان سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨ م(١٤٣) ، ثم على كفر طاب وتابعوا سيرهم نحو شيزر (١٤٤) والقوا عليها الحصار فى نفس السنة بقوات كبيرة وقد أظهر أهلها صبرا وجلداً فى الدفاع عن المدينة . (١٤٥) واستمر الدفاع عن شيزر أربعة وعشرين يوما ، خسرت فيها شيزر الكثير من الارواح والعتاد ، الا أن ما قام به عماد الدين زنكى من حشد جيشه بقربهم وتأهبه (١٤٦) للقتال كان له فضل فى الاسهام فى فشل هذه الحملة البيزنطية الصليبية (١٤٧) .

وبعد وفاة سلطان بن منقذ سنة ١١٥٤م أمراء بنى منقذ ، خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد آخر أمراء بنى منقذ وبعد أقل من ثلاث سنوات من حكم هذا الامير حدث لزلزال كبير فى بلاد الشام سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م ، ادى الى دمار البلاد ، ويقول ابن الجوزى عن آثار ذلك الزلزال : « وقد خرجت بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وفامية وحمص وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس انطاكية ونهدمت أسوار البلاد والقلاع (١٤٨) .

وهكذا هلكت أسرة بنى منقذ وتهدمت المدينة وصارت شيزر بعد ذلك تابعة لنور الدين محمود وفقدت حريتها كامارة مستقلة ذات شأن وعز ورفاهية (١٤٩) .

---

(١٤٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٥١ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٩ أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١١٦ ، ١٦٢ .

(١٤٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ص٢٦٧

(١٤٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص٩٢

(١٤٦) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ١٠ ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨ ، أبوشامة : الروضتين جـ١ ق١ ص ٨١ Brehier: vie et mort de Byzance. P. 324 & chalandon (Fredinand) Histoire de premiere croisade. P. 151.

(١٤٧) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٦٠ ــ (سنة ٥٣٢ هـ) ، ابن واصل : مفرج الكروب ــ جـ ١ ص ٨١ــ٨٢

(١٤٨) ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ١٧٦ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٣

(١٤٩) Derenbourg: Vie du Ousama. P. 571.

٢ ــ العناصر غير العربية ببلاد الشام :

الاتراك السلاجقة ــ الاراتقة ــ الاتابكة والاكراد

الاتراك السلاجقة :

ظهرت الاتراك السلاجقة فى اقليم ما وراء النهر فى القرن العاشر الميلادي ، ودخلوا كجند مرتزقة فى خدمة الامراء المتنازعين ، وحصلوا على مراعى لدوابهم وماشيتهم • وسرعان ما استولوا على املاك السامانيين فى اقليم ماوراء النهر وأخذوا اقليم خرسان من الغزنويين بعد هزيمتهم • وفى (سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م) أعلن طغرل نفسه سلطانا فى نيسابور • ولم يسع سكان تلك الاقاليم الا الاعتراف بسلطان السلاجقة لقواتهم ولتصبهم للمذهب السنى ، ولعدم تخريبهم المدن التى استولوا عليها • وفى عهد ألب أرسلان خليفة بك وابن اخيه ، وكذا فى عهد ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ، بلغ سلطان السلاجقة أوسع مداره (١٥٠) ، فقد امتد من حدود أفغانستان الى تخوم امبراطورية الروم فى آسيا الصغرى • ففى سنة ٤٦٠هـ/١٠٧٠م أغار ألب أرسلان بجيوشه على بلاد الشام حتى وصل الى حلب وضرب الحصار عليها وعظم القتال بين عساكره وحامية حلب لصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ، ثم استسلم الاخير وخلع عليه السلطان ألب أرسلان وأعاده الى بلده • وفى سنة ٤٦٣ هـ /١٠٧٢ م ، قطعت الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى وخطب للخليفة القائم العباسى وبدأظل الدولة الفاطمية ينحسر • أما عن السبب الذى دعا ألب أرسلان الى فتح بلاد الشام ، هو أن ناصر الدولة بن حمدان المتحكم فى الدولة المصرية أرسل يسأله أن يسير له عسكره ليقيم الدعوة العباسية ، فتجهز ألب أرسلان من خراسان وخرج فى جيش كبير العدد (١٥١) •

واقتحم اتسز بن ادو الخوارزمى من أمراء السلاجقة الاتراك فلسطين ففتح مدينة الرملة وسار منها الى بيت المقدس ، وانتزعها من يد الفاطميين وكذا رام الله وسواهما من المدن حتى عسقلان جنوبا ، وصمدت فى وجهه حامية عسقلان الفاطمية (١٥٢) • وفى سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٦ م ، دخل دمشق وضيق على أهلها وانتهب أموالهم ، ثم عاد تتش بن ألب أرسلان فاحتلها ثانية بعد سنتين وقتل آتسز (١٥٣) • وفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧١ م ، أحرز ألب أرسلان انتصارا حاسما على البيزنطيين فى مانزكرت ، شمالى بحيرة فان ، ووقع

(١٥٠) عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣

(١٥١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٣ ، ٤٤ عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨٢

(١٥٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ ٢ ص ٣٢١ ، ابن خلدون : المقدمة جـ ٥ ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

(١٥٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٦٨ .

الامبراطور نفسه أسيرا • وبذلك غدت آسياالصغرى برمتهـا مكشـوفة أمـام الاتراك السلاجقة •وهكذا بضربة واحدة دفعت الحدودالتقليدية التى طالمـا فصـلت بين الاسـلام والمسيحية ، أربعمائة ميل الى الغرب ، ولاولمرة استطاع الاتراك أن يحرزوا مكانا ثابتا فى ثلث البقاع (١٥٤) •

أما عن موقف السلاجقة فى بلاد الشـامفى القرن الثانى عشر ، فقد استولى تتش بن ألب أرسلان على حلب سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٩٤ م،وبذلك أصبح مؤسس دولة السلاجقة فى بلاد الشام بعد أن اتخذ من مدينة حلب قـاعدةلولايته • ولما سقط تتش فى احدى المعارك فى السنة التالية حكم مكانه ابنه رضوان سـنة٤٨١ هـ / سنة ١٠٩٥ م ، كما تولى الحكم فى دمشـق ابنه الاخـر دقاق • (١٥٥) • ولكنسرعان ما دب الخلاف وظهرت بذور الفرقة فى الاسرة بين الاميرين الاخوين (١٥٦) ، الامرالذى جعل دقاقا يتنازل عن السيادة العليـا لاخيه بعد ان ملكها سنتين • وكان رضوان ،مواليا للحشاشين من الاسـماعيلية (١٥٧) • لذلك مقته أهل السنة وابتعدوا عنه ، خاصـةعندما اخـذ يدعو للخليفة الفاطمى (١٥٨) • وللمذهب الاسماعيلى الشيعى فى صـلاةالجمعة نحوا من شهر ، ولكنه لمـا خشى عاقبة الامـور ، عاد الى الدعـاء للخليفة العباسى السنى •

وقد كانت لرضوان مواقف مشرفة مـعالصليبيين فقد اشتبك معهم فى معارك كثيرة فى سورية ، كما كان له الفضل الاكبر فى صـدغاراتهم وحملاتهم على حلب التى احتفظ بها فى قبضته ، الا أن محاولاته لفك الحصار عـنانطـاكية سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٨ م ، بـاءت بالفشل (١٥٩) •

وبموت رضوان تلاشت أسرته الحاكمة ،اذ لم يترك بعدة غير طفلين صـغيرين الاول ألب أرسلان الذى حكم حلب سنة ٤٩٩ هـ / سنة ١١١٣ م ، وكان وقتها فى السادسة عشرة من عمره ، فاغتاله الوصى عليه بعد فترة قصيرةمـن بداية ولايته (١٦٠) • والابن الثـانى لرضوان ، هو سلطان شاه الذى تولى بعد مقتل اخيه وكان أيضا تحت الوصاية ، ولم يسـتمر فى حكم حلب غير ثلاث سنوات • وفى سـنة٥٠٤ هـ / سنة ١١١٧ م ، اسـتولى على حلب

---

(١٥٤) فيليب حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٠٥
(١٥٥) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٥٧ – ١٦٨ •
(١٥٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٦٨ •
(١٥٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ – ١٣٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ ١ ص١٦٨ ابن خلدون : المقدمة جـ ٥ ص ١٤٨
(١٥٨) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٣٤٩ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ ، ابن خلدون : المقدمة جـ ٥ ص ١٥٣ـ١٥٤
(١٥٩) ابن العديم : منتخبات تاريخ حلب ـ ص ١٨٩
(١٦٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٨ ، ابن العديم : منتخبـات من تاريخ حلب ص ١٩٠ • أنظر : Recueil des historien des croisades Historiens orientaux. vol. III. P. 603 (paris 1884).

قائد تركمانى من قادة الجيش السلجوقى ، هوايل غازى بن ارتق (١٦١) الذى اتخذ من مدينة ماردين قاعدة له وأصبحت قاعدة لبنى أرتق من بعده •

بنو أرتق :

أما بنو أرتق فهم من الاسرات التركمانية الاصل التى حكمت بعض مدن الشام أحيانا فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها •وينتسب بنو أرتق لجدهم أرتق بن أكسب (١٦٢) التركمانى من مماليك ماكشاه بن آلب أرسلان •وقد اشتهر ارتق بالشجاعة والكياسة وحسن التصرف • فقد استطاع التغلب على حلوان والجبل (بالعراق) وكان منصورا لم يشهد حربا الا وكان الظفر حليفه (١٦٣) •

ولم يقنع ارتق بهذه التبعية ؛ فانتهز فرصة ذهابه مع فخر الدولة بن جهير بناء على امر مولاه ملكشاه سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٧ م ،لاحكام الرقابة على الموصل وبدأ يراسل مسلم ابن قريش الذى كان محصورا فى آمد وفتح له طريقا سار منه مقابل مبلغ كبير أخذه منه •

ولكن سرعان ما علم ملكشاه بخيانة ارتق بن فخر الدولة ، الامر الذى جعل أرتق يترك الموصل ويذهب الى دمشق حيث التحق بصاحبها تاج الدولة تتش وعاونه على الاستيلاء على حلب وساعده فى كثير من المواقف ، فاقطعه فلسطين بعد أن أخذها من أصحاب اتسز الخوازمى (١٦٤)

ولما توفى ارتق خلفه ولداه ايلغازى (ايل غازى) وسقمان (سكمان) فى القدس ولكن حدث سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٨ م (١٦٥) ، أن أفاد الفاطميون من تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين ، فخرج من مصر جيش فاطمى تحت قيادة الافضل شاهنشاه بنفسه لمحاصرة بيت القدس « ونصب عليها المناجيق » حتى اضطر الاراتقة الى الانسحاب من المدينة ، واستولى الافضل على القدس بالامان فى نفس السنة (١٦٦) • وهكذا خرج بنو أرتق من القدس بعد أن بقوا فى حكمها ثلاث عشرة سنة • ثم مالبث أن توجه سقمان الى دمشق (١٦٧) وكان صاحبها متغيبا عنها فقاتله أهلها ومن فيها من الاجناد ، ولما بلغه مسيرة صاحبها اليها رحل عنها الى حلب ، ثم أقام فى الرها بعد أن استولى هو واخوه على آمد (١٦٨) وماردين وحصن كيفا وأبليا بلاء حسنا فى الحروب الصليبية •

ولعل من أهم المواقع الحربية التى خاضها بنو ارتق ضد الصليبيين والتى تذكر لهم

---

(١٦١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٣٦٢ الذهبى : العبر فى خبر من غبر جـ ٢ ص ٣٨ ـ ٤٠ •

(١٦٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٣٧

(١٦٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ـ ص ١٩٩

(١٦٤) Gibb (H.A.R): The Damascus Chronicle of the croisades P. 23.

(١٦٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ ٢ ص ١٦٣ •

(١٦٦) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ٣٢٣ ١٦٧ ـ ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥

(١٦٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥

(١٦٨) ابن خلدون : المقدمة جـ ٥ ص ١٦٥

بالفخار هى موقعة حران (١٦٩) فى امارة الرها ، اذ لم يكد يستقر بلدوين فى الرها حتى بدأ الارانقة يشعرون بقلق شديد ، حيث أن تأسيس امارة صليبية فى الرها كان بالنسبة لهم كارثة حقيقية (١٧٠) ، فى وقت كانوا يسعون جاهدين على جعل الرها مركيزا لمتلكاتهم فى الشمال بعد أن فقدوا فلسطين • وقد أدى هذا الموقف الخطر الى أن يتناسى المسلمون ما كان بينهم من خلافات خاصة ، فاتفق الأمير معين الدولة سقمان بن ارتق أمير ماردين (١٧١) وحصن كيفا (١٧٢) ، مع شمس الدولة حكرمش (١٧٣) أمير الموصل وصاحب جزيرة ابن عمر ونهوا خلافاتهما وجمعوا قوة عظيمة وتقدموا الى الرها (١٧٤) • وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ومع حكرمش ثلاثة آلاف من الترك والعرب والاكراد ، فالتقوا على نهر البليخ فى موقعة حران (١٧٥) مع الصليبيين •

وقد اتخذ المسلمون خطة حكيمة فى هذه الموقعة انتهت بهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة وأسر بلدوين هو وأعظم أتباعه جوسلين • وقد غنم المسلمون غنائم عظيمة فى تلك المعركة التى تعرف باسم موقعة حران أو البليخ (١٧٦) سنة ٤٩٧ هـ / سنة ١١٠٤ م •

الأتابكة :

ولقد أدى تفكك دولة السلاجقة فى بلاد الشام والعراق وغيرهما الى ظهور كثير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة الا الاتصال بالبيت السلجوقى • ومن تلك البيوت دولة بنى الأرتق التى سبق ذكرها ، وكذلك ظهرت من تلك البيوت وحدات سياسية أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الاتابكة (١٧٧) ، وبعض هذه الوحدات صغير بحيث لا يتعدى قلعة أو حصنا فقد كان آل سلجوق اذا امتاز أحد قوادهم وأرادوا تشريفه وتكريمه أضفوا عليه لقب « أتابك » وهو لفظ تركى معناه مربى الملك (١٧٨) • ولسنا

---

(١٦٩) علية الجنزورى : امارة الرها ص ٩٣

(١٧٠) سعيد عاشور : الحملة الصليبية جـ ١ ص ١٨٦ •

(١٧١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٨٨ ، الفارقى : تاريخ الفارقى ص ٢٧٤ ، ذكر ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٦ انه كان صاحب حصن كيفا وآمد من سنة ٤٩٥ ـ ٤٩٨ هو توفى سنة ٤٩٨ هـ •

(١٧٢) ذكر ياقوت (معجم البلدان جـ ٧ ص ٦٢٥) ان حصن كيفا ويقال كيبا وهى بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر •

(١٧٣) الفارقى : تاريخ الفارقى ص ٢٧٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٨٨

(١٧٤) Setton: History of the crusades vol. I. P. 389.

(١٧٥) كانت حران فى ذلك الوقت تعانى من محنة شديدة بسبب قلة الاقوات ولما عرف الاهالى أن المسيحيين وصلوا الى مدينتهم ، ارسلوا الى أمراء الشرق من المسلمين يطلبون منهم مساعدة عاجلة • فلما تأخرت عليهم هذه المساعدة ووجدوا أنفسهم أمام الصليبيين وجها لوجه قرروا تسليم مدينتهم بدلا من تعريضها للخراب والتدمير (علية الجنزورى : امارة الرها ص ٩٦) •

(١٧٦) تجمع المصادر الغربية على أن تاريخ المعركة هو سنة ٤٩٧ هـ مثل ابن الاثير ، وابن القلانسى ، والذهبى وابن العديم • الا أن الفارقى وكذا وليم الصورى ومتى الرهاوى يقولون أن المعركة حدثت سنة ٤٩٩ هـ/سنة ١١٠٦م •

(١٧٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١٦ •

(١٧٨) Setton: op. cit vol. I. P. 162.

هنا بصدد التحدث عن جميع الأتابكيات فى سنجار والجزيزرة وأرمن وأذربيجان وفارس (١٧٩) ، ولكننا سنقصر حديثنا على الاتابكيات ببلاد الشام . ومن أهم أتابكيات بلاد الشام ، أتابكية دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين وأتابكية الموصل ومؤسسها عماد الدين زنكى (١٨٠) .

أما عن مؤسس أتابكية دمشق ونعنى به أبا منصور ظهير الدين طغتكين ، فقد كان من مماليك تاج الدولة تتش (١٨١) بن آلب أرسلان ملك الشام ، وقد جعله مقدم عسكره بناء على ما عهده فيه من شهامة وسداد رأي ، كما استنابه فى تدبير أمر دمشق (١٨٢) وحفظها فى غيابه .فأحسن السيرة فيها وأنصف الرعية،وبسط العدل بينها ، فكثر الدعاء له والثناء عليه ، وامتثلت أوامره ، ولم يلبث أن شاع ذكره بنجابته ، وأشفقت النفوس من هيبته ، فولاه مولاه ولاية ميافارقين وديار بكر وهى أول ولايته (١٨٣) . كذلك أسند اليه تربية ولده شمس الملوك دقاق واعتمد عليه فى تربيته وكفالته ، فساس أمرها بالهيبة والتدبير ، وأصلح فاسدها وقومها على خير ما يكون التقويم (١٨٤) .

ثم ما لبث أن توجه مع تاج الدولة تتش بن آلب أرسلان الى الرى حيث استشهد تتش وأسر طغتكين ضمن من أسر وأقام مدة الى أن أفرج عنه سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، فاستقبله شمس الدولة دقاق بدمشق وبالغ فى اكرامه واحترامه ، ورد اليه النظر فى قيادة الجند واعتمد عليه فى تدبير المملكة . كما أضفى عليه شرفا جديدا بأن عقد له على خاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق (١٨٥) .وفى سنة ٥٠٣ هـ/ سنة ١١١٦ م توفى دقاق فعين طغتكين من قبل سلطان السلاجقة فى بغداد حاكما على دمشق وخول له حق فرض الضرائب وتجنيد الرجال (١٨٦) . وتولى بعد طغتكين ابنه بورى سنة ١١٢٨ م ثم خلفه اخوه اسماعيل سنة ١١٣٢ م ومن بعده محمود بن طغتكين . وخلف محمودا ولده محمد سنة ١١٣٨ م وانتهت الأسرة فى عهد آبق بن محمد سنة ١١٥٤ م على يد نور الدين زنكى (١٨٧) .

اتابكة الموصل :

وفى سنة ٥١٥ هـ /سنة ١١٢٨ م استطاع عماد الدين زنكى اتابك الموصل الاستيلاء على

---

(١٧٩) Gibb: op. cit. P. 23 - 8.

(١٨٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١٦ .

(١٨١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٣٤ .

(١٨٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(١٨٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

(١٨٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ ٢ ص ١٥٣ ، أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٤ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٢ .

(١٨٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ .

(١٨٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٦٩ ، ابن خلدون : المقدمة جـ ٥ ص ١٥٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٨٨ .

(١٨٧) فيليب حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ص ٢٠٩ .

حلب • وكان عماد الدين فى أول أمره مملوكا فىخدمة ملكشاه ، ثم صار قائدا ممتازا فى جيش تتش (١٨٨) ثم تولى حكم حماة وحمص وبعلبك • وقام عماد الدين بعدة حملات ضد الصليبيين ، كانت أولها حملته على الرها ، التى استطاع الاستيلاء عليها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما سنة ٥٣١/سنة ١١٤٤ م ، وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات (١٨٩) • وكان عماد الدين لا يمر بعمل من أعمال الرها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه الاسلم اليه فى الحال • وهكذا أتى عماد الدين بشدة بأسه على امارة الشمال الصليبية ، وكان سقوطها نذيرا بتحول مجرى الاحداث فى مصلحة المسلمين ، أما وقع الخبر على الصليبيين فى أوربا فكان باعثا على تجهيز الحملة الصليبية الثانية (١٩٠) •

وقد كان عماد الدين زنكى يطمع فى أن يوحد القوى الاسلامية فى العراق والشام وخاصة بعد وفاة طغتكين ، حتى يستطيع أن يقف أمام القوى الصليبية المتحالفة • ولكى يتمكن من اتمام هذا المشروع ، كان عليه أولا ان يثبت أقدامه فى حلب ، لذلك تزوج من خاتون بنت الملك رضوان بين تتش ملك حلب السلجوقى الاسبق ، ذلك حتى يرث حقوق بيت رضوان فى شمال الشام عن طريق هذه الزيجة (١٩١) •

وكان على عماد الدين زنكى أن يتقرب الى السلطان محمود السلجوقى ، الذى منحه «التواقيع السلطانية بملك المغرب كله» (١٩٢) •وبذلك ثبتت أقدام عماد الدين فى حلب ، فعاد الى الشام عازما على الجهاد (١٩٣) ومعه منشوره بالجزيرة والشام وما إتصل بهما (١٩٤)

وكانت بلاد الشام فى ذلك الوقت تتقاسمها ثلاث قوى ، الاولى وقد سيطر عليها بورى ابن طغتكين وقاعدتها دمشق وتمتد من حماه فى الشمال الى حوران فى الجنوب • والثانية ويتزعمها صمصام الدين خيرخان (قيرخان) ابن قراجا أمير حمص • والثالثة ومحورها سلطان ابن منقذ أمير شيزر (١٩٥) وقد استطاع عماد الدين بما يملك من عوامل القوة ورسوخ القدم من أن يخضع أمير حمص وأمير شيزر ، ولم يبق أمامه سوى بورى أتابك دمشق (١٩٦) • لذلك بدأ عماد الدين فى تجهيز حملة كبيرة برسم محاربة الصليبيين ، فى الظاهر ، اما السبب الحقيقى والخفى كما قال ابن العديم (١٩٧) ، انه كان ينوى مهاجمة دمشق لا لمحاربة الصليبيين ، لكن المنية لم تمهل عماد الدين ، اذ قتله احد خصيانه ويدعى يرنقش (بيرنقش)

---

(١٨٨) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢٤
(١٨٩) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٨١
(١٩٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٠٥ •
(١٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٤٠
(١٩٢) ابن العديم : زبدة الحلب ص ٣٥٨
(١٩٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق صـ ٢٢٧
(١٩٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٤٠
(١٩٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٦٦
(١٩٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٣٥٩
(١٩٧) ابن العديم : زبدة الحلب ص ٨٥٢

وهو على حصار قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة سنة ٥٤٢ هـ/ سنة ١١٤٦ م (١٩٨). وقد كانت خسارة للمسلمين فادحة فى قتل زنكى حتى لقد صاح أهل قلعة أنفسهم فى القاتل قائلين « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله » (١٩٩) .

وقد أدت وفاة عماد الدين وتقسيم ملكة بين ولديه الى اتاحة الفرصة أمام أعـداء الدولة الزنكية من المسلمين والمسيحيين على حد سواء (٢٠٠) ، ففى الجنوب أسرع معين الدين انر الى ارسال قوة من دمشق احتلت بعلبك واخضعت حكام حمص وحمـــاة . وفى الشرق استرد الاراتقة المدن التى سبق أن أخذها منهم عماد الدين فى ديار بكر (٢٠١) ، وفى شمال الشام قام ريموند أمير أنطاكية بحملة على حلب بقصـد العمل على استرداد الرها (٢٠٢) .

لذلك نجد أن أول الاعمال الحربية التى واجهها نور الدين محمود بن زنكى اســترداد الرها ، ولم يكتف بالاستيلاء عليها للمرة الثانية سنة ٥٤٢هـ / سنة ١١٤٦م بل استولى عـلى عدة حصـون وقــلاع مثل بسرفوث وارتاح والاثارب وغيرها (٢٠٣) كذلك عمل نور الدين محمود بن زنكى الى استمالة حكام دمشق الى جانبه وكسب ودهم (٢٠٤) . وأخيرا استطاع الاستيلاء على دمشق من آبق حفيد طغتكين سنة ٥٥٠هـ / سنة ١١٥٤م .

الاكــراد :

لقد ورد ذكر الاكراد فى بلاد الشــام فى القرن الحادى عشر ، عندما زحف الصليبيون على الساحل بقيادة ريموند فى اتجاه الجنوب ، الـذى اضرم النار فى معرة النعمان ، وأنزل الدمار بسكانها (٢٠٥) . ثم استأنف السير فى وادى العاصى محتلا فى طريقه حصن الاكراد ذى الموقع الحصين المسيطر على الممر الخطير الذى يصل بين السهول الساحلية وبسهول نهر العاصى (٢٠٦) . ويعرف حصن الاكراد اليوم بقلعة الحصن ، التى أقيمت على أنقاض قلعة قديمــة بناها أحـد أمـراء حمص ســـنة ١٠٣١ م (٢٠٧) وجعل فيها جماعة من الاكراد . وعلى ذلك يمكن اعتبار تاريخ قلعة الاكراد منذ سنة ١٠٣١م ، تاريخا للاكراد فى بلاد الشام .

وقد تعـرض حصن الاكراد لكثـير من الاخطار أثناء مرور الصليبيين الى بيت المقدس ومنه الى ســاحل بلاد الشــام عبر الطـريق الداخلى . فعندما استأنف الصليبيون زحفهم

---

(١٩٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩٦
(١٩٩) ابن العـديم : زبدة الحلب ص ٣٨٨ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤
(٢٠٠) ابن الاثير : الكامل (حوادث ســـنة ٥٤١ هـ) .
(٢٠١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشــق ص ٢٨٦
(٢٠٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦١٢
(٢٠٣) ابن الاثير : الكامل (حوادث ســـنة ٥٤٢ هـ)
(٢٠٤) Grousset. R.: L'Empire du Levant Tome II. P. 228.
(٢٠٥) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩ ، أبو الفدا ج ٢ ص ٢٢١
(٢٥٦) فيليب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ص ٢٢٧
(٢٠٧) العماد الاصــفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٧٢

الى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، مروابمصياف فخرج اليهم أميرها وعقد معهم اتفاقية ، ثم اتجهوا الى بعرين ومنها الى سهل البقاع ففرأهلها هاربين الى حصن الاكراد ومعهم ما استطاعوا حمله من مال وثروة ، فاتجه اليهم الصليبيون وحاصروهم حصارا محكما حتى سقط الحصن ، فما كان من أمير حمص جناح الدولة الا أن أرسل الرسل الى الصليبيين محملين بالهدايا حتى لا يتعرضون للبلد بسوء (٢٠٨) •وفى سنة ٥٥٩هـ / سنة ١١٦٣م ترك نور الدين محمود بن زنكى امارة انطاكية ليهاجم امارةطرابلس ، ولكنه لم يكد يحاصر حصن الاكراد حتى اجتمعت القوات الصليبية المتباينة ضده واضطر نور الدين الى الفرار الى حمص •وقد تعرض حصن الاكراد لزلزال (٢١٠) شديددمره ودمر الكثير من الحصون والمدن التى تقع فى حوض نهر العاصى سنة ٥٦٦هـ / سنة ١١٧٠م وكان يسكنه فى ذلك الوقت فرسان الاسبتارية (٢١١) • كذلك لم يجد ريموندوسيلة لصرف صلاح الدين الايوبى عن حلب غير مهاجمة حمص (٢١٢) ، رفعلا أسرع صلاح الدين لنجدة حمص ، وفى الحال ترك ريموند الثالث حمص واتجه الى حصن الاكراد بعد أن حقق أغراضه (٢١٣) •وهكذا استقر الصليبيون فى حصن الاكراد ، ومنه أخذوا يهددون المدن القريبة منه التى كانت ماتزال فى يد المسلمين• لذلك أخذ صلاح الدين فى اخضاع البقاع والحصون والقلاع الصليبية على شاطىء البحر بعد أن أتم غزو فلسطين مثل صور وطرابلس والقلاع الداخلية مثل حصن الاكراد وحصن المرقب وذلك سنة ٥٨٣ هـ / سنة ١١٨٧ م (٢١٤) وقد كرر صلاح الدين المحاولة مرة ثانية سنة ٥٨٤هـ / سنة ١١٨٨م ، ولكنه فشل لاستماتة الاسبتارية فى الدفاع عنه (٢١٥) • وهكذا لم يبق للصليبيين فى مملكة بيت المقدس بعد انتصارات صلاح الدين سوى طرابلس وحصن الاكراد وبعض المراكز الثانوية •

وقد عاود السلطان العادل الكرة فى محاولة فتح حصن الاكراد سنة ٦٠٣هـ / سنة ١٢٠٧م ولكنه فشل فاكتفى بالاستيلاء على برج اعناز الى الجنوب الشرقى من حصن الاكراد وأسر حاميته وغنم منه أموالا وسلاحا كثيرا (٢١٦) •كذلك حاول ابن العادل الاشرف موسى مهاجمة الحصن سنة ٦١٤هـ / سنة ١٢١٨م ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليه • وأخيرا

---

(٢٠٨) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٥

(٢٠٩) ابن الاثير : الباهر ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢١٠) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٥

(٢١١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ص ٧١٥

(٢١٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٩

(٢١٣) ابو شامة : الروضتين ص ٢٤٠

(٢١٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٧

(٢١٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٣٣

(٢١٦) ابو الفدا : المختصر فى حوادث سنة ٦٠٣ هـ •

استطاع السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على حصن الاكراد وأخذه من الاسبتارية سنة ٦٧٩ هـ / سنة ١٢٧١ م (٢١٧) .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى وفدت على بلاد الشام طائفة من الاكراد المتشيعين للمذهب اليزيدى ، فاليزيدية ، كما جاء فى الرسالة (٢١٨) اليزيدية ، طائفة من الاكراد يسكن أكثرهم الموصل وولاية اروان الروسية ومنهم من يسكن نواحى دمشق وبغداد وحلب .

ويعتبر الشيخ عدى بن صخر بن مسافر ، فى بعض الروايات ، من المؤسسين الاوائل لعقيدة اليزيدية ، وتوارث أبناؤه من بعده مشيخة هذه الطائفة حتى كان حفيده الشيخ زين الدين يوسف (٢١٩) بن عدى بن مسافر الهكارى ، الذى انقطع فى جبل الهكارية (٢٢٠) من أعمال الموصل وبنى له هناك زاوية وبقى هناك معززا مكرما محوطا بكثير من الجلال والمهابة من الحكام والولاة والامراء حتى توفى هناك سنة ٥٥٧ هـ (٢٢١) ، أى فى نهاية حكم الدولة الفاطمية فى مصر والشام . وخلف الشيخ عدى الهكارى من بعده أخوه صخر (٢٢٢) وتفرق أولاده فى البلاد وأقبل عليهم العباد فنزل بالموصل الشيخ شمس الدين الحسن بن صخر ابن مسافر الملقب بتاج العارف بن أبى محمد شيخ الاكراد .

وكان أبو محمد هذا من رجال العلم والادب وصاحب رأى وفضل ، كما كان واسع الحيلة والدهاء . لذلك فقد كثر اتباعه ومريدوه الذين بالغوا فى احترامه واطاعة أوامره مما أوغر صدر صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ عليه فأمر بقتله سنة ٦٤٤هـ / ١٢٣٨م .

فلما قتل أبو محمد شيخ الاكراد رحل ابنه زين الدين أبو المحاسن يوسف الذى كان يقيم مع والده فى المكان المعروف باسم (بلالش) (٢٢٣) فى جبل الهكارية من أعمال الموصل ، الى بلاد الشام حيث أكرم أهل الشام وفادته وأحاطوه بمظاهر الاجلال والتعظيم . وأنعم عليه واليها (بأمره) (٢٢٤) . ويستطرد المقريزى (٢٢٥) فى سرد قصة زين الدين فى

---

(٢١٧) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٩٨ ، أنظر أيضا : نبيلة مقامى : فرق الرهبان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، (رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥) ص ٨١ .
(٢١٨) احمد تيمور : الرسالة اليزيدية ص ٢٣
(٢١٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٥
(٢٢٠) السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٩٠
(٢٢١) ابن الزيات : الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ١٨٦
(٢٢٢) السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٩١
(٢٢٣) تعتقد طائفة اليزيدية أن معبد (اللالسن) افضل من الكعبة ، وانه لا فائدة من زيارتها (أى الكعبة) لمن لا يقدر على زيادة (لللالسن) . كما انهم يسجدون لللالسن ولكل مكان شريف بزعمهم (الرسالة اليزيدية ص ٢٧) .
(٢٢٤) ورد لفظ الاسرة فى الرسالة اليزيدية وبالخطط للمقريزى ، ولعل المقصود بها هنا أن الشيخ زين الدين منح لقب أمير ، أو أنه ولى أمارة من الشام كما يفهم من نص المقريزى فى الفقرة التالية .
(٢٢٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٥ .

بلاد الشام فيقول : « وترك زين الدين الامرةوانقطع فى قرية فى الشام تعرف (ببيت فاز) وعاش علـى هيئة الملوك من اقتنـاء الخيول المسومة والمماليك والجوارى والملابس والغلمان وعمل الاسـمطة والولائم الفاخـرة • ولكن الشيخ زين الدين خاف على نفسه مغبة هـذا الترف والتفاف الناس حـوله وكثرة مريديه حتى لا يحدث له ما حدث لعمه بالموصل ، فترك ولده عز الدين (٢٢٦) فى الشـام ورحـل الى القاهرة وأقام بها معززا مكرما وانقطع للعبادة بزاويتـه التى عرفت فى وقتـه باسم الزاوية (٢٢٧) العدوية نسبة الى جده عدى •

وتزعم عز الدين بقرية بيت فاز طائفة الاكراد اليزيدية ، واتسعت عليه النعمة (٢٢٨) وذاع صيت الشـيخ عز الدين ببلاد الشـام وقويت شوكته لكثرة أتباعه ومريديه وازدياد ثروته التى كان يشترى بها أهل الجاه والسلطان والنفوذ ، الامر الذى جعـل كل من يتـولى السلطنة فى مصر يرسل له رسولا لتحليفه على اطاعته وعدم الخروج عليه • فقد حدث عندما تولى السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ، أن أتاه الامير الكبير علم الدين سـنجر الدوادار ومعه الشـهاب محمـود لتحليفه فى قريتـه (بيت فاز) فاذا هو « كالملك فى قلعته للتجمل الظاهر والحشـمة الزائدة والفرش الاطلس وآنية الذهب والفضـة والنضـار (الخزف) الصينى وأشياء تفوت العد ، الى غير ذلك من الاشربة المختلفة الالوان والاطعمة المنوعة (٢٢٩) ويضيف المقريزى قائلا : «فلما دخلا عليه لم يحتفل بهما وقبل الامير سنجر يده وهو جالس لم يقم ، بل بقى قائما قدامه يحدثه وعز الدين يسأله ساعة ثم أمره أن يجلس فجلس عـلى ركبته متأدبا بين يديه • فلما حلفاه أنعم عليهما بما يقارب الخمسـة عشر ألف درهم (٢٣٠) • وقد أنعم السلطان بعد ذلك عـلى الشـيخ عز الدين بأمرة دمشـق ، ثم انتقل الى أمرة بصفد ثم أعيد الى دمشق • الا أن الشـيخ عز الدين ترك الامرة وانقطع لمشيخة طائفته ، وتردد عليـه جماعة الاكراد من كل قطـر ، وحملوا اليه الاموال ، مما شجعه على الخروج على السـلطان ، بعد أن وعد رجاله بنيابات البلاد ، فنزل بأرض اللجون يريدون سـلطنة مصر وقيل اليمن • فبلغ ذلك السـلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كتب الى الامير تنكز نائب الشـام ، فكشف أخبارهم وقبض عليهم وسجن عز الدين وذلك سـنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م ، وبقى فى سجنه الى أن مات وتفرقت الاكراد فى بلاد الشام ، أما فى مصر فقد أمر السلطان بالقبض عـلى من بالزاوية العدوية بالقاهرة من فقراء العدوية من الاكراد وغيرهم وبذا انتهت سيرتهم بمصر (٢٣١) •

---

(٢٢٦) هناك خلاف بين المقريزى والسخاوى ،فبينما يذكر السخاوى ، ان زين الدين بقى ببلاد الشام وتمرد على السلطان الاشرف خليل • نجد المقريزى يقول بمجىء زين الدين الى القاهرة خوفا على نفسه وان ابنه عز الدين هو الذى بقى ببلاد الشام وانه هو الذى تمرد على السلطان الاشرف خليـل •

(٢٢٧) سعاد ماهر : مسـاجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ٢ ص ٣٢١

(٢٢٨) السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٩٢

(٢٢٩) السخاوى : تحفة الاحباب ص ١٩٢

(٢٣٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٥ ، ٤٣٦

(٢٣١) سعاد ماهر : مسـاجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ٢ ص ٣٢٠

أما عن عقيدة الاكراد اليزيدية فسنتناولها عند الحديث عن موضوع الفرق والنحل ببلاد الشـــام •

وقد اعتبر النظام الاقطـــاعى المملوكى الاكراد الداخلين فى طاعة الدولة المملوكية ، من رجال السيف المقطعين ، حكمهم فى ذلك حـــكم زعمـــاء العرب والتركمان ، لان معظم عملهم يتركز فى حماية أطراف الدولة ، وكان يطـــلق عليهم أحيانا « أرباب الادراك أو المثاغرون » وعرف الواحد من زعماء الاكراد باسم مقدم الاكراد أو مقدم التركمان • ومن الواضح أن طائفة الاكراد قد لعبت دورا لا يستهان به فى العصر المملوكى حتى ان سلاطين المماليك كانوا يصدرون وصايا الاقطاع باسم (مقدم الاكراد) حكمهم فى ذلك حكم نائب السلطنة والاستادار ومقدم المماليك السلطانية وأمير آخور وغيرهم (٢٣٢) • ونتبين من وصية منحت لمقدم الاكراد فى أوائل العصر المملوكى ذكرها ابن فضل الله العمرى كيف كان السلطان المملوكى يعتز بهم وبمؤازتهم ومساعدتهم وكيف كان يحثهم على الاتحاد وأنه اذا اتفقت كلمتهم لما وجدت خيل تكفيهـــم فى الركوب • ثم يعـــود الســـلطان فيتوعدهم اذا سولت لهم أنفســـهم الخروج عليه ويطلب منهم الجهاد فى سبيل الله واخراج الفرنجة فيقول ، واسبرهم بخوض الســـاريت وارمهم فى البـــر والبحـــــر ولا تخف فانهم عفاريت • ثم تنتهى الوصية ببيان حق الارث اذا مات المقطع (٢٣٣) •

(٢٣٢) انظر : القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٦٢ ، ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص (١٥٥) وعن النظام الاقطاعى المملوكى انظر : Hassanein Rabie: The financial system of Egypt A. H. 564 - 741 / A.D. 1169 - 1341, (London, 1972), PP. 26 - 72.

(٢٣٣) ابن فضل العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١١ ـ ١١٢

٣ ــ أهل الذمـة :

واذا كنا قد تناولنا بالبحث والدراسة العناصر الاسلامية للسكان ، فان البناء الاجتماعي فى بلاد الشام لا يمكن أن يكون تاما الا اذا درسنا جميع مكوناته من غير العناصر الاسلامية ونعنى بذلك أهل الذمة .

لقد نعم المسيحيون فى بلاد الشام منذ نشأة الدولة الاسلامية بالحرية الدينية والتسامح ، فقد تولوا جميع الوظائف التى تولاها المسلمون تقريبا فيما عدا الوظائف الدينية كالقضاء والحسبة . وكانت الاديرة والكنائس المسيحية وكذا الكنيس اليهودى منتشرة فى كل مكان ، وكان يسمح للحجاج المسيحيين بالقدوم الى فلسطين من أقاصى البلاد فى حرية تامة كما أفرد فى بيت المقدس حى خاص لسكنى البطريق وقساوسته ، فقد وجدت جاليات لا يستهان بها من النصارى واليهود فى بيت المقدس (٢٣٤) . كما كان النصارى يمثلون جانبا كبيرا من أهالى مدينة حلب فى العصور الوسطى ، وكان بها (٢٣٥) ثمانى كنائس ، أشهرها كنيسة الانبا سمعان (٢٣٦) وقلب لوزة (٢٣٧) اللتان ما تزالان باقيتين حتى الآن .

وعندما سيطر الفاطميون على فلسطين والشام ، كان ذلك فى صالح المسيحيين ، فقد شملوهم برعايتهم وشجعوا التجارة (٢٣٨) المسيحية ، وخاصة فى عهد الخليفة العزيز بالله الذى جعل أخا زوجته المسيحية (أراميس) بطريقا على بيت المقدس والاخ الثانى بطريقا على القاهرة ومصر . كما استوزر عيسى ابن نسطورس فى مصر وأناب عنه فى بلاد الشام يهوديا هو منشا بن ابراهيم (٢٣٩) .

وقد استمرت معاملة الحكام المسلمين فى بلاد الشام لأهل الذمة على ما كانت عليه من التسامح فى العصر الايوبى حتى أن جيش صلاح الدين الذى تصدى للصليبيين كان يضم الكثير من مسيحيى مصر والشام . كما أنه حدث عندما دخل صلاح الدين بيت المقدس (سنة ٥٨٣هـ / سنة ١١٨٧م) وشاءت الظروف أن يوافق دخوله ذكرى ليلة الاسراء والمعراج فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية ، وأحسنوا معاملة المسيحيين حتى الصليبيين منهم ، مما جعل كثيرا من المؤرخين الاوربيين يشيدون بتسامح صلاح الدين وبالفرق بين معاملته للمسيحيين ، ومعاملة الصليبيين للمسلمين عندما استولوا على بيت المقدس (سنة ٤٩١ هـ / سنة ١٠٩٧ م) (٢٤٠) .

---

(٢٣٤) المقدس : احسن التقاسيم ص ٦٧

(٢٣٥) Hitti: History of Byria. P. 581

(٢٣٦)

(٢٣٧) مرابط اوغلو : العمارة السورية ص ٢٣

(٢٣٨) Robin fedden: Crusader Castles. P. 47

(٢٣٩) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٤٧

(٢٤٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٠٢ ، ابو شامة : النوادر السلطانية ص ١٢٦ ،
Grousset: Histoire des croisades vol! II. P. 809.
Runciman: A history of the Crusades. vol II. P. 464.

واذا كان التنافس بين أهل الذمة أنفسهم قد اتخذ بعض مظهر العنف فى بعض الاحيان، الا أن تأثيره كان قليلا علـى المجتمع فى بلاد الشـام اذا قيس بصراع العصـبيات (٢٤١) الاخرى • فكثيرا ما كان يقوم بينهـا النزاع بسبب العقيدة أو التقاليد أو بسبب الحصول على كسب مادى أو سياسى • لذلك يجدر بنا الحديث عن هذه الطوائف الفرعية من الذميين التى سكنت بلاد الشام فى الفترة التى نبحثها والتى كان لها أثر كبير على المجتمع الاسلامى فى تلك الفترة •

السـامرة :

ينسب السامريون أنفسهم الى سـبطيوسف ، ويعزون سبب انشقاقهم عن سـائر أسباط اسرائيل الى خلاف دينى نشـأ بينهم وبين هذه الاسباط • فلما دخل العرب فلسطين أخذ السامريون يدينون بالاسلام فقل عددهم رويدا رويدا الى أن أصبحوا طائفة قليلة وقد اقتبسوا من المسلمين واقتبس المسلمون منهم فى نابلس خاصة كثيرا من العادات واللهجات• وقليل منهم يعرف العبـرية كمـا أن عبريتهم قديمة وان اختلفت عن عبرية اليهـود الا أن اللغتين تمتان الى أصل واحد • ولا يزال أصل بعض الاسر المسلمة فى نابلس معروف النسبة والارومة فى الطائفة السامرية (٢٤٢) •

وينعت السامريون أنفسـهم بالمحافظين لانهم حافظوا ولا يزالون يحافظون على أدق شـعائر العبـادات والشريعة دون تأويل ولا انحراف (٢٤٣) ، ويزعمون أن التوراة التى فى أيديهم أصدق وأقدم توراة • والتوراة التى بين أيديهم مسطورة فى درج طويل من الرق له اسطوانة (٢٤٤) مفضضة محفوظة فى معبدهم فى نابلس ، الذى أصبح سلوتهم الوحيدة فى هذا العالم الذى أصـبحوا فيه غرباء عن كل أممه ، وأثرا تاريخيا أكثر منه شعبا حيا (٢٤٥)•

ولعل من أوضح أسـباب الخلاف بين السـامريين واليهـود ، موضـوع القبـلة ، فالسـامريون يعتبرون جبل (جرزيم) هـو الجبل المقدس والمحل المختار ، ومن ثم يقررون أن عيد الفصح وقرابينه لا تجوز الا فى هـذا الجبل ، الذى لا يتعدى حدود منطقة مدينـة نابلس الآن • وللسامريين أصول فلكية دقيقة يعتمدون عليها ويستندون اليهـا فى حسـاب تعيين مواعيـد الاعيـاد والشـعائر (٢٤٦) •والسامريون يتشددون فى شـعائرهم الدينية

---

(٢٤١) Hitti: History of Syria. P. 586.

(٢٤٢) ويقال ان اسم السامرة على الغالب من شمر (Shemer) بمعنى حارس انظر سـفر الملوك (١ : ٢٤) •

محمد كرد على خطط الشام ج ٦ ص ٢٢٠ و ٢٢٢

(٢٤٣) سفر نحميا ١٣ : ٢٨ ، Josephus: Antiquities. vol. IX

(٢٤٤) سفر الملوك الاول : ١٤ : ٢٥ ــ ٢٦ Breasted: Records of the Past vol. IX P. 709.

(٢٤٥) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٢٢

(٢٤٦) Luekenbill: Records. vol. I. P. 803, 5, 6, 9.

لا سيما يوم السبت ، ويزعمون أنهم يطبقون أوامر التوراة حرفيا ، كما يتشددون فى أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة (٢٤٧) ، ولذافهم لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم وانما يستأجرون لهذين الغرضين أناسا من المسلمين،ذلك ان السامرى ، عندهم ، لا يطهر من هاتين العمليتين الا اذا رش بعد عزله الايام السبعة،برماد بقرة مقررة الصفات • أما عن طهارتهم للصلاة فهى أقرب ما تكون من وضوء المسلمين• وقد عاون السامريون المسلمين فى أيام الحروب الصليبية بل انهم احتسبوا موتاهم فى تلك الحروب شهداء ومن ثم فقد أقاموا عليهم الاضرحة التى ماتزال تزار حتى اليوم من السامريين والمسلمين من سكان نابلس حتى اليوم (٢٤٨) •

وقدجرت العادة فى القرون الوسطى أن يسجل فى كتاب ولاية بيروت شروط العقيدة الاصلية عند السامريين ، وهى خمسة :الاعتقاد بوحدانية الله ونبوة موسى وأن التوراة كتاب منزل وان جبل (جرزيم) مكانهم المقدس وأن الساعة آتية لا ريب فيها (٢٤٩) •

المـــوارنة : (٢٥٠)

ولعل من أبرز فرق الطائفة المسيحية فى بلاد الشام منذ أوائل العصر الاسلامى والتى اشتدت شوكتها ابان العصور الصليبية هى فرقة الموارنة • وهم طائفة من الكاثوليك الشرقيين ، ومن أهم فروع الكنيسة السورية القديمة ، وهم ينتسبون الى القديس مارون (٢٥١) • وقد جاء فى أخبار هذا القديس ، أنه بعد أن توفى عمد تلاميذه الى جثمانه فنقلوه الى مكان قرب (افامية) على نهر العاصى ، دفنوه فيه ثم أقيم فوقه دير على اسمه تخليدا لذكراه (٢٥٢) •

---

(٢٤٧) Josephus: Antiquities, vol. X. P. 3.

(٢٤٨) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٢٤٩) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٢٤ ، Josephus: Antiquities, vol. X. P. 180

(٢٥٠) لفظة مارو من أصل سريانى معناها الصغير (تاريخ سورية ولبنان جـ ٢ ص ١٤٠ لفيليب حتي) •
من المعروف انه قد نتج عن المعارضة للفكر المسيحى بالشكل الذى مثلته بيزنطة وأنطاكية من انشقاقات من وجهة نظر الكنيسة الرسمية • كما أدت المجادلات حول طبيعة المسيح الى تجزئة المسيحية السورية الى عدد من الفرق نتج منها الارثوذكسية التى تفرع منها النساطرة واليعاقبة ومنها البروتستانتية ومنها الكاثوليكية التى تفرع منها الموارنة •• وكان من الطبيعى أن ينتج عن تعدد هذه الفرق بين الطائفة المسيحية فى بلاد الشام وخاصة على عصر الحروب الصليبية الكثير من القلاقل والفتن التى أثرت بدورها على المجتمع الاسلامى فى سوريا فى تلك الفترة •

(٢٥١) مارون هذا ناسك راهب متعبد متقشف لايعرف عن حياته شئ كثير ، عاش بين انطاكية وقورس (فورس) وفى قورس توفى سنة ٤١٠م• ومن المرجح ان يكون هو (مارون الكاهن الناسك) الذى وجه اليه يوحنا كريستم وهو فى طريقه الى منفاه ، رسالة يرجوه فيها أن يصلى من اجله ويوصله بأخباره (اسطفان الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ص ١٩ — ٢٠) •

(٢٥٢) وقد نشبت بين الموارنة واليعاقبة فتنة ذهبت بحياة ثلاثة مائة وخمسين راهبا مارونيا من رهبان هذا الدير سنة ٥١٧م ، ولذلك فان الكنيسة المارونية لاتزال تحتفل حتى اليوم بذكرى جهادهم (اسطفان الدويهى : تاريخ الطائفة المارونية ص ٣٠) •

واذا كان القديس مارون هو الزعيم الروحي والمعلم الاول لهذه الطائفة ، فان يوحنا (٢٥٣) مارون المتوفى سنة ٧٠٧ م هو الزعيم الدنيوى ومؤسس كيانها القومى على ضفاف تاديشا . وقد نمت طائفة المارونية برعايته حتى غدت فى أوائل العصر الاسلامى شوكة فى جانب العرب بعد أن امتزحوا بالبهادة(٢٥٤) (الجراجمة) الذين تسللوا من الشمال وسكنوا المنطقة الجبلية الوعرة فى شمال سوريا ، واستطاعوا أن يتمتعوا بقسط وافر من الحكم الذاتى . بل لقد ازدادت قوة هذه الطائفة فى العصر الاموى مما اضطر الخليفة معاوية بن أبى سفيان ومن بعده عبد الملك بن مروان أن يدفع لهم اتاوة سنوية حتى يلتزموا جانب الحيدة بينه وبين الدولة البيزنطية (٢٢٥). ومنذ ذلك الوقت ، استكان الموارنة ومالوا الى العزلة وأنشأوا ضربا من الفردية التى طالما تميز بها سكان الجبال . كما اتخذوا من (قنوبين) (٢٥٦) القائمة فى الجبال الصخرية الوعرة مركزا للبطريق الماروني ، ثم تحولوا عنها الى (بكركى) فى جوار مدينة بيروت(٢٥٧) .

وأخذ الموارنة بعد ذلك ينزحون الى البلاد المجاورة ، فنزل قوم منهم فى جبال عكار وعمروا فيها القرى ، وسارت الى الجنوب فئة منهم استقرت فى شمال لبنان . وهناك قويت شوكتهم وزاد نفوذهم ، حتى بلغ عدد رجالهم الصالحين للقتال أيام الحروب الصليبية أربعين الف مقاتل (٢٥٨) . كذلك قصد فريق منهم الى سورية الداخلية واستوطن قرب

---

(٢٥٣) من المرجح أن يكون يوحنا مارون هو الذى أعطى هذه الطائفة اسمها ، فقد ولد فى سروم قرب انطاكية ، ودرس السريانية واليونانية فى مدينة انطاكية قبل أن يلتحق بالدير الذى أقيم على ضفة نهر العاصى . ثم استأنف تحصيله فى القسطنطينية ورسم من ثم اسقفا على البترون فى لبنان . وكان كرسيه اولا فى سار جبيل ثم تحول الى كفرص ، وهناك بنى ديرا دفن فيه ، وتقوم اليوم فى هذا المكان مدرسة تحمل اسمه .
(فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان ج ٢ ص ١٤٠) .

(٢٥٤) ياقوت : ج ٢ ص ٥٥ ، البلاذرى ص ١٥٩ ، لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من ، الآثار ج ٢ ص ٤١ ـ ٤٨ ، عن فيليب حتى ج ٢ ص ٥٤) ..

(٢٥٥) اليعقوبى : ص ٣٢٧ ، Lammens: mélanges. vol I. P.P. 14 - 22.
البلاذرى : انساب الاشراف ص ٢٥٥ ـ ٣٠٠ (نشر Goitein القدس سنة ١٩٣٦) .

(٢٥٦) قنوبين : لفظ سريانى من أصل يونانى معناه الدير ، وهو من الاسماء الجغرافية اليونانية القليلة الباقية فى لبنان (تاريخ سورية ولبنان ج ٢ ص ١٤١) .

(٢٥٧) يوسف الدبس : تاريخ سوريا ج ٥ ص ١٥٦ ، Pierre Dib: L'Eglise maronite, vol. I. P.P. 62 - 143 (1930 Paris) Barnard g. Al - Ghaziri Rome et L'Eglise Syrienne - maronite P.P. 31 - 45 (Paris 1906).

لقد اختلف المؤرخون فى مذهب الموارنة فقد اكد ابن سعيد بن البطريق (ب ٢ ص ١٢) انهم من من اصحاب الطبيعة الواحدة وايده فى رأيه السعودى المعاصر له (التنبيه والاشراف ص ١٥٣ ١٥٤) كما أشار الى ذلك وليم الصورى مؤرخ الحروب الصليبية
William of Tyre, vol. II P. 459 (tr. Emily and Badeock and krey)
بقوله ان الهرطقة التى ارتكبها مارو واتباعه ، لايزالون عليها ، وهى ان السيد المسيح مازال ، كما كان منذ البدء ذا مشيئة واحدة وطبيعة واحدة ثم أضاف بعد ذلك قائلا انهم عادوا فنبذوا هو هرطقتهم سنة ١٨٠م وعادوا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، الا أن هذا الرأى الاخير الذى انتهى اليه وليم الصورى ، قد اعتبره موارنة القرن الثامن عشر هو الرأى الصحيح وانهم لم يشذوا ويخرجوا عنه عبر العصور .. (اسطفان الدويهى المتوفى سنة ١٧٠٤م ، وابن نيرون المتوفى سنة ١٧١١م) .

دمشق • واستغل الارض وفلحها وبنى الدساكر والزبط واستقر فريق آخر فى القدم فى أيام الحروب الصليبية (٢٥٩) • وفى نهاية القرن الثالث عشر نزحت طائفة قليلة فى ذيل الصليبيين الى قبرص (٢٦٠) ، كما سكن بعض منهم حلب فى القرن الخامس عشر (٢٦١) •

ومهما يكن من أمر عقيدة الموارنة فان الذى نريد أن ننبه اليه هو أن الموارنة كانوا طوال عصر الحروب الصليبية موضع اهتمام (٢٦٢) روما ، مما كان يشكل خطرا كبيرا على المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى ذلك الوقت •

هذا ويجب أن نذكر هنا أن الكثير من أهل الذمة لم يكن من السهل عليهم التخلى عن لغتهم الاصلية ، ولذلك فقد بقيت لغتهم هى لغة التفاهم فى الحياة اليومية (٢٦٣) ، وقد كان لهذا العامل أثره فى وضع البلاد الاجتماعى ، فقد بقيت (جزر لغوية) لأهل الذمة مثل اليعاقبة والنساطرة والموارنة • فقد ذكر لنا بنيامين الطليطلى (٢٦٤) الذى زار جبل موسى بشبه جزيرة سيناء (سنة ١١٧٠م) أنه وجد على قمته معبدا سريانيا وعند سفحه قرية يتكلم كل أهلها (اللغة الكلدانية) •

---

(٢٥٩) يوسف الدبس : تاريخ سوريا جـ ٥ ص ١٥٦

(٢٦٠) Pierre Dib: L'Eglise Maronite, vol. P. 156.

(٢٦١) كرد على خطط الشام جـ ٦ ص ٢٣٧ •

(٢٦٢) فليب حتى : تاريخ سورية ولبنان جـ ٢ ص ١٤٢

(٢٦٣) فيليب حتى : اللغات السامية المحلية فى سوريا ولبنان ص ٣٠ ـ ٣٣

(٢٦٤) Itinerary, vol. I. P. 159 (London 1840).

الفصل الثالث

ـ الفرق الدينية

١ ـ السنة

٢ ـ الشيعة

١ ــ السـنة :

أهل السنة والجماعة هم السلف الصالح من أهل الفقه والحديث • وقد كتب كثيرون يفصلون ويشرحون هذه الفرق منهم الشهرستانى وابن حزم وعبدالقاهر البغدادى وغيرهم كثيرون • وأهل السنة ينقسمون الى قسمين الاول وهم الاشعرية والثانى الماتريدية (١) • والاشعرية هم أتباع الامام أبى الحسن على ابن اسماعيل (٢٦٠ ــ ٣٢٤هـ) وهو من ذرية أبى موسى عبد الله بن قيس الاشعرى الصحابى (٢) الجليل • وقد قام الامام أبى الحسن بشرح وتبسيط المذهب السنى مناصرا للمذهب الشافعى • وقد وافق على عقيدة الاشعرى المالكية والشافعية وبعض الحنفية والحنابلة ، وقد كان الامام أبى الحسن فى سابق أمره متتلمذا على شيخه محمد بن عبد الوهاب الجبائى شيخ المعتزلة ، الا انه ما لبث أن ترك المعتزلة بل كتب كتابا رد فيه على حججهم (٣) •

أما الماتريدية فهم أتباع الامام أبى منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى الحنفى المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣هـ ، وقد ألف كتبا عديدة (٤) منها كتاب التوحيد ، وكتاب « بيان وهم المعتزلة » ، على أن أهمهم كتاب « تأويلات القرآن » (٥) وقد قام باتباع وشرح مذهب الامام أبى حنيفة • ولم يقم هذان الامامان باتيان جديد على مذهب السنة ، انما هما مقرران لمذاهب السلف ، غير أنهما اختلفا فى بعض المسائل المتفرعة عن الاصول •

ولسنا هنا فى مجال شرح المذاهب السنية، ولكننا بصدد معرفة المذاهب التى كان يعتنقها المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر • وقد ثبت لنا بالدليل المادى أن جمهور المجتمع الشامى كان فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها يعتنق المذاهب السنية الاربعة • واعتمادا على عدد المدارس التى خصصت لكل مذهب من المذاهب فى بلاد الشام نستطيع القول بأن المذهب الحنفى هو أكثر المذاهب شيوعا بين المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام عبر الحروب الصليبية ، ويليه المذهب الشافعى ثم المالكى ثم الحنبلى •

الشـيعة :

عرف الشيعة بشيعة على ، ثم غلب الاسم فاطلق فقيل لهم شيعة • وينتشر الشيعة فى بلاد الشام فى جبل عامر الذى يقع بين صفد جنوبا ونهر الاولى شمالا وغور الحوله وماحاذاه

---

(١) الماتريدى : نسبة الى قرية سمرقند (ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ص ٧) •
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ص ٦
(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ص ٧
(٤) البيهقى : السنن الكبرى ص ٢٧
(٥) عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق

الى أرض البقاع شرقا والبحر المتوسط غربا (٦) • كما كانوا فى مدينة بعلبك وأعمالها منذ عهد قديم ، ولهم فى حمص قرى قليلة وفى المدينة نفسها جماعات ظاهرة ومستترة • أما عن الشيعة فى دمشق فيرجع عهدهم الى القرن الاول للهجرة • وقد هاجر الى أكناف حوران بعض من شيعة جبل عامر كما هاجر الى شمالى لبنان والمتنى والبترون جماعة من بعلبك (٧) •

وكانت الشام فى صدر الاسلام توالى عليا وأصحابه تارة وتوالى غيره مرة أخرى • وكان أهل حلب سنية حنفية حتى قدم الشريف أبى ابراهيم الممدوح فصار فيها شيعة ،وحاول السلاجقة عند استيلائهم عليها القضاء على التشيع مرات عديدة فلم يوفقوا الى ذلك ،فقد كان حكم بنى حمدان وهم شيعة من جملة الاسباب الداعية الى تأصل التشيع فى الشمال • ولايزال منقوشا على حائط صحن المدفن الموجود فى سفح جبل جوشن بظاهر حلب أسماء الائمة الاثنى عشر (٨) • وقد كانت حلب دائما مرتعا خصيبا لجميع الملل والنحل التى تظهر فى العالم الاسلامى (٩) • ولم يكن الحال قاصرا على حلب فحسب ، فقد كان هذا هو حال بلاد الشام جميعها ، فقد وصف المقدسى مذاهب أهل الشام فى القرن الرابع الهجرى فقال « ان السامرة منتشرون من فلسطين الى طبرية ولا نجد مجوسيا ولا صابئا مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان، شيعة ولا ماء فيه لمعتزل انما هم فى خفية • وفى بيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانق ومجالس ولا أثر به لمالكى ولا داوودى ، وللاوزعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث ، والفقهاء شفعاوية واليوم أكثر العمل على المذهب الفاطمى (١٠) » • أما فى القرن السادس الهجرى وهو العصر الذى ضعفت فيه شوكة الدولة الفاطمية ، فقد أصبحت الزعامة فى بلاد الشام للحكام السنيين سواء أكانوا من السلاجقة أو الاتابكة أو الايوبيين • وبرغم تشدد هؤلاء الحكام فى القضاء على المذهب الشيعى بتفريعاته ، الا أنه كان مايزال يحتفظ فى بلاد الشام بجذور أصيلة وجيوب منتشرة فى مدن البلاد وقراها • وقد أعطانا ابن جبير الذى زار بلاد الشام فى القرن السادس الهجرى، صورة صادقة لمذاهبها فقال: « وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة • ومنهم الاسماعيلية والنصيرية ،ويزعمون الالوهية لعلى رضى الله تعالى عنه ، ومنهم الغرابية وهم يقولون أن عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم

---

(٦) الشهرستانى فى : الملل والنحل ص ٥٧ ، ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ص (٤٩) ابن منصور : الدرجات الرفيعة • محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٥٢

(٧) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٥٣

(٨) Herzfeld: Corpus XIII. P. 257.

(٩) فقد ظهر فى حلب سنة ١١٤١ هـ قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحران كانوا يزعمون انهم بمنزله الملائكة وصعدوا تلا بحلب ولبسوا ثيابا من حرير وطاروا من التل فكروا وهلكوا • (حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٢ ص ٣٢٧) •

(١٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٨٩

من الغراب بالغراب وينسبون الى الروح الامين عليه السلام ، قولا تعالى الله عنه علوا كبيرا • وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالبنوية سنيون يدينون بالفتوة وأمور الرجولة كلها ، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه واذا أقسم أحدهم بالفتوة بر بقسمه وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم وشأنهم عجيب فى الانفة والائتلاف»

الاسماعيلية :

وكانوا يعرفون أيضا باسم الباطنية(١١)،وقد لعبوا دورا خطيرا على عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، من ذلك مقاومة المذهب السنى والعمل على الفتك بأهله وزعمائه وقادته من ناحية ، وفى مهادنة أو مقاومة الصليبيين من ناحية أخرى • ومن هنا يتبين لنا مدى تأثير هذه الطائفة فى المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، خاصة وأنهم قد اتخذوا لهم مراكز ثابتة كانت مقرا للدعوة فى أول الامر ثم أصبحت قلاعا حصينة فى عصر الحروب الصليبية مثل المعرة أو سلمية أو مصياف (١٢) •

على أن الاسماعيلية بدأت تلعب دورها الواضح فى بلاد الشام على يد الحكيم المنجم (١٣) أول داعية لهم هناك وقد استقبلته حلب على عهد الامير رضوان بن تتش (١٤) ، فأقام بها الدعوة ووطد أركانها بفضل تعضيد ومؤازرة رضوان الذى كان يقربهم وينتصر بهم (١٥) • وقد اتخذ الاسماعيلية فى عهده حلب دار اقامة خرجت منها الدعوة والدعاة والفداوية الى دمشق وحمص وعزاز وفامية وغيرها من بلاد الشام مناوئة للسلاجقة أحيانا ومتعاونة معهم أحيانا أخرى (١٦) •

ولكى نتفهم الدور الذى لعبته الاسماعيلية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية يجب أن نقسمه الى قسمين (١٧) ، الاول ضد المذهب السنى وأصحابه ، والثانى موقفهم حيال

---

(١١) الباطنية لقب أطلق على فرق خالفت التعالم الاسلامية قالت بأن لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل ، فى العراق يسمون الباطنية أو القرامطة أو المزدكية وبخراسان التعليمية والملحدة ، وقد تفردوا باسم « الاسماعيلية تمييزا لهم عن باقى الفرق على أن أهل الباطنية هذه أصلا من المجوس الذين ناصروا دين المجوس دين اسلافهم ولم يجرؤوا على اظهار دينهم هذا خوفا من المسلمن وتأولوا أيات القرآن الشريف وبالتالى احتالوا على احكام الشريعة الحنيفة • ومن المرجح ان الهدف الاساسى لفئة الباطنة هذه هو الوصول الى الملك والسلطان والجاه • وعلى أية حال فان منشأ هذه الحركة يرجع الى خلافة على بن ابى طالب رضى الله عنه وطلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغالاة عظيمة حتى اخرجه بعضهم عن بشريته •
(الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٦ ، عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧ ، سعيد بن عبد الله القمى : المقالات والفرق ص ٨٠)

(١٢) مشدال لباد : الاسماعيليون بمصياف ص ٥٩ (دمشق ١٩٦٢)

(١٣) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢

(١٤) جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٢٠٦

(١٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥٥٧

(١٦) عثمان عبد الحميد عشرى : الاسماعيلية فى بلاد الشام ص ٤٤ (مخطوطة دكتوراة سنة ١٩٧٥م) •

(١٧) Lewis: The origin of Ismailian. P. 117.

الصليبيين . ولقد أفاد الاسماعيلية من الانقسام الذى ساد بلاد الشام فى عصر السلاجقة فقد كانت مقسمة الى امارات صغيرة متنازعة فيما بينها متشاحنة متغاضبة بسبب مطامع الامراء وأحقادهم . فرضوان يحكم مدينة حلب ويسيطر عليه زوج أمه الامير جناح الدولة صاحب حمص (١٨) . دقاق يحكم دمشق ويدبر أموره أتابكة وزوج أمه طغتكين (١٩) ، وباغيسيان يحكم أنطاكية ، وتقام الخطبة فى دمشق وأنطاكية باسم رضوان قبل اسمى صاحبهما (٢٠) . هذا التفكك سهل على دعاة الاسماعيلية التغلغل فى صفوفهم وتثبيت أقدامهم فى بلاط كل منهم (٢١) بقدر ما استطاعوا .

وقد كان الحسن بن الصباح، المؤسس الاول للنزارية (٢٢) ، يضع فى اعتباره الاستيلاء على بلاد الشام وحلب بصفة خاصة ، لانها من أهم مدن الشام ، « ولان ملك الشام يحصل بها ، فمن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق (٢٣) » . لذلك ركز الاسماعيليون اهتماماتهم لامتلاكها والسيطرة عليها . فأخذ أبو ظاهر ، احد الدعاة الثلاثة الذين ولاهم ابن الصباح امر الدعوة فى الاراضى الشامية (٢٤) ، يبعث دعاته فى تلك البلاد دون أن يحدد لمقامه مكانا معينا ، حتى وفد على حلب الداعى الحكيم المنجم (٢٥) . وقد أدى تصرف رضوان وميله للاسماعيلية أن وقعت الفتنة بينه وبين صهره جناح الدولة ، وانتهت بقتل جناح (٢٦) الدولة بيد ثلاثة من الباطنية (٢٧) ، كانوا مرتدين ملابس الصوفية أو « زى الزهاد » ، وهكذا كان جناح الدولة أول ضحية للفداوية فى بلاد الشام (٢٨) . ويقول ابن العديم ان قتله تم بأمر رضوان ورضاه (٢٩) ، ومن ثم فقد قيل انه كان يستعين بالباطنية فى كثير من اموره « لقلة دينه (٣٠) »

---

(١٨) سبط بن الجوزى : مراة الزمان ج ٨ ص ٤٨ .

(١٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤

(٢٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩

(٢١) عثمان العشرى : الاسماعيليون فى بلاد الشام ص ١٦٩

(٢١) عثمان العشرى : الاسماعيليون فى بلاد الشام ص ٦٢ (مخطوطة : رسالة دكتوراة)

(٢٢) طه شرف : النزارية اجداد اغا خان ص ١٦٥

(٢٣) ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٤٧

(٢٤) سبط بن الجوزى : مراة الزمان ج ٨ ص ٤٨ .

(٢٥) أو كما يسميه ابن القلانسى «بالحكيم المنجم الباطنى» الذى كان صديقا للملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب ، وهو أول من اظهر مذهب الباطنية فى حلب والشام فحسن لرضوان مذهب العلويين المصريين ، وأتته رسل المصريين يدعونه الى طاعتهم ويبذلون له المال وانفاذ العساكر اليه ليملك دمشق ، الامر الذى ترتب عليه اقامة الخطبة للخليفة المستعلى فى حلب سنة ٤٩٠ هـ / سنة ١٠٩٦ م مدة اربع جمع ، ثم اعادها للخليفة المستظهر العباسى ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٥٤ ، ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٥٣ ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ص ٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٦٩ .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ٩٣ .

(٢٧) سبط بن الجوزى ج ٨ ص ٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٤٤ ، مصطفى غالب الدعوة الاسماعيلية ص Guyard. S: un grand Maitre des assass'n au temp de Saladin P. 27. ،

(٢٨) محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٩٤

(٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤٦

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ١٧٥

بل لقد كان هو الاداة التى استخدمها الباطنية لتنفيذ أغراضهم فى بلاد الشام (٣١) •

وهذا كان اغتيال جناح الدولة نقطة تحول فى تاريخ الاسماعيلية فى بلاد الشام ذلك ، الذى انتفع وجنى الثمار هم الصليبيون وحدهم (٣٢)، فقد كان جناح الدولة مجاهدا شجاعا يعد العدة لطردهم من بعض الحصون حول طرابلس (٣٣) ، الا أن وفاته جعلت (٣٤) ريموند ينازل حمص ويحصر أهلها ويملك اعمالها (٣٥) • كما كان قتل الاسماعيلية لجناح الدولة من الأسباب التى جعلت أهل رضوان ينضمون الى أخيه دقاق صاحب دمشق، مدينة حمص (٣٦) •

وقد امر الدعوة بعد موت الحكيم المنجم أبو طاهر بالاشتراك مع زميل له يعرف باسم الفتح (٣٧) السرمينى الذى اتخذ من سرمين مركزا له حيث تولى القضاء بها • وقد أدت الفتنة التى وقعت بعد قتل خلف بن (٣٨) ملاعب على يد أبى الغنائم شقيق ابى الفتح السرمينى وأنصاره ، الى جنى الصليبيين ثمار ما اقترفه الاسماعيليون ، باستيلاء تنكرد على فامية (٣٩) سنة ٥٠٠ هـ (٤٠) / سنة ١١٠٦ م •

ولم تقف اغتيالات الاسماعيلية عند حد جناح الدولة وخلف بن ملاعب بل تعدتهم الى المجاهد الكبير مودود (٤١) ، فقد وثب عليه أحد الباطنية ، جاء فى زى سائل وطعنه سنة ٥٠٧هـ/ سنة ١١١٣ م فارداه قتيلا • وكما أفاد الفرنج من اغتيال كل من جناح الدولة صاحب حمص وخلف بن ملاعب صاحب فامية ، فقد أفادوا كذلك من قتل مودود فقد ترتب على مصرعه أن ارتمى طغتكين فى أحضانهم ، فعقد معاهدة صلح مع بلدوين سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م (٤٢) • كذلك أقبل الباطنية على اغتيال زعيم آخر وهو اقسنقر البرسقى صاحب الموصل وحلب (٤٣) •

على أن وضع الاسماعيلية فى حلب لم يستمر طويلا فقد قضى عليهم قضاء مبرما على عهد آلب ارسلان الذى تولى الحكم بعد والده رضوان سنة ٥٠٧ هـ / سنة ١١١٣ م (٤٤) ، ذلك

---

(٣١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ٤ ، guyard: Ibid. P. 27.

(٣٢) طه شرف : النزارية ص ١٨١

(٣٣) ابو الفداء : المختصر جـ٢ ص ٢٢٦

(٣٤) الذهبى : دول الاسلام جـ٢ ص ٢٥

(٣٥) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٢٠

(٣٦) الذهبى : دول الاسلام جـ ٢ ص٢٥

(٣٧) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩

(٣٨) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص١٥٣

(٣٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ص ٤١٢

(٤٠) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ص ١٧ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص١٥٢

(٤١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٨٧ وأنظر أيضا : Bernard Lewis, The Assassins, PP. 103 - 104.

(٤٢) الذهبى : دول الاسلام جـ٢ ص ٣٧

(٤٣) لقد اغتاله الباطنية انتقاما لما حل بهم فى تكريت التى حاصرها سنة ٤٩٩ هـ/ سنة ١١٠٦م وكان بها كيقبان بن مزار أسب الديلمى المنسوب الى الباطنية • ولما أضبحت تكريت قاب قوسين أو أدنى من وقوعها فى يده أصعد كيقباذ اليه سيف الدولة صدقة فتسلمها وانحدر كيقباذ ومعه أمواله وذخائره حيث مات بها •

(ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٦١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٢١٩)

(٤٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠ ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر جـ٦ ص٤٧٧

بايعاز من عمه السلطان محمد بن ملكشاه [٤٥] ، الذى بيت النية للقضاء عليهم منذ أن كتب اليه أخوه سنجر « ان هؤلاء لا يبقون على ولا عليك والواجب قلعهم من الارض وابادتهم » فكانت مذبحة حلب [٤٦] واغلاق دار الدعوة • فقد تم القبض على زهاء مائتى نفس منهم وسجن بعضهم واستصفى اموالهم ورمى بعضهم من أعلى القلعة ومنهم من قتل [٤٧] وهرب جماعة فتفرقوا فى البلاد [٤٨] ، اما ابراهيم الداعى ففر الى شيزر [٤٩] • وقد استطاع الداعى ابراهيم ابن اسماعيل العجمى [٥٠] ان يجمع فلول الاسماعيلية من اهالى حلب وفامية وسرمين ومعرة النعمان وغيرها [٥١] • وقد كان الغرض من تجمعهم فى شيزر محاولة الاستيلاء على قلعتها [٥٢] غير أنهم فشلوا فى خطتهم فطردوا من المدينة بعد ان قتل عدد غير قليل [٥٣] منهم فرجع بعضهم الى حلب واستطاعوا استعادة قوتهم من جديد ، واخذوا يمارسون جرائم القتل والتهديد [٥٤] على نطاق واسع • حتى اذا جاء بلك ابن بهرام بن ارتق الى بلاد الشام سنة ٥١٨ هـ/سنة ١٢٢٤م قبض على نائب داعى الباطنية فى حلب « وأمر باخراجهم منها فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها [٥٥] » •

الاسماعيليون فى دمشق :

لم تضعف قوة الاسماعيليين بما أصابهم فى حلب فقد استطاع الداعى بهرام الأسترابادى عندما دخل بلاد الشام سنة ٥٢٠هـ / سنة ١١٢٦م أن يتصل بطغتكين صاحب دمشق وأن يكون من أصحاب الحظوة عنده [٥٦] فقد أكرمه طغتكين اتقاء لشره وشر جماعته « وحملت له الرعاية وتأكدت به العناية [٥٧] » فقد تنازل طغتكين للاسماعيلية عن قلعة بانياس [٥٨] التى لعبت فى ظل الاسماعيلية دورا خطيرا فى تحديد علاقاتهم بسكان المنطقة على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم [٥٩] • وسرعان ما غدت بانياس حصنا للاسماعيلية ومعقلا

---

(٤٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ص ٢٠٦

(٤٦) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ٨ص ٢٢

(٤٧) المرجع السابق : جـ٨ ص ٤٨

(٤٨) ابن القرنس : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠

(٤٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص١٦٩

(٥٠) مصطفى غالب : سنان راشد الدين ص٩١ ، طه شرف : النزارية ص ١٩٨

(٥١) المرجع السابق : ص ٩٢

(٥٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٥٩

(٥٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٥

(٥٤) كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص٩٦

(٥٥) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص٢١٦

(٥٦) ابن القلانسى:ذيل تاريخ دمشق ص٢١٥

(٥٧) سبط بن الجوزى:مرآة الزمان جـ٨ص١١٨

(٥٨) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص٢٢٥

(٥٩) برنارد لويس : الدعوة الجديدة ص ١٢١ (ترجمة سهيل زكار)

يحتمون به ويعتمدون عليه (٦٠) • وقد ترتب على تسليمهم حصن بانياس أن سلم اليهم ابن محرز حصن القدموس (٦١) • ولما استولى تاج الملوك بورى على الحكم فى دمشق بعد وفاة أبيه طغتكين تتبعهم وحدثت مذبحة دمشق سنة ٥٢٣هـ / سنة ١١٢٩م على غرار ما حدث معهم فى حلب فذبح منهم حوالى ستة آلاف (٦٢) شخص وفى قول آخر عشرة آلاف (٦٣) كما علق رءوس كبارهم على باب القلعة (٦٤) كما تم القبض فى تلك الثورة على غلام أبى ظاهر المعروف بشادى الخادم ، فصلب معه نفر غير قليل على شرفات دمشق (٦٥) • وهكذا استطاعت دمشق التخلص ممن كان بها من الاسماعيلية « وأراح الله الشام منهم » (٦٦) •

ولم يترك الاسماعيلية مذبحة دمشق تمر دون الاخذ بالثأر فقد اغتالوا بورى سنة ٥٣٦ هـ/ سنة ١١٣٢ م (٦٧) كما يقال أنهم قتلوا ابنه شمس الملوك فيما بعد سنة ٥٢٩هـ سنة ١١٣٥ م (٦٨) • وهكذا قضى على أسرة طغتكين ومهد الطريق لمحمود زنكى ليتسلم مدينة دمشق •

أصبحت طائفة الاسماعيلية بعد مذبحة دمشق مبعثرة فى بلاد الشام حتى ظهر الداعى راشد الدين سنان (٦٩) فى بلاد الشام حوالى سنة ٥٥٨ هـ/ سنة ١١٦٣ م وذلك فى عهد نور الدين زنكى (٧٠) ، فأخذ ينظم شئون الدعوة الاسماعيلية فى البلاد (٧١) ، كما أسس لنفسه (٧٢) دارا للدعوة فجدد بناء حصنى الرصافة والخوابى وطوق أراضيه بالاستيلاء

---

(٦٠) يصف ابن القلانسى (فى كتابه : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥) الداعى بهرام فيقول : استفحل امره وعظم خطبه فى حلب والشام وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزياب بحيث انه كان يطوف فى البلاد والمعاقل ولا يعرف احد شخصه حتى صار فى دمشق وتبعه خلق كثير من الجهال وسفهاء العوام والفلاحين »

(٦١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ١٣٠

(٦٢) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٤ grousset: Hist. des croisades. I. P. 661.

(٦٣) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨ ص ١٣٠

(٦٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٠٠

(٦٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق •

(٦٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٢ ص ٢٠٠ انظر أيضا عثمان عشرى ، الاسماعيليون فى بلاد الشام ص ٨٩

(٦٧) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٤ ص ٧٨

(٦٨) أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٩

(٦٩) ابن العديم : سيرة راشد الدين ص ٢٦٢

(٧٠) أبو فراس : مناقب المولى سنان ص ١٧١ عثمان عشرى : الاسماعيليون فى بلاد الشام ص ١٠٣ ــ ١٠٤

(٧١) كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٠٠ ، guyard: Un grand Maite. P. 35.

(٧٢) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ٢١٠

على العليقة وتحصـــينها (٧٣) • كذلك بنى فى بلاد الشام حصونا عدة (٧٤) للاسماعيلية •

ثم أصبحت العداوة سافرة بين نور الدين زنكى وبين الاسماعيلية ، اذ شرع نور الدين فى تجديد المدارس والربط (٧٥) فى حلب ، كما جلب اليها فضلاء أهل العلم من رجال الدين والفقهاء فولى برهان الدين أبى الحسن بن على البلخى التدريس بمدرسة الحلاويين (٧٦) وغير الاذان بحلب فمنع المؤذنين من قولهم حى عــلى خير العمــل • وهكذا أحست الاسماعيليه بالخطر كاملا وخاصه عندما اســتقر نور الدين ببلاد الشام ســنه ٥٤٤ هـ / سنة ١١٤٩ م(٧٧) ، فبعثوا اليه يهددونه بأسوأ العواقب اذا فكر فى التوغل أكثر من ذلك فى بلادهم (٧٨) • ويبدو أن نور الدين قد تحاشاهم اتقاء لشرهم من جهة (٧٩) ومن جهه أخرى حتى لا يفتح امامهم الباب للتحالف مع الصليبيين فى بلاد الشام ، الا ان ذلك لم يمنعه من القضاء عليهم فى كل البقاع التى كانت قد خضعت له (٨٠) من قبل •

وعندما تولى صلاح الدين الايوبى ملك مصر والشام واجهة خطرا فى دمشـــق وحلب ومصياف وعزازى لا يقل ضراوة عن الخطــر الصليبى (٨١) الا وهو خطر الاســـماعيلية بزعامة راشد الدين ســنان الذى كان لا يزال يتمتع بنفوذ كبـير بين اتبــاعه وكان عــلى صلاح الدين أن يختار أحد أمرين ، أما أن يقضى على النفوذ الاسماعيلى ويوحد الجبهه المصريه الشاميه واما أن يوجه ضرباته الى الصليبيين وهو فى ذلك لا يأمن الجانب الاسماعيلى الذى وقف له بالمرصاد ، خاصة وأن راشد الدين اعتبر نفسه الوريث الشرعى لاسماعيلية مصر الذين قضى عليهم صلاح الدين •

وقــد حــاول الاســماعيليون اغتيــال صلاح الدين عندما حاصر « اعزاز » ، وكان ذلك بايعــاز من الحلبيين ، لذلك لم يربدا من الاســتيلاء على حلب حتى يؤمن فتوحاته فى

---

(٧٣) برنارد لويس : الدعوة الجديدة ص١٢٨

(٧٤) من المعروف ان الاســماعيلية كانوا قد تمركزوا فى حوالى عشرين حصنا أو قرية محصنة حول طرابلس عرفت بقلاع الدعوة (القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤١) ومن اهمها العليقة والمنيقة والكهف والمرقب والقــدموس والخوابى والرصافة ومصـــياف (فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٢) ، وكان ذلك كله تحت أمرة شيخ الجبل • وقد لعبت حركة الاغتيالات التى راح ضحيتها كثير من أفاضــل القوم دورا هاما فى تشويه سمعتهم عند المسلمين ، كما انهم هددوا الزنكيين هذا فضلا عن تحالفهم مع ريموند صــاحب انطاكية) برنارد لويس : الدعوة الجديدة الترجمه العربيه ص ١٢٦) •

(٧٥) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٧

(٧٦) ابن ايبك الداودارى : كنز الدرر جـ ٦ ص ٥٤٧

(٧٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٠

(٧٨) ميشيل لباد : الاسماعيليون فى مصياف ص ٩٣ •

(٧٩) ذكر ابن خلكان انه كان بينــه وبين ابى الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب براشد الدين صاحب قلاع الاســماعيلية ومقدم الفرق الباطنية بالشام مكاتبات ومحــاورات بســبب المجاورة • وكان نور الدين قد كتب اليه كتــابا يتهدده فيه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٢٧٢) •

(٨٠) حسين مؤنس : نور الدين محمود ص٣٤٩

(٨١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ٢٠٨

بلاد الشام (٨٢) • ولما لم يكن للحلبيين طاقة بمحاربة صلاح الدين راسلوه للتفاوض معه كما طلبوا الصلح ، فلبى النداء (٨٣) •

ولما تأكد راشد الدين سنان أنه لا قبل له بقتال صلاح الدين ولا برجاله ، سار اليه من يطلب وده ويعمل على انهاء الحرب بينهما • وهكذا خضعت قلاع الاسماعيلية بطريق مباشر لصلاح الدين بموجب معاهدة الصلح المبرمة بينهما • وبذا تفرغ صلاح الدين للجبهة الصليبية • ويقال أن راشد الدين (٨٤) عقب اتفاق الصلح أصبح الساعد الايمن لصلاح الدين في بلاد الشام حتى وافاه الاجل سنة ٥٨٩هـ / سنة ١١٩٣ م (٨٥) •

أما عن علاقة الاسماعيلية بالصليبيين في بلاد الشام فلم تكن عدائية بصفة دائمة ، فقد سادتها عوامل الود والصداقة فترة غير قصيرة، فقد حدث عندما تولى الحسن بن سنان الذى تولى أمر الاسماعيلية بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩هـ / سنة ١١٩٣م ان فتح أبواب قلاعه ليستقبل الملك هنرى (Henri Champane) الذى تولى أمر الصليبيين بالشام فاستقبله فى قلعة الكهف (٨٦) وهناك وقف هنرى على قوة الاسماعيلية ورأى بنفسه ما يقوم به شباب الفداوية وكيف يطيعون الحسن طاعة عمياء (٨٧) • وقد ظل الود والتفاهم قائما بين الاسماعيلية والصليبيين حتى أقبل الباطنية على اغتيال ريموند الابن الاكبر لبوهيموند الرابع (Bohemond IV) أمير انطاكية سنة ٦١٠هـ / سنة ١٢١٣م (٨٨) • وقد كان لهذا الحادث أثر سيء فى نفوس الصليبيين فقرروا الانتقام من الاسماعيلية فشنوا هجوما على ممتلكاتهم فحاصروا الخوابى سنة ٦١١هـ / سنة ١٢١٤م حصارا شديدا وكادت تسقط فى يدهم لولا نجدة الملك الظاهر صاحب حلب لهم فحمى الحصن (٨٩) وفك حصاره • ويقال أن الاسماعيلية انما قاموا بعمليات الاغتيالات بايعاز من الاسبتارية مقابل اعفائهم من الجزية المقررة عليهم مما يدل على وجود علاقات بين الاسماعيلية والاسبتارية والداوية فى بلاد الشام (٩٠) •

---

(٨٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٥٢

(٨٣) فاشترط أن يكون للصالح اسماعيل حلب واعمالها ، وللسلطان من حماة ومما فتحه من مصر ؛ ولكنهم طلبوا المزيد ، فاخرجوا اليه ابنه ابنة لنور الدين فر: لها وأكرمها وأطلق لها شيئا كثيرا ، ثم سألها حاجتها فطلبت قلعة عزاز ، فسلمها اليهم ثم رحل عن حلب سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦م (ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ١٨٥

(٨٤) أبو فراس : مناقب المولى سنان ص١٨٥

(٨٥) أنظر أيضا : B. Lewis: «saladin and the Assassins», in ASOAS, vol. 15 (1953), PP. 239 - 245.

(٨٦) ميشيل لباد : الاسماعيليون فى مصياف ص ١٠٨

(٨٧) دعا الحسن بعض رجاله من الفداوية فأمره بقتل نفسه ففعل ، وأمر آخر بالقاء نفسه من أعلى أبراج القلعة فهوى على الفور ليراه هنرى بعد ثوان جثة هامدة ، ولما راعه ما رأى طلب الى الحسن أن لا يأمر بثالث وكفى • (ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص ٣٤) •

(٨٨) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص٢١٩

(٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٣ ص ١٦٦

(٩٠) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٣ ص٢٢٤، King: The knights Hospitallers. P. 234.

وهكذا كان موقف الاسـماعيلية فى بلاد الشام بين مد وجزر حتى تعرضت بلاد الشام للغزو التترى الذى جاء بمثابة بداية النهـاية للنفوذ الاساعيلى فيها (٩١) •

أما عن موقف الاسـماعيلية من الـدولة لملوكية فى بلاد الشام فيبدو أنهم لم يرتاحوا لقيام هذه الدولة الفتية ، لذلك بادر شيخ الجبل لداعى أبى الفتوح فأرسل مندوبين الى الملك لويس الذى اتخذ من عكا مقرا له بعد اطلاق سراحه سنة ٦٤٨هـ / سـنة ١٢٥٠م للتفاوض معه لفرض اتاوة عليه مقابل التزام الاسماعيلية بالـوقوف عـلى الحيـاد فى النـزاع بين الصليبيين (٩٢) •

أما عن موقف الاسماعيلية والتتار فى بلاد الشام ، فقد تهددهم استيلاء التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ / سنة ١٢٥٨م بالخطر ، اذ أصبح الطريق الى الشام مفتوحا على مصراعيه أمام جيوش هولاكو وبذلك أصـبحت الاسماعيلية فى خطر بعد أن قضى التتار عـلى المركز العام للدعوة الاسماعيلية فى قلعة المـوت (٩٣). فلم يلبث أن وصل هولاكو الى حلب وحاصرها ولكن أهلها بقيادة الملك المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف الايوبى رفضوا الخضـوع والتسليم معتمدين على حصـانة قلعتها (٩٤) • وقـد شاركت الاسماعيلية أهل حلب مشـاركة جادة فى الدفاع عن المدينة ضد هولاكو لكى ينتقموا لبنى بلدتهم الذين قضى عليهم فى قلعة الموت• وازاء ماأصاب حلب على يد(٩٥) المغول استسلمت دمشق (٩٦) دون قتـال وباسـتسلامها تم الاستيلاء على ديار الشام (٩٧) بأسرها ، اذ استسلمت قلعـة بعلبك وأخذوا مدينة نابلس وغيرها (٩٨) بالسيف ، كما خضعت لهم مصياف وأعمالها ، وكان النائب (٩٩) فى حصـون الاسـماعيلية الثمانية بالشـام رضى اللـه أبو المعالى (١٠٠) • وبهزيمة المغـول فى عين جالوت عادت قلاع الاسماعيلية التى كان قد استولى عليها هولاكو فى بلاد الشام الى حوزة المماليك (١٠١) • وعندما استولى التتـار على بلاد الشام سلم الاسماعيليون اليهم أربع قلاع من هذه القلاع ، فلما كسرهم المظفـر قطز ، عادت الاربع قلاع اليهم فتسلمها رئيسـهم وقتل أصحابه الذين سلموها للتتار (١٠٢) • ولما استقل الظاهر بيبرس بحكم مصر والشام سنة ٦٦١ هـ / سنة ١٢٦٣ م استهل حكمـه بفرض ضريبة عـلى الاسـماعيلية عرفت بالحقـوق

---

(٩١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ص ١١١٤ •
(٩٢) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ص ٢٥٣
(٩٣) رشيد الدين : جامع التواريخ جـ١ ص٢٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص٢٦٧
(٩٤) فؤاد صياد : المغول فى التاريخ جـ ١ ص٢٩٤ ، رشيد الدين : جامع التواريخ جـ١ ص٣٠٦
(٩٥) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤٢٢ •
(٩٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٧٩ ، فؤاد الصياد : المغول فى التاريخ ص٢٩٦
(٩٧) الذهبى : دول الاسلام جـ٢ ص ١٦٢ ،ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٩
(٩٨) guyard: Un grand Maitre. P. 52. 53.
(١٠٠) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٧ص١٦
(١٠١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٤٣٣
(١٠٢) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ٢ ص ٦٨ •

الديوانية وذلك على الهدايا التى أرسلها ملوك الفرنجة (١٠٣) وكذا ملك اليمن الى الاسماعيلية فى بلاد الشام طلبا لودهم أو اتقاء لشرهم (١٠٤) وقد فعل بيبرس ذلك حتى يشعروا بالتبعية المطلقة له (١٠٥) • وقد أقدم بيبرس على خطوة جريئة ازاء الاسماعيلية أراد بها القضاء عليهم فى بلاد الشام عندما استولى على معاقلهم وحصونهم جميعا سنة ٦٧٠هـ / سنة ١٢٧٢م واقطعهم بدلا منها بعض الاراضى فى مصر وهكذا جعل مصر مقاما (١٠٦) لهم بدلا من الشام • ثم لم يمض عام حتى سلمت الاسماعيلية ما كان قد بقى بأيديهم من الحصون وهى : الكهف والقدموس والمنيقة (١٠٧) • وقد نجم عن رحيل الاسماعيلية عن بلاد الشام أن اقيمت الجمعة فى بلادهم التى تركوها وترضى عن الصحابة بها وعفيت المنكرات منها وأظهرت شرائع الاسلام وشعائره (١٠٨) •

وبرغم قضاء الظاهر بيبرس على الاسماعيلية فى بلاد الشام فقد كانت حصونهم لا تزال تتميز بمظاهر القوة والمنعة مما هدد سلطان المماليك وشكل خطرا على نفوذهم فى بلاد الشام (١٠٩) ، لذلك تعين على السلطان المنصور قلاوون الذى تولى السلطنة سنة ٦٧٨هـ / سنة ١٢٧٩م ، أن يضع فى اعتباره أن تكون بلاد الاسماعيلية فى حوزته عند أى اتفاق مع الصليبيين ، فقد اشترط فى الهدنة التى عقدها مع الاسبتارية وامارة طرابلس سنة ٦٨٠هـ / سنة ١٢٨١م أن تكون مصياف وبلادها وحصون الدعوة وما اشتملت عليه من البلاد والقلاع وهى القدموس والكهف والمينيقا والخوابى والرصافة والقليعة والعليقة ضمن ما يخضع للسلطان دون منازع (١١٠) • وبرغم قضاء الظاهر بيبرس على نفوذ الاسماعيلية فى بلاد الشام ، الا أننا نجد قلاوون ومن خلفه قد أفادوا من فداوية الاسماعيلية الذين عبر عنهم ابن بطوطة عندما زار قلاع الاسماعيلية بقوله : « وهم سهام الملك الناصر بن قلاوون (١١١) » ، فقد استعان بهم السلطان الناصر فى الانتقام من أعدائه كما أنه خصص لهم مرتبات مغرية نظير ما يقومون به من تلك الاعمال • وهكذا استطاع الاسماعيليون أن يستعيدوا شيئا من نفوذهم فى بلاد الشام بعد أن اضمحل على عهد بيبرس •

---

(١٠٣) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٤٣

(١٠٤) برنارد لويس : الدعوة الجديدة ص ١٣٩

(١٠٥) المقريزى : السلوك جـ١ ص٥٤٣

(١٠٦) الذهبى : دول الاسلام جـ٢ ص ١٧١ ،سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٨٣ ، سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية ص ٦٣ •

(١٠٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص٢٦٤ ، جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس ص٩٢

(١٠٨) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦٠٨

(١٠٩) عثمان عشرى : الاسماعيليون فى بلاد الشام ص ٢١١

(١١٠) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٩٧٦

(١١١) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ١ ص ٦١

النصيرية أو العلوية :

النصيرية من غلاة الشيعة الذين ألهــواعليا بن أبى طالب (١١٢) ، وكانوا يزعمون أن السحاب سكن على بن أبى طالب واذا مر بهمقالوا السلام عليك يا أبا الحسن ، ويقولون ان الرعد صوته والبرق ضحكه وهم من أجل ذلكيعظمون السحاب • ويقولون أن سلمان الفارسى رسوله ، ويحبون ابن ملجم قاتل على ويقولونأنه خامس اللاهوت من الناسوت، ويخطئون من يلعنه • ويرجع تسميتهم بالنصيرية الى كونهم اتباع نصير غانم على بن أبى طالب (١١٣) كما يرد اسمه فى بعض المصادر ابن نصير (١١٤) •والنصيرية من أقدم الشيعة الغلاة اذا صــح انهم ينتسبون الى نصير غلام على بن أبى طالب (١١٥)ويمثلون علىحدتعبير ماسنيون(١١٦)الجناح المحافظ للحركه الشيعية السليمانية التى يتألفجناحهــا التقدمى والعقلى من الاســماعيليه والدروز • وللنصــيرية ألقاب معروفة عنــدالمسلمين تارة يسمون الملاحدة وتارة يســمون الاســماعيلية وتارة يســمون القرامطة وتارةيسمون الباطنية وتارة يسمون الخرمية وتارة يسمون المحمرة ، وهذه الاسماء منها ما يعمهمومنها ما يخص بعض أصنافهم (١١٧) وتنقسم النصيرية الى أربع طوائف هى (١١٨) : ـــ

١ ـــ الحيدرية نســبة الى حيدر (أى الاسد) لقب على بن أبى طالب •

٢ ـــ الشمالية وهم يقولون أن عليا هو السماء ويسكن فى الشمس والشمس هى محمد صلى الله عليه وسلم ويذهبون مدى بعيدا فىتأليه محمد عليه الصــلاة والســلام ويلقبون أيضا بالشمسية •

٣ ـــ الكلازية أو القمرية يعتقــدون أنعليا يقيم فى القمر ويرون ان الانســان الذى شرب الخمر الصــافية يقترب من القمر وهمينتسبون الى الشيخ محمد بن كلازى •

٤ ـــ الغيبية يقولون أن اللــه تجلى ثم اختفى والزمان الحالى هو زمان الغيبةويقررون أن الغائب هو الله الذى هو على وهم يجردون الله عن الصــفات مثل الاسماعيلية • ويسكن النصــيرية فى جبال اللاذقية وطرابلس وحماهومنهم فئة قليلة فى دمشق وصــــالحيتها ، وفى القرى عين فيت وزعورا وفجر فى الحولة (١١٩)•

---

(١١٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ٢ ص٢٥ ، ٢٦

(١١٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهــواءوالنحل ص ٣٧

(١١٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٣ ص٢٤٦ ، الشيخ شمس الدين محمد الانصــارى الافغانى : كتاب ارشاد المقاصد ص ١٤٩ • وتظنبعض المراجع ان اسم النصيرية هو نسبة للسيد ابى شعيب محمد بن نصير البصرى النميرى من ان الاصح هو لانه اسم الجبل عليهم واصــبحت كلمة النصيرى اشنع كلمات التحقير •

(كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٦٦) •

(١١٥) عبد الرحمن بدوى : مذاهب الاسلاميينجـ٢ ص ٤٤١

(١١٦) Massignon: Opera Minora. P. 619 (Bayrouth ·1963)

(١١٧) عبد الرحمن بدوى : مذاهب الاسلاميينجـ٢ ص ٤٥١

(١١٨) كرد على : خطط الشام جـ٦ ص ٢٦٨•

(١١٩) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ٢٦٨

أما عن تاريخ النصيرية فى بلاد الشام ،فلهم وقائع مشهورة فى معاداة الأسلام والمسلمين ، فمن المعلوم أن السواحل الشامية انما استولى عليها الفرنجة من جهتهم وهم دائما عدو للمسلمين ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار وفتح المسلمين ساحل الشام وقهر الصليبيين،ومن أعظم أعيادهم استيلاء الفرنجة على ثغور المسلمين • وقد اتفقوا مع الصليبيين فى عهد نور الدين زنكى وصلاح الدين وأتباعهما فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد وطهروها منهم ومن الصليبيين • ثم ان التتار انما دخلوا بلاد المسلمين وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين بمعاونتهم ومؤازرتهم • ومجمل القول أن فئة النصيرية كانت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين من الفئات المنبوذة فى بلاد الشام ، اذ كانت من العناصر الخطرة بالنسبة لأمن البلاد بل وللمسلمين عامة ولذلك فقد استعمل معهم العنف فى معظم الاوقات فنفروا من المجتمع الشامى • ولعل الظاهر بيبرس (١٢٠) هو أول من أعطى النصيرية بعض الحقوق فقد أمر أن تبنى لهم جوامع فى قراهم فبنوا لهم فى كل قرية جامعا الا أن هذه الجوامع سرعان ما خربت فى القرون التالية فقد ذكر ابن بطوطة (١٢١) أنه رآها حظائر للغنم واسطبلات الدواب •

الدروز :

ينبثق مذهب الدروز أو الموحدين ــ كما يفضلون أن يسموا أنفسهم ــ من مذهب الاسماعيلية ومن هنا فهما يتفقان فيما بينهما فى كثير من العقائد الاساسية والاصلاحات (١٢٢) (١٢٣) وكان الدعاة الى هذه الدعوة هم ذمرة من سائر الفرق • وقد بدأت دعوة الدروز قبل سنة ٤٠٨هـ بقليل لان حميد الدين الكرمانى عندما وفد على مصر فى هذه السنة،وجد الاحوال مضطربة بأمر دعوة جديدة تدور حول الحاكم بأمر الله ، وقد أحدثت بلبلة شديدة فى نفوس أصحاب الدعوة الاسماعيلية الفاطمية بمصر •وكان الدعاة الى هذه الدعوة هم حمزه ابن على بن أحمد الزوزونى ويعرف باللباد ثم حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالاخرم ثم محمد بن اسماعيل الدرزى المعروف باتشكين البخارى (١٢٤) ، وهو اسم تركى وأصله من بخارى فقد جاء محمد بن اسماعيل الى مصر سنة ٤٠٧هـ أو سنة ٤٠٨هـ / سنة ١٠١٧م أو سنة ١٠١٨م واتصل بالحاكم وحسن له فكرة الالوهية (١٢٥) • وقد وافقه الحاكم على ذلك سرا وترك له أمر اذاعة ذلك دون أن يورط نفسه علنا ، فلما أذاع الدرزى هذه الدعوة

---

(١٢٠) كرد على : خطط الشام جـ٦ ص ٢٦٨ ، Lammens. H: La Syrie Precis historique. P. 123.

(١٢١) ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٩٢

(١٢٢) الكرمانى : راحة العقل ص ٢٦٥

١٢٣ الكرمانى : مباسم البشارات للامام الحاكم بأمر الله ص ٩٣

(١٢٤) المكين بن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ •

(١٢٥) محمد كامل حسين : طائفة الدروز ص ٧٤

الى تأليه الحاكم وذلك فى الجامع الازهر بالقاهرة (١٢٦) ، وثار عليه الناس وقصدوا قتله ، فأظهر الحاكم براءته منه ، وفى نفس الوقت حماه وسهل له الفرار الى وادى اليتم فى الشام حيث بث دعوته بين سكان هذا الوادى فلقى استجابة منهم .

ومن أهم القبائل العربية ببلاد الشام التى قبلت دعوة محمد الدرزى وحمزة بن على، بنى تنوخ (١٢٧) آل أرسلان ، وآل بحتر ، وآل علم الدين فقد أرسل الى أعيانها الرسائل من حمزة باسم ثلاثة منهم ، هم أبو الفضائل عبد الله بن محمد ، وأبو الحسن يوسف ابن مصبح ، وأبو اسحق ابراهيم بن عبد الله .

وقد أخذ الدروز (١٢٨) يبثون دعوتهم بين المسلمين الذين وفدوا عليهم فى عقر دارهم فى وادى اليتم . وفى سنة ٤١٠ هـ على الارجح غزوا جبل السماقرين أرجاء حلب وجاهروا بمذهبهم وخربوا ماكان هناك من المساجد فقتل كثير منهم ومن دعاتهم وأعيانهم وكان ذلك سنة ٤٢٣ / ١٠٣٢ م .

ويفصل ابن سعيد (١٢٩) الانطاكى ما حدث فى شمال الشام بالنسبة للدروز فيقول : « وفى سنة ٤٢٣هـ اجتمع فى جبل السماق من بلد الروم جماعة من الدرزية جاهروا بمذهبهم وخربوا ما كان هناك من المساجد وتحصن دعاتهم وكثير من عوامهم فى مغاور شاهقة منيعة ، وصدهم وانضوى تحت لوائهم خلق كثير من أهل نحلتهم وتوفر عددهم واستضافوا المسلمين المجاورين لهم من أهل بلدان حلب والذين هم بينهم . ووعدوا أنفسهم وأطمعوا عوامهم بقوة أيديهم وكثرة استيلائهم على البلاد والاعمال القريبة والبعيدة . فرأى أقطاب انطاكية مبادرتهم والاذعان لهم قبل أن يتفاقم أمرهم فيفسدون ويعبثون بالبلاد ، ورسموا لمن يجاورهم من طراخينة (١٣٠) قصدهم برجاله وأصحابهم فتلطفوا معهم حتى قبضوا على دعاتهم وأعيانهم وقتلوهم وحاصروا باقيتهم فى تلك المغاور فنصبوا عليها القتال اثنين وعشرين يوما الى أن التمسوا الامان وخرجوا منها هاربين وتتبع الروم الدروز فى أعمالهم وأخذوهم وقضوا عليهم قضاء مبرما » . ويعلق كرد على تلك الحادثة فيقول : وهذه ثانى وقعة للدروز فى الشام والوقعة الاولى فى وادى اليتم بعد قيام دعوتهم للحاكم بأمر الله الفاطمى .

---

(١٢٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الخلفا ص ٥٦

(١٢٧) ويقول ابن العديم فى كتاب « الانصاف والتحرى فى نسب المعرى » قحطان هو مجتمع اليمن بأسرها ، وتيم اللات مجتمع تنوخ بأسرها ، وانما سميت تنوخا لأنهم تنوخا بالشام . وكانت تنوخ تدين بالنصرانية قبل الاسلام شأنها فى ذلك شأن كل من سكن الحيرة من تيم ولخم وغيرهما (ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٥٧) .

(١٢٨) الدرزى بفتح الدال معناه الخياط وهى كلمة فارسية معربة ، والعامة تضم الدال ويقولون فى الجمع الدروز والصواب الدرزة محركة الجواليقى : الالفاظ الفارسية المعربة) .

(١٢٩) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع أو تاريخ أوتيخاط . بيروت ١٩٠٩ م) .

(١٣٠) الطرخان : اسم له معان مختلفة وهوهنا اسم للرئيس الشريف فى قومه والذى لايؤخذ منه الخراج ومن يكون تحت يده خمسة الاف رجل . وهو دون البطريق وجمع طراخنة (كرد على : خطط الشام جـ١ ص ٢٥١) .

وينقسم المجتمع الدرزى من الناحية الدينية الى قسمين ، العقال أو الاجاويد والجهال ، أما العقال فلهم رئيسان دينيان يسميان بشخى العقال • والعقال هم المتمسكون بالقواعد السلوكية فى المذهب بالامتناع عن شرب الخمر ثم التقشف فى المأكل والملبس وهم يميزون فى الملبس عن الجهال بكونهم يتعممون بعمامة بيضاء اسطوانية ويلبسون ملابس بسيطة هى القباء والعباءة ولونها أزرق غامق • وعلى العقال الصدق فى القول وتجنب الشهوات ورفض الحرام من الطعام والامتناع عن القتل والفسق والسرقة والزنا والرباء والغش والحقد والنميمة وسائر الرذائل والامتناع من الحلف بالله صدقا أو كذبا • ولا يجوز للعاقل أن يخلو بامرأة ويرد تحيتها الا اذا وجد بينهما شخص ثالث (١٣١) • وشيوخ العقل من الطبقة العليا من العقال بوصفهم أحرصهم على الفضائل • وبعضهم يقيم فى الخلوات وهى بيوت للعبادة تقام فى أماكن منعزلة وكثير منهم يقضون أوقاتهم فى نسخ كتب الدروز المقدسة (١٣٢) •

أما الجهال فهم سائر أبناء الطائفة الدرزية ويسمون أيضا الشراحين لانه لا يسوغ لهم غير تلاوة بعض شروح الرسائل الدرزية دون الرسائل نفسها ، كما لا يسوغ لهم مطالعة القرآن الكريم • ويرخص للجهال بالاستمتاع باللذات الدنيوية والترف فى المعيشة ولا يفرض عليهم لباس خاص ولا يحضرون من مجالس الحكمة الا أوائلها حيث يقتصر على الوعظ والارشاد • ولكن عليهم « التحلى بالعفاف والطهارة والفعل الجميل والكرم بالعلم والمال وخوف الله وطاعته ، والرصانة وصيانة العرض وصدق اللسان وصونه من الافك والاثم والزور والبهتان مع استمرار ذكر الله وتسبيحه وتقديسه وتقديم الصلوات والتضرعات والتوسلات لعزته تعالى (١٣٣) •

والخلاف بينهم وبين العقال فى هذه الامور هو فى الدرجة فحسب ، اذ يتشدد مع العقال أكثر مما يتشدد مع الجهال فى تحصيل هذه الفضائل وممارستها • ومن أهم مميزات طائفة الدرزية التى قامت فى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى كما سبق القول ، ولا تزال الى الآن تحتفظ بشىء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الاسماعيلى ، ولا تزال تحتفظ بكثير من الاسس التى وضعها حمزة (١٣٤) بن على وغيره من دعاة الدرزية الاوائل حتى اليوم • ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويما خاصا يؤرخون به حوادثهم (١٣٥) وهى سنة ٤٠٨ هـ السنة التى ظهرت فيها دعوة تأليه الحاكم (١٣٦) على يد حمزة بن على وأنصاره ، ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون ، أى ظهور التوحيد (١٣٧) • وبرغم أن الدروز قد انطووا على أنفسهم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر

---

(١٣١) كرد على : خطط الشام جـ١ ص ٢٥٢
(١٣٢) دائرة المعارف : البستانى مادة دروز جـ ٢ ص ٦٧٧ (بيروت سنة ١٨٨٣م) •
(١٣٣) دائرة المعارف : البستانى مادة دروز جـ٧ ص ٦٧٧
(١٣٤) حمزة بن على الدرزى : التأليد فى مذهب أهل التوحيد ص ٢٣
(١٣٥) Hitti: The Origins of The Douze people and Religion. P. 43.
(١٣٦) المحبى : تاريخ خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر جـ٣ ص ٢٦٩
(١٣٧) طه أحمد شرف: الاسماعيلية وتاريخهم السياسى حتى سقوط بغداد جـ١ ص ٣٣٥ •

فى بلاد الشام خوفا من اضطهاد أهل السنة ،حتى أصبحوا جماعة مقلة لا يعرف الناس من أمرهم شيئا وبرغم هذا نراهم يعاونون المسلمين فى صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة فى سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلى فى لبنان (١٣٨) ،فقد كانت لهم مواقف حربية رائعة فى حصار قلعة الشقيف (١٣٩)، على أن جماعة الدروز فى بلاد الشام لم تتخذ موقفا واحدا حيال المسلمين بل كانت تلتزم بمبدأ المحافظة على كيانها بشتى الصور مما جعلها تناصر وتعاون من يساعدها على الاحتفاظ بهذا المبدأ، لذلك نجدهم يعاونون هولاكو التتارى ابان اغارته على بلاد الشام بدليل اقطاعه اياهم بعض البلاد (١٤٠) •

طائفة اليزيدية (١٤١) •

اليزيدية أصحاب يزيد (١٤٢) بن أنسة ، فرقة من الاباضية ، ويعتبرهم الشهرستانى من طائفة الخوارج الوعيدية (١٤٣) ، وهم القائلون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده فى النار • ويشرح الشهرستانى عقيدة اليزيدية فيقول : « زعم يزيد أن الله سبحانه وتعالى سيبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتابا قد كتب فى السماء ، وينزل عليه جملة واحدة ، ويترك شريعة المصطفى محمد عليه السلام ،ويكون على ملة الصابئه المذكورة فى القرآن ، وليست هى الصابئة الموجودة فى حران وواسط، وتولى يزيد من شهد لمحمد المصطفى عليه السلام من أهل الكتاب بالنبوة وان لم يدخل فى دينه • وقال أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كفار مشركون ، وكل ذنب صغير أو كبير فهو شرك وقد تبرأ منه جل الاباضية •»

ويقول أحمد تيمور (١٤٤) فى وصف عقيدة اليزيدية : « وهم من أغرب طوائف المبتدعة يدينون بعبادة الشيطان ويقولون بالتناسخ ، ولهم فى كتم نحلهم والاحتفاظ بأسرارهم مبالغة شديدة طوت أمرهم عن الناس زمنا ثم اتضح لبعض من خالطهم كشف القناع عن كثير من دخائلهم » •

---

(١٣٨) Dassaud et Macler: Voyage Archéologique au Safa et dans le Djebel - ed - Druze. P. 1250

(١٣٩) ولعلها شقيف بيرون وهو حصن على مقربة من صور • وتطلق كلمة شقيف على عدة أماكن ببلاد الشام وتشير الى الاماكن الخصيبة فهناك شقيف أرنون فى جبل قريب من بنياس من اعمال دمشق يقع بينها وبين الساحل • وهناك شقيف دركوش وهى قلعة بنواحى حلب جنوبى حارم وهناك شقيف دبين وهى قلعة قرب أنطاكية • (انظر لفظ شقيف فى معجم البلدان لياقوت الحموى) •

(١٤٠) كريم خليل : الدورز والثورة السورية ص ٢٥ ، طه شرف : الاسماعيلية وتاريخهم جـ ١ ص ٣٣١ •

(١٤١) أنظر الاكراد •

(١٤٢) أبو الحسن الاشعرى : مقالات الاسلاميين جـ١ ص ١٠٣

(١٤٣) الاباضية أصحاب عبد الله بن اباض من بنى مرة بن عبيد بن تيم ، الذى خرج فى أيام مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، فوجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بتبالة (بلدة بأرض تهامة فى الطريق الى صنعاء) وقيل أن عبد الله بن يحيى الاباض كان رفيقا له فى جميع أحواله وأقواله • قال : ان مخالفينا من اهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثهم حلال وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عن الحرب وما سواه حرام ولا يسمون أمامهم أمير المؤمنين ، ولا لأنفسهم مهاجرين • وهم جماعة متفرقون فى مذاهبهم تفرق الثعالبة والعجاردة (الشهرستانى : الملل والنحل جـ١ ص١٣٤ ، ١٣٥)

(١٤٤) احمد تيمور : الرسالة اليزيدية ص٢٣

جاء فى الرسالة اليزيدية (١٤٥) : «وللقوم كتابان ، أحدهما اسمه الجلوة ، وهو يتضمن ما خاطب به البارى سبحانه وتعالى عباده ،والمقصود بهم اليزيدية ، وكلامه فى قدمه تعالى وبقائه وقدرته ووعده ووعيده • كما يقولون بتناسخ الارواح ، وفيه أن الكتب التى بأيدى الخارجين ، أى أهل الاديان المعروفة ، ليست كما انزلت ، بل بدلوا فيها وحرفوا ، فما وافق منها سنن اليزيدية فهو المقبول وما غيرها فمن تبديلهم •

والكتاب الثانى اسمه مصحف (رس) أى الكتاب الاسود وفيه حديث خلق السماوات والارض وفيها ارسال الشيخ (عدى) ابن مسافر من الشام (اللالين) • وفى هذا الكتاب شرائعهم وما أحل لهم وما حرم عليهم • وشرح أمر الطواف بسناجقهم (أى أعلامهم) فى البلدان والقرى لجمع الصدقات ، وزيارتهم لقبر الشيخ عدى •

كما يعتقد اليزيدية أن معبد (اللالس) الذى كان يقيم فيه شيخ اليزيدية أبو البركات محمد شيخ الاكراد فى جبل الهكارية من أعمال الموصل ، معبد مقدس وأنه أفضل من الكعبة وانه لا فائدة من زيارة الكنيسة لمن لا يقدر على زيادة اللالس • وهم يسجدون اللالس ولكل مكان شريف بزعمهم ، وخصوصا لمقام الشيخ عدى بن مسافر ،كما أنهم يعتبرون من لا يسجد له كافرا (١٤٧) • »

يتضح لنا مما سبق ، أن المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، اشتمل على بيوتات عربية حاكمة فى المدن والحضر ، وبدوية فى الريف والقرى ، ومن حكام السلاجقة الاتراك والاتابكة والاراتقة والاكراد ، انه بناء خليط تكون من لبنات مختلفة الاجناس والمشارب والمآرب • وهذا البناء المختلف اللبنات ، لا يمكن أن يكون بناء قويا ، خاصة اذا ما تعرض للنكبات والمحن ،كمحنة الحروب الصليبية • ولعل معرفة الصليبيين لحقيقة البناء الاجتماعى الهش ،والمختلط العناصر والاجناس ، والمتعدد المآرب والغايات ، هو الذى جعلهم يواصلون الحملة تلو الاخرى •

الا أن الامر قد تبدل عندما استطاع احد افراد هذا البناء المختلط أن يوحد شملهم ويخضع البلاد لسلطانه وامرته ونعنى به نور الدين زنكى ومن بعده صلاح الدين الايوبى • فقد أخذت فلول الصليبيين تخرج من بلاد الشام واحدة بعد أخرى حتى قضى عليها نهائيا الاشرف خليل بن قلاوون ، احد سلاطين المماليك البحرية فى نهاية القرن السابع الهجرى •

ولم يقتصر الامر فى البناء الاجتماعى للمسلمين فى تلك الفترة التى تعقدت فيها الظروف والاحداث السياسية التى احاطت ببلاد الشام وعظم الخطب ، على هذا الخليط من الاجناس والحكام فحسب ، بل ان عدد المذاهب والملل والنحل التى اعتنقها هذا الحشد لم يسبق ان عرفه أى مجتمع آخر أو أى اقليم من العالم فى التاريخ الوسيط •

---

(١٤٥) المرجع السابق : ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦

(١٤٦) سبق أن تناولنا ترجمة حياته عند الكلام عن الاكراد •

(١٤٧) احمد تيمور : الرسالة اليزيدية ص٢٧

الباب الثانى

المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام

الفصل الاول ــ فئات السكان :

١ ــ طبقة الخاصة
الحكام والاعيان ــ العلماء والفقهاء والادباء ٠

٢ ــ طبقة العامة
أهــل الفنون الجميلة ــ التجار والصناع ــ العيارون والشطار والفتوة٠

الفصل الثانى ــ الثروة والمــال وأثرهــا فى انتعاش المجتمع الحضرى :

١ ــ الثروة التجارية ٠

٢ ــ الثروة المعدنية والصناعية ٠

٣ ــ الثروة الزراعية ٠

الفصل الثالث ــ العمائر والمنشآت العامة :

١ ــ العمائر الدينية
المساجد ــ المدارس ــ الخوانق ــ الزوايا والربط ٠

٢ ــ العمائر المدنية
الدور والقصــــور ــ البيمارستانات ــ الحمامات ٠

٣ ــ الاســتكامات الحربية
الحصــون ــ القلاع ــ الاسوار ٠

الفصــــل الاول

فئات السكان

لقد كان السكان فى المدن فى العالم الاسلامى عامة وفى بلاد الشام خاصــة طبقتين كبيرتين هما طبقة الخاصة وطبقة العامة وتنقسم كــل طبقة منها الى اقسام صغرى (١) ٠

الحكام والاعيان :

وهم طبقة الخاصة وتنقسم هذه الطبقــة الى خمسة فروع ، الحاكم وأهله ورجال الدولة، وأرباب البيوتات ، وأخيرا توابع هذه الطبقــة الخاصة من موالى وعبيد ٠ أمــا عن الحاكم فمن المعروف أن بلاد الشام ابان الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ونعنى بها القرنين الثــانى عشر والثالث عشر ، كانت تتبع مــن الناحية السياسية عدة دول ٠ فقــد اقتسمت الدولة الفاطمية ، ودولة السلاجقة بلاد الشام فيما بينهما ، فاستولى السلاجقة على شمالها وسيطر الفاطميــون على جنــوبيها ٠ وكــان السلاجقة من الترك المنتمين للمــذهب السنى وكان الفاطميون ينتسبون للعـــرب ومذهبهم شيعى ٠ ولمــا كانت عاصمة الخلافة الفاطمية هى القاهرة ، لذا فان كان يرسل الى سوريا ، واليا أو اميرا من قبله يحكمها باسمه ، وتخطب خطبة الجمعة وتسك النقود باسمه (٢) ويكتب أسمه على الطراز (٣) ٠ الا ان حكم الفاطميين فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى كان قلقا مضطربا وذلك لكثرة الاعداد الذين تآمروا

---

(١) لقد قسم السبكى والقلقشندى والمقريزى المجتمع فى مصر والشــام فى العصر المملوكى تقسيمات متشابهة فى عمومياتها ، فبينما تحدث السبكى عن هذا المجتمع من حيث افراده وعناصره ووظائف كل فرد وما ينبغى عليه مبتدئا بالسلطان ومنتهيا بأرباب الحرف (السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٤٣ وماليليها) ٠

فصل القلقشندى فى كثير من خصائص هذا المجتمع من حيث الالقــاب والملابس وأنــواع الوظائف (صبح الاعشى ج ٩ ص ٢٩٠) ٠ أما المقريزى وهو صاحب التقسيم الاقتصادى ، فقد جعل المجتمع المملوكى سبعة اقسام ، وهى أهل الدولة ، وأهل اليسار من التجار وأولوا النعمــة من ذوى الرفاهية ٠ والباعة وهم متوسطوا الحال من التجار ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة ، ثم أهل الفــلح وهم هل الزراعات والحرث سكان القرى والريف والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أخبار الحلقة ونحوهم ، وآباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، واخيرا ذوى الحاجة والمسكنة الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم (المقريزى : اغاثة الامة ص ٧٢ ، ٧٣) ٠

(٢) ابن الاثير : الكــامل ج ٩ ص ٣٢١ ، المقريزى : النقود الاسلامية ص ٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٦٨

(٣) البيهقى : المحاسن والمساوىء ص ٩٦ ، الطراز : هو الورق والنسيج الذى يحتوى عــلى شريط من الكتابة العربية تشمل البسملة والدعاء للخليفة ومكان الصناعة وتاريخ الصناعة ٠

للاعتداء على ممتلكاتها مثل السلاجقة والاتابكة والفرنجة ، هذا بالاضافة الى الخلاف المذهبي الذى حدث فى عهد الخليفة المستعلى (سنة ١٠٩٤ — ١١٠١ م) بالنسبة للنزارية والمستعلية (٤) ، وكذا ما حدث بعد وفاة الخليفة الآمر (سنة ١١٠١ — سنة ١١٣٠ م) حيث انشق حزب الاسماعيلية المستعلية الى قسمين ،مستعلية وطيبية نسبة الى أبى القاسم الطيب (٥) .

ومن المعروف أن السلاجقة مدوا نفوذهم الى سوريا سنة ١٠٩٤ م بعد أن استولى تتش ابن آلب ارسلان على مدينة حلب (٦) التى كانت أهم مدن سوريا الشمالية ولما توفى تتش جاء بعده ابنه رضوان ، كما تولى الحكم فى دمشق ابنه الاخر دقاق (٧) . أما الدولة الفاطمية فكانت تتحكم فى قطاع القدس . وقد خلف رضوان على حكم حلب سنة ٥١١ هـ/ سنة ١١١٣ م ابنه آلب أرسلان . وفى سنة ٥٢٤ هـ / سنة ١١٢٨ م استولى على حلب تركى أتابكى هو عماد الدين زنكى (٨) ،الذى استطاع بفضل مقدرته العسكرية وحنكته

---

(٤) لما توفى الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧/سنة ١٠٩٤ م بادر الافضل بن أمير الجيوش فأجلس ابنه أبا القاسم أحمد ولقب المستعلى ،فلما علم بذلك نزار الابن الاكبر الذى كان والده قد ولاه العهد من بعده ، خرج مسرعا واستخفى حتى ظهر بالاسكندرية وادعى الخلافة ، وعلى ذلك دارت معارك ضارية بين الافضل ونزار انتهت بقتل نزار شر قتله . على أن مقتل نزار زاد الطين بلة فقد أدى مقتله الى انقسام الاسماعيلية الى فرقتين مستعلية ونزارية . وقد امتد النشاط النزارى الاسماعيلى الى بلاد الشام وقد تطلع النزاريون فى بلاد الشام فى حلب ودمشق الى اليوم الذى يحقق أملهم فى الاطاحة بالخلافة المستعلية فى مصر والشام . انظر : ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٣ ص ١٣ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ج ٢ ص ٣٥ — ٣٦ ، ابن الاثير : الكامل ج ١٠ص ٨٢ ، ابن الايبك الدوادار : كنز الدرر ج ٦ ص ٤٤٤ ، سبط الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ص ٢ ، ٣ عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ص ١١٥ .

(٥) أدى قتل الخليفة الآمر بأحكام الله على يد بعض النزارية سنة ٥٢٤هـ /سنة ١١٣٠ م الى انهيار الدعوة الفاطمية فى مصر والشام بعد أن انقسمت للمرة الثانية الى فرقتين طيبية وحافظية. فقد آلت الخلافة بعد مقتل الآمر الى ابن عمه الميمون عبد المجيد الذى تلقب بالحافظ . ورفض دعاة الاسماعيلية فى اليمن الاعتراف بامامة الحافظ فقد كانت السيدة الحرة (أروى) تعلم أن الخليفة الآمر قد ولد له ولد قبل مقتله بنحو شهرين ،فقد بعث اليها سجلا يبشرها فيه بمولد ولى العهد الامام أبى القاسم الطيب . ويؤيد صحة هذا السجل والوجود التاريخى للامام الطيب ، نص هام ذكره المؤرخ المصرى ابن ميسر عن مولد هذا الامام والاحتفالات التى أقيمت فى مصر والقاهرة لمدة أربعة عشر يوما . ولما خاف الاولياء على الامام الطيب اخرجوه ساترين له ولم يعلم مقصده ولا مثواه الا المخلصين . وقد جعلت السيدة الحرة من نفسها كفيلة على الامام الطيب واتخذت لنفسها (كفيلة الامام المستور الطيب بن الامر) وقد لقيت دعوة الامام الطيب قبولا كبيرا فى بلاد الشام التى جاءت من اليمن باسم الدعوة اليمنية الجديدة : (الداعى عماد الدين ادريس : عيون الاخبار ص ٩٧ ، ابن ميسر : اخبار مصر ج ٢ ص ٧٥ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٩ص ٢٩١ عمارة اليمنى ، تاريخ اليمن ص ١٢٨ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٧٢ ، اتعاظ الحنفا. ص ١٢٨ .

(٦) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٥٧

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص١٦٨ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠.

(٨) عماد الدين هو مؤسس اسرة الاتابكه فى الموصل وسورية ، والاتابكة لفظ تركى يتكون (أتا) بمعنى والد و(بك) ومعناها الامير . فقد كانوا أولا أوصياء أو مؤدبين لصغار الامراء السلاجقة ثم خلفوهم فى السلطة العليا (أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٤) .

السياسية أن ينتزع الرها من أيدى الصليبيين[٩] ، وبدأ سلسلة من الانتصارات عليهم ، واصلها ابنه نور الدين محمود وتوجها خلفه صلاح الدين بموقفه حطين الحاسمة حتى اذا ما جاء سلاطين المماليك البحرية قضو على آخر معاقلهم فى بلاد الشام على يد الاشرف خليل بن قلاوون وكان ذلك فى نهاية القرن الثالث عشر • كذلك تولى السلطة فى دمشق أتابكى آخر هو طغتكين ، ثم أصبح بعد ذلك حاكما على سورية فكان له حق فرض الضرائب وتجنيد الرجال •

أما بالنسبة للدولة الفاطمية فقد كان لها واليا على جبلة[١٠] وهو فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس وقاضيها، فلما أخذت الفرنجة هذه البلاد بالامان ، خرج منها ابن عمار سالما وسار الى شيزر ، فاكرمه صاحبها سلطان بن على بن منقذ وعرض عليه المقام عنده ، فأبى وتوجه الى الامير طغتكين صاحب دمشق فأكرمه طغتكين وأنزله وأقطعه الزيدانى وأعماله[١١] •

وهكذا نرى أن فئة الحكام المسلمين فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر كانت من الامراء والولاة سواء أكانوا من السلاجقة أو الاتابكة أو الولاة من قبل الدولة الفاطمية • وقد اتخذ هؤلاء الامراء جميعا القابا عربية فخرية فطغتكين حاكم دمشق ، كان توقيعه (الصقر المغير) وهو لفظ تركى وكان لقبه التكريمى ظهير الدين • واتخذ تتش لقب تاج الدولة وتلقب ابنه رضوان بفخر الملوك ،واختار ايل غازى (أى بطل قومه) لقب نجم الدين[١٢] •

واذا كانت بلاد الشام قد حكمها فى الربع الاخير من القرن الثانى عشر وحتى منتصف القرن الثالث عشر مجموعة من الملوك الكبار من الاسرة الايوبية ، الا أن فترة حكمهم التى امتدت قرابة ثمانين عاما كانت كلها حروب وغزوات مع الصليبيين ، من قادة الحروب وأن تسموا بالملوك • فقد تولى بعد صلاح الدين فى دمشق ابنه الملك الافضل ، لكن ملكه آل الى عمه العادل • فلما انتهت الدولة الايوبية بقتل المعظم تورانشاه ابن الصالح نجم الدين سنة ١٢٥٠ م عاد الفرع الدمشقى فانضم الى فرع حلب الى حين قدوم الغزو المغولى الى بلاد الشام[١٣] •

أما فى العصر المملوكى فقد عادت سورية ولاية مملوكية يحكمها نائب سلطان من قبل السلاطين بالقاهرة ، ومع أن الاوضاع السياسية والادارية بالنسبة لحكومة المماليك تختلف عن حكومات الدول السابقة عليها ، الا أن ادارتهم كانت فى الواقع امتدادا للنظام الفاطمى والايوبى ، فقد كانت سورية مقسمة الى بضعة أقاليم عرفت بالنيابات ، وهى نيابة حلب وحماه ودمشق •

---

(٩) ابن الاثير : تاريخ الدولة الاتابكية ص ١٠، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٤٤ أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٣ ، ٣٤ •

(١٠) جبلة : قلعة مشهورة لساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية •

(١١) الزيدانى : كورة بين دمشق وبعلبك (ياقوت : معجم البلدان) •

(١٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٠

(١٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٨ •

وطرابلس وصفد والكرك • وكان حكام هــذه النيابات من المماليك ، يختارون عادة من أرباب السيف (١٤) تميزا لهم عن أهل القلم المتصفين بالعلم • وقد كان هؤلاء النــواب بوجه عام مستقلين عن بعضهم البعض وكان لكل حاكم قصر هو صورة مصغرة لبــلاط الســـلاطين بالقاهرة • وكانت الخصـــومات والفتن التى تقع فى العاصمة كثيرا ما يتردد صـــــداها فى قواعد النيابات كما كان انتقـــال الحكم مــن سلطان الى آخر يدعو الى اثارة الفتن والشغب فى دمشق وسواها من الاقاليم (١٥) • وقـــــد كانت بلاد الشام منذ القرن الحـــادى عشر مقسمة الى عدة أقســـام هى : غربى لبنـــان الذى اقطع الى زعماء من أهل البـــلاد مـــن البحتريين من بنى تنوخ (١٦) • اما دمشق ، وهى العاصمة فقد كانت تشتمل على فلسطين ، باستثناء منطقتين صغيرتين هما صفد والكرك ، وتمتد حدودها شـــمالا الى بيروت وحمص وتدمر (١٧) •

واذا أضفنا الى الاقسام السالف الاشارة اليها الامارات المستقلة فى بلاد الشام لعرفنا الى أى مدى كان المجتمع السلامى فيها معقدا • فقد كان قيام امارات عربية مستقلة فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حـــدثا جديدا يستدعى الانتباه ، خاصة اذا عرفنا أن تلك الامارات تنتسب الى قبائل عربية بدوية معروفة ، وهى امارة بنى مرداس فى حلب وبنى عمار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر •

ومن الثابت ان الامارات الثلاث يرجـــع نسبها الى قبائل كبيرة جاءت من جوف الجزيرة العربية ، وينتسب أصحاب الامارة الاولى فى بلاد الشام ، وهم بنو مرداس ، الى بنى كلاب وهى بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوزان بن منصور بن خصفة ابن قيس (١٨) • ويذكر ابن العديم (١٩) ان جماعة من بنى كلاب رحلت الى بلاد الشـــام فى نهاية العهد الاخشـــيدى وبداية العهد الحمدانى ، فقد عين محمد بن طفج الاخشيد أبو العباس احمد بن سعيد الكلابى واليا على حلب وكان ذلك سنة ٣٢٥ هـ (٢٠) •

---

(١٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٩ ص ٢٥٣

(١٥) Walther Bjorkman: Beitrage sur geschichte der Staet kanzlei im islamischen agypten. P. 101.

(١٦) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٨١

(١٧) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ص ١٧٦ ، الظاهرى : زبدة كشف المماليك ص ١٣١ ، ابن بطوطه الرحلة ج ١ ص ١٢١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٢ والمقريزى الخطط ج ٢ ص ٥٤ •

(١٨) أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ج ١ ص ١١٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، محمد الشيخ : الامارات العربية فى بلاد الشـــام (رسالة دكتوراه لم تنشر) أنظر أيضا : جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٢٩٢ ، عمر كحالة : معجم القبائل العربيـــة ج ٣ ص ٩٨٩ ، دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ج ١ ص ٧٦ (ترجمة حسن حبشى) ،
Kay: Notes on History of Banu Okayl. P. 491 (I.R.A. 1886).

(١٩) ابن العـــــديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ •

(٢٠) وليس معنى هذا ان بنى كلاب لم يكن لهم وجود فى بلاد الشام قبل عصر الاخشيد ، اذ من الثابت انهم وفدوا عليها منذ الفتـــوحات الاسلامية التى أسهم فيها القيسيون اسهاما فعالا وربما قبل ذلك ، ثم تدفقت أعداد منهم الى بـــلاد الشام منذ بداية العصر العباسى وخاصة فى عهد

أصحاب الامارة الثانية وهم بنو عمار (٢١) فى طرابلس فيذكر الالوسى (٢٢) أنهم بطن من الدواسر احد قبائل بادية نجد ، كما يذكر أنهم من أشهر قبائل الزيدية فى بلاد قعطبة بجنوبى شبه الجزيزة ، وانهم فرقة من بنى سـعيد ، احدى عشائر سورية الشمالية (٢٣) . أمـا مؤسسو الامارة الثالثة فى شـيزر ، وهم بنو منقذ ، فيرجـع أصـلهم الى كنانة الكلبيين (٢٤) .

وبرغم قصر المدة التى قامت فيها هـذه الامارات العربية فى بلاد الشام التى لم تزد عن مائة وثلاثين عاما اذ امتد حكم بنى مرداس فى حلب من (سنة ١٠٢٤ م الى ١٠٧٩ م) وحكم بنو عمار فى طرابلس مـن (سـنة ١٠٧٠ الى ١١٠٩ م) وبنو منقذ من (١٠٨١ الى ١١٢٧) الا انها شـاركت فى صـنع تاريـخ بلاد الشام ، وكانت مثلا حيا لنجاح القبـائل العربية فى الاضطلاع بدورها الجديد . وقـد كانت تلك الامارات فى الواقع امتدادا للدولتين السابقتين فى بلاد الشام العباسية والفاطمية ، فهى أشبه بجزر طافية وسط بحـار من النفوذ غير العربى من الترك والسلاجقة بل وتقـدم جحافل الصليبيين . وليس من شك فى أن نجاح القبائل فى تكوين امارات مستقلة فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان نقله كبيرة فى حياة تلك القبائل عندما وثبت الى مراكز السلطة ، واقامة الحكم والظهور بمظاهر الابهة والعظمة واتخاذ الحاشـية وتعيين الوزراء والحجاب والكتاب ، والاقامة فى القصور وتنظيم الجيوش والدواوين وحضور الاحتفـالات الرسمية وتقريب الشـعراء وعقد المجالس والفصل فى القضايا وما الى ذلك .

واذا كان أمراء بنى مرداس قـد تأثروا بالحضارة فى حلب فقد كان منهم فرسان محاربين لايشق لهم غبار يجيدون الكر والفر وتتحكم فيهم عاطفة الاندفاع والحماسة والبدوية (٢٥)، ويميزهم الاستمسـاك بالكرم والحـلم والشهامة (٢٦) . ويميلون الى مجالس الشعر ويستمتعون بمدح الشعراء ويتيهون زهوا بمنح الهبات والاعطيات (٢٧) .

وتميزت أسرة بنى عمار بالطابع العـربى الاصيل ، ذلك أنهم ظلوا فرسانا ومقاتلين لاتلين

الخليفة المأمون ، ثم كان تحركهم الكبير فى اوائل القرن الرابع الهجرى واقامتهـم امارة لهم فى حلب .

(٢١) يؤيد الباحث رأى (Sobernheim: Encyc. Isr. Art Ibn Ammar) الذى يقول ان بنى عمار ينسبون الى اسرة مغربية شيعية انحدرت مع الفاطميين الى مصر فأتيح لهـا أن تلعب دورا بارزا فى مصر ثـم فى طرابلس التى يذكر اسم بنى عمار مقرونا بها أنظر أيضا مايلى (وصفى زكريا : عشائر الشام جـ ٢ ص ٢١٢ ، القلقشندى : نهاية الارب فى معـرفة انساب العرب ص ٤٠٥ (تحقيق ابراهيم الابيارى) وفصله محمد الشيخ فى رسالته الامارات العربية فى الشام تفصيلا كاملا ص ١١ .

(٢٢) الالوسى : تاريخ نجد ص ٨٩ ، عمر كحالة معجم القبائل العربية جـ ٢ ص ٨٢١

(٢٣) وصفى زكريا : عشائر الشام جـ ٢ ص ٢١٢

(٢٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ ٦ ص ١٨٧ (دمشق سنة ١٢٤٩ هـ) .

(٢٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ص ١٨٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٥٠ ، ابن خلدون : المقدمة جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢٦) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٨ ص ٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٢

(٢٧) ابن العـديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٥٥ ، جـ ٢ ص ١٤ — ١٥ ، أبو الفداء : المختصر جـ ٢ ص ١٤١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٦٤

لهم قناة ، وعربا تواقين لمجالس الشعر والادب يتقرب منهم الشعراء يمدحونهم أحيانا ويهجونهم أخرى (٢٨) ، يرعون العلوم والفنون والآداب (٢٩) • ومع احتفاظهم بكل سمات المجتمع العربى ، فان بنى عمار كانوا قد قطعوا شوطا لايستهان به فى التمدن والتحضر ، وحصلوا على قسط وافر من الرقى المادى والفكرى •

هذا ورغم ما أصابه بنو منقذ من مظاهر التحضر فى شيزر ، الا أنهم ظلوا يمارسون حياة هى فى الواقع مزيج من الحياة القديمة والجديدة • فاذا كان بعضهم قد سكن المدينة وهو القسم الواقع على النهر قرب الجسر والبعض الاخر استوطن الجزء المحيط بالقلعة، فقد انتشر الباقون قرب شيزر يزرعون • أما الامراء فقد سكنوا القصور والدور الفاخرة وعقدوا مجالس الادب والشعر بل ان كثيرين منهم قد وصل درجة كبيرة من العلم والثقافة، فقرضوا الشعر ونسخوا القرآن بخط جميل ،وأظهروا حفاوة بالغة برجالات العلم والشعراء (٣٠) •

ولفئة الحكام أو طبقة الخاصة اتباع أخرجوهم من طبقة العامة بما خصوهم به من أسباب القربى ، وهم الجند والاعوان والموالى والجوارى (٣١) • والمقصود بالجند هنا ليس هم رجال الجيش التابع للدولة ، فقد جرت العادة فى العصور الوسطى ، أن يجند الخاصة من الاتباع والعمال ، رجالا ينفقون عليهم من أموالهم وقد يبتاعونهم غلمانا ويربونهم للاستعانة بهم على اعدائهم وقت الحاجة وينسبونهم لاسمائهم •

أما الاعوان فهم خاصة السلطان أو الامير أو رفاقه يصحبونه ويجالسونه ويعيشون معه فى منزله وتكون لهم رواتب يتقاضونها ، وهم غير الندماء والشعراء ، وانما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الملك أو الامير أو العامل بمجالسته فيشاورهم فى أموره ويركن اليهم فى مهامه ، وهم لذلك لهم دالة عليه وقد يكون بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوى قرباه •

وتكاثر عدد العبيد (٣٢) فى دور الملوك والأمراء فى بلاد الشام فجعلوهم طبقات وفرقا تعرف بأسماء خاصة • فمنهم الرومى والتركى والأرمنى والسندى والصقلبى ، وقد انتظمت هذه الفرق فى مجموعات أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجوارى (٣٣) ، فهناك فرق

(٢٨) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ ١٠ (ورقة ٢٥٠) •
(٢٩) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٣٦
(٣٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٤ ، العماد الاصفهانى : جريدة القصر وجريدة العصر جـ ١ ص ٥٥٢
(٣١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٨٨
(٣٢) من المعروف أن الرق فى الاسلام كان معظمه بالاسر وخصوصا أثناء الفتوح لكثرة من كان يقع فى ايديهم من الاسرى (ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٧) • وهكذا كان العبيد والجوارى يقلون ويكثرون تبعا لكثرة الحروب أوقلتها (الدميرى : حياة الحيوان الكبرى جـ ١ ص ٤٩ « مصر سنة ١٣٠٩ هـ ») • واذا كان هذا هو حال الرق عامة فى الدول الاسلامية ، فمن الطبيعى أن يزيد عددهم فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية وعصر التنافس بين الفئات المختلفة والمذاهب المتعددة •
(٣٣) الفخرى : الآداب السلطانية ص ٢٩٧

الغلمان الأصاغر والغلمان الحجرية والرجـال المصافية والركابية وغيرها (٣٤) • وكذلك كانت دور فئة الحكام تضم صنفا من الخدم الخصيا ن الذين يغلب استخدامهم فى دور النساء ، وان كان أكثرهم من الطواشية السود • عـلى أن هؤلاء الخصيان قد ارتقى بعضهم الى مصاف الامراء (٣٥) ، مثال ذلك فى القرنين السـابع والثامن الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) مؤتمن الخلافة فى الدولة الفاطمية كان عبدا خصيا (٣٦) • وقراقوش الطـواشى وزير صلاح الدين الايوبى الذى بلـغ أرقى مناصب الدولة فى العصر الايوبى (٣٧) ، وهناك عميد الملك حد كبار قادة الاتراك الاتابكة الذى كان من الخصيان (٣٨) •

كذلك كان للجوارى شأن يذكر لا يقل عـن شأن العبيد والمـوالى • وأصـل الجوارى ما يسبيه الفاتحون فى الحرب من النسـاء والبنات ، فهن ملك الفاتح ولو كن بنات الملوك أو الدقاهين ، يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون فى بيعهن تصرف المالك بملكه (٣٩) • ولما أفضت أحوال المسلمين فى بلاد الشام الى الترف ، وتدفقت الاموال من خزائن الخلفـاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلى والجـواهر (٤٠) • ومـن الطبيعى فى ربات الحسن والجمال ان يكن نافذات الكلمة ، لذلك كان أرباب الدهاء من الملوك والامراء فى عصر الحروب الصليبية يتباعدون عن الجوارى ، اذا اهدى الى احدهم جارية لم يلتفت اليها • وعلى العكس من ذلك فقد كان بعض الامراء يستغلون الجوارى وسيما المغنيات (٤١) ، وكان أهـل الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب ، ويزداد الجوارى نفوذا وسطوة اذا صرن أمهات أولاد (٤٢) •

العلماء والفقهاء والأدباء :

هم طائفـة من العامة تقربوا الى الملوك والامراء بما يلذ لهم من سماع الاخبـار أو النوادر أو النظر فى علـوم العصر الدينية أو اللسانية أو الادبية أو التاريخية ، ويدخل فى ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والادباء مـن أصحاب الاخبار • وعلى كثرة ما كان فى القرن

---

(٣٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ١٢٦
(٣٥) المسـعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٤٠ •
(٣٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٧٧
(٣٧) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٤٩
(٣٨) وهناك مجموعة من الخصـيان كانوا يقومون بأعمال أخرى فى بيوت الحكام ، فقـد كانوا يعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ،فمنهم الفراش والطبـاخ والخازن والوكيـل أو النقيب والبواب والملاح والركابى وغيرهم (انظر ابن أبى أصيبعة : طبقات الاطباء جـ ١ص ١٤١ ــ ١٤٥ ومنهم الوصـيف والمملوك وفيهم التركى والفارسى والبربرى والزنجى والصقلى بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث (أنظر الاصـفهانى الاغانى جـ ١ ص ٢٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ١٤٧) •
(٣٩) ابن خلكان : وفيـات الاعيان جـ ١ ص ٣٢٠ •
(٤٠) الاصفهانى : الاغانى جـ ١٦ ص ١٣٧
(٤١) المرجع السابق : جـ ٥ ص ٨٠
(٤٢) ابن عبد ربه : العقد الفـريد جـ ١ ص ١٤٨ •

السادس الهجرى من الفتن الداخلية والحروب الخارجية مع الصليبيين ، الا انه قد ظهر فى بلاد الشام علماء أجلاء خدموا العلم فى فنون مختلفة . فقد أنشئت فى هذا القرن سنة ٥١٥ هـ أول مدرسة بحلب (٤٣) لتدريس المذهب السنى ، أقامها بدر الدولة سليمان بن أرتق صاحب حلب وسماها المدرسة الزجاجية ، ولما تولى نور الدين محمود ملك حلب أنشأ مدرسة أخرى بحلب سنة ٥٤٥ هـ عرفت باسم المدرسة العصرونية ، كما أنه أول من أنشأ دارا للحديث فى الاسلام (٤٤) .

وعنى نور الدين عناية خاصة بالعلم والعلماء فكان يستجلبهم من أقصى البلاد ويسكنهم أفخم القصور بالشام ، مثل قطب الدين النيسابورى وشرف الدين ابن ابى عصرون . وكان يبنى لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مريديهم انواع الاحسان والرواتب . وقد أحصى فقهاء مدارس دمشق فى عهد صلاح الدين فكانوا ستمائة فقيه ، كان يدفع لهم رواتب ثابتة (٤٥) .

واذا كان القرن الثانى عشر الميلادى فى بلاد الشام قد افتقر قليلا الى الجيد من الشعراء الا انه كان غنيا بعلماء الطبيعة وعلم الهيئة وما اليها . فقد نبغ أبو المجد محمد بن ابى الحكم وكان طبيعيا مهندسا فلكيا ، وكذا أبو زكريا يحيى البياسى (٤٦) طبيب صلاح الدين . ومن أشهر أطباء العصر الايوبى كذلك أبو الحكم عبيد الله بن المظفر المعروف بالحكيم المغربى (٤٧) ، الذى كان أديبا ويجيد علم الهندسة . كذلك عمر بن على بن الندوخ الدمشقى الذى كان عالما بالطب وشاعرا وله تصانيف فى الادب ، وكذا ابن الصلاح وموفق الدين بن المطران (٤٨) . ومن هذا السرد لبعض أسماء أطباء العصر الايوبى يتبين لنا أنهم جميعا لم يقتصروا على مزاولة مهنة الطب فحسب ، بل أشتغلوا بسائر العلوم والمعارف وألفوا العديد من الكتب فى تلك الفنون ، كما نجد ذلك مفصلا فى طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة وتراجم الحكماء لابن القفطى وكتاب كشف الظنون (٤٩) . والى جانب طوائف

---

(٤٣) ابن شداد : الاعلان الخطيرة ج ١ ص ٥٩ .

(٤٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٥٦٥ .

(٤٥) محمد كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٣٩ .

(٤٦) كان يعرف النجارة وعلم الرياضيات والهندسة فقد ذكر ابن ابى اصيبعة فى كتابه طبقات الاطباء انه لاستاذه فى الطب ابن النقاش آلات كثيرة تتعلق بالهندسة .

(٤٧) ويحدثنا العماد فى الجريدة عن الحكيم المغربى فيقول : « انه كان طبيب البيمارستان الذى كان يحمله اربعون جملا المستصحب فى معسكر السلطان محمود السلجوقى حيث خيم » وهذا يدل على أن المستشفى الميدانى المتنقل كان على درجة كبيرة من الاستعداد .

(٤٨) كان موفق الدين بن المطران عالما بالطب والفلسفة وله اسلوب متميز فى الادب وقد نعى موفق الدين على أهل زمانه فتورهم وزهدهم فى العلوم وقلة رغبتهم فى الكتب والآثار وتطير بتفاقم الخطب فى هذا الشأن . (ابن ابى أصيبعة: طبقات الاطباء ج ٢ ص ٢٩٥) .

(٤٩) فقد كان الطبيب يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم (كاتب جلبى : كشف الظنون ج ٢ ص ٥٩ طبعة الاستانة سنة ١٣١١ هـ) . وكان الاطباء طبقات (ابو الفرج الملطى : مختصر الدول ص ٢٤٤) وأصنافا ففيهم الطبيب العام والجراح والفاصد والكحال (العيون) والطبائعى (الباطنى) والمخاطى (الصدرى) (ابن ابى اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ٧٠) ، كما تخصص أطباء فى علاج النساء وكذا المجانين . وقد نبغ كذلك جماعة من النساء فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية واشتهرن فى صناعة الطب نذكر منهن

الاطباء الذين أدوا خدمات لها قيمتها فى القرن السابع الهجرى (الثانى عشر الميلادى) غضر الحروب الصليبية ، زخرت الشام كذلك بعدد لا حصر له من المهندسين الاكفاء الذين وقع على عاتقهم القيام ببناء المنشآت الدينية كالمساجد والمدارس والاستحكامات الحربية كالحصون والقلاع وأسوار المدن التى وقت المسلمين شر غارات وهجمات الصليبيين • هذا بالاضافة الى العمائر المدنية كاقامة القناطر والجسور والدور والقصور • ومن أشهر مهندسى الشام أبو الفضل عبد الكريم الحارثى المهندس الدمشقى (٥٠) ، وعلى بن عبد الباقى بن ابن حرادة العقيلى الانطاكى الحلبى (٥١) ، وزين الدين على بن غانم الانصارى الدمشقى المعروف بابن منجة الحنبلى الذى كان من أعيان أهل العلم وله رأى صائب وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص (٥٢) •

ولعل ابرز علماء العصر فى بلاد الشام هم طبقة المؤرخين وكتاب التراجم والسير نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد بن طاهر المقدسى (٥٣) صاحب الرحلة والتصانيف والتعليقات الممتازة (المتوفى سنة ٥٠٧ هـ) • والحافظ أبو القاسم على بن عساكر ، محدث الشام ومؤرخها ومن أعيان فقهائها صاحب تاريخ دمشق المشهور • وعبد الرحيم البيسانى المشهور بالقاضى الفاضل ، صاحب الرسائل والتصانيف الجيدة ، وعماد الدين الاصفهانى العالم الكاتب الشاعر ، وبهاء الدين بن شداد قاضى العسكر فى زمن صلاح الدين والفقيه الكاتب المؤرخ صاحب سيرة صلاح الدين ، وابن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ، وكان أهله أصحاب قلعة شيزر (السابق الاشارة اليهم) وهو شاعر كاتب •

واذا كان علماء الطب والهندسة والكيمياء والفلك والادباء واللغويين قد لعبوا دورا هاما فى بلاد الشام فى عصر صلاح الدين وأسرته ، فمما لاشك فيه أن المعممين من العلماء كان لهم النصيب الاوفى فى ذلك الوقت ، فقد كان تأثيرهم الروحى أقوى وأخطر من الاثر الثقافى أو العلمى ، ومن ثم فقد كانت الاضواء مسلطة عليهم حتى لاينحرفوا عن مذهب الدولة الدينى ، وظهرت فى بلاد الشام اتجاهات جديدة ، وخاصة فى حلب التى غدت فى عهد الملك الظاهر ابن صلاح الدين مركزا خطيرا للصوفى شهاب السهروردى مؤسس مذهب التصوف الاشراقى (٥٤) ،

السيدة شهدة الدينورية وبنت دهين اللوز الدمشقية وغيرهما (ابن سينا : القانون جـ ٣ ص ٢١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣١٢)

(٥٠) هو مهندس طبيب نجار نحات ، هندس أكثر ابواب المستشفى النورى الكبير • اشتغل بالادب وعلم النجوم والحديث وهو الذى أصلح ساعات جامع دمشق وله عدة مصنفات توفى سنة ٥٩٩ هـ (كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٤٠) •

(٥١) عالم بالادب واللغة والحساب والنجوم والفلسفة مات سنة نيف واربعين وخمسمائة (عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٤٢) •

(٥٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٧٥ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٦٣ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ (حوادث سنة ٥٧٨ هـ) •

(٥٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (طبعة ليدن سنة ١٨٧٦) •

(٥٤) وقوام هذا المذهب هو ان النور جوهر الله وحقيقة الاشياء الاساسية ، وأنه يمثل المعرفة الصحيحة والطهارة التامة والمحبة الخالصة والخير المحصن • وبين أن هذه النظرية تضم آراء من الزراد شتية لاسيما المانوية والافلاطونية والمائى ولا غرابة فى ذلك فقد ولد السهروردى بفارس (فيليب حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٩٠ ،
(Arther. J. Arberry: An Introduction to the History of Sufism p. 32 (London 1942)

ومنشيء احـــدى طرق الدراويش • عـــلى أن السهروردى لم يكن أول من نادى بهذه الفكرة فقد سبقة اليها الغزالى فى رســـالة كاملة هى « مشكاة الانوار » ولكن معالجته لفكرة النورة تختلف اختـــــــلافا تامـــــا عن معالجــــة السهروردى (٥٥) •

لقد كان لمقتل صلاح الدين للفيلســـــوف السهروردى أسوا الاثر ، فقد ترتب على ذلك أنه لم يجرؤ أحد أن يذكر شــــيئا من العلوم الحكميه فأهملت العلوم الفلسفية فى الاسلام فلم نقف على حياة فيلسوف نشأ فى الشام ، بل كل من وجد بها كان وافدا عليها مثل قطب الدين النيسابورى والشهاب الســـــهروردى وسيف الدين الآمدى ، ولا من الجماعات أمثال اخوان الصفا وجمعية أصحاب التوحيد (٥٦) •

ولعل من أهم اعلام التصوف فى بلاد الشام فى القرنين السابع والثامن الهجريين هو محيى الدين ابن العربى (٥٧) ، الذى يعتبر صـــاحب أعظم نظـــرية تأمليـــة فى تاريخ التصـــــوف الاسلامى •

وبعد أن قضى المغول على الدولة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ/ سنة ١٢٤٨ م أصبحت الشام ومصر أهم مراكز الحضارة الاسلامية، فقد هاجر اليهما كثير من العلماء الذين فروا من وجه الغزو التترى • ون أهم نوابغ العلماء فى العلوم الطبيعية فى القرن الثامن الهجرى جمال الدين بن الرحبى الطبيب العالم ورشيد الدين الصورى طبيب متفنن فى علوم كثيرة وله عـــدة تصانيف فى الطب • ومن أشهر أطباء القـــرن الثامن الهجرى ببلاد الشـــــام مهذب الدين عبد الرحيم على المعروف بالدخوار • وهـــوصاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخـــوارية بدمشق • ونجم الدين يحيى بن اللبودى من أبرزز علماء الحكمة والهندسة والرياضة ، وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة باســـــمه فى دمشق وصاحب دار الهندسة ، كذلك نبغ مؤيد الدين العرض وابنه محمد من علماء الفلك فقد تولى مؤيد الدين الارصاد فى مرصد مراغه (فى

---

(٥٥) وقد الف السهروردى عدة مؤلفات اهمها كتابه « حكمة الاشراق » وقد كان الســـــهروردى شديد التحمس لفكرته مما أهاج الفقهاء المحافظين وأثار حفيظتهم فلجأوا الى صلاح الدين وأوغروا صدره وحنقه عليه ، ومازالوا به حتى أصدر صلاح الدين أمرا باعدام السهروردى جوعا أو خنقا ، ومن ثم فقد سمى باسم « الشيخ المقتول » وقد دفن الســـــهروردى بقرب دار البريد فى حلـــب (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٣ ص ٢٥٧ ، ابن أبى أصيبعة : طبقات الاطبـــــاء جـ ٢ ص ١٧٠ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٠٣ •

(٥٦) لقد تعرض لاخبـــارهم ابن النـــديم فى الفهرست ، والقفطى : وهو مصرى الاصل (سنة ١١٧٢ ــ سنة ١٢٤٨ م) قضى الشطر الثانى من حياته فى لب ، حيث تقلد الوزارة لحكامها الايوبيين (أخبار العلماء باخبار الحكماء نشر جـــوليوس سنة ١٩٠٣ م) ، وابن أبى أصيبعة فى طبقـــات الاطباء ، والبيهقى فى تاريخ حكماء المسلمين ، وصاعد فى طبقات الامم •

(٥٧) ولد ابن العربى ونشأ فى الاندلس وفى سنة ١٢٠٢ م تركها حاجا الى مكة ، ثم اختـــار دمشق موطنا ، وفيها مدفنه الذى أقام عليـــــه السلطان العثمانى سليم الاول مسجدا ، ومن أهم مؤلفات ابن العربى « ترجمان الاشواق » وكتاب « الاسراء الى مقام الاسرى » (ابن أبى أصيبعة : طبقات الاطبـــاء جـ ٢ ص ١٨٩ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٣ ص ٢٦١) •

ايران) وقدة وضع محمد كرة فلكية [٥٨]. نبغ من المهندسين ابراهيم بن غنائم المهندى الذى أنشأ المدرسة الطاهرية الجوانية بدمشق ومايزال اسمه منقوشا على واجهتها على يسار المدخل. كما أقام قصر الابلق الذى حلت محله التكية السليمانية [٥٩] . وقد نبغ فى هذا القرن عدد لا يتسع المجال لحصرهم نذكر منهم على سبيل المثال شمس الدين الخوبى عالم الطب وغيره وله عدة مؤلفات ، ورفيع الدين الجيلى الذى ترك العديد من المؤلفات فى العلوم الطبيعية والطب . ورشيد الدين الصورى الطبيب الذى برع فى عدد غير قليل من العلوم وله عدة تصانيف ، ومهذب الدين يوسف بن أبى سعيد السامرى الطبيب المتميز فى العلوم الحكمية ، وجمال الدين الرجى الطبيب العالم . ولعل من أشهر أطباء القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى بلاد الشام على الدين على بن الحزم ابن النفيس [٦٠] الدمشقى شيخ الاطباء بالديار المصرية ، وصاحب التصانيف الكثيرة ، وكذلك نبغ موفق الدين أحمد المعروف بابن أبى أصيبعة الدمشقى الطبيب الاديب ، مؤلف كتاب طبقات الاطباء ، وعبد الوهاب بن سحنون طبيب بيماريستان الجبل بدمشق . كذلك اشتهرت بلاد الشام فى القرن السابع بظهور عدد غير قليل من علماء الفلك والنجوم السيارة والمنازل كعبد الله الجماعيلى [٦١] . ومحمد بن القيسر الدمشقى عالم الهيئة والاديب المشهور وأبو الفضل بن ياسين الحلبى عالم الرياضيات وعلم الزيج [٦٢] وتسيير المواليد .

وقد أدت ظروف بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع بل منذ مجىء أول حملة صليبية ، الى ظهور طبقة ممتازة من المؤرخين وكتاب السير سجلوا لنا الاحداث يوما بيوم ، كما ترجموا لمشاهير القادة والملوك والامراء ، كما تحدث الرحالة عن مشاهداتهم فى بلاد الشام . ومن أبرز مؤرخى بلاد الشام فى ذلك العصر عبد الرحمن أبو شامة الذى كان اماما

---

(٥٨) سعاد ماهر : البحرية الاسلامية ص ٢٤٢ . لا تزال هذه الكرة محفوظة فى متحف درسبون فى المانيا . ابن القفطى : تاريخ الحكماء ص ٢٨٦ ، الجاحظ : البيان والتبيين ص ١٣٧ ، كرلونلينو : علم الفلك ص ١٤٣ .

(٥٩) لقد حلت التكية السليمانية مكان قصر الابلق فى القرن العاشر الهجرى .

(٦٠) تولى ابن النفيس ادارة مستشفى قلاوون فى القاهرة ثم تحول الى دمشق حيث توفى بها سنة ١٢٨٨ م . وقد عرف عنه أنه لا يصف دواء متى كان الغذاء وافيا بالغرض . وقد أورد ابن النفيس فى كتابه « شرح تشريح القانون » الذى شرح فيه قانون ابن سينا رأيا له فى دوران الدم فى الرئة ، وذلك قبل سرفتوس الاسبانى الذى يقرن هذا الاكتشاف بأسمه بثلاثة قرون (السبكى طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٢٩) .

(٦١) كرلونلينو : علم الفلك وتاريخه عند العرب فى العصور الوسطى ص ١٤٥ (روما سنة ١٩١١ م) .

(٦٢) الزيج عبارة عن القوانين المبنية على طريقة حركة الكواكب وعددها بالارقام الحسابية (سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٢٥٢) ويعرف ابن خلدون (فى المقدمة ص ٥٨٥) الزيج فيقول : « ومن فروع علم الهيئة (الفلك) علم الازياج وهى صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى الى برهان الهيئة فى وصفه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب فى افلاكها لاى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها المستخرجة من كتب الهيئة » .

فى فنون شتى وله عدة تصانيف فى التاريخ ،لعل أهمها كتاب « الروضتين (٦٣) فى أخبار الدولتين وجله فى تاريخ نور الدين وصلاح الدين • وقد كان ابن عساكر (٦٤) من أوائل الاساتذة الذين شغلوا وظائف فى دار الحديث النورية فى دمشق مؤلف « التاريخ الكبير (٦٥) » ، والذى أوجز فيه سير جميع الوجهاء الذين سبقت لهم صلة بمدينة دمشق • الا أن شهرة ابن عساكر قد فاق عليها وكسفهاشهرة شمس الدين أحمد بن خلكان من أبرز علماء مدارس دمشق ومؤلفى السير على الاطلاق فى الاسلام • ولد فى اربل وعين قاضى القضاة فى سورية (٦٦) سنة ٦٥٩ هـ /سنة ١٢٦١ م وظل شاغلا هذا المنصب فى دمشق حتى قبيل وفاته سنة ٦٨١هـ / سنة ١٢٨٢م ،لم ينقطع عنه الا فترة دامت سبع سنوات (٦٧)• وهناك أديب آخر من مؤلفى السير كان أضخم انتاجا من ابن خلكان ولكن أقل منه تدقيقا الا وهو صلاح الدين بن أيبك المعروف بالصفدى (٦٨) نسبة الى صفد مسقط رأسه (٦٩) • كذلك كان ياقوت من مشاهير كتاب السير ، فقد وضع كتابا فى سير الادباء وهو « معجم الادباء » أو « ارشاد الاريب »لكنه نال شهرة أوسع بمعجمه الجغرافى « معجم البلدان » الذى فرغ من وضعه سنة٦٢٦هـ / سنة ١٢٢٨م فى مدينة حلب وقدمه لوزيرها القفطى •

ومن أعظم مؤرخى القرن السابع فى بلاد الشام ، كمال الدين عمر بن أبى حرادة الحلبى العقيلى المعروف بابن العديم رئيس الشام وصاحب تاريخ حلب • ويعتبر تاريخ أبى الفداء (٧٠) أحد المتأخرين من حكام حماة الايوبيين خلاصة وتكملة لتاريخ ابن الاثير

(٦٣) حقق الجزء الاول منه فى قسمين الدكتور محمد حلمى محمد أحمد •

(٦٤) الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٣٣، ياقوت : ارشاد الاريب جـ ٥ ص ١٣٩ ، السبكى طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٢٧٣ ، النعيمى : الدارس فى اخبار المدارس ص ١٠٠ •

(٦٥) يقع الكتاب فى ثمانين مجلدا لم يبق منه غير سبعة اجزاء نشرها عبد القادر بن بدران (دمشق سنة ١٩٥١) •

(٦٦) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٤ ـ ١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٦٥ •

(٦٧) وضع ابن خلكان أول معجم لاعلام العرب باللغة العربية ترجم فيها سيرهم وأعمالهم سماها « وفيات الاعيان وأنباء الزمان » وقد عنى عناية شديدة بايراد الاسماء بالشكل الصحيح ، وتعين التواريخ وسود الانساب والتحقيق فى الحوادث الهامة ، وذلك رغبة فى أن تجيء تراجمة من الدقة بقدر المستطاع • وقد استأنف هذا العمل من بعده الكتبى الحلبى المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م فى مؤلف سماه « فوات الوفيات » يقع فى مجلدين • (فيليب حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٩٣) •

(٦٨) الصفدى : دول الاسلام جـ ١ ص ١٦

(٦٩) وكان الصفدى يشغل منصب خازن فى مدينة دمشق ، واكثر ما اشتهر بمؤلفه الضخم « الوافى بالوفيات » الذى قام بنشر الجزء الاول منه (   ) فى اسطنبول سنة ١٩٣١م • والذى وصل عدد أجزائه الى الثلاثين • واحتوى على اربعة عشر الف سيرة من سير الحكام والقضاء والادباء ، وهو أضخم موسوعة للاعلام فى الاسلام ، « فى » وفيت ابن خلكان (٨٦٥) ترجمة وتحتوى « فوات » الكتبى على (٥٠٦) ترجمة وفى « عيون » ابن ابى اصيبعة حوالى (٤٠٠) ترجمة • وقد قدم الصفدى لمعجمه ببحث فى المنهج التاريخ تكاد يكون الاول من نوعه فى العالم (فيليب حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٩٥ ،

(٧٠) ولد أبو الفداء فى دمشق حيث استقر أهله بعد فرارهم من وجه المغول ، وقد حظى تاريخه بالاعجاب مما حمل الكثيرين على اكمال وتلخيصه • وقد صدر مؤلفه الجغرافى بمقدمة دافع فيها عن كروية الارض واستشهد بزيادة النها أو نقص آخر لدى السفر حولها فى اتجاه معين (فيليب حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢٩٤) •

المتوفى سنة ٦٣٢هـ / سنة ١٢٣٤م ٠ كذلك ألف كتابا فى الجغرافيا « تقويم البلدان » لا يقل خطرا وشأنا عن مؤلفه التاريخى ، ومن ثم فقد اعتبر أبو الفداء أعظم مؤرخ جغرافى فى ذلك العصر على اختلاف الاوطان والاديان كما يقول سارتون (٧١) ٠ ومن معاصرى أبى الفداء من الجغرافيين شمس الدين الدمشقى الذى وضع رسالة فى الجغرافيا هى « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (٧٢) » ٠ وبرغم أن هذه الرسالة أقل شأنا من « التقويم » من الناحية الرياضية، الا أنها أجل شأنا منه حيث مادتها المتعلقة بالظواهر الطبيعية والثروة المعدنية ٠

وقد برزت بعض السيدات فى كثير من فروع العلم والمعرفة وخاصة علم الدين والحديث ، فقد ظهرت السيدة كريمة بنت عبد الوهاب بن على مسندة الشام أم الفضل القرشية الزبيرية التى كانت تعرف باسم بنت الحبقبق ٠ والسيدة فاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدثة وفاطمة بنت عساكر عالمة التفاسير والحديث وست العرب بنت يحيى بن قايماز أم الخير الدمشقية الكندية المحدثة ، وكذا عائشة ابنة عيسى بن الشيخ الموفق المقدسى المحدثة (٧٣) ٠

وبعض المدن ذاعت شهرتها لكثرة ما بها من العلماء مثل قنسرين وكفر طاب ، فقد ذكر ابن العديم (٧٤) أن كفر طاب كانت مشحونة بأهل العلم وكان بها من يقرأ الادب ويشتغل به الى جانب تخصصه الاول ٠ كذلك كان ببعض القرى فى الغوطة الدمشقية علماء اعلام ويختلف اليها ، علماء دمشق يدرسون فيها ٠ كذلك ورد الكثير من أسماء المدن التى اشتهرت بعلمائها ، فقد ذكر الحافظ بن عساكر الكثير من الروايات عن أهل داريا وكفر سوسية وصنعاء دمشق والربوة والنيرب وما حدث بها ٠ كما تناول أرانس وبيت قوفا والبلاط وبيت سوا ودومة وسرايا وجرستا وكفر بطنا ولاقانية وحجيرا وعين ثرماء وجديا وطروس وبيت لبيا وبرزة وأهل بعلبك الذين عنوا عناية فائقة بالحديث وخاصة فى القرن السادس الهجرى (٧٥) ٠

أما عن المذاهب السنية التى شاعت فى بلاد الشام فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها فهو مذهب الاوزاعى (٧٦) ، الذى ظل معمولا به حتى عم المذهب الشافعى فى عهد الدولة الايوبية ٠

---

(٧١) Sarton, Vol III p. 308

(٧٢) Mehren. A. F: p. 185

(٧٣) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٤٦ ، ٤٧ ٠

(٧٤) ابن العديم : زبدة الحلب ص ١٣٥ ٠

(٧٥) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٤٨

(٧٦) الاولى هو امام اهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٤٩٣ ، والامام الاوزاعى ،هو عبد الرحمن بن عمر والاوزاعى ولد فى بعلبك سنة ١٠٩هـ/ سنة ٧٠٧م وقد عرف بالاوزاعى نسبة الى قبيلة يمنية (ابن الاثير : اللباب في تهذيب الانساب ص (ياقوت : ٧٤ ، ٧٥ (القاهرة سنة ١٣٥٧) ينتمى اليها أو نسبة الى ضاحية من ضواحى دمشق معجم البلدان جـ ١ ص ٣ ٠ ٤ ٠ ٤ ٠ ٤)تعرف بهذا الاسم ٠ وقد نشأ وترعرع فى بيروت ، فحفظ القرآن والتفسير وهو مايزال حدثا صغيرا ٠ فلما شب عن الطوق ارتحل فى انحاء الشام فعرف وذاع صيته واشتهر بالعلم والزهد والتقوى ، كما تميز بالاضافة الى كل ماتقدم بالجرأة (زين الدين الخطيب : محاسن المساعى في مناقب الامام عمرو الاوزاعى ص ٩٤ ـ ٩٥ (نشر شكيب ارسلان

لقد اعتبرت وظيفة القاضى عند المسلمين من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة ، وكان القضاة فى العصر الاسلامى الاول يختارون من العلماء المسلمين بأحكام الشريعة الاسلامية والمعروفين بالتقوى وتحرى العدل وغير ذلك من الصفات التى يجب توافرها فيمن يتصدر فى الحكم فى الدماء والاموال (٧٧) •

واذا كان الفاطميون قد حرصوا على أن يولوا القضاء بالشام ومصر من يدين بمذهبهم الشيعى ، فان الايوبيين قد أعادوا هذه الوظيفة الى أهل السنة ، أما فيما عدا ذلك فان القضاء ظل كما كان عليه فى العصر الفاطمى • واحتفظ القضاء فى العصر المملوكى بنظامه فى عهد الدولة الايوبية ، فقد عين الظاهر بيبرس أربعة قضاة حسب المذاهب الاربعة ، وأجاز لهم تولية نواب لهم فى الاقاليم • وأضاف الى اختصاصات القاضى الشافعى تاج الدين عبد الوهاب ، النظر فى ديوان الاحباس والنظر فى أموال اليتامى والورثة (٧٨) • وما أتبعه المماليك بالنسبة للقضاة الاربعة فى مصر طبقوه فى بلاد الشام ، فعينوا قضاة أربعة فى كل من دمشق وحلب وحماة وطرابلس وغيرها من النيابات الشامية (٧٩) ، فقد كان فى دمشق أربعة قضاة للمذاهب الاربعة وكان أهمهم قاضى القضاة الشافعى ، الذى كان يشرف على أحكام الاوقاف وأكثر الوظائف • كما كان يختص بتولية النواب فى النواحى والاعمال بجميع أعمال دمشق حتى غزة • ويلى قاضى الشافعية قاضى الحنفية ثم المالكية والحنبلية • وتعددت وظائف القاضى ففوض اليه « بالاضافة الى الفصل فى المنازعات والقضاء ، نظرا لأوقاف بدمشق وأعمالها بالبلاد الشامية وما هو مضاف الى ذلك من الصدقات والتدريس وغير ذلك » (٨٠) •

كما جاء فى تفويض كتبه الشهابى لقاضى القضاة شهاب الدين بن عبد المجيد عبد الله قاضى قضاة الشافعية بالشام ، انه فوض اليه قضاء قضاة الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجندها وضواحيها وسائر الممالك الشامية المضافة اليها والمنسوبة لها والمحسوبة فيها ، مع ما هو مضاف الى من كان قبله من تدريس المدارس مع الاذن له فى أن يستنيب عنه من يصلحون لذلك بشرط مراقبتهم ، وأن يعمل على قمع البدع ، وأن يشرف على تفريق الصدقات الحكمية ، ويهتم بالاسارى المسلمين والايتام، وأن يرعى الجهات الدينية ولا يعين لها الا الاخيار ، وأن يتحرى أمر الشهود وأن يستشير العلماء ، ويجود على المتصوفة الفقراء (٨١) •

بالقاهرة) فى القول والعمل • كما كان الاوزاعى محدثا لبقا وواعظا مقنعا ومؤثرا ، فقد أعجب به الخليفة المنصور عندما قدم الى سورية وسمعه يعظ اعجابا شديدا • وقد بقى مذهب الاوزاعى شائعا فى سورية مدة قرنين ، قبل أن ينافسه المذهب الحنفى والمذهب الشافعى • كما انتشر فى الاندلس وبقى هناك قرابة أربعين سنة حتى حل محله المذهب المالكى • وقد توفى فى بيروت عن سبعين عاما سنة ١٥٧ هـ • ودفن فى قرية حنتوس قرب بيروت ولا يزال قبره يحج اليه الناس (زين الدين الخطيب : محاسن المساعى فى مناقب الامام عمرو الاوزاعى ص ٩٥ ، وما بعدها)

(٧٧) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٣ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٥ •

(٧٨) ابن فضل الله العمرى : التعريف ص ١٢٣ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢ : ٦٤ •

(٧٩) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٢ ص ٧ ، ٢٧١ •

(٨٠) القلقشندى : ضوء الصبح ص ٣١٤ •

(٨١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٩ •

ولم تقتصر الوظائف والاعمال التى كان يختص بها القاضى على ما تقدم فحسب بل كان يعهد اليه كثير من الاحيان الاشراف على التشـييد والتعمير ، فقد عثرنا على نص منقوش بالمسجد الجامع بحمص يرجع الى سنة ٦٧١هـ / سنة ١٢٧٢م فى عهد السلطان الملك الظاهر جاء فيه « بمناظرة الحاج عبـد المجيد قاضى قضـاة الشام (٨٢) » .

ولم يكن اشراف القضـاة على العمائر فحسب بل شمل كذلك بعض المنشـآت المدنية كالاسبلة ، فهناك نص على سبيل ملحق باحدى خانات يرجـع الى سنـة ٧٢٠ هـ/ ١٣٢٠ م « باسم سيدنا ومولانا قاضى القضـاة حاكم مفتى الانام » نجم الـدين شـيخ الشـيوخ العارفين أبو العباس أحمد بن مصرى الثعلبى الشافعى الحاكم بالشام المحروس (٨٣) . وكان لحلب قضـاة أربعة لـكل مذهب من المذاهب الاربعة قاضى قضاة ، وكان الشافعى هو الذى يولى بالبلاد كما هو الحال فى دمشق . وكان قاضى القضـاة الحنفى جمال الدين ابراهيم بن أبى جرادة الشـهير بابن العديم « عليـه الاشراف على الاوقاف وحفظ جهاتهـا وصرف أموالها فى مصارفها بعد العمارة والتثمير والنظر فى أمر المـدارس والقـاء الـدروس عـلى عادته (٨٤) » . وبمسـجد الحنبلى فى بعلبك كتابة أثرية بنص تعمير ترجع الى سنة ٦٨٢هـ/ سنة ١٢٨٣م باسم السلطان المنصور قلاوون وولى عهده علاء الدين متولى الامير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسـة ومدينتهـا ونظر القاضى بهاء الدين ابن خلكان (٨٥) ، وكان لكل من حماة وطرابلس قضاة أربعة (٨٦) .

ومن الوظائف المتصلة بالاحكام الشرعية وظيفة المحتسب وكان يلقب بالشـيخ ، لانه موظف دينى يسند اليه القيام بالامر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، ويقال له كذلك صـاحب الحسبة ومتولى الحسبة وناظر الحسبة ووالى الحسبة (٨٧) . وقد عرفت وظيفة المحتسب فى جميع الدول الاسلامية وتشـابهت فى وظائفها ومهامها وان اختلفت فى بعض التفاصيل التى تميز اقليم عـن آخـر . واحتفظ الفاطميون بوظيفة المحتسب التى كان يشغلها فى عصرهم أحد علماء الشيعة وكان يلقب بالشيخ (٨٨) . وكان المحتسب فى ذلك العهد يقرأ سجل تعيينه على المنبر ، وكان يخلع عليه وتطلق يده فى كافة الشئون المتعلقة بالامر بالمعـروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة . وكان يستعين بالولاة والشرطة فى تنفيذ أوامره ، وكان يقيم عنـه نوابا فى سـائر الاعمال الذين يقومون بعملية الطـواف والتفتيش ، وكان يتقاضى مرتبـا

---

(٨٢) يوسف بن عبد الهادى : ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ص ١٥٩ ،
Sobernheim: Insc. des Moshee von Hims p.296

(٨٣) يوسف بن عبد الهادى : كتاب الاعاناف فى معرفة الخانات ص ٢٢٧ ،
Sauvaget: Coravan serail (Ars Islamica vol p. 5 fig. II)

(٨٤) القلقشندى : صبح : صبح الاعشى جـ ١٢ ص ١٥٥ .

(٨٥) Repertoire: XIII p. 15. No. 16 — 4823

(٨٦) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٢ ص ١٨٢ .

(٨٧) حسن الباشا : الفنـون الاسـلامية والوظائف جـ ٣ ص ١٠٢٧ .

(٨٨) الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٢٣ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٠ ص ٤٦٠ .

شهريا (٨٩) قدره ثلاثون دينارا • واستمرت وظيفة المحتسب فى العصر الايوبى ، وكان يتولاها أحد العلماء السنيين ، وان ظل يلقب بالشيخ على ما كان عليه فى العصر الفاطمى (٩٠) وقد أورد القلقشندى نسخة تقليد أيوبية بولاية الحسبة صادرة من الوزير ضياء الدين ابن الاثير نصح فيه المحتسب بأن يلفت النظر أولا باللين فى القول ثم يؤدب باللسان وأخيرا يلجأ الى استعمال السوط (٩١) ، وقد أبيح للمحتسب أحيانا أن يشهر بالمذنبين (٩٢) • أما فى العصر المملوكى فقد احتلت وظيفة المحتسب مكانا مرموقا فقد صارت الوظيفة الخامسة بين الوظائف الدينية الرفيعة الشأن ، وكان لصاحبها مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف • وكانت الحسبة فى دمشق تعتبر الوظيفة الثالثة من بين الوظائف الدينية فهى تأتى بعد قضاء العسكر وافتاء دار العدل •وكان من حق محتسب دمشق تولية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق ، وكل نائب كان يسمى باسم المدينة التى يعمل بها فيقال مثلا محتسب بعلبك ، فقد أورد القلقشندى قرارا من الشيخ جمال الدين بن نباتة بتعيين شهاب الدين بن أبى النور حسبة بعلبك من أعمال دمشق • والى جانب محتسب دمشق وجد محتسب حلب ومحتسب طرابلس (٩٣) •

طبقة العامة :

انقسمت طبقة العامة فى بلاد الشام ابان العصور الوسطى الى قسمين كبيرين ينقسم كل منهما الى فروع أخرى صغيرة • القسم الاول هو الذى يعرف عندنا اليوم باسم الطبقة المتوسطة وتتفرع الى ثلاث فئات هى : أهل الفنون الجميلة وفئة التجار ثم فئة الصناع • أما القسم الثانى فيتفرع الى ثلاث فئات كذلك وهم المزارعون من أهل القرى وعامة سكان المدن وفئة العيارين والفدوية والشطار وطوائف أخرى من الرعاع •

وقد قيل فى تعريف العامة ، أنهم فى المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات (٩٤) وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول (٩٥) •

ولما كانت طبقة العامة تتكون من خليط كبير من فئات السكان تفاوتت أجناسها

---

(٨٩) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٣ ، حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ١٨٢ •
(٩٠) ابن الاثير : المثل السائر ص ٤١٧ •
(٩١) العمرى : التصريف ص ١٢٥ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١١ ص ٦٨ •
(٩٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١١ ص ٩٦ •
(٩٣) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١٢ ص ص ٣٧٩ ، ٤٨٠ •
(٩٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٨٠
سئل الامام على رضى الله عنه عن العامة فقال همج رعاع اتباع كل ناعق » وقال الفضل بن يحيى « الناس أربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى عليه انهضهم اليسار وأوساط ألحقهم به التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء لكع لكاع وربيطة اتضاع هم أحدهم طعامه ونومه » •
(٩٥) الجاحظ : كتاب البخلاء ص ٣٧ •

ومشاربها وطبائعها وكذا وظائفها وصناعاتهـــالذلك فقد تناولنا كل طائفة منها على حدة ٠

أهل الفنـــون الجميلة :

هى الصنائع التى منشأنها ادخال السرور بجمالها وجلالها علىٰ النفوس البشرية وتربية ملكة الذوق والشعور بالجمال ، وقد اطلق عليها العرب اسم « الآداب الرفيعة » ٠ وقد قسمها البعض الى سبعة أقسام هى الموسيقى والغناءوالرقص والتصوير والشعر والنقش والبناء ٠ ويقسمها فريق ثانى (٩٦) الى ثلاثة فئات : الفئة الاولى الموسيقى والغناء والرقص والثانية التصوير والثالثة البناء ، ولما كان هذا التقسيميكاد يجمع بين التخصصات السابقة جميعهـا لذلك فاننا سنتخذه أساسا لتقسيمنا : ــ

أهل الموسيقى والغناء (٩٧) والرقص :

اشتهرت بلاد الشام بحبها للموسيقى ،حتى كان لبعض الموســـيقيين والموســـيقيات والمغنيين والمغنيات من أرباب النباهة والفضل،يد فى اصلاح بعض الاحوال وتخفيف التوازن عند العظماء (٩٨) ٠ ولطالما ارتجلوا ألحانـــاوأبياتا ظاهرها الطرب والحب والسلوىوباطنها الموعظـــة والعبرة (٩٩) ، ذلك أن الموســيقىعندهم مرافقـــة للشـــعر والادب ٠

ولم تبرح الشـــام تخـــرج من رجـــال الموسيقى والغناء ، رجالا كانوا بهجة عصورهم نذكر منهم أبو المجد (١٠٠) بن أبى الحكم وهومن أشهر مغنى القـــرن الســـادس الهجـــرى (الثانى عشر الميلادى) ، فقـــد كان يجيـــد الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الايقاع والغناء والزمر وسائر الآلات ، كما قام بعمـــل أرغنوبالغ فى اتقانه (١٠١) ٠

وقد اشتهر كثـــيرون غـــير أبو المجـــدبن أبى الحكم فى صناعة الارغن فى بلاد الشام فى ذلك العصر منهم : أبو زكريا يحيى (١٠٢)البياسى من أطباء صـــلاح الملك الناصر لدين

---

(٩٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٦٦
جورجي زيدان : التمدين الاسلامي جـ ٥ ص ٣٢

(٩٧) الموسيقى لفظة يونانية معربة معناها علمالالحان وقد سماها المتأخرون الغناء لان النفس تستغنى به عن غيره من الملاذ البدنية عند سماعه
(بان عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٦) ٠

(٩٨) ابو الفرج الاصفهانى : الاغانى جـ ٢ ص ١٣٠

(٩٩) المبرد : الكامل ص ٣٧٧

(١٠٠) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١١٠

(١٠١) ويصـــف لنا الخوارزمى هذا الارغنفيقول : « تعمل الارغانون من ثلاثة رقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها الى بعض ويركبعلى رأس الرق الاوســط رق كبير ثم يركب على هذا الرق أنابيب صفر لها قصب على نســـبمعلومة يخرج منها أصوات طبيعية مطربة شجية حسب ما يريد الموسيقى ٠ (الخوارزمى : رسائلالخوارزمى ص ١٢٧) ٠
لقد عثر على قطعة من العاج عليها رسم لارغنمحفورة حفرا بارزا ومجســما يرجع الى القرن السادس للهجرة من صناعة بلاد الشام فى العصر الفاطمى محفوظة بمتحف الفن الاســـــلامى بالقاهرة تحت رقم (٣٩٣) ٠

(١٠٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء جـ ١ص ١٣٨

الله ، الذى اشتهر كذلك بالغناء واللعب به . ومن علماء الموسيقى والغناء فى بلاد الشام فى العصور الوسطى قسط بن لوقا البعلبكى ، وصفى الدين عبد المؤتمن بن فاخر ، ونجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة ، وفخر الدين الساعاتى . وممن اقترن اسمه باسم أبى نصر الفارابي فى ميدان الموسيقى والغناء رشيد الدين بن خليفة (١٠٣) الذى قيل عنه ، أنه كان أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطيبهم صوتا ونغمة . وهناك أيضا علم الدين قيصر الذى أخذ الموسيقى عن الفيلسوف كمال الدين موسيقى بن موسى الموصلى (١٠٤) .

ومن الموسيقيين الذين برعوا فى هذا الفن فى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الجمال البستى الذى كان يعشق آلة الجفانة (١٠٥) ويجيد اللعب عليها ، وكان يشغل فى نفس الوقت وظيفة الخطابة بجامع التوبة بمدينة دمشق فى عهد الملك الاشرف وصاحب دمشق يومئذ ، الصالح عماد الدين اسماعيل عبد الملك العادل بن أيوب . على أن أهل دمشق كرهوا أن يكون خطيب جامع مغنى وموسيقى فى نفس الوقت ، فوضعوا قصائد من الشعر للتعريض به (١٠٦) . ومن الموسيقيين والمغنيين الذين نبغوا وذاع صيتهم فى بلاد الشام فى العصر المملوكى محمد بن على الدهان ، فقد كان شاعرا وموسيقيا وملحنا ودهانا . ونستطيع أن نتبين من لفظ الدهان (١٠٧) الذى وصف بها محمد بن على ، على أن الغناء والموسيقى لم يكن قاصرا على العلماء والادباء ورجال الدين فحسب ، بل قد يعشقه أصحاب الحرف والصناعات الاخرى كالدهانين كما اشتهر الكمال القانونى بدمشق فى القرن الثالث عشر (١٠٨) .

أما عن الآلات التى استعملها الموسيقيون والمغنون فى بلاد الشام فى غنائهم وموسيقاهم فتنقسم الى ثلاثة أنواع رئيسية هى :ـ

١ ـ آلات وترية ومنها العود والقانون والجفانة (القيثارة) والرباب وغيرها .

٢ ـ آلات الصفير وهى التى يضربون بها نفخا بالفم أو ما يقوم مقامه ومنها المزمار والفلوت والنفير والناى وما يجرى مجراها .

---

(١٠٣) ابن القفطى : تراجم الحكماء ورقة ٦٧ (مخطوط بمعهد المخطوطات العربية تاريخ رقم ٣٩٩) .

(١٠٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٩ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٣ .

(١٠٥) الجفانة : فى الاصل الصفانة وهى القيثارة (ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ١٧٥) .

(١٠٦) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ١١٦ .

(١٠٧) الدهان كما جاء على الكتابات الاثرية هو الذى يطلى الجدران والادوات بالطلاءات المتعددة الانواع والاشكال . وصنعة الدهان من الصنائع التى توجد فى المدن المستبحرة فى العمارة والاخذة فى عوايد الترف والحضارة كما يقول ابن خلدون . وقد اطلق لفظ دهان فى العصور الوسطى على الخطاط الذى كان يطلى الحروف والكتابات المعروفة باسم النسخ المملوكى .. فقد عثر على جدار تربة خاير بك بحلب على النص التالى « سيف الدين خاير بك الاشرفى كافل المماليك الحلبية المحروسة كتبت بخط الشيخ احمد بن الداية الدهان » .

(ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٢ ، محمد أسعد طلس : الاثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ص ١٢٤) .

(١٠٨) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ١٠٨

٣ ـ آلات صدمية وهى التى يستخدمونها ضربا أو خشخشة مثل الطبل والدف والصفوح وما شكلها (١٠٩) .

الخطاطون والمصورون والمعماريون :

ولعل من أهم المشتغلين بالفنون الجميلة عند المسلمين الخطاطون وذلك لاشتغالهم بكتابة المصاحف ونسخ كتب الادب والشعر ، ولأن رجال الدين كانوا راضين عنهم ومن ثم فقد تقدم فى تحسين الخط وأقبل الامراء ورجال الدولة على شراء المخطوطات الكاملة أو النماذج من كتابة الخطاطين المشهورين . وكان الخطاط يذيل كتابته بامضائه معتزا بخطه ولأنه لم يكن يخشى نقمة الفقهاء المتعصبين كزميله المصور (١١٠) . ولذا كانت أسماء الخطاطين معروفة ، وقد حظى الكثيرون منهم دون غيرهم من الفنانين المسلمين بأن ألفت عنهم الكتب (١١١) والبحوث التى تتحدث عن تراجمهم وعن مدارسهم وأسلوبهم فى تجويد الخط العربى . وقد وصل بعض الخطاطين الى درجة عالية فى فنهم استوجبت الدهشة والاعجاب فقد كتبت سور من القرآن الكريم على حبة أرز أو حبة قمح وغير ذلك من العجايب (١١٢) . وقد حظى متحف العظم بدمشق بالكثير من هذه التحف الفنية النادرة .

ولقد كان الخطاط أقرب أرباب الصناعات الى الفن والفكر عند المسلمين ولذلك كان فى مقدمة أهل الفنون الجميلة ، كما زاول الكثير من كبار رجال الدولة والمفكرين تجويد الخط واعتبروا ذلك شرفا كبيرا لهم .

وكان بعض الخطاطين يجمعون بين فن تجويد الخط وبين فنون الكتاب الاخرى مثل التصوير والتذهيب والتجليد . فالمعروف أن الخطاط كان يتم كتابة المخطوط تاركا فيه الفراغ الذى يطلب منه فى بعض الصفحات لترسم فيه الاشكال المذهبة ، أو تنقش فيه صور لتوضيح متن المخطوط . فقد وصلت الينا بعض مخطوطات لم تتم بها الرسوم فى الفراغ الذى تركه الخطاط ، فقد كان المخطوط يسلم بعد أن ينتهى الخطاط من كتابته الى فنان متخصص فى رسم الهوامش وتزيينها بالزخارف ، فاذا ماانتهى سلمه الى المذهب الذى يقوم بتذهيب هوامشه وصفحاته الاولى والاخيرة وبداية فصوله وعناوينه (١١٣) .

واستمرت الاساليب التصويرية التى بدأت فى نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى فى العراق وسوريا ومصر معمولا بها حتى منتصف القرن السابع الهجرى

---

(١٠٩) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١٠٩

(١١٠) زكى حسن : فنون الاسلام ص ١٥٦

(١١١) سليمان سعد الدين : تحفة الخطاطين ، اخوان الصفا فى رسالة الموسيقى : صاحب رسالة الخط ، نشر الدكتور محمود خليل عساكر ، فى مجلة معهد المخطوطات العربية (عدد ١٢٧) ٢ الفيه زين الدين شعبان الاثارى ، كلام شرف الدين عبد السلام فى صبح الاعشى ، والفهرست لابن النديم ، وحاجى خليفة وابن أبى أصيبعة .

(١١٢) كرد على : خطط الشام جـ ٤

(١١٣) Arnold and Grohann. The Islamic Painting. p. 199.

(منتصف القرن الثالث عشر) دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر (١١٤) • وفى تلك الفترة كان التصوير الاسلامى قد أرسى قواعده وأصبح له طابعه المميز وطرازه الخاص ونشأت له مدارس أولها المدرسة العربية فى مصر والشام والعراق • ولعل من أهم المخطوطات المصورة التى ترجع لسوريا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) هو « رسالة دعوة الاطباء » (١١٥) •

وقد ظهر فى العصر الايوبى والمملوكى مصورون أبدعوا فى توضيح الكتب بالصور والرسوم كما زوقوا الحوائط والجدران بالزخارف والنقوش ، التى ماتزال آثارها باقية فى (دير باعنتل) (١١٦) الذى يصفه ياقوت فيقول: «من أعجب ما فى (دير باعانتل) آزج (أى بيت مستطيل) الذى زخرفت أبوابه بصور الانبياء والرسل كما توجد به صورة للسيدة العذراء كلما مالت الى ناحية كانت عيناها عليك • كذلك حظى (دير مران) بسفح جبل قاسيون بدمشق بكثير من الصور والنقوش التى ترجع الى تلك الفترة • وذكر ابن جبير فى رحلته انه كان فى كنيسة السيدة مريم بدمشق فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) العديد من الصور والتزاويق ومثل ذلك فى كنيسة القيامة وغيرها من كنائس فلسطين •

ولعل من أقدم الآثار التى ماتزال تحتفظ بصور ورسوم مصنوعة بطريقة الفسيفساء فى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى قبة الملك الظاهر بيبرس بدمشق • كما تحتفظ حلب بدار الملك رضوان (١١٧) الذى زخرفت جدرانه بالكثير من الصور والتزاويق • ولما تزوج الملك رضوان ابنة عمه الملك العادل أخى صلاح الدين وأسكنها هذه الدار ، شبت فيها النار عقب العرس فاحترق جميع ما فيها فجددها وسماها دار الشخوص لكثرة ما كان من زخارفها • ومن القصور المصورة كذلك ، القصر الابلق الذى بناه الظاهر بيبرس فى مرجه دمشق ، فقد كان يزخرف واجهته مائة أسد منزله صورها بأسود فى أبيض • ويعلق على هذه الرسوم ، كرد على فيقول : « وهذه الصور أجمل من صور الاسود والنمور وغيرها من الحيوانات التى كانت فى قلعة حلب» • ولم تقتصر الزخارف والتزاويق على القصور والدور والقلاع فحسب بل حظيت الحمامات كذلك بالكثير من عناية المصوريين ، ومن أجمل الامثلة لذلك حمام سيف الدين بدمشق • اما المعمار فقد كانت له مكانة مرموقة عند المسلمين ، ذلك أن العمارة فن جميل بل هى أحسن الفنون كلها (١١٨) •

---

(١١٤) Richard Eltinghausen: Arab painting. p. 26.

(١١٥) انظر ملحق رقم (١)

(١١٦) (دير باعنتل) يقع على بعد ميل من قرية جوسية بالقرب من حمص (كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ١١٩) •

(١١٧) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ١٢٢

(١١٨) انظر مقارنة المسلمين بين الموسيقى والعمارة فى : المبرد : الكامل ص ٢٨٧ ، ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ٣٣ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ ، الثعالبى : لطائف المعارف ص ٧٢ ، الابشيهى : المستطرف ج ٢ ص ٤٠

وتدل آثار الشام التى ترجع الى القرنين السادس والسابع الهجريين على مدى ماوصل اليه المعمار السورى من ذوق سليم وأسلوب معمارى متميز ، فهناك المدارس الكبرى فى حلب ودمشق وبيت المقدس وغيرها من البلاد• ونذكر من هذه العمائر على سبيل المثال لا الحصر ، المدرسة العادلية الكبرى والطاهرة فى دمشق والبيمارستان القيمرى بحلب وبيمارستان أرغون شاه ومدرسة الفردوس وغيرها من المبانى التى سنفرد لها موضوعا خاصا •

ولقب معمارى كان يطلق على البناء أو المهندس (١١٩) أو المشرف على العمارة أو المتولى أمرها • فقد عثر على لقب معمار منقوشا على لوح حجرى بعمائر مدنية تدمر يرجع تاريخها الى سنة ٦٣٥هـ يتضمن اجراء عمارة باسم السلطان الملك المجاهد « وكان عمارته على يد الناصح يوسف ومعاونه عمر بى اسماعيل بن يغمور وكتبه عمر المعمار » (١٢٠) • كما عثر على لقب معمار بمعنى متولى أمر العارة أو المنفق عليها، فى كتابة أثرية ترجع الى سنة ٦٤٨هـ على قنطرة توكات ، أجريت فى عهد عز الدنيا والدين وركن الدنيا والدين علاء الدنيا والدين بن السلطان غياث الدين كيخسرو بن السلطان علاء الدين كيقباد جاء فيها : « وكان معمارها والواقف على عمارتها هو الامير المحتاج الى رحمة ربه الاعز الاخص الموفق المقبل بهاء الدين ضياء الاسلام تاج وحيد الملوك والسلاطين محمد بن الفرج المعروف بابن الحكيم » (١٢١) •

وفى العصر المملوكى لقب المهندس أو المعمار بلقب « شاد العمائر » وكان يشغل هذه الوظيفة أمير عشرة فى أول الامر ، ثم صار يشغلها قوم بغير أمره (١٢٢) • وقد يعاونه موظف آخر يسمى ناظر العمارة كان له الامر على المهندسين والحجارين وصناع العمائر وغيرهم (١٢٣) •

وقد جاء فى بعض الوثائق المملوكية ان شاد العمائر كان يختار من العارفين بأمور الهندسة والبناء وذوى الامانة والعفة وحسن السياسة ، وكان من واجبه أن يحرص على مصالح الوقف والمستحقين بأن يجدد ويصلح مبانى الوقف ، وأن يشرف على أرباب الصناعات المختلفة فى العمائر ويحثهم على العمل مع الرفق بهم والتلطف معهم وتمكينهم من أداء واجباتهم الدينية كالصلاة وأن يعاون فى جباية ريع الوقف (١٢٤) •

وقد اشتهرت بلاد الشام بكثيرين من المهندسين الافذاذ وذلك فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) ، مثل محمد بن عبد الكريم

---

(١١٩) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار جـ ٣ ص ١١١١

(١٢٠) Caniteau: Inventaire des inscription de palmgre p. 65 No. 58 Sauvaget. Insc. de Temple de Bêl (Syria XII p. 149)

(١٢١) Repertoir: XI p. 217. No. 5538.

(١٢٢) خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٥

(١٢٣) السبكى : معيد النعم ص ١٣٩ ، وقد نصح السبكى شاد العمائر ان يرفق بالبنائين والصناع وان يسمح لهم بالصلاة وان يمنحهم أجورهم كاملة •

(١٢٤) عبد اللطيف ابراهيم : سلسلة الوثائق التاريخية القومية ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦

بن عبد الرحمن الحارثى ، المعروف باسم « أبو الفضل » (١٢٥) • ولد أبو الفضل ونشأ بدمشق وكان يعرف بالمهندس لجودة معرفته وشهرته بها ، كان فى أول أمره نجارا وله معرفة بنحت الحجارة ، وكان تكسبه بصناعة النجارة، فهو الذى قام بعمل معظم أبواب البيمارستان الكبير الذى انشأه نور الدين زنكى • ثم قصد أن يتعلم نظريات اقليدس ليزداد تقدما فى صناعة النجارة ، فقاده ذلك الى الانصراف الى الهندسة بكليته وأخذ عن علمائها حتى برع فيها واشتهر بها • ثم قرأ أيضا صناعة الطب (١٢٦) وعمل الساعات ، واشتغل بالادب ونظم الشعر • وهو الذى أصلح الساعات التى كانت بجامع دمشق ، وتوفى سنة ٥٩٩هـ ، وله من العمر سبعين عاما •

ومن أشهر مهندسى الشام فى القرن السابع الهجرى ، ابراهيم بن غنائم بن سعيد الذى اتصل به الملك الظاهر بيبرس وكلفه ببناء الكثير من منشآته بدمشق (١٢٧) • ولم يزل اسم ابن غنائم محفورا على الواجهة الشمالية للمدرسة الظاهرية بدمشق • كذلك أنشأ قصرا للظاهر بيبرس بمرجة دمشق المعروف باسم القصر الابلق السابق الاشارة اليه • وقد بلغ من شهرة هذا المهندس ان ابناءه صاروا يعرفون من بعده ببنى المهندس (١٢٨) •

ولا يفوتنا فى هذا المقام ان نذكر علما من علماء ومؤرخى الفترة التى نحن بصدد دراستها ممن كان لهم باع وشهرة فى ميدان البناء فى بلاد الشام ونعنى به ابن واصل • قال أبو الفداء (١٢٩) : « وهو وان كان من المشهورين بالفقه ، فقد كان من كبار المهندسين وبرز فى علوم كثيرة كالمنطق والهيئة والتاريخ » • ويضيف أبو الفداء فيقول : « ولقد ترددت اليه بحماة مرات كثيرة ، وكنت أعرض عليه ما أحله من أشكال أقليدس واستفيد منه » • وقد توفى ابن واصل الذى كان يشغل وظيفة قاضى القضاة بحماة ، كما سبق القول ، سنة ٦٩٧ هـ •

التجار والصناع :

نقصد بالتجار هنا باعة السلع الثمينة كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والانية والرقيق • وأكثر ارتزاقهم من الملوك والسلاطين وأهلهم وأهل دولتهم وجلسائهم وأعوانهم فكانو يقيمون فى دمشق وحلب وحماة وطرابلس وغيرها من المدن الكبرى ببلاد الشام • وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب ومن الشمال الى الجنوب • فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند واللؤلؤ من البحرين والعقيق والعاج من الحبشة ، والادهان والزيوت العطرية من نيسابور • وطراز الوشى والثياب المنسوجة من الشعر والعتابى وسائر ثياب الحرير من

(١٢٥) احمد تيمور : اعلام المهندسين فى الاسلام ص ٤٧
(١٢٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الاطباء جـ ٢ص ١٩٠ ، ١٩١ •
(١٢٧) ابن الطولونى : ذخائر القصر بتراجم نبلاء العصر ص ٥٩
(١٢٨) أحمد تيمور : اعلام المهندسين ص ٥١
(١٢٩) أبو الفداء : المختصر فى اخبار البشر جـ ٢ص ١٧٨

أصفهان . والدبيقى والقبــــاطى والقراطيس والستور والبسط من مصر ، والزجاج والخزف من البصرة والحصر من عبادان والمسك والكافور والعود من الصين وغير ذلك كثير (١٣٠) وأكثر التجار اشتغالا بنقل البضائع فى البر ، طائفة من تجار اليهود الراذانيه كانوا يتقنون اللغات الرائجه فى ذلك العصر .

كذلك كان التجار يحملون من الشـــام الى خارجها الكثير من المتاجر المنتجة بهـــا أو المزروعة فيها . فقد كانوا ينقلون مـــن فلسطين الزيت والقطن والزبيب والمرايا وقدور القناديل والتمور والحبوب والخرفان وشقاق المطارح . أما قدس (أى حمص وحماه) فكانت تصدر الثياب المنيرة ، ومن صور ، الســـكر والخرز والزجاج . وتصدر دمشـــق الديباج ودهن البنفســـج والكاغد (الورق) والجوز والزبيب (١٣٢) .

وقد كان تجار حلب أكثر تجار الشـــام ثراء فقد اختصت حلب بالصابون الذى يصدر منها الى بلاد الروم والعراق وديار بكر وهـــو أفخر أنواع الصابون ، ويتحدث ابن الشحنة عن تجارة حلب فيقول : « ويباع منه بحلب فى اليوم الواحد مالا يباع فى غيرها فى الاشهر ، ومن خصائصها نفاق مايجلب اليها من البضائع كالحرير والصـــوف والقماش العجمى وأنواع الفراء (من الســـمور والقنك والســـنجاب والثعلب) وسائر الوبر والبضـــائع الهندية ، فاذا حضر اليها مائة جمل فانه يباع فى يـــوم واحد ويقبض ثمنه » . ويقارن ابن الشحنـــة بين خصائص حلب التجارية بالقاهرة فيقول : « ولو احضر الى القاهـــرة التى هى أم البلاد أحمال لاتباع فى شهر وعلى هذا فقس (١٣٣) .

ومن المعروف ان للتجـــارة دور مهم فى اقتصاد الدولة (١٣٤) اذ تســـتفيد منهم فائدة مباشرة عن طريق الضرائب التى كانت تفرض عليهم . وكان التجـــار يتعرضـــون فى بعض الاحيان لانواع من التعسف فى فرض الضرائب وجمعها مما يدفعهم الى التقدم الى السلطان أو الامير بالشكوى والتظلم عسى ان يستجيب ويصدر أوامره لرفع أسباب الشكوى والمظالم . فقد عثر على نص كتـــابى منقوش عـــلى باب شاغور بدمشق يرجع الى سنة ٥٥١ هـ / سنة ١١٥٦ م باسم الملك العـــادل نور الدين زنكى جاء فيه : — « بازالة حق التسفير على التجار المسافرين الى العراق والقافلين منهـــا الى دمشـــق . وتعفيـــة رســـمه وابطال أسمه » (١٣٥) .

---

(١٣٠) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٥ ص ٣٩

(١٣١) ابن خرد اذبة : المسالك والممالك ص ١٨٦

(١٣٢) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٦٢٣

(١٣٣) ويتحدث ابن بطلان عن اسواق حلب فيقول : « انه من عجائبها انه قيســـارية البز عشرين دكانا للوكلاء كل يوم متاعا قدره عشرون الف دينار مستمر ذلك منذ عشرين ســـنة والى الآن » .

(١٣٤) ويذكر جعفر بن على الدمشقى فى كتابه (الاشارة الى محاسن التجـــارة ص ١١٧) أن تجارة الشام فى القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادى عشر الميلاديين) كانت زاهرة جدا ، وقد قسم التجار الى ثلاثة أصناف هم الخزان والركاض والمجهز .

(١٣٥) Van Berchem: Inscr. Ar. de Syrie (MIE. III Pr. IV) & Sauvaget: Dêcrets SeldjoukidesP. 8 - 9 & Repertoire IX. 10 No 3216.

وكانت الدول تسند الى بعض التجـار القيام بأعمال على درجة كبيرة من الاهميـــة بحكم خبرتهم فشغل بعضهم مثلا مناصـــب رفيعة فى الدولة، ومن أمثلة ذلك الصاحب صفى الدين أبو اســـحق ابراهيم بن عبد اللـــه العسقلانى (١٣٦) (المتوفى ســـنة ٦٥٩ هـ) ، الكاتب التاجر الذى وزر للملك الكامل ، وكان من الوزراء المعروفين بالثروة وسعة اليد (١٣٧) كذلك كانت الدولة تكلف كبار التجار بالسفارة بين الدول والولاة ، ومن هنا جاء لقب السفير والامين والثقة للتجار (١٣٨) .

وقد اشتهر كبار التجار بلقبين رئيســيين : أولهما الصدر أو الصدرى وكان يميز طبقـــة الملقب (١٣٩) وثنيهما الخواجة أو الخواجكى ،ويشير القلقشـــندى الى الخواجة فيقول : « التجار الخواجكية » .

الصناع :

لقداحتل صناع الشام العصور فى الوسطى فى القرنين السادس والسابع (الثانى عشر والثلث عشر الميلاديين) مكانا رفيعا واحـــدثوا تطورا عظيما فى مجال الصناعة ، فهم الذين برعوا فى صناعة السكر (١٤٠) فى العالم بعد أن نقلوه من مواطنه فى الهند الى بلاد فارس وغيرهـــا واستخرجوا منه أصنافا لم يكن لها مثيل . كما أنهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها فى العالم وعنهم أخذها أهل أوربا عن طريق الاندلس ،وكانوا يطلقون عليه Charta Damascona (١٤١) كناية عن الكاغد الشامى .

كذلك أشتهر صناع الشـــام فى العصـــور الوسطى بصناعة الزجاج المموه بالمينا والخزف وبلاطات القاشانى (١٤٢) التى ماتـــزال باقية تشهد بما وصل اليه الصانع السورى فى هـــذا الميدان (١٤٣) .

ولعل من أهم وامهر صناع بلاد الشـــام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، صـــناع الخشب وذلك لوفرة الاخشاب الجيدة ، فقـــد ترك لنا هؤلاء الصناع الكثير من المنابر الخشبية، نذكر منها منبر نور الدين محمود بن زنكى فى حلب (برسم المسجد الاقصى) الذى قـــام

(١٣٦) حسن الباشا : الان الالعاب الاسلامية ص ٣٢٢

(١٣٧) مرعى بن يوســف الحنبلى المقدسى :نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين (مخطوط « ورقة رقم ٥٣ ـــ ٥٤ ») .

(١٣٨) حسن الباشا : الفنـــون الاسلامية والوظائف جـ ١ ص ٣٣٠

(١٣٩) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٩٠ ، ٤٩٧ .

(١٤٠) Encycl. Brit. Article Sugar.

(١٤١) جورجى ان : تاريخ التمدين الاسلامى جـ ١ ص ٢٠٠ .

(١٤٢) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٢٨٩

(١٤٣) لهم فى الميكانيات صنائع حسنة كالساعة الشهيرة فى الجامع الاموى بدمشق التى اخـذ جمالها ودقتها ابن جبير فى رحلته فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميـــلادى) ابن جبير : الرحلة ص ٦٥) .

بعمله حميد بن ظافر الحلبى وسليمان بن معالى كما نقش عليه تأريخ الصناعة وهـو سـنة ٥٦٤ هـ •وقد وضعه صلاح الدين فى المسـجد الاقصى بعد أن فتح بيت المقدس وانتزعها من أيدى الصليبيين • وابن المعالى صانع منبـر الاقصى يرجع الى أسرة نبغ الكثير من أفرادها فى صناعة النجارة • ومن المعتقد أن عبيد النجار المعروف بابن المعالى (١٤٤) ، وهو صانع تابوت الامام الحسين رضى الله عنـه المحفوظ حاليا بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة، وذلك بتكليف من السـلطان صلاح الدين الايوبى (١٤٥) •كذلك وصلنا توقيع نجار من حلب منقوش على محراب (١٤٦) مسجد « الحلاوية » ترجع الى سنة ٦٤٣ هـ/ سنة ١٢٤٥ م جاء فيه جدد هـذا المحراب فى ايام السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابن المظفر يوسف ابن محمد بولاية عمر ابن احمد بن هبه الله بن ابى حرارة نجـارة العبد الفقير الى رحمة ربه عبد الله بن احمـد النجار صنعه أبى الحسين محمد بن الجـرار (١٤٧) الحرانى » (١٤٨) •

ومن المحاريب الجميلة محراب جامـع الفردوس بحلب الذى أنشأته ضيفه خاتون بنت الملك العادل والدة السـلطان الملك العزيز ابن الملك الظاهرة ، وهو من عمل النجار حسان بن عنان (١٤٩) • ومن أجمل الاثار الاسلامية التى صنعها نجاروا الشام تابوت خشبى وضع على قبر السيدة سكينة بنت الامام الحسين بالقرب من باب الصغير بدمشق عمله أحمد بن عبد الله سنة ٥٦٠ هـ • وقد أشار القزوينى (١٥٠) الى هذه الصناعة فى سوق المزوقين بحلب كما اشار ابن جبير (١٥١) الى أن أكثر حوانيت حلب مليئة بخزائن من الخشب البديع الصنعة •

كذلك اشتهرت بلاد الشـام فى العصـور الوسطى بصناع الغزل والنسـيج والحياكة حتى كان صناع بلد يصنعون نسيجا يعرف باسم البلد ، فقد عرفت بعلبك (١٥٢) بثوبها المعروف بالبعلبكى ، وزادت شهرة الثياب البلعسية نسبة الى كورة البلعاس من عمل حمص ، وكان يصنع فى صفد الثياب الصفدية والثياب الحفية نسبة الى كورة الحفة غربى حلب •

وقد أشتهرت حمص بمصنوعاتها من أقمشة وفوط ، وقيل أنها تتلو اسكندرية مصر ، وقال الادريسى (١٥٣) أنه يعمل فى صور من الثياب البيض والاقمشة الغالية الصفة والصـنعة وكذلك نسيج حماة (١٥٤) وطرابلس وحلب ،وقيل عن نسيج دمشق « ان نسيج دمشق على

---

(١٤٤) حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ص ٥٤٦ (بمجلة المهندسين) •
(١٤٥) Wiet: Mausolée de shafu (B I Egypt XV) P. 172.
(١٤٦) انظر لوحة رقم (٣٢)
(١٤٧) Repertoire XI. P. 165 No 4248, XV. P. 262.
(١٤٨) محمد اسعد طلس : الاثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ص ٦٢
(١٤٩) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١٣٠
(١٥٠) القزوينى : عجائب المخلوقات ص ٩٧
(١٥١) ابن جبير : الرحلة ص ٦٨
(١٥٢) ميخـائيل موسى : تاريخ بعلبك ص ١١٩ (بيروت)
(١٥٣) الادريسى : وصف فلسطين والشام ص ٣٧ (طبعة بون) •
(١٥٤) محمد سعيد القاسمى : بدائع الغرف فى الصـناعات والحـرف ص ١٤٩ (قاموس الصناعات الشامية) •

اختلاف نقوشه وضروبه ورسومه ومنها عمل نسيج الاطلس ونسيج السابورى وقماش الهرمزى على اختلاف أشكاله (١٥٥) .

ومن الصناعات التى أشتهرت بها بلاد الشام كذلك الشقق الحريرية والقطنية وهى عبارة عن قماش محرك طوله تسعة أذرع فى عرض ذراع وقد كان صناع النسيج يتفننون فى نقشه وصبغه (١٥٦) مما يدل على رسوخ قدمهم فى هذه الطريقة التى ذاع صيتها فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس . وكانت لها مسميات خاصة بها هى المصرية والحامدية والحموية والحمصية والحلبية (١٥٧) .

كذلك اشتهر صناع بلاد الشام فى العصور الوسطى بدباغة الجلود وصناعتها ، فقد صبغوا الاحذية والسروج والمطارح والمقاعد والقرب والروايا والمحافظ والمطاهر والركوات وكانت أهم مصانعه فى حلب . وكانت جلود الثعالب وبنات أوى التى تصلح للفراء تدبغ بالقرب من طرابلس وبيروت . كما كانوا يصنعون من الجلود كل مايهم الفارس والفروسية فتعمل السروج والكنابيش والبرادع (المرشح) (١٥٨) والرباطات والرشمات والهمايير (الخراج) (١٥٩) وهى من أهم صناعات دمشق وحلب .

ومن صناعة السروجيين كانوا يصنعون احزمة من الجلد يسمونها « قشاطا » وجعاب رصاص البنادق ويسمونها « جنادا » وارسانا للخيل (١٦٠) وصناديق للسفر من الجلد وغير ذلك من حاجيات السفر . وبز صناع الشام غيرهم من صناع العالم الاسلامى فى صناعة القيانة والحدادة والنحاسة . فقد نال صناع القيانة والقردحة (أى صناعة السلاح) فى بلاد الشام شهرة كبيرة ، وذلك لان المادة الخام وهى الحديد كانت موجود بكثرة فى الجبال ولاسيما لبنان وحلب ومن شمال الشام فى الغرزل ودوما والشوير ومشقرة ومن جواز دمشق ومن مشارف حوران والقلمون (١٦١) .وقد اشتهرت سيوف مشارف الشام فى أقصى تخوم الجنوب ، كما نسبت السيوف الجيدة الى دياف وكلتاهما فى اقليم حوران فقيل السيوف البصرية (١٦٢) . وقد ظلت دمشق تفاخر بما تصنع من السيوف المتازة التى

---

(١٥٥) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٢١ .
(١٥٦) محمد القاسمى : بدائع الغرف فى الصناعات والحرف ص ١٦٥ .
(١٥٧) Dozy: Dict. det. des vetem. chez les Arabe. P. 117.
(١٥٨) ابن سيدة : المخصص جـ ١٤ ص ٦٣ ؟
(١٥٩) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق . القسم الاولى من المجلدة الثانية ص ٩٣ (تحقيق صلاح المنجد المجمع العلمى الدمشقى) .
(١٦٠) لربيعى : فضائل الشام ودمشق ص١٠٨ (تحقيق صلاح المنجد المجمع العربى بدمشق) .
(١٦١) عيسى اسكندر معلوف :صناعات دمشق القديمة ص ٣٨٨ (المجمع العلمى العربى دمشق سنة ١٩٢٥م) .
(١٦٢) العماد الاصفهانى : الفتح القسمى فى الفتح القدسى ص ٦٨ .

تنقش على مقبضها وقبيعتها (١٦٣) وواقيتها (١٦٤) الآيات الكريمة وتصنع لها الاغماد (١٦٥) المزخرفة .

ويمتاز الفرند (١٦٦) أو جوهر السيوف الدمشقية باشكاله الهندسية المحكمة كمتموجات رائعة وباشراق لونه المائل للبياض مع عدم قبوله للصدا وليونته وثبوت جوهرة ، كما امتاز السيف الدمشقي بكونه مصنوعا من قطعة واحدة لا لحام فيه (١٦٧) .

وامتازت بلاد الشام بانتاج جميع اشكال السيوف التى عرفها العالم الاسلامى ، فقد صنعت السيف المستقيم والسيف المقوس وماتفرع عنه من (١٦٨) القليج والتباغان (١٦٩) والشمشير (١٧٠) .

وهناك الكفتيون (١٧١) الذين كفتوا الاوانى المعدنية من القناديل والطسوت والمباخر والمزهريات بالفضة والذهب . ومن الصناعات الرائجة فى العالم الاسلامى التخزيف فقد اشتهرت دمشق فى القرن السادس والسابع الهجرى بصناعة أنواع متعددة من الخزف ، فقد زجزج الخزاف أنواع جميلة من الخزف عرف باسم الخزف ذى البريق المعدنى وخزف محزوز تحت الدهان وخزف مرسوم تحت الطلاء . وماتزال الكثير من الآثار المعمارية تحتفظ حتى الآن ببيلاطات من القاشانى المرسوم تحت الطلاء (١٧٢) .

وكان أصحاب الحرف والصناع فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين من أكثر الناس وفاء لتقاليدهم الموروثة ، فقد بقيت طوائف العمال والحرف ، التى كان يطلق

---

(١٦٣) القبيعة هى الحديدة العريضة التى تلبس أعلى السيف ، وقد تكون كروية الشكل . وتعرف فى الانجليزية (Pommel) وفى الفرنسية (le pomea) (عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ص ١٧٨) .

(١٦٤) الواقية : هى حديدة فى اسفل المقبض معترضة على فم الغيد لها طرفان ينتهيان بقطعتين كرويتين وتسمى فى الانجليزية Cross - guard) وفى الفرنسية (la garde) (عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ص ١٧٨) . انظر لوحة رقم ٥٩٤٥٨ .

(١٦٥) غمد : هى جفن السيف أو قرابه أو غطاؤه (السيف فى العالم الاسلامى ص ٢٣٧) .

(١٦٦) الفرند : لفظ فارسى معرب وهو جوهر السيف وماؤه وطرائقه وقد حكى بالفاء والباء (الجواليقى : المغرب ص ٢٤٣ ، الخفاجى : شفاء

(١٦٧) عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم السلامى ص ١٦٨ .

(١٦٨) القليج : طراز من النصال المقوسة انتقل الى ايران وتسرب الى مصر ولشام فى العصر المملوكى . ومعناه بالتركية سيف . ويقال قليججى لصانع السيف وقليججانه للمصنع وقليجلى لحامل السيف . (عبد الرحمن زكى : السيف ص ١٤٩) .

(١٦٩) اليناناماق طراز آخر من السيف قليل الانحاء ذو نصل واحد مزدوج الانحاء . وقد استخدم فى بلاد اسلامية كثيرة ، وتمتاز قبضته بأنها تنتهى بما يشبه الاذنين البارزتين (عبد الرحمن زكى : السيف ص ١٥٣) .

(١٧٠) الشمشير : نوع من السيوف المقوسة، ظهر وانتشر فى القرن العاشر الهجرى (عبد الرحمن زكى : ص ١٥٨) .

(١٧١) التكفيت كلمة فارسيه من فعل كفتن بمعنى وضع مادة الثمن فى مادة أرخص منها ومختلفة عنها فى اللون ، لككفت النحاس والبرونز بالذهب والفضة . غاليه وقد ازدهر هذا الاسلوب فى زخرفة المعادن فى عصر السلاجقة وانتشر فى مصر ولشام فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) (سعاد ماهر : مشهد الامام على بالنجف ص ١٥٣) .

(١٧٢) Arthur Lane: Latter Islamic Pottery P. 75 &
سعاد ماهر : الخزف التركى ص ٨٥، زكى حسن: فنون الإسلام ص ٢٥٨ .

عليها (طوائف الكار أو الحرفة (١٧٣)) ، وتسير على نفس النظم والطرق الصناعية التى كانت مستعملة فى الفترة من القرن الرابع حتى السابع الهجرى .

لقد أجمع المحدثون من المؤرخين وعلمـاء الاقتصاد (١٧٤) على أن نظم طوائف الفتوة قد امتزجت بطوائف العمال والحرفيين ، ومن ثم فقد جاءت معظم وثائقنا عن النظام الداخلى لهذه الطوائف عن طريق دراستنا لنظم وقواعد طوائف الفتوة (١٧٥) فكان لكل طائفة قواعـد وعادات وشعائر تروى شفويا (١٧٦) .

أما عن الوثائق التى اعتمـدت عليها فى استخلاص نظم طوائف العمال والصناع فهى عبارة عن عدد كبير من الكراريس ترجـع الى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ومابعده أطلق عليها اسم « فتوات نامة (١٧٧) » هذا بالاضافة الى ماجاء فى كتب الرحالة (١٧٨)، وكانت القوانين التى وردت فى تلك الكتب تعرف بالدستور ، وهى كلمة فارسية معناهـا الاذن واستخدمها العرب بمعنى النظـام (١٧٩) . وتنقسم تلك الكراسات الى ثلاثة أقسـام أو ابواب ، يحتوى القسم الاول على أسـاطير تتعلق بأصل الحرفة فتقول مثلا : الله (جل جلاله) علم جبريل ، جبريـل علم محمـد صلى الله عليه وسلم ، محمد علم عليا ، عـلى علم سـلمان الفارسى ، وسـلمان علم الابيار (وهم حماه أصـحاب الحرف حسب تقاليد هم) ، والابيار علموا الفروع (وهـم الحماه الثنويون للشعب المختلفة لاصـحاب الحرفة الواحدة) وهؤلاء الفروع علموا بدورهم رؤساء الحرف العاديين (١٨٠) . ويحتوى القسم

(١٧٣) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٦٨ ،
Koperolo: Les Ourgines P. 76 - 8 & 110 - 112.

(١٧٤) Bernard Lewis: The Islamic guilds, in Econamic History Review, vol. 8 (1937), pp. 20 - 37.

(١٧٥) Toeschner: Die Islamische Futuwwotobrudern. vol. III P. 69.

(١٧٦) بزنارد لريس : (النقابات الاسلامية ص٧٨٦) (الرسالة عدد ٣٥٧ السـنة الثامنة) ترجمة عبد العزيز الدورى .

(١٧٧) يقول (Thorning) لاتزال أثر هذه الكراريس باستثناء اثنين أو ثلاثة ماتزال مخطوطة موزعة فى أوربا وآسيا والمكتبات العامة والخاصة وتحتاج الى المزيد من الدراسة
Thorning Breitage P. 5/54

(١٧٨) ابن بطوطة : تحفة النظـار جـ ٢ ص ٢٦٠ ، فقد أورد لنا وصف هام للاخوة فى الاناضول عند زيارته للاناضول وطنجة .

(١٧٩) عثر تشنر (Taeschner) عـلى مخطوطة عن فتوة الاخوة تاليف يحيى بن خليـل وترجع الى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وقد قسمت مخطوطة الاخوة الى ثلاث درجات هى فى الواقع درجات النقابات العمالية وهى كما يلى : وهى فتى آخى ، شيخ والدرجة الاخيرة نظرية اكثر منها عملية . ووظيفة الآخى أن يدعو ويرأس الاجتماعات الاسبوعية وتعليم النشء المبتـدىء . وكان اليكتر (الفتيـات) ينقسمون الى فئتين : مدنية وسيفية ومن الصنف الثانى يعين الآخية الجدد فى حالة الفراغ . وهناك موظف دائم يدعى النقيب او رئيس الحفلات (Taeschner: Islamisch

(١٨٠) ويقول الدورى ان هذه الاساطير يظهر عليها تأثير الاسماعيلية (النقابات الاسلامية ص ٧٨٦) ويؤيد هذا الرأى (كورد لفسكى) فيرى تأثير الطوائف بالنفوذ الاسـماعيلى وذلك خلال الاراء والبدع التى لا توافق قواعد الاسلام عند الاخوة ويرجع ذلك الى اخوان الصفا .
Gordlevsky: Economic History Reviewo P. 81 - 89 (1934).
اما (كوبرولوا) فيرجع الى ابعد من ذلك فيقول ان الاخـوة متطرفون ملحـدون وانهم من طراز القرامطة أنفسهم Koperolo: Les Origines. P. 82.) اما (Taeschner فينفي أى اثر اسماعيلى فى حركة الاخوة ويعتبرهم سنية قبل أى شىء .

الثانى قائمة بأسماء الابيار والفروع لمختلف الحرف ، وقد حرص الأخوة على اتخاذ أسماء هؤلاء الاشخاص من أسماء الانبياء والرسل التى دردت فى الكتب السماوية أو من التاريخ الاسلامى ، فمثلا قالوا : ان آدم حـــامى الفلاحين والخبازين ، وشيت حامى الحياكــة والخياطين ، ونوح حــامى النجارين ، وداود حامى الحدادين والصياغ ، وابراهيم حــامى الطباخين ، واسماعيل حامى صناع الســلاح ،والقسم الثالث يحوى تعاليم لتثقيف المهندسين

وكان تنظيم هذه الطوائف على النحو التالى :

الشيخ : يرأس كل طائفة شيخ (١٨١) ينتخبه الاساتذة من بين رجال الحرفة وبذلك يصـــبح حاكم الحرفة ويعاونه رئيس وأمين صندوق وكاتب • والشيخ موجود فى جميع الطوائف السلامية • ويلى الشيخ الاختيـــارية أو المسنون بين أساتذة الطائفة وهم يتعاونون معه على ادارة الطائفة •

الاستاذ (١٨٢) : ويدعى عادة أسطى أو أحيانا (معلم) وهم يشكلون القســـم الرئيسى مـــن الطائفة أما العامل فلايلعب دورا هـــاما فى الطوائف الاسلامية ولا وجود له عادة ، اذ أن الانتقال من مبتدىء الى أســـطى (١٨٣) يتم رأســـا •

---

(١٨١) عبد العزيز الدورى : النقابات الاسلامية ص ٧٨٧، يعرف الشيخ ايضا باسم امين او عريف واحيانا نقيب، واذا اختفت رتبة النقيب يســمى الشيخ ، ففى تركيا يسمى شيخ اواسطا ، وفى آسيا الوسطى يسمى آق صقال .

(١٨٢) استاذ كلمة فارسية معربة لانه ليس فى العربية كلمة أصيلة تجمع فيها الذال والسين (القاموس المحيط مادة (سيدة)• ومعنى استاذ بالفارســـــية ، السيد او المشــــهور بعمله وقد استعملت استاذ فى العربية بمعنى الماهر اى بنفس المعنى تقريبا (محمد موسى هنداوى : المعجم فى اللغة الفارســــــية) • غير « ان هذا اللفظ قد استعمل فى الدول الاســـــلامية بدلالات وظيفية مختلفة فمثلا جرت العادة فى بعض العصور ان تطلق على كل من أتقن مهنة وبلغ درجة رفيعة فيها سواء من رجال الدين أو العلم أو رجال الدولة أو ذوى الحرف والصناعات والمهارات المختلفة . واستخدمت لفظة أستاذ فى الدول الاســـــلامية وبخاصة فى عصر السلاجقة للدلالة على بلوغ مرتبة رفيعة فى الدولة وكذلك دلالة على الرئاسة وخاصة بين الموظفين من غير العسكريين الذين كان يصطلح على تسميتهم بأرباب الاقلام • فقد ذكر البيهقى : تاريخ البيهقى « المقدمة » ص ١٩) كلمة استاذى للاشارة الى رئيسه .

وبالاضافة الى ماتقدم فقد جرت عادة السلاجقة أن يكون لكل سلطان استاذ ، هو الذى يشرف على تربيته وتأديبه فى صغره ومن امثله هــؤلاء الاساتذة محمود بن على الراوندى الذى كان استاذ السلطان طغرل بن ارسلان (الراوندى : راحة الصدور ص ٤٩٣) • وقد تطور لقب اســــتاذ بصـــــفة رسمية فى المصطلح العباسى والفاطمى للدلالة على الخصيان من الغلمان حين كان يعظم أمرهم وينالون حظوة عند الخلفاء أو الولاة ويسند اليهم تربية ابنائهم وتأديبهم (حسن الباشـــا : الفنون الاســـلامية والوظائف جـ ١ ص ٦٣) • وكان الاستاذون فى العصر الفاطمى يؤلفون طبقة من العسكريين من أخص خواص الخليفة وكانت تسند اليهم الوظائف المتصـــلة بالخليفة فكان يشرف على الرشاشـــين وعرفائهم داخـل القصر وخارجه (القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٨١ ، جـ ٥ ص ٤٨٩ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٤٣) • أما فى العصر المملوكى ، فقد كـان يطلق على الامير الذى يشترى المملوك ويقـــوم بتربيته ، فقد كان الامير علاء الدين آق ســـنقر الاستاذ الذى اشترى المنصور قلاوون(ركن الدين بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة مخطوطة رقم ٩٨) •

(١٨٣) حرف لقب استاذ لاصـــحاب الحرف وحول الى (أسطى) (حسن الباشا : الفنـــون الاسلامية والوظائف جـ ١ ص ٦١) •

الطوائف الاسلامية نوجزها فيمايلى :

اولا — ان الطوائف الاسلامية نشأت من تلقاء نفسها من الشعب دون تدخل الدولة •

ثانيا — ان طرق الانتـــــاج لم تتغير فى الطوائف الاسلامية ســواء فى الاراضى أو فى الحرف •

كما بقيت الطائفة طبقة واحدة ، فقد بقى الاستاذ والسيد والصانع والمبتدىء طبقـــة واحدة فى المجتمع •

ثالثا — كما امتازت الطوائف الاسلامية كأنها تضم بين صفوفها أفرادا من مختلف الطوائف فهى مفتوحة لليهودى والمسيحى والمسلم على السواء بل على العكس فاننا نجــــد الطوائف تسودها أغلبية غير مسلمة •

رابعا — احتفظت الطوائف الاســــلامية بالحياة الداخلية الروحية وقوانينها الاخلاقية والادبية التى ظلت تدرس لكل مبتدىء فى أى حرفة من الجرف (١٨٤) •

وأود قبل أن أختم موضوع طوائف الصناع أن أشير الى المراجع (١٨٥) الحديثة التى أثبتت وجود طوائف عمالية فى بلاد الشام فى العصور الوسطى من القرن الرابع حتى التاسع الهجرى (العاشر الى الخامس عشر الميلادى) اعتمادا على بعض الالفاظ التى جاءت فى كتب الحسبة مثل كلمة (عريف) أو (عريف الاسواق) أو رئيس الصناع وريس الاطباء • ومع أننى لا أتفــق تماما مع هؤلاء المؤرخين الذين اعتمدوا عــلى تلك الالفاظ وحدها ، ذلك أن تلك الالفاظ كانت لوظائف حكــومية تخضع للمحتســب • ونفى (Gabriel Bear:) (١٨٦) وجود نقابـــــات عمالية فى المدن الاسلامية فى العصور الوسطى نفيا تاما ، وعدم اعترافه كذلك بأن لفظ (طوائف كار أو حرفة) تعنى معنى النقابات بالمفهــوم الحديث ، كما حذر من اعتبار طوائف الفتوة نقابات عمالية •

---

(١٨٤) هذه المعلومات عن النقابات الاسلامية كتبها لويس منذ ٤٠ سنة وفى مؤتمر التاريخ الاقتصادى الذى عقد بلندن سنة ١٩٦٧ • تراجع لويس عن هذه الآراء واتفق المشتركون فى هــذا المؤتمر على استبعداد كلمة (النقابات) واقرار كلمة (طوائف واخذ المشتركون فى المؤتمر برأى (بيير) بعدم وجود نقابات عمالية بالمعنى المفهوم فى العصور التالية •

(١٨٥)

— S.D. Goitein: The working people of the Mediterranean Area during the high Middle Ages (Studies in Islamic History and Institutions P.P. 267 - 70) Leiden 1966.

— E. Ashtor - Strauss, L'adminisration urbain en Syrie médiéval (Rivista degli Studi Orientali 1956) P. 71.

— N. Elisséeff: Corporations de Damas sous Nur - al - Din (Arabica, 3, 1956) P.P. 61 - 70.

(١٨٦) gabriel Béar: «guilds in Middle Eastern History» in cook (editor): (studies in the Economic history of the Middle East P. 114.

There Were no guilds in Muslim cities in this period in any sense of the tarm. (Gabriel Bear. P.16).

العيارون والشطار والفتوة :

تكون هذه الفئة القسم الثانى من طبقة العامة ، وهى تعنى من يؤم المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب بالتجارة أو الجندية أو الادب أو الشعر وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف ما يعيشون به مما لاتعوزه همة أورأى • ولو أردنا الرجوع الى أصول عامة بلاد الشام لوجدناهم اخلاطا من مولدى العرب والجراجمة والفرس والترك والديلم والروم والنبط والجركس الاكراد وغيرهم ، ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على السنتهم (١٨٧) •

والعيارون جماعة من (١٨٨) باعة الاسواق الفقراء وجدوا منذ أواخر القرن الثانى الهجرى فى بغداد ، ثم انضم اليهم أفراد من مختلف المجتمع رغم اختلاف الطائفة أو النسب •

وقد انتشر العيارون فى سائر المدن الاسلامية وخاصة فى بلاد الشام ابان الحروب الصليبية ، ن المناخ الصالح لهم دائما هو الحروب والمنازعات (١٨٩) •

وقد قويت شوكة فئة العيارين فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وخاصة فى بغداد فقد نظموا أنفسهم كنظام الشرطة أو الجند ففرضوا الفروض على الاسواق وأخذوا ماكان يأخذه رجال الدولة • وظهر العيارون فى سائر المدن الاسلامية بما فى ذلك مدن الشام وعظم شأنهم وقويت شوكتهم وكثيرا ماكان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم (١٩٠) •

أما الشطار فهم طائفة أخرى من الرعاع من أهل الدعارة يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بازار الشطار (١٩١) • وقد كانت طائفة الشطار أكثر انتشارا فى البلاد الاسلامية وخاصة ابان الحروب ، من العيارين وأطول بقاء منهم • وتمتاز طائفة الشطار بميلهم للفكاهة والمرح واللهو فهم مشهورون بالنوادر المستملحة والنكات المرحة ، وفى ذلك يقول المقرى : « وهم أهل نوادر وتنكيتات وتركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى (١٩٢) • وقد كان اسم الشطار يختلف من مدلول لآخر فهم يعرفون فى العراق والشام ومصر بالشطار وفى خراسان يسمونهم (سرابد لمران) وفى المغرب انصقورة وسماهم ابن بطوطة الفتاك (١٩٣) » •

أما الفتوة فهى طائفة من العامة نشأت منذ عهد على (كرم الله وجهه) ، وأول من تكلم عنها كجماعة لها كيانها، هو والامام جعفر الصادق وكانت الفتوة عند الشيعة هى الفتيان

---

(١٨٧) جورجى زيدان : التمدين الاسلامى ج ٥ ص ٤٥ •
(١٨٨) ابن عمار : الفتوة ص ٥١ ، ٥٢
(١٨٩) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٧
(١٩٠) ابن الاثير : الكامل ج ١١ ص ٤١
(١٩١) الاصفهانى : الاغانى ج ٦ ص ٩١
(١٩٢) المقرى : نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب ج ٢ ص ٧٦٦
(١٩٣) ابن بطوطة : الرحلة ج ١ ص ٢٣٥

(الآخيه) (١٩٤) الذين يعظمون ذكرى يـوم عاشوراء • وفى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) انتشرت الفتوة بعد أن فقدت الكثير من مثلها العليا ونظمها العسكرية وتدهورت تقاليدها حتى نزلت الى الطبقة الدنيا من العامة فعرفت باسم «فتوة العيارين والشطار» (١٩٥) وأخذت تعيث فى الارض فسادا حتى نهاية العصر العباسى فى العراق وحتى نهاية الحروب الصليبية فى مصر والشام •

وفى منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وفى عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسى عرفت الفتوة باسم « الفتوة الصوفية » (١٩٦) ، فعملت على تشجيع الزهد والتصوف ، وذلك بتشجيع الوعاظ وشيوخ التصوف حيث أصبحوا يرتبون من قبلها ويخضعون لاشرافها (١٩٨) ومراقبتها وكانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة الحكيمة انضواء جماعة الفتوة تحت لواء هؤلاء الزهاد والمتصوفة فعرفت « بفتوة الصوفية » •

وهكذا استطاع الخليفة الناصر لدين الله العباسى (سنة ٥٧٨هـ / سنة ١١٨٢م) السيطرة على الشطار والعيارين وجعلها حركة رسمية ، وأعاد لها سيرتها الاولى سيرة (فتوة الفروسية) (١٩٩) وأصبح يرأسها الخليفة ، بعد أن كانت حركة شعبية لا رابط يربطها بالدولة ، وقد عممها فى الممالك الاسلامية وخاصة بلاد الشام ووجههم للمشاركة فى الجهاد ضد الصليبيين • كما كاتب الخليفة الناصر لدين الله العباسى سنة ٦٠٣هـ / سنة ١٢١٠م جميع الملوك والامراء طالبا منهم أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها (٢٠٠) • ومن ثم فقد أصبح للفتوة رسوم لابد من أدائها لمن أراد الدخول فى زمرتها ، كما اختارت لها الدولة شيخا زاهدا يكون الانتماء الى الفتوة على يديه ، وهكذا اتسمت حركة الفتوة بالطابع الدينى بعد اخضاعها لاشراف الحكومة (٢٠١) •

وفى ختام هذا الفصل أرى أن أشير الى طائفة من سكان المدن تدخل فى طبقة العامة وهم

---

(١٩٤) ابن بيدكين ادريس التركمانى : الحجة والبرهان على فتيان هذا الزمان ص ١٧ (مخطوطة بمتحف الموصل رقم «٣٢») •

(١٩٥) ابن حبيب الحلبى : نسيم الصبا ص٦٣

(١٩٦) السيد المرتضى : امالى السيد المرتضى ص ٤٦

(١٩٧) أبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ص ٣٧

(١٩٨) بدرى محمد فهد : تاريخ العراق فى العصر العباسى الاخير ص ٣٧١ (رسالة دكتوراه مخطوطة) •

(١٩٩) ابن عمار : الفتوة ص ٥٦

(٢٠٠) يتكون لباس الفتوة من قلانسى بيض على رؤوسهم قلنسوه من الصوف بأعلى كل منها قطعة من النسيج طولها ذراع وعرضها أصبعين، ثم سراويل يرتدون فوقها الاقبية ثم يلبس عليها حزام فى الوسط يوضع به سكين كبير • ويلبسون فى أرجلهم الاخفاف فاذا استقربهم المجلس خلعوا القلانسى الصوف البيضاء وتبقى على رؤوسهم قلانسى من الزردخان الاسود • (ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب فى معجم الالقاب ج ٤، ص ١١٤٨ ، ابن عمار الفتوة ص ٩٦) •

(٢٠١) ولقد لعبت الفتوة فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) دورا لايستهان به فى بلاد الشام أشبه مايكون بالفدائيين بالنسبة للحروب الصليبية ومثل الفدوية بالنسبة للاسماعيلية • (ابن عمار : الفتوة ص ٩٨) •

أضحاب الحرف الصغيرة كالخياطين والاساكفة والناطور (٢٠٢) والمزملاتى (٢٠٣) ، وغاسل الموتى والطرقية ، وهم الباعة المتجولون . كذلك شمل لفظ العامة المساكين من السؤال (٢٠٤) . واذا تعطل بعض أرباب الحرف الصغيرة عن العمل لسبب ما ككساد أو مجاعة أو ركن بعضهم الى البطالة وانصرف الى العبث واللهو والنهب وقطع الطرقات فى الاماكن المهجورة أو انخرط فى « مناسر الحرمية » ، عرف أمثال هؤلاء باسم الحرافيش (٢٠٥) أو الزعر أو الزعار أو العياق .

---

(٢٠٢) الناطور : هو العامل المنوط به حراسة الثياب فى الحمامات (السبكى : معيد النعم ص ١٧٤ — ١٧٥) .

(٢٠٣) المزملاتى : هو حامل قربة الماء والعامل للسبيل (معيد النعم ص ٨٥) .

(٢٠٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٧٢

(٢٠٥) الحرافيش : جمع حرنفش وهو الجافى الغليظ المتهيىء للشر السافل من الناس : ومن معانيها الفقراء الذين يقعون فريسة فى غالب الاحيان للطواعين واحداث الغلاء وهناك عائلة من الشيعة تعرف باسم « بنى الحرفوش » نسبة الى جدهم حرفوش الخزاعى أحد القادة فى جيش أبى عبيدة بن الجراح واستقر ببعلبك حيث صار بنوه من بعده أصحاب الامر والنهى حتى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) .

(شرح الخطيب : ج ٢ ص ٢٢٩ ، ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ١٠٣) .

الفصل الثانى

— الثروة والمال وأثرهما فى انتعاش المجتمع الحضرى فى بلاد الشام :

تقوم موارد كل اقليم على أسس ثابتة ، التجارة والصناعة والزراعة ، الا أن قيمة هذه الموارد تختلف أهميتها من اقليم لآخر تبعا لموقعه الجغرافى وبيئته الطبيعية ، ولما كانت بلاد الشام مركزا تجاريا هاما فى منطقةالشرق الاوسط ، لذلك فان التجارة تعتبر المورد الاول بالنسبة لاقتصادياتها • وتأتى الصناعة فى المقام الثانى بالنسبة لثروة بلاد الشام •

أما الزراعة فتأتى فى المقام الثالث حيث أن أقاليم بلاد الشام الزراعية تعطى غلة قليلة نسبيا وذلك لاعتمادها على المطر غالبا •

وسنتناول كلا من هذه المصادر بشىء من التفصيل على النحو التالف :

١ — الثروة التجارية :

كانت التجارة من أهم دعائم الثروة والمال فى مدن بلاد الشام لأسباب عدة أولها موقع البلاد الجغرافى اذ هى تتوسط دول العالم الاسلامى ، وكذا فهى تقع بين الشرق والغرب ، كما أنها تقع عند نهاية الطريق البرى لتجارة الشرق الاقصى منذ أقدم العصور •

وكما هو معروف فان التجارة تنقسم الى تجارة داخلية وأخرى خارجية ، أما عن التجارة الداخلية فلعلنا قد تناولنا جزءا كبيرا منها عند الكلام عن الحرف والصناعات اذ أن الصانع وصاحب الحرفة ، كانا يقومان بدور التاجر للاسواق المحلية • أما التجارة الخارجية فكان يقوم بها الوسطاء وأصحاب رءوس الاموال ، وهى مصدر الثروة الحقيقية لبلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) ذلك أن الحروب الصليبية عملت على ازّدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب • كما أن القرى الايطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة رأت فى تلك الحروب فرصة لتدعيم نشاطها التجارى مع البلدان الاسلامية • لذلك ازدادت تجارة الشام الخارجية منذ العصر الايوبى بالذات ، فقد قصد التجار الايطاليون ثغورها • ويقول القاضى الفاضل فى احدى رسائله (١) على لسان صلاح الدين : « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والجنوية وغيرهم كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضريهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة • وما منهم الا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله » •

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الاوربيين من التعامل التجارى مع

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢١٢

المسلمين فى الشرق الادنى (٢) ، ذلك أن حرص المدن الايطالية التجارية على مواصلة نشاطها التجارى كان أقوى من أن تستجيب للنـــداء البابوى أو لمراسيمه ، لذلك ســعوا لتجــديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل بعدبعد موت صـــلاح الدين (٣) • كما أدت سياسة التسامح التى اتبعها العادل والكامل ، عـــلى اتجاه كثير من الاوربيين بسفنهم نحو شواطىء بلاد الشام ، ولم تفلح المحاولات التى قام بها الامير ادوارد الانجليزى الـــذى أتى بحملته الصليبية الصغيرة ســـنة ١٢٧١م لمنـــع تجار المسيحيين وخاصـــة البنادقة من الاتجار مع الدولة المملوكية ، الذين كانوا يمدونهـــا بكل ما تحتـــاج اليـــه من الســـفن وآلات الحرب والحصار والرقيق الابيض (٤) • واستمرت تجارة الدول الايطالية تفد على بلاد الشـــام وتتبادل السلع بين الشرق والغرب حتى بعد أن سقطت طرابلس فى يد المماليك ، وأخـــذت عكا تعـــد الايام الباقية من عمرها فى قبضـــة الصليبيين • الا أن تجار جنوة استولوا سنة ١٢٨٩ م على سفينة للمماليك محملة بالسكر والتوابل وبالقرب من شاطىء الأناضول الامر الذى جعل السلطان قلاوون يســـتاء ويتوعد الجنوية مما جعلهم يخشون عـــلى مصـــالحهم التجارية فى مصر والشام وهى تفوق كثيرا فى نظرهم الصـــالح الصـــليبى ، فأسرعوا الى السلطان قلاوون وسلموه بضـــائع الســـفينة المنهوبة (٥) ، بل عقدوا معه معاهدة صـــداقة واتفاقية تجارية سنة ١٢٠٩م حققت لهم كثيرا من الارباح (٦) •

كذلك نشطت الحركة التجارية بين صقلية وبلاد الشام ابان الحروب الصليبية وقد ساعد على هذا النشاط التجارى الموقع الجغرافى لكل من الجانبين (٧) • هـــذا بالاضافة الى الوفرة الاقتصـــادية التى تمثلت بها كل من الشـــام وصـــــقلية مما كان له أكبر الاثر فى تنشـــيط حركة التجارة بينهما (٨) • ولعل ازدياد نشاط حركة التبادل التجارى بين صقلية وبلاد الشام يرجع لخضوع جزيرة صقلية فترة من الزمان للسيادة الاسلامية خاصة للخلفاء الفاطميين (٩) ولم تتوقف التجارة بينهما بعد أن اســـتقلت صقلية عن الدولة الفاطمية وأصبحت خاضـــعة للنورمان بل استمرت ، ولم تقتصر فقط عـــلى تبادل المنتجات الصقلية بل شملت كذلك منتجات المغرب والروم تتبادلهـــا مع منتجـــات بلاد الشـــام ، وبذلك أصـــبحت صـــقلية من أكبر الاســـواق التجارية العـــربية بحـــكم موقعها المشرف على تجارة البحر المتوسط (١٠) •

---

(٢) سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك ص ١٦٩

(٣) Heyd: Histoire du Commerce au Moyen Age. II.P. 391.

(٤) Heyd: Ibid II 560.

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٠٣

(٦) Kammerer: La Mer Rouge I. p. 416.

(٧) Thompson : Economic and social History . P .380 .

(٨) ابن جبير : الرحلة ص ٣٥٣

(٩) حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان الحروب الصليبية (رســالة دكتوراه لم تنشر) ص ١٦٦ •

(١٠) Pierenne; Medieval Cities. P. 92.

أما عن التجارة بين مصر والشام فقد نشطت فى عهد الدولة الايوبية ، ذلك أن قيام نور الدين بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد النشاط التجارى بين الجانبين . حقيقة أن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك مكنهم فى أول الامر من اعتراض طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز ، الا أن الايوبيين سرعان ما استولوا على الحصنين وأمنوا الطريق فى تلك المنطقة الهامة التى تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية [١١] .

ويحدثنا ابن جبير [١٢] عن القوافل التجارية فى بلاد الشام المتبادلة بين المسلمين والفرنج فيقول : « ومن عجب ما يحدث فى هذه الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين » . ثم يشرح ابن جبير كيف أنه غادر دمشق فى قافلة اسلامية للتجار متجهة الى مدينة عكا (وهى قاعدة مدن الافرنج بالشام) نزلت فى خان معد خصيصا لنزول القوافل الاسلامية .

أما عن السلع والمنتجات التى كانت تصدرها بلاد الشام ابان الحروب الصليبية الى العالم الخارجى فكان الحرير السورى يشارك العطور والتوابل فى احتلال المركز الأول فى حركة التصدير ، وجاء بعده فى جدول الصادرات الزجاج والادوات والاوانى المصنوعة محليا من المعدن والخشب ، وكانت دمشق وطرابلس وأنطاكية وصور فى طليعة المراكز الصناعية الكبرى فى بلاد الشام [١٣] . كما صدرت بلاد الشام حاصلات البلاد الشرقية الاخرى الى اوربا أى أنها كانت تقوم بدور الوسيط بالنسبة لتجارة الشرق ، فكانت تصدر الحرير المستورد من الصين والتوابل التى ترد من الجزيرة العربية وسواها من البلاد الاستوائية كما كانت تصدر اللآلىء المجلوبة من الخليج العربى من مرفأى يافا وطرابلس [١٤] .

ولم يكن السوريون يعتمدون فى تصدير تجارتهم على الاجانب اعتمادا كليا ، فقد أنشأوا لأنفسهم منذ عهد صلاح الدين قواعد فى القسطنطينية حيث كان امبراطور الدولة البيزنطية قد بنى لهم مسجدا نزولا منه على رغبة صلاح الدين فى مقابل الامتيازات التى حصل عليها تجار الروم فى سوريا [١٥] .

٢ ــ الثروة المعدنية والصناعية :

واعتمدت الصناعة فى بلاد الشام على ثروات طبيعية من المعادن قلما وجدت فى بلد اسلامى آخر . فقد وجدت المعادن فى مناطق كثيرة ببلاد الشام ولاسيما فى جهات تدمر

---

(١١) أحمد رمضان : سيناء فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (رسالة ماجستير لم تنشر ص ١٢٩) .

(١٢) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧١ ــ ٢٧٦ (طبعة بيروت) .

(١٣) E. Ray: Les Colonies Franques de Syrie. P. 204 (Paries 1883)

(١٤) Hilmar: C. Krueger: The Wares of Exchange in the genoese African traffic of the Twelvth Century vol. XII, P. 64 (1937).

(١٥) Hilmar: Op. cit P. 60.

وجيرود وحماه والخليل وحول البحر الميت (١٦) وفى حلب عدة ملاحات وأعظمها ما كان فى جوار قرية جبول وهو على شكل مخروطى عظيم يعرف باسم نهر الذهب (١٧) .

كذلك يوجد النحاس فى ناحية صور ، والزئبق والرصاص فى أرض انطاكية والمعرة وفى جهات حلب وعمان وصافيتا وعكاز وطرابلس (١٨) . والرخام الاصفر فى جبل الجرمق من عمل صفد وفى البلقان جبلان أصفر وأحمر من الحجارة الكلسية ، واشتهرت الداروم برخامها الذى وصفه ناصر خسرو فقال (١٩) « والرخام كثير جدا فى الرملة وجدران معظم الابنية والدور مغشاة بصفائح من الرخام . ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له . وبالمنشار تقطع قطع من الرخام بقدر طول السوارى والعمد كما تقطع الدفوف من شجرة . وقد رأيت فى الرملة رخاما من كل جنس ومنه المجزع والاخضر والاحمر والاسود والأبيض وبالجملة من مختلف الالوان » .

أما عن أهم الصناعات ببلاد الشام فقدسبق الحديث عن بعضها عند دراسة طبقة الصناع . وتعتبر صناعة المنسوجات أهم الصناعات فى بلاد الشام فى العصور الوسطى ، ولعل الاسماء العديدة التى تزخر بها كتب المعاجم المتخصصة (٢٠) للمنسوجات السورية خير شاهد على عظمة تلك الصناعة فمنها المنير والمعين والمسير والمفوف والمسهم والعمد والمعرج والمهلهل والمكعب والمخيل (٢١) . والواقع أن هذه الاسماء لا تميز منسوجات مختلفة المواد الخام أو مختلفة فى طريقة صناعتها وتطبيقها ، اذ أن معظمها مصنوع من الحرير الذى اشتهرت بنسجه بلاد الشام منذ أقدم العصور ، ولكنها تدل على الزخارف التى رسمت عليها أو نسجت فيها (٢٢) . ولا تزال بلاد الشام تحتفظ بالكثير من أنواع الاقمشة والملابس التى كانت تصنعها فى العصور الوسطى ولا تزال تصنعها فى العصر الحديث مثل الجر والشال البديع والاعبئة الحريرية للنساء (٢٣) . ولا تزال دير القمر وبيت شباب والكفير وحمص وحماة وحلب وانطاكية (٢٤) ودمشق تصنع الاعبئة والكوفيات والزنانير والملاءات والشراشف (ملاءات للسراير) والديما والالاجد والنمارق والارائك والمسجوف والشفوف واللحف والبرانس والطيالسة والميازر والبراقع والازر والجلابيب والقطايف (المخمل) (٢٥) .

---

(١٦) البدرى : محاسن الشام ص ١٢٧
(١٧) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ١٨١
(١٨) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ج ٢ ص ١٨٩
(١٩) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٦٣ (المترجم)
(٢٠) ابن سيده : المخصص ج ٥ ص ١١٢ ؛ Dozy: supplement. p. 134
(٢١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٩٧
(٢٢) Migeon: Art Musulman. tome II P.P. 300-309.
(٢٣) Gayet: L'art Arabe. P. 69.
(٢٤) البدرى : محاسن الشام ص ١١٦ ، Volney: Voyage en Syrie et en Egypt. P. 115.
(٢٥) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٢٢٥ ، Heyd: Hist. du Commerce du Levant. P. 119.

ومن الصناعات التى كانت من متممات اللباس صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهى تنسج بالصوف والغزل ذات طاقين طويلين تشد على الخصور (٢٦) • واشتهرت حلب بالمناديل الحريرية والمقصبة والمعروفة بالبوشية (٢٧) • كما اشتهرت الشهباء بأقمشة الجوخ المعمولة بالسيم والثياب المفضضة بالجوهر والزبرجد (أى الزينة من وشى وذهب) ويقال لهذه الصنعة الآن (القصبجية) (٣٨) •

ويصف لنا البدرى (٣٩) صناعة « الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفرع الممدود والمرصوع » المستعمل فى عملية تطريز النسيج فيقول : « وباب جيرون (بدمشق) على يسار الخارج من حارة الذهبيين ، وهى أماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظا أولا ، ثم لا يزالون يعالجونها بالادخال خرقا بعد خرق ،وكل ثان أضيق من قبله حتى انتهى الى الرقة الى أن تصير كالشعر ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ، ثم يلفون ذلك المطروق على خيوط الحرير فيتركب منه القصب المعلوم ونحو ذلك عملهم الفضة » •

وكذلك اشتهرت بلاد الشام بتربية دود القز (الفيالج أو الشرانق) ، وقد تخصص فيه اللبنانيون وسكان انطاكية (٣٠) •

كما كانت صناعة الدباغة والجلود من الصناعات التى اشتهرت بها سورية ، وكانت تصدر الفائض منها الى الغرب وخاصة السروج والاحزمة والمناطق المعروفة باسم قشاط (٣١) •

وكان من الطبيعى أن تبرع وتجنى بلاد الشام الكثير من الارباح من صناعة النجارة (٣٢) وذلك لوفرة الغابات الخشبية الصالحة للتصنيع ولكن بلاد الشام خاصة والشرق الادنى عامة اشتهر منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بصناعة التحف الخشبية المطعمة بالعاج والابنوس والصدف (٣٣) وما الى ذلك ، ولذا اقبل الصليبيون على اقتناء تلك التحف التى اطلق عليها (داما سلفية)— Damasquine (٣٤)

وكانت صناعة القيانة والحدادة والنجاسة من الصناعات التى كان لها شأن فى بلاد الشام ، أما فى القرن السادس والسابع الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلادى) فقد اشتهرت بصناعة الادوات المصنوعة من النحاس الاصفر أو الاحمر أو البرونز المكفت بالفضة والذهب التى زخرت بها الاسواق السورية والتى كان يصنع الكثير منها للمشترى الصليبى خاصة (٣٥)

---

(٢٦) محاسن التجارة ص ٨٧ ، Jacquea. J. Tabet: La Syrie. P. 105.

(٢٧) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٨٧ ، K. L. Khairallah: La Syrie. P. 112.

(٢٨) Saladin et Migeon: Manuel d'Art Musulman P. 72.

(٢٩) البدرى : محاسن الشام ص ١٣٩

(٣٠) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ١٠٢

(٣١) امين على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٦٣

(٣٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١

(٣٣) Gebriel Rousseu: L'Art decoratif Musulman. P. 46 (Paris 1934).

(٣٤) Migeon: Manuel d'Art musulman. Art plastique et industriel, vol. II P. 23.

(٣٥) Van Berchem: Etude sur les cuivresdamasquines. et les verres emaillées (Journal. As vol. III 1904).

ويفسر ذلك أن الكثير من التحف المعدنية صناعة الشام تحتوى على مناظر تصويرية من الاساطير المسيحية ، ومن أشهر الامثلة على ذلك ، اناء كبير من النحاس محفوظ بمتحف اللوفر يعرف باسم معمدانه سان لوى Baptistere de saint Louis (٣٦) . لما يقال من أن أولياء العهد فى فرنسا كانوا يعمدون فيه منذ لويس التاسع (١٢١٥ — ١٢٧٠) وعليها امضاء الصانع (٣٧).

وقد نقل السلاجقة الى بلاد الشام زخرفة التحف المعدنية بطريقة المينـــا والمعروف أن زخرفة المعادن بالمينـــا تكون عـــلى طريقتين ، طريقة المينا ذات الفصوص وهى التى تعرف باسم email cloisonne وفيها تصب المينا فى حواجز رقيقة ذهبية تلصق على المعدن ، والثانية طريقة الحفر email champleve وفيها توضع المينا فى تجاويف حفرت خصيصا لها على صحيفة من المعدن ثم تســوى التحفة فى النار فتثبت الميناء وهذه الطريقـــة الاخيرة خلفت الطريقة الاولى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، لانها تحتـــاج الى تعب ومهارة أقل وتوفر كثيرا من الجهود التى كان يبذلهـــا الصـــناع فى تركيب المينـــا ذات الفصوص (٣٨) . ولعل السبب فى ذلك هـــو الاقبال الشديد من الصليبيين فى بلاد الشـــام على شراء مثل هذه التحف النفيســـة حتى أن العامل لم يكن عنده الوقت الكافى لعمل طرق صناعية معقدة .

أما عن انتشار صـــناعة المعادن المكفتة والمزخرفة بطريقة المينـــا فى القرن الســـابع الهجرى فيرجع السبب فيه الى أن كثـــيرا من صناع التحف المعدنية قد هاجر من الموصـــل الى الشام ومصر أمام الغـــزو المغولى . وقد وقد اشتغل هؤلاء الفنانون للامراء الايوبيين فى دمشق وحلب ، وطبيعى أنهم نقلوا الاساليبّ الفنيـــة التى ألفوها فى بلاد الجـــزيرة . ولذا كانت آثارهم الفنية تتبع مدرســـة الموصـــل ولا نكاد نميزها من سائر التحف المصنوعة فى بلاد الجزيرة الا اذا كانت عـــلى التحفة كتابة تاريخية تسجل مكان صنعها (٣٩) .

وبلغت صناعة التحف الزجاجية الاسلامية أوج عزها فى بلاد الشـــام فيمـــا بين القرنين السادس والتاسع الهجريين (من القرن الثالث عشر الى الخامس عشر الميـــلادى) برعـــاية سلاطين الايوبيين والمماليك . وكان فخر هذه الصناعة تزين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا (٤٠) . ولا ريب أن ابدع ما وصل اليه صناع الزجاج فى بلاد الشام فى القرن السابع

---

(٣٦) Wiet: Objects en Cuire. P. 67. (C.G. Caire 1932).

(٣٧) Dimand: Near Eastern Metal work. P. 199 (13. of Met. vol. XXI 1926.

(٣٨) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٥٢١

(٣٩) Wiet: Objects en Cuivre. P. 69.

(٤٠) ولعل أشهر القطع الفنية التى صنعت بدمشق الكأس المنسوبة الى شارلمان والمحفوظة فى متحف شارتر ، ولكنها صنعت فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وطبيعى لا أساس للقصة التي تزعم أن الامبراطور شارلمان أهـــدى هذه الكأس لاحدى الكنائس الفرنســـية ، حيث كانت محفوظة حتى سنة ١٧٩٨م .

الهجرى (الثالث عشر الميلادى) يتجلى فى المشاكى المموهة بالمنيا . وهذه المشاكى (٤١) عبارة عن أغطية مصابيح اذ لم تكن تضاء بوضع الزيت والفتيل فيها مباشرة ،بل كانا يوضعان فى مسرجة (قراية) تثبت بسلوك فى حافة المشاكاة . وكان مشكاة مقابض بارزة أو آذان تتشبك فيها ثلاث سلاسل أو أكثر من الفضة أو النحاس الاصفر (٤٢) ، وبرغم أن زجاج المشاكى لم يكن تام النقاوة اذ انه ابيض مائل الى الصفرة أو الخضرة وبه فقاعات هواء صغيرة اذ أن هذه العيون منتشرة فى الزجاج المصنوع فى الشرق (٤٣) وبرغم هذه العيون الا أن الزخارف المموهة بالمينا كانت تغطى كل ذلك بل وتعكسها رونقا غاية فى الابداع .

ومن صنائع الشام الدهان وكان مما تمتاز به بعلبك ، يقول ابن فضل الله (٤٤) العمرى : « ويعمل فى بعلبك الدهان الفائق من الماعون (الاوانى) وغيره . ولكن دمشق وحلب وغيرهما من المدن حيث كان للرفاهية أسواق نافقة » . ومن يدخل قاعة من قاعات دمشق وحلب مثلا يرى الالوان زاهية باهرة ، كأنها نقشت الآن (٤٥) . ومن أنواع الدهان الذى اشتهرت به بلاد الشام الصباغة ، فقد كان للصباغ الدمشقى صيت بعيد فى الاقطار لثبوت ألوانه ولطافة لمعانه ، وكانت أصباغه معدنية ونباتية لا غش (٤٦) فيها . وكان من أصباغهم الاصفران (أى الزعفران) والروس (هو الزعفران كذلك) والبرفير أو الفرفير وهو الارجوان (أحمر مائل الى الزرقة) وكذلك النيل (أى الازرق الداكن) الذى يستخرج من الحولة أو يؤتى به من الهند ، الذى كان يصنع به ثياب العمال والفلاحين (٤٧) .

تطورت صناعة الخزف حتى احتلت مركز الصدارة بين الصناعات الاخرى (٤٨) . ولم يكون ذلك راجعا بطبيعة الحال الى القيمة المادية لهذه الاوانى الخزفية فقد سبقتها الاوانى الفضية والذهبية فى هذا الشأن (٤٩) ،انما كان مرجعه كثرة الحاجة اليها وتفضيلها على مثيلاتها من الأوانى المصنوعة من الذهب والفضة التى كان رجال الدين يحرمون استعمالها (٥٠) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لتقدم الحياة الاجتماعية التى تطلبت زيادة الحاجة الى أنواع ممتازة من الخوف . وقد كان انتاج بلاد الشام (٥١) فى الخزف عظيما فى القرنين السادس والسابع الهجريين وامتاز بتنوع منتجاته وتعدد أشكالها وطرق زخرفتها

---

(٤١) Wiet: Lampes et Bouteilles en verre Emaille. P. 5.

(٤٢) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٦٠٣

(٤٣) Lamm: op. cit. II. P. 7.

(٤٤) العمرى : مسالك الابصار ج ٢ ورقة ٩٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٨ تاريخ) .

(٤٥) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٢٤٠

(٤٦) Heyd: Histoire du Commerce II. P. 73.

(٤٧) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١

(٤٨) سعاد ماهر : الخزف التركى ص ١٠

(٤٩) الدكتور لام : الخزف الفاطمى ترجمة عبد الرحمن زكى « مجلة المقتطف مايو ١٩٣٧ » ص ١٩٤ .

(٥٠) جمال محرز : الخزف الفاطمى ذو البريق (مجلة كلية الآداب يوليو ١٩٤٤) ص ١٤٣

(٥١) Butler: Islamic Pottery. A study mainly historical P. 21.

وأساليب صناعتها (٥٢) • وكان صناع التخزيف فى ذلك الوقت قد برعوا بصفة خاصة فى طلاء الخزف بالمينا ذات الالوان المختلفة وفى صناعة بلاطات القيشانى (٥٣) •

وقد كثر استيراد الشرق الادنى للخزف الصينى مما أدى الى تغيير كبير فى المواد الخام (٥٤) المستعملة فى خزف بلاد الشام ، فقد تكلم الثعالبى وكذا البيرونى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عن البورسلين الصينى ، وعدد أنواعه ورأسها فى وصف دقة صنعه وجمال زخارفه (٥٥) • ولقد تأثر خزف الشام فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بأسلوب زخرفة أسرة سنج (sung) الصينية وكذا خزف تنج (Ting) وبورسلين ينج تشنج (ying-ching) اللذين كانا يصدران الى أسواق الشام عن الطريق البرى لتجارة الشرق الاقصى (٥٦) •

وقد بدأ التأثير الصينى يبدو واضحا فى خزف بلاد الشام فى عهد السلاجقة (٥٧) ، وبفضل تشجيعهم لصناع الخزف • وقد امتاز الزخرف السورى السلجوقى بتطور بعض عناصره الزخرفية التقليدية المحورة ، فقد بدأت تدب فيها الحياة والحركة ، كما كثر استعمال الفروع المتموجة على شكل حلزونى وهى عساليج العنب واللبلاب scrolls-spirals فى غير ملل (٥٨) •

وكانت الكتابات الكوفية ذات الزوايا ترسم على أرضية من أوراق الشجر والاغصان ، أما الخط النسخى ذو الاستدارة فكان يستعمل عندما يراد أن تملأ الكتابة الفراغ كله (٥٩) • كذلك استعملت الرسوم الادمية والحيوانية باحجام كبيرة كموضوع رئيسى ، ولكن سرعان مافقدت هذه الرسوم شخصيتها وأصبحت تستعمل كعنصر زخرفى (٦٠) واذا كانت المساجد والمدارس وغيرها من المنشئات الدينية فى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث الميلادى) ، قد امتازت بزخارف واجهاتها الحجرية بنقوش مزدحمة غاية فى الدقة ، فان القباب والاروقة والاواوين وكذا الجدران الداخلية كانت تغشيها بلاطات من القاشانى (٦١) • ومن أجمل نماذج القاشانى الموجود بدمشق ، عمودان منه يبلغ طول كل منهما مترا موجودان فى محراب جامع التبان فى المناخية جوار باب الفرج ، وفى مدفن بلال مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم توجد (١٤٦) بلاطة من القاشانى البديع الصنع (٦٢) •

وتعد صناعة الوراقة فى جملة موارد عيش بلاد الشام ، فقد عرفت الشام صناعة الورق

---

(٥٢) Dimand: Islamic Pottery in the Near East (The Metropolitan Museum of Art. New York 1931). P. 17

(٥٣) سعاد ماهر : خزف الرقة (مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥٤م) ص ١١٦

(٥٤) Arthur Lane: Early Islamic Pottery. P. 38.

(٥٥) Hobson: Guide to Islamic Pottery. P. 19.

(٥٦) Sarre: Die Kiramik im Euphrate und Tigris gebiet. P. 14

(٥٧) Rivière. H.: La Ceramique dans l'Art musulman. vol. I. P. 93

(٥٨) W. B. Honey: The Art of the Potter. P. 119.

(٥٩) John B. kenny: The complete book of Pottery making. P. 215

(٦٠) Arther Lane: Later Islamic Pottery. P. 39.

(٦١) F. Sarre: Denkmaler persicher Baukunst. P.P. 43 - 120.

(٦٢) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٢٤٢

قبل الاسلام (٦٣)، فقد جاء فى معلقة طرفه بن العبد البكرى أن القرطاس ينسب للشام وذلك فى قوله :

وحد كقرطاس الشـــامى ومشـــفر كسبت اليمانى قده لم يجرد .

وقد حمـل الشـــاميون الوراقة الى الانـــدلس ، وكانت شـــاطبة (٦٤) التى سكنها عدد كبير من أهل الشام من أشهر مدن الاندلس فى صناعة وتصدير الورق فى القـــرن السادس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وقد عرفت الشام الكثير من الورق المصنع محليا أو المستورد منه والورق الصينى والتهامى والخراسانى (٦٥)، فضلا عن الكاغد الذى يصنعون منه كواريس أو دفاتر وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة (٦٦) عليها . فقد قال ناصر خسرو أن الكاغد الجيد الذى كان يصنع فى طرابلس يشبه ورق سمرقند الا أنه أحسن صنعا . وذكـر القلقشندى (٦٧) أن الورق المعروف بورق الطير، أى الورق الذى يكتب به البطائق وتعلـق فى اجنحة الحمام الزاجل ، هو صـنف فى الورق الشامى رقيق للغاية . كما كانت الشهباء تشتهر بصناعة الوراقة ومايزال أحد أجبائها يحمل اسم الوراقـة حيث كانت توجـد معامل الورق (٦٨) .

ومن الصناعات التى تشتهر بها بلاد الشام دون الكثير من بلاد العالم الاسلامى صناعة المرايا وخاصة فى صـيدا . كانت المرايا فى العصور القديمة والوسطى من المعدن المصقول اللامع لاسيما من البرونز أو النحاس أو الفضة. والراجح أن المرايا الزجاجية لم يذع استعمالها قبل العصر المسيحى ، وان كان من الثابت أن مدينة صيدا كانت تصـنعها منـذ العصر الرومانى (٦٩) .

وان كانت المرآة الزجاجية أو البلورية عبارة عن لوح من البلور تغطى وجهه الخلفى طبقة من الفضة أو القصدير تلتصق تماما بسـطح البلور الاملس، فان المرآة المعدنية تعكس صور الاشياء بواسطة سطحها الامامى . والمـرآة المعدنية التى صنعت فى بلاد الشام عبارة عن قرص مستدير يتفاوت قطره بين ٨ ، ١٢ سم مصنوع من البرونز أو الصلب ، وله فى معظم الاحيان مقبض مصنوع من قطعة واحدة مع القرص نفسه أو مضافا اليه . وللقرص وجهان وجه مصقول يعكس صور الاشياء ووجه عليه زخارف بارزة من عنـاصر آدمية وحيوانية ونباتية وهندسـية تزينهـا كتابات كوفية ونسخية (٧٠) .

ومن الموضوعات الزخرفية فى المرآة الاسلامية التى تسترعى النظر هو منظر بروج الدائرة

---

(٦٣) ابن النديم : الفهرست ص ٤٠
(٦٤) المقرى : نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ٢٧٥
(٦٥) ابن النديم : الفهرست ص ٤٠ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٠
(٦٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٥٧
(٦٧) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٣ ، السبكى : معيد النعم ص ١٣٢
(٦٨) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٤٤
(٦٩) Wiet: Objects en cuivre (cataloque general du musée Arab du Caire 1932).
(٧٠) أحمد ممدوح حمدى : معدات التجميل ص ٧٤

الفلكية ، كذلك وجد على الوجه المصقول كتابات ورسومات محفورة مما يؤيد القول أن بعض المرايا كانت تستخدم للسحر (٧١) .

واشتهرت الدولة الاسلامية خلال عصورها التاريخية باقبالها على اقتناء الحلى والجوهر وقد زخرت المراجع التاريخية بما كانت تحويه حزائن خلفائها وأمرائها وكبار رجـال الدولة فيها من الكنوز التى أطنبوا فى ذكرها ، ناهيك عما كان يلبسه الخليفة والسلطان من العديد من الحلى والجـوهر (٧٢) وكان صـناع الحلى يطلقون على الحلى اسماء تمثل آلات الحرب ومعداته ، فمن أنواع الاقراط ، قرط (ترس) لمشابهته للترس ، وكذلك حلق (خنجر) عـلى هيئة قبضة الخنجر ، وحلق (مشرف) عـلى شكل سيف وغير ذلك من الاشكال التى حرصت نساء العرب أن تتحلين بها تشجيعا للرجل على حمل الخنجر أو السيف وتذكره دائما بحمل السلاح ليذود عن الوطن والديار (٧٣) .

ومن الصناعات اللازمة للبلاد التى توجـد بها المراعي والاغنام صناعة البسط والسجاد . ولما كانت بلاد الشام غنية بمراعيها وبأغنامهـا ومواشيها ، لذلك فقد كثرت بها صناعة البسط والسجاد وان لم يصل الى درجة من الاتقان تجعله ينافس السجاد الايراني أو السـجاد التركى فى التجارة الخارجية (٧٤) . فقد ذاعت شهرة البسط الشوايكية وسـجاد اعناك فى البلقان وحوران (٧٥) ، أما سجاد دمشق الذى احتوى على الزخرف والنقوش من صور آدمية وحيوانية فقد فاق الجميع من حيث الجودة والذوق السليم (٧٦) . كما وجدت فى حوران وجبل قلمون ولاسيما دمشق وحمص وحلب ألوف من الانوال تخيط البسط والسـجاد من الصوف الخالص المصبوغ بالصبغات النباتية الثابتة (٧٧) .

وكان نسيج الحصر والبارى من أفضـل الصناعات المحلية فى بلاد الشام التى تقـوم باحتياجات البلاد منذ أقدم العصـور وحتى الآن . ولعل من أشهر أنواع الحصر ذلك الذي يصنع بالقرب من طبرية حيث توجد غابة حلفاء وأكثر أهلها يقومون بنسج الحصر وفتـل الحبال (٧٨) . وقد رأى ناصر خسرو عند زيارته لبلاد الشام فى نهاية القرن السادس الهجري (الثانى عشر الميلادى) حصر طبرية فقال : « ان حصرا من هذه الحصر الطبرانية تستعمل

---

(٧١) لقد كان لاهل الصين اعتقاد راسخ فى ان المرآة تفيد السحر والشعوذة وانها من الادوات المقدسة التى لاغنى عنها ، فقد كانوا يعلقونها حول أجسامهم لتجنبهم مواضع الزلل ، كما كانـوا يدفنونها مع موتاهم لتنير لهم المقابر وتبعد عنهم الارواح الشريرة .

Pope: Survey of persian Art. IV. P. 1301.

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ص ١٦٣ . شاهد ابن الاثير الكثير من هذه الحلى بنفسه .

(٧٣) أحمد ممدوح حمدى : معدات التجميل ص ١٢٢

(٧٤) Martin. F.A.: A History of Oriental Rugs before 1800 P.6.

(٧٥) Dilley. A. U: Oriental Rugs and Carpets. P. 19.

(٧٦) Troll. S.: Damaskus Teppiche (Ars Islamica vol. IV 1937 P.P. 201 - 231.

(٧٧) Neugebawer & Tooll: Handbuch der Orientalischen Teppichkunde P. 38.

(٧٨) كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٢٤٨

للصلاة وتساوى الواحدة منها خمسة دنانير »،وكذا الحصر البيروتية مشهورة بحسن نسجها واطافة ألوانها (٧٩) •

ولاريب فى أن هذه المصنوعات المتنوعة التىكانت تقوم بصناعتها مدن بلاد الشام قد اثرت الامارات والدويلات التى ظهرت فى ذلك العصر وكان لهذا اثره البالغ فى الحياة الاجتماعية فى البلاد فى ذلك العصر •

٣ ـ الثورة الزراعية :

من المعروف أن الزراعة فى بلاد الشام تعتمد الى حد كبير على الامطار ونزول الغيث ، ومن ثم فان الخراج بالشام يجبى تبعا لمواعيد نزول الامطار وفى ذلك يقول النويرى « ان قانون البلاد الشامية مبنى على نزول الغيث ووقوع الامطار فى ابانها وأوقات الاحتياج اليها (٨٠) »•

ولذلك فان الخراج يجبى فى بلاد الشام على فترتين بالنسبة للاراضى التىتزرع على المطر ، ومن ثم فقد اطلق على الامطار الموسمية اسماء خاصة ، فهناك المطر المسمى (الوسمى) (٨١) وهو الذى يقع فى فصل الخريف ، وفيه يلزم مباشر الخراج ببلاد الشام رؤساء البلاد بتغليق (٨٢) الارض بالزراعة والكراب (٨٣) ،ولذلك فقد اصطلحوا على أن يقولوا للارض أحمر وأخضر ، أعنون بالاحمر ، الكراب ، أى حرث الارض فيكون لونها أحمر والاخضر أى الزراعة • وكانت أمطار الوسمى تروى الزروع الشتوية وهى القمح والشعير والشوفان والفول والحمص والعدس والكرسنة (٨٤) والجلبان (٨٥) والبستيلية وهى التى تعرف بمصر البسلى ، ويزرع بالساحل الطرابلسى الحلبة •وفى بعض الاحيان يتأخر (الوسمى) عن بعض نواحى أراضى الشام فيزرع سكانها الحب عفيرا ، أى أنهم يزرعون الحب قبل أوان الزرع وينتظرون سقوط المطر •

أما مطر الفاطم فهو ينزل فى شهر نيسان (ابريل) فيروى الزروع الصيفية وهى الذرة

---

(٧٩) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١١٦

(٨٠) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٥٥

(٨١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص٤٦٢

(٨٢) التغليق : هو التكميل والتتميم ، والظاهر ان استعماله فى هذا المعنى استعمال عامى كان الشىء اذا أغلق باب الزيادة فيه • والمعنى المراد هنا انه اذا دفع المستأجر كل ما عليه من الخراج فقد أغلق باب المطالبة (النويرى : نهاية الارب جـ ٨ هامش ص ٢٣٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٧) •

(٨٣) الكراب : الحرث (النويرى : جـ ٨ ص ٢٥٧) •

(٨٤) الكرسنة : شجرة صغيرة لها ثمر فى غلف تعلفة الدواب ، وهى الكشنى (النويرى : نهاية الارب ص ٢٥٧ حاشية (٧)) •

(٨٥) الجلبان : هو من القيطانى ، أى من الحبوب التى تطبخ • له نوار يميل الى الحمرة تخلفه مزاود فيها حب مدور تميل الى البياض حلو ويؤكل نيا فى الربيع ثم يجف ويطبخ (ابن البيطار : الفلاحة جـ ١ ص ١٦٥) •

والدخان والسمسم والارز والحبة والسوداء والكسبرة والقثاء والوسمة (٨٦) والقرطم (٨٧) والقطن والقنب (٨٨) .

أما الاراضى التى تروى من الانهار والعيون، فان ما يقدر عليها من الخراج يكون أكثر ، ذلك لان قيمة الاراضى فيها أغلى من التى تروى بالمطر لسهولة زراعتها وكثرة غلتها (٨٩) .

ويصف لنا النويرى (٩٠) ، كيف يجبى ويشرف وكلاء صاحب الخراج الخراجية فيقول: « فاذا زرعت الاراضى وبدأ اصلاح الزرع ، وأخذ الفول فى العقد ، وخرج الوكلاء على الزراعة الى النواحى يحفظون الزراعة من التطرق الى شىء منها ، ويلازمونها الى أن تحصد وتنقل الى البيادر (٩١) ، فعند ذلك يخرج الامر بحفظ ما يصل الى البيادر » كما كان يعلن على المزارعين ، انه على من يترك أرضه بورا دون زراعة ، يجبى منه قيمة هذه الارض البور من الارض التى زرعها ، وذلك حتى لايهمل أحد فى زراعة أرضه .

فاذا ما انتهت عملية الحصاد والدرس . خرج والى العمل ومباشروه فى جمع الخراج وهى عادة مناصفة فى أراضى السقى ومثالثة ومرابعة فى باقى الاراضى . أما الاراضى الخالية من السكان فان الضريبة مخامسة أو مسادسة . وهى مسابعة ومثامنة فى الاراضى المجاورة لساحل البحر والمتاخمة لبلاد العدو . فاذا فرغ المباشر من القسمة أخذ منه ما يخص الديوان من نسب المقاسمة . ويؤخذ من الفلاح فى النواحى الخاصة والاقطاعات عشر ما بقى له قل أو كثر ، وفى بعض النواحى لايؤخذ العشر من المزارعين الذميين . أما النواحى الاقطاعية أو التى أعشارها ديوانية فمنها ما عليه ضريبة مقررة تؤخذ فى كل سنة زاد المغل أو نقص ، ومنها ما يحرز (٩٢) ما بها من الغلال ويقدر العشر عنها .

وهناك بعض الاراضى الشامية مفصولة (٩٣) ومضمنة على أربابها بشىء معلوم يؤخذ

---

(٨٦) الوسمة : الوسمة : هو نبات النيل الذى يستخرج منه اللون الازرق للصباغة . (ابن البيطار : لفلاحة ج ٢ ص ٦٣) .

(٨٧) القرطوم : حب العصفر .
(النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٨ حاشية «٤») .

(٨٨) القنب : نبات الياقة خشنة ، يشبه الكتان ، الا أنه أكثر خشونة تتخذ منه الحبال (ابن البيطار ج ٢ ص ٣٧) .

(٨٩) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٩

(٩٠) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٨

(٩١) البيادر : المواضع التى يداس فيها الفول والحنطة وغيرهما من الحبوب .
(النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٨ حاشية «٨») .

(٩٢) يحرز : أى يقدر بالظن والحدس (النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٩ هامش (٢) .

(٩٣) الفصل مأخوذة من الكلمة الفرنسية vassel أى التابع . والمقصود هنا بكلمة مفصولة هى الارض التى يقطعها المتبوع لتابعه نظير واجبات يؤديها .
(النويرى : ج ٨ ص ٢٦١ حاشية «١») .

عند جنى المحصول من غير توكيل أو مقاسمة ،وقد استمرت الاراضى الساحلية التى استردت من أيدى الفرنجة تعـــامل معـــاملة الاراضى المفصولة •

وهناك خراج يعرف بخراج العين يقرر على البساتين وأشجار الفاكهة والكروم والمقاثى وما شابه ذلك يجبى على شكل ضريبة عند جنى كل صنف من الفواكه •فاذا ما انتهى العـــامل ومباشروه من المقاسمة وأخذ ما يخص الديوان،بكتب العامل مخرومة (٩٤) يورد فيها المستخرج والمحضر والمجرى والمعروف ، بعد أن يبسط أسماء أرباب الاستحقاقات وأرباب المصاريف ويضع لكل اسم ما يستحقه مشاهرة أو مسانهة عينا وغلة أو ثمن صنف أو غير ذلك • ثم يشطب أمام كل اسم ما قبضه مفضـــلا فى تاريخه واسم الجهة التى يوجد بها ، وذلك حتى يسهل على العامل محاسبة كل نفر عند الاحتياج الى محاسبته (٩٥) •

أمـــا عن المحاصـيل الزراعية وطريقة زراعتها فسوف يتعرض لها الباحث بالدراسة فى الفصـــل الثالث الخاص بالمجتمع الريفى ببلاد الشام (٩٦) •

---

(٩٤) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٧٤

(٩٥) المخرومة : نوع من الدفاتر يخـــرق ، اعجمية مولده ، وردت هذه الكلمة فى شـــعر ابن نباتة يذم كاتبا قال :

لم يدر ما مخرومة وجريدة •• سبحان رازقه بغير حساب (شفاء الغليل) •

(٩٦) انظر الفصل الثالث ص

الفصل الثالث

العمائر والمنشآت العامة

١ ـ العمائر الدينية :

مساجد ـ مدارس ـ خوانق ـ ربط وزوايا

٢ ـ العمائر المدنية :

الدور والقصـور والبيمارستانات والحمامات

٣ ـ الاستحكامات الحربية :

الحصون ـ القلاع ـ الاسوار

ثالثا : العمائر والمنشئات العامة :

ان الحديث عن عمائر ومنشـئات بـلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجرى تستدعى وقفة فاحصة عميقة ، ذلك أن ما أنشىء فى بلاد الشام من مساجد ومدارس وخوانق وزوايا ، وما أقيم من استحكامات حربية من أسوار وقـلاع وحصون وربط ، منذ ظهور الاسلام حتى الان أى مدة أربعة عشر قرنا ، لا يكاد يقاس بجانب ما أقيم وأنشىء فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها •

على أن هذه الكثرة العددية فى اقامة المنشئات والعمائر المتعددة الاغراض والوظائف فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسـابع الهجرى ، لم تكن وليدة الصـدفة أو بنيت اعتباطا ، لكنها وجدت ودعت اليهـا ظروف سياسية ومذهبية ملحة ، ولعل الخلاف المذهبى الذى كان على أشده فى ذلك الوقت بين السـنة وأنصارهم من السلاجقة والاتابكة وبين الشيعة وأعوانهم من الفواطم والنزارية كان من أكبر العوامل التى دفعت الى بناء الكثير من الخوانق والزوايا التى لم نسمع بوجودها ببلاد الشام قبل نهاية القرن الخامس الهجرى •

ولاحاجة الى تبرير كثرة بناء الاستحكامات الحربية فى بلاد الشام بعد أن تغلغل الصليبيون فيها وانتشروا فى مدنها وقراها ، على أن اقامة بيوت الله فى وقت كثرت فيه المصائب والمحن من قتل وذبح وتشريد ، هذا بجانب الهلـع والجزع خشية ضياع دين الله وفقـد عزوة الاسلام والمسلمين ، كانت من أهم الاسـباب النفسية التى دعت الملوك والامراء والسلاطين الى الاكثار من اقامة المنشئات الدينية حسـبة الى الله تعالى وأملا فى عفوه ومغفرته •

ولعل أبرز فروع الفن الاسلامى التى تأثرت بالجانب الروحى هـو العمارة ، التى عنى المسلمون الاوائل أن تكون مهمتها الاولى خدمة الدين ، ومن ثم فقد تطورت العمائـر الدينية تطورا سريعا ساير ركب الحضارة الاسـلامية الفتية ، فتعددت أشكالها وأسماؤها وأساليبها المعمارية تبعا لتعدد وظائفها • ولما كان الدين الاسلامى قد شمل الحياة كلها دنيا ودنيا لذلك فان المنشئات الاسلامية لم تقتصر على العمائر الدينية فحسب ، بل عنيت عناية خاصة بالمبانى المدنية كالدور والقصـور والبيمارستانات والحمامات والاسبلة وكذا المنشئات التجارية كالوكالات والخـامات والفنـادق • أمـا الاستحكامات الحربية فهى تقتضيها طبيعة أمن الدول مهما كان دينها أو لونها •

ولمـا كان عدد المنشئات والعمائر التى ترجع الى القرنين السادس والسابع الهجرى ، فى بلاد الشام يبلغ قرابة الالفين ، كمـا جـاء فى المصادر المعاصرة والمرجع التاريخية لذلك فقد رأيت أن أقسمها الى أقسام متجانسة من حيث الوظيفة وأن أتناول كلا منها بايجاز •

١ ـ العمائر الدينية :

لقد تعددت المبـانى الدينية تبعـا لتطور الحضارة وتطور وظائف تلك المبانى ومهمتها وكان بناء المساجد هو حجر الزاوية بالنسـبة للعمارة الاسلامية عامة وبلاد الشام خاصة وبلغ

عددها في القرنين السادس والسابع الهجري ،ما يقرب ألف ومائتين من مجموع العمائر البالغ عددها ما يقرب من ألفين • وضمت العمـــائر الدينية المدارس والخوانق والزوايا • ومـــن المفيد دراسة كل نوع على حدة •

المســـاجد :

كان طبيعيا أن تحتوى عاصمة بلاد الشـــام وقصبتها دمشق على النصيب الاكبر من جوامع بلاد الشام ، ولاغرو فقد كانت دمشق أقـــدم عواصم العالم الاسلامى ، بل ومن أقدم مدن الدنيا قاطبة • واستهوت مساجد دمشـــق الكثير من كتابها ومؤرخيها المعاصرين (١) •

ولقد حصر لنا ابن شداد (٢) مساجد دمشـــق فقال : ان مساجد ما بداخل البلدة عدة المشهور والمعروف الاصل والنسب منها ثلثمائة وخمسة، وعدة ما فى ظاهر البلد وأرباضه من ناحية القبلة (أى فى الجنوب من دمشق) فيبلغ ســـبعة وعشرين ، والتى منها من ناحية الشرق عدتها عشرة وأما التى من ناحية الشام بشرق فتبلغ تسعين مسجدا • أما التى من غربه فعدتهـــا خمسة وثمانون ومائة مسجد ، والمساجد التى خارج المدينة عددها واحد وخمسون مسجدا •

ومن أشهر مساجد دمشق التى ترجـــع الى القرن السادس جامع الجبل أو (المظفرى) الذى يقع بسفح جبل قاسيون فى حى الصالحية (٣) ،بدأ فى تشييده الشيخ أبو داود محاسن الفامى الحنبلى سنة ٥٩٦ هـ (سنة ١١١٩ م) • وجاء فى تاريخه أنه لماوصل البناء مقدار قامة ، نفد المال ، بلغ الملك المظفر كوكبورى بن عـــلى بن بكتكين صاحب أربل، وزوج ربيعة خاتون، أخت صلاح الدين الايوبى ، أن الحنابلة (٤) بدمشق شرعوا فى عمل جامع بسفح قاسيون ، وأنهم عاجزون عن العَمل • فسيراليهم مع حاجب من حجابه يسمى شجاع الدين الاربلى ثلاثة آلاف دينار لتتميم العمارة قائلا : ومهما فضل (٥) من ذلك يشترى به وقف ويوقف عليه • وقد سجلت الكتابة المنقوشة على الباب الغربى للجامع ذلك كما سجلت تاريخ الانتهاء من بنائه سنة ٦١٠ هـ سنة ١٣١٢ م ، وهو بذلك أول مســـجد بنى فى العصر الايوبى فى دمشـــق • وأول من ولى الخطابة بجامع الجبل الشيخ أبو عمر المقدسى ثم تقى الدين ابن الحافظ الحنبلى ثم من بعده شمس الدين عبد الرحمن •

---

(١) ابن المعلى بن يزيد أبو بكر الاسدى قاضى دمشق المتوفى (سنة ٢٨٦هـ) الذى ألف كتابا عن مساجد دمشق وخص بالذكر منها مسجدها الجامع الذى بنى فى العصر الاموى (٨٨ - ٩٦هـ) وابن حمياء المشهور بابن أبى العجائز اوأبوالحسن الرازى المتوفى فى القرن الرابع الهجرى اللذان كتب عان مساجد دمشق ، محمد البجـــلى الرازى الحافظ المتوفى سنة ٤١٤هـ ، لذلك ألف عـــن دمشق وجوامعها عبد العزيز ابن احمد الكتانى المتوفى سنة ٤٤٦هـ ، وهبة الله أحمـــد الاكفانى المتوفى سنة ٥٢٤هـ •

(٢) ابن شداد : الاعلاق الخطـــيرة ص ٩١ ، ١٦٦

(٣) جاء فى كتاب ثمـــرة المقاصد فى ذكر المساجد ص ٢٠٩ ليوسف بن عبد الهادى ، تحقيق الدكتور سعد أطلس ، أن الجامع قائم الى اليوم فى حى الاكراد •

(٤) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، وفى مختصره ص ٢٣٠ ، ان جامع الجبل المشهور بجامع الحنابلة وبالمظفرى بسفح قاسيون •

(٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص ٨٦

ويعتبر جامع التوبة (٦) من مساجد دمشق الهامة التى ترجع الى القرن السابع الهجرى فقد أنشأه الملك الاشرف موسى بن الملك العادل أبو بكر أيوب سنة ٦٣٢ هـ/سنة ١٢٣٤ م فى حى العقبة • وكان مكان الجامع قديما خان الزنجارى ، وكان مشهورا بالفسق والفجور ، فأمر الملك الاشرف بهدمه وبناء مسجد مكانه ولذا عرف بجامع التوبة (٧) • وقد تولى الخطابة فيه الركن الطوسى (٨) ولم يزل به الى أن أخرج عن دمشق لامور أنكرت عليه • ثم جاء بعده الشيخ بدر الدين يحيى بن عز الدين بن عبد السلام الذى تولى نظارة الجامع وخطابته •

وقد تولى الامير فخر الدين يوسف بن حموية (٩) تجديد أجزاء كبيرة فى هذا المسجد فى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب • ولما تولى نظارته بدر الدين يحيى ، ذهب تيجان محرابه وبيض اساطين أروقته ، وتمت صيانته على خير ما تكون الصيانة •

ويقع جامع جراح (١٠) خارج الباب الصغير (١١) من أسوار مدينة دمشق بمحلة سوق الغنم (١٢) • أنشأه الملك الاشرف موسى بن الملك العادل فى سنة احدى وثلاثين وستمائة • ويشبه هذا المسجد فى تخطيطه المسجد الاموى ومسجد التوبة والمظفرى •وقد أوقف الملك الاشرف على هذا المسجد ، قرية من أعمال مرج دمشق تعرف بالزعيرية • وقد جاء فى تلك الوقفية الشروط الآتية بالنسبة لخدم الجامع : « شرط أن يكون للخطيب فى كل شهر خمسون درهما ، ولعشرة نفر قراء فى الشهر لكل منهم عشرة دراهم (١٣) » • وقد احترق هذا المسجد فى أيام الملك الصالح عماد الدين اسماعيل فى سنة ٦٤٢ هـ ، لما نازل دمشق معين الدين بن الشيخ ، فجدد بناءه الامير مجاهد الدين محمد بن الاير شمس الدين محمد بن الامير غرس الدين قليج (١٤) النورى فى سنة ٦٥٢ هـ (١٥) •

---

(٦) جاء فى كتاب الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى (جـ ٢ ص ٤٢٦) أن مسجد التوبة يقع قبلى البلد محل ميدان الحصا واضاف ثمرة المقاصد فى ذكر المساجد ص (٢٢٩) أن جامع التوبة يقع فى الميدان الوسطانى •

(٧) فى وصفه المعمارى يرجع الى المراجع الاتية: صلاح المنجد : أبنية دمشق الاثرية المسجلة (مجلة الشرق سنة ١٩٤٨م) •

Sauvaget (J): L'architecture Musulmane en Syrie P.311, Creswell: Muslim Architecture in Egypt in the Ayyubide and Mamluk period. vol. P. 223.

(٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (دمشق) ص ٨٧

(٩) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس جـ ٢ ص ٤٢٧

(١٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (دمشق) ص ٨٨

(١١) الباب القبلى أحد أبواب مدينة دمشق عرف بالباب الصغير ، وذلك لانه كان أصغر أبواب المدينة عند بنائه • كما كان يعرف أيضا باسم (باب الجابية الصغير) •

(ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق جـ ٢ ص ١٨٥) •

(١٢) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس جـ ٢ ص ٤٢٠

(١٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (دمشق) ص ٨٨

(١٤) قليج نوع من السيوف الاسلامية المقوسة التى انتشرت فى القرن السابع الهجرى (انظر الباب الرابع ص) •

(١٥) الدارس فى تاريخ المدارس جـ ٢ ص ٤٢٢

وتعتبر مدينة حلب [١٦] ثانى البلاد الشامية من حيث الاهمية السياسية والعمرانية بل ومفتاحها الشمالى • وتلقب حماة بالشهباء والبيضاء وذلك لبياض أرضها لان غالب أرضها من الحجارة الحوارة وترابها يقرب الى البياض، واذا أشرف عليها انسان ظهرت له بيضاء [١٧]• اما عن المساجد الموجودة بمدينة حلب حتى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فقد حصر ابن شداد [١٨] البارز منها والمشهور، فبلغ ما هو موجود بداخل حلب ثمانية ومائتين مسجد ، وعدد ما هو موجود بين أبوابها أربعة عشر مسجدا • ومبلغ ما هو كائن بأرباض حلب خمسة عشر وعدد مساجد الحاضر السليمانى [١٩] مائة وعشرة • وعدد ابن الشحنة [٢٠] مساجد الرابية وجورة حفال ، من ضواحى حلب ، فبلغ مائة وثمانية وستين مسجدا • اما عن المساجد بخارج باب انطاكية ومساجد المضيق ومساجد التى بالظاهرية والرمادة وبانقوسا والهزازة فقد بلغ عددها ثمانية وخمسين ومائة [٢١] •وأضاف ابن القلانسى الى ما تقدم المساجد الموجودة القلعة فبلغت عدتها ستة وخمسين مسجدا [٢٢]• واعتمادا على ماجاء فى المصادر المعاصرة للقرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) نستطيع القول بأن عدد مساجد حلب حتى نهاية القرن السابع الهجرى قد بلغ تسعة وعشرين وسبعمائة مسجد •

ولعل أهم مسجد جامع لا يزال باقيا بحلب حتى اليوم وترجع معظم مبانيه الى القرنين السادس والسابع الهجريين ، هو مسجدها الجامع [٢٣] • لقد اختلف الكتاب والمؤرخون فى تعيين منشىء جامع حلب • فقد قيل أن أول من أنشأ المسجد الجامع بحلب هو الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك ، وأنه تأنق فى بنائه ليضاهى ماعمله أخوه فى جامع دمشق ، بل قيل ان منشأه هو الوليد بن عبد الملك [٢٤] •• وقيل أن بنى العباس قدنقلوا الكثير من رخامه وفسيفسائه وآلاته الى جامع الانبار ، وانتهى الامر بهذا المسجد بالحريق فى سنة ٣٥١ هـ (سنة ٩٦٢ م) عندما استولى الامبراطور نقفور على حلب • فلما رجع الحمدانيون الى حلب رموا ما احترق من المسجد ، كما أقام أبو المعالى سعد الدولة الكثير من جدرانه ، وأعاد قرعويه مولى سيف الدولة بناء الاعمدة والقبة التى تعلو فسقية الصحن • وقد سجل

---

(١٦) أنظر شكل (٣)
(١٧) كمال الدين ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ مدينة حلب ص ١٦
(١٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ ١ ص ٧
(١٩) أبو الفداء : جـ ٨ ص ٩٣
(٢٠) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ٣٧ (تحقيق يوسف البان سركيس) •
(٢١) ابن جبير : الرحلة ص ٧٥
(٢٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩
(٢٣) يقول ابن شداد فى الاعلاق الخطيرة جـ ١ ص ٣٠ : كان موضع الجامع بستانا للكنيسة العظمى التى تنسب الى الملكة هيلانة أم قسطنطين فى ايام الرومان ، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا اهلها على موضع المسجد الجامع •
وأخبر الشريف أبو جعفر الهاشمى ، ان الجهة الشمالية من الجامع كانت مقبرة للكنيسة المذكورة ومعنى هذا ان الجامع لم يكن يشغل شيئا من مساحة الكنيسة اللهم الا المقبرة التابعة لها •
(٢٤) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ٣٩

ماقام به قرعويه من أعمال فى هذه النافورة فى الكتابة المنقوشة علـــى رقبة القبة التى تعلو الاعمدة وقد جاء فيها « هذا ما أمر به قرعويه غلام سيف الدولة بن حمدان فى سنة اربـــع وخمسين وثلثمائة (٢٥) » •

ويذكر ابن العديم (٢٦) فى حوادث ســـنة ٤٨٢ هـ : « فيها اسـسنت منارة جامع حلب ، وعمرت على يدى القاضى أبى الحسن محمد بن يحيى بن محمد الخشاب » وذلك فى عهد سابق ابن حمود ، من بنى مرداس ، ومازالت مئونة الجامع تحتفظ حتى الآن بكتابات نقشت على بدنها بالخط الكوفى والنسخى ، ذكر فى احدى واجهاتها ، اسم ملكشاه وابن الخشاب وفى جانب آخر ذكر اسم تتش أخو ملكشاه والكتابة مؤرخة سنة ٤٨٣ هـ (٢٧) (ســنة ١٠٩١ م) • ومعنى ذلك أن المئذنة والنافورة التى تتوسط الجامع هما أقدم مبانى المسجد التى مازالت باقية حتى الآن وثابتة التاريخ (٢٨) ويصف لنا أبو الفداء (٢٩) المئذنة كما رآها فى نهاية القرن السابع وبداية القرن الثمن الهجرى فيقول : « انها كانت مكونة من خمس طبقات وأنهـــا زخرفت بنقوش فى الدقة بدنها غاية والابداع ، وذكر أنها تحتوى على كتابات مؤرخة ســـنة ٤٨٣ هـ •

ومن المرجع ان تكون معظم مبانى المســجد الحالى ترجع الى عصر نور الدين زنكى ، فقد جاء فى المصادر التاريخية ، أن نور الدين قد أعاد بناء معظم أجزائه بعـــد أن احـــرقته الاسماعيلية سنة ٥٦٤ هـ (سنة ١١٦٨ م) مع الاسواق التى حوله ، وأنه قعطت له الاعمـدة الصفر (أى الرخام) من بعابدين ، كمــا نقلت اليه عمد مسجد قنسرين • وقد وصف لنا ابن جبير (٣٠) جامع حلب كما رآه فقال : وهـــذا الجامع من أحسن الجوامع واجملها وقد طاف بصحنه الواسع بلاط (رواق) كبير متســـع مفتح ، كله أبواب تطل على الصحن عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها • ويصف المنبر فيقول : وقد استفرغت الصنعة الخشبية جهدها فى منبره ، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا عـــلى شـــكله وغرابة صنعته ، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وهـــو مرصـــع كله بالعاج والصـــــدف والابنوس (٣١) •

وقد تعرض الجامع للحرق للمرة الثالثة فى عهد الهجوم التترى ، وذلك على أيدى حلفائهم

---

(٢٥) لايزال هذا النص موجودا فى رقبـة وقد أورده •
Van Berchem: Recherches Archeologiques eu Syrie P. 126 Pl. 39.
(٢٦) ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب ورقة (١٩) •
(٢٧) Van Berchem: Ibid P. 128 Pl. 42.
(٢٨) يذكر ابن العديم فى تاريخ حلب ورقة (٢٠) فى تاريخ المئذنة فقال : انها تصدعت أثر زلزال حدث سنة ٥٦٥هـ فسقط هلالا كان علـى رأسها •
(٢٩) أبو الفداء : جـ ٨ ص ٧٣
(٣٠) ابن جبير : الرحلة ص ٥٨
(٣١) قام بصنع المنبر الخشبى وكذا المحراب أحد أفراد اسرة أبو المعالى التى صنعت من قبـل التابوت الخشبى للامام الشافعى والامام الحسين بالقاهرة فى عصر صلاح الدين الايـــوبى (ابن شداد الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ٣٦ •

الارمن سنة ٦٧٩ هـ (سنة ١٢٧١ م) ، فعمره الامير قراسنقر سنة ٦٨٤هـ (٣٢) (سنة ١٢٧٦ م) فى عصر المنصور قلاوون •

ولاتزال مدنية بعلبك (٣٣) قصـــبة كورة البقاع (٣٤) احدى كور جند دمشـــق البرية ، تزخر بالعديد من المساجد التى ترجــــع الى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثـــانى عشر والثالث عشر الميلاديين) وان تغير الكثير من معالمها الاثرية نظرا للتجديدات والترميمات التى اجريت لها فى العصر العثمـــانى والعصر الحديث ، ولكنها رغم كل ذلك فانهـــا مازالت تحتفظ بالنقوش والكتابات التى تثبت أنها ترجع الى القرنين السادس والسابع الهجريين •

مازالت جامع الامجد الذى يقع على رابيه الشيخ عبد الله ببعلبك بكتابات منقوشة عـــلى بابه جاء فيها : انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر ••• الخ • أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الاسفسلار الكبير صارم الدين ابو سعيد خطلخ بن عبد الله المعـــرى الملكى الامجدى ، ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحســـاب فى ســـــنة ست وتســـــعين وخمسمائة (٣٥) •

كذلك مازال جامع الحنابلة فى بعلبك يحتفظ بنص أثرى نقش على بابه يثبت أنه جـــدد فى عصر المنصور قلاوون (٣٦) جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا المكان المبارك فى أيام مولانا السلطان الاعظم شاهنشاه المعظم مالك رقاب الامم سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم ، الملك المنصور سلطان الاســـــلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين ، ملك البحرين ، خادم الحرمـــــين الشريفـــين ، ابى المعالى قلاوون قسيم امير المؤمنين ، علد الله سلطانه وشد آزره ببقاء ولده وولى عهده ، مولانا السلطان الملك الصالح علاء علاء الدين ، وأدام نصرهما ، وجعل البسيطة مدحهما يتولى الامير نجم الدين حسب نائب قلعة بعلبك المحروسة ومدينتها ، ونظر القاضى بهاء الدين بن خلكان وذلك فى العشر الاخـــر مـــن جمادى الاولى سنة اثنتين وستمائة والحمـــد لله وحده (٣٧) •

هذا ويوجد بمدينة بعلبك وغيرها من المدن والقرى السورية ، عدد كبير من الخلاوى تشبه

---

(٣٢) أبو الفداء جـ ٨ ص ٩٢ ، المقـــريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٥٦ ، أبو المحاسن : النجـوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٦

(٣٣) ميخائيل موسى مألوف البعلبكى :تاريخ بعلبك ص ٩ ، جاء فيه تفسير مفصـــــــل لمعنى « بعلبك » وكذا فى معجم البلدان لياقوت فى مادة بعلبك ، واتفقت معظم الاراء على أن المدينة اخذت اســـمها من الملعب الرومانى الذى أقيم للاله « بعل » •

(٣٤) ينقسم جند دمشق الى أربع عشرة كورة تسع منها داخلية برية وخمس بحرية ســـاحلية وكورة البقاع من الكور البريه (ابن شـــــداد : الاعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ٤١) •• وجاء فى معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٦٦٩ : البقاع جمع بقعة موضع يقال له بقاع كلب ، قريب من دمشق وهو أرض شاسعه بين بعلبك ودمشق فيها قرى كثيرة ومياه عزيزة ثميرة •

(٣٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٥٦ ، كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٥٨

(٣٦) ميخائيل مألوف: تاريخ بعلبك ص ١١٣ Van. Berchem: Corpus, vol. VIII P. 165 P. 1.73

Van. Berchem: Recherches Archeologique eu Syrie P. 125 Pl. 64.

(٣٧) Van Berchem: Corpus vol. VIII P. 192 Pl. 103.

المساجد يرجع بعضها الى القرنين السادس والسابع الهجريين ، لا منابر ولا مآذن لها ، يجتمع بها الدروز والناصرية والشيعة مع خاصتهم كل ليلة جمعة يسمونها (مجالس) . وهناك خلوات ذات قباب يجتمع فيها الشيعة كذلك تعرف باسم (حسينه) نسبة للامام الحسين ، يقيمون فيها المآتم عليه فى أوقات لهم مخصوصة [٣٨] .

أما عن مساجد طرابلس [٣٩] التى مازالت باقية فان معظمها يرجع الى عصر المماليك البحرية والجراكسة . على أن أعظم وأقدم مساجد طرابلس هو الجامع الكبير الذى بناه السلطان الاشرف خليل [٤٠] بن قلاوون ، كما هو ثابت من الكتابة [٤١] التى تعلو عتب مدخله الرئيسى .

وتعتبر حماة من المدن الداخلية بسوريا التى لاتزال تحتفظ بمسجد هام يرجع تاريخه الى القرن السابع الهجرى ، وهو جامع أبو الفداء [٤٢] المعروف باسم جامع (الدهشة أو جامع الحيات) [٤٣] (انظر لوحة رقم ٣٣) . ولاتزال الجامع يحتفظ بالكثير من فسيفسائه الذهبية والمتعددة الالوان . كما لايزال يحتفظ بلوحته التأسيسية التى جاء فيها : أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا والدين اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين ابن الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة . (أنظر لوحة رقم ٦٥) .

وتحتوى مدينة اعزاز من أعمال حلب على مجموعة كبيرة من المساجد [٤٤] التى ترجع الى العصور الوسطى الا أن معظمها قد تغيرت معالمه نتيجة للاصلاح والترميم أو الهدم والتجديد . ومن أهم مساجد اعزاز التى ترجع الى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الجامع الكبير الذى قال عنه العلامة الغزى [٤٥] ، ان بوسط صحنه حوضا يهبط اليه بعدة درجات تجرى فيه قناة حفرها اليه اسماعيل عبد الله الغزازى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وقد احتفظ الجامع بلوحته التأسيسية التى جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بعمل

---

(٣٨) محمد كرد علي : خطط الشام جـ ٦ ص ٥٨

(٣٩) هي مدينة عظيمة لها سور متيع وحولها رساتيق وضياع جليلة ، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات وكانت تضاهي دمشق في كثرة بساتينها (البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٣) ويفسر الادريسى ص ٢٤٠ الرستاق فيقول مفرد جمعه الرساتيق وهو السواد والقرى) .

(٤٠) محمد كامل بابا :جوامع طرابلس ص٤٣

(٤١) Van Bechem: Corpus vol. VII P. 79.

(٤٢) هو الملك المؤيد اسماعيل ابو الفداء صاحب حماه وكان عالما فقيها مؤرخا جغرافيا وفلكيا . واهم مؤلفاته تاريخه مختصر تاريخ البشر وكتابه تقويم البلدان توفى سنة ٧٣٢هـ . وكان كثير الاحسان على العلماء ، فقد أوى اليه اثير الدين الابهرى فرتب له ما يكفيه ورتب لجمال الدين ابن نباته فى دمشق كل سنة ستمائة درهم غير مايتحفه به . وبفضل ابى الفداء وفضل أسرته من قبل أصبحت حماه مدينة العلم والادب بعد أن كانت اشبه بالقرون (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٣٥٢ ، خطط الشام جـ ٤ ص ٥١) .

(٤٣) نقش على احد اعمدة اروقة القبلة صورة حية ملتفة ولذا سمى بجامع الحيات ، يوسف ابن عبد الهادى : ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ص ٢٨ .

(٤٤) يوسف بن عبد الهادى : ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ص ٢٨

(٤٥) يحيى بن أبى طىء النجار الغسانى : معادن الذهب فى تاريخ حلب ص ٨٧

هذا الجامع المبارك مولانا السلطان العالم العادل الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى ابن أيوب ناصر أمير المؤمنين خلد الله ملكه فى شهور سنة أربع وأربعين وستمائة (٤٦) .

٢ ـ المدارس :

اذا كانت مساجد بلاد الشام قد بلغ عددها حتى نهاية القرن السابع الهجرى مايربو على الألفين ، الا أن ما أنشىء فى القرنين السادس والسابع ، كان بطبيعه الحال أقل من هذا العدد وان لم نستطع تحديده بشكل ثابت أما بالنسبة للمدارس فقد بلغ عددها فى بلاد الشام ما يقرب من المئتين (٤٧) ، تسعون منها فى دمشق وضواحيها وخمس وأربعون فى حلب وأعمالها والباقى موزع على باقى النيابات .وهذا العدد وان بدا قليلا بالنسبة لعدد المدارس فان ذلك يرجع الى أن المدرسة كظاهرة معمارية (٤٨) مذهبية لم تنشأ فى بلاد الشام الا فى القرن السادس الهجرى .

فقد فعل الاتابكة وصلاح الدين الأيوبى فى شمال العراق وبلاد الشام ومصر ما فعله نظام الملك والسلاجقة فى ايران والعراق وذلك بنشر المدارس فى غرب العالم الاسلامى . وكان لابد أن يصاحب أماكن العبادة الجديدة التى عرفت بالمدارس والتى تعددت وظائفها بحيث تغلغلت فى صميم المجتمع الاسلامى ، اذ لم تعد قاصرة على وظيفة العبادة فحسب بل شملت كل مناحى الحياة المدنية أيضا . ففيها تدرس العلوم المدنية من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وفلسفة وما اليها ، ومنها يتخرج من يتولى وظائف الدولة الكبرى وفيها يجلس الأطباء لعلاج المرضى من الطلبة وغيرهم وبها فصول لمحو الامية للاطفال اليتامى وملحق بها حمام كما كان ببعضها مغاسل للموتى (٤٩) .

---

(٤٦) Van Berchem: Corpus vol. VIII P. 117 Pl. 71

(٤٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ١ ص ٢ ، ٣

(٤٨) لقد بدأت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى تظهر فى شرق العالم الاسلامى أسماء جديدة لاماكن العبادة عرفت بالمدارس . وكانت مدينه نيسابور أول من اطلقت عليها اسم (دار العلم) وكان ذلك فى عهد محمود الغزنوى فى القرن الرابع للهجرة . فقد انشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسه أبو سعيد الاسطرلابى ومدرسه ابواسحا: الاصفرانى المتوفى سنة ٤١٨ هـ . وقد ظلت هذه المنشئات محلية فقضى عليها تماما بعد قتل وزير طغرل بك ، ثم بعثت من جديد على يد نظام الملك الذى جعلها منشئات عامة بعد أن كانت خاصه . وأنشأ نظام الملك الكثير من المدارس فى نيسابور وبغداد وطوس وبصرى واصفهان وهرات وبلخ وقد حذا حذو نظام الملك كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس فى كل الولايات السلجوقية .
المراجع : (المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣) ، (ابن خلكان : ج ١ ص ٣٥٧ ، ٣٥٩) و (القشقلندى) : صبح الاعشى ج٣ ص٣٥٢) (المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٦) ، (سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ج ١ ص ٢٠) ، (ماكس هيرتزيك لمحة فى تاريخ فن العمارة وسائر الفنون تعريب على بهجت ص ٣٦) .

(٤٩) سامى عبد الحليم : الامير مهدى من يشبك وأعماله المعمارية ، رسالة ماجستير لم تنشر ص ٢٣٠ وملحق (٢) .

وكان لابد ان يصاحب التغير الوظيفي تغير في تخطيط المنشئات الدينية فبعد أن كان المسجد يحتوى على بوائك أصبحت المدرسة تحتوى على أواوين (٥٠) وغرف للطلبة • وكان عدد الاواوين يختلف من مدرسة الى أخرى بحسب عدد المذاهب السنية التى تدرس بها • فقد أحصى الاستاذ كزويل (٥١) المدارس التى لاتزال موجودة فى بلاد الشام فوجدها ثمانين مدرسة منها ثلاث وثلاثون مخصصة للمذاهب الحنفى واحدى وثلاثون للمذاهب الشافعى وتسع لكل من الحنابلة والمالكية وست لمذهبين هما الشافعية والحنفية • وكان يصاحب هذه المدارس المذهبية فى كل الحالات تقريبا ايوانان للحديث والقراءات •

ولما كان عدد المدارس الباقية حتى الآن والتى ترجع الى القرنين السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) فى بلاد الشام يبلغ ثمانى وثمانين مدرسة والتحدث عنها يحتاج لمؤلف خاص لايتسع له المجال هنا ، لذلك فقد رأينا أن نتكلم عن مختارات من أهمها •

ولعل من أقدم المدارس (٥٢) التى لاتزال تحتفظ بالكثير من معالمها القديمة هى المدرسة المرشدية التى أنشأتها خديجة خاتون (٥٣) بنت الملك المعظم شريف الدين عيسى بن الملك العادل فى سنة ٦٥٤ هـ • (٥٤) وكانت المدرسة مخصصة للمذهب الحنفى (٥٥) ، وأول من تولى التدريس بها صدر الدين احمد بن شهاب الدين على الكاشى • ثم انتزعت منه ووليها صدر الدين ابراهيم بن عقبة الى أن توجه الى حلب • وتقع المدرسة المرشدية على سفح جبل فى حى الصالحية على الشارع الرئيسى فيها ، بين دار الحديث الاشرفية والتربة الفرنثية (٥٦) • (انظر شكل ٩) •

ومن المدارس ذات الايوان الواحد المدرسة الحلاوية (انظر شكل ٢) التى تقع قرب الجامع الكبير فى حلب مقابل مدخله الغربى وهى مخصصة للمذهب الحنفى • ويقال أن أصل هذه المدرسة كانت كنيسة (٥٧) ثم حولت الى مسجد وذلك كرد فعل لما قام به الصليبيون من انتهاك لحرمة قبور المسلمين • فقد حدث عندما حاصر الفرنج حلب سنة ٥١٨ هـ أن

---

(٥٠) سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ١ ص ٩

(٥١) Creswell: Muslim Architecture in Egypt. vol. II P. 104.

(٥٢) أول مدرسة انشئت فى دمشق هى المدرسة الصادرية التى بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة ٤٩١هـ • وتقع المدرسة بباب البريد بالقرب من باب الجامع الاموى الغربى وأول من درس بها هو الامام العالم على بن مكى الكاشانى • ولم يزل بها الى أن نزل عنها للشيخ الامام أبى الحسن على البلخى المشهور بالعلم •

انظر : ابن شداد الاعلاق الخطيرة جـ ١ ص ٢٠٠ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس جـ ١ ص ٥٣٧ ، ابن الاثير جـ ٣ ص ٢١ •

(٥٣) ابن طولون : القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ص ١٥١ •

(٥٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (دمشق) ص ٢٢٨

(٥٥) النعيمى : الدارس فى أخبار المدارس جـ ١ ص ٥٧٦

(٥٦) ابن طولون : القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ص ١٥٢ •

(٥٧) كانت هذه الكنيسة من بناء الملكة هيلانه أم الامبراطور قسطنطين

M. Ecochard: Note sur un Edifce d'Alep. P. 270 - 83 (Syria XXVII 1950).

بعثروا قبور المسلمين التى بظاهرها وأحرقوا من فيها • فعمد القاضى أبو الحسن بن القاضى أبى الفضل بن الخشاب الحلبى الى أربع كنائس صليبية وحولها الى مساجد (٥٨) • وكانت هذه المدرسة تعرف قديما بمسجد السراجين ، فلما استولى نور الدين محمود على حلب ، أضاف الى المسجد ايوانا (٥٩) ، وجدد فيه مساكن يأوى اليها الطلبة والفقهاء وكان ذلك فى سنة ٥٤٤ هـ (٦٠) • وقد أوقف الملك العادل نور الدين الاوقاف على المدرسة وكان يملأ مطابخها فى ليلة السابع والعشرين من رمضان قطائف محشوة ويجمع عليه الفقهاء المرتبين بالمدرسة (٦١) (أنظر لوحة رقم ٣١ ، ٣٢) •

ويحدثنا ابن شداد عن المدرسة الحلاوية فى أيامه فيقول : وهى من أعلم المدارس صيتا وأكثرها طلبة وأغزرها جامكية (طعاما) • وكان من شروط الواقف أن يحمل فى شهر رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها طعاما للفقهاء • وفى ليلة النصف من شعبان فى كل سنة حلوى معلومة ، ولعل المدرسة عرفت باسم الحلاوية نسبة الى هذا الشرط • ولما انتهى بناء المدرسة استدعى لها من دمشق الفقيه الامام برهان الدين أبا الحسن على بن الحسن بن محمد بن أبى جعفر فتولى التدريس بها • وممن درسوا بهذه المدرسة سنة ٦٣٤ هـ (سنة ١٢٢٥ م (٦٢) الصاحب الامام كمال الدين أبو القاسم عمر ابن قاضى القضاه نجم الدين أحمد بن هبة الله بى ابىحرادة المعروف بابن العديم • ولم يظل مستمرا فى التدريس بها الى أن قصد دمشق فى خدمة السلطان الملك الناصر فولى التدريس بها ولده مجد الدين أبو المجد عبد الرحمن (٦٣)

وتقع مدرسة (أبو الفوارس) (٦٤) فى معرة النعمان الى الجنون من جامعها الكبير • أنشأها أبو الفوارس نجا بن عبد الكريم بن معاقا لتكون مدرسة للشافعية سنة ٥٩٥هـ / (سنة ١١٩٨م) وذلك فى عهد الملك المنصور محمد بن عمر شاهان أيوب (٦٥) • وقد نقش تاريخ بنائها واسم بنائيها وكذا هويتها (٦٦) •

---

(٥٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ١١٠ •

(٥٩) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢١٤

(٦٠) اسعد طلس : الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ص ٥٩ •

(٦١) ويكمل ابن شداد شروط الوقف فيقول: وفى الشتاء كان يدفع لكل فقيه شئ معلوم ، وفى أيام شرب الدواء من فصلى الربيع والخريف يدفع ثمن مايحتاج اليه من دواء وفاكهة وفى الموالد الحلوى وفى الاعياد مايرتفقون به دراهم معلومة • وفى أيام الفاكهة مايشترون به بطيخا ومشمشا وتوتا (الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ١١٠) •

(٦٢) Guyer: La Madrass a al-Halawiya d'Alep. P.P. 217-231 (Bulletin de l'Institut Francais d'Archeologie Oriental XI (1914).

(٦٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ١١٢ – ١١٣

(٦٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٢٦ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ج ٢ ص ٣١٧ •

(٦٥) لقد كان محمد بن عمر بن شاهان ايوب حاكم حماه بين سنتى ٥٨٧ – ٦١٧هـ (سنة ١١٩١ – ١٢٢٠م) • (ابن الاثير ج ٨ ص ١١٧)

(٦٦) Herzfeld: Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum Deuxieme partie du Syrie Nord P. 229.

ومن المــدارس ذات الايوانين بحــلب المدرسة الشاذبختية ، أنشأها الاميرجمال الدين شاذبخت الهندى الاتابكى ، وذلك تلبية لأمر نور الدين محمود (سنة ٥٨٩هـ / سنة ١١٩٣م) كما هو ثابت على مدخلها (٦٧) الرئيسى الذى يقع فى مقابلة ايوان القبــلة • ولما تم بناؤها استدعى الامير جمال الدين شاذبخت ، العلامة نجم الدين مسلم بن سلامة من سنجار ليتولى التدريس بها ، لكن الملك الظاهر أمره أن يولى بدله موفق الدين بن النحاس ، فكان أول من درس بها • وتقع المدرسة فى السوق المعروفة باسم سوق الغرب ، وهى تعرف حاليا باسم جامع المعروف (٦٨) (أنظر شكل ٣) •

ومن المــدارس ذات الايوانين بحــلب المدرسة الظاهرية الجوانية أو السلطانية التى بدأ فى تأسيسها الملك الظاهر بن صلاح الدين الا أنه توفى سنة ٦١٣هـ (سنة ١٢١٦م) قبل اتمامها (٦٩) وبقيت مدة بعـــد وفاته حتى شرع فى تكملتها شــــهاب الدين طغرل أتابك الملك العــزيز فعمرها وأكملهــا ســنة ٦٢٠هـ (سنة ١٢٢٣م) • وقد كانت المدرسة مشتركة فقد خصصت لتدريس مذهبى الشافعية والحنفية ، وقد درس بها القاضى بها الدين بن شداد ، وولى نظرهــا القاضى زين الدين أبا محمــد عبد الله الاسدى قاضى قضــاة حلب (٧٠) • ويحلق بالمدرسة ضريح تعلوه قبة (٧١) ، هى تربة الملك الظاهر • (أنظر شكل ٥) •

وقد أيشأ الشيخ الامام شرف الدين (٧٢) أبو طالب عبد الرحمن بن أبى صالح المعروف بابن العجمى مدرسة بحلب عرفت «بالاشرفية» وقد صرف عليهــا ما ينيف على أربعمائة ألف درهم ووقف عليها أوقافا جليلة ودرس فيهــا ولده محيى الدين ، وكانت مخصصة للشافعية وللحديث النبـــوى الشريف (٧٣) • وتقــع المدرسة الاشرفية فى سويقة حاتم على مقربة من الزاوية الشمالية من الجامع الكبير • وقد اختلف علماء الآثار فى تاريخ هذه المدرسة ، فبينمــا نجــد هرتز (٧٤) يؤرخهـــا اســـتنادا عــلى روايات غير واضــحة لابن شداد (٧٥) ما بين سنة ٥٩٥ هـ ــ ٦٣١ هـ (ســنة ١١٩٨م ـ ١٢٣٤م) ، نجــد كرزويل يؤرخها اعتمادا على طرازها المعمارى حوالى سنة ٦٤٠ هـ (٧٦) (ســنة ١٢٤٢ م) • وكانت

---

(٦٧) Herzfeld: Ibid P.P. 225 - 60.

(٦٨) اسعد طلس: الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ص ٧٣ •

(٦٩) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ١١٣

(٧٠) اســعد طلس : الآثـــار الاســلامية والتاريخية فى حلب ص ٧٤

(٧١) Lau ffray (j): Une Madrassa Ayyoubide de la Syrie Nord P.P. 50-66.

(٧٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص ١٠٦

(٧٣) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس جـ ١ ص ٤٧

(٧٤) Herzfeld: Ars Islamica. P.58 (XI, XII.)

(٧٥) ابن شـــداد : المرجع السابق ص ١٠٧

(٧٦) Creswell: The cruciform Madrassa P. 69.

المدرسة مخصصة لتدريس المذهب الشافعي كما جاء في وقفية المنشىء (٧٧) • (أنظر شكل ٨) •

ومن المدارس القليلة ذات الايوانين في حمص المدرسة العصرونية ، التي تقع عند باب حمص على ضفة نهر العاصى قرب بستان الجبل ، أنشأ هذه المدرسة الامير نجم التوتان بن ياروق سنة ٥٨٤هـ (سنة ١١٨٨م) وكانت مخصصة للحديث والقرآن • وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون جددها (٧٨) وعمر مسجدها وحبس عليها الكثير من الاوقاف محمد بن محمد بن أبى بكر الشافعى (٧٩) • وقد حرص الواقف على تسجيل شرط الاقامة فى المدرسة منقوشا على بابها ، وهو أشبه ما يكون باللائحة الداخلية للمعاهد بمفهومنا الحالى ، ومن ثم فمن الفائدة نقله عنا ، فهو من أصدق الادلة التى توضح حالة المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى من الناحية الثقافية والاجتماعية • فقد جاء فى النص ما يلى (٨٠) : أمر بعمل هذه المدرسة المباركة السيد الفقير الى الله تعالى محمد بن محمد ابن أبى بكر الشافعى خلاقبلها وما استثنى جعلها دار قرآن • ووقف عليها أوقافا كثيرة ليسكن فى هذه الديار من فقراء المسلمين الغرباء مقيمين بها ليلا ونهارا يتلون كتاب الله ويتذاكرونه بينهم ويدعون للواقف ولوالديه وللمسلمين بالنصر • وقرر بها شيخين يعلمون الفتية القرآن الكريم ، وشرط أن يكون مدة اقامة الفقير خمس سنين فان ختم القرآن أو مضت المدة المعينة فيكسى ثوبا أو جبة ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم فى شوال سنة خمس عشرة وسبعمائة •

ومن أقدم المدارس ذات التخطيط المتعامد (٨١) ليس فى دمشق وحدها بل فى العالم الاسلامى كله ، المدرسة النورية (٨٢) • أنشأها الملك العادل نور الدين زنكى ابن آق سنقر وابتدأ العمل فيها سنة ٥٦٣ هـ (٨٣) وتمت فى سنة ٥٦٧هـ (سنة ١١٧٢م) • ويقول النعيمى (٨٤) انها حلت محل بعض دار هشام بن عبد الملك بن مروان ، وكانت قبل ذلك دارا لمعاوية بن أبى سفيان • وقد خصصت المدرسة للمذهب الحنفى والقراءات وللحديث النبوى الشريف • وأول من درس بها بهاء الدين ابن العقادة ، وكان شيخا فاضلا مشهورا وظل

---

(٧٧) Bidiar (sh) Habous ou Wakf daus le droit de l'Islam P. 117
محمد محمد أمين : تاريخ الاوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (رسالة دكتوراه لم تنشر) ج ١ ص ١٠٦

(٧٨) اسعد طلس : الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ص ٧٩

(٧٩) Bidiar (sh): Op. c.t P. 136.

(٨٠) Herzfeld: Materiaux pour un corpus. P. 272

(٨١) Creswell: The Origin of the Crusiform Madrassa P. 31-33.

(٨٢) النعيمى : الدارس ج ١ ص ٦٠٦
جاء فى النعيمى ج ١ ص ٦٠٦ وكذا فى خطط الشام لكرد على ج ٦ ص ٩٧
وابن قاضى شهبة : الكواكب الدرية فى السيرة النورية • ط • بيروت •

(٨٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (دمشق) ص ٢٠٣

(٨٤) الدارس فى تاريخ المدارس ج ١ ص ٦٠٧ •

الى أن توفى بها • وتقع المدرسة الآن فى منطقة الاسواق الى الجنوب من سوق الحميدية •

وتعتبر المدرسة الظاهرية بحلب من أتم وأفضل النماذج للمدارس ذات التخطيط المتعامد فى بلاد الشام (٨٥) ، وهى تشبه الى حد كبير مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالقاهرة أنشأها السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازى بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، وانتهت عمارتها فى سنة ٦١٠ (٨٦) • وأنشأ الى جانبها تربة ، رصدها ليدفن بها من يموت من الملوك والامراء • وفوض النظر فى المدرسة الى القاضى بهاء الدين أبى المحاسن بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد • وكذا شرف الدين أبى طالب بن العجمى وشرط أن يكون مشاركا للقاضى بهاء الدين مدة حياته ويستقل بها • بعد وفاته ثم لعقبة (٨٧) • وكانت المدرسة مخصصة لتدريس المذهب الشافعى (٨٨) والقراءات والحديث النبوى الشريف ، وأول من درس بها ضياء الدين أبو المعالى محمد بن الحسن بن أسعد بن عبد الرحمن العجمى، وحضر تدريسه السلطان الملك الظاهر بنفسه، ودعى اليه كبار العلماء والفقهاء وكبار رجال الدولة • وقد استمر الشيخ العجمى يدرس فيها الى أن توفى سنة ٦٢٥ هـ (٨٩) بدمشق عند عودته من الحجاز فحمل الى حلب ودفن بها •

ومن المدارس القديمة بدمشق التى تستحق الذكر المدرسة العادلية (٩٠) التى يرجع أول منشىء لها الى نور الدين زنكى ،ولكنه توفى قبل اتمامها ، فتولى أمرها الملك العادل سيف الدين ولكنه توفى كذلك دون أن تتم ، فأكملها الملك المعظم (٩١) • وقد خصصت المدرسة للشافعية وأول من درس بها جمال الدين المصرى قاضى القضاه بالشام (٩٢) • وهى تقع على بعد مائة متر (٩٣) من الزاوية الشمالية الغربية للجامع الاموى ، وتقابل تماما مدرسة وقبة الملك الظاهر وشرقى الخانقاه الشهابية ، وجنوب غرب الجاروخية (٩٤) • وقد الحق بالمدرسة ضريح نقل اليه رفات المنشىء (٩٥) الاول بعد أن نقل من قلعة دمشق (انظر شكل ٦) •

وكانت المدرسة العادلية فى القرن السابع الهجرى منبرا من منابر العلم والاشعاع الدينى ، ففى العادلية وضع أبو شامة تاريخ الروضتين فى أخبار الدولتين وفى العادلية عمل

---

(٨٥) Sauvaget: Les Monuments historique de Damas P. 54.

(٨٦) اكرم ساطع : المدرسة الظاهرية بحلب (الحوليات الاثرية السورية سنة ١٩٦٥) ص ٤٧ ـ ٥٤

(٨٧) ابن شداد : الاعلاق الخطرة (حلب) ص ١٠٧

(٨٨) أكرم ساطع : المدرسة الظاهرية بحلب ص ٥٢

(٨٩) عادل نجم عبو : المدرسة فى العمارة الايوبية فى سورية (الحوليات الاثرية العربية السورية سنة ١٩٧٤م) ص ٨٤

(٩٠) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ٢١٤

(٩١) النعيمى : الدارس جـ ١ ص ٣٥٩

(٩٢) ابن شداد : الأعلاق الخطرة (دمشق) ص ٢٤٠

(٩٣) عادل نجم عبو : المرجع السابق ص ٨٦

(٩٤) النعيمى : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥٩ ٣٥٩

(٩٥) ابن شداد : المرجع السابق (دمشق) ص ٢٤٠ •

ابن خلكان كتابه المشهور ، وعلى باب العادلية كان يقف ابن مالك النحوى يدعو الناس لحضور درسه مناديا ، هل من متعلم هل من مستفيد(٩٦) وفى العادلية نزل ابن خلدون الفيلسوف العربى فى القرن التاسع الهجرى ، ويشغل العادلية اليوم المجمع السورى (٩٧) .

وبرغم كثرة عدد المدارس التى أنشئت فى بلاد الشام فى العصرين الايوبى والمملوكى الا أننا لم نعثر فى المصادر أو المراجع التاريخية على مايفيد أن الدولة كان لهاسياسة معينة تسير وفقها هذه المدارس أو تلتزم بأحكامها . الا أن حجج الوقف والحبوس التى حبست عليهـا كانت بمثابة الدستور الذى نظم الحياة بتلك المعاهد الدراسية ، اذ لم يقتصر أثر الاوقاف على الموارد المالية فحسب بل شمل كذلك كافة الجوانب التعليمية والدينية والادارية (٩٨) . ومن ثم فانه يمكن القول بأن حجة الوقف كانت أشبه ما يكون باللائحة الاساسية للمدرسة (٩٩) التى تضم الاسس التربوية للتعليم موضحا بها الشروط الواجب توافرها فى الدارس والمدرس على حد سـواء وما يتبـع ذلك من النظـم والقواعد الادارية والمالية .

فالاوقاف بالنسـبة للمدارس والخوانق والزوايا والربط هى بمثابة الروح للجسد ، اذ لا يمكن أن يقوم لأى منهـا قائمة بدونها فهى التى تثبت أركانها وتعمل على اسـتمرار أداء رسالتها (١٠٠) ، و فى ذلك يقول المقريزى (١٠١) عن المدرسة الناصرية التى أنشأها صلاح الدين الايوبى فى مصر « ولولا ما يتناوله الفقهـاء من المعلوم بها لخربت » .

وفيما يختص بالتخطيط المعمارى فانه كان يحدد تبعا للدروس التى تدرس فى كل مدرسة ، فقد أمدتنا الاوقاف بمعلومات وافية فى هـذا الميدان خاصة عن مدارس مصر فى العصـور الوسطى التى كانت لا تختلف كثيرا عن مدارس الشام ، فقد كانت الوقفية تحرص على تحديد الدروس التى تلقى فى كل ايوان (١٠٢) .

أما عن الشروط التى يجب توافرهـا فى المدرس فهى أن يكون من أهل العلم والصلاح

---

(٩٦) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٨٥
(٩٧) عادل نجم عبو : المدرسـة فى العمارة الايوبية فى سوريا (الحوليات الاثرية العربيـة السورية سنة ١٩٧٤م) ص ٨٦
(٩٨) — Crecelius (D): The organisation of Wagf Documents in Cairo vol. I.P. 117 (International Journal of Middle East studies combridge University Press 2. 1971).
— Hassanein Rabie: «some financial aspects of the WAGF System in Medieval Egypt» in المجلة التاريخية المصرية vol. 18 (1971) PP. 3-24.
(٩٩) Ibrahim Salama: L'Enseignement Islamique en Egypt P. 67.
(١٠٠) عبد الجليل عبد الرحمن عشـوب : كتاب الوقف ص ٣٧
(١٠١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٦٣
(١٠٢) أنظر عن مدارس مصر : حجـة وقف جمال الدين الاستادار رقم (١٠٦) محفظة (١٧) بالمحكمة الشرعية وحجة وقف السلطان حسن بن الناصر محمد بن قـلاوون رقم (٨٨١) أوقاف (٤٣٥ ، ٤٣٦) وغيرهما كثير .

عالما بمذهب أحد الائمة ، له قدم عال فى شروط السادة الصوفية ، حسن الهيئة سنى الاعتقاد حافظا لقول الفقهاء وأقاويل العلماء ، واختلاف المذاهب آهلا للتدريس والفتوى (١٠٣) •

وقد حرص الناس على تنفيذ شرط الواقف حتى أصبحت هذه الشروط أصولا يعمل بها حتى ولو لم ينص عليها (١٠٤) • بل وصل الامر الى الحد الذى كانت فيه المدرسة تأخذ مكانتها من مكانة المدرس وسمعته العلمية والخلقية ، اذ أن سمعة المدرس هى التى تجذب الطلبة الى المدرسة من مختلف الانحاء (١٠٥) ، ومن ثم حرص الواقف على النص أن يكون المدرس على درجة كبيرة من العلم والثقافة والتقوى (١٠٦) •

وكانت حجج الوقف تنص فى بعض الاحيان على كتب بعينها كحد أدنى لما يجب على المدرس أن يلقنه للطلاب ، فقد نص على أن يكون المدرس « قادرا على القاء دروس على الطلبة من الكشاف للزمخشرى (١٠٧) ومن المفتاح للسبكى (١٠٨) ومن الهداية فى فقه مذهب الامام أبى حنيفة (١٠٩) ومن البردوفى فى أصول الفقه • وعلى مدرس الحديث أن يعتمد على كتب الحديث القائمة على كتب الرقائق (١١٠) •

وكان يعين بكل مدرسة عدد معين من المعيدين عليه أن يجلس مع الطلبة قبل الدرس أو بعده لمساعدتهم على استيعاب دروسهم ، ويشرح لمن احتاج الشرح ، « ولا يمنع فقيها أو مستفيدا ما يطلب من زيادة وتكرار وتفهم معنى ولا يقدم أحدا من الطلبة فى غير نوبته الا لمصلحة ظاهرة (١١١) • وكان يحدد عدد الطلبة بكل مدرسة بكل فرقة تبعا لمواردها المالية ، على ان أقصى عدد تضمه الفرقة الواحدة خمسين طالبا ، يقيم نصفهم فى المدرسة والنصف الآخر يتردد عليها (١١٢) كما يحدد لكل طالب جراية ومعلوم يتقاضى بعضها هلالية وأخرى خراجية (١١٣) •

---

(١٠٣) القابسى : الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ص ٢٩٤ (دراسة ونشر د • احمد فؤاد الاهوانى) •

(١٠٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٦٤

(١٠٥) ابن سحنون : آداب المتعلمين ص ٣٥٩

(١٠٦) السبكى : معيد النعم ص ١٠٥

(١٠٧) الزمخشرى : الكشاف فى تفسير القرآن الكريم

(١٠٨) السبكى : المفتاح فى البلاغة

(١٠٩) المرغنيانى : الفقه الحنفى •

(١١٠) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٧ (حاشية «١») •

رقائق الحديث النبوى باب خاص من أبواب الحديث النبوى • سميت كذلك لان فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقيقا •

(١١١) النويرى : نهاية الارب جـ ٣٠ ورقة (١٥) •

(١١٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣١ •

(١١٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٦٨

وكان اليــوم الدراسى يبـدأ من طلوع الشـــمس الى آذان الــعصر (١١٤) ، وكــان المدرس يختار الوقت المناسب أثناء النهار على أن تقتصر فترة الدراسة الفعلية على ما يقرب من ثلاث ساعات . أما أيام الدراســة فكانت تتراوح بين أربعة أيام أو خمسة من كل أسبوع خلا أيام الاعياد وأيام التشريق (١١٥) وأيام شهر رمضان وغير ذلك من أيام البطالة عــلى العادة الجارية (١١٦) ، أما الاجازات السنوية فكانت شهر رجب وشعبان ورمضان والعشرين من شوال من كل سنة .

وكانت كل مدرسة تحتوى على عدد من الكتب والمراجــع يتفق والاوقاف المحبوســة عليها . ومما يجــدر ملاحظتــه أن المجتمــع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرن الســادس والسابع كان يقبل اقبالا منقطــع النظــير فى التردد على مكتبات والمدارس (١١٧) ، ممــا يدل على مبلغ ما كان عليه المجتمع من التقدم الثقافى ، لذلك فقد حرص منشئو المدارس على أن يســجلوا فى حججهــم الشروط الــواجب مراعاتها فى « خــازن الكتب » أو « شــاهد خزانة الكتب (١١٨) » فقد كان يشترط فيه أن يكون أحد العلماء أو الادباء ليكون عونا للطلبة والباحثين وارشادهم الى ما يحتاجون اليه من المراجع (١١٩) ، كما يشترط أن يكون أمينــا ثقة خيرا يقظا فطنا ، قادرا على خدمة الكتب عارفا بترتيبها (١٢٠) .

كما حدد نظام الاطلاع والاستعارة ، فى كثير من الاحيان حرم « خروج الكتب نهائيا ، بل حرم الاطلاع الداخلى على من يعرف عنــه التفريط . وخوفا عليها من الضياع كان عــلى « الخازن » أن يقوم بكتابة أســماء الوافدين عــلى المكتبة فاذا ما أعادوا الكتب التى كانوا يطلعون عليها مسح أسمائهم (١٢١) .

---

(١١٤) حجة وقف جمال الدين الاستاد ارص ٢٩ (دراسة ونشر د . عبد اللطيف ابرهيم) .
(١١٥) أيام التشريق هى أيام العيــد وكذا الايام الثلاثة التى تعقب عيد الاضحى .
(المنجد : قاموس اللغة والآداب والعلوم ص ٣٨٤ .
(١١٦) محمد محمد أمين : تاريخ الاوقاف فى مصر ج ١ ص ٣١٩
(١١٧) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٩٨ .
(١١٨) عبداللطيف ابراهيم : المكتبة المملوكية ص ٢٩ .
(١١٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٤٦
(١٢٠) محمد محمد أمين : تاريخ الاوقاف فى مصر ج١ ص ٣٢٧
(١٢١) محمد محمد أمين : المرجع الســابق ج١ ص ٣٣٠

٣ ـ الخوانق والزوايا (١٢٢) :

ومن العمائر والمنشـآت الدينيـة التى لعبت دورا هاما فى المجتمع الاسـلامى عامة وبلاد الشام بصفة خاصة منذ القرن السادس الهجرى ، الخوانق ، وقد عدد لنا ابن شـداد وابن الشحنة وابن العديم (١٢٣) وغيرهم عدد الخوانق الموجودة بعواصم سـورية الثلاث ، فقالوا ، أن عدد ما بحلب فى الشمال حتى نهاية القرن السابع الهجرى كان ثمان وعشرين خانقا منها سبع للنساء . وتحتوى العاصمة الوسطى دمشق عـلى ثمان وثلاثين خانقاه ورباط أما العاصمة الجنوبية ، القدس ، فتحتوى عـلى سـبع وعشرين خانقاه ورباط وزاوية ، هـذا بخلاف ما فى هذه المدن وغيرها من الاضرحة والمزارات التى لا نستطيع أن نأتى لها عـلى حصر .

لقد بدأت جماعة الصـوفية تلعب دورا هاما وخطيرا (١٢٤) فى المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام بعد أن اكتمل لها مقوماتها فى القرن الرابع الهجرى ، اذ لم يعد دورها محـدودا بالزهد (١٢٥) والتقوى فحسب بل أصبح لها كيانها العقلى والروحى ، ومن ثم فقد تصدى العلماء والفقهاء بعد أن كثر عددهم واشـتهر أمرهم فاتهموهم بالكفر وفساد العقيدة ، بل اعتبروهم خطرا على المجتمـع (١٢٦) وكانت النتيجة الطبيعية لهـذا الهـجوم والاضطهاد للصوفية أن كونوا لأنفسـهم جماعات أشـبه ما تكون بالاحـزاب ، ولكل فرقة أو جمـاعة مبادئها وأصولها وشيخها وأتباعها ، وعلى كل صوفى أن يأتمر بأوامر شـيخه ومرشـده . وهكذا تكونت الصوفية الجماعية بعد أن كانت صوفية فردية (١٢٧) ، ومن ثم فقد أصـبح من الضرورى لمثل هـذه الفرق والجمـاعات المنظمة أن تتخذ لها أماكن خاصة بها هى التى عرفت بالخوانق أو الخانقاوات (١٢٨) .

---

(١٢٢) الخانقاه : كلمة فارسـية تتكون من لفظين ، خوان بمعنى الاكل وجاه بمعنى المكان ، وكان يطلق على المكان الذى يأكل فيـه الملك ، ثم اطلقت بعد ذلك على مكان الصوفية (هنداوى : الالفاظ الاعجمية حرف (خ) . ويقول المقريزى فى تفسـيرها : ان معنـاها بيت ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف (الخطط والآثار : جـ٢ ص ٤١٤ ، السلوك جـ١ ص ١٨٢ حاشية «٤»)

(١٢٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ٩٣ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١١٧ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٢٢٧ .

(١٢٤) Ali Shah: Islamic Sufism. P. 15

(١٢٥) المناوى : الكواكب الدرية جـ١ ص ٢٠٩ .

(١٢٦) القزوينى : آثار العباد ص ٢٤١

(١٢٧) Nicloson: Studies in Islamic Mysticism. P. 19

(١٢٨) كانت الخوانق الاولى فى القرن الرابع بسيطة لاتنظمها قواعد ، حتى ظهر أبو سعيد ابن ابى الجز الذى وضـع الاسـس الاولى لتنظيم الخوانق حتى عرف باسم (أبو الخانقاه) Nicloson: op. cit 19 أو كما يقول الشيخ نصر (صقر الطريقة) (القزوينى ص ٢٤٢) . وفى القرن الخامس كثرت مؤلفات الصـوفية وتطورت نظمهم الامر الذى أصبح بعضها مثلا يحتذى فى الآداب العامة .. (الغزالى : احياء علوم الدين جـ١ ص ٣ ، القشيرى : الرسالة ص٣ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ٢ ص ٢٤٨) .

ويعتبر القرن السادس (١٢٩) الهجرى عصر انطلاق للصوفية فى بلاد الشام ، فقد انتشرت بين طبقات الناس الذين عرفوا الكثير من مبادئها وأصولها التى صاغها الشعراء ، حتى اتخذ منهم الملوك والسلاطين جلسائهم وانتصحوا بنصحهم مثل علاقة الخيوشانى وصلاح الدين (١٣٠) • وكذلك كانت الصوفية موضع ثقة المجتمع على اختلاف طبقاته ، ومن ثم فقد سعوا لاصلاح ذات البين بين مذاهب السنة والشيعة والتقريب بينهما (١٣١) •

وقيل أن أول خانقاه بنيت فى بلاد الشام للصوفية كانت برملة بيت المقدس بناها « أمير النصارى » (١٣٢) حين استولى الفرنج على الديار القدسية ، ويبين محمد كرد (١٣٣) على السبب فى ذلك فيقول : ان امير النصارى رأى طائفة من الصوفية والفتهم فى طريقتهم ، فسأل عنهم ، ما هذه الالفة والصحبة والاخوة الخاصة بينكم ؟ فقالوا له « الالفة والصحبة لله طريقتنا » ، فقال لهم : « ابنى لكم مكانا لطيفا تتآلفون فيه وتتعبدون » • فبنى لهم تلك الخانقاه • وتشبه الخانقاه من حيث التصميم المعمارى الى حد كبير المدرسة ، إذ ان كلا منهما يحتوى على عدد من الايوانات قد تكون اثنان أو أربعة ، الا أن المدرسة تحتوى على غرف لاقامة الطلاب ، أما الخانقاه فتحتوى على خلاوى للصوفية (١٣٤)•

ومن أحسن الامثلة للخانقاة ذات التخطيط المتكامل وأقدمها فى حلب، خانقاه البلاط (١٣٥)• انشاها شمس الخواص لؤلؤ الخادم (١٣٦) عتيق الملك رضوان بن تاج الدولة تتش وذلك سنة ٥٠٩ هـ/ سنة ١١١٥ م • وعرفت باسم البلاط لانها تقع فى سوق البلاط (١٣٧) • وكانت الخانقاه موقوفة على الفقراء المتجردين دون دون المتأهلين بحلب ، ثم هجرت واتخذت بيتا الى أن احياها الشيخ علاء الدين الجبرتى بنفقة الامير تغرى بردى (١٣٨) •

ومن جوانق حلب القديمة خانقاه مجوشى (١٣٩) ، انشاها بيرم مولى (ست حادم) بنت اليغسانى خاله صلاح الدين الايوبى وذلك فى دهليزدار الملك المعظم • وهى من الخوانق

---

(١٢٩) المناوى : الكواكب الدرية جـ٢ ص١٠٦، Nicoloson: op. cit. P. 21.
(١٣٠) سعاد ماهر : مساجد مصر جـ٢ ص٢١٧ ، المناوى : المرجع السابق جـ٢ ص١٠٤ •
(١٣١) ابن الاثير : جـ٨ ص ١١٣
(١٣٢) ابن الاثير : جـ٨ ص ١١٩
(١٣٣) خطط الشام : جـ٦ ص ١٣٣
(١٣٤) Creswell: Muslim Architecture in Eypt vol. II P. 129.
سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ٣ ص ١٢
(١٣٥) النعيمى : الدارس جـ٢ ص ١٩٥
(١٣٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ص ٩٣
(١٣٧) يعرف هذا السوق الآن بسوق الصابون (محمد كرد على : خطط الشام جـ٦ ص٦٤٤)
(١٣٨) النعيمى : المرجع السابق جـ٢ ص١٩٦
(١٣٩) ابن شداد الاعلاق الخطيرة (حلب) ص٩٥ ، لم يذكر تاريخ الانشاء ومن المرجح أن تكون من نهاية القرن السادس •

الجامعة ، اذ أنها تحتوى على مقومات الجامع والمدرسة والخانقاه ، كما أحتوت على عدد كبير من الخلاوى التى يسكنها الصوفية •

وتعتبر خانقاه الملك المعظم (١٤٠) بحلب من الخوانق الهامة ، أنشأها الملك المعظم مظفر الدين كبوكبورى بن زين الدين على كوجك أربل (١٤١) وماتزال الخانقاه (١٤٢) تحتفظ بتاريخ انشائها ، وكذا تاريخ تجديدها منقوشا على مدخلها الرئيسى ، جاء فيه :جددت هذه الخانقاه المباركة فى دولة الملك الظاهر أبى المظفر ابن الملك الناصر يوسف ابن ايوب(١٤٣) وحبس عليها الحبوس ، الامير زين على ابن بكتكين سنة ثلاثين وستمائة (١٤٤) •

ومن حوانق القرن السابع الهجرى فى حلب خانقاه القطيسية (١٤٥) بحلب ، أنشاها سعد الدين بن عز الدين أبيك المعروف بقطيس المتوفى سنة سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٤١ م) وهو عتيق عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك • كانت فى الاصل دارا يسكنها ثم حولها مدرسة ووقفها وأنشأ بجوارها خانقاه والحق بها قبة دفن بها (١٤٦) •

ومن الخوانق النسائية بحلب ، خانقاه ضيفة خاتون (١٤٧) ، أنشأتها الملكة خاتون بنت (١٤٨) العادل سيف الدين أبى بكر ام الملك عبد العزيز محمد صاحب حلب وذلك سنة ٦٣٥هـ (سنة ١٢٢٧ م) ، وقد عرفت كذلك باسم الخانقاه الناصرية ، وذلك لانه قد نقش على بابها انشئت زمن الناصر يوسف بن أيوب (١٤٩) •

وخانقاه الست (١٥٠) بحلب من الخوانق التى الحقت بها قباب ، أنشأتها الست أم الملك الصالح اسماعيل (١٥١) بن الملك العادل نور الدين تحت القلعة سنة ٥٧٨ هـ وبنت الى جانبها تربة (قبة) دفنت بها ولدها الملك الصالح (١٥٢) •

---

(١٤٠) النعيمى : الدارس جـ٢ ص١٥٦
(١٤١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (حلب)
(١٤٢) Herzfeld: Corpus XII P. 122.
(١٤٣) محمد كرد على : خطط الشام جـ٦ ص ١٤٥
(١٤٤) وهى تقع فى المحلة التى كانت تعرف بالسهيلة ، ثم عرفت بسويقة حاتم (ابن الشحنة الدار المنتخب ص ١١٧ ، وهى تعرف الآن بالزينية وهى تقع من هذه المحلة بزقاق يقال له زقاق الفرن داخل الخانقاه يشبه تخطيط المدرسة ذات الايوانين Creswell: MuslimArch. in Egypt vol. II P. 119
(١٤٥) النعيمى : الدارس جـ٢ ص ١٥٦
(١٤٦) محمد كرد على : خطط الشام جـ٦ ص١١١ ، ص ١٤٦
(١٤٧) جاء فى ابن شداد (ص ٩٣) انها للنساء ولكن غير واضح اذا كان المقصود أن من بناها نساء أم انها مخصصة للمتصوفة من النساء ، خاصة وانه بين الخوانق النسائية من بناها رجال •
(١٤٨) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١١٥
(١٤٩) ولكنه لم يأت بالنص كاملا ولم نر اسم الناصر • Herzfeld: Corpus XII P. 129.
(١٥٠) النعيمى : الدارس جـ٢ ص١٣٧
(١٥١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ٩٣ •
(١٥٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٤٧

وتزخر كذلك عاصمة سوريا الوسطى ،دمشق بالعديد من الخوانق من أقدمها خانقاه السمسماطية (١٥٤) انشأها أبو القاسم على بن محمد بن يحيى السلمى المعروف باسم الجحيشى السمبساطى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ (سنة ١٠٦٢ م) وهو من علماء علم الهيئة والهندسة وكان من كبار الرؤساء فى دمشق . وكان قد وقفها على فقراء (١٥٥) المؤمنين والصوفية ووقف على الخانقاة وعلى جامع الخانقاة . وجدد هذه الخانقاة تنكز بغا فى العصر المملوكى سنة ٧٢٨ (١٥٦) هـ (سنة ١٣١٨ م) فغير الكثير من معالمها الاصلية ، بحيث أصبحت الآن مدرسة خانقاه ، هذا بالاضافة الى القبة التى دفن فيها منشؤها (١٥٧) . وخانقاه المجاهدية (١٥٨) بدمشق ، تنسب الى مجاهد الدين ابراهيم أخى زين الدين أحمد أمير خازندار الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهى تقع على الشرف القبلى لدمشق ، ثم انشاؤها سنة ٦٥٦ هـ (سنة ١٢٤٨ م) أى فى نهاية العصر الايوبى . وكانت الخانقاه المجاهدية تشبه الى حد كبير المدرسة الصالحية (١٥٩) بالقاهرة ، فهى تشتمل على أربعة ايوانات خصص كل منها لمذهب من المذاهب السنية الاربعة ويكتنف الايوانات خلاوى الصوفية .

ولعل من الاسباب التى أدت الى كثرة اقبال الناس فى بلاد الشام على الخوانق وتهافتهم على سكناها ، الى جانب ازدياد الشعور الدينى ، كثرة ما أوقف عليها من أوقاف . فيحدثنا المقريزى (١٦٠) عن الامتيازات التى كان يحصل عليها ساكن الخانقاه فيقول : أنه رتب للصوفية فى كل يوم ثلاثة أرغفة زنتها ثلاثة أرطال خبز وقطعة لحم زنتها ثلث رطل فى مرق ، ويعمل لهم الحلوى فى كل شهر ويفرق فيهم الصابون ، ويعطى كل منهم فى السنة ثمن كسوة قدر اربعين درهما . ومن اراد السفر منهم يعطى تسفيره واذا مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء . كما كانت الخوانق مأوى لطوائف المريدين يقيمون فيها

---

(١٥٣) النعيمى : الدارس جـ٢ ص ١٣٩

(١٥٤) عرف بهذا الاسم نسبة الى موطنه الاصلى سمبساط وهى مدينة تقع غربى الفرات . (كرد على : خطط الشام جـ٦ ص ١٣٥) .

(١٥٥) لقد كانت الخوانق الاولى لا تفرق بين الفقير العادى وبين المتصوفة الذين عرفوا فيما بعد بالفقراء (دولت عبد الكريم : الخوانق فى مصر فى العصر المملوكى ـ رسالة دكتوراه لم تنشر ص ٢١١) .

(١٥٦) محمد كرد على : خطط الشام جـ٦ ص ١٣٧ .

(١٥٧) وظلت الخانقاه السميساطية ، التى تعتبر أول خانقاه ماتزال قائمة بدمشق ، تحتل مركزا مرموقا بين خوانق دمشق حتى القرن التاسع الهجرى ، فقد كانت وظيفة (شيخ الشيوخ) الذى يتولى أمور جميع الخوانق والفقراء بدمشق واعمالها يتولاها عادة شيخ السميساطية (القلقشندى : صبح الاعشى جـ٤ ص ١١٧) .

(١٥٨) النعيمى : الدارس جـ٢ ص ١٦٩

(١٥٩) Creswell: Muslim Architectur & in Egypt vol. II P. 123
سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ٢ ص ٢٢٧ ، حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(١٦٠) المقريزى : السلوك جـ١ ص ١٨٢ ، على مبارك : الخطط الجديدة جـ٦ ص ٤٨

ليلهم ونهـــارهم ، كما أتخـــذت كـــذلك مأوى لأصحاب العاهات وكبار السن والعميان ، فضلا عن المطلقات من النساء (١٦١) .

كما كان اقبال المجتمع الشامى عـــلى الخوانق يعكس فى بعض مظاهره مدى انتشار الفقر والفاقة واليأس من الحياة ، وخاصة بين طبقة العامة ، مما جعل الكثير يقبلون عـــلى التصـــوف ، فضـــمت الخوانق الكثير من الدخلاء (١٦٢) الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة فى الانقطاع للدين ، ولكن فرارا من قسوة الحياة ورغبة فى الهناء دون عناء (١٦٣) ، حتى وجد من الصوفية من ارتبط بأكثر من خانقاه طمعا فى المال (١٦٤) .

مصر جـ١ ص ٢٦١ .

(١٦٢) محمد محمد أمين : تاريخ الاوقاف فى ص ١٥٩

(١٦٣) عبداللطيف ابراهيم : دراسات تاريخيه (١٦١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٧٠

(١٦٤) المقريزى : الخطـــط جـ ٢ ص ٤١٤ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ١٧٥ ، عبداللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية ص ١٦٠

(١٦٥) كانت الربط فى أوائل العصر الاسلامى نوعا من المبانى العسكرية يسكنه المجاهدون الذين يدافعون عن حدود الدولة الاسلامية بحد السيف . وكانت الاربطة منتشرة فى صدر الاسلام قبل أن ينتشر الدين ويستتب الامن وتأمين الامبراطورية الاسلامية عن حدودها . وكانت فى تصـــميمها المعمارى تشبه التحصينات الحربية فمعظمها عبارة عن أبنية مستطيلة الشـــكل وفى أركانها أبراج للمراقبة . ولما توطدت أركان الدولة الاســـلامية ولم تعد فى حاجة الى المرابطة ، زالت عن الاربطة صفتها الحربية وأصبحت منشآت عامة يرابط فيها العباد والزهاد ويقيم بها المتصوفة .

٣ ـ الربط والزوايا :

لقد لازم بناء المدارس والخوانق بناء الربط والزوايا فى بلاد الشام منذ القرن السادس الهجرى ، بحيث امتلأت المدن والقرى بالعديد منها حتى أصبح من العسير عدها أو احصاؤها • واذا كان الرباط والخانقاه قد تشابها فى بعض أغراض الوظيفة ، اذ كل منهما مكان لايواء الفقراء والصوفية ، الا أن الخانقاه انفردت بأن لها نظم وقوانين يجب أن تتوفر فيمن يريد الالتحاق بها ، فهى أشبه بالمعاهد الثقافية تمنح اجازة لمن يلتحق بها ، كما يشترط فى أن يكون شيوخها من العلماء والفقهاء (١٦٦) • أما الرباط فهى دار لايواء الفقراء من المسلمين وفى ذلك يقول المقريزى : يكون مأوى لفقراء المسلمين ،أو عتقا الواقف أو الجند البطالين ، ولا يكلفون اثبات استحقاق أو زى الفقر (١٦٧) •

أما الزاوية فكانت تنشأ برسم شخص معين ينزوى فيها للعبادة ، فتصبح مقرا له ينقطع فيها وملجأ لبعض مريديه (١٦٨) ، ولعل من أهم الامثلة فى بلاد الشام الزوايا العديدة التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس للشيخ خضر أبى موسى الهرانى العدوى (١٦٩) • وكانت الزوايا تختلف فى نظمها وتقاليدها لايربطها نظام أو أسلوب موحد كما هو الحال فى الخوانق والربط •

ومن الواضح أن هناك علاقة وارتباط بين ظاهرة كثرة بناء الخوانق والربط والزوايا وبين حالة المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى • فمما لاشك فيه أن حالة البطالة والفقر التى سادت البلاد ، أثر الحروب الصليبية والحروب الداخلية ، قد دفعت الكثيرين من طبقة العامة على الاقبال على هذه المنشآت الدينية حيث يجدون مايدفع عنهم الفقر والعوز ويهيىء لهم الامان • أما بالنسبة للحكام والسلاطين ، فقد كانوا يمتصون تذمر الفقراء والمحتاجين الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على ملكهم ، باقامة مثل تلك المنشآت •

---

(١٦٦) المقريزى : الخطط جـ٣ ص ٤٢٨

(١٦٧) المقريزى : المرجع السابق •

(١٦٨) دولت عبد الكريم : الخوانق فى مصر (رسالة لم تنشر من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣) عن ٢٣٦

(١٦٩) توفى الشيخ العدوى سنة ٦٧٦ هـ (سنة ١٢٧٨ م) ، وكان للظاهر بيبرس فيه اعتقاد

٢ ـ العمائر المدنية :

ولعل من أهم العمائر المـــدنية هى الدور والقصور ، وقد حظيت بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجريين بالعديد من القصور الفاخرة والدور الانيقة ولا غرو فقد خططهـا وأحسن تنسيقها مشاهير المهندسـين الذين ذخرت بهم الشام فى تلك الفترة مثـل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثى ، المعروف « بأبو الفضل » (١٧٠) وابراهيم بن غنائم بن سعيد ، الذى أنشأ قصر للسـلطان الظاهـر بيبرس فى مرجة دمشـــق المعروف « بالقصر الابلق » (١٧١) وزخرف واجهته بمائة أسـد منزلة صورها بأسود فى أبيض » • وممن أشتهر فى ميدان البناء فى بلاد الشام ابن واصل ،فقد قام ببناء العديد من الدور والقصـــور وغيرها فى مدينة حماه وصفها وتكلم عنهـــا أبو الفدا (١٧٢) • ومن القصور الشامية التى تغنى بها الشعراء دار الملك (١٧٣) رضوان بحلب •

ومما جاء فى وصف هذه الدار انهـــا كانت بعض أواوينها تحوى رسوما ومناظر تصـــور الحرب من كروفر وفروسية وما الى ذلك •

وقد عرفت دار رضوان لكثرة ما تحويه من صور وتزاويق بدار الشخوص (١٧٤) • أما من تخطيط تلك الدور والقصور ، فانه للاسف لم يبق منها شىء يذكر ، لذلك فقد رأينـــا أن نعتمد على الاطلال الباقية التى عثرت عليهـــا الهيئات الاثرية التى قامت باجراء حفائـــر فى مناطق متعددة من سوريا والتى جمع تفاصيلها كزويل (١٧٥) وخلص الى أن الدور الاسلامية فى بلاد الشـــــام تشبه فى تخطيطها البيت الاسلامى الذى أقيم منذ العصر الاموى مثل قصر خرانة (١٧٦) • وقصر مشتى (١٧٨) وقصر الطـــوبة وقصر خربة المفجـــر (١٩٧) وقصر الحير (١٨٠) الشرقى وقصر الحير الغربى (١٨١)•

وكان الدار فى بلاد الشـــام فى العصــــور الوسطى وظل حتى أوائل القرن العشرين يتكون

---

(١٧٠) أحمد تيمور :أعلام المهندسين فى الاسلام كبير (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٠) • ص ٤٧ •

(١٧١) ابن الطولونى : ذخائر القصر بتراجم العصر ص ٥٩

(١٧٢) أبو الفداء : مختصر أخبار البشر جـ ٢ ص ١٧٨

(١٧٣) محمد كرد علـى : خطط الشـــام جـ ٤ ص ١٢٢

(١٧٤) ابن الاثير : جـ ٧ ص ٣٣

(١٧٥) Greswell: Muslim Architecture in Egypt. vol. IP. 128

(١٧٦) Briggs (M.S): The Saracenic House P. 228 (Burlingtoun Mag XXXVIII 1921).

(١٧٧) Hill gray: Mashita. P. 173 (palastine Explortion fund 1890).

(١٧٨) Grabar Oleg: The Umayyad palace of Kirbat al Mafjar P. 298 (1956)

(١٧٩) Gabriel.A. Kasr el-Wair (Syria VIII 1927) P. 1927.

(١٨٠) Creswell: Another word on Qasr Al-Hair Syria XVIII 1937) P. 232.

(١٨١) Creswell: Early Muslim Architecture vol. IP. 221

من جزئين رئيسيين « المعقـــد » أى الايوان الخاص بالرجال ويقابله ايوان الحريم وعادة ما يفصـــل بينهما فناء الدار ، أو يعلو ايوان الحريم ايوان الرجال اذا كانت مساحة لدار ضيقة (١٨٢) ٠

وقد أمدتنا الوثائق بوصف مفصـــل للقصر والبيت الاسلامى فى العصر الوسيط فـــذكرت الايوانات والدور قاعات (١٨٣) وصحن الدار وما بـــه من حـــدائق وبســـاتين يتوسطهـــا انشاذروانات (١٨٤) والمقاعد الشتوية والصيفية، وما يلحق بالدور من حمامـــات ومطـــابخ واصطبلات (١٨٥) ٠

ومن المنشآت المدنية التى لعبت دورا هاما فى الحياة الاجتماعية فى العالم الاســـلامى فى العصر الوســـيط ، الحمام وقـــد أحصى ابن شداد (١٨٦) عدد الحمامات الموجودة فى الدور بحلب قرابة مائتى حمام منها خمسون ملحقة فى القرن السابع الهجرى ، فقال انه يوجـــد بالدور والبساتين ٠ كما عدد حمامات دمشق فى القرن السابع فوجد أنها تبلـــغ مائة واثنتين وعشرين حماما ٠ وهذا العدد الضـــخم مـــن الحمامات انما يدل على تقدم حضارى يتجلى فى النظافة واتباع التعاليم الصحية (١٨٧) ٠

أما عن التصميم المعمارى للحمام الاسلامى فى بلاد الشام فقد ظل طراز واحـــد لم يتغير الا فى التفاصيل والزخارف ٠ فقد كان الحمام يتكون من ثلاثة اجزاء رئيسية (١٨٨) ،غرفة لخلع الملابس تكبر وتصغر حسب الحاجة ، اذا كان الحمام خاصا أو عاما ٠ ويلى مكان خلع الملابس غرفتان متصـــلتين ببعضـــهما ، الاولى دافئة والثانية حارة يتوسطها فسقية تخرج منهـــا صنابير المياه الحارة ٠ وكان سقف الحمام عادة مغطى بأقباء متقاطعة أو قباب ضحلة أما غرفة المياه الساخنة فتغطى عادة بقبة مرتفعة ٠

على أن تصميم الحمام الاسلامى لم يكن من اختراع أو ابتداع (١٨٩) المسلمين ، فقد صممه الرومان من قبل وأخذه عنهم العرب ٠ ومن أقدم الامثلة للحمامات الاسلامية التى ماتزال باقية حمـــام قصير (١٩٠) عمرا ، الذى يرجـــع الى العصر الاموى ، وكذا حمام الصرح وهمـــا حمامان

---

(١٨٢) Briggs: op. cit P. 230.
(١٨٣) الدركاه لفظ فارسى ومعناها العتبة أو الساحة التى تلى الباب وتؤدى الى داخـــل القصر أو المدرسة أو الخان أو غيره (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٥٧ نشر زيادة حاشية «٥») ٠
(١٨٤) الشاذران : الفسقية ٠
(١٨٥) عبد اللطيف ابراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ص ٦
(١٨٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (دمشق) ص ٢٩١ ، حلب ص ١٢٨
(١٨٧) يوسف عبد الهادى : عدة الملمات فى تعداد الحمامات ٠
(١٨٨) Herzfeld: Amra (Kusair Amra, the little castle of Amra) Article in the Encyclopaedia of Islam. I P. 336 (1910).
(١٨٩) Creswell: Early Muslim Architecture vol. I P. 227.
(١٩٠) Musil, (Alois): Kuseyr' Amra undere Schlosser ostlish von Moab. P. 51.

للاستراحات الصحراوية التى كان يستخدمها الخلفاء والامراء فى رياضة الصـــــيد فى بادية (١٩١) الشام • وقد ورد وصف الكثير من الحمامات التى ترجع الى العصر المملوكى فى الوثائق والوقفيات ، مثل حمام الكرك المحروس الذى جاء وصف عمارته ومساحته واقســامه المختلفة فى وثيقة السلطان شعبان (١٩٢) •

---

(١٩١) Briggs: The Saracenic House. P. 234

(١٩٢) يشتمل الحمام على مسلخ بأربع قناطر حجارة بجنب سراويل ،وعليه قبة معقودة بالطوب الاجر وبه ايوانان شرقى وغربى وبهما مقصورتان معقودتان بالحجر والطين وفى وسطه فسقية برسم الماء البارد وباب يتطرق منه الى بيت السخن فى دهليز وعن يمين الدهليز بيت البارد يشتمل على قبة وحوض كبير ويتطرق من الدهليز المذكور الى بيت وسطانى يشتمل على قبة وحـوض فيه من جهة القبلة يشتمل على قبة وحوضين ويتطرق منه الى صدر مثمن يشتمل على قبة كبيرة مضلعة وبه مقصورتان قبلية وشمالية تشتمل كل واحدة منها على قبة وحـوضين وفى حائطه من جهـة الشرق خزانة برسم الماء الساخن موضوع بها قـدرتان نحاسان برسم تسخين الماء احداهما كبيرة والاخرى صغيرة ! والحمام مبلط بحجر وللحمام مستوقد وهو قبة معقودة بالطين والحجر » (وثيقة السلطان شعبان رقم ٤٩ محكمة) عن عبد اللطيف ابراهيم: الوثائق فى خدمة الآثار (الوثائق والعمـائر فى العالم العربى) ص ٣٦ فى الحاشية (٤) •

البيمارستانات [١٩٣] :

من المعروف أن أول من أنشأ البيمارستان فى الاسلام هو الخليفة الوليد بن عبد الملك فى بلاد الشام [١٩٤] ، واقتدى به الحجاج بن يوسف الثقفى ، فبنى البيمار ستان وأجرى على المرضى الارزاق وخصص لهم الاطباء لمعاجلتهم • وكانت البيمارستانات فى أول أمرها بسيطة ثم أخذت تتطور حتى اذا كان آخر القرن الثانى للهجرة وحبست عليها الاوقاف الكثيرة ثبتت قدمهـــا وكفل بقاؤها وأدامتها [١٩٥] •

وفى القـــرن الخـــامس للهجرة بلغت انبيمارستانات غايتها ، فقسمت الى أقســـام خصص كل منها لمرض من الامراض ، ولكـل قسم طبيب أو أكثر وعليهم رئيس ، فكان هناك قسم للمرضى الداخلية وأخرى للمجبرين [١٩٦] وثالثة للكحالين [١٩٧] ، ورابعة للطبائعيين [١٩٨] وغيره من الامـــراض • وعادة ما تحتـــوى المستشفى الكبيرة على بستان جميل هـــادىء للناقهين ، يأتى اليه الموسيقيون لتسلية المرضى الناقهين ، واذا ماشفى المريض فانهم يلبسونه ثيابا جديدة ويخرجونه [١٩٩] •

ويرأس كل مستشفى رئيس عام يسمى (الساعور) [٢٠٠] كما يضم الى جانب الاطباء الغلمان (أى الممرض) هذا بالاضـــافة الى الخدم [٢٠١] • كما يلحق عادة بالبيمارســـتان صـــيدلية تكـــون كاملة جـــاهزة بما تحتاجه المستشفى من معاجين • أما التفتيش عـــلى البيمارستانات فكان منوطا بصاحب الحسبة فقدكان عليه أن يتفقد سير العمل بها من النواحى العلمية والعملية والادارية • ولانود أن نسير فى شرح تفاصيل كل مـــا كانت تقـــوم به البيمارستانات فى بلاد الشام فى العصـــور الوسطى ، وسنكتفى هنا بالاستشهاد بما قاله جوستاف [٢٠٢] لوبون من أن مستشفيات العرب كانت من الناحية الصحية أفضل من مستشفيات أوروبا اليوم من حيث سعتها وجمال موقعهـــا ونظافتها وكثـــرة مياهها وتهويتها •

وأما من الناحية التعليمية فهى تشـــبه مستشفيات كليات الطب فى أوروبا فى الوقت

---

١٩٣) بيمارستان كلمة فارســية تتـكون من لفظين (بيمار) بمعنى مريض وستان بمعنى مكان أى مكان المريض أى المستشفى (أدى شير :الالفاظ الفارسية المصرية ص ٤٩) •

(١٩٤) ابن القيم الجوزية : الطب النبـــوى ص ٦٩

(١٩٥) أحمد عيسى :البيمارستانات فى الاسلام ص ٦ •

(١٩٦) محمد الحبيشى : البركة فى فصل السعى والحركة ص ١١٢ (المجبرين أى المكسورين) أو أمراض العظام •

(١٩٧) الكحالون : أى أطباء العيون (ابن القيم الجوزى : الطب النبوى ص ٥٦) •

(١٩٨) الطبائعيون: أى أطباء الامراض الباطنية (أحمد عيسى ص ٧) •

(١٩٩) أمين ســعد خير الله : الطب العربى ص ٢٦

(٢٠٠) ابن القيم : الطب النبوى ص ٧١

(٢٠١) أحمـد عيسى : البيمارســتانات فى الاسلام ص ٢٩

(٢٠٢) جوستاف ليبون : حضـارة العرب ــ ص ٤٩٢ ، ٤٩٣

الحاضر ، فهى ملاجىء للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب • وكان الطلاب يتلقون دروسهم فى فرش المرضى أكثر مما يتلقونها فى الكتب ، ولم تلقدهم جامعات أوروبا فى القرون الوسطى الا قليلا • أما عن سير العمل بالبيمارستان منذ أن يدخل المريض حتى يخرج سليما معافا ، فقد أورده لنا فى تفصيل دقيق وشرح طبى سليم ابن الاخوة (٢٠٣) •

أما عن البيمارستانات فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع فيذكر النعيمى أنه كان بها ثلاثة وثلاثين لعل أشهرها بيمارستان نور الدين زنكى ، وكانت كما يقول صاحب (٢٠٤) الروضتين ، أعظم بيمارستانات دمشق خرجا ودخلا ، ويبين السبب فى انشائها فيقول « ان نور الدين وقع فى أسرة بعض أكابر الملوك من الفرنجة ، فقطع على نفسه فى فدائه مالا عظيما فشاور نور الدين أمراءه ، فالكل أشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين • ومال نور الدين الى الفدى بعد ما استخار الله تعالى فاطلقه ليلا ، فلما بلغ الفرنجى مأمنه مات وبلغ نور الدين موته ، فبنى المال هذا البيمارستان ومنع المال عن الامراء لانه لم يكن عن ارادته » • ومهما يكن من أمر هذه القصة او السبب الذى ساقه أبو شامة ، فان الذى نريد أن ينتهى اليه هو أن نور الدين بنى البيمارستان من ماله الخاص أو آل اليه هو وحده • وقد تولى بناء بيمارستان نور الدين كمال (٢٠٥) الدين الشهرزورى ، وهو الحاكم فى الدولة النورية بدمشق (٢٠٦) •

ويحدثنا ابن جبير عن البيمارستانات فى دمشق فى القرن السادس فيقول : بدمشق بيمارستانات قديم وحديث ، والحديث احفلهما وأكبرهما ، جرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومه بأيديهم الكشوف المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون اليها والادوية والاغذية وغير ذلك • ويبكر الاطباء اليه فى كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم (٢٠٧) • والبيمارستان الآخر على هذا الرسم ، « لكن الاحتفال فى الجديد أكثر (٢٠٨) » •

ويحى الصالحية وعلى سفح جبل قاسيون يوجد بيمارستان القيمرى (٢٠٩) ، الذى أنشأه الامير سيف الدين أبى الحسن بن أبى الفوارس القيمرى وذلك بين سنتى ٦٤٦ ، ٦٥٧ هـ (سنة ١٢٣٨ — ١٢٤٩ م) • وقد أنفق الامير عليه اموالا هائلة كما حبس عليه الكثير من الاوقاف

---

(٢٠٣) ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة جـ ٢ ص ١٦٧ (ملحق رقم ٣) •
(٢٠٤) أبو شامة : الروضتين ص ١٦٢
(٢٠٥) جلال الدين البصروى : تحفة الانام فى فضائل الشام ورقة •
(٢٠٦) أبو شامة : ذيل الروضتين او تراجم الرجال فى القرنين السادس والسابع ص ١٢٥
(٢٠٧) ابن جبير : الرحلة ص ٧٥
(٢٠٨) ويعلق محمد كرد على القديم والجديد فيقول «وأغلب الظن أن الجديد هو البيمارستان النورى (خطط الشام جـ ٦ ص ١٦٢) •
(٢٠٩) ابن طولون : القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ص ٢٥٧

والاملاك من قرى وبساتين وطواحين ، وقد نقش جزء من صيغة الوقف الخاص بالعلاج (٢١٠) بالبيمارستان بالخط النسخي على مدخل الباب الخارجي (٢١١) (أنظر ملحق رقم (٣)) .

ويعد البيمارستان القيمري من أعظم المنشآت المدنية الدمشقية في العصر الايوبي ويكتون من الناحية العمارية من مبنى مستطيل يتوسطه صحن يحيط به من الداخل أربعة ايوانات خصص كل ايوان منها لاستقبال أنواع معينة من المرضى . وقد زود ايوانه الرئيسي القبلي بحوض مياه تصب فيه مياه الشاذوران وذلك لترطيب الجو في فصل الصيف والدواوين مغطاة بأقباء (٢١٢) وتكتنف الايوانات وخلفها غرف للكشف .

وقد حذا المنصور قلاوون حذو البيمارستان القيمري في بناء بيماستانه بالنحاسين بالقاهرة (٢١٣) .

ويعتبر بيمارستان (٢١٤) نور الدين بحلب الذي يقع في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية (٢١٥) من محلة الجلوم الكبرى .وقد توالت على هذا البيمارستان يد الاصلاح والتجديد سجل (٢١٦) الكثير منها على اجزاء من ايواناته وقاعاته . فقد جاء على احدى القاعات التي كانت تستعمل قديما لعلاج النساء ، أنها عمرت في دولة صلاح الدين يوسف سنة ٦٥٥ هـ/ (سنة ١٢٣٧ م) وسجل على الايوان الخاص باستقبال المرضى، أنه عمر أيام السلطان الاشرف شعبان سنة ٧٧٩ هـ (سنة ١٣٦٧ م) كما سجل على احدى القاعات الخاصة بالمنسهلين ، التي كانت سماوية ، أن القاضي شهاب الدين بن الزهدي سقفها .

ويذكر النعيمي تاريخ هذا البيمارستان ،فيقول : « انه كان الاصل من انشاء ابن بطلان (١٢٧) الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ثم جدده نور الدين ووقف عليه أوقافا كثيرة وهو يقع في أصح بقعة » .

وتزخر مدن الشام الاخرى بالبيمارستانات التي ترجع الى القرن السادس الهجري وما بعد ذلك ، فهناك بيمارستانات في حمص ودرعا والقنيطرة ودير الزور وفي اسكندروته (١٢٨) كما يوجد في طرابلس بيمارستان مهم انشأه الامير بدر الدين بن الحاج أبي بكر أحد الامراء بحلب المتوفى (١٢٩) سنة ٧٤٢ هـ .

---

(٢١٠) أحمد عيسى : البيمارستانات في الاسلام ص ٢١٧
(٢١١) نقلت نص الوقفية في ملحق رقم (٣) Herzfeld: corpus XIII P. 125.
(٢١٢) مشاهد دمشق الاثرية ص ٤٩
(٢١٣) Creswell: Muslim Architecture in Egypt vol. II P. 219.
(٢١٤) النعيمي : الدارس جـ ٢ ص ٢٠٣
(٢١٥) محمد كرد علي : خطط الشام جـ ٦ ص ١٦٥
(٢١٦) Herzfeld: Ibid. XIII P. 195.
(٢١٧) أنظر الملحق رقم (١)
(٢١٨) محمد كرد علي : خطط الشام جـ ٦ ص ١٦٧
(٢١٩) ابن العديم : زبدة الحلب ص ٢٠٤

(ج) الاستحكامات الحربية :

واذا ما تناولنا موضوع المنشآت والعمائر فى بلاد الشام وعلاقتها بالمجتمع ، فلابد أن نشير الى الاستحكامات الحربية التى كان المجتمع فى أمس الحاجة اليها ، فقد قضى قرابة قرنين من الزمان فى حروب ومعارك مستمرة . بل نستطيع القول بأن المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، كان مجتمع عسكرى فى الدرجة الاولى يدور فى فلكه ويعمل لانجاز متطلباته كل الطبقات غير العاملة فى العسكر .

ومن ثم فان التحصينات والاستحامات الحربية كانت أهم ما يتجه اليه أنظار حكام بلاد الشام ، والتى ماتزال بقايا الكثير منها تشهد بضخامة تلك العمائر الحربية من أسوار وقلاع وحصون . وكان من الطبيعى أن تحظى مدينة دمشق ، خاصة عندما أصبحت امارة سلجوقية مستقلة عن الدولة الفاطمية بالكثير من التحصينات وخاصة فى عهد ظهير الدين طغتكين الذى تولى زمام الامور فيها ربع قرن منذ(٢٢٠) سنة ٤٩٧ هـ (سنة ١١٠٥ م) .

وتعتبر قلعة دمشق (٢٢١) أقدم الاستكامات الاسلامية بها ، فقد أقيمت مكان دار الامارة التى اتخذها بنو أمية فى « الخضراء » (٢٢٢) ظاهر دمشق . فلما تولى بنو العباس خربوا دور الامويين وسور دمشق وبنوا دار أمارة اطلقوا عليه « القصر » (٢٢٣) لم يزل منزل الامراء حتى أحرقه بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر بالله ونقض أخشابه وشمله الخراب (٢٢٤) . ولم يبق بدمشق دار امارة ملكها تاج الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ (سنة ١٠٧٩ م) فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار امارة وسكنها وبنى لولده رضوان دارا بالقلعة تعرف « بدار رضوان » (٢٢٥) . ولم تزال يد الاصلاح والتوميم تتوالى على القلعة ودار المارة طوال عهد الامراء السلاجقة ، حتى ملك دمشق نور الدين محمود بن زنكى ، فبنى بها دارا حسنة ماتزال حتى الآن تعرف باسمه ، كما أنشأ بها دارا اخرى عرفت بدار المسرة كانت فى غاية الحسن وأنشأ الى جوارها حماما (٢٢٦) .

وماتزال معظم أجزاء القلعة الماثلة حتى اليوم انما ترجع الى العصر الايوبى ، فقد حدث عندما تولى الملك العادل (٢٢٧) بن أيوب ، الملك ، أمر بهدم قلعة دمشق ووزع بناءها على

---

(٢٢٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ١ (دمشق) ص ٣٥
(٢٢١) ابن طولون : الشمعة المضيئة فى أخبار القلعة الدمشقية ص ١٠
(٢٢٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ١ ص ١٨٧
(٢٢٣) الشمعة المضيئة ص ١١ ، ابن عساكر ج ٢ ص ١٣٢
(٢٢٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٩٧
(٢٢٥) ابن شداد : دمشق ص ٣٨ ص ٩٧
(٢٢٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٨
(٢٢٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣١

أمرائه وجعلها اثنى عشر برجا ، كل برج منهـا تبلغ مساحته مساحة قلعة قائمة بذاتها (٢٢٨) . وحفر حولها خندقا وأجرى اليها الماء فجاءت عمارتها أحسن عمارة . فلما تولى ولده الاشرف موسى بن العادل سنة ٦٢٦هـ (سنة ١٢٢٢ م) أقام بالقلعة الدور والقصور . ولما تولى الملك الكامل بنى بها دارا سـميت بالدار الكاملية . وآخر انشاءات الدولة الايوبية فى قلعة دمشق قام بها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فقد بنى بها برجا ضـخما من جهتها الشرقية كان قد تهدم (٢٢٩) .

وفى عصر الملك الظاهر بيبرس جددت القلعة أثر الخراب والدمار الذى لحق بها أثناء الهجوم التترى ، كما أقيم بها برج الزاوية المطل على الميدان ، كما بنى الى جوار القلعة من جهته المدنية حماما ولم تزل القلعة بحالة جيدة حتى سنة ٦٧٥ هـ (سنة ١٢٦٧ م) ويقول ابن شداد انه كان للقلعة فى القرن السابع الهجرى أربعة أبواب (٢٣٠) هى باب الحديد من جهته المدنية وباب يخـرج منه الى باب النصر والى دار السعادة ، وباب من جهة الغرب يخرج منه الى حكر السماق ، كما يوجد لها ثلاثة أبواب سر فى الخنادق (٢٣١) .

أما قلعة حلب وسورها الشهير فقد ظل على ماكان عليه قبل الاسلام ، اذ لم يقم خلفاء بنى أمية ولا خلفاء العباسيين الا بتجديد وترميم ماتصدع من ابراجها (٢٣٢) ولعل أول عمل يعتد به فى العصر الاسلامى هو التجديد الذى حدث فى عهد سيف (٢٣٣) الدولة الحمدانى (سـنة ٣٥٣ هـ /سنة ٩٦٤ م) بعـد أن خربهـا نقفور (٢٣٣) امبراطور الدولة البيزنطية ، فقد جدد ورمم مالحق بسورها وأبراجها . ومايزال البرج الذى يقع الى جانب باب قنسرين من جهة الغرب يحمل اسمه كمـا يحمـل تاريـخ التجديد (٢٣٥) . كذلك بنى بنومرداس ، لمـا ملكوا حلب ، عدة أبراج بالسور وذلك (٢٣٦) (سنة ٤٢٠ هـ / سنة ١٠٢٩ م) .

وقد سجلت لنا ابراج قلعة وأسوار مدينة حلب كل من قام بتجديد أو ترميم فيها ، فقـد سجل اسم نور الدين محمود بن زنكى ، واسم الملك الظاهر غياث الدين غازى (٢٣٧) ، كما سجل

---

(٢٢٨) وقتضـت ظروف الحـرب المستمرة واكتشاف النار الاغريقية ، أن تكون الابراج أكبر مساحة وأكثر ضخامة حتى تستطيع المقاومة لفترة طويلة امتدت قرابة قرنين من الزمان .
المراجع : ابن الاثير ص ١٤٨، ١٤٩، ابن شداد: النوادر السلطانية جـ ٣ ص ١٢٠ ، بن خلكان جـ١ ص ٥٤٣ ، جـ ٢ ص ٥٠٢ ـ ، المقريزى :الخطط جـ ٢ ص ٢٠١

(٢٢٩) ابن الطولونى : الشـمعة لمضيئة فى أخبار لقلعة الدمشقية ص ١١

(٢٣٠) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٣٧٤

(٢٣١) ابن شداد : (دمشق) ص ٤٠

(٢٣٣) ابن العديم : بغية الطالب فى تاريخ حلب (ورقة ١٣٧)

(٢٣٣) أحمد بن على بن عمر بن صالح المنينى: الاعلام بفضائل الشام ص ١٨٤

(٢٣٤) محمد راغب الطباخ : أعـلام النبـلاء بتاريخ حلب الشهباء ص ٣٦٥

(٢٣٥) Herzfeld: Corpus XII P. 113.

(٢٣٦) ابن العديم : زبدة الحلب ص ٢٠٧

(٢٣٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (حلب) ص ١٩ .

اسم حفيده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غياث الدين غازى ، الذى قام بأكبر عمارة فى سور (٢٣٨) وأبراج مدينة حلب ، وذلك سنة ٦٤٢ هـ / سنة ١٢٦٢ • فقد جدد الابراج وزاد فى مساحتها على غرار عمله العادل فى سور مدينة دمشق (٢٣٩) •

ولم تسلم قلعة حلب من التتر فقد عمدوا الى تخريبها وحرق ابراجها وماكان بها من الذخائر والزرد خان والمجانيق (٢٤٠) ، فلما هزم الملك المظفر التتر فى عين جالوت هرب من كان منهم بحلب ثم عادوا اليها مرة ثانية بعد قتل الملك المظفر ، فأحرقوا برجا كان قد أقيم بأمر الملك المظفر قطز ليكون حماما ، ثم خربوا مابقى من القلعة وظلت على خرابها حتى نهاية القرن السابع للهجرة (٢٤١) • (انظر شكل (١))

نخلص من الدراسة الشاملة التى قمنا بها لمختلف فئات السكان فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة أن طبقة الخاصة هى أهم طبقات المجتمع الشامى فى العصور الوسطى وتكونت هذه الطبقة الخاصة من الحكام ومن يدور فى فلكهم من أمراء ووزراء وكبار رجال الدولة ، وحاشيتهم من رقيق وجوارى وخصيان ، مما جعل طبقة الخاصة من فئات السكان فى بلاد الشام فى تلك الفترة تموج وتزدحم بعناصر مختلفة أخذت تحيك المؤامرات وتدبر الفتن • وعلى ذلك نستطيع القول بأن فئة المجتمع من طبقة الخاصة فى بلاد الشام فى الفترة التى نحن بصدد دراستها ، كانت فئة مضطربة تسودها المؤامرات والفتن وما يتبع ذلك من عدم استقرار وأمن فى البلاد كنتيجة حتمية لطبيعة تكوينها وللظروف السياسية والحربية الصعبة التى ألمت ببلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة •

أما عن فئة العامة وهى التى تضم العديد من فئات التجار والصناع وأرباب الحرف والشطار والفداوية التى سبق ذكرها ، فيمكن تصور حالها بسهولة فى مجتمع حكامة غير مستقرين والامن مختل والحروب بين كروفر بينهم وبين الصليبيين •

وبرغم حالة عدم الاستقرار والطمأنينة بالنسبة للحاكم والمحكوم ، الا أن الحالة التجارية وخاصة الخارجية منها ، كانت نشطة نسبيا ، فقد كانت بلاد الشام فى ذلك الوقت سوقا دولية

---

(٢٣٨) وكان عدد أبراج السور نيف وعشرون برجا وارتفاع كل منها أربعون ذراعا ! وعرضه مابين الاربعين ذراعا وطوله مابين الاربعين والخمسين ذراعا • أما طول الاسوار فيبلغ ستة آلاف وستمائة وخمسة وعشرون ذراعا ، أما سور القلعة فيبلغ ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون ذراعا وعدد أبراجها تسعة وأربعون برجاء (ابن العديم : بغية الطالب ورقة (١٣٨) Sauvaget: Ibid. P. 8.

(٢٣٩) ابن شداد ـ الاعلاق (حلب) ص ١٩

(٢٤٠) ابن شداد ـ المرجع السابق ص ٢٧

(٢٤١) ابن العديم ـ زبدة الحلب ص ٢١٣

لكلا الطرفين المتحاربين، المسلمين الوافدين على بلاد الشام فى تلك الفترة للجهاد فى سبيل الله والصليبيين الشغوفين بالشرق ومنتجاته .

أما عن كثرة المنشآت والعمائر التى زخرت بها بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع ، فقد كان كل منها يخدم أكثر من غرض ، فالنسبة للمدرسة كان ظاهرها التقدم العلمى والثقافى الذى ساد المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام منذ القرن السادس ، وباطنها السياسة والمذهب ، وذلك للقضاء على المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى . أما الخوانق والربط والزوايا فكان ظاهرها انتشار التصوف والشعور الدينى العميق بين جمهور أهل الشام كنتيجة لويلات الحروب التى مروا بها والدمار الذى حل بهم . أما باطنها فهو خوف الملوك والسلاطين من فقر طبقة العامة وتذمرهم الذى قد يودى بحكمهم ، فأنشأوا الخوانق وما اليها وحبسوا عليها الحبوس وأجروا على ساكنيها الجرايات السخية فامتصوا بذلك تذمرهم .

على أن الاستحكامات الحربية كانت لضرورة اقتضتها طبيعة العصر وهى حماية المجتمع الشامى من ويلات الحروب الصليبية .

الفصل الثالث

(المجتمع الريفى فى بلاد الشام)

الباب الثالث

(المجتمع الريفى فى بلاد الشام)

الفصل الاول :

أ ــ حياة الزراع والبدو .

ب ــ دور العصبيات القبلية والعنصرية والمذهبية فى استقرار المجتمع الريفى فى بلاد الشام .

الفصل الثانى :

ــ عادات وتقاليد أهل الريف فى بلاد الشام .

الفصل الثالث :

ــ النظام الاقطاعى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأثره فى الاوضاع الاجتماعية .

الفصل الأول

١ ـ حياة الزراع والبدو

(أ) حياة الزراع :

لقد أطنب مؤرخو العرب وجغرافيوهم في وصف تربة بلاد الشام فقالوا أنها من أخصب الترب ، الا أن صاحب خطط (١) الشام استدرك هذا الحكم فقال هى كذلك اذا لم تقس بغيرها أما اذا ماقيست بالبلاد الاوروبية حيث الخضرة الدائمة وكثرة المحصول بسبب كثرة هطول المطار طوال العام تقريبا ، أو قيست بالاقطار ذات الانهار الكبيرة التى تسقى بمياهها ملايين من الجريت (٢) كمصر والعراق ، لوجدنا أن الشام ليس لها شأن عظيم من الناحية الزراعية، لانها مابرحت بلاد حبوب شتوية كالحنطة والشعير ، تنتج بالقليل من المطر الذى يهطل بها . أما الاشجار المثمرة والاقطان والخضر فمقامها فى الدرجة الثانية لما تتطلبه من الرى ، على حين نجد أنهار الشام لاتروى مساحات واسعة . فنهر الفرات أكبر وأهم أنهار بلاد الشام من جهة الشرق لايستفاد منه الاستفادة المطلوبة لانخفاض منسوبة عن أرض (٣) الشام . كما لايستفاد من الانهار التى تشق قلب البلاد الفائدة المطلوبة فى الرى ، فنهر الاردن مثلا يشق بلاد فلسطين الا قليلا والعاصى الذى يجرى من سفوح لبنان مارا بحمص فحماه فأنطاكية حتى السويدية لا ينتفع بهما انتفاعا كبيرا الا بعد اقامة سد (قدس) (٤) بالقرب من قرية قطنية بجوار أرض حمص . هذا بالاضافة الى النواعير التى مكنت نهر العاص من رى جميع الاراضى العالية فى وادى نهر المقلوب (٥) .

على أن الاراضى التى لها حظ كبير من ماء الرى هى الاغوار التى تقع فى أودية الجبال مثل سهل الزرقاء والسائل من جهة جلون الى الغرب ومثل مياه بيسان المنحدرة من ناحية مرج بنى عامر الى الشرق . ومثل ماء الفارعة النازل من الغرب الى الشرق ، وعين سلطان التى تسقى

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص١٨٨

(٢) الجريب : وحدة قياس الارض فى بلاد الشام والعروق،وهو عبارة عن (٦٠ × ٦٠) ذراعا أى (٣٦٠٠) ذراع مربع (ابن عبد الحكم :فتوح مصر ص ١٥١ (طبعة تورى) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ص٦٣، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٦

(٣) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١٤٩

(٤) جلال الدين البصروى (تحفة الانام فى فضائل الشام ورقة (٦٧) مخطوطة بالخزانة التيمورية) .

(٥) كانت العرب تسمى نهر العاصى نهر المقلوب لانه يجرى فى اتجاه عكس الاتجاه الانهار الكبرى. (كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ١٤٩) .

جنان اريحا ، وغور (٦) نمرين المنحدر من وادى شعيب أسفل الصلت الى الغرب ، ومـــاء حسبان (٧) وغيرها من الميـــاه • كذلك كانت الاستفادة من نهر بردى ونهر الاعوج أكثر من جميع الانهار الداخلية كنهر عفرين والاسودوقاديشا والازرق والعوجـــا والمقطـــع والقاسمية (٨) وغيرها •

وقد ســـاعد اختلاف الاقاليم الطبيعية فى بلاد الشام على تنوع زروعها وتعدد غـرس أشجارها ، فالغور والســـاحل يزرع القطن والنخل والموز والقشطة والبرتقال والليمـون والزيتون • أما السهول فتزرع بها الحبـوب والزيتون والمشمش والخوخ والكرمة ؛ وينمو فى الجبال التفاح والكمثرى والكرز (٩) •

مما تقدم يتبين لنا أن الاراضى الزراعية فى بلاد الشام تختلف فى قيمتها تبعا لحصولها على الماء اللازم لزرعها أو سقيها ، فهناك أراضى كانت تعتمد فى الرى على الانهار والقنوات واخرى تعتمد على العيون ، وهى كمياه الانهار تجرى وفق نظام دقيق ، تأخذ منها كل أرض احتياجاتها فى عدل ونظام (١٠) أما الاراضى البعيدة عن المصادر المائية السالفة الذكر فكانت تعتمد على المطار • وقد كان لاختلاف قيمـــة الاراضى الزراعية تبعا لكيفية حصولها على الماء أثره فى تقدير قيمة خراجهـا ، منـــذ العصر الاسلامى الاول فصاعد ، ذلك أن الاراضى التى كانت تروى (سيما) كان خراجها يختلف عن ذلك التى تعتمد على الامطار وتتأثر بها فى كثير من الاحوال المناخية السيئة ، هذا وكان مقدار الخراج يختلف تبعا لجودة التربة وســـهولة تصريف الحاصلات ، وتبعا لاختلاف الزروع فمنه ما يغلو ثمنه أو يرخص (١١) •

واذا كان المؤرخون قد أجملوا موضـــوع الاراضى فى بلاد الشام وأنواعها تبعا لطريقة ريها ، فان الفقاء قد فصلوا هـذا الامر ، اذفصل الماوردى مثلا الكلام عن الاراضى التى تسقى بالرى والتى تروى بالانهار واختلاف الخراج (١٢) حسب طريقة الرى •

وكان تقـدير الخراج أيضـــا يرتبط بشخصية كل حاكم وأطماعه ونوازعه ، فقـد عاش المزارعون فى ظل الفاطميين وخاصة أولئك المجاورين لدمشـــق يرزحون تحت نير الظلم والاســـتغلال مما جعلهم يثورون عـلى عمال الدولة الفاطمية وانتهى الامر باستيلاء اتسز قائد ألب أرسلان السلجوقى عـلى دمشـق (سنة ٤٦٦هـ/ سنة ١٠٧٦ م) • على أن أتسز

(٦) الاب لامنس :المذكرات الجغرافية فى الاقطار السورية ص ٦٩ (طبعة لبنان) •
(٧) المرجع السابق ص ٧٥
(٨) Cuinet: Syrie, Liban et Palestine. P. 58.
(٩) بوست : نباتات ســـورية وفلســـطين ص ٧٩
(١٠) محمد كرد علي : غوطة دمشق ص ١١٧
(١١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٢
(١٢) المرجع لسابق ص ١٣٣

لم يكن أحسن حالا بالنسبة للمزارعين من الفواطم وولاتهم ؛ فقد وجه نشاطه كله نحو الزراعة لانعاشها واستغلالها ، لذلك نراه يلزم الفلاحين بالعمل فى الزراعة جبرا وألحق المظالم بأثرياء دمشق مما ساهم فى احداث الازمة الاقتصادية بدمشق (١٣) ، ناهيك مما تعرض له السكان من جراء الحروب والمنازعات الاقليمية بين حكام تلك الفترة مما أثر تأثيرا مباشرا على الفلاحين • وفى ذلك يقول المقريزى : « ان السبب فى الازمات الاقتصادية انما يرجع الى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح (١٤) العباد •

لكن ليس معنى هذا أن تاريخ الشام فى الفترة التى نحن بصدد دراستها قد خلى تماما من الحكام المخلصين ، فنور الدين محمود مثلا حرص على رعاية مصالح الفلاحين واصلاح أمورهم ، فالغى المكوس وعنى بحفر الترع والقنوات وتطهيرها (١٥) ، فضلا عن عنايته بغوطة دمشق فأعاد تقسيمها من الناحية الادارية ، مما ترتب عليه توزيع الارض الشاغورية على مستحقين جدد من بينهم فريق من الاعراب (١٦) • كذلك اهتم بنو زنكى اهتماما كبيرا بالزراعة والمزارعين فى منطقة حلب ، فعنوا بنهر (قويق) فجددوا القنوات المتفرعة منه وأصلحوها (١٧) وبنوا عليها الجسور ، كما أصلحوا الطرق المجاورة له حتى لا تعوق مجراه (١٨) • كذلك أدخل نور الدين فرعا من نهر القويق الى المطهره التى تقع غربى الجامع بسوق السلاح ، وحمل منها فرعا الى الشعيبية وفرعا آخر للخشابية ، وساق فرعا ثالثا الى الرحبة الكبيرة داخل باب قنسرين (١٩) •

ورغم هذا فقد أجمع المؤرخون على سوء حال الفلاحين بالنسبة لباقى طبقات المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ، نتيجة لكثرة الضرائب من جهة ، وتعرضهم لغارات الصليبية من جهة ثانية والتنافس والتطاحن بين الحكام المسالمين من جهة ثالثة • على أن الغزو الصليبى كان أقسى ضربة وجهت للفلاحين ، فقد دأب الصليبيون على الاغارة على الاراضى والرياض المحيطة بالمدن الاسلامية يحرقونها ويخربونها ويقضون على كل مابها من زرع وضرع • وهكذا كان يفر أهلها خوفا وفزعا الى المدن يلوذون بها ويتحصنون داخلها (٢٠) •

وامتد العدوان الى الاحراش والاشجار ؛ فقد كانت مدينة حلب مثلا تتمتع بثروة وفيرة

---

(١٣) نبيل محمد عبد العزيز أحمد : دمشق (رسالة ماجستير لم تطبع)
(١٤) المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٤
(١٥) النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٥٩
(١٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج ٢٠ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦
(١٧) النويرى : نهاية الارب ج٢٥ ورقة (٢٩) ، سبط بن العجمى : كنوز الذهب فى تاريخ حلب ورقة (٢٠١) •
(١٨) النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ج ١ ص ٦٠٨
(١٩) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ١٤٢
(٢٠) ابن العديم : بغية الطلب ج ١ ورقة (١٢١) •

من الاشجار الضخمة غير المثمرة ، يـ خذ منها الاخشاب ، غير أن التنافس بين سيف الدولة الحمدانى وأبى بكر محمد بن طغج الاخشيدى أدى الى افناء جـزء كبـير من هـذه الثروة الخشبية • فلما أغار (٢١) البيزنطيون عـلى حلب قضوا على جزء آخر منها حتى اذا جاء الصليبيون قضوا على البقية الباقية (٢٢) منها، فلما احتاج بنو زنكى الى الاخشاب فى صناعة معداتهم الحربية أجهـزوا عـلى ما تبقى من أشجارها وبذلك أصبحت حلب خالية تماما من الاشجار (٢٣) •

كذلك كان لاستيلاء الصليبيين على أكثر أعمال حلب ذات الانتاج الزراعى أثره الكبير فقلت الاقوات والاموال بحلب واضـطر لؤلؤ سنة ٥٠٣هـ / سنة ١١٠٩م الى بيع قرى عديدة بثمن بخس وذلك لحاجته الى الاموال لانفاقها على الجند (٢٤) • ثم كان استيلاء تنكريد على الاثارب ضربة قاضية على حلب ، فقد حرمها من كثير مما كانت تغله منهـا (٢٥) • وفى سـنة ٥١١هـ / سنة ١١١٧م استولى الصليبيون على عزاز التى كانت تمد حلب بالقوت والمؤن ، مما أدى الى اضـطراب الاحـوال الاقتصـادية بالمدينة • ويحدثنا ابن ايبك عما كان يحـدث لتلك المزارع فيقول : « انه عندما استولى ملك الروم على (بزاغة) (٢٦) كان يخرج فى جيشه ويرعى الفول الاخضر فى تلك المناطق مما أدى الى خسارة جسيمة (٢٧) •

على انه لابد لمن يتحدث عن المزارع فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (القرن السادس والسابع الهجرى) أن يعرض فى ايجاز للنظم الادارية والاقتصـادية التى كان يعيش فى ظلها ويخضع لها حتى يمكن أن نبين وضعه الاجتماعى بين طوائف السـكان الاخرى •

من المعروف أن الاراضى الزراعية فى مصر والشام كانت منذ الفتح الاسلامى حتى قيام الدولة الايوبية أرضا خراجية ويفسر محمد (٢٨) رمزى الارض الخراجية فيقول : « يجب على مـلاك الارض الخراجية دفـع الخراج (٢٩) سنويا ، أما الرزق والاحباس والبساتين فقد كانت معفاة من الخـراج (٣٠) • ولا نـدرى بالضبط كيف كانت تتم عملية توزيع الاراضى

---

(٢٢) ابن الشحنه : الدر المنتخب فى تاريخ
(٢٣) حامد زيان غانم : حلب فى العصر الزنكى مملكة حلب ص ٨٢ (رسالة ماجستير لم تنشر) ص ١٢١ وما ذكره من المراجع •
(٢٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٣
(٢٥) المرجع السابق : ج ٢ ص ١٥٦
(٢٦) بزاغة : قرية من أعمال حلب فيها عيون مياه جارية وأسـواق (معجم البلـدان) لياقوت الحموى •
(٢٧) ابن أبيك : الدرة المضيئة ص ٥٢٨-٥٢٩
(٢٨) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ج ١
(٢٩) الماوردى : الاحكام السلطانية ج ١٤٢، ص ١٧
(٢١) ابن العديم : بغية الطلب ج ١ ورقة (٤٠) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٧
(٣٠) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ج ١ ص ١٧ •

على المتقبلين فى بلاد الشام ، لذلك فقد رأيت أن استرشد بما ذكره المقريزى فى هذا الشأن خاصا بمصر ، مادامت مصر والشـــــام كانتادائما خاضعتان لحكم سياسى وادارى واحد .
يقــول المقريزى : « ان متولى الخــراج كان يجلس فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الاراضى وقد اجتمع الناس من المدن والقرى ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صــفقات ، صــفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما تنتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها . فاذا انقضى هذا الامر خرج كل من تقبل أرضا وضمنها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك . ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويحسب له مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضى ما ينفقه عــلى عمارة جسورها وسد ترعها وحفــر خلجانها بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج (٣١) .

لكن يبدو أن بلاد الشــام انفردت بنوع خاص من نظم جباية الضرائب المفروضة على الاراضى الزراعية ، عرف باســم « الاراضى المضمنة » أو المفصولة على أربابها بشىء معلوم من المال يؤخــذ منهم عنــد ادراك المغل (٣٢) ولاســــيما فى المــدن الســــاحلية فى عصر الصليبيين (٣٣) ، ولما استرجعت هــذه البلاد منهم ، ظل الامر سائرا على هذا النحو جريا على عادتهم (٣٤) . واستمر هذا النظام حتى نضــج النظام الاقطــاعى الحربى فى العصر المملوكى وقد نص عليــه فيما عــرف باســم أوراق (٣٥) المسجل .

وسواء أكانت هذه الارض من السلطان أو من الامير المقطع ، فان مستقبلها يسلمها الى الفلاحين من قبله بطريق المقاسمة أو الايجار ، ويعرف المتقبل كذلك باسم « المتدرك » وهو تابع بحكم وضعه أو « فصــل » . (٣٦) وكلمة فصل Vassal شاع استعمالها فى العصر الاقطاعى فى أوروبا وانتقلت مع الصــليبيين الى الشرق . وقــد اســتمر اســتعمال لفظ « الفصل » (٣٧) بالشام حتى بعد أن استردت البلاد الساحلية من أيدى الصليبيين .
من ذلك نستطيع القول ان هناك وجــه شــبه واضــح بين الأراضى المفصــولة وغيرها من الأراضى المضمنة على شكل قبالات فى بــلاد الشام ، وذلك من حيث ان الارض كانت تسلم للفــلاح الذى يعمل بيــده ، اذ المعروف أن الصــليبيين اســتخدموا الســوريون فى فلح

(٣١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٣١، ١٣٢
(٣٢) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٦١٠ ، لقد عرفت مصر منذ الفتح العربى هذا النوع من الاراضى وهو أن يؤجــر الفلاح أرضا بعينة نظير قدر معين من المال والغلال (سيدة كاشف : الارض والفلاح فى مصر الاسلامية (مجلة الجمعية المصرية سنة ١٩٧٤ ص ١٦٢) .
(٣٣) وهى تقابل المستأجرات بالديار المصرية، كما يقول النويرى ج ٨ ص ٠ ٢
(٣٤) يقول ابن شاهين : ان هــذا النوع من الاجراء قد وجد كذلك فى مصر فى عصره ، أى فى أواسط القرن الخامس عشر الميــلادى (زبدة كشف الممالك ص ١٣٠) .
(٣٥) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٤٨، صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥٨
(٣٦) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٦١
(٣٧) لفظ الفصل مأخوذ من Vassal بمعنى خادم أوولد صغير . (ابراهيم طــرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٥٧) .

الارض ، ويندر أن نجد الصليبيين قد فلحوا الأرض بأنفسهم كزراع • وقد أطلق الصليبيون على الفلاحين السوريين كلمة Rustici ومعناها الزراع الريفيون على أساس المقاسمة (٣٨) • وهذه المقاسمة قد تكون مثالثة و أخرى مرابعة كما هو الشان فى العصر المملوكى (٣٩) •

أما النظام الاقطاعى الحربى الذى بدأ فى القرن الثانى عشر فى بلاد الشام وانتشر حتى أكتملت صورته فى العصر المملوكى ، ففى القرن الحادى عشر الميلادى ، حدث تطور خطير فى المنح الاقطاعية للاراضى اذ صارت حربية عامة وغدت الطريق الوحيد للحصول على القوة الحربية (٤٠) الاساسية فى الدولة • على أن أول من عمم نظام الاقطاع ونظمه فى الدولة الاسلامية ، هم السلاجقة بحيث أحلوه محل العطاء للجند (٤١) عامة ، ثم انتقل النظام الاقطاعى الحربى كاملا الى الدول التى قامت فى أحضان السلاجقة وعلى أنقاضها • فقد اقطع السلطان ملكشاه منطقة الرها للاميربوزان التركمانى (٤٢) •

أما آق سنقر أبو عماد الدين زنكى فقد شمل اقطاعه قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج وللاذقية وتوابعها (٤٣) ، كذلك كان ابنه زنكى أقوى الاقطاعيين فى عصره ، اذ شملت اقطاعاته الاراضى ما بين حلب والموصل ،وصار هو يقطع اتباعه لاسيما وأن الجهاد ضد الصليبيين كان على أشده فى عصره ، فقد أقطع نجم الدين أيوب شهرزور واقطع أسد بن أيوب (لموزر) (٤٤) •

أما طرق الزراعة فقد ظلت على ما عليه فى بلاد الشام منذ أقدم العصور فقد سارت بلاد الشام وفق النظام الذى عرف فى العصور الوسطى باسم نظام الحقلين The Two Field Cultivation (٤٥) تجنبا لاجهاد الارض ومحاولة لتحسين الانتاج ، فى حين أن مصر كانت تزرع أرضها مرة واحدة فى العام • وتقسم الأرض لما تصلح له من أنواع المحاصيل (٤٦) فى جهات البلاد المختلفة وتعد أعدادا معينا وفق حاجة الزراعة المنتظرة فى المواعيد المعروفة لها •

---

(٣٨) ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٤٢ •
(٣٩) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٦١
(٤٠) H. M. Rabie: The Financial System of Egypt. P. 32.
(٤١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٩ •
(٤٢) أبو شامة : الروضتين ص ٢٥ ، ٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٤
(٤٣) أبو شامة : الروضتين ص ٢٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٥ ، ٢٦٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص
(٤٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٧٧ •
(٤٥) لقد عرف نظام الحقلين فى مصر منذ العصر الرومانى ، فكان يراح شطر من الارض ويزرع شطر ثم يبدل الشطران فى السنة التالية (عمر طوسون : مالية مصر منذ عهد الفراعنة الى الآن ص ١٩٧ ــ ٢٠٥) •
(٤٦) H. M. Rabie: The Financial System of Egypt. P. 73

ونورد هنا على سبيل المثال المرسوم الذى صدر فى عهد السلطان الناصر محمد عن طريق نائبه على الشـــام الامير تنكز ، والملقب بملك الأمراء باعتباره كبير نواب الشام ، بناء على طلب ناصر الدين الحســـين من بنى تنـــوخ ،المقطعين بغربى لبنان بخصـــوص عمارة جسر نهر الدامور الجارى بين صيدا وصور وبيروت،لتسهيل سبيل النقل نظرا لما يقاسيه السفار من المشقة والعطب :ـــ

والذى انتهى اليه عملكم الكريم صحيح ،وفى عمله حسنة عظيمة ساقها الله تعالى لتسطر فى صـــحايف مولانا ملك الامراء عـــز نصره وتجرى فى أيامه السعيدة أدامها الله وخلدها • وهذا النهر مابقى فى السواحل نهر مثله بغيرجسر (٤٧) وعليه فى الشتا مد عظيم من الجبلين الى حد البقاع • ويبدو من الطلب الذى تقدم به المقطع ناصر الدين الحسين أن أقامة الجسور كان يقوم بعملها الفلاح اما بأجر أو عن طريق السخرة ، اذ يقول : وسعادة مولانا ملك الامرا عز نصره ، وأما التقدير قـــد عينوه النواب ،والعمل الجديد يحتاج الى كلفه زايدة وأن كان الفعلة بالأجرة فهو أعظم ، وأن كان بالسخرة فيحصل للعمله عسف تعجز قد رتهم عنه ، لان البلاد متداعية الى الخراب وأرجو ان يشملهم عـــدل مولانا ملك الامرا ومراحمه • كما كان للمقطع ان يعين المهندس الذى يتولى اقـــامة الجسر ، فقـــد طلب ناصر الدين الحســـين ، مهندس من طرابلس خبير فى الاعمال الساحلية يقال له أبو بكر بن البصيص البعلبكى ، وهو الذى عمر نهر الكلب وغيره من عمال الثقال ببلاد طرابلس ، ان اقتضت الآراء العالية طلبه الى هذا العمل فيحصـــل به النفع ، ثم يختم المقطع طلبه بالعبارة التالية ، والمملوك يمتثل ما يرد عليه من المراسيم العالية (٤٨) •

ولما كانت الزراعة فى بـــلاد الشـــام تقوم اساسا على المطر ، لذلك فقد أطلق الشاميون على المطر أسماء مختلفة تبعا لموسم الزرع ،فعرفوا المطر الذى ينزل فى فصل الخريف أو الربيع الاول باسم (الموسمى) والمطر الذى ينزل فى شـــهر نيســـان (ابريل) حين يقرب النبات من النضج يســـمى (القاطم) (٤٩) •وعلى نوع المطر وكميه تعرف رتبة الارض من حيث الجودة لتقدير الخراج ، الذى يتولاه مباشر الخراج أو كاتب الخراج (٥٠) • وعلى أســـاس معرفـــة نوع الارض وخراجها كان يتحـــدد نـــوع المعاملة التى تســـلم الأرض بمقتضاها الى الفلاحين مقاسمة كانت أو ايجارا • ويتولى الزراعة نوعان من الفلاحين ،المزارعون (القرارية) وهم المســـتقرون من القـــاطنين بالجهة ، والنوع الثانى المزارعون (الطوارىء)

---

(٤٧) الجسر هنـــا بمعنى تمهيـــد طريق للمسافرين وليس المقصود به الجسر الخاص برى الاراضى كما هو الحال فى صر •

(٤٨) صالح بن يحيى : تاريخ بـــيروت ص ١٠٣ ، ١٠٤ •

(٤٩) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٥ ، العمرى : مسالك الابصار ج ٢ ورقة ٣٨١ •

(٥٠) ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٣٧ •

(٥١) وهم النازحون من جهات أخرى ، ويكتب بيان بأنواع (٥٢) المزارعين فى أوراق تسمى « أوراق التسجيل » (٥٣) .

وبعد اتمام عملية التسجيل توزع البذور التى تعرف باسم « التقاوى السلطانية » على الفلاحين بنسبة ما سجل من الاراضى لفلحها (٥٤) وذلك لضمان الاقطاع والتشجيع على الزراعة وفى بعض الاحيان لتحسين الانتاج . فقد حدث فى عصر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩هـ / سنة ١٢٦٠م ان أمر بحمل الغلال من مصر الى دمشق ومنها وزعت فى البلاد لتصير « تقاوى للفلاحين » (٥٥) وعندما فتحت بلاد سيس بأرمينية الصغرى فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٣٨هـ / سنة ١٣٣٧م وزعت الاقطاعات على الفلاحين ورسم السلطان أن يحمل اليها من حماة وطرابلس عشرين ألف غرارة غلة (٥٦) برسم تقاويها وتحضيرها وعين لكل ضيعة ما يكفيها ، هذا باستثناء التقاوى البلدية (٥٧) .

وعندما تنتهى عملية الفلاحة ويأتى موسم الحصاد يرسل صاحب الاقطاع مباشرين بحضور مندوبى السلطان لمسح الارض المزروعة مرة أخرى لربط الخراج عليها بصفة نهائية وتسجل هذه البيانات فى سجلات جديدة تضم أسماء المزارعين . وقد يزاد قطيعة (٥٨) الفدان أو تنقص تبعا للظروف المحيطة من غلاء أو قلة الامطار أو قيام فتن وثورات . وفى مثل هذه الحالات تتغير قيمة الخراج وربما سومح بها ، كما حدث فى بعض اقطاعات الامير تنكز نائب الشام فى عهد السلطان الناصر محمد واقطاعات بعض امراء الشام والامراء التركمان الذين أقطعهم الناصر محمد أراضى بأرمينية الصغرى ، على أثر فتحها ، اذ جاء عنهم أنهم استعملوا الارض فى الفلاحة وحطوا عنهم الخراج فعمرت ضياعها (٥٩) . وربما كان الامر بالشام كما كان الحال فى مصر عندما يسامح المقطع فى بعض الاحيان الفلاحين فى بعض

---

(٥١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٨ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٣٨ ، النويرى : نهاية الارب ص ٢٥٣ .

(٥٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢ ص ٢٥٦

(٥٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٥٤) النويرى : نهاية ارلاب ج ٨ ص ٢٥٧

(٥٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٦

(٥٦) العمرى : مسالك الابصار ج ٢ ورقة ٣٧٦ ، ٣٧٧ والمقريزى : الخطط ج ١ ص ٣ ١

وهى مكيال دمشقى لتعبئة الحبوب وسعتها ١٢ كيلة .

(٥٧) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩

(٥٨) هو وحدة المساحة فى غير ارض السواد أى فى مصر والشام ، ومساحته ٤٠٠ قصبة حاكمية ــ نسبة الى الخليفة الحاكم الفاطمى ــ وطول هذه القصبة ٨ أذرع بذراع اليد (ابن مماتى ص ٢٥٨ ، ٢٧٩ ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٦) عمر طوسون : مالية مصر منذ عهد الفراعنة الى الآن ص ١٢٠ .

ومن المقاييس التى تستعمل فى دمشق (المدى) وتبلغ مساحته (١٦٠٠٠) ذراع مربع بالقاسمى ولعله نسبة الى الفقيه أبى القاسم الزجاجى . (القاموس المحيط ، المخصص لابن سيدة) .

(٥٩) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤٢٨ ــ ٤٣٠ .

الخراج الذى يدفع للسلطان بسبب ضعف أو حاجة • أما اذا كان الباقى المتأخر ناتجا عن تفريط من المزارع أو المباشرين ، حوسبوا عليه بحكم قاضى الناحية بحضرة العدول(٦٠) •

وكانت المسامحات تصدر بمرسوم سلطانى ، ولعل من أهم المسامحات التى حدثت فى بلاد الشام فى العصر المملوكى ، تلك المسامحة التى صدر بها مرسوم شريف بالبواقى فى ذمم الجند والرعايا بالشام من السلطان الناصر محمد (سنة ٧٠٣ / سنة ١٣٠٢م) بخط العلامة كمال الدين محمد الزملكانى من انشائه وقرئ على المنبر بالجامع الاموى بدمشق • وقد جاء فيه بعد حمد الله : « رسم بالامر الشريف أن تسامح مدينة دمشق المحروسة وسائر الاعمال الشامية ، بما عليها من البواقى المساقة فى الدواوين المعمورة الى المدد المعينة فى التذكرة الكريمة المتوجة بالخط الشريف • وجملة ذلك من الدراهم ألف ألف وسبعمائة ألف وستة وأربعون ألفا ومائة وخمسة وأربعون درهما • ومن الغلال المنوعة تسعة آلاف واربعمائة واثنتان وأربعون غرارة ومن الحبوب مائتان وثمان وعشرون غرارة ، ومن الغنم خمسمائة رأس ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال ، ومن الزيت ألفان وثلثمائة رطل ومن حب الرمان ألفان وستمائة رطل » واختتمت المسامحة بالعبارة الآتية : « فليتلقوا هذه النعمة بباع الشكر المديد ، وسبيل كل واقف على هذا المرسوم الشريف اعتماد حكمه والوقوف عند حده ورسمه ويعفى آثار هذا الباقى المذكور بمحو رسمه واسمه ، والخط الشريف شرفه الله تعالى وأعلاه حجة بمقتضاه » (٦١) •

أما ما يخص الفلاح فيما يزرع ، فيحصل عليه عند نضج المحصول وبعد الحصاد فتكون المقاسمة النصف أو الثلث ، بحسب ما اتفق عليه ، ويأخذ المباشر ما يخص الديوان (٦٢) وتكون هذه القسمة بحضور شهود نظير أجر يتناولونه من المقطع والفلاح • كما كان على الفلاح (القرارى) أن يدفع رسوما أخرى غير رسم الشهود ، تعرف باسم (الحقوق) تسجل عند تسليمهم الارض وتقدر بالدراهم • وهناك التزامات أخرى متنوعة يؤديها الفلاحون فى بلاد الشام لصاحب الاقطاع « كالضيافة والهدايا » وتشمل بعض منتجات الريف من دجاج وخراف وكعك وغيره • وكانت هذه الهدايا فرض واجب على الفلاح ، اذ أنها اعتبرت ضمن الخراج لانها كانت تجبى مسانهة ، لذا يمكن اعتبارها سخرة اقطاعية كان على الفلاح أداؤها (٦٤) •

---

(٦٠) الاسدى : التيسر والاعتبار (ورقة ١٧)
(٦١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٢٨ — ٣٠ •
(٦٢) نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٨ •
(٦٣) Rabie « size and value of the Iqta » in: Studies in the Economic History of the middle East. P. 137.
(٦٤) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٤١ •

ولعل من أصعب القيود التى كبل بهـا الفـلاح فى بلاد الشـام وكذلـك فى مصر فى العصور الوسطى هو اجباره عـلى الفلاحة ،يقول السبكى : « ومن قبائح ديوان الجيش الزام الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لا يد لآدمى عليه (٦٥) ؛ ويضيف السبكى فيقول : « وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين ، أى خلال ثلاث سنوات، يلزم ويعاد الى القرية قهـرا ، ويلزم لشـد الفلاحة ، والحال فى غير الشام أشد منه فيها • ومن قبائحهم يقولون هذا شرع الديوان ،وهو فى الواقع استرقاق للفلاحين (٦٦) •

من هذا الوصف الموجز لحياة الفلاح فى بلاد الشام فى ظل النظام الاقطاعى يتبين لنا أن الفلاح من الوجهة القانونية كان أكثر حرية من العبـد أو القن • أما من الناحيـة الفعلية العملية فانه يشبهه من حيث أنه يعيش عـلى الارض لا يستطيع مفارقتها وخاصة فى الثلاث سنين الاولى من التحاقه بالارض كما يقـول السبكى وهى على أية حال حياة بائسة كلهـا مغارم •

ومما زاد من سوء أحوال الفلاحين فى بلاد الشام الحروب الصـليبية التى زادت الطين بلة ، فقد أدت بدورهـا الى تمزيق الـريف والمناطق الفسيحة الممتدة بين المدن والحصون بعد أن غدت مسرحا لصراع مرير بين المسلمين والصليبيين ، مما كان له أسوأ الاثر فى أحوال بلاد الشام حتى تناقص عدد سكانه فى أواخر القرن الحادى عشر تناقصا خطيرا (٦٧) •وعلى الرغم مما كان يحدث أحيانا من هدنة أو صلح بين الأطراف المتحاربة ، الا أن الفلاحـين فى الريف وحول المـدن كانوا لا يكادون يباشرون حياتهم اليومية العادية ، حتى يفاجئوا بوصول جمـاعة جـديدة من الحجاج المسـلحين من الصليبيين ، وهؤلاء يأتون من الغرب مشبعين بروح التعصب (٦٨) فلا يجدون وسيلة للتنفيس عن حماستهم الصليبية سـوى انزال نقمتهم بالفلاحين العـزل فيعملـون فيهـم ذبحـا وتقتيلا (٦٩) •

ولا ننكر أن بعض حكام بلاد الشام فى القرن الثانى عشر ، مثـل نور الدين زنكى ، حرصوا على رعاية الفلاحين واصلاح أمورهم،فقد ألغى (فى سنة ٥٥٠هـ / سـنة ١١٥٤م) جميع المكوس والضرائب ، ولم يبق سـوى الجزية والخراج التى راعى أن تكون معتـدلة نتيجة للظروف التى مرت بها البلاد •

---

(٦٥) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص٤٤

(٦٦) المرجع السابق ص ٤٤

(٦٧) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى مملكة حلب ص ٤٤ ، ٤٥ ،

Gibb: The Damascus Chronicle. P. 27.

(٦٨) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٣

(٦٩) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٤

كما اهتم نور الدين بحفر الترع والقنوات وتطهيرها (٧٠) ، كذلك اهتم بغوطة دمشق وأحدث بها تقسيما اداريا خلاف ما كانت عليه (٧١) • غير أن هذا التغير لابد أن يكون قد سبقه مسح للارض ، اذ أن اهمال الحكام لأمر الفلاحين بسبب الصراع الاقليمى بينهم ، وما شهدته البلاد من غزو صليبي وما نزل بالسكان من طواعين هالكة ، قدأحدث ارتباكا كبيرا فى نظام الايلولة ومن ثم وجب اعادة توزيع الارض « الشاغورية » (٧٢) على مستحقين جدد ومن بينهم الاعراب • وكان المعلم على بن مقاتل ابن أبى نصر أبو الحسن بن السوس هو الذى تولى (سنة ٥٦٠هـ /سنة ١١٦٤م) توظيف ما يوجد من مزارع الارض « الشاغورية » (٧٣) •

وعلى الجملة فان جميع الشواهد تشير الى سوء حال الفلاحين بالنسبة الى باقى طبقات المجتمع فى بلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، نظرا لكثرة الضرائب من جهة ، وتعرضهم للاغارات من جانب الصليبيين من جهة أخرى • ويبدو أن الخطر الاخير كان أشد قسوة ، اذ دأب الصليبيون على الاغارة على الاراضى والارباض المحيطة بالمدن الشامية ، يخربونها ويحرقون ما بها من زرع وضرع ، وعندئذ يهجرها أهلها ويسرع من يستطيع الفرار منهم الى المدن يلوذون بها ويتحصنون داخلها (٧٤) • واذا أضفنا الى ما تقدم خضوع الفلاح فى العصرين الايوبى والمملوكى للنظام الاقطاعى الحربى ، الذى سبق أن عرضنا له فى ايجاز ، وما تبع ذلك من استرقاق الفلاح وشبه عبوديته للاقطاع ، لتبين لنا فى وضوح الوضع الحقيقى للفلاح بالنسبة للمجتمع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى •

---

(٧٠) النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٥٩

(٧١) محمد كرد علي : غوطة دمشق ص ١٤٥ – ١٤٧ يقول : قسم العرب الشام الى عدة اقاليم وسموا الغوطة اقليما تارة وكورة تارة أخرى •

(٧٢) نبيل محمد عبد العزيز : دمشق (رسالة ماجستير لم تنشر) ص ١٢٨ •

(٧٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج ٢٠ ص ٢٦٥ (مخطوط) •

(٧٤) ابن العديم : بغية الطلب ج ١ ورقة (١١٩) ••

(ب) البدو : (خريطة رقم «٢»)

ليس من السهل دراسة المجتمع فى فترة تاريخية معينة دون الرجوع الى جذورها الاولى ، واذا كان هذا ينطبق على فئات المجتمع عامة فان دراسة المجتمع البدوى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يكاد يكون عسيرا دون الرجوع الى القبائل العربية التى هاجرت الى بلاد الشام منذ لفتح الاسلامى والتى ظل معظمها فى أماكنها ، وذلك لتفردهم (٥٧) عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحياة اليومية وانتباذهم عن الاسوار والابواب » .

ولعل من أهم القبائل العربية التى سكنت بلاد الشام هى سليح وعاملة وقضاعة (٧٦) الذين نزلوا ناحية فلسطين (٧٧) . وقد انقسمت قضاعة الى أربع فرق (٧٨) ، سار بعضها الى أطراف الشام ، والبعض الاخر نزل مناظر الشام بين البلقاء الى حوارين الى الزيتون (جبال فلسطين) .

ويتحدث الهمدانى (٧٩) عن من دخل الشام من القبائل البدوية فيقول ، ان مساكن من تشاءم من البدو هى لخم وأكثرها بين الرملة ومصر فى الجفار ومنها فى الجولات ومنها فى حوران . أما جذام فهى بين مدين الى تبوك فالى أذرح ومنها فخذ مما يلى طبرية من أرض الاردن الى اللجون الى ناحية عكا . أما عاملة فقد سكنت الجبال المشرفة على طبرية نحو البحر ، وأما كلب فمساكنها السماوة (٨٠) .

أما القبائل اللخمية فقد نزلت فيما حول الرملة الى نابلس ثم البحيرة الميتة (البحر الميت) ، والجولان وما يليها من أرض حوران . وكان يخالط اللخمنيين جهينة وذبيان والقين (٨١) . فاذا ما جزت جبل عاملة تريد دمشق وحمص وما يليها فانك تجد ديار غسان من آل جفنة

---

(٧٥) المقريزى : البيان والاعراب عمن بأرض مصر من الاعراب ص ٣

(٧٦) البكرى: المغرب في ذكر أفريقية والمغرب ص ٢١ (ليدن) يقول سارت سليح يقودها الحدرجان بن سلمة حتى نزلوا ناحية فلسطين ، وانتشر سائر قبائل قضاعة فى البلاد يطلبون المتسع فى المعاش ويؤمون الارياف والعمران ، فوجدوا بلاد واسعة فى أطراف بلاد الشام . وانضم فرق منهم الى العماليق ، الذين أخذوا يغلوون ويصيبون المغانم حتى غلبتهم غسان على الملك . وذكر بعض آل سعد بن ملكيكرب بعض منازل من خرج من اليمن فقال غسان وقضاعة وكلبا .

(٧٨) كرد على : خطط الشام ج ٣ ص ٦٣

(٧٧) Dussaud : Les Arabe eu Surie avant I,Islam P. 118.

(٧٩) الهمذانى : صفة جزيرة العرب ص ١٤٨

(٨٠) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٦

السماوة ! الارض المستوية لا حجر بها فوهى البادية بين الكوفة والشام، وكلب لايخالط بطونها فى السماوة أحد . ومن كلب بأرض الغوطة عامر بن الحصين ، ومنهم من سكن الفلجة فى أرض دمشق . ومنهم من سكن المشارف وهى جمع مشرف و قرى حوران منها بصرى من الشام (أنظر خريطة توزيع القبائل البدوية) .

(٨١) الهماني في انساب حمير وملوكها ص ٣٠٧

وغيرهم ، ومن حمص عن البحر الكبير (بحر الروم أو المتوسط) وجدت أرض بهراء وعن يسارهم مما يصل البحر، وتنوخ باللاذقية(٨٢)٠

واذا أردنا اجمال من سكن الشام من القبائل البدوية ، نقول أنه سكن مدينة طبرية قـــوم من الاشعريين (٨٣)، وسكن صور وعكا والقدس وبيسان وفحل وجرش والسودان أخـــلاط من البدو والعجم(٨٤) ٠ وأهل كورة جبرين قوم من جذام ، كما سكنت جند فلسطين أخلاط من قبائل بدوية من لخم وجذام وعاملة وكنـــده وقيس وكنانة (٨٥) ٠

ويحدثنا القلقشندى عن أصول القبـــائل العربية ، التى بقيت فى بلاد الشام حتى العصور الوسطى فيقول : « وكانت قبائل غسان وجذام وكلب ولخـــم وغيرهم يعدون من العـــرب المستعربة ، أستجلبهم هرقـــل ، لمـــا سمع أن المسلمين فتحوا فلسطين والاردن وصاروا الى

انبثنية (٨٦) ٠ ولما وصل عبيد بن الجراح الى ماجز حلب جمع أصنافا من القبائل العربية(٨٧) من تنوخ وغيرهم ، وكانوا قد أرســـلوا الى خالد بن الوليد يقـــولون انهم من القبـــائل العربية وانهم انما حشروا مع الروم ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم (٨٨) ٠

ومن القبائل العربية الهامة التى ســـكنت الطرف الجنوبى الشرقى لبادية الشام (شرقى الاردن الحالية) الغساسنة ، بعد أن تغلبوا على الضجاعمة وأقاموا لهم دولة عـــرفت بدولة الغساسنة (٨٩) ٠

ولقد كان عصب الدولة الاموية القبائـــل العربية من المضرية القيسية واليمنية، الذى أدى

---

(٨٢) كرد على : خطط الشام جـ ٣ ص ٦٥
(٨٣) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٥٦
(٨٤) اليعقوبى — البلدان جـ ١ ص ١٧٧
(٨٥) الطبرى — جـ ٢ ص ٨٦
(٨٦) القلقشـنـدى : نهاية الارب فى معـرفة أنساب العرب ص ٥٩
(٨٧) ابن قتيبة :المعارف ص ٣٠٧ ، ابن حزم: جمهرة أنساب لعرب ص ٥١٠ ، جواد على : تاريخ العرب جـ ٣ ص ٧١
أبو الفرج : الاغانى جـ ١٥ ص ٨٢
(٨٨) ابن الاثير : الـكامل جـ ١ ص ٣٠٩ ،
(٨٩) يقول ابن قتيبة(المعارف ص ١٣٢)وحمزة الاصفهانى (تاريخ سـنى ملوك الارض والانبياء ص ٦٧) واليعقوبى (تاريخ جـ ١ ص ٢٣٥) ان أول أمير جاء بالغساسنة الى سوريا هو ثعلبة بن عمرو٠ وقد وقعت بينه وبين قضاعة حرب هزم فيها ودفع الجزية لقضاعة ، ولكن غسان سرعان ما استعادت مكانتها ووجد فيهم الرومان حلفاء يستـــطيعون الوقوف فى وجه المناذرة بالحيرة ٠
وقد ولى الروم منهم جفنة بن عمرو ملكا عـلى عرب الشام ٠٠ ومن أعظم أمراء بنى جفنة وأجلهم شأنا الحارث بن جبلة الذى تولى ملك الغساسنة فى عهد جستيان (سنة ٥٦٩ م) الذى رفعـه الى مرتبة الملوك وبسط ســـلطته على كل القبائل العربية ففى بلاد الشام ٠٠ ومن المرجـح انه لم يكن للروم قبل الحارث عمال كبار من العرب على بلاد الشام (نلدكه : أمراء غسان ص ١١ (ترجمة بندلى جوزى وقسطنطين زريق طبعة سنة ١٩٣٣م)

التنافس بينهما الى قيام الكثـــير من الفتن والاضرابات (٩٠) ليس فى عهد الدولة الاموية فحسب بل وفى العصر العباسى (٩١) كذلك •

ويعتبر بنى تنوخ (٩٢) من القبائل العربية التى دخلت لبنان فى مطلع القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى ، واســتوطنت الجبـــل • ولقد اقتطــع التنوخيون لانفســـهم فى تلك المنطقة القليلة السكان ، التى لاتزال تعـرف، بالغرب مقاطعة عرفت بهم وظلوا يحكمونهـا لعدة قـــرون (٩٤) •

أما القبائل العربية البدوية التى تسيطر على بادية الشام ، فان هجرتهـا اليها كانت حديثة نسبيا ، فان عرب عنزة وكذا قبائل شـمر التى سبقت عرب عنترة فى الهجـــرة الى بادية الشام كانت من عرب نجد (٩٥) ، اما الرولى أحد فروع عنزة فهى آخر من هاجر من بـــدو الشـــام (٩٦) •

وقد وصف ابن خلدون البدو فذكر انهم المنتحلون للمعاش الطبيعى من الفلح والقيام على الانعام والمقتصرون على الضرورى من الاقوات والملابس والمساكن وسائر الاحوال والعوايد • يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير المشذبة ، أما اقواتهم فيتناولون بها يسيرا من العــلاج أو بغير علاج البتة الا ما مسته النار • فمــن كان معاشه منهم فى الزراعة والقيام بالفلح ،كان المقام به أولى من الظعن ، وهؤلاء سكان

---

(٩٠) أخذ خلفاء بنى أمية يعملون على توسيع هوة الخلاف بين هذين العنصرين فتراهم ينضمون الى القيسية حينا والى اليمنية حينا أخرى ، مما أدى الى اشعال نار الفتن فى عدة مناطق فى بلاد الشام ، فقد ثار القيسيون فى حمص وانضم اليهم بعض أفراد البيت الاموى • كما ثاروا فى فلسطين وحذا حذوهم أهل الاردن • (ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ١٣١ ، اليعقوبى : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠) •

(٩١) وآزرت الدولة العباسية القيسية فاعتمدوا عليهم فى بلاد الشام مما زاد الفرقة والهوة بينهم وبين اليمنيين وقد زاد هذا الخلاف بينهما فى عهد هرون الرشيد ، فى ولاية على بن عبـد الله على دمشق ، فقد كانت الدماء تســفك فى دمشق وحوران والبقاع والاردن وحمص ويستمر القتال المختصر ج ٢ ص ١٤ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٨٧) • بلا هوادة وذلك لاتفه الاسباب (أبو الفـداء :

(٢٢) (الشدياق) :تاريخ الاعيان فى جهل لبنان ص ٢٢٤ (بيروت سنة ١٨٥٩) ، ويذكر صالح بن يحيى فى كتابه تاريخ بيروت من ٦٥ (نشر لويس شيخو) ، ان التنوخيين ينسبون الى تنوخ التى انحدر منها بنوبحتر ، الى أحد ملوك اللخميين المنذر بن اء السماء لا الى قبيلة تنوخ العربية •

(٩٣) فيليب حتى : سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٧٠) •

(٩٤) لقد اتخذ السياسيون من التنوخيـــين حاجزا بينهم وبين الموارنة فى شمال لبنان سدا فى وجه الروم القادمين من البحر ، كذلـك كان التنوخيون من أكثر العناصر العربية عرضة لاخطار الصليبيين فى لبنان وجوارها •

(فيليب حتى : سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٧٠) •

(٩٥) فؤاد حمزة :قلب جزيرة العرب ص٢٣٣

(٩٦) وصفى زكريا : عشائر الشـــام ج ١ ص ١١٧ ــ ١١٨

المدر (٩٧) والقرى والجبال (٩٨) ٠ومن كان معاشه فى السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن فى الاغلب لارتياد الحقول والمياه لحيواناتهم فالتقلب فى الارض أصلح بهم ويسمون (شاوية) (٩٩) وجل هؤلاء فى بلاد الشام من الترك والتركمان والاكراد ٠ اما معاشهم فى الابل ، فهم أكثر ظعنا وأبعد فى القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الابل فى قوام حياتها من مراعى الشجر بالقفر ٠ اذ الابل أصعب الحيوان فصالا ومخاضا ، وأحوجها فى ذلك الى الدفء ، فاضطر رعاتها الى ابعاد (النجعة) ٠ وربما زادتهم الحامية على التلول أيضا فأوغلوا فى القفار نفره عن الضعة منهم ، فكانوا أشد الناس توحشا ٠ وهؤلاء هم العرب (١٠٠) ٠

من هذا الوصف الدقيق للبدو والذى فصله ابن خلدون ، نستطيع القول بأنه قد وجد ببلاد الشام اجناس متعددة من البدو ، بعضها من الترك والتركمان، والاكراد ثم العرب ٠ والبدو عامة يأنفون من ممارسة حرفة الزراعة ،ويفضلون عليها حرفة الرعى أو التجارة ، وربما انتهزوا الفرصة للانقضاض على قوافل التجار وغير التجار وخاصة اذا كانوا من الصليبيين ٠ ولذلك فكثيرا ما يلجأ الحكام الى مهادنتهم وكسب ودهم ببعض الامتيازات أو الهبات مثال ذلك ماقام به نور الدين زنكى (١٠١) سنة ١١٥٤ م من توزيع الارض على الاعراب (١٠٢) وذلك لوقف غاراتهم المتلاحقة على المدن والقرى وكسب ودهم باشراكهم معه فى الجهاد ٠ هذا بالاضافة الى أنه كان يرمى من وراء هذا الى هدف بعيد وهو تقريب المسافة بين أجناس البدو من عرب وتركمان ثم اعادة استغلال الاراضى المعطلة بأى صورة من الصور ٠

كذلك كان يلجأ سلاطين المماليك ، اذا اتسعت رقعة الارض سواء أكان بالفتح الخارجى أو باصلاح الاراضى البور ، بتوزيعها اقطاعات بين امرائهم وأجنادهم وكذا طوائف البدو ٠ فقد قام السلطان الظاهر بيبرس بعد انتصاره على الصليبيين فى بلاد الشام وفتحه الكرك (سنة ٦٦١ هـ (١٠٤) سنة ١٢٦٢ م) باحضار الكتاب المختصين بكتابة الوثائق ورتب الاقطاعات للعربان وكتب بين يديه أكثر من ثلاثمائة ، سلمت لاربابها بعد ما حلفوا اليمين (١٠٥) ٠ كما كتب بيبرس بهذه المناسبة (تواقيع) أى أوامر سلطانية للبدو من أهل

---

(٩٧) المدر : القرى (القاموس المحيط ومفردها « مدرة »)
(٩٨)
(٩٩) شاوية : القائمون على رعى الشاه والبقر (القاموس المحيط) ٠
(١٠٠) ابن خلدون : ج ٢ ص ١١١
(١٠١) النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة
(١٠٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٢٠ ص ٢٦٥
(١٠٣) ابن العماد : شذرات الذهب ص٢٢٨
(١٠٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨
(١٠٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣

الكرك بمناصب دينية وديوانية (١٠٦) • ولما فتحت بلاد سيس (أرمينية الصغرى) فى أيام الناصر محمد أقطع بعضا منها لجماعة من بدو التركمان (١٠٧) •

وقد يحدث أن تكون للسطان هواية خاصة ،فيمنح فى سبيلها الاقطاعات ، فقد ولع الناصر محمد بن قلاوون بالخيول ، فهو أول من اتخذ ديوان الاصطبل ، وكان عرب آل مهنا وآل فضل من عرب الشام يمتلكون أحسن (١٠٨) الجياد ،وفى سبيل الحصول على بعض خيولهم أقطع مشايخهم لضياع الواسعة بأراضى حماه وحلب ، هذا بخلاف مادفعه لهم من أثمان للخيول • وقد استغل أولئك المشايخ حب السلطان لامتلاك الخيول الجيدة ، فلجأوا الى استخدام الحيلة فى سبيل الحصول على المزيد من الضياع والامتيازات وذلك بتعظيم أمر فرس يقال لها كذا عند (فلان) فيطلبها السلطان على الفور ، فيشتد صاحبها ويمتنع حتى يصل الى هدفه ، حتى صار هذا الامر معروفا فيما بينهم (١٠٩) • وقد بلغ من جرأة اولئك الاعراب واستغلالهم للناصر محمد ، أنهم طلبوا منه بلاد كانت مقطعة لامراء حلب وحماه ودمشق، وبلغ من شدة حب الناصر للخيل ، انه أجابهم الى طلبهم وعوض الامراء عن اقطاعاتهم التى أخذها منهم • وقد أدت مثل هذه الاستجابة من السلطان الى عرب آل مهنا وآل فضل ، أن صاروا من القوة والكثرة بحيث خافهم من عداهم من قبائل العرب والبدو (١١٠) •

وقد اعتبر النظام الاقطاعى فى العصر المملوكى زعماء البدو من عرب وتركمان وأكراد الداخلين فى طاعة الدولة ، من رجال السيف المقطعين، لان قوام عملهم كان يتركز فى حماية اطراف الدولة (١١١) ، ولذلك فقد كان يطلق عليهم أحيانا اسم (أرباب الادراك) أو (المشاغرون) (١١٢) • وكان زعيم العرب يعرف باسم (الشيخ) (١١٣) أما زعيم التركمان والاكراد فكان يعرف بلقب (المقدم) •

على أننا نستطيع القول بأن اقطاع زعماء البدو من عربان وغيرهم قد وضع لبناته الاولى صلاح (١١٤) الدين الايوبى ، عندما أمر جماعة منهم • ثم حذت الدولة المملوكية حذو

---

(١٠٦) المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٤٩٢

(١٠٧) ابن حجر العسقلانى : أبناء الغمر ج ١ ص ٥٢٨ ، السلوك ج ٢ ص ٤١٨،٤١٧

(١٠٨) طرخان : النظم الاقطاعية ص ٧٦

(١٠٩) السلوك : ج ٢ ص ٥٢٦ ، ٥٢٧

(١١٠) السلوك : ج ٢ ص ٥٢٩،٥٢٨

(١١١) طرخان : النظم الاقطاعية ص ١٥٥

(١١٢) صبح الاعشى : ج ٤ ص ٦٢

(١١٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٣ص١٧٧

(١١٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٣٣ ، صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٩٣ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٤

الدولة الايوبية فى نظمها وتقاليدها ، فاحتفظت بطوائف البدو الموالين لها وسجلت زعماءهـا المقطعين فى الجريدة الجيشـية بـديوان الجيش • (١١٥) •

ولقد كان سلاطين المماليك يجلون عرب الشام وينزلونهم منزلة رفيعة ، وخاصة عرب آل فضل ومنهم بنو نعير آل مراء وآل على ، ومن آل عيسى بن مهنا ، الذين كان لهم شأن يـذكر فى الجهاد ضد الصليبيين •ولذلك فقد جرت سياسة سلاطين المماليك على اقطاعهم الاقطـاعات الوافرة ، كما نعتت الوثائق المملوكيـة آل عيسى بنعت (ملوك البرية) لشدة بطشـهم ووفرة عددهم وكثرة أموالهم (١١٦) •

وقدأدى اعزاز المماليك واكرامهم لآل فضل وآل مراء وآل على الى التعالى على باقى العرب والتفاخر بنسبهم (١١٧) ، اذ كانوا يدعون انهم من ولد جعفر بن يحيى البرمكى من العباسة بنت المهدى وأخت هارون الرشـيد واتباعهم مـن أنستات العرب (١١٨) • ويأتى بعدهم فى المرتبة عربان بنى مهدى بالبلقاء وزبيد بحوران وبنو خالد بحمص (١١٩) • كذلك استعانت الدولة المملوكية فى بلاد الشام ببعض قبائل التركمان ومنحتهم الاقطاعـات والارباض مقابـل المساعدات التى أدوها للدولة فى حماية أطرافها من الاعداء المتاخمين وهم الصليبيون والتتار والبيزنطيون •

كما كانت الدولة تسـتخدم قبـائل التركمان الموالية فى مهمة اخضاع القبائـل التركمانية الاخرى التى كانت كثيرة الاغارة على بلاد الشام • ومن أهم القبائل التركمانية الموالية للمماليك فى شمال الشام (دلغادر (١٢٠)) التى استقرت الامرة فى بيتهم ، وأسسوا دولة وانتشروا حول مرعش وكثروا حتى ملكوا ملطية وغيرها (١٢١) •

وكان بيت (ابن رمضان (١٢٢)) التركمانى ينازع بيت (دلغادر) السلطة فى بلاد الشام فى العصر المملوكى ، كذلك خدم بنو العساف (١٢٣) التركمان دولة المماليك ، كما وجدت هنـاك طوائف متفرقة من التركمان الخاضعين للمماليك منها ابن كبك والبـارزاتية وابن شـعاسير

---

(١١٥) نهاية الارب : جـ ٨ ص ٢٠١
(١١٦) العمرى : مسالك الابصار جـ ٣ ف ٤٢٦
(١١٧) العمرى : التعريف المصطلح الشريف ص ٧٩
(١١٨) ابن شـاهين : زبدة كشف المـمالك ص ١٠٥
(١١٩) صبح الاعشى : جـ ٤ ص ٧٢
(١٢٠) القرمانى : أخبار الدول ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠
(١٢١) جاء فى الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٤٥ أن أول من برز فيهم قراجا بن دلغادر المتوفى سنة ٧٥٤ هـ/سنة ١٣٥٣ م وتوقفت الامرة فيهم على من عداهم من التركمان على مدى علاقتهم وولائهم للمماليك فمثلا حاربوا السلطان صالح وأقرهم برقوق والمؤيد وظلوا كـذلك حتى قضى عليهـم العثمانيون (سنة ٩٢٨ هـ/سنة ١٥٢١ م) •
١٢٢ ـ القرمانى : أخبار اليوم ص ٣٤٠
(١٢٣) زبدة كشف الممالك ص ١٠٤

والاوزارية وبوز جـالولا والمرعشكولار والاركية ويكوتو واواح اغلو الكندولية والقبجولية وهؤلاء بدورهم ينقسمون الى فروع كثيرة (١٢٤) .

وهناك أمثلة كثيرة على الخدمات التى أداها البدو والعرب للمماليك ، نذكر منهـا تكاليف الظاهر بيبرس (سنة ٦٦٣ هـ / سنة ١٢٦٤ م) والمنصور قلاوون (سنة ٦٨٠ هـ/سنة ١٢٨١م) عرب آل فضل ببلاد الشام وعلى رأسهم عيسى بن مهنا مانع الذى قام بطرد التتار عن البيرة وغيرها (١٢٥) .

ومن الاعمال التى يكاد يكون البدو والعرب والتركمان والاكراد قد اختصوا بها دون غيرهم من طبقات الشعب فى بلاد الشـام فى عصر الحروب الصليبية ، أعمال الدرك (١٢٦) . فقد كان بنو عساف التركمان مكلفين بالدرك مـن حدود أنطياس على نهر الكلب الى مغارة الاسد . فلم يسمحوا بعبور نهر الكلب الا لمن يحمل « ورقة الجواز » من الوالى فى تلك الجهات أو من أمراء العرب من بنى تنوخ . وقد قسـم بنو عساف أنفسهم ثلاثة (ابدال) أى فرق ، كل (بدل) مكون من ألف فارس عليه أن يقيم شهرا فى الدرك بأنطلياس (١٢٧) . أمـا درك الاطراف فقد تولاها خليل بن الطرقى التركمانى بالابلاستين ثم بيت ولدلغادر (١٢٨) .

وكان على العرب الى جانب خدماتهم للدولة أن يقوموا بأعمال الدرك فى جهاتهم ، فقد حدد الظاهر بيبرس (سنة ٦٥٩ هـ/ سنة ١٢٦٠ م) لعربان بنى مهنا ، وكان أميرهم وقتئـذ شرف الدين عيسى بن مهنا ، مهمة حفظ درك البـلاد من جهة الشرق والزمهم رعـاية الدروب الى حدود العراق (١٢٩) .

والتزم أمراء بنى تنوخ بتولى مهمـة الدرك بلبنان ، هذا فضلا عن أعمال التجسس على العدو والمثاغرة على صيد وبيروت (١٣٠) . وكان درك بنو تنوخ الى ثغر بيروت كذلك ثلاثة أبدال ، كما كان الشأن عند بنى العسـاف التركمان (١٣١) .

والى جانب التزام البدو من عرب وتركمان باعمال الدرك كان عليهم القيام بتقديم خيـل البريد والجمال والقيام بحمل الغلال والمحاصيل المختلفة . وكان هذا الالتزام ذو أهمية خاصـة

---

(١٢٤) زبدة كشـف الممالك ص ١٠٥ ، ابن الشدياق : أخبر الاعيان فى جبل لبنان ص٣٤٦
(١٢٥) ابن حبيب : درة الاسلاك ج ١ ورقة ٣٥ .
(١٢٦) طرخان : النظم الاقطاعية ص ١٩٨ خيول العرب وخيول السلطان على ألا تتعـدى خيول السلطان مدينة بلبيس (طرخان : النظم
(١٢٧) ابن الشدياق : أخبار الاعيان ص ٢٣٧ ـ ٢٤٣ ـ ٢٤٦
(١٢٨) السـلوك : ج ٢ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ وحاشية (٥)
(١٢٩) السلوك : ج ١ ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥
(١٣٠) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص٤٣ و٧٠ و٧٩ و٩٠
(١٣١) ابن الشدياق : أخبار الاعيان ص٢٢٣ و٢٣٨

عند المماليك حتى أن (الجريدة الجيشـيـة) نصت أمام اسم البدوى تركمانى أو عـــربى على ما يقدمه الى الاصطبلات الســلطانية والمناخات من الخيل والجمال ، كما نص عـلى هذا الالتزام بالوصايا الموجهة (١٣٢) اليهم كما سنوردها فيما بعد •

وكانت مـدينة بلبيس فى العصر المملوكى مركزا تجميع الخيول التى تعمل فى البريد من بلبيس (١٣٣) الى العريش ، وكان على هـذه الخيول أن تحضر فى هلال كل شهر الى مراكزها المعينة لها فيما بين بلبيس والعـريش ولذلك أطلق عليها « خيول الشـهارة » وفيمـا يلى العريش الى طرابلس تعمل كذلك خيول السلطان فى البريد التى التزم بها البدو ، أما من طرابلس حتى أطراف الشام كان على خيول المقطعين فى تلك الجهات أمر نقل البريد (١٣٤) • وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس قرر على عربان العابد وجرهم وثعلبة بغزة حين ضـمتهم البـلاد (سنة ٦٦١ هـ / سنة ١٢٦٢ م) ، خدمة البريد واحضار الخيل برسمه (١٣٥) •

ولما كان البدو من اعراب وتركمان وغيرهم يعتبرون فى العصر المملوكى من أصـحاب السيوف ، كما سبق القول ، وأن الدولة كانت تقطع من يدخل منهم فى خدمتها الاقطـاعات والامتيازات ، لذلك كان السلطان يصدر الوصية لكل مقطع من أمرائهم • ولقد كانت وصية البدو والعرب تختلف عن وصية أمراء المماليك ، اذ هى فى الواقع عهود ومواثيق تلزمهم بتنفيذها مقابل حصولهم على الاقطاع • وقد رأيت من المفيد أن نورد فى بحثنا موجزا لوصـبتين من وصايا العرب والتركمان ، اذ هى فى الواقع دستور عمل البدو والعـلاقة بينهـم وبين الدولة (١٣٦) ، وفيما يلى نص كل منهما •

---

(١٣٢) نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٠٠-٢٠١
(١٣٣) كان يقوم بخدمة البريد داخل مصر الاقطاعية ص ٢٢١) •
(١٣٤) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٩
(١٣٥) السلوك : جـ ١ ص ٤٨١
(١٣٦) أنظر ملحق رقم (٤) وملحق رقم (٥)•

وصية أمير غرب

تبدأ الوصية بعد البسملة والحمد لله :والتقـوى درعك الحصـين والشرع الشريف سبيلك المبين ، والحدود والقصاص بهما تمنع المحارم ، والجهاد فيه شفاء لصدور الصوارم فاقتد بالانصاف زمام زمانك واثن الى الحق عنانك وفرغ فكرك لمصالح الاسلام وامنع كل طارق حتى الطيف فى الاحـلام • واسـتعلم أخبار الاعداء فى طليعة كل صباح وتأهب لهم غرب يوم يجىء بوجه وقاح وأثبت فى اللقاء ثبات مجرب وتطلع الى جموعهم التى كم ناظر اليها مع الصبح نجم مغرب • واضرب قارعـة الطريق خيامك وانشر للمعتفين غمامك وطنب دخانك الى السماء وابسط حزامك وأقبل على الذكر الجميـل فكل شىء غـاد ورائح وانزل بساحتك الضيوف وانحر لهم كرم الهجان وكل طرف ساغ واحفظ أطراف البلاد ممن يتولع ببنيانها أو يترصـد لمرابع اسودها أو مراتع غزلانها • وخص الرعايا برعـاية تنبت لهـم الزروع وتـدر عـلى سـوائمهم الضروع •ولا تدخل الى البرية الا اذا لم يبق لك بالبلاد مقام ولا منزل بين شيح وهزام • وأما العرب فهو أميرهم المطاع وآمرهم وهم له اتباع وهو يعرف مقاديرهم وكيف يعامل كبيرهم وصغيرهم • فليجمعهم على طاعتنا الشريفة ما اسـتطاع وليمنعهم من طبع الطباع وليصدعهم بالحق على حكم استحقاقهم فى كل اقطاع واقتطاع • وهو بما يصلح لركابنا العالى من الخيل جد خبـير وبما يناسـب سرجنا الشريف من كل سـابق وسابقة ما لها نظير • فلو أخذ نفسه واخوته وبنى عمه وأهله وعشيرته والاقربين بأن يكونوا بالجياد الينا متقربين ومتى وردت عليه مراسيمنا الشريفة بأمر سارع الى العمـل بحكمـه او اتصال متجدد •

وهذا تقليدنا الشريف حجة على من سمعه أو قصه ، ومرسومنا أن ينقل مضـمونه الى الآفاق ويعلم به كل مصعد الى الشام ومنحدر الى العراق ليحدو به كل حاد والركاب تساق ويسمر به فى كل حى سـامر • فمن بلغنا أنه حاد عن أمره أو تأول فى نقصـه لرفعة قدره فالسيف أسبق شىء الى نحره والمـوت أعجل اليه (١٣٧) •

---

(١٣٧) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٠٩ ـ ١١١

وضية مقدم التركمان

« تبدأ بعد البسملة والحمد لله ... فليجمع لنا طوائف التركمان وليأمرهم بالاستعداد للجهاد فانهم تركوا الايمان ، ولايدع منهم اذا رسمنا له من يلقم سهمه الوتر ومن اذا جر قوسه رأى منه طالعا فى العقرب العمر ، وليجمع طوائفهم على كثرة أفراقهم وبعد ما بين بيوتهم وأرزاقهم وليؤلفهم التى بها التقدم وبسلبها صدد سمهم ته وتقوم ، وسهامهم هى التى تبقى وسيوفهم هى الاراقم التى لاتلين للرقى، ومابرحت ترفع لهم القباب وتشفع لهم الينا وصائل الانساب ووسائل الاسباب وليأمر أمراؤهم باقامة وظائف الامرة ودق الطبلخانات كلعشية وما يظهر فيه التفاوت بين كل ذى همة وصبغة وهمه عليه . والزم من طلب اقطاعه من مخلفه بما عليه من التقدمة المقررة ،ومن لم يترك وارثا الا بيت المال ، حفظ له حقه الموروث فانه مال الله المقسوم ولكل مسلم فيه حق معلوم ، وما هو على السائمة من الزكاة يساعد على استخراجه وايصال الحق الى مستحقه ، والى كل مقطع على حكم منشوره الشريف أو افراجه ،وتقوى الله سبب مزيده فلا يزال متمسكا بذلك السبب وليقيم منها (١٣٨) بما وجب » .

---

(١٣٨) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٢ ـ ١١٣

وبرغم ما حصل عليه الكثير من طوائف البدو من امتيازات رجال السيف فى العصر المملوكى ، وما تمتعت به من استقلال محلى محدود فى مشيخاتها ووراثة هذه المشيخات(١٣٩) فان مظاهر الكراهية العنصرية بين العرب وسلاطين المماليك كانت من أكبر أسباب الفتنة والثورات التى قام بها البدو فى العصر المملوكى . فلم ينس العرب كراهيتهم ولم يتخلوا عن حقدهم الدفين ، فراحوا أحيانا يفسدون ويخربون ، فنهبوا اقطاعات الامراء وقتلوا الفلاحين واعتدوا على الحجاج ، وامتنعوا عن دفع الخراج (١٤٠) . من ذلك ما حدث فى عهد السلطان أيبك والسلطان الظاهر بيبرس ، فقد قام زعيم عرب الجعافرة فى الشام بعد أن جمع رهطه بمصر ، وثار على الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب دمشق ، ولكن المماليك قبضوا عليه وقتلوه شنقا (١٤١) .

كذلك ناصبت عشائر آل فضل من ربيعة ببلاد الشام الدولة المملوكية العداء والمعروف أن منازلهم امتدت من حمص الى قلعة جعبر الى الرحبة ، أى انهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى نهر الفرات (١٤٢) . ودأب زعيمهم عيسى بن مهنا على مناصرة التتار حينا وسلاطين المماليك أحيانا (١٤٣) ، حتى ضاق السلطان الناصر محمد بآل فضل ذرعا ، فطردهم ليحل محلهم اخوتهم من آل على ، ولكنهم أتوا اليه صاغرين فعفا عنهم وردهم الى بلادهم واقطاعاتهم (١٤٤) .

نخلص مما تقدم من سرد موجز لحالة البدو فى المجتمع الريفى فى بلاد الشام ، انهم كانوا أشبه بخفر الحدود بالنسبة للريف ، كما أنه يلاحظ ، أنه اذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف الشام فى العصر الايوبى والمملوكى قد لجأت أحيانا الى الخروج عن الطاعة ، فانه قد وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشر داخل البلاد وحول ريفها وقراها ، كانوا أكثر ارتباطا بشعور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ولعل من أشهر هذه العشائر آل مرة فى حوران وآل على فى المرج والغوطة (١٤٥) .

وقد لجأ الحكام ببلاد الشام الى محاولة درء خطر أولئك البدو عن طريق ادخال عشائرهم فى بلاد الشام داخل النظام الاقطاعى ، نذكر من ذلك ما قاله النويرى من أن نور الدين محمد ضايقه أن البدو مارسوا الاعتداء على الحجاج فى الدروب

---

(١٣٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٦، ٦٠ ، ٦١ ، ابراهيم مغلطاى : تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس ص ١٠٧
(١٤٠) ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص٢٥٤، ج ٢ ص ٩٥ و١٢٣
(١٤١) المقريزى : الاعراب ص ٩٣
(١٤٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٤
(١٤٣) المقريزى : السلوك فى حوادث سنة ٧١٥ هـ
(١٤٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٦
(١٤٥) القلقشندى :صبح الاعشى ج ٤ص٢٠٨ و ٢١٠

والطرقات ، فأقطعهم الاقطاعات حتى يكفوا عن التعرض للحجاج • كذلك واصل سلاطين الايوبيين والمماليك تلك السياسة ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب (الامارة) للعرب (والمقدم) للتركمان والاكراد • واقطعوهم الاقطاعات وفرضوا عليهم التزامات معينة ، أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب ، واستضافة الغرباء وتقديم خيول للسلطان وللبريد ، كما جاء ذلك فى نص الوصية التى سبق أن بيناها • ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التى تفقدها الكثير من حريتها ، فأخذت ما فى النظام من مميزات وتخلصت مما فيه من التزامات •

٢ — دور العصبيات القبلية والعنصرية والمذهبية فى استقرار المجتمع الريفى فى بلاد الشـــام :

لقد اســتطاعت المــدن والحواضر ، أن تهضم ما بها من عصبيات مهما تعددت أصولها أو اختلفت عقائدها، ولذلك فان تأثيرها كان قليلا أما الريف الذى امتــاز باتســاع رقعته وقلة سكانه من المزارعين البسطاء الذين يعيشون فى جماعات ريفيــة مترابطة ، فان العصـــبيات المتعددة التى انتشرت فى ربوعه كانت من أهم العوامل التى أدت الى عدم استقراره ، ومن ثم فقد كانت عبئا ثقيلا على المجتمــع الريفى فى بلاد الشام عامة وفى عصر الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر خاصة • فقد كان لكل عصبية منها تقاليد وعادات فضلا عما كان بينها وبين بعض من صراعات وخلافات على أننا نستطيع أن نقسم هذه العصبيات فى المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام عــلى عصر الحروب الصليبية الى عصبيات قبلية وعصبيات عقائدية وعصبيات عنصرية •

العصبيات القبلية :

كان العنصر العربى منــذ حركة الفتوح العربية ، هو العنصر المسيطر عــلى المجتمــع الشامى وسائر ديار الاسلام • ومنــذ أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميــلادى ، أخذت بعض العنــاصر العــربية فى أطــراف العراق وبلاد الشام تظهر على مسرح الاحداث محتفظة بالكثير من أصول حياتها البدوية ممــا انعكست صورته على المجتمع الشامى فى عصر الحروب الصليبية • أما فى القــرن الخامس فلعــل أبرز قبائل الشــام التى قامت بالدور الرئيسى فى اثارة العصبية القبلية هى قبــائل بنى طىء اليمنية فى الجنوب ، وبنى كلاب فى الشمال ، وبنى كلب القيسية (١٤٦) فى الوسط • فقد أثار الطائيون القلاقل المستمرة فى جنوب بلاد الشام فى وجه الدولة الفاطمية ، متخذين من الدعوة بالخلافة لأمير مكة ســتارا يخفون وراءه نزعات العصبية القبلية ، بدليــل أنهم سرعان ما انفصم عقد تحالفهــم مع أمير مكة الذى قدم من مكة الى الشام وبايعه الطائيون وسلموا عليه باسم أمير المؤمنين (١٤٧) ، عندما استمالهم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر اللــه الى جانبه (١٤٨) • وقد ظلت قبيــلة طىء فى فلسطين ووادى نهر الاردن كامنة بعــد ذلك حتى كان عهد الخليفة الظاهر حين خرج معظم أهل الشام عن طاعته (١٤٩) •

وقد ظهرت قوة الكلابيين فى بداية القرن الخامس الهجــرى ، الحادى عشر الميــلادى

---

(١٤٦) Setton & Baldwin: History of the Crusades v. I. P. 87.

(١٤٧) أبو شجاع :ذيل تجارب الامم ص٢٣٦ ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج١٢ص٥٦

(١٤٨) جمال سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٤٦

(١٤٩) مؤلف مجهول : مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٢٥٢٦ المكتبة التيمورية) ص ٣ ب

عندما حاول زعيمها صالح بن مرداس الاستيلاء على حلب ، وتمكن مرتضى الدولة من أسره هو وألف من أتباعه ، ولكنه استطاع الفرار ، ثم عاود الكرة مرة ثانية فاستطاع هزيمة ولاة الفاطميين وابن ثعبان وموصوف ، وانتزع حلب عاصمة سوريا الشمالية من يد الفاطميين (١٥٠) .

ثم عاد زعماء القبائل العربية ، حسان أمير بنى طىء وسنان بن عليان أمير بنى كلب وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وتحالفوا (١٥١) فيما بينهم وبين الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله على اقتسام بلاد الشام . كذلك حاولوا الاتصال بالامبراطور البيزنطى باسيل ولكنه لم يستجب لطلبهم (١٥٢) . كما حاول سنان بن عليان محاصرة دمشق ولكن أهلها قاوموه مقاومة عنيفة ، فضرب داريا وتوابعها ، ومات دون أن يتم ما كان قد عقد عليه العزم . بوفاة سنان بدأت بوادر انفصام التحالف ، فقد استطاع الدزبرى القائد الفاطمى فى بلاد الشام أن يحطم العصبية القبلية (١٥٣) ، ولكن بعد وفاته كثرت اغارات البدو على مدن الشام وفقدت البلاد أمنها (١٥٤) .

وحاول الكلبيون الاستيلاء على حلب مرة ثالثة عندما ساعدوا محمود بن نصر بن صالح الذى أخذها عنوة من مكين الدولة والى الفاطميين عليها (١٥٥) ، كما بسط الكلبيون نفوذهم فى السواد بعد أن اشتبكوا مع قائد الفاطميين الارمنى (١٥٦) فى دمشق واستولوا على الغلات واعملوا السلب والنهب فخربت بلاد الشام (١٥٧) . كذلك أثار العقيليون القلاقل فى بلاد الشام وخاصة على الساحل، فقد استولى القاضى عين الدولة بن عقيل على صور مناوئا بذلك النفوذ الفاطمى هناك ، فتقدم اليه أمير الجيوش بدر الجمالى من مصر بجيش كبير ، ولكنه لم يستطع استخلاصها من عين الدولة الذى استنجد بالامير التركى (فرلو) فأمده بستة آلاف جندى (١٥٨) .

ولم تلبث تلك القبائل أن بدأت تتحول الى حياة الاستقرار فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وقد بلغ ذلك التحول ذروته بالوثوب الى مراكز السلطة واقامة امارات عربية فى الشام لها كافة مظاهر الحكم المستقل من وزراء وكتاب وحجاب وجيوش

---

(١٥٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ورقة (٧٥) (مخطوطة)
(١٥١) كرد على : خطط الشام جـ ١ ص ٢٤٩
(١٥٢) الباز العرينى : الدولة البيزنطية ٦٨٨
(١٥٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٥٠
(١٥٤) نعمان قساطلى : الروضة الغناء ص ٤٣
(١٥٥) الذهبى : دول الاسلام ص ٧٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٦-٢٧٧
(١٥٦) ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ١٦
(١٥٧) سبط بن الجوزى : ذيل مرآة الزمان جـ ١٢ ص ١٠٢ أ
(١٥٨) العينى : عقد الجمان جـ ١٥ ص ٢٥٩، الذهبى : دول الاسلام ص ٧١ .

ودوواين • وهكذا شهدت بلاد الشام قيام امارة بنى مرداس فى حلب (١٥٩) من (سنة ١٠٢٤ الى سنة ١٠٧٩م / سنة ٤٢٠/٤٧٥هـ)وامارة بنى عمار فى طرابلس (سنة ١٠٧٠ — ١١٠٩م / ٤٦٨ — ٥٠٦هـ) وامارة بنى منقذ فى شيزر (١٦٠) (سنة ١٠٨١ / ١١٥٧م) ٤٧٩ / ٥٥٤هـ) •

وبرغم قصر عمر تلك الامارات لم يبق منها الى أواسط القرن الثانى عشر سوى امارة شيزر ، فان العنصر العربى ظلت بصماته واضحة فى المجتمع الشامى على عصر الحروب الصليبية وكل ما فقد هو نفوذه السياسى فقط ، مثال ذلك هو أنه رغم سقوط امارة بنى مرداس سنة ١٠٧٩م/٤٧٥هـ ، الا أن عشائر بنى كلاب أستمرت فى نشاطها الاجتماعى فى شمال الشام ، فقد ظل الاهلون متمسكين بصفاتهم العربية الاصيلة كالكرم والحلم والشجاعة مع ميل غريزى الى مجالس الشعر وقرضه •

أما بنو منقذ فانهم رغم ما أصابوه من التحضر والرقى والتمدن أثناء رياستهم لشيزر ، وما بلغته امارتهم من التقدم المادى والثقاف ، الا أنهم لم يتخلوا مطلقا عن مظاهر حياتهم القديمة ، حياة البداوة (١٦١) • وقد يكون من الاسلم القول بأنهم مارسوا حياة جمعت بين حياة البداوة وحياة الحضر ، فاتصف امراؤهم وفرسانهم بالشجاعة والشهامة ، وظهر بين صفوفهم فحول الشعراء وعلماء النحو واللغة ، فى نفس الوقت الذى انتشر بعضهم حول شيزر يتصيدون ويزرعون ويرعون ، وهكذا جاء تاريخ بنى منقذ فى شيزر خليطا من الحرب والفروسية وحياة الزراعة والرعى والصيد من جهة أخرى • هذا وقد سكن امراؤهم القصور وعقدوا مجالس الادب والعلم ، وعنوا بقرض الشعر ونسخ القرآن وجمع الكتب والمخطوطات (١٦٢) • وأخذوا يتنقلون بين شيزر وكفر طاب وحماة وحلب وفى كل تلك المناطق كانت لهم المناظر والقصور والجواسق ومجالس المؤانسة (١٦٣) ، وأسهم امراؤهم فى شتى مجالات النشاط ، حتى قيل أن الامير مرشد بن على بن منقذ ، والد اسامة بن منقذ ، كان شديد الحرص على نسخ القرآن الكريم نسخا مذهبة وكان يفخر ويعتز بكتابتها (١٦٤) •

ولعل من أهم الاشياء التى أولع بها آل منقذ وعنوا بها عناية خاصة ، وأطنب فى ذكرها كل من تكلم أو كتب عنهم رياضة الصيد ، فقد نظموا لها فى شيزر وضواحيها فرقا متكاملة

---

(١٥٩) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣٣
(١٦٠) الذهبى : دول الاسلام ٧٣
(١٦١) Derebourg: Vie du Ousama P. 516, 17.
(١٦٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٣ ص ٨٦، العماد الأصفهاني : الخريدة جـ ١ ص ٥٦١
(١٦٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣٣ ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٣٥٧
(١٦٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٦٠

متخصصة فى أنواع الصيد المختلفة (١٦٥) •وحددوا لهذه الرياضة أياما معينة واختاروا لكل نوع من الصيد موعدا محددا ، وفى ذلك يقول اسامة : « فكيف صارت الحجل (أى الحمامة ذات الحجل) كان فى ذلك الجانب بازيرسل عليه ، ومعه مماليك وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس بالصيد • ثم يفتخر بمقدرتهم الفائقة فى هذه الرياضة فيقول : فلا يكاد يطير الطير ولا يثور أرنب ولا غزال الا اصطدناه » • حتى طير الماء والخنازير كانوا يصطادونها (١٦٦) •

وقد استرعت أنظار الصليبيين المعاصرين عناية بنى منقذ برياضة الصيد وبراعتهم فيه فأخذوا عنهم من قواعدها وتقاليدها الشىء الكثير ودونوا ذلك فى مذكراتهم وسجلوها فى كتبهم ، الامر الذى شد انتباه فريق الباحثين الغربيين (١٦٧) ، فعالجوا هذا الموضوع بعناية خاصة وأطنبوا فى الكلام عنه • ذلك ان رياضة الصيد كانت عند بنى منقذ لها تقاليد ونظم « كأنه ترتيب الحرب والامر المهم ، ولا يشغل أحد بحديث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر فى الارض لنظر الارانب والطير فى أوكارها » (١٦٨) •

العصبيات العنصرية :

وكان من الطبيعى أن يتخذ أولئك الامراء العرب فى بلاد الشام الموالى والمماليك والغلمان من الاقليات التركمانية والكردية والارمنية وما اليها وذلك من باب الابهة والترف • وقد نبغ الكثيرون من هؤلاء الموالى فى النواحى المدنية والحربية على حد سواء ، وصاروا يمثلون ركنا أساسيا لا يستهان به فى حياة الامارات العربية فى أول الامر ، بوصفهم خدما للدولة ومنفذين لسياستها وتابعين لأصحاب الشأن فيها (١٦٩) •

على أن هذه العناصر غير العربية من الموالى والمماليك والغلمان أخذ يزداد عددها وخطرها تدريجيا فى بلاد الشام حتى غدت ركنا أساسيا فى المجتمع الاسلامى على عصر الحروب الصليبية ، ومن أهم هذه العناصر الترك والتركمان والاكراد • ومن المعروف أن الجماعات والعناصر التركية التى انسابت الى شمال الشام بصفة خاصة ، جاءت من الصحراء المعروفة بصحراء التركمان الواقعة بين بحر آرال ، وبحر الخزر ، هذا فضلا عما جاء من تركستان وبلاد ما وراء النهر ، ومن دفعت بهم دولة السلاجقة على هيئة أفواج متلاحقة •

---

(١٦٥) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٩٢ ، ٢٠٦، ٢٠٧
(١٦٦) المرجع السابق : ص ٢٠١، ٢٠٢
(١٦٧) Huar: Ousama b. Mounkid (J. R. A. S. 1890) P. 304,
Shlumberger: Recits de Byzance et de Croisades. P. P. 99 - 101.
(١٦٨) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٠١ ، ٢٠٢
(١٦٩) أسامة بن منقذ : ص ٤٩، ٥٤ ، ٩٦ ، ١٢٢ •

وقد ظهرت هذه الاجناس ببلاد الشام في القرن الحادى عشر ، اذ يقال أن أول من نزل من الاتراك بها هو هارون بن خان (١٧٠) (سنة ١٠٦٢م / ٤٥٤هـ) ، وكانت معه جماعات من الترك والاكراد والديالمة والكرج، ممن بلغ عددهم نحو ألف رجل ، فأقطعهم محمود بن نصر المرداسي معرة النعمان (١٧١) (سنة ١٠٦٦م / ٤٥٩هـ) . ويجب أن نلاحظ هنا أن هذه الجموع التى وفدت مع هارون بن خان الى بلاد الشام كان قصدها الاستقرار والدخول فى خدمة الامراء المجاورين ، وذلك على العكس تماما من جموع التركمان التى جاءت الى شمال الشام أيضا ولكن بنية الاغارة والسلب والنهب والعودة من حيث أتوا ، مثلما حدث (١٧٢) (سنة ٤٤٧هـ / سنة ١٠٥٥م) عند اغارتهم على منطقة حلب (١٧٣) . ولم تلبث أن توافدت وتكاثرت أعداد تلك العناصر ، التى استهدفت الاستقرار بالشام حتى غدا الترك بصفة خاصة يشكلون ركنا له وزنه فى البناء الاجتماعى لبلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

ويلى الترك من حيث الاهمية والكثرة العددية بالنسبة للعناصر غير العربية التى وفدت على بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية طائفة الاكراد . ولعل قرب موطن هذه الطائفة ومناطق تجمعهم فى كردستان وشرقى آسيا الصغرى وشمالى العراق وغربى ايران جعل انتقالهم وهجرتهم زرافات ووحدانا الى بلاد الشام سهلا مألوفا ، بحيث أصبح أمرا طبيعيا أن نسمع عن أسماء وشخصيات كردية دخلت فى خدمة أمراء حلب وشيرز وحمص وغيرها من الامارات الاسلامية ببلاد الشام .

وقد حدث أن أرسل شبل الله نصر المرداسي (سنة ٤٢٤هـ / سنة ١٠٣٣م) أى قبل وصول الحملة الصليبية الاولى الى بلاد الشام ، فرقة من الاكراد للدفاع عن قلعة تقع الى الشرق من انطرطوس على جبل الخليل ، كانت تعرف بقلعة الصفح ، فلما استقر الاكراد بتلك القلعة نسبت اليهم وعرفت باسمهم ، قلعة الاكراد أو حصن الاكراد (١٧٤) . كما نجد كثيرا من الشخصيات الكردية فى شيرز التى دخلت فى خدمة بنى منقذ ولعبت دورا بارزا على مسرح الاحداث السياسية المعاصرة (١٧٥) ، ولعل خير ما نستشهد به فى هذا المقام ما أجمعت عليه المصادر من أن صلاح الدين كردى الاصل هاجر أبوه نجم الدين أيوب ابن شادى وعمه أسد الدين شيركوه بن شادى من بلدة دوين قرب بحيرة (فان) ليدخلا فى

---

(١٧٠) ابن الوردى : تتمة المختصر ج ١ ـ ص ٣٧١
(١٧١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩ ، ١٠
(١٧٢) ومثل هذه الجماعات من التركمان وغيرها التى تغير على الحدود بقصد السلب والنهب هى التى أطلق عليها ابن خلدون اسم البدو وهم الذين اتخذتهم الدولة المملوكية فى الدرك (أنظر البدو)
(١٧٣) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٧
(١٧٤) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١٠ ورقة (٥٦)
Canard: Hist. de La Dynastie des Hamadanides P. 206
(١٧٥) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٦٦ ـ ٧٧ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ١١٦ ـ ١٢٢

خدمة زنكى الذى أحسن اليهما ، واقطعهما اقطاعا حسنا ، ثم جعل أيوب مستحفظا لقلعة بعلبك ، ثم ترقى وصار من امراء دمشق(١٧٦).

وبرغم ما اشتهر به التركمان والترك من الشجاعة والفروسية ، الا أنهم ظلوا يفتقدون صفات الجند النظاميين ويبدو أنهم كانوا فى قرارة نفوسهم ينفرون منها (١٧٧) ، كما انهم كانوا متطرفين فى حماسهم للمذهب السنى الامر الذى أدى الى اثارة الفتن والثورات بينهم وبين الشيعة ، ولكننا رغم ذلك لانستطيع أن ننكر دورهم فى الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام . ولقد ظهر أثرهم واضحا فى الالفاظ والكلمات والمصطلحات غير العربية التى شاع استعمالها فى الحياة اليومية فى المجتمع الشامى فى ذلك الوقت والذى ما يزال الكثير منه باقيا حتى اليوم ، كما يجب ألا ننسى دورهم فى رقى الذوق الفنى لما عرفوا به من النظافة وحسن الخلقة وجمال التكوين والمظهر مما أدى الى الاقبال على شراء الجوارى التركيات الحسان ، ونشاط تجارة الرقيق الابيض الذين عرفوا باسم المماليك .

ولم تقتصر العصبية غير العربية فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية على الاجناس سالفة الذكر : الترك والتركمان والاكراد فحسب ، بل وجدت كذلك أقليات من عناصر أخرى ، اسلامية وغير اسلامية ، مثل الديالمة والكرج والارمن والموارنة . ويبدو أن الارمن بصفة خاصة قد اشتهروا بنشاطهم المعمارى ، فاليهم يرجع الفضل فى اقامة الكثير من التحصينات (١٧٨) الحربية من اقامة الحصون والقلاع وأسوار المدن فى مصر وبلاد الشام ، مثل أسوار القاهرة (١٧٩) وأسوار الرصافة (١٨٠) ويكفى أن نذكر فى هذا المقام الوزير بدر الجمالى الذى كان مملوكا ارمينيا لجمال الدولة بن عمار ومن ثم لقب بالجمالى . ويحدثنا عنه المقريزى فيقول : ومازال يأخذ نفسه بالجد ، منذ سبيه، فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم وينتقل فى الخدم حتى ولى امارة دمشق من قبل الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (سنة ٤٥٦هـ / سنة ١٠٦٣م) . فلما كانت الشدة المستنصرية بمصر كتب اليه الخليفة يستدعيه ليكون المتولى لتدبير شئون دولته (١٨١) . كما ذكر اسامة بن منقذ كثيرا من الشخصيات الارمينية الاصل التى لعبت دورا فى المجتمع الشامى ممن اشتهروا بالمهارة فى الرماية واستعان بهم آل منقذ فى الصيد والحرب على السواء (١٨٢) .

على أن الارمن لم ينسوا حقدهم الدفين على الدولة الايوبية ، فقد جمعوا شملهم بعد

---

(١٧٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤١

(١٧٧) ولهذا السبب ذكرهم ابن خلدون ضمن فئات البدو (أنظر البدو) .

(١٧٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٠

(١٧٩) Crewell: Muslim Architecure in Egypt. vol I. P. 79.

(١٨٠) أنظر الفصل الاول : الحصون والقلاع شكل رقم (٢٤) .

(١٨١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٢

(١٨٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٠٦

أن انتزعت منهـم (أخلاط) (١٨٣) فى أوائل القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى وأرادوا استعادة عاصـمتهم ، فجهـز الملك الاشرف خليـل بن قلاوون (سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م) عساكر مصرية وشامية وقصد قلعة الروم على جانب الفرات حيث يقيـم خليفة الارمن (كيتاغيكوس) فأخذه ومن معه أسرى،ورم ما تخرب من تلك القلعة (١٨٤) .

ثم جـاء الملك الأشرف فى العام التالى لبلاد الشام لتجهيز العسكر للهجوم على بلاد سيس ، فورد عليه رسـل صـاحبها يطلب الصلح ، فقبل السـلطان الصـلح بشرط أن يسـلموا ثلاث قلاع من قلاعهم وهى بهنس ومرعش وتل حمدون . وكانت قلعة بهنس من أقوى حصون الارمن تقع عند فم الدربند وباب حلب . ويعلق مغلطاى (١٨٥) ، على هذه الحادثة فيقول فلما فتح السلطان قلعة الروم وأخـذ خليفة الارمن حصـل للارمن خـوف عظيـم فصانعوا عن أنفسهم بهذه القلاع . عـلى أن الأرمن انتقموا لأنفسهم من المسلمين عنـدما عادت اليهم قلعة البهنس وقت مجىء التتار ،فأصاب المسلمين منها أذى (١٨٦) كبير . لذلك فقد كان من أهم الاعمال التى قام بها الناصر محمد فى شمال الشـام بعد طرد التتار ، هو تجريد عسكر كثيف من مصر والشام (سـنة ٦٩٧هـ / سنة ١٢٩٦م) لشن الغارات عـلى بلاد (سيس) فضاقت على الأرمن الارض بما رحبت وأكثر السـلطان فيهم الذبح والتقتيل وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة حتى اضطر ملكهم أن يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام ، والاجابة الى ما يرسم به سلطان الاسـلام .كما قبل أن يكون هو نائب السلطان فى بلاده، فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيجان حدا فاصلا بين المسلمين والارمن وأن يسـلم كل ماهو جنوبى نهر جيجان من الحصون والقلاع والبـلاد ، فوافق عظيـم الارمن عـلى كل شروطهم ، فأخذوا حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع (١٨٧) .

وهكذا نرى أن العنصر الارمنى كان من أكثر العصبيات غير العربية عداوة للمجتمـع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرن الثالث عشر.

أما عنصر المـوارنة والكسروانيين الذين يسكنون غرب بلاد الشام فى منطقة لبنان ،فقد كان فرنج الساحل كثيرا ما يوغرون صـدور تلك الطوائف ضد حكامهم المسـلمين فيقومون بالفتن والثورات . فقد حدث فى عهد السلطان الاشرف خليل أن شـق الكسروانيون عصـا

(١٨٣) كانت (أخلاط) قاعدة أرمينية الوسطى أخذها الايوبيين لمقاومتها لعصـبية الاكراد وهى قسم من أرمينية الكبرى وقاعدتها سيس (خطط الشام ج ٢ ص ١٣٩) .

(١٨٤) محمد كرد على : خطـط الشـام ج ٢ ص ١٣٩

(١٨٥) ابراهيم مغلطاى : تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس ص ٧٣

(١٨٦) كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ١٣٩

(١٨٧) مغلطاى : تاريخ سلاطين مصر والشام ص ٧٥

الطاعة ضده ، مما أضطره لأرسال حملة من دمشق (سنة ٦٩١هـ / سنة ١٢٩١م) بقيادة الامير بدر الدين بيدرا ، فسار الى جبل كسروان فى عسكر كثيف وعدة من الامراء ، الا أن الكسروانيين تمكنوا من انزال الهزيمة بهذا الجيش « فقويت شوكتهم واستطاعوا اطلاق سراح أسراهم ومحابيسهم من أرباب الجرائم العظيمة من سجون دمشق » (١٨٨) .

وكانت النتيجة الطبيعية لمعاونة التنوخيين فى غرب لبنان لجيش دمشق على قتال الكسروانيين ، أن تأصلت العداوة بين الفريقين حتى اذا كان سنة ٧٠٤هـ / سنة ١٣٠٣م أرسل أقوش (١٨٩) الافرم نائب دمشق الى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان (١٩٠) ، يأمرهم أن يصلحوا شئونهم مع التنوخية ويدخلوا فى طاعتهم (١٩١) ، فأفتى العلماء حينئذ بنهب بلادهم بسبب استمرارهم فى العصيان ، ومعاونتهم للفرنج (١٩٢) .

ويفصل لنا صالح بن يحيى (١٩٣) سلوك العصبية الكسروانية ، وكيف أنهم كانوا دائما مصدر قلق للدولة ، فهم دائما مع الخارجين عليها ، فكانوا مع التتار عند هجومهم على الشام ، ومع فرنجة الساحل ، بل وصل بهم الامر فى بعض الاوقات الى أنهم باعوا المسلمين للصليبيين فقد ذكر فى فتوح كسروان (١٩٤) فى حوادث (سنة ٧٠٥هـ / سنة ١٣٠٥م) وهى المرة الثانية فى توجه العساكر الشامية الى جبال كسروان وابادة أهلها ، فى أيام الملك الناصر محمد ، ذلك أن أهل كسروان قد طغوا وبغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا الى أذى العسكر عند انهزامهم من التتر (سنة ٦٩٩هـ / سنة ١٣٠٠م) وتراخى الامر عنهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وانه لا يمكن الوصول اليهم . فتوجه اليم الشيخ تقى الدين (١٩٥) بن تيمية وقراقوش (١٩٦) ، وتحدثا معهم فى الرجوع الى الطاعة ولكنهم لم يستجيبوا لنصحهم ، فعند ذلك رسم بتجريد العساكر اليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية » .

---

(١٨٨) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٣٦

(١٨٩) هو أحد كبار الامراء المماليك فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ، ولى نيابة دمشق من سنة ٦٩٩ هـ/ سنة ١٣٠٠ م حتى سنة ٧٠٩هـ/ سنة ١٣٠٩ م (ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص٤٧)

(١٩٠) هو زين الدين (أو محيى الدين) محمد بن عدنان ، نقيب الاشراف بدمشق (٦٢٦/٧٢٢هـ — ١٢٢٩-١٣٢٢م) (ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٧)

(١٩١) ابن الوردى : جـ ١ ص ٣٧٩

(١٩٢) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٤٤

(١٩٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص٢٦

(١٩٤) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ص ٢٢٩ ، النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ١٢ .

(١٩٥) هو تقى الدين أحمد بن تيمية الفقيه الحنبلى الشهير ، ولد سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م وتوفى فى سنة ٧٢٨ هـ/سنة ١٣٢٧ م) وكانت له اليد الطولى فى الحملة على كسروان (سنة ١٣٠٥م) (تاريخ بيروت ص ٢٧ حاشية «٥») .

(١٩٦) هو الامير بهاء الدين قراقوش المنصورى (المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٢) .

ومما يدل على قوة شوكة الكسروانيين وما كانت تسببه هذه العصبية من متاعب للدولة أن السلطان طلب من جميع نوابه المحيطين بجبل كسروان أن يخرجوا بجيوشهم لمحاربتهم والقضاء عليهم ، فقد توجه اليهم أقوش الافرم من دمشق فى نحو خمسين (١٩٧) ألفا من رجاله وتوجهوا الى جبال الكسروانيين والجرديين ، وتوجه سيف الدين اسندمر (١٩٨) نائب طرابلس وشمس الدين سنقرجاه المنصورى نائب صفد (١٩٩) . ويضيف صالح بن يحيى فيقول : « وطلع اسندمر من جهة طرابلس وكان قد نسب اليه تهمة مباطنتهم ، فجرد العزم وأراد أن يفعل فى هذا الامر ما يمحو عنه التهمة البشعة ، فطلع الى جبل كسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العسكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضا لم يكن أهلها يظنون أن أحدا يطؤها . وقطعت كرومهم وخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتمزقوا وتشتتوا فى البلاد . واستخدم اسندمر جماعة منهم من طرابلس بجامكية (٢٠١) وجراية (٢٠٢) من الاموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين . واقطع بعضهم فى طرابلس واختفى بعضهم واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم .

ونكاية فى الكسروانية فقد ولى السلطان نظارة بلاد بعلبك وجبال الكسروانية أكثر أمرائه قسوة وغلظة ، وهو الامير بهاء الدين قراقوش ، الذى قام على الفور باخلاء ما كان قد تأخر من الكسروانية بجبال كسروان ، وقتل من أعيانهم جماعة ثم أعطوا أمانا لمن استقر منهم فى غير كسروان . ولكى يقطعوا على الكسروانية خط الرجعة بالعودة الى بلادهم فقد اقطعوا كسروان لعلاء (٢٠٣) الدين بن معبد البعلبكى وعز الدين (٢٠٤) خطاب وسيف الدين بكتمر (٢٠٥) الحسامى وابن صبح (٢٠٦) ، ثم ابطلوا اقطاع المذكورين بكسروان وأقطعوه

---

(١٩٧) تاريخ بيروت ص ٢٨

(١٩٨) هو سيف الدين اسندمر الكرجى ، أحد كبار الامراء بدمشق ، ولى نيابة طرابلس فى سنة ٧٠١ هـ / سنة ١٣٠١م) وقتل فى سنة ٧٣٠ هـ / سنة ١٣٢١ م (ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨) .

(١٩٩) هو سنقر شاه المنصورى : أحد كبار الامراء بدمشق ولى نيابة صفد فى سنة ٧٠٤هـ ١٣٠٤ م ومات بها ٧٠٧ هـ ـ سنة ١٣٠٧ م (ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٢٠٠٠) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٨

(٢٠١) الجوامك جمع جامك وهى لفظة فارسية بمعنى مرتب والجوامك هى الرواتب السلطانية (المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٩٩ (حاشية) .

(٢٠٢) الجراية : هو ماتجريه أو تعطيه على عمالها من أموال مشاهرة أو مسانهة أو ماتدفعه من أشياء عينية . (المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨٠) .

(٢٠٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٦

(٢٠٤) هو عزالدين خطاب بن محمود بن رتعس العراقى . مات فى سنة ٧٢٥هـ ـ ١٣٢٥ م ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٨٥ ، السلوك جـ ٢ ص ١٦

(٢٠٥) كان بكتمر الحسامى حاجبا بدمشق ، ثم ولى ثغر الاسكندرية (ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٤٨٧) . ويذكر المقريزى اقطاع كسروان لسيف الدين بكتمر عتيق بكتاش الفخرى (السلوك: جـ ٢ ص ١٦) .

(٢٠٦) هو الامير شهاب الدين أحمد ابن على استقر فى نيابة صفد (تاريخ بيروت ص ٢٩) ولم يذكر المقريزى ابن صبح بين الامراء الذين أقطعت لهم الكسروان .
(السلوك جـ ٢ ص ٨٢٤ ـ ٨٢٥) .

(أى جبال الكسروان) لثلاثمائة فارس (٢٠٧)من التركمان مقابل توليهم درك البحر ودروب البر من ظاهر بيروت الى حد عمل طرابلس •ومن ثم فقد عرف أولئك المقطعون من التركمان باسم (تركمان كسروان) •

مما تقدم نستطيع أن نتبين مقـدار ماكانت تسببه العصبيات القبلية العنصرية من اضطرابات وقلاقل للدولة فى بلاد الشـام ،الامر الذى عاد بأسوأ الاثر عـلى المجتمـع الشامى على عصر الحروب الصليبية •

العصبيات المذهبية :

ولعل أكثر العصبيات تأثيرا فى المجتمـع الشامى على عصر الحـروب الصـليبية هى العصـبيات المذهبية والعقائدية ، فقد بلغت حدا من التناقض والتنافس فيما بينها وأحدثت شروخا عميقة ومتشعبة وخاصـة فى المجتمع الريفى فى بلاد الشـام • فبالاضـافة الى المذاهب السنية (٢٠٨) ، بلغ التشـيع فى بلادالشام وخاصة فى شمالها ، درجة واسـعة من الانتشار ، والمعـروف أن الدعوة الاسماعيلية شهدت طفرة كبيرة فى العصر الفاطمى بوجـه عام ، فقد أخـذت الفرق الحاكمة والآمرية والمستعلية والدروز والنصيرية وغيرها تمارس نشاطها فى شمال الشام عـلى أن كل فرقة من هذه الفرق انتشرت فى المجتمع الريفى وانقسمت على نفسـها واتخذت لكل فرع منهـا اسـم شخصية من شخصياتها البارزين ممـا كان له أسوأ الاثر على هذه الفرق وعـلى المجتمـع الريفى فى نفس الوقت • ويمـكن أن نلخص هذه الفرق وفروعها فيما يلى : —

الكسروانيون :

وهم من أهل الجبال ، وخاصـة جبـال كسروان التى نسبوا اليها كما سبق القول وهم من فرق الشيعة المعروفين بالنصيرية والعلويين والمتأولة (٢٠٩) وقد سبق ذكرهم فى العصبيات العنصرية ، ولكن لا بأس أن نذكرهم أيضـا ضمن العصبيات المذهبية • فقد دفعهم العداء المذهبى الى الوقوف مرارا الى جانب الصليبيين ومناوءة السلطات الحاكمة السنية فى العصرين الايوبى والملوكى • فقد حدث أثناء حصـار السلطان قلاوون لمدينة طرابلس (سنة ٦٩٥هـ/ سنة ١٢٨٩م) أن زحف الكسروانيون لنجـدة بوهيموند السابع أمير طرابلس (٢١٠) • وقـد استمر موقف الكسروانيين العدائى من سلطنة المماليك فى عهد الاشرف خليل والناصر محمد ،

---

(٢٠٧) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص٢٩

(٢٠٨) أنظر التفاصيل فى (الفرق المذهبية)•

(٢٠٩) محمد كرد علي : خطط الشـام ج ٢ ص ١٢٦

(٢١٠) Lammens: La Syrie. II. P. 16

كما سبق أن بينا ، حتى انتهى الامر بكسر شوكتهم تقريبا ، ورفعت أيدى الرفضة عنها كما يقول المقريزى (٢١١) .

التنوخيون :

وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشرت فى جهات متفرقة من لبنان وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حينا وللمسلمين أحيانا ، كما كانوا ينحازون الى المماليك طورا والى أعدائهم التتار أطوارا . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحتريين . وجد بيت بحتر هو الامير ناهض (٢١٢) الدولة أبو العشائر بحتر بن شرف الدولة على بن الحسين بن أبى اسحق ابراهيم منح الامارة بالغرب من جبل بيروت (سنة ٥٤٢هـ / سنة ١١٤٦م) فى أيام الامير مجير الدين بن تاج الملك بورى بن ظهير الدين طغتكين . وقد توطدت العلاقة بين زهر الدولة أبى العز كرامة ، وبين الملك العادل نور الدين بعد استيلائه على دمشق . وقد منحه العادل نور الدين (مرسوم مطلق) بين فيه نواحى الاقطاع التى أقطعه اياها جاء فيه « بعد البسملة » أن الامير النجيب زهر الدولة مفيد الملك أمير الغرب كرامة ، مملوكنا وصاحبنا من أطاعه فقد أطاعنا ومن عاونه فى جهاد الكفار فقد عمل برضانا وكان مشكورا منا ومن خالفه فى هذا الامر وعصاه فقد خالف أمرنا واستحق المقابلة » . وقد ورد فى المرسوم النواحى التى اقطعت له ، أربعين فارسا وغالب قرايا الغرب ومن غير الغرب القنيطرة من البقاع ، ظهر حمار من وادى التيم ، تعلبايا من البقاع وكذا برجه من صيدا والمرسوم مؤرخ (سنة ٥٥٦هـ/ سنة ١١٦٠م) وقيل أن المرسوم مكتوب بخط العماد الاصفهانى الكاتب .

ولم يستقر البحتريون على حال فقد انحازوا الى الصليبيين ، مما أغضب السلطان الظاهر بيبرس ، فاعتقل بعض زعمائهم فى مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهى من حروبه ، حتى اذا ماتم للسلطان فتح انطاكية أطلق سراحهم . وبرغم ذلك فقد ظل الظاهر بيبرس يتشكك فى ولاء البحتريين حتى أرسل قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم فى عنف (٢١٣) ، ولكن سرعان ما عاد البحتريون الى رشدهم ، فرجعوا الى موالاة دولة المماليك

---

(٢١١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٦٠
(٢١٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٩
(٢١٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥
ويحدثنا صالح بن يحيى عن عمائر البحترين فى لبنان وفى منطقة أعبية فيقول : كما تولى البحتريون درك أمراء الغرب ، انقسموا الى ثلاثة ابدال ، واتخذوا لهم كنيسة كانت توجد شرقى بيروت داخل السور ، منزلا لهم . ويقال ان الفرنجة قد أقامت هذه الكنيسة قبل ذلك بمائتى سنة للقديس فرنسيس الاسيس (ترجع الى سنة ١١٨٢ م) . وقد كانت مساحة الكنيسة كبيرة حتى أن أسلافهم اتخذوا منها اسطبل أقاموا فوقه أطباقا ، على أن البحترين مالبثوا أن باعوا الكنيسة لبعدها عن البحر ، واختاروا مكانا مجاورا له بالحارة المجاورة للحمام العتيق عرفت (بدار صاحب بيروت) أما عن دارهم فى منطقة أعبية ، فيقول صالح بن يحيى ، فانهم قايضوا عليها بدلا من دارهم التى كانت لهم فى (طردلا) وكانت من قبل ملكا لرجل من الطوارقة (والطوارقة) : هم آل

وغندئذ رد لهم السلطان الأشرف خليل اقطاعاتهم وعهد اليهم بحراسة بيروت وشواطئها سنة (٦٨٩هـ / سنة ١٢٩١م) كذلك ساعد البحتريون المماليك فى قتال غازان خان ، وذلك فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٢١٤) ٠

أما الارساليون وهم فرع من التنوخيين ومركزهم قُرب بيروت ، فعلى العكس من التنوخيين ، كانوا موالين لدولة المماليك واشتهروا بعدائهم للصليبيين ، فظفروا بعطف المماليك ورضاهم (٢١٥) ٠

المعنيون : لقد ظل المعنيون طوال عهد الحروب الصليبية يجاهدون فى سبيل الله ضد الكفرة المشركين ، مخالفين فى ذلك أقربائهم التنوخيين فى الغرب والشهابيين فى وادى التيم (٢١٦) ٠ وقد نال المعنيون ازاء هذه السياسة الحكيمة رضاء حكامهم المسلمين ، فأقطعوهم اقليم الشوف (٢١٧) ٠

الشهابيون الدروز : يسكن الشهابيون من الدروز ، كما سبق القول ، وادى التيم منذ (سنة ٥٦٩هـ / سنة ١١٧٣م) وهم من أكثر امراء الغرب شهامة وفروسية ، وقد شاركوا فى جهاد أعداء الاسلام فى بلاد الشام ، وأبلوا ابلاء حسنا فى قتالهم الذى كلل بالنجاح مع الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء اغارتهم على بلاد الشام فى عهد السلطان المنصور قلاوون (سنة ١٢٨١م (٢١٨) / سنة ٦٧٨هـ) وللشهابيين صلات ود وصداقة مع بنى معن ، انتهت بتحالفهما ثم توثقت الروابط بعد أن أصهروا اليهم ٠

المتأولة : من المعروف أن فرق الشيعة كثيرة متعددة (٢١٩) ، والمتأولة من فرق الشيعة الغلاة فى بلاد الشام ، ومن ثم فقد كان النزاع بينهم وبين الفرق الاخرى فى بلاد الشام على أشده فى عصر الحروب الصليبية ٠ وقد اتخذت المتأولة من الجهات الشمالية من لبنان لبنى حمادة سكنا لها ، ومن ثم فقد كان التنافس قويا بينهم وبين الشهابيين الدروز حول الزعامة على شمال لبنان (٢٢٠) ٠

محمد من آل عبدالله ٠ وقد احترقت تلك الدار سنة ٦٧٧ هـ / سنة ١٢٧٩ فجددها شجاع الدين عبد الرحمن البحترى فعرفت الدار باسم (بيت شجاع الدين) (تاريخ بيروت ص ١٠٦ حاشية ٣ و ص ١٠٧ حاشية) ٠ لاتزال بعض مبانيهم قائمة فى عبية فى وسط لبنان بينها مدفن السيد عبدالله التنوخى المتوفى سنة ١٤٨٠ م ولا يزال حجاج الدروز يترددون عليه (فيليب حتى : تاريخ سورية جـ ٢ ص ٣٢٥ حاشية) ٠

(٢١٤) أبو الفداء : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ
(٢١٥) ابن الشدياق : أخبار الاعيان ص ١٧٤
(٢١٦) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الادارى لسورية فى العصر العثمانى ص ١٣٦
(٢١٧) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢١٠
(٢١٨) ابن الشدياق : أخبار الاعيان ص ١٧٥
(٢١٩) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٦
(٢٢٠) Lammens: La Syrie. vol. II P. 13

وقد كان لمذهب المتأولة المتطرف ولآرائهم الشاذة أسوأ الاثر عند أهل الشام من حكام ومحكومين ، فكثر الاعتداء عليهم واضطهدهم حكامهم المماليك (٢٢١) •

النصيرية أو العلويون :

عاش النصيريون فى القسم الشمالى من جبل لبنان فى شبه عزلة يأتمرون فقط بشيوخهم (٢٢٢) • ولعل السبب فى تلك العزلة يرجع الى المغالاة فى مذهبهم • يقول النوبختى: « وقد شذت فرقة من القائلين بامامة على بن محمد فى حياته فقالت بنبوة رجل يقال له محمد بن نصير النميرى ، وكان يدعى أنه نبى بعثه أبو الحسن العسكرى » (٢٢٣) •

والنصيرية لم يكونوا دولة مستقلة ولكنهم اشتركوا فى أحداث بلاد الشام منذ القرن الخامس الهجرى فصاعدا (الحادي عشر الميلادى) فى مناوشات محلية تارة ضد الدروز (٢٢٤) وأخرى ضد المماليك ويقول عبد الرحمن بدوى (٢٢٥) ، ان متاعب النصيرية لم تنته بانتهاء العصر المملوكى فى بلاد الشام، بل انهم لاقوا الكثير من ألوان الاضطهاد (٢٢٦)• وعلى كل حال كانت جماعة النصيرية من أقوى عوامل التصدع والانقسام التى سببت شرخا عميقا فى المجتمع الريفى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر •

الاسماعيلية (٢٢٧) (الحشاشون) :

سكن الاسماعيلية على عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، الحصون والقلاع ومن أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والخوابى والمنيفة والرصافة • وقد قام الاسماعيلية الباطنية بدور مشهور فى تاريخ بلاد الشام فى تلك الفترة (٢٢٨) • وفى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يدخلون سوريا من الشمال الغربى كان الحشاشون (٢٢٩) يدخلون

---

(٢٢١) سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٢١٠
(٢٢٢) Domombynes: La Syrie à L'Epoque des Mamlouks. P. 227.
(٢٢٣) ويعتبر آخر مؤسس للنصيرية فى بلاد الشام ، كما جاء فى مدوناتهم هو حسن بن حمدى الخصيبى المتوفى سنة ٩٥٧ م الذى كان مولى اسماعيليا من موالى الحمدانيين فى حلب ، التنوخى فرق الشيعة ص ٧٨
(٢٢٤) الذين عرفوا فى تاريخ الصليبيين باسم (النزرى) Nazarei التنوخى : فرق الشيعة ص ٧٨
(٢٢٥) عبد الرحمن بدوى :مذاهب الاسلاميين ص ٧٩
(٢٢٦) أنظر النصيرية والعلوية فى الباب الاول (الفرق الدينية) •
(٢٢٧) أنظر الفصل الثالث •
(٢٢٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥٥٠
(٢٢٩) هم فرقة متجددة من الاسماعيلية ، اشتق اسمهم من لفظة (حشيش) العربية وهو عشب مخدر ، كانوا يعمدون الى تخدير أنفسهم به عند الاقدام على أعمالهم الانتحارية (تاريخ سوريةو لبنان ص ٤٤٥ حاشية «٧») •

من الشمال الشرقى ، واستقر بهم المقام فى أول معقل لهم فى مدينة بانياس (٢٣٠) • وكان أول أمير سلجوقى فى بلاد الشام انقاد لهم واعتنق مذهبهم الامير رضوان الذى تولى امارة حلب بعد وفاة والده تتش بن ألب أرسلان (سـنة ١٠٩٥م / سنة ٥١١هـ (٢٣١)) ثم أخذ نفوذ الحشاشين يتسع وتشتد شوكتهم فاستولوا فى (سنة ٥٣٦هـ / سنة ١١٤٠م) على عدد من الحصون فى المنطقة الجبلية فى شمالى سورية فاستولوا على قدموس ، وكان مقر شيخ (٢٣٢) الجبل فى مصياف وتمادوا فى عدوانهم فى عهد راشد (٢٣٣) الدين سنان (سنة ٥٥٨ / سـنة ١١٦٢م) الـذى تولى مشـيخة الجبل ثلاث سنوات ، كانت من أخطـر الفترات فى تاريخ المجتمـع الاسـلامى وغير الاسلامى فى بلاد الشام وذلك بسبب العديد من الاغتيالات لزعماء المجتمع من مسلمين وصليبيين ومغول • ولقد استطاع أحد وزراء نور الدين زنكى رشـوة راشد الدين بالمال لاغتيال صلاح الدين ، وقد حاول ذلك رجاله مرتين ولكنهم فشلوا (٢٣٤) وقد هاجم صلاح الدين قلعة مصياف لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وذلك لقوة أبراجها وكثرتها وبسـالة المدافعين عنهـا • ويقال ان صلاح الدين الايوبى استخدم الحشاشـين فى اغتيال كونراد مونتفرات ملك بيت المقدس (٢٣٥) • كما قتل الحشاشون الكونت ريمند الثانى حاكم طرابلس ، وامتـد نشـاطهم الى غربى أوربا فحاولوا اغتيال لويس التاسـع قبل قيامه من فرنسا ، بل امتـد هـذا النشـاط شرقا حتى منغوليا حيث حاولوا اغتيال أحد كبار الخانات هنـاك •

وانطلاقها من مبـدأ التقية (٢٣٦) الـذى يأخذ به غلاة الشيعة ، أرسـل شـيخ الجبل (سنة ١١٧٢م / سنة ٥٦٨هـ) وفدا الى بيت المقدس للمفاوضة بشأن احتمال اعتناق أتباعه للنصرانية ، الا أن الفرسان الداوية حرصـا منهم عـلى الجـزية التى كان الحشاشـون يؤدونها ، عمدوا الى قتل أعضاء الوفد (٢٣٧) • أما علاقاتهم بالملك لويس التاسع فقد تحسنت بعد ذلك فقد استقبل الملك لويس فى عكا وفدا من الحشاشين جاءه بمجموعة فاخرة من الهدايا الشرقية من أدوات للزينة ومجموعة من الحلى والمجـوهرات الى منسـوجات من الـدمقس والديباج وقوارير العطور والعنبر تقبلها لويس بالرضا والشكر ورد عليها بمثلها (٢٣٨) •

---

(٢٣٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشـق ص ٢٨٩ – ٢٩٠ – ٣١٤ – ٣١٦ أبو الفدا المختصر جـ ٣ ص ٢–٣

(٢٣١) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٥٧ – ١٥٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٦٨ .

(٢٣٢) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان جـ ٢ ص ٢٤٦

(٢٣٣) أبو الفدا : المختصر : جـ ٣ ص ٨٩ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٥٢١

(٢٣٤) أبو الفدا : جـ ٣ ص ٦٠–٦١

أنظر : Lewis: Saladin and the Assassins, in BSOAS, vol. XV (1953), PP.

(٢٣٥) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٥١ .

(٢٣٦) التقية : هى أن يظهر الفرد غير ما يبطن (الشهرستانى : الملل والنحل ص ٨٧)

(٢٣٧) William of Tyre vol. II P. 392, Burchard, P. 105.

(٢٣٨) Joirville. P. 250.

وقد لاحظ السلطان الظـاهر بيبرس أن طائفة الاسماعيلية لجأت عندما ضعف نفوذها فى بلاد الشام الى دفـع الاموال للصليبيين وخاصة الاسبتارية فى حصن الاكراد ، لذلك انتهز السلطان فرصة صـلحه مع الاسبتارية واشترط عليهم الامتناع عن أخـذ الجزية من الاسماعيلية • فقام الاسماعيلية بدفـع هـذا المال للسلطان قائلين : هذا المال الذى كنا نحمله قطعية للفرنج ، قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق فى المجاهدين (٢٣٩) الا أن الاسماعيلية لم يلبثون أن ضاقوا بهذه الجزية التى يدفعونها للظاهر بيبرس ، فأرسلوا اليه مقدم الاسماعيلية ببلاد الشام ، نجم الدين حسون بن الشعرانى ، يرجو أنقاص المال الذى يحمل اليه (٢٤٠) •

على أن نفوذ الاسماعيلية فى بلاد الشام ضعف وهان فى أواخر القرن الثالث عشر ، حتى أن بيبرس (٢٤١) اشترط عليهم أن تكون مصياف وبلادها للسلطان • ولم يكن صعبا بعد ذلك أن يستولى المماليك على حصون الاسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، ثم اقطعهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات فى مصر ليعيشوا فيها (٢٤٢) •

---

(٢٣٩) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٧

(٢٤٠) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٥٥٢

(٢٤١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص٨٢

(٢٤٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨

الفصل الثانى

عادات وتقاليد أهل الريف فى بلاد الشام :

تختلف العادات والتقاليد فى القرى وتتقارب فى الاعم الغالب بحسب قربها أو بعدها عن الحواضر ، وبحسب أصول سكانها ،فاذا كانوا من أصول عربية تجلت فيهم عادات البادية كأهل حوران مثلا الذين رسخت فيهم العادات والتقاليد البدوية (١) • بينما نجد أهل غوطة دمشق ، تتمثل فيهم حياة البداوة ، الاأنهم فلاحون مقيمون على الزرع والحرث وتربية الماشية (٢) • وعلى ذلك يمكن أن نقسم تقاليد أهل الريف فى بلاد الشام وعاداتهم الى قسمين : تلك التى يتبعها الزراع والثانية عادات وتقاليد القبائل البدوية وأحلافها فى بلاد الشام •

عادات وتقاليد الزراع :

ان الكثير من عاداتهم فى أفراحهم وأحزانهم خليط من عادات وتقاليد سورية قديمة متوارثة ممزوجة بالكثير من عادات وتقاليد العرب (٣) • ولعل من أحسن أمثلة تلك التقاليد ما يحدث فى حفلات الزواج ، اذ كان على الخاطب أن يمهر (٤) والد عروسه قبل عقد القران • فاذا ما تم القران يقدم أهل القرية الى العروسين أو الى والديهما الالطاف (٥) ، كما كانت ترشق العروس عند مرورها فى البلد بالعنصل (٦) •

بل ان المسلمين فى بعض قرى وادى بردى ، كانوا يشاركون جيرانهم المسيحيين مشاركة تامة فى كل أفراحهم وأتراحهم ، فاذا كان عند جارهم المسيحى فرح أو ترح ، يأتى المسلمون ليخدموا ضيوفه ، ويقدموا له الهدايا حتى يظهر أمام ضيوفه بالمظهر اللائق وكان المسيحيون يفعلون نفس الشىء (٧) •

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٨ و ٢١٠ ، كرد على : خطط الشام : ج٦ ص٣٠٦
(٢) ابن بطوطة : الرحلة ص ٢٢٤
(٣) U. Huart: Histoire des Arabes P. 307
(٤) النابلسى : رحلة الشام ومصر والحجاز ورقة (١٣٩) (مخطوط بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية) •
(٥) الالطاف : النقوط •
(٦) العنصل : نوع من أبصال الزهور يعرف ببصل الغار •
(٧) محمد كرد على :خطط الشام ج ٦ ص٣٠٨

والنساء المسلمات يعملن مع الرجال فى الحقول والمراعى فى كل قرى بلاد الشام سافرات على صيانة لا تبذل فيها ، ما عدا بعض القرى القريبة من الحواضر ، فان عادة الحجاب تسربت اليهن منذ العصر المملوكى ، فلبسن ملاءات من حبر اسود (٨) أو أزرق على الاغلب ، وفى بعض المدن ملاءات ملونة بأصفر وأحمر معا أو من اللون الابيض فقط ، كما وضعن المناديل والنقاب (٩) على وجوههن • أنظر أنظر (لوحة رقم ١١ ، ٢٩) •

وأهل الريف فى اتراحهم كذلك يتضامنون ويتعاطفون ، ففى الليالى الثلاث الاولى من الوفاة يجتمع فى مسجد القرية الرجال والاطفال ويكررون كلمة التوحيد وفى أيديهم سبحة كبيرة ينتظم فى سلكها خمسمائة حبة كل حبة منها فى حجم الجوزة (١٠) • فاذا دارت دورا سكتوا ، وتلا امام المسجد شيئا من القرآن ، ثم تدور السبحة دورا آخر فى ختامه ينتهى الذكر ويفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة بالغريبة (١١) • وفى صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع أهل القرية على القبر وتمد البسط على أطرافه وتوضع عليه قماقم ماء الورد وتنثر فوقه الزهور ويفرق على الحاضرين أجزاء الربعات من القرآن الكريم • وبعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس حلقة ويذكرون الله تعالى ويفرق على الفقراء شىء من النقود (الفلوس النحاسية والدراهم الفضية حسب حالة المتوفى الاقتصادية) ثم يتقبل أهل الميت العزاء وهم فى المقبرة • ويحدث مثل هذا فى اليوم السابع ويوم الاربعين • وفى اليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من القراء الى بيت الميت يتلون القرآن الكريم فى نهارهم وفى المساء تبسط الموائد ويفتح باب الدار للفقراء فيأكلون ويزودون (١٢) •

---

(٨) الحبرة والحبر : ضرب من ضروب اليمن والجمع حبر وحبيرات ، والحبير ماكان موشى ومخططا (ابن منظور : لسان العرب ص ١٩٤ ـ ١٩٥) •
ويقول دوزى ص ١١٠ : ان الحبرة لباس خارجى وانها نوع من البرد الواسعة المخططة • وعبارة دوزى هذه تجعل الحبرة محصورة فى شكلها المخطط فحسب بينما ورد فى النصوص القديمة : أن الحبرة قد تكون مخططة ومنمرة وموشية • كما ان الحبرة لم تقتصر على الرداء ، فقد تكون الحبرة مقطعات ورداء ووصائل وسرادق (صالح العلى : الانسجة ص ٥٦٤ ، صلاح العبيدى تاريخ اللباس فى العصر العباسى ص ٢٣٧) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٧٩) • (مخطوطة بالمدينة المنورة) •

(٩) من ملابس المرأة التى اتخذتها المرأة للرأس والوجه : النقاب ، وهو من أنواع البراقع لكنه صغير يوضع على الوجه دون المحجر (ابن سلام : الغريب المصنف (مخطوطة بالمتحف العراقى رقم (١٦٢٨) ورقة (٧) • وهو اما أن يكون شفافا أو مخرما يرى الوجه ن خلاله (الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ص ٦٤) • وكانت النساء يلبسنه عند حضور مجالس الوعظ من مجالس الطرب أو الاعراس • ويشير الجاحظ فى كتابه (الحيوان ص ١١٥) الى النساء اذا أدخلن الى الاعراس ، دخلن متنقبات كما كانت المرأة ترتدى النقاب أثناء خروجها من المنزل (الحريرى : المقامات الحريرية ص ١٢٦) •
كما كان يطلق على النقاب الفاظ مختلفة بالنسبة الى وضعه على الوجه ، فاذا أدنت المرأة النقاب الى عينيها فيطلق على ذلك الوصنوصة ، والوصوصة من العينين: اذا توصوص أى تنظر المرأة من حاشية النقاب (ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٩) (ابن (ابن دريد : كتاب الجمهرة ج ١ ص ٣٢٤) •

(١٠) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٩٣

(١١) علاء الدين العزولى : مطالع البدور فى منازل السرير ص ١٨٧

(١٢) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٩٢

أما نصـارى الريف ، فانه متى احتضر المريض يحضر اليه كاهنه ويسـتأديه واجباته الدينية ، وبعد أن يقضى نحبه يبقونه فى داره مدة أربع وعشرين ساعة يضـعونه خلالها فى صندوق من الصفيح (١٣) ، بينما يرسلون رقاع الدعوة لأهل القرية لحضور الاحتفال بالجنازة حتى اذا ما حان الموعد المحدد يضعون الصندوق فى نعش مزدان بالايقونات (١٤) وأكاليل الزهر ويحمل الى البيعة (كنيسة صـغيرة بالقرى) ليصلى عليه ثم يحمل بعـد ذلك الى المقبرة • وهناك يصطف الكهنة ويتلون آيات الانجيل ، ويقف وراءهم كبـار رجـال الطـائفة وحملة الصلبان والشموع من الصبية ، وحينما يصلون به الى اللحد يتقدم أحد الادباء ان وجـد أو كبير الطائفة فيرثيه ثم يوارونه فى لحده ، ثم يصطف أهل المتـوفى للتعـزية فيمر عليهـم المشـيعون لجنازته لتعـزيتهم وفى مقدمتهم المطران ولفيف الكهنة •

وفى اليوم الثالث من الوفاة يجتمع أهل القرية المعزون فى البيعة بعـد أن يسرجونهـا بالقناديل (١٥) أو المسراج (١٦) حسب الحالة، ويعرف هذا الاجتماع باسم الجنازة • وتعاد الصلاة بالكيفية السابقة فى اليوم التاسع وفى يوم الاربعين ونصف السنة وتمام السـنة • ومن التقاليد الجديرة بالذكر بالنسبة للنصارى فى مآتمهم هو أن حداد الولد على أبويه يمتد الى ثلاث سنوات • أما بالنسبة للأخ والزوجين فسنتان فقط (١٧) •

ومدة النوح عند أهل القرى عامة مسلمين ومسيحيين ، سـبعة أيام كاملة ، ومن العـار عندهم بكاء الرجال الى غير ذلك • ومن عادات الريف الجميلة فى هذه المناسبات حمل الطعام الى بيت أهل الميت تخفيفا عليهـم ومواسـاة لهم (١٨) •

وكما تتشابه عادات أهل القرى والريف كذلك تتشابه ألبستهم ، فبالنسبة لزى الرجال فانهم يضـــعون على رءوسهم الكوفية (١٩) والعقال • أما عن شـكل الكوفية أو غيرها من اللباس ، فانه من العسير أن نحصل عليه من المعاجم وحـدها ، اذ أنها فى الاعم الغـالب ، تتناول جانبا واحـدا من وضـعها ، قد يكون وصفا للمادة الخام وقد يكون لطريقة صنعها أو تشخيصا للزخارف والرسوم التى تحتويها • وقد رأيت اتماما للفائدة وتوضيحا لشكل اللباس

---

(١٣) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٧٩) (مخطوطة بالمدينة المنورة)

(١٤) محمد كرد علي : خطـط الشـام جـ ٦ ص ٢٩٣

(١٥) القنديل : عبارة عن وعاء معدنى أوزجاجى توضع بداخله الشعلة التى تعرف باسم (القراية)

(١٦) المسرجة : آنية خزفيـة بسيطة تضـاء بالزيت والفتيلة •
ص ١٧٧

(١٧) عبد الرحمن عبد الرازق : حدائق الانعام فى فضائل ومحاسن الشام ص ١٣٧

(١٨) محمد كرد علي : خطـط الشام جـ ٦ ص ٣٠٧

(١٩) محمد كـرد علي : خطط الشـام جـ ٦

والزى أن أعتمد فى التعريف بها على المصدرين الاساسيين وهما كتب التاريخ والمعاجم وكذا الآثار المنقولة التى لاتزال حتى اليوم •

أما عن الكوفية والعقــال التى كان أهل الريف فى بلاد الشام يستخدمونها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فيصفها دوزى [٢٠] بقوله : « يبدو أن اسمها اتخذ نسبة الى مدينة الكوفة ، وهى عبارة عن منديل مربع يلبس فوق الرأس وله من الطول ذراع ومثله من العرض• وهو من ألوان مختلفة ، فمنه لون أحمر غامق أو ضارب الى الدكنــة أو من اللون الاخضر الزاهى ، ومن الاصفر المرقط أحيانا ترقيطات واسعة وأحيانا ضيقة وعــلى طول النهــايتين المتقابلتين لها أهداب كثيرة مؤلفة من شرائط •وتلبس الكوفية والعقال بطى المنديل بصــورة منحرفة ، وتوضع على الطاقية بهيئة تتدلى منها على الظهــر الزاويتان المثبتتــان والزاويتان الاخريان على الجبهــة • وقد تكون الكوفيــة مثقلة [٢١] • وهناك قطعة من الصوف تلف حول الكوفية أو التخفيفة [٢٢] • وتكون مبرومة [٢٣] برما شــديدا بحيث تكون أشـــبه ما يكون بالحبل [٢٤] • (أنظر لوحة رقم « ٢٤ ») •

أما الملابس الداخلية التى يرتديها الرجال فأهمها القمصــان الطويلة المرســلة الاردان والتبان والسراويل • وكان القميص من لباس البــدن الداخلى ، فقد ذكر الجاحظ [٢٥] ، أن القميص والسروال هما الشعار وسائر الثياب الدثار • ويمتاز القميص بوجود كمين واسعين يهبطان الى المعصم ويتدلى من حاشــيته الى منتصف الســـاقين • ويعد التبان من لباس البدن الداخلى ، وهو عبارة عن سروال صغير يستر العورة [٢٦] • وقد اتخذ التبان من طبقات العامة التى لا تجد غضاضة فى اســتعماله ذلك أن العرب كانت لا تستسيغ لبسه ، اذ يقــول العــربى : « أنا لا أرقــع الجريان ولا ألبس التبان » [٢٧] • ولقد أقبل العامة على استعمال التبان لانه يلائم طبيعة عمــل الكثــير منهم كالملاحين والمصارعين والفلاحين و فى ذلك يقول الجاحظ [٢٨] : « ان التبان سراويل صــغيرة يتسربل به الملاحين والمصارعون ، كما استعمل

---

(٢٠) دوزى : معجم اللباس ص ٣١٥ (مترجم)
(٢١) الصابى : رسوم دار الخلافة ص ٩٦ ــ ٩٧ ، المثقل : هو ماكان منســوجا بالــذهب
(٢٢) ابن أبى أصيبعة : عيــون الانباء جـ ٢ (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧) •
(٢٣) دوزى : المعجم ص ٣١٥
(٢٤) ولعل أقرب الاشكال الى العمامة والعقال تلك الرسوم التى وجدناها ممثلة ابريق من المعدن صنعه شجاع بن منعمة الموصلى فى القرن الثانى عشر اذ نجد كوفية عــلى رأس عازف القيثارة ، ورسم شخص آخر يجلس بجوار جارية ويغطى رأسه بما يشبه الكوفية ، كما نجد فوق الكوفية قطعة مبرومة مكونة من الصوف تحبس الكوفية التى نسميها العقال •
أنظر لوحة رقم (١) •
(٢٥) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٤
(٢٦) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٠٠ ، ابن منظور : لسان العرب ١٣ ــ ٧٢
(٢٧) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٧
(٢٨) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٧٧

من قبل عمـال الحمامـات وكـذا الفلاحـون وسائسوا الخيل (٢٩) • (أنظـر لوحـة رقم « ٢٥ ») •

كذلك اسـتعمل الفلاحون الازار لباسـا داخليا الى جانب الانواع الاخرى ، فقد جاء فى مخطوط كتاب الترياق لجالينوس الذى يرجع تاريخه الى سنة ٥٩٥هـ / سنة ١١٩٩م)(٣٠) ، وأن زارعا فى ضيعة ، كان صاحبها يرسل لهم طعامهم • وفى يوم حمل اليهم زادا وشرابا ، وكان الشراب فى بستوقة (جرة فخار) مطين الرأس لم يفتح ، فلما فتحوه وجدوا فى الشراب أفعى الى آخر القصة ، والذى يعنينا من هذه القصة ، أن نعرف أنه كان على صاحب الارض أن يتولى اطعام فلاحى أرضه ومزارعيه ، أما صورة المخطوطة فتبين لنا شكل الازار ، كمـا تبين لنا أن الفلاح كان يلبس فى بعض الاحيان ازارين أحدهما يغطى أسفل الجسم وهو من النوع الفضفاض ويصل الى أسفل الركبتين ،وازار علوى وضع على الجسم بحيث لامس وسطه الصـدر والقى طرفاه عـلى الكتفين ،ويتدلى من وراء الظهر ثم لف الطرف من فوق الذراعين ليظهر من الامام مرة أخرى ،وينتهى طرفا الازار بلون اسود (٣١) (أنظـر لوحة رقم ٢٦ ، ٤٦) •

ومن ملابس رجال الريف الخارجية الهامة الجبة • والجبة ، كما جاء فى معاجم اللغة ، من لباس البدن التى تخضع لتفصـيل وخياطة ،ولها أردان واسـعة فضفاضـة • ويعرفهـا ابن منظـور (٣٢) بقوله : « بأنهـا ضرب من مقطعات الثياب ، أما دوزى (٣٣) فيقول ،الجبة هى رداء مفتـوح فـوق الرداء الاول وهـو القفطان ، وردنا (٣٤) الجبة قصيران بالنسـبة لردن القفطان وتبطن الجبة فى الشتاء ببطانة من الفرو (لوحة رقم ٤٣) •

ولما كانت الجبة لباسا عاما لبسه أعاظم الناس وأصاغرهم ، فهى اذن لابد أن تكون قد اختلفت فى شكلها ونوعها ولونها من طبقة لأخرى ، فمثلا جبة الاثرياء كانت تمتاز بعرضها وطول نيلها (٣٥) وارتفاع ثمنها (٣٦) • بينمـا امتازت جبة الفقراء بقصر طولها (٣٧) ، وحفلت

---

(٢٩) ونرى فى اللوحة رقم (٢) وهى صورة من مخطوط كتاب الترياق لجالينوس ، تمثل صورة مجموعة من الفلاحين من القـرن (١٣) يرتدون التبان ، أحدهم مشغول بحفر ألضه وآخر يذرو القمح بالمذراة ، كما يظهر فى الزاوية السفلى من الجهة اليمنى فلاح ثالث • وقد ثبت الاول تبانة على وسطه برباط يعرف بالتكة •

(ابن سيده : المخصص جـ ٤ ص ٨٤ ، Ettinghausen. P. 4.

(٣٠) محفوظ فى المكتبة الاهليـة فى باريس (ورقة ٦٥) •

(٣١) أنظر لوحة رقم (٣) Pope: Survey of Persian Art vol VP. 812.

(٣٢) ابن منظور : لسان العرب ٢٤٢/١

(٣٣) دوزى : المعجم ص ٩٤

(٣٤) الردن بالضم أصل الكم ، يقال قميص الردن والجمع الأردان •

(٣٥) الجاحظ : التاج ص ٤٢

(٣٦) الشابشتى : الديارات ص ٢٩

(٣٧) التنوخى : الفـرج بعد الشـدة جـ ٢ ص ٢٥٧

جباب المتصوفة بالرقاع العديدة وكذلك الحال مع الفقراء فقد كانت جبابهم هى الاخرى مرقعة [٣٨] •

كذلك كانت الجبة زيا من الازياء الخاصة بالمسيحيين ، فقد جاء فى دوزى [٣٩] ما نصه : ان جبة رهبان القديس أنطوان ، كانت تختلف اختلافا جوهريا عن الجبة العادية من حيث انها لم تكن مفتوحة من الجهة الامامية • ولدينا أيضا لباس البدن الجمازة ، وهى كما يصفها ابن سيدة [٤٠] : « جبة مشقوقة المقدم قصيرة تصنع من الصوف • على أن الجماز ثوب شعبى استعمله الفلاحون بكثرة يرتدونه فى أوقات خاصة معينة كأوقات العمل ، وتتكون عادة من رداء قصير يغطى أعلى الجسم وله فتحة من الامام كما أن له ردنين قصيرين يمتدان الى الكوعين • وهما مزينان بشريطين عريضين خاليين من الزخرفة أنظر (لوحة رقم ٢٥) •

والقنباز (أو العنباز) [٤١] لباس خارجى لرجال الريف فى بلاد الشام يعتزون به ، وهو فارسى الاصل [٤٢] ، ويعرف بالقباز •

وهناك نوعان [٤٣] من الاقبية من حيث شكلها وهيئتها ، وهما القباء العربى والقباء الفارسى • أما العربى فيتكون من ثوب طويل مقفل من الامام بأزرار ومقور تمام التقوير فى موضع الرقبة ، وهو يشبه بعض الشبه ملابس الارمن • ويلبس تحت القباء الجبة ، أو قد يكون القباء هو القفطان [٤٤] • وقد ظل القباء متداولا بين المسلمين الى عصور متأخرة مع ما طرأ عليه من تغير فى التسمية ، فقد عرف عند العراقيين باسم (الزبون) [٤٥] وعند المصريين والشاميين باسم (القنباز) [٤٦] (أنظر لوحة رقم « ٢٧ ») •

ويلبس الرجال فى أرجلهم المداس والنعال ، أما المداس فهو كل ما يلبس فى القدم دون تمييز ، أما النعال فكانت من لباس العرب [٤٧] المشهورة ، فقد كانت الفرس تلهج بذكر الخف بينما تلهج العرب بذكر النعال [٤٨] • ويلحق بالنعال عادة (الشراك) وهو سير

---

(٣٨) دوزى : المعجم ص ٩٣
(٣٩) المرجع السابق ص ٩٤
(٤٠) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٣٦ ص ٣٠٧
(٤١) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦
(٤٢) الجواليقى : المعرب ص ٣١٠
(٤٣) دوزى : المعجم ص ٢٩٠
(٤٤) ماير : الملابس المملوكية ص ٩٠ (مترجم) (مترجم)
(٤٥) الصابى : رسوم دار الخلافة ص ٣٧ (حاشية ٥)
(٤٦) أنظر لوحة رقم (٢٥)
(٤٧) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ١١٤
(٤٨) الجاحظ : البخلاء ص ١٠٤

النعل (٤٩) ، ولذا فقد كان يحرم على الناس الدخول بالنعال فى الاماكن المقدسة كالمساجد والجوامع وعليهم تركها خارج أماكن الصلاة (٥٠) ، مما كان يعرضها لكثير من حوادث السرقة (٥١) . (أنظر لوحة رقم « ٢٨ ») .

أما المرأة فقد كانت تضع على رأسها الخمار ، حتى قيل الخمار (٥٢) للمرأة وهو ما تغطى به رأسها (٥٣) ويصف ابن سيده (٥٤) الخمار فيقول : « الخمار هو الجلباب ، أما صاحب العين فيقول عن الجلباب انه ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تغطى به المرأة ظهرها وصدرها . يفهم من النص المتقدم أن الخمار لم يقتصر استعماله كلباس للرأس فقط وانما اتخذ لباسا للبدن (٥٥) الى جانب كونه لباسا رئيسيا للرأس . أنظر لوحة رقم «٢٩» .

ومن ألبسة الرأس التى لبستها المرأة فى الريف فى بلاد الشام العصابة ، والعصابة كل ما تعصب به الرأس كما يقال للعمائم العصابة (٥٦) .

ويصف دوزى (٥٧) العصابة فيقول : ان كلمة عصباة كانت تعنى فى العصر الاسلامى الاول شبه عمامة ، ثم أصبحت لباس رأس يشبه العمامة تلبسه الجوارى (٥٨) . وكانت المرأة الريفية فى سوريا تلبس فى الافراح والمناسبات السارة نوعا من العصائب تعلق بها سلاسل معدنية ، تعرف باسم (شنبر) وكانت المتزوجات يتلفعن به ويربطنه من الوراء أما الارامل فكن يعصبن عليه المنديل (٥٩) .

وقد كانت المرأة القروية فى بلاد الشام تلبس (الاتب) من ملابسها الداخلية والاتب ثوب تشقه المرأة وتلقيه فى عنقها من غير كمين ولا جيب (٦٠) . وقيل الاتب ما قصر من الثياب حتى نصف الساق غير مخيط الجانبين (٦١) ذلك من ألبستها الداخلية « الاصدة » ، وان كانت خاصة بالفتيات يلبسنه فى مناسبات الافراح والاعراس .

---

(٤٩) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ١١١
(٥٠) البيهقى : المحاسن والمساوىء ج ٢ ص ٣٩٣
(٥١) ابن الجوزى : الاذكياء ص ١٧٦-١٧٧
(٥٢) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٧
(٥٣) ابن منظور : لسان العرب ج ٤ ص٢٥٧
(٥٤) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٢٨ - ٣٩
(٥٥) صلاح العبيدى :تاريخ اللباس فى العصر العباسى ص ١٥٧ (رسالة لم تنشر)
(٥٦) ابن دريد : كتاب الجمهرة ج ١ ص٢٩٦ ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٦٠٢
(٥٧) دوزى : المعجم ص ١٤٦
(٥٨) صلاح العبيدى : تاريخ اللباس فى العصر العباسى ص ١٩٦٢
(٥٩) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٣٠٧
(٦٠) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ١١٢
(٦١) ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٢٠٠
(٦٢) ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٢٠٠

وترتدى المـــرأة فى الريف الى جـــانب الالبسة المتقدمة ، نوعا آخر يعرف بالجلباب وهو عبارة عن ثوب تغطى به المرأة صـــدرها وظهرها ، وتلتحف به النســـاء من الرأس الى القدمين حين يردن الخروج من منازلهن • فهو اذن من ملابس المرأة الخارجية (٦٢) •

ومن اللباس المشـــترك بـــين الرجـــال والنساء ، نوع من الاحزمة يعرف « بالزنار » وهو أيضا من أزياء أهل الذمة ، فقد فرضـــت الدولة على المرأة الذمية أن تشد زنارا فوق الازار وتحته ويكون فى عنقها خاتم يدخل معها الحمام (٦٣) • وقد ذكر الوشاء (٦٤) أن النساء المتطـــرفات لا يشركن الرجـــال فى الزنانـــير العراض ، ولا يذهبن فى ألوانهـــا الى البياض ولاماكان منها كثير الالوان والتخطيط ويتطيرن من الالوان •

وكانت المرأة الريفية تتحلى بالاســـاور الفضية الضـــخمة فى معصـــمها وفى أرجلهـــا الخلاخيل ، وفى اذنهـــا بالتـــراكى الذهبيـــة (حلق مستدير) وفى أصابعها خواتم فضية • كما كانت تتحلى بالوشم (٦٥) •

---

(٦٣) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٥٥
(٦٤) الوشاء : الموشى ، والظرف والظرفاء جـ ٢ ص ١٢٧ •
(٦٥) محمد كرد علي : خطط الشام جـ ٦ ص ٣٠٧ •

عادات وتقاليد البدو :

لعل من أهم عادات قبائل البدو فى بلاد الشام عدم الاستقرار فى مكان واحد فهى تصطاف فى مكان وتشتو فى آخر (٦٦) ، وقل أن تألف سكن الدور • وهم يتخذون بيوتا من الخيام والمضارب المنسوجة من شعر الماعز ،يعمدونها بعمد ويشدونها بأطناب (٦٧) ، ويضربونها حيث نزلوا لرعى ماشيتهم ، ومن ثم فقد كان عليهم أن يحملوا معهم أثاثهم ومؤونتهم ودوابهم • وجاء فى الاعلام (٦٨) ،أن عرب الشام شاويه يقومون على تربية الشياه الماعز ويربى بعضهم الاباعر • والشاوية من الاسماء التى تطلق على عشائر دير الزور (٦٩) على الفرات خاصة لانهم جماعة شياه • ومعاش البدو من مواشيهم وما تدره من سمون وألبان وأجبان والزبد وما يبيعون من نتاج قطعانهم •

وتبتعد منازل البدو عادة عن سواحل البحر (٧٠) المتوسط • بل تمتد فى الداخل حتى ينتهى العامر من ديار الشام فى الجنوب والشرق حيث توجد البداوة بأجلى مظاهرها (٧١) والى جانب ذلك هناك جماعة من القبائل شبه حضرية ، فمنها فمنها من يزرع الارض ويفلحها ويفضل حياة الاستقرار ويدفع للدولة أجر حمايته ويعتمد فى الدفاع عن نفسه على سيفه وعصبيته (٧٢)• نذكر من هذه القبائل على سبيل المثال لاالحصر عشائر الفضل والهوادجة النازلين على ضفاف بحيرة الحولة ، وبنى صخر النازلين فى البلقاء وبنى حسن فى عجلون ، والعكيدات والحسنية فى ارجاء حمص ، وبنى خالد عرب حماة ،والحديديين والموالى والغيار عرب حلب ، والسبعة والفدعان من عنزة النازلين من بحيرة الجبول الى سلمية ونقار والصقور عرب بيسان ونابلس وجنين وطول كرم • وعشائر شرقى الاردن التى تشتو فى وادى العربة أو الاغوار وتصطاف فى المراعى (٧٣) •

وللبادية قضاؤها الخاص ، فقضاتهم منهم ويتقاضون عندهم نظير أجر معلوم وأحكامهم سريعة نافذة • ومن أحكامهم ما هو مطابق للشرع الاسلامى ، ومنها ما هو متوارث • ويفض الخلاف بين المتخاصمين على ايدى الرؤساء والشيوخ صلحا فى الاعم (٧٤) الغالب • وقل أن يرجع البدوى الى الدولة فى حل مشاكله لانها تلجأ فى سبيل معرفة الحقيقة وتطبيق العدل الى البحث والتحقيق ، ولكنه يود أن يحكم له أو عليه فى جلسة واحدة (٧٥)•

---

(٦٦) عبد الرحمن عبد الرازق : حدائق الانعام فى فضائل محاسن الشام ص ١٢٧ •
(٦٧) علاء الدين الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ص ١٨٧ •
(٦٨) أحمد العدوى العثمانى : الاعلام فى فضائل الشام ورقة (١١٩) •
(٦٩) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٧١٤ •
(٧٠) الاعلام فى فضائل الشام ورقة (١٢٢)
(٧١) البدرى : محاسن الشام ص ١٤٦
(٧٢) البصروى : تحفة الانام فى فضائل أهل الشام ورقة (١٠٩)
(٧٣) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢١٦ •
(٧٤) أحمد العدوى العثمانى : الاعلام ورقة (١٢٧) •
(٧٥) البصروى : تحفة الانام ورقة (١١١)

فى عقوبة الجرائم ، مثل القتل ينفى القاتل فى بعض القبائل لمدة سبع سنوات ، فاذا صالح أهل القتيل ودفع الدية يعود الى عشيرته، ولا يحق لهم بعد مضى سبع سنوات أن يثأروا للقتيل • وجزاء السارق تغريمه المال المسروق من ضعف الى أربعة أمثال (٧٦) •

ويحسب ثراء البدوى بعدد زوجاته ، اذ تراه يمضى نهاره وجزءا من الليل تحت خيمته يحتسى الشراب ويستمع الى الاخبار والاساطير ، على حين ترعى زوجاته وبناته الغنم والجمال ويحتطبن أو يزرعن ويفلحن • وتحمل المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد أو تستقيه فى قرب تحملها على حمار ، هذا بالاضافة الى الاعمال المنزلية من طهو واستخراج الزبد والجبن وعمل الخبز • فاذا ماجن الليل جلست الى منسجها ونولها تغزل وتنسج ملابس العائلة وفرشها (٧٧) •

ويعتقد البدوى انه لا ذكر أبقى ولا ارث أفضل من سمعة الكرم والجود ، فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنيا كان أو معدما ، الا ويسرع لتهيئة كل ما يملك ، بل ان بعضهم يلجأ الى تحمل اعباء الدين لارضاء قاصده • واذا استأمنهم أحد على أمانة لحفظها افتدوها بأموالهم وأولادهم وأنفسهم • وكذا اذا لجأ اليهم خائف أو استجار بهم مظلوم أو نزل عليهم موتور مطرود (٧٨) •

أما ملابس البدو فى بلاد الشام فلعل أهمها (البت) وهو ثوب من صوف غليظ يشبه الطيلسان (٧٩) ويسمى عند بعض الاعراب « الساج » (٨٠) • أما اذا صنع « البت » من الخز الاخضر فيكون لباسا للمرأة البدوية تلتحف به فيغيبها (٨١) • ومن ملابس الرجال الخارجية العباءة ، وهى ضرب من الاكسية قصيرة مفتوحة من الجهة الامامية لا أكمام لها، ولكن تستحدث فيها تقويرات لامرار الذراعين، وتصنع العباءة من الصوف المبروم المخطط الموزع على سطور بيضاء سوداء (٨٢) ، والخطوط البيضاء أعرض من السوداء (٨٣) •

كذلك تعتبر الفرجية من ملابس البدوى الخارجية الهامة ، وهى نوع من الاقبية التى تتألف من ثوب واسع له كمان وفيه شق من خلفه • وهى بهذا تختلف عن القباء ، حيث أن الاخير تكون فتحته من الامام • وتصنع الفرجية من الوبر ، فهى من لباس الشتاء فقد جاء فى كتاب الباهر (٨٤) فى حوادث سنة ٥٢٠هـ / سنة ١١٢٣م أن أقسنقر البرسغى قام من فراشه فى احدى ليالى الشتاء بالموصل « وعليه فرجية وبر صغيرة ، وبيده ابريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به » •

---

(٧٦) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٣٢٠ •
(٧٧) الغزولى : مطالع البدور ص ١٨٧
(٧٨) حدائق الانعام ص ١٣٢
(٧٩) بدرى : الطيلسان ص ١٧٠ •
(٨٠) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٧٩
(٨١) القاموس المحيط : ج ١ ص ١٤٢
(٨٢) دوزى : المعجم ص ٢٣٨
(٨٣) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨١
(٨٤) ابن الاثير : الباهر فى الدولة الاتابكية ص ٣١ •

الفصل الثالث

النظام الاقطاعي في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وأثره في الاوضاع الاجتماعية

ان المتصدى للكتابة عن المجتمع الريفي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، سواء أكان من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية ، لابد له أن يتناول النظام الاقطاعي فى هذه البلاد فى شيء من التفصيل . ذلك أن دراسة الريف فى القرنين السادس والسابع للهجرة (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) من الناحية الادارية والاقتصادية والاجتماعية ، تخضع خضوعا تاما للنظم الاقطاعية فى بلاد الشام .

كما أن المجتمع الريفي فى بلاد الشام تأثر الى حد ما بالمجتمع الصليبي الذى استقر فى تلك البلاد قرابة قرنين من الزمان ، ومن ثم ترك فيها بصمات واضحة ، الامر الذى حتم علينا أن نبين أثر هذه البصمات على المجتمع الريفي والنظام الاقطاعي بها .

فقد نشأ فى بلاد الشام منذ الفتح العربي نظام اقطاعي من نوع خاص ، فقد كان الفاتحون من خلفاء وأمراء وسلاطين يهبون قادتهم وكبار موظفيهم المقاطعات ، فيعمد هؤلاء بدورهم الى تقسيمها الى مناطق يوزعونها على الاتباع ، أما الارقاء والعبيد فقد كانوا يقومون بزراعة الارض وحرثها . أما جباية الخراج من غير المسلمين فقد كان يعهد بها الى بعض الجباة على سبيل الضمان الى أن جاء العباسيون فأبطلوا ضمان المزارع بالمزايدة ، واستبدلوا به نظاما يؤدى المزارعون بموجبه ايجارا معينا ثابتا (١) .

وأكثر الفاطميون فى عصرهم الاول من التصرف فى أراضى الحوز بمنحها على هيئة اقطاعات ، ومعنى هذا أن تتنازل الدولة عن جزء من الاراضى التابعة لها الى بعض الافراد (٢) كمكافأة لأعوانها وأتباعها ، والى جانب هذا النوع ، نجد اقطاع الاستغلال فتمنح بعض الاراضى الى الافراد من الوزراء والامراء والاجناد (٣) ، وكان المقطع يدفع مبلغا معينا

---

(١) القلقشندى : ج ١٣ ص ١٢٣ وما بعدها ص ١٣٨ ص ٤٠٩ ـ ٤١٠

A . N . Pobak , Feudalism in Egypt ,Syria & Palelestihe and the Lebanon . (London 1939) . P . P . 18 Seg .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ١٣٨ ص ٤٠٩ ، ٤١٠

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٦ ، ج ١ ص ٨٣ .

من المال وهو يقل بطبيعة الحال عن المال الذى يجبيه من المنطقة التى اقطعت له • ولم يكن شرطا أن تكون الارض المقطعة فى جهة واحدة بل جاز أن يشمل الاقطاع جهات متفرقة •فقد أقطع الخليفة العزيز الوزير يعقوب بن كلس اقطاعا بمصر والشام مبلغه كل سنة ثلاثمائة ألف دينار (٤) • كما لجأ الخلفاء الفاطميون الى مصادرة الاقطاعات اذا لم يف المقطع بالتزاماته الى أثار سخطا على الدولة (٥) •

كما نلاحظ أن المقطعين فى أواخر العصر الفاطمى كانوا من الجند وكبار الموظفين والامراء ولعل اضطراب الحالة الاقتصادية جعل كثيرين من أبناء الشعب لا يقدرون على المشاركة فى المزايدات التى كانت تعقد بشأن هذه الاقطاعات • هذا الى جانب زيادة مدة الاقطاع الى ثلاثين عاما ، وهى المرة الاولى التى تزادفيها مدة الاقطاع الى هذا الحد ، مما حدا ببعض المؤرخين الى اعتبار هذا الامر تمهيدا لنظام الاقطاعات العسكرية الذى ظهر زمن السلاجقة (٦) • وفى الحقيقة أنه برغم أن الاقطاعات فى الفترة الاخيرة للدولة الفاطمية كانت تقطع للاجناد ، الا أنها لم تتعد أن تكون تأجير أراضى الدولة الى طائفة من القادرين على دفع أجرة الارض فى وقتها دون التزام بالخدمة العسكرية من جانب المقطع • بل أصبح للخلفاء اقطاعات يمنحها اياهم الوزير صاحب السلطان الفعلى فى ذاك الوقت (٧) •

نخلص من هذا الى أن الدولة الفاطمية أقطعت اقطاعات فى الاحوال الاستثنائية كمنح اقطاعات من الاراضى الزراعية لأمير أو وزير أو قائد ، شأنها فى ذلك شأن جميع الدول الاسلامية عدا الدولة السلجوقية التى اتبعت نظام الاقطاع الحربى فنبذت نظام الرواتب والمهايا والاعطية النقدية الى نظام المكافأة على أساس اقطاعى (٨) •

وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) زاد استبداد المستبدين بأمور الخلافة العباسية فعاثوا فى شئونها فسادا ،وأساءوا التصرف ليس فقط فى اقطاع البلاد والقرى ، ولكن أيضا فى اقطاع حقوق بيت مال المسلمين لانصارهم وحواشيهم (٩) ، فقد حدث عندما تسلم السلطان معز الدولة أبو الحسن أحمد البويهى وجنوده الديلم وغيرها ، أعمال العراق ولاية واقطاعا ، ان أقطع قادته وأصحابه من أهل عصبيته وخواصه وأتراكه جميع ما امتدت اليه يده من ضياع الخلافة العباسية وضياع الملتزمين بل بلغ الامر انه

---

(٤) المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٦

(٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٥٩

(٦) Sur la nature et les revelution du droit de proprietè territoriale depuis la conquète de paycpar les Arabe , Musulmans Jusque â lèxpeitons Trancaise , P . P . 214 - 215 .

(٧) ابو شامة : كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين جـ ١ ص ١١٦

(٨) حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ، ص ٢٥ – ٢٦ ، أنظر أيضا : Hassanein Rabie , The Financial system Egypt , PP . 26

(٩) ابن مسكويه تجارب الامم جـ ٥ ص الشرق الاوسط في العصور الوسطي ص ١١

أقطع أنصاره حقوق بيت المال فى ضياع الرعية (١٠) • ثم ما لبث أن أغفل هؤلاء المقطعون موالاة العناية باقطاعاتهم الامر الذى أدى الى فسادها وكانوا يستعيضون عنها بما يقع عليه اختيارهم من الاقطاعات (١١) • ومما زاد الطين بلة أن المقطعين اعتمدوا على وكلائهم فى ادارة اقطاعاتهم مما أجحف الفلاحين وصغار المقطعين لقيام هؤلاء بمصادرة الاراضى التى يريدونها (١٢) •

وقام بنو بويه والسلاجقة باحلال الاقطاعات محل العطاء أو الرواتب لرجال الجيش فنجد نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان ثم السلطان ملكشاه (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) يعمم ظاهرة احلال الاقطاع محل العطاء والرواتب لرجال الجيش •

ولم تكن هذه الاقطاعات التى أقطعتها الدولة البويهية ومن بعدها الدولة السلجوقية تمليكا وانما كانت استغلالا أو ارتفاقا ، فقد فرق نظام الملك الارض على الاجناد اقطاعات وجعلها لهم حاصلا وارتفاقا ، فتوفرت دواعيهم على عمارتها ، وفى حالة وفاة الجندى المقطع فان الوارث لا يرث الا حق الاستغلال أى ان المقطع لا يملك حق الرقبة وانما يملك حق الاستغلال فقط ، وكان مضمون الاقطاع هو الحكم والولاية (١٣) • وقنن نظام الملك نظام الاقطاع الحربى فقرر على المقطعين خدما عن عصبة ولاياتهم يوصلونها كما قرر عليهم الحضور الى الخدمة وموالاة الخدمات للحضرة، والوصول بالعساكر الجمة (١٤) • ولعل السبب الذى أكد لنظام الملك ضرورة اتباع نظام الاقطاع الحربى ، هو الخطر الخارجى متمثلا فى العداء مع الدولة البيزنطية وخاصة بعد أن أنزل بها ألب أرسلان الهزيمة الساحقة فى موقعة مانزكرت عام ١٠٧١م • وفى ذات الوقت لم يفت نظام الملك خطورة أصحاب الاقطاعات الكبرى على الحكومة المركزية ففرق اقطاع المقطع الواحد فى بلاد مختلفة (١٥) •

وسوف نسوق أمثلة للاقطاع الحربى عند السلاجقة فى بلاد الشام أولهما لاحدى الاسر العربية الكبيرة وهى أسرة العقيلى ، فقد أقطع السلطان ملكشاه سالم بن مالك العقيلى قلعة جعبر (١٦) ، بعد أن أخذ منه دمشق وحلب ،كما أقطع الامير بوزان وهو من الامراء

---

(١٠) ابن مسكوية تجارب الامم ج ٥ ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ابن خلدون : المقدمة • ج ٣ ص ٢٤٦ ، ج ٤ ص ٤٣٥ •
(١١) ابن مسكويه تجامب الامم ج ٥ ص ٩٨
(١٢) ابن مسكويه تجارب الامم ج ص ٩٨
(١٣) البندارى : دولة آل سلجوق ص ٥٥ ، ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ص ٢٢ •
(١٤) البندارى : دولة آل سلجوق ص ٥٥ ـ ٥٦ •
(١٥) دولة آل سلجوق : ص ٥٥ ـ ٥٦ •
(١٦) تقع قلعة جعبر فى محافظة الرقة على نهر الفرات بسوريا ، الى الشرق من تل المرتبط وتحتفظ القلعة حتى الآن بآثار ترجع الى العصر الاسلامى لعل اهمها قبر السلطان ملكشاه • وتقع القلعة الآن وسط سد الفرات فى البحيرة التى تعرف باسم (بحيرة الأسد) •

التركمان الرها وحران وقلعة حلب بعـد أن فتحها (١٧) ، كما أقر عـلى بن المقلد بن نصر ابن منقذ الكنانى العربى على شيزر ، وبعـدوفاته سنة ٤٧٩هـ / سنة ١٠٨٦م انتقلت الى ابنه نصر الذى سلم لملكشـاه اللاذقية وفاميةوكفر طاب ودخل فى طاعته فأقره عليهـا واليا ومقطعـا • ومن مماليك السـلطان ملكشـاه المقطعين ياغى سيان الـذى ضـم اقطـاعه انطاكية وظل بها حتى زحف عليها الصليبيون فى حملتهم الاولى (١٨) • كما أقطع ملكشـــاه من قادته اقسنقر الملقب بقسـيم الدولة والدعماد الدين زنكى ، قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها وظلت هذه الاقطاعات بيده ، واحترمه ملوك السلاجقة لولائه وجهاده معهم حتى قتل عام ٤٨٧هـ / سنة ١٠٩٤م (١٩) • ديعتبر اقطاع قسيم الدولة اقسنقر صـاحب من أكبر الاقطاعات السلجوقية ، فقد امتد من حلب الى الموصـل (٢٠) اللهم الا أهل البيت السلجوقى •

أما أهل البيت الحاكم السلجوقى فقـد اقتسموا البلاد التى دخلت فى حوزتهم فيمـا بينهم (٢١) • فقد وزع السلطان ملكشـاه عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م الاقطاعات على امراء البيت السلجوقى حتى لا يثوروا عليه ، فأقطع أخاه تاج الدولة تتش دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية وبيت المقدس بالاضافة الى ما يفتحه من البلاد فاستولى على معظم بلاد الشام بعد أن هزم أتسز التركمانى ، واسـتولى عـلى فلسطين وأقطعها من داخله للامـير أرتق بك ابن أكسـب التركمانى (٢٢) • وعموما فقـد أعتبرت الارض ملكا للسلطان وجنوده ، وفى ذلك يقول نظام الملك « أرض المملكة وسكانها ملك للسلطان » (٢٣) •

انتقل نظام الاقطاع الحربى بغير تبديل أو تغيير الى الدول التى نشأت فى كنف الدولة السلجوقية وهى الدولة الزنكية والايوبية ثم دولة المماليك • فلما أسس عماد الدين زنكى دولته ذات العاصمتين حلب والموصل ، وأوغل فى حروبه ضد الامراء المسلمين والصليبيين لجأ الى تعميم نظام الاقطاع (٢٤)، فأقطع كلا من نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه عام ٥٣٣هـ /

---

(١٧) ابن خلدون : ج ٣ ص ٤٧٦ ، ج ٤ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ٧ حاشية ، ص ١١٣ وما بعدها الروضتين ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٥ •

(١٨) الروضتين ص ٢٦ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، مفـرج الكـروب نشر الشيال ج ١ ص ١٩ •

(١٩) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٥ ، ١٢٨ وما بعـدها ، الروضـتين ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ابن الاثير ج ١٠ ص ٧٥ •

(٢٠) الروضتين ص ٢٦ ، ٢٩ ، •

(٢١) ابن الاثير : ج ١٠ ص ١٩ •

(٢٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٨٧ ، ١٠٢ ، ٢٠١ ، ١٥٢ ، ١٠٦ حاشـــــية ١ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٥٩ ، ١٢٨ • ابن الاثير ج ١٠ ص ٤١ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٦٥ ، ٦٦ •

(٢٣) سياسة نامة ص ٤٠ ـ ٤١ الترجمـة الفرنسية •

(٢٤) طرخان : الاقطاع الاسلامى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلد ٦ سنة ١٩٥٧ ص ٧٥ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٢٦ •

١١٣٨ م على أثر رحيلهما من تكريت (٢٥) • ودرج على هذا المنوال ابنه نور الدين محمود ، فكان اقطاع شيركوه يشمل مدينة حمص وأعمالها واقطاع نجم الدين أيوب على دمشق وغيرها ، واقطاع صلاح الدين ضم بعض جهات حلب وكفر طاب ، كل ذلك فى نظير الخدمات العسكرية للدولة النورية (٢٦) ، كما أقطع نور الدين (٢٧) مجير الدين صاحب دمشق بعد أن استولى عليها عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وهو من سلالة طغتكين ، عدة ضياع بأعمال حمص عوضا عن دمشق ، كذلك أقطع شهاب الدين على بن مالك العقيلى سروج والملاحة والباب وبزاغة (٢٨) ، كما أقطع رضيعه مجد الدين أبا بكر بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر ، وأقرها لاخيه على بن الداية بعد وفاته عام ٥٦٥هـ / ١١٦٩م • كما أقطع فخر الدين مسعود الزعفرانى حمص وحماه وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة ، كما أقطع نور الدين اقطاعات قصد بها تأمين طرق (٢٩) المواصلات مثل الاقطاعات التى أقطعها لامراء العراق لتأمين طريق الحج بين الشام والحجاز (٣٠) • ومن الاقطاعات التى اقطعها نور الدين لبنى بحتر القحطانى وهم الذين يعرفون بأمراء بنى الغرب نظرا لانهم يمتلكون جزءا كبيرا من غربى لبنان منذ الدولة الفاطمية حتى أقرهم عليها بعد أن جعل عليهم عدة من الجند وكتب لهم منشورا بتاريخ السابع من رجب سنة ٥٦٠هـ / ١١٧٠م وضح فيه مشتملات اقطاعاتهم وحدد فيه عدد الفرسان بأربعين فارسا كعدد أدنى يتقدمون بهم وقت المهمات (٣١) الشريفة •

وليس بغريب أن تتبع الدولة الايوبية نفس الاسلوب الاقطاعى الحربى السائد فى ذلك الوقت ، فقد كان الغرض منه مازال قائما فالبلاد فى حالة حرب دائمة ضد الصليبيين الذين جاءوا كغزاة الى البلاد يريدون امتلاكها والاستقرار بها • فقد بدأ صلاح الدين الايوبى مبكرا بتوزيع الاقطاعات على العساكر منذ وزارة أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد الفاطمى • فأقطع بعلبك لعز الدين فخر خشاه بن شاهنشاه بن أيوب واقطع توارنشاه حصن رعبان فانضمت الى اقطاعاته الواسعة • وفى عام ٥٨٢هـ / ١١٨٦م اقطع صلاح الدين ابنه الافضل دمشق (٣٢) ، ولاخيه مظفر الدين أربل وضم اليها شهرزور وأعمالها ، ولابن اخيه

---

(٢٥) راجع الروضتين ص ٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ وما بعدها ، ٢١٠ •

(٢٦) الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ورقة ٦ ب – ٧ ، ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٢٠ وأبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ •

(٢٧) ومن القادة النوريين الذين اقطعوا ، الامير حسان المنبجى ، فقد أقطعه نور الدين اقطاع منبج ثم نقله عام ٥٦٣هـ/١١٦٧م الى الرها واليا ومقطعا فمكث بها حتى أخذها صلاح الدين من ابنائه عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م •

(٢٨) بزاغة : قرية من أعمال حلب وفيها عيون ومياه جارية وأسواق (ياقوت : معجم البلدان) •

(٢٩) أبو الفداء : ص ٤٠ ، ٤٥ •

(٣٠) الروضتين ص ٥ ، الذهب المسبوك ورقة ٧٦ ، ابن شداد ص ٢٧٠ •

(٣١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٤٨ – ٤٩ ، أخبار الاعيان ص ٢٢٣ – ٢٢٤ •

(٣٢) ابن شداد : ذيل الروضتين ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ •

تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب حران والرها وسمبساط وميافارقين وحماه والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم وجيلة واللاذقية وبلاطنس وجبل جور وكفر طاب وبكراس وعدة بلاد أخرى ممتدة من حماه الى ديار بكر (٣٣)• ولما توفى تقى الدين أقطع صلاح الدين ابنه الملك المنصور محمد بعض اقطاعات أبيه وهى حماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم (٣٤)•

هذا الى جانب اقطاع آخر أقطعه صلاح الدين لاخيه العادل ضم الكرك والشوبك وحلب الا أنه استردها سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م وأعطاه بدلا منها حران والرها وميافارقين ، وكان قصد صلاح الدين من ذلك ايثار بلاد الشام لابنائه • ففى صفر سنة ٥٨٢هـ أثناء وجود صلاح الدين على حصار الموصل وكان قد انتابه المرض وأوصى أن تقطع بلاد الشام لاولاده • وفى عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م طلب صلاح الدين من أخيه العادل أن يترك اقطاعاته ببلاد الشام فيما عدا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف اقطاعاته بمصر وعوضه عنها باقطاعه منطقة الجزيرة ودجلة ، وقرر عليه فى كل سنة ستة آلاف أو عشرة آلاف غرارة (٣٥) تحمل من الصلت والبلقاء والقدس (٣٦) ، وقد أصدر صلاح الدين فى هذا الشأن منشورا • كما شملت الاقطاعات ذوى النفوذ من البيت الايوبى الذين كان يخشى منهم صلاح الدين وعلى رأسهم القاهر محمد بن شيركوه وهو الذى ادعى انه أحق من صلاح الدين بالملك فأقطعه حمص وتدمر والرحبة وسلمية وخلفه فى اقطاعه ولده أسد الدين شيركوه سنة ٥٨١ هـ / سنة ١١٨٥م (٣٧)• وشملت الاقطاعات الايوبية سيف الدين على بن أحمد الهكارى المشطوب الذى ضم اقطاعه نابلس وأعمالها وحين وفاته سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م خلفه ابنه عماد الدين وأميران معه فى ثلثى الاقطاع ، أما الثلث الباقى من ربع اقطاع نابلس فقد وجهه صلاح الدين لمصالح مدينة القدس وأسوارها (٣٨) •

ومن الاقطاعات التى أقطعها صلاح الدين خارج نطاق البيت الايوبى ، اقطاع الامير حسام الدين أبا الهيجاء السمين مقدم الاكراد الاسدية ، فقد أقطعه نصيبين عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م (٣٩) • كذلك أقطع الامير بدر الدين ولورم بن بهاء الدين ياروق تل مباشر ، وأقطع سابق الدين عثمان بن الداية شيزر وأبا قبيس ،وأقطع الامير ناصر الدين بن كورس صهيون

---

(٣٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٨٢ •
(٣٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١١٣ ، ابن الاثير : الكامل ص ٤٠ـ ٤١ مجموعة المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٢ ، ابراهيم بن الحنبلى : شفاء القلوب ورقة (٤٦) •
(٣٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٨٠ حاشية ـ الغرارة تساوى ١٢ كيلة •
(٣٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٠ ، ٣١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١ ، ٨٢ ، ٩١ ، ابراهيم بن الحنبلى : شفاء القلوب ورقة (٦٤) •
(٣٧) ابراهيم بن الحنبلى :شفاء القلوب ورقة ١١
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٩٩ـ ١٠٠ •
(٣٨) أبو شامة : الروضتين ص ٥٢ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٦ ، ١٧ ، ٤٤ ، ٨٦ ، ١١٧٠ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٩٦ •
(٣٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢٣ ، وما بعدها ، ١٤١ ، ١٤٥ •

وحصن بزرية ، وأقطع الامير عز الدين أسامة كوكب عجلون ، والأمير عز الدين ابراهيم ابن شمس الدين المقدم بغراس وكفر طاب وفامية (٤٠) . بقى هؤلاء فى اقطاعاتهم حتى وفاة صلاح الدين . كما أقر صلاح الدين حجى بن كرامة أمير الغرب على اقطاعه لبلائه أمام الاعداء عند فتح بيروت سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م (٤١) كما أقر صلاح الدين كثيرا من الامراء النورية ممن ناصروه وعززوه فى توحيد الجانب الاسلامى أمام الصليبيين منذ عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م ،ومن هؤلاء الامير علم الدين سليمان بن جندر الذى أقطعه حصن دربساك بعد فتحها فى العام نفسه وبلدة اعزاز سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣ م ، وأقطع الرها للامير مظفر الدين كوكبورى بن قطب الدين ابن ينال بن حسان المنجى من الامراء النورية ، كما أقطع صلاح الدين الامير نور الدين محمد بن كرد أرسلان الارتقى صاحب حصن كيفا آمد من ديار بكر لنجدته لقوات صلاح الدين أثناء فتح أنطاكية سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م (٤٢) . وقد عممت الدولة الايوبية الاقطاعات على زعماء العرب ، فقد أقر صلاح الدين جماعة (٤٣) منهم مثل الشيخ اسماعيل الذى كان خازنا لنور الدين على عينتاب بعد أن سلمه اياها سنة ٥٧٩ هـ /١١٨٣م .

كما أقر صلاح الدين كل الامراء من البيت الزنكى الذين خضعوا له وساعدوه فى فتوحاته سواء بالعسكر أو السلاح — على اقطاعاتهم — منهم الامير عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب سنجار سنة ٥٧١هـ / ١٧٧٥ م ، وأقر أخاه عز الدين مسعود على الموصل ، كما أقر معز الدين سنجر بن غازى على الجزيرة (٤٤) .

تتجلى حصافة صلاح الدين السياسية فى الاجراء الذى اتخذه لتهدئة حفيظة أعدائه من الصليبيين والفت فى عضدهم ، ذلك أنه أقطع صاحب حصن شقيف أرنون قلعة الحصن بالقرب من بانياس بعد استسلامه كنتيجة لانتصار صلاح الدين فى حطين سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ومنحه مسكنا بدمشق بناء على طلبه حتى ينجو من لائمة أقرانه من الصليبيين (٤٥). ولكى تتاح له فرصة التقاط الانفاس وتنظيم الصفوف وافق على أن يقطع فرسان الداوية والاسبتارية بعض البلاد والقرى (٤٦) (أنظر لوحة رقم ٣٥) .

اتبع خلفاء صلاح الدين أسلوبه الاقطاعى فى بلاد الشام فمنحوا الاقطاعات لأى أمير من

---

(٤٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣١١.
(٤١) المرجع السابق : ص ٣١٢ .
(٤٢) ذيل ابن شداد : ص ٢٨٠ .
(٤٣) المقريزى : البيان والاعراب ص ٣٣ ـ ٣٥. القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٩٣ خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٤٤) ابو الفدا : المختصر ص ٥٢ ، العماد : الفتح القسى ص ٩٦ ، ١٢٠ .
(٤٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٢ حاشية ٣ ، ٤٣ .
(٤٦) الحريرى : الاخبار السنية فى الحروب الصليبية ص ٢٨٠ .

الامراء مادام فى استطاعته أن يؤدى الخدمة الحربية تشجيعا منهم لاهل المواهب الحربية ، فأمست دمشق والشطوط البحرية وبيت المقدس والناصرة وبانياس وسوريا الغربية للملك الافضل على ، وصارت حلب وبقية سوريا ومنها حران وتل باشر وغراز ومنبج للملك الظاهر غازى وتكونت من هؤلاء ثلاث ممالك كبيرة . أما بقية أسرة صلاح الدين وهم أمراء المشرق الذين يطلق عليهم المشارقة ومنهم الملك العادل سيف الدين ، والملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر وكان اقطاعه حماه وسلمية وقلعة نجم ، وكذلك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه ابن فخر خشاه بن شاهنشاه بن أيوب واقطاعه بعلبك وشيركوه بن شادى وكان مقطعا على حمص والرحبة وتدمر ، والملك خضر بن صلاح الدين فى بصرى على أن يكون فى خدمة أخيه الملك الافضل ، والبيرة وبعض أعمالها للملك الزاهر مجير الدين داود بن صلاح الدين (٤٧) . وبقيت بعض الحصون والبلاد فى اقطاع الامراء منذ حكم صلاح الدين (٤٨) .

وقد منح العزيز عثمان بن صلاح الدين للامير فارس الدين ميمون القصرى وهو من امراء الظاهر غازى بن صلاح الدين نابلس كاقطاع سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م وكان له اقطاع صيدا قبل نابلس (٤٩) . وأقطع العزيز عثمان دمشق بعد استيلائه عليها سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م من أخيه الافضل لعمه الملك العادل (٥٠) كذلك أقر الافضل على بن صلاح الدين امراء المغرب على ما بأيديهم نظرا لحاجته الى معونتهم ضد أخيه العزيز عثمان ووافق على اقطاع جمال الدين حجى بن كرامة الغرب كله عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦م (٥١) ، وسبق لحجى هذا أن حصل على اقطاعات أبيه بمنشور من الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازى ابن صلاح الدين ، وكان ملكا على حلب وتملك دمشق بناء على رغبة أهلها سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وجدد له المنشور سنة ٦٥٠هـ فى جهات متفرقة منها « عرمون » و « عين درافيل » و « طردلا » و « عين كسور » و « رام طون » و « أقدرون » و « مرتغون » والسياحية وسرخمور والدوير وغيرها (٥٢) .

---

(٤٧) مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والجليل ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٤٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٢ وما بعدها ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ابن الاثير : الكامل ص ٧٥ ، ٧٧ ، العماد : الفتح القسى ص ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٠٨ ، ٣١١ .

(٤٩) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٧ ، ٢١٩ .

(٥٠) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٦

(٥١) الشدياق : أخبار الاعيان ص ٢٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢٠ ، ١٢٦ ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٥٢ و ٥٣ .

(٥٢) : أخبار الاعيان ص ٢٢٧ ، وأغلب هذه القرى فى مقاطعة الغرب الاسفل والشوف ومرتغون مزرعة واقعة شرقى خلدا ، وكانت قديما مأهولة وكانت من أملاك الامير مصطفى أرسلان (صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٥٥ــ٥٦ حاشية ١)

ومما تجدر الاشارة اليه أن أمراء الغرب كانوا خداما طائعين لكل من غلب سواء كان هذا المنتصر مسلما أم صليبيا أو مغوليا والهدف هو سلامتهم والمحافظة على ما بأيديهم من اقطاعات وحياة مترفة • فقد سبق لهم أن حصلوا على منشور من صيدا الصليبية سنة ٦٥٤ / ١٢٥٦ م (٥٣) ، وأسلوب الصليبيين فى اقطاع المسلمين هو نفس الاسلوب الذكى الذى اتبعه صلاح الدين حيالهم والذى سبقت الاشارة اليه من قبل •

ومما سبق يتبين لنا أن صلاح الدين وخلفاءه من سلاطين بنى أيوب قد طبقوا النظام بنوعيه الادارى والحربى ،وقد اقتصر الاقطاع الادارى على البيت الايوبى وكبار الامراء والموظفين • أما النوع الثانى وهو الاقطاع الحربى فقد شمل الخدمات الحربية التى كانت على المقطع أن يؤديها للحكومة المركزية •

لقد كان الاقطاع الايوبى غامة موردا من موارد الدولة ، اذ جرت العادة فى جميع الاقطاعات الايوبية بأنواعها أن يمنح الاقطاع مقدارا بما يغله من نقد ومحصول وفقا لعبرته، والعبرة هى معدل ما يغله الاقطاع • وكانت الوحدة النقدية فى ذلك الوقت هى ما يسمى بالدينار الجيشى (٥٤) لا الدينار العام •

على أن أهم خدمة كان يؤديها المقطع الايوبى هى قيامه بتأدية خدمات حربية وتقديم عدد من الجند الى الجيش السلطانى زمن الحرب كاملى العدة ، اذ تعهد كل مقطع بأن يكون معه عند خروجه للحرب عدد معين من الفرسان ، واعتاد السلاطين الايوبيون حرمان المقطع من اقطاعه عند اخلاله بهذا الشرط• فقد قطع صلاح الدين اخباز جماعة من الاكراد لتسببهم فى هزيمة الجيش الصلاحى فى وقعة الرملة عند نهر تل الصافية أمام الجيش الصليبى بقيادة أرناط صاحب الكرك (٥٥) •وفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م عند محنة عكا قطع صلاح الدين اقطاعات جماعة من أمراء الاجناد الهاربين (٥٦) •

---

(٥٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٥٧ و ٥٨ •

(٥٤) أوضح ابن مماتى قبل القلقشندى تعريف الدينار الجيشى فقال انه دينار فرضى اختلف فى قيمته الحقيقية بالقياس الى طبقات المجتمع الايوبى، فكان الدينار الجيشى للاجناد والاتراك والاكراد والتركمان فى عهد صلاح الدين يساوى دينارا ذهبيا كاملا ، وكتائب العربان الكنانية والعساقلة من الجيش المصرى الايوبى نصف دينار • أما الغزاة فدينارهم الجيشى ربع دينار ، بينما العربان ١/٨ دينار فقط • ويبين ابن مماتى قيمة الدينار الجيشى زمن صلاح الدين ، فقال ان الدينار الجيشى اشتمل على ١/٤ الدينار الذهبى الشرعى الرسمى ، وأردب من الغلة ثلثه من الشعير وثلثاه من القمح ، اذن فالاقطاع الذى عبرته ١٠٠ دينار جيشية تفضله ٢٥ دينارا ذهبيا ، ١٠٠ أردب الثلثان منه من القمح والثلث من الشعير (ابن مماتى) : قوانين الدواوين ص ٣٦٩ ، حاشية ٩) •

ويرى الدكتور حسنين ربيع ان الدينار الجيشى وحدة نقدية وهمية تختلف قيمته من سنة الى أخرى ومن اقطاع الى آخر ومن مقطع الى مقطع آخر تبعا لرتبته فى الجيش ، لتفصيل ذلك أنظر :
Hassanein Rabie: The Financial system & Egypt, PP. 48 — 49.

(٥٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٤ ـ ٦٥ حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٥

(٥٦) العماد : الفتح القسى ص ٣٥١ ، ٣٥٣ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٥

كما أن هذه الخدمات الحربية الاقطاعيةكانت تزيد بزيادة الاقطاع ، فكان على المقطع الذى زيد اقطاعه تقديم عدد أكبر من الجنـد الى الجيش السلطانى (٥٧) ، كما حرصت الدولة الايوبية على ألا يكون الاقطاع فى جهة اقليمية واحدة حتى لا يزداد نفوذه على حساب الحكومة المركزية (٥٨) • كما أن من سمات الاقطـاع الايوبى انتقال الاقطاع من مقطع لآخر • أما توريث الاقطاع فلم يحدث سوى ثلاث مرات فى عهد صلاح الدين : الاولى سـنة ٥٨١هـ / ١١٨٥ م فاعطى صلاح الدين الامير الصـبى شيركوه بعـد وفاة أبيه ناصر الدين محمـد ابن شيركوه اقطاع أبيه فى حمص والرحبة • وفى المرة الثانية : اعلى صـلاح الدين سـنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م اقطـاع شـمس الدين بن المقدم أمير الحاج الشامى لابنه عز الدين بعد أن ولاه الحاج الشـامى أيضـا • وفى المـرة الثالثة : اعلى صلاح الدين ثلثى اقطاع الامير سيف الدين على بن أحمد المشـطوب لابنـه عماد الدين أحمد وأميرين معه (٥٩) •

وقد جرت عادة السلاطين الايوبيين أن يصدروا توقيعات اقطاعية جديدة عنـد موت السلطان وتولى من يخلفه ، على أن التوقيعات الاقطاعية كانت ذات ثلاثة مستويات ، الخاصة بكبار الامراء من البيت الايوبى وتفتتح بعبارة الحمد لله ومن هذه التوقيعات التوقيع الصادر عن صلاح الدين لاخيه العادل سـنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م باقطاعه اقطاعا فى الديار المصرية وبلاد الشام والجزيرة وديار بكر نظـير خـدماته وشجاعته فى الحروب • واشتمل التوقيع عـلى وصف عام للاقطاع ووصية للمقطع بالعـدل فى الرعية ، واخافة مرءوسيه من أخذ الرشوة من الناس والاهتمـام بالقضـاء والنصـح والكياسة فى ادارة الاقطـاع وعمارته وحفظ الامن وحسن الجوار مع غيره من المقطعين (٦٠) •

والثانية للاقل رتبة ويفتتح بلفظ « أما بعد » وهناك توقيع بهذا الاسلوب لأحد الامراء الايوبيين يوضح أنه نال الاقطاع نظير دخوله فى الخدمة السلطانية ، ويمنيه بزيادة اقطاعه اذا قدم مزيدا من الخدمات ويوصيه باعداد نفسه ومن يتبعه للخدمة الحربية (٦١) •

والثالثة نظير ما قدمه الامير من خدمات حربية ، وشمل وصية للمقطع بأن يكون دائما «فى التأهب للخدمة كالسهم الموضوع فى وتره» وأن يكثر من الفرسان بزيادة العطـاء لهم ، حتى يعينهم عـلى اعداد القوة (٦٢) • وكان ديوان الجيش هو الذى يقوم بترتيب هـذه الاقطاعات وتقييدها وتوزيعها سـواء فى ذلك الاجناد السلطانية أو الامراء وأجنادهم •

---

(٥٧) ابن العميد : أخبار الايوبيين — Bulleten d'Etudes Orientales Tame XV P. 139.

(٥٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ١٣ص١٤٦

(٥٩) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٢ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٧

(٦٠) القلقشندى : صـبح الاعشى جـ ١٣ ص ١٤٤ ـ ١٤٨ ، حسـنين ربيـع : النظـم المالية ص ٣٧ ـ ٣٨

(٦١) المصدر السابق جـ ١٣ ص ١٤٨ ـ ١٥٠ ، حسنين ربيع : النظم المالية ص ٣٨

(٦٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ١٣ص١٤٤ ـ ١٤٨ : حسنين ربيع النظم المالية ص ٣٨

وكان هذا الديوان يقوم بالصرف على الجيش وتعبئته وامداده بالاسلحة والمؤن واعداد الحصون والقلاع الى جانب السيطرة على الاقطاعات والمقطعين • فقد كان يقوم موظفو هذا الديوان باثبات أسماء أرباب الاقطاعات باختلاف مستوياتهم ، وجميع أفراد الجيش السلطانى وجيوش الامراء وابتداء امرتهم حسب السنين الهلالية ، وعمن انتقل اليه الاقطاع ، وعدد الجند الذين يقتنيهم فى اقطاعه • وكان يوضع أمام كل اسم عبرة اقطاعية رمزا لا تصريحا حرصا على السرية والامن ، فكان لا يذكر عبرة أى اقطاع أو متحصلة الا بناء على مرسوم من السلطان •

واختص موظفون آخرون باعداد جريدة سميت « جريدة الاقطاع » توضح كل اقليم واقطاعاته وما به من ضياع وكفور ومعالم وخصائص والعبرة المالية لكل اقليم وقيمة المتحصل منه وانتقالات الاقطاع من شخص لآخر • كما كانوا يحررون جريدة أخرى تضم أسماء العساكر الذين يتقاضون أجورهم نقدا أو غلة وليس اقطاعا (٦٣) ، كما قام ديوان الجيش بتسجيل التفاوت الاقطاعى الذى يحدث نتيجة تغيير رتبة الجندى بانتقاله من فئة أصحاب الجوامك والرواتب الى فئة أصحاب الاقطاعات • فاذا انتقل جندى الى اقطاع جديد للمرة الاولى ، فانه يأخذ دخل اقطاعه من تاريخ تعيينه عليه لا من أول السنة الهلالية أو الخراجية • كما كان يقدر ديوان الجيش الغيبانات وهى الاموال التى تخصم من الجندى نتيجة غيابه عن الخدمة دون اذن • كما كان يسجل فى جريدة خاصة (الفواضل) أى الفرق الفعلى بين عبرة ناحية من النواحى ، وما هو مقرر على المقطعين بها • كذلك يسجل (المتوفر) وهو جملة الاموال التى توفرت نتيجة وفاة الجندى ، فقد كان راتبه من أول السنة الى يوم وفاته يعطى لورثته ، وما كان مقررا له بقية السنة يصير من المتوفر واذا كان ليس له ورثة فكل ما قرر له يصبح متوفرا (٦٤) •

اكتملت فى العصر المملوكى وصفية النظم الاقطاعية الحربية ، فقد استطاع المماليك أن يزيدوا تنظيما وتقنينا على ما تركه الايوبيون فى النظام الاقطاعى فأقاموا دولة اقطاعية كبرى على البدايات التى تركها لهم أساتذتهم من الايوبيين •

وكان المماليك يقسمون الارض الى قسمين رئيسيين الاول يخص السلطان وأمرائه وأجناده وهو غالبية الارض • أما ما يخص السلطان من اقطاع فيوزع على ديوان الخاص « الخاص السلطانى » (٦٥) وديوان وزارته وديوان المفرد وهو الديوان الذى يشرف على الاقطاعات الخاصة برواتب وجوامك المماليك السلطانية ، والجوامك الشهرية هى العليق والحبوب

---

(٦٣) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ج ٨ ص ٢٠٠،٢٠٢ ــ ٢٠٣ ــ ٢١٣

(٦٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٥٤ـ٣٥٥ حسنين ربيع : النظم المالية ص ٦٣

(٦٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٩١ـ٤٩٢

والطعام (٦٦) • أما ما يخص أمراء وأجناد السلطان فيوزع بينهم كاقطاعات يمنحها اياهم السلطان •

وقد كانت كلمة الاقطاع فى الزمن المملوكى ترادف الجندية (٦٧) ، فقد كانت أخبار الحلقة هى قلب الجيش المملوكى والاصل فى التوزيع الاقطاعى •

ولقدكان نصيب بلاد الشام من الاقطاعات لاجناد الحلقة ، كما هو وارد بجرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى مثل نصيب مصر ، فقد كان عدد أجناد الحلقة ١٢ ألفا بدمشق ، ٦ آلاف بحلب ، ٤ آلاف بطرابلس ،ألف واحد بصفد ، وألف واحد بغزة (٦٨) ،ذلك أن بلاد الشام كانت قلب المعركة مع الصليبيين وكانت معظم الاقطاعات فى حيازة السلطان وأولاده (٦٩) وأمرائه وأجناده المماليك بأنواعهم والعربان والتركمان والأكراد ومن يستخدمهم السلطان فى الاغراض الحربية وهم الذين يطلق عليهم رجال السيف •

وأصحاب الوظائف الادارية من هذه الفئة وهم الولاة والكشاف الى جانب قلة من رجال القلم وهم الخليفة وبعض الفقهاء فضلا عن القلة من أصحاب الحرف المختلفة كالصناع وغيرهم •

وجرت العادة أن ينتقى السلطان الاراضى الجيدة ويدخلها فى اقطاعه الخاص وهو اقطاع يحوزه السلطان بوصفه سلطانا ويوزع الخاص السلطانى فى أنحاء السلطنة فقد كانت غوطة دمشق وما يحيط بها من خاص السلطان الناصر محمد •

وكثر انتقال الاقطاعات فى عصر المماليك (٧٠) من أيدى شاغليها الى آخرين ذلك أن هذه الاقطاعات كانت مرتبطة بالوظائف والخدمات التى كان يؤديها المقطع للدولة •وهذه سمة تميز بها الاقطاع المملوكى ، فلقد كان المقطعون كبيرهم وصغيرهم من أرباب الوظائف فى السلطة المملوكية ، ولا يحق للمقطع امتلاك رقبة الاقطاع ، فكان يحدث عند تولى

---

(٦٦) ابراهيم على طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ص ١٥٢
(٦٧) ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ص ١٤٥
(٦٨) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٢٩٢
(٦٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ـ ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، المقريزى : السلوك مخطوط ج ٣ ص ٨٢ـ٣٠٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢٧ ، ج ٢ ص ٣
(٧٠) ومن صور المناقلات الاقطاعية انتقال اقطاع السلطان المتوفى أو المعزول الى الآخر الجديد • وكذا التنازل عن الاقطاع الى الولد وقد حدث هذا النوع من المناقلات الاقطاعية منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (تاريخ بيروت ص ١٦٦ ، القلقشندي صبح الاعشي ج ١٣ ص ١٥٤) ، كما كان يتحول الاقطاع الى ملك حر أو وقف وينتقل الملك الحر أو الوقف الى اقطاع (راجع التحفة السنية ص ١١ و٢٧و١٢٧و١٩٠ و٢٩٢ (أو العزل عن الاقطاع) (وكان يصرف المعزولين عن الاقطاع باسم البطالين) والتصرف فى الاقطاع بالبيع والشراء • أو زيادة الاقطاع أو نقصه (وتعرف مناشير انقاص الاقطاع بالطرخانيات) •

السلطان الجديد أن ينتقل اقطاع السلطان السابق اليه ، وكذلك ينتقل اقطاع السلطان المرشح للسلطنة بعد توليه اياها الى أمير آخر (٧١) . ولم يكن مبدأ الوراثة فى الدولة الاسلامية موجودا الا أن الدولة المملوكية منحت فى أحوال كثيرة أبناء الامراء المتوفين الجوامك أو امرة خمسة تكريما منها الاسلافهم وليس موجبا أى حق اقطاعى (٧٢) . وكثيرا ما كانت المناقلات الاقطاعية تحدث لأسباب سياسية مثل ذلك الذى حدث للامير عز الدين الحموى نائب دمشق فقد عزله السلطان كتبغا عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م لاتيانه أفعالا لم ترض السلطان ، فولى مكانه الامير غرلو أحد مماليك السلطان وأعطى الامير المعزول اقطاع غرلو بمصر (٧٣) .

ولما ضجر الملك المؤيد اسماعيل أبو الفدا صاحب حماة من المماليك السلطانية المقطعين بحماه وكانوا نحو « ١٤ » أميرا بعضهم طبلخاناه وبعضهم أمراء عشرات ، أبلغ شكايته للسلطان الناصر محمد فنقلهم السلطان سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م الى حلب مع استمرار اقطاعاتهم الموجودة بحماه ونظرا لعدم وجود اقطاعات محلولة بحلب دفعوا بشكاياتهم للسلطان مما اضطره الى اصدار مرسوم شريف عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م بنقل اقطاعات المعرة وبلادها من نيابة حماه الى نيابة حلب (٧٤) ؛ وحدث أيضا زمن السلطان الناصر أن أمر بابدال اقطاع الامير حسين بن جندر بمصر باقطاع الامير جوبان بالشام وذهاب الامير ابن جندر الى الشام وحضور الآخر الى القاهرة ؛ وذلك لان ابن جندر استأذن فى عمل « خوخة » (٧٥) بسور القاهرة لكنه استغل الاذن وفتح بابا كبيرا على قدر باب زويلة ووضع عليه رنكه كأن خوخته باب من أبواب المدينة (٧٦) .

ومن أمثلة انقاص الاقطاع نقل السلطان سعيد بن بيبرس عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م الامير كوندك نائب السلطنة من منصبه واقطاعه وهو امرة مائة وتقدمه ألف الى امرة أربعين بحلب ويرجع السبب فى هذا الى امتناع كوندك عن تنفيذ أمر السلطان بامتناعه عن دفع مبلغ قدره السلطان لبعض الخاصكية (٧٧) ، وحدث فى عهد السلطان بيبرس والناصر محمد أن عوقب آل مهنا بالشام بالعزل عن الاقطاع لاتهامهم بالخيانة العظمى لاتصالهم بالاعداء (٧٨) .

ونتيجة لاستمرار حالة الحرب مع الصليبيين ثم التتار وما حتمه ذلك من حاجة

---

(٧١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤، ٢٥ و ٦٦
(٧٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣١٤ وحاشية رقم (٣) .
(٧٣) ابن شاكر الكتبى : عيون التاريخ ص ١٣٢
(٧٤) تاريخ أبى الفدا : ج ٤ ص ٧١ـ٧٥
(٧٥) خوخة : فتحة صغيرة فى سور أو حائط تسمح بالمرور ولا تبلغ حجم الباب .
(٧٦) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ (٧٧) المقريزى : السلوك ج ١٠ ص ٦٥١ـ٦٥٥
(٧٨) الشدياق : أخبار الاعيان ص ٣٢٩ ، تاريخ ابن الفدا : ج ٤ ص ٩١و٩٣

مستمرة وماسة للرجال ، اضطر السلطان الناصر محمد عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م الى استخدام البطالين وكثير من أرباب الحرف والصناعات ، ففرق عليهم أخباز المفقودين ورسم لكل أمير بالعناية بعدد منهم ، فاختص مقدم الالف بعشرة والطبلخانات بخمسة وأمير العشرة باثنين (٧٩) ٠

ومن دلائل تحكم السلطة المركزية للدولة المملوكية فى شئون الدولة فى الشام ومصر عدم اعطاء النواب فى بلاد الشام حق القيام بالمناقلات الاقطاعية فيما عدا نائب حماه ، فلم يكن لهم الحق فى ملء الشاغر أو المحول من الاقطاعات بل كان يتولى هذا ديوان الجيش فى مصر (٨٠) ٠

على أن أغلب الظن أن كثرة المناقلات الاقطاعية انما كان يرجع لاستمرار حالة الحرب ضد الصليبيين ، هذا بالاضافة الى أسباب مباشرة كعدم أداء المقطع للالتزامات الحربية المفروضة عليه ، وأخرى غير مباشرة ناتجة عن عدم تنفيذ أوامر الحكومة المركزية الامر الذى لا يمكن الدولة من ادارة الحرب ضد الصليبيين ٠

ولم يكن يتم تمليك الاقطاع الا فى أحوال نادرة ، فقد أقطعت بعض الاراضى الموات والعامرة تمليكا باشتراط اذن السلطان أو ولى الامر فى ذلك (٨١) ٠ فقد أقطع السلطان بيبرس عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م بلاد قيسارية التى استولى عليها من الصليبيين الامراء الذين جاهدوا معه فى فتحها ، كاقطاع تمليك ،فأقطع الاتابك فارس الدين اقطاى الصالحى عتيل بكاملها ، والامير جمال الدين ايد غدى العزيزى النصف من زيتا ، والامير بدر الدين بيسرى الشمس الصالحى نصف طوركرم ، والامير بدر الدين بيليك الخازندار نصف طوركرم ، والامير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحى افراسين بكاملها (٨٢) ٠

وقد اتسم المجتمع الاقطاعى المملوكى بتفاوت كبير بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة فنجد مظاهر البذخ على أوجها فى قصور السلاطين المماليك (٨٣) ، كما تمتعت الارستقراطية صاحبة الاقطاعات الكبرى بالحياة المترفة (٨٤) ، ويقابل هذا الثراء الفاحش طبقة العامة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف كالخياطين وغاسلى الموتى والطرقية « الباعة المتجولين » والاسكافية والناطور « حارس الثياب فى الحمامات » الذين كانوا على النقيض من سابقيهم ، فبقدر ثراء أولئك كان فقر هؤلاء ، بل لقد عمل سلاطين المماليك

---

(٧٩) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٩٧
(٨٠) العمرى : مسالك الابصار ج ٢ ورقة ٣٩٣و٣٩٤ ــ المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٥٣
(٨١) المقريزى : الخطط ح ٢ ص ٤٠٣ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٧٠
(٨٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٠ ــ ٥٣٤ ٠
(٨٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥
(٨٤) السبكى : معيد النعم ص ١٧٤،١٧٥ المقريزى : الخطط ج ٢، ص ٧٢

على أن يظل الفارق بين السادة من المماليك وغيرهم من ميسورى الحال من العامة ثابتاً • فلا يباع مملوك تركى لكاتب أو عامى ومن كان عنده مملوك يبيعه ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكا فلا يلوم الا نفسه (٨٥) • بل كرهوا أن يركب الفلاح فرسا فأصدروا المراسيم التى تحرم عليهم ذلك (٨٦) •

أضف الى ذلك أعمال السخرة التى كانت تفرض على العامة والفلاحين ، فكان يقبض عليهم فى الاسواق فى عهد السلطان قلاوون والسلطان الناصر (٨٧) • بل فرضت السخرة فى بعض الاحيان يوما فى الاسبوع (٨٨) •

ونتيجة للجور الذى لقيته طبقة العامة ، ازدادت حالات التمرد والعصيان وما الى ذلك من رد فعل الاحساس بالظلم والقهر • من هذا ما حدث للامير شمس الدين وهو أحد أمراء السلطان الناصر محمد وكان قد تعنت مع الفلاحين ، فأرادوا الانتقام منه ، فلما سافر الى دمشق لحقوا به هو ومن معه ودسوا لهم السم فى الطعام (٨٩) •

هذا وقد أثرت الحروب الصليبية تأثيرا اقتصاديا سيئا على المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ، فقد استنفدت الكثير من امكانيات بلاد الشام الاقتصادية وفاء بالتزامات الحرب الباهظة • هذا الى جانب اقتطاع الكثير من الاراضى التابعة للمسلمين التى دخلت فى الاملاك الصليبية التى استولوا عليها • هذا الى جانب حالات الفوضى التى تواكب حالات الحروب ، وما يستتبع ذلك من عدم اهتمام المقطعين باقطاعاتهم وانشغالهم عنها بالقتال أحيانا وايثار السكن داخل المدن احيانا أخرى ، فنشأ عن ذلك كثرة الاقنان وكثرة الزراع الذين ذهبت اقطاعاتهم للغزاه من الصليبيين •

---

(٨٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٩٢
(٨٦) المرجع السابق جـ ٩ ص ٩٢
(٨٧) المرجع السابق جـ ٩ ص ١١٩ ومابعدها المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٣٣ وما بعدها ، الكتبى : عيون التواريخ ص ٢٢ و٢٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٩٠
(٨٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٤٨
(٨٩) مجير الدين الحنبلى : تاريخ جليل مجلد ٦ ورقه ٥٤٥_٥٤٦

الباب الرابع

الباب الرابع

(العادات والتقاليد)

الفصل الاول :

الاعياد الدينية والاحتفالات العائلية
المآتم والاحزان .

الفصل الثانى :

الخلع والملابس
ملابس الرجال
ملابس النساء
ملابس العسكر

الفصل الثالث :

الرياضة ووسائل التسلية .

البحث فى الجانب الاجتماعى للمجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الصعوبة بمكان ، لاعراض المؤرخين والكتاب فى ذلك العصر عن الكتابة عنه على اعتبار أنها أشياء عادية مألوفة ، فلا يصح أن يبذلوا جهدا أو يضيعوا وقتا فى تسجيلها ، هذا فضلا عن قلة المادة وتشتتها فى بطون المصادر المعاصرة واضطرار الباحث الى جمع هذه الشذرات المتباينة من أعماق المصادر المختلفة واستنباط الحقائق منها . بل نضيف الى ما تقدم تعدد الامارات والدويلات والاديان والمذاهب والاجناس التى سكنت بلاد الشام ، والحروب التى قطعت أوصال مجتمعها فى الفترة التى نحن بصدد البحث عنها .

ولا ننسى أن العادات والتقاليد ، تظل على شىء من الثبات وعدم التغير لقرون عديدة وخاصة فى المجتمع الاسلامى فى العصور الوسطى . وعلى ذلك فان الباحث فى هذا الميدان كثيرا ما يجد نفسه فى حل من أن يلجأ الى بعض المراجع المتقدمة قليلا أو المتأخرة قليلا عن العصر الذى يبحث فيه ، أو يعرض لدول مجاورة ذات مجتمع مشابه للمجتمع الذى يبحث عنه ، لاستكمال صورة ناقصة أو للعثور على حلقة مفقودة .

وسوف نعرض للامور الآتية :

الاعياد الدينية والاحتفالات العائلية المآتم والاحزان ــ الخلع والملابس ــ الرياضة ووسائل التسلية .

الفصـــل الأول

الاعياد الدينية والاحتفالات العائلية :

ولعل خير ما نفتتح به فصـل العادات والتقاليد فى بلاد الشام ، هــو الافراح فهى الجانب المضىء المشرق فى حياة الشــعوب ٠وتنقسم الاعياد عند المسلمين الى دينية ومدنية ولما كانت الاعياد الدينية كثيرة ومتنوعة وأكبر تأثيرا فى المجتمع الاسلامى فى بلاد الشــام ، فقد رأينا أن نبدأ بها ٠

الاعياد الدينية :

وهى كثيرة ومتنوعة كما سـبق القول ،فهناك العيدان ، عيد الفطر وعيد الاضحى وعيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوى ٠ هــذا بالاضافة الى الاعياد التى ابتـدعها الفواطم والتى تعرف باسم ليالى الوقود وهى الاحتفال بغرة رجب وشــعبان ورمضـــان وعاشــوراء « اليوم العاشر من المحرم »٠ كما كان للشيعة عامة والاسماعيلية بصـــفة خاصـــة ، احتفال خاص يعرف بعيد الولاية أو غدير خم ٠ كذلك احتفلــوا بعيـــد النوروز وخاصـــة طائفة الاسماعيلية ٠

عيد رأس السنة الهجرية : لقــد كان للخلفاء الفاطميين فى مصر والشام ، اعتناء كبير بليلة أول المحرم فى كل عام لانهــا أول ليالى السنة وابتداء أوقاتها (١) ٠ وقد سار عــلى هديهم الايوبيون وكذا المماليك فى الاحتفــال برأس السنة واحياء ليلة الاول من المحرم (٢)٠ ومن أهم مظاهر هذا العيد أن يقوم مطبخ قصر الخليفة ونائبه وأميره فى نيابات بلاد الشـــام بتقديم العديد من أنواع الطعام والحلوى التى توزع على سائر الناس : يقول المقريزى (٣) : « ويعمل فى مطبخ القصر عدة كثيرة من الخراف المضموم والكثير من الرؤوس المقموم وتفرق على أرباب الرتب وأصحاب الدواوين وأرباب السيوف (٤) والاقلام (٥) مع جفان اللبن والخبز

---

(١) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٩٠

(٢) محمد شخاشيرو : الاخلاق والعادات عن خطط الشام ج ٦ ص ٢٨١

(٣) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٩٠ خطط الشام ج ٦ ص ٢٨١

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص٦٢ : أرباب السيوف ٠ المقصود بهم العسكر ورجال الجيش ٠

(٥) أرباب الاقلام : المقصود بهم الموظفون الكتابيون ٠

وأنواع الحلواء ، فيعم ذلك سائر الناس من خاص الخليفة وجهاته من الاستاذين المحنكين الى أرباب الضوء وهم المشاعلية » •

ولم يقتصر الاحتفال على مظاهر الطعام فحسب ، بل هناك احتفالات موكبية اذ يخرج الخليفة أو السلطان أو نائبهم بزيهم الفخم وهيئتهم العظيمة • كما كانت تسك بهذه المناسبة نقود خاصة تعرف باسم دنانير الغرة ، فقد ذكر المقريزى بأنه كان يضرب بدار الضرب فى العشر الاخر من ذى الحجة جملة من الدنانير الرباعية والدراهم المدورة (٦) •

ومما اعتاده الحلبيون فى أول يوم من المحرم ، أن يكون فطورهم من طعام حلو وأن يخرج جماعة من العجزة يتصدق عليهم الناس بشىء من البرغل يقال له « فاز من صلى (٧) » سمى بذلك لانهم كانوا ينشدون على الابواب زجلا جاء فيه « فاز من صلى على تاج العلى ، طه النبى المصطفى جد الحسين » • ويسمى بعض الناس هذا النشيد باسم الحسينية (٨)، وهو خاص بالطوائف العلوية •

يوم عاشوراء : كان أهل الشام من الشيعة يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الاسواق، ويعد نائب الخليفة فى العصر الفاطمى السماط العظيم المسمى بسماط (٩) الحزن ، المكون من العدس والملوحات والمخللات والاجبان والالبان الطازجة والاعسال والخل والفطير والخبز المغير لونه عن قصد ، فاذا قرب الظهر أدخل الناس للاكل منه ، فاذا فرغ القوم انصرفوا ويبدأ النواح حتى صلاة العصر وبعد ذلك يجوز لهم فتح حوانيتهم (١٠) • فلما زالت الدولة الفاطمية اتخذ الايوبيون فى مصر والشام يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون فى المطاعم ويصنعون الحلوى (١١)، ويتخذون الاوانى الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام (١٢) ، نكاية فى الشيعة ، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن على • لانه قتل فيه • ويعلق المقريزى على ما يفعله كل من الشيعة والسنة فى عاشوراء فيقول : « وقد أدركنا أى فى منتصف القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط ، وكلا الفعلين غير جيد والصواب ترك ذلك الاقتداء بفعل السلف (١٣) » •

---

(٦) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٥٠

(٧) جلال الدين البصروى : تحفة الانام فى فضائل أهل الشام ورقة ١٠٢ (مخطوط بالخزانة التيمورية) •

(٨) البدرى : محاسن الشام ص ٩٦

(٩) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٦٥) (مخطوطة مصورة)

(١٠) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٣١ و ٤٣٢ •

(١١) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٩٠

(١٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ١ ص ١١٢

(١٣) المقريزى : الخطط والآثار ج ١ ص ٤٩٠

وفى مدينة حلب كان الناس يوسعون على عيالهم بالمطاعم ويطبخون طعام الحبوب الذى يشير اليه منير (١٤) الطرابلسى الشاعر بقوله :

وسهرت فى طبخ الحبو ب من العشاء الى السحر

كما كان والى حلب يولم وليمة حافلة ، يدعو اليها علية القوم من أرباب السيوف والاقلام وكبار التجار ، وينشد المنشدون قصيدة ابن معتوق فى رثاء الحسين التى مطلعها « هل المحرم فاستهل مكبرا (١٥) » .

المولد النبوى : واذا ما استهل ربيع الاول ، يبدأ الاحتفال بما شرف به الشهر المذكور ، وهو ذكرى مولد الرسول لثلاث عشرة منه ، واطلاق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى والعديد من الاصناف من دار الفطرة .

وفى مدينة حلب يحتفل فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الاول بتلاوة قصة المولد النبوى فى الجامع الكبير ، ويستمر الناس يتلون هذه القصة ليلا ونهارا الى آخر هذا الشهر ويولمون من أجلها الولائم العظيمة (١٦) .

ليالى الوقود : وهى من الاحتفالات الدينية التى استجدت فى العصر الفاطمى استعدادا لقدوم شهر رمضان . وقد استمر الاحتفال بهذه الليالى فى مصر والشام بعد العصر الفاطمى دون أن تأخذ المظهر الرسمى الذى كانت تأخذه أيام الفواطم (١٧) . وليالى الوقود الاربع هى ليلة مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه ، وقد عرفت بالوقود ، لانه كان يزاد فيه الوقيد على حافات الجوامع والمساجد ، وحول صحونها توضع التنانير (١٨) والقناديل والشمع ، كما يحرق البخور فى مجامر الذهب والفضة ، كما تقدم سلال الحلوى والطعام على الحاضرين بالمسجد ثم ينشد المنشدون والنائحة (١٩) حتى منتصف الليل .

---

(١٤) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٩٢
(١٥) أبن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ١٢٣
(١٦) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٩٢
(١٧) روى الفاكهى فى كتاب مكة : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يصيح فى أهل مكة ويقول : ياأهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم فأوضحوا فجاجكم لحاج بيت الله واحرسوهم ليلة هلال المحرم حتى يصبحوا . وكان الامر على ذلك بمكة فى هذه الليلة حتى كانت ولاية عبد الله ابن محمد بن داود على مكة فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب فيحرسوا عمار أهل اليمن ففعلوا ذلك فى ولايته . وهكذا نرى أن فكرة أيقاد ليلة هلال بعض الشهور العربية سنة استنها المسلمون منذ عهد الخلفاء الراشدين (المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٦) .
(١٨) التنور لغة هو الفرن : أما من الناحية الفنية فهو وسيلة من وسائل الاضاءة يصنع عادة من المعدن ويحتوى على عدد كبير من الشموع أو المسارج التى تضاء بالزيت والفتيلة وهى تشبه الثريا (النجف) الآن (سعاد ماهر : مشهد الامام على) ..
(١٩) المقريزى : الخطط والآثار جـ ١ ص ٤٦٥

ويصف اسامة (٢٠) بن منقذ التنور الذى كان يوقد فى الجامع الاموى الكبير بدمشق فيقول : « فيوقد التنور الفضة الذى كان معلقا فيه ، وكان مليحا فى شكله وتعليقه غير متنافر فى الطول والعرض ؛ واسع التدوير ، فيه عشر مناطق فى كل منطقة مائة وعشرون بزاقه (٢١) وفيه سرورات بارزة مثل النخيل فى كل واحدة عدة بزاقات تقرب عدة ذلك من ثلماية ومعلق مدائر سفلة مائة قنديل نجومية » .

ويتحدث المقريزى عن الشموع التى تعرف برسم ليالى الوقود فيقول : « كان يخرج من الخزائن ستون شمعة وزن كل منها سدس قنطار بالمصرى . وبعد صلاة العصر اهتم أهل مصر والشام بالركوب الى المساجد فمنهم من يركب بثلاث شمعات الى اثنتين الى واحدة (٢٢) » .

والى جانب ليالى الوقود الاربع كان أهل الشام (٢٣) يحتفلون فى اليوم السابع والعشرين من رجب بقراءة قصة الاسراء والمعراج . وللمسلمين فى بيت المقدس احتفال عظيم مهيب بقبة الصخرة (٢٤) التى تصبح وكأنها قبة من النور (٢٥) والضوء .

يجتمع أهل الشام ليلة النصف من شعبان فى المساجد بين العشائين ويقرءون سورة يس ثلاث مرات ويلقنهم الامام دعاء ليلة النصف المذكور فى كتاب نزهة المجالس وغيرها من الكتب (٢٦) .

عيد الغدير : وهو من الاعياد الخاصة بجمهور الشيعة ، وأصل هذا العيد ما أخرجه الامام أحمد فى مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب (٢٧) رضى الله عنه قال ، كنا مع

---

(٢٠) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢١١ (نشر فيليب حتى) .
(٢١) بزاقة : من الناحية الفنية : هى الفتيلة التى توضع فى المسرجة أا القراية وتشعل فتضىء مستمدة نورها من زيت المسرجة (زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٦٠٣)
(٢٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٥
(٢٣) كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ٢٩٢
(٢٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار فى الممالك والابصار جـ ١ ص ٣٥
(٢٥) تم بناء قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ على يد عبد الملك بن مروان ، وهى بناء حجرى مثمن الشكل ، قوامه تثمينه خارجية من الجدران ، تليها من الداخل تثمينة أخرى من الاعمدة والدعائم والاساطين . وداخل هذه التثمينة دائرة من الاعمدة والدعائم ؛ وفوق الدائرة قبة مرفوعة على رقبة اسطونية فيها ست عشرة نافذة . والقبة من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص ومن الداخل طبقة من الجص . ويبلغ طول ضلع المثمن الخارجى (٢٠ر٥) مترا وارتفاعه نحو تسعة أمتار ونصف . وفى الجوانب المقابلة للجهات الاربع الاصلية من المثمن ، أربعة أبواب وفى وسط هذا البناء الصخرة التى يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع قدمه عليها ليلة الاسراء والمعراج ولذا سمى البناء قبة الصخرة (ابن فضل الله العمرى جـ ١ ص ٣٦ ، زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٣٧ Creswell: Early Muslim Architecture,. vol I.P.39.
(٢٦) علاء الدين الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ص ١٤٣
(٢٧) ابن يوسف الكنجى / كفاية الطالب فى مناقب على بن أبى طالب ورقة (٣٧) (مخطوط رقم (٢١٢) الجامعة العربية) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر لنـا فنزلنا بغدير خم ونودى للصلاة جمعة وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسـهم ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون انى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟قالوا : بلى . فقال من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعـاد من عاداه (٢٨) ، لقيه عمر بن الخطـاب رضى الله عنه ، فقال : هنيئا له يا بن أبى طالب أصبحت مولى كـل مؤمن ومؤمنة (٢٩) .

ويقع غدير خم على بعد ثلاثة أميال من الجحفة ، وهو عبارة عن عين ماء وحوله شجر كثير (٣٠) .

يقول السجستانى (٣١) : « وأعـلم أن عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا ولا عمله أحد من سالف الامة المقتدى بهم ، وأول ما عرف فى الاسلام بالعراق أيام معـز الدولة عـلى ابن بويه فـانه أحـدثه فى سـنة أثنتين وخمسين وثلثماية « سـنة ٩٦٣م » فاتخـذه الشيعة من حينئذ » . ولما احتفل الشـيعة بهذا العيد فى العراق ، قام أهل السنة بالرد عليهم ، فاتخذوا فى سنة تسـع وثمانين (٣٢) وثلثماية « سنة ١٠٠٤م » بعـد عيـد الغدير بثمانية أيام ، عيدا أكثروا فيه من مظاهر اللهو والسرور تفاؤلا بذكرى دخول الرسول صلى الله عليه وسـلم الغار فى طريق هجـرته الى المدينة هو وأبو بكر الصديق (٣٣) . وكان أهل الشام يبالغون فى الاحتفال بهـذا اليـوم فى اظهار الزينة ونصـب القباب « من الخيام » وايقاد النار ولهم فى ذلك أعمال مذكورة فى خطط الشام (٣٤) . وخاصة فى عصر الدولة الفاطمية حتى نهـاية القرن الثـانى عشر الميـلادى « السادس الهجرى » .

ويبدأ الاحتفال بعيد غدير خم يوم الثامن عشر من ذى الحجة وذلك باحياء ليلته بالصلاة، ويصلون فى صـبيحته ركعتـين قبـل الزوال ويلبسون فيه الجديد ويعتقون فيـه الرقاب ويكثرون من عمل البر ومن الذبائح (٣٥) ويضيف المقريزى فيقول : « وفى مصر تزوج فيه الايامى وفيه الكسـوة وتفرقة الهبـات لكبراء الدولة ورؤسائها وشـيوخها وأمرائها والاسـتاذين

---

(٢٨) الصبان : اسعاف الراغبين فى سـيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين ص ١٢٩

(٢٩) ابن عروة الحنبلى : الكواكب الدرية فى ترتيب مسند أحمد على أبواب البخارى ص ٣٢٣ محسن الامين العاملى : أعيان الشيعة جـ ٢، ص٥٦

(٣٠) محسن العاملى : المجالس السنية ص٩١

(٣١) السجستانى : كتاب الزينـة ص ٢٠٥ (نقلا عن كتاب كشف الظنون جـ ٣ ص ١١٣) .

(٣٢) القرمانى : أخبار الدول وآثار الاول فى التاريخ ص ١١٧ ، ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ ٢ ص ١٠٥

(٣٣) ابن أبى حديد : شرح نهج البلاغة ص٧٣

(٣٤) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٩٣

(٣٥) عبد الرحمن بن عبد الرازق : حدائق الانعام فى فضائل ومحاسن الشام ص ١٦٣

المحنكين والمميزين • وفيه النحر أيضا وتفرقة النحائر على أرباب الرسوم وعتق الرقاب وغير ذلك » •

شهر رمضان : لقد عنى المسلمون فى سائر الاقطار بشهر رمضان وأحاطوه بأنواع التكريم وأحيوه بصنوف العبادة وأغدقوا فيه الخير على الفقراء والمعوزين ، ويتفق أهل الشام مع أشقائهم أهل مصر فى كثير من العادات والتقاليد ، فلقد كان للاقليمين عناية بتكريم شهر رمضان وخاصة فى عصر الدولة الفاطمية ويضيف القضاعى ، أن الاحتفال برمضان بمكة وطرسوس بسوريا من عجائب الاسلام اذ يقول : عجائب الاسلام أربع : عرض الخيل بمصر ورمضان والعيد بمكة وطرسوس والجمعة فى بغداد ، فقد كانت تحيى لياليه بتلاوة القرآن والصلوات ويجتمع فيه أهل مكة وكذا طرسوس فلا يبقى فيه زاوية ولا ناحية الا وفيها قارىء أو مصل فترتج المساجد لأصوات القراء من كل ناحية (٣٦) •

ومن عادات الدمشقيين (٣٧) اذا ختم أحد أبنائهم القرآن فى رمضان بحضور القاضى وجماعة من الاشياخ ، فاذا فرغوا منها ، قام الصبى فيهم خطيبا ، ثم أعدت ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة قد انتظمت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة • وأعد لهذا الاحتفال شمع كثير وضع وسط المسجد شبيه المحراب المربع أقيم على قوائم أربعة تدلت منه قناديل مسرجة وأحاط دائر المحراب بمسامير مدببة الاطراف غرز فيها الشمع ، وتوقد الثريا المغصنة ذات الفواكه •

ويكمل ابن القطرى (٣٨) وصف مظاهر هذا الاحتفال الرمضانى فيقول : ويوضع بالقرب من محراب المسجد مئزر مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الالوان ، ثم يحضر الامام الصبى فيصلى التراويح ويختم والمسجد ممتلىء بالرجال والنساء والصبى فى المحراب وحوله الشموع مرتديا أفخر ثيابه • فاذا برز من المحراب ، يستقبله سدنة المسجد ويوصلونه الى ذروة المنبر فيستوى مبتسما ويشير الى الحاضرين مسلما • ويجلس بين يديه القراء ، حتى اذا اكملوا عشرا من القرآن ، يقوم الصبى ويلقى الخطبة وبين يديه فى درجات المنبر نفر يمسكون الشمع فى أيديهم ويرفعون أصواتهم بيارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة ، حتى اذا ما انتهت الخطبة ينزل الصبى وينفض الجميع • ويخص القاضى فى مثل هذه الحفلات الرمضانية بطعام حافل وحلوى ، فقد كانت لأبى الصبى الذى أتم حفظ القرآن فى تلك الليلة نفقة واسعة فى جميع ما ذكر •

---

(٣٦) ابن جبير : الرحلة ص ١٧٩ (لقد زار طرسوس سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣ م) •

(٣٧) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٤٣) (مخطوطة بمكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة) •

(٣٨) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٣٤) بمعهد المخطوطات العربية مخطوطة رقم (٢٤٣) متنوعات •

وشهر رمضان . كانت تسبقه مقدمات تبشر بمقدمه ، فقد كان نظار الاوقاف (٣٩) منذ شهر شعبان يأخذون فى تنفيذ شروط الواقفين على المساجد من تجديد الحصر ونظافة المساجد وطلائها وما يلزم لزيادة الاضاءة فيها واعداد القناديل اللازمة لاضاءة المنارات طول الليل حتى السحور (٤٠) ، وكانت أسواق الشماعين فى حلب وحمص وحماه ودمشق منذ القرن الحادى عشر (٤١) تحتفل بمقدم شهر رمضان فتعلق على واجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع .

وكانت أسواق الشماعين (٤٢) من الاهمية سواء فى مصر أو الشام بحيث كانت تصدر لها المراسيم بشكل الشموع الخاصة بكل مناسبة رسمية ووزنها . فكانت الحوانيت تزخر بالشموع ما بين كبيرة وصغيرة ، ومنها شموع المواكب الكبيرة ومنها ما يزن عشرة أرطال ، ومنها ما يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحد منها القنطار ، برسم الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلا فيمر فى شهر رمضان من ذلك ما يجل عن الوصف (٤٣) . وتستمر حوانيته مفتوحة الى منتصف الليل لكثرة ما يشترى وما يكترى من الشموع الموكبية (٤٤) .

ومن الاسواق التى تحتشد بها البضائع فى شهر رمضان ، أسواق النقل والياميش التى تشتهر بها بلاد الشام ، فقد كانت أنواع الياميش تفرش على أبواب البدالين هى وقمر الدين ، فيتسابق الشعب الى الاغتراف (٤٥) منها . وكانت رخيصة السعر فيتمتع بها الغنى والفقير ، وتقدم للضيوف ، وتوزع على أطفال الحارة حينما يطوفون على الدور بفوانيسهم الموقدة وينشدون أناشيد الترحيب بشهر رمضان ، شهر اليمن والبركات (٤٦) .

وكانت سوريا تصدر الى مصر فى شهر شعبان ، القناطير المقنطرة من النقل والياميش لاستعمالها فى شهر رمضان ، فقد كانت وكالة قوصون بشارع باب النصر ، هى مقر تجار الشام ينزلون فيها بضائع سوريا من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب (٤٧) .

وكان لشهر رمضان حرمته ، يصومه الرجال والنساء والاطفال ، والويل

---

(٣٩) أحمد العدوى العثمانى : الاعلام فى فضائل الشام ص ١٣٧
(٤٠) علاء الدين الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ص ١٥٧
(٤١) البدرى : محاسن الشام ص ١٢٩
(٤٢) المقريزى : الخطط والآثار ج ٢ ص ٩٦
(٤٣) كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٨٢
(٤٤) المقريزى : الخطط والآثار ج ٢ ص ٩٦
(٤٥) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٤٥) (مخطوطة بالمدينة المنورة) .
(٤٦) جلال الدين البصروى : تحفة الانام فى فضائل أهل الشام ورقة (٩٧) (مخطوطة بالخزانة التيمورية) .
(٤٧) المقريزى : الخطط والآثار ج ٢ ص ٩٣

للمفطرين (٤٨) فقد كان المحتسب (٤٩)يحاسب المفطر بعد أن يسأله عن سبب افطاره ،لاحتمال أن يكون مريضا أو مسافرا ، فان أثبت شيئا مما يبيح له الافطار ، عذره للجهر به ، وان كان مفطرا لغير سبب أدبه . هذا عدا ما يلاقيه من استهزاء الاطفال وسخريتهم .

ولقد اشتملت حجج أوقاف المساجد والمدارس على الكثير من أنواع البر والصدقات فى شهر رمضان، من زيادة مرتبات خدمة المساجد وأئمتها ، وتوزيع السكر عليهم وكسوتهم مع كسوة فقيه وعريف الكتاب الملحق بهما ،وكسوة التلاميذ اليتامى (٥٠) . فقد كانت المدارس تضاعف كميات الاكل والحلوى للطلبة والاساتذة ، كما خصصت الاموال الكثيرة لشراء قناطير اللحم الضأن والخبز والعسل والحبوب لطبخها وتوزيعها على الفقراء (٥١) .

كما اشترط بعض واقفى الخوانق (٥٢)والربط ببلاد الشام ، توزيع الحلوى على قاطنيها كل ليلة جمعة من رمضان ، هذا بالاضافة الى زيادة المخصصات فى هذا الشهر .

ويحدثنا ابن شداد (٥٣) عن ما يؤثر عن القائد البحرى لؤلؤ الحاجب فيقول :

انه كان سخيا وانه كان يوزع كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام . فاذا حل شهر رمضان ضاعف ذلك وأشرف بنفسه على توزيع صدقاته من الظهر فى كل يوم الى نحو صلاة العشاء الآخرة . وكان يصنع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد عشر ذراعا مملوءة بالطعام ويدخل الفقراء أفواجا وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم وفى يده مغرفة ، وهو يصلح صفوف الفقراء ويقدم اليهم الطعام . ويبدأ بالرجال ثم النساء ثم الصبيان . وكانوا لا يتزاحمون لعلمهم أن الخير يعمهم ، فاذا فرغ من اطعام الفقراء ، أعد سماطا فخما للاغنياء .

أما بالنسبة للسحور فى شهر رمضان ،فقد جرت العادة فى مساجد بلاد الشام أن يتجاوب مؤذنوها على المنارات بتذكير النيام للسحور فى فترات متفاوتة من الليل ، بأشعار لطيفة وأهازيج (٥٤) عامية . كما كان أهل الشام يسحرون بعزف الآلات الموسيقية والغناء . وقد انكر ابن الحاج (٥٥) ، العالم المتزمت كثيرا من تلك التقاليد ،فى نفس نقده لتلك العادات والتقاليد ، أعطانا فكرة عما كان عليه التسحير فى مصر والشام وغيرهما من

---

(٤٨) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٨١
(٤٩) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ص ٣٧
(٥٠) محمد بن كنان : الممالك الاسلامية فى الممالك الشامية ص ٩٧ (مكتبة جامع دومة الشام)
(٥١) محمد بن كنان: المروج السندسية بتاريخ المدرسة الصالحية ص ١٢٩
(٥٢) ابن شداد الحلبى : الاعلاق الخطيرة جـ ١ ص ١٣٠
(٥٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبى ص ٢٢١
(٥٤) الخيارى : تحفة الادباء وسلوة الغرباء ص ١٥٣ (وهى رحلته من المدينة الى الشام والروم ومصر) .

البلاد العربية . فقد ذكر ابن الحاج ، أن المسلمين عرفوا التسحير منذ صدر الاسلام ؛ اذ أنهم يعرفون جواز الاكل بآذان بلال ومنعه بآذان ابن مكتوم . ومن رأيه السير على تلك السنة ؛ أى اذانان بشرط تمييز صوت الاول عن الثانى . فقد جرت العادة أن المساجد الجامعة يكون فيها أكثر من مؤذن .

ولقد اشتهر شهر رمضان بالمغالاة فى اعداد موائده والافراط فى المرطبات والحلوى ؛ وعلى رأسها الكنافة والقطايف . ويقال أن الكنافة صنعت خصيصا لسليمان بن عبد الملك ؛ كما قيل انها عملت لمعاوية بن أبى سفيان وكلاهما كان يتسحر (٥٦) منها ، وكانت الكنافة والقطايف موضع مساجلات بين الشعراء فمن ذلك أبيات زين القضاء السكندرى (٥٧) وأبو على (٥٨) الحسين بن محمد الترمسى وسيف الدين بن قزل المنشد (٥٩) وسعد الدين ابن عربى (٦٠) .

واهتم أهل الشام بختام شهر رمضان ومقدم العيد اهتمامهم باستهلاله خصوصا وأن عيد الفطر عندهم هو الموسم الكبير ويعرف بعيد الحلل ، حيث توزع كسوة العيد على الخاصة والعامة (٦١) . وفى نفس الوقت تكون دار الفطرة انجزت المقادير اللازمة من كعك وحلوى وكعب الغزال ؛ لتوزيعها واعداد سماط العيد ؛ وهى كميات كبيرة يعدونها ابتداء من شهر رجب حتى نصف شعبان . هذا عدا المناديل والمفارش الحريرية لاعداد السماط والفوط التى يغطى بها الكعك عند توزيعه على الخاصة والعامة (٦٢) .

وفى نهاية شهر رمضان يضاء باب البريد ؛ أحد أبواب الجامع الاموى بدمشق ويزين أجمل

---

(٥٥) ابن الحاج الفاسى : المدخل ص ١٣٧
(٥٦) جلال الدين السيوطى : رسالة منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف ص ٦
(٥٧) لله در قطايف محشوة ... من فستق دعت التواظر واليدا
شبهتها لما بدت فى صحنها ... بمحقاق عاج قد حشين زبرجدا
(٥٨) وقطايف محشوة بلطائف ... طافت بنا أكرم بها من طائف
شبهتها نضدت على أطباقها ... بوصائف قامت بجنب وصايف
(٥٩) وقطايف مثل البدر ... أتت لنا من غير وعد
قد سقيت قطر النبا ... ت وطيبت بالماء ورد
فحسبتها لما بدت ... فى صحنها أقراص شهد
(٦٠) وقطايف مقسرونة بكنافة ... من فوقهن السكر المذرور
هاتيك تطرينى بنظم رائق ... ويروقنى من هذه المنثور
(٦١) كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٨٣ .
(٦٢) وعلى ذكر الكعك وعمله وتوزيعه يؤثر عن ابى بكر محمد بن على الماردانى وزير الدولة الاخشيدية ، أنه عمل كعكا حشاه بالدنانير الذهبية أطلقوا عليه وقتئذ اسم (افطن له) (المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٢٥) وكذلك عنى الفاطميون بالمائدة وعمل الكعك ، مما جعل بمطبخهم وطباخيهم شهرة ،وقد بقيت من طباخيهم بقية عملت فى القصور الايوبية ومنهم طباخة كانت تعمل كعكا شهيا عرف بها (كعك حافظة) (المقريزى : الخطط والاثار ج ١ ص ٤٦٢) .

وآخر يوم صيامه مائدة حافلة مملوءة بأنواع سن المراهقة صام رمضان فيعمل له فى أول يوم زينة (٦٣) • وفى مدينة حلب اذا ما بلغ الطفـل الحلوى يفطر عليها (٦٤) • وفى آخر رمضان وقبل العيد بيومين يخرج رجل مضحك يلبس قلنسوة طويلة فى اعلاها ذنب ثعلب وفى يده دف يدق عليه وأمامه حمار مزين بالخرز الملـون والودع ، معصب الرأس بالمناديل الملـونة ؛ فيدور على هذه الهيئة بالازقـة والشـوارع مستجديا عارضا العابه ورقصه ويسـمونه « جحش العيد » •

عيد الفطر وعيد النحر :

وفى عيد الفطر يؤدى أهل الشام صلاة العيد فى المساجد وبعده يخرجون الى المقابر لزيارة موتاهم (٦٦) وتحتفل الخوانق والربط والزوايا وارباب الطرق الصوفية بعيد الفطر (٦٧) ويلبس أهل تلك الخوانق لباسا خاصا يتكون من ثوب أبيض فضفاض ويضعـون عـلى رءوسـهم ما يسمونه « كلاهـا » (٦٨) وهـو من اللباد مستطيل الشكل • أما شيخ الخانقاه أو الرباط فيضع فوق « الكلاها » عمامة خضراء • وكانوا يقومون بحركات ايقاعية فيدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطـربة ، ومن ثم فهى حفلات مدنية أليق منها بالدينية (٦٩) •

وللاطفال كذلك مرحهم والعابهم الخاصة بهم فى مثل هذه الاعياد فى بلاد الشام فقد كان يخرج فى أيام العيد ولدان قد صبغا أجسامهما بالسواد وعلى رأسيهما الطراطير فيضـحكون الاطفال ويستدرون احسان الكبـار بالرقص والقفز ويقال لهم (بيضة بيضة) (٧٠) •

وبعد الانتهاء من احتفالات عيد الفطر ورأس السنة الهجرية ، يأخذ رواد الحجـاز أهبتهم للسفر لاداء فريضة الحج ويحتفـل أقاربهم وأصدقاؤهم بوداعهم (٧١) حتى اذا ما جـاء العاشر من ذى الحجة احتفل الناس بعيد النحر، فيقبلون على الضحايا وصـنوف من البـر والصدقات على غرار ما عملوا فى عيد الفطر •

الاعياد المدنية :

الحفلات والاعياد المـدنية كثيرة كذلك فى المجتمع الشامى فى العصور الوسطى ؛ ولعل

---

(٦٣) البدرى : محاسن الشام ص ١٣٦
(٦٤) كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٨٢
(٦٥) الخيارى : تحفة الادباء وسلوة الغرباء ص ١٥٤ •
(٦٦) كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٩٣
(٦٧) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٢٦ •
(٦٨) دوزى : معجم اسماء الملابس عند العرب حرف الكاف (مترجم بالعراق) •
(٦٩) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٥٧) •
(٧٠) كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٩٣
(٧١) احمد العدوى العثمانى : الاعـلام فى فضائل الشام ص ١٤٦ •

أهمها حفلات الزواج والختان ودخول المدرسة واتمام الدراسة والولادة وعيد الربيع وغير ذلك .

حفلات الزواج : اذا بلغ الغلام مبلغ الرجال وتاق للزواج تأخذ أمه وذوات قرابته يلتمسن له زوجة تنطبق أوصافها على ذوق الزوج ، ومتى قر قرارهن على احدى البنات يكثرن من التردد على دارها مرات عديدة ليرينها بجميع مظاهرها ، يرينها فى زينتها وفى وقت الغسيل وفى وقت الطبخ وتنظيف الدار (٧٢) . وعادة الدور التى يكون بها بنات فى سن الزواج ، وهى عادة فى الخامسة عشرة الى الخامسة والعشرين ، أن يناط بهن تقديم الشراب للخاطبات ، فتتأمل الخاطبات مشيتها ونقل أقدامها وأدبها فى تقديم الشراب وما الى ذلك من حلوى وغيره . ويخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها . ومتى أصبح الامر تقريبيا وافعا يذهبن الى الحمام معا ويرين جسمها عاريا وشعرها ويشممن فمها وتحت ابطها ورائحة عرقها وثيابها وينقلن ذلك الى الخاطب وعميد الاسرة مع وصف شكلها وجمال وجهها وغير ذلك ، وهنا تنتهى مهمة النساء (٧٣) .

ثم يتألف شبه وفد من عميد أسرة الخاطب ومن بعض معارف عميد أسرة المخطوبة ويذهبون الى دار ذلك العميد ، ويطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب ، ويكون الامر مقضيا على الاغلب بعد تلك التمهيدات . فيقررون المهر ويقرءون الفاتحة ، للتبرك ، دليلا على رضى الطرفين .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا الى عقود زواج كتبت على النسيج ترجع الى القرن السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر (٧٤) والرابع عشر الميلاديين) وهى أقدم عقود من نوعها عثر عليها حتى الآن . وهذه العقود وأن كانت لزيجات مصرية ، الا انها لا تخرج فى مضمونها وجملتها عن عقود الاحوال الشخصية الشرعية . هذا بالاضافة الى أن الحاكم فى مصر والشام واحد ، وكذا الاحوال الاقتصادية والمالية واحدة .

والذى يلفت النظر فى صيغة العقود الثلاثة ، أنه قد توافرت فيها أركان العقد وشروطه ، ماورد فيها من تقسيط مؤجل المهر على أقساط متعددة ، خلافا لما جرى عليه العرف الحاضر ، والعناية بالاشهاد عليها . كما أننا نرى فى صلب العقد شهودا عن شخصية الزوجة وخلوها من الموانع الشرعية وولاية أخيها لها بأذنها بمحضر شهوده ، كما نجد فى نهاية كل عقد أربعة شهود آخرين ، يقرر كل منهم عند توقيعه حضوره مجلس العقد ، وأنه يشهد بما فيه . أما العاقدان فلا توقيع لهما ، ولعله اكتفى بتوقيع هؤلاء الشهود .

---

(٧٢) محمد شيخاشيرو : الاخلاق والعادات ج ٦ ص ٢٨٤ .
(٧٣) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص ٩٧ .
(٧٤) سعاد ماهر : عقود الزواج على المنسوجات الاثرية .

وهذه العناية بالاشهاد على عقود الزواج ،ترجع الى عناية الشارع نفسه به : لخطره وعظيم شأنه ، فهو وان كان كغيره من العقود ، اركانه الايجاب والقبول ، الا أنه قد خصه من بينها باشتراط حضور شاهدين لصحته ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا نكاح الا بشهود » أما سائر العقود فانها تصح بغير شهود (٧٥) .

هذا الى أنه فى اشتراط الاشهاد على عقد الزواج اعلان هذا الزواج وذيوع أمره بين الناس ، ففى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعلنوا النكاح ولو بالدف » وجاء فى الاحكام الشرعية (٧٦) . وبندب (أى النكاح) وتقديم خطبه ، وكونه فى مسجد يوم جمعه بعاقد رشيد وشهود عدول » .

أما عن تقسيط المهر الذى ورد فى عقود الزواج الثلاثة ، علما بأن الازواج كانوا جميعا من علية القوم ، فظاهرة اقتصادية تستحق الاشارة اليها والوقوف عندها ، فقد تمت تلك الزيجات فى العصر المملوكى ، فقد تم العقد الاول فى العشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وستماية ، ويكفى أن نذكر هنا ما قاله المقريزى من أن الذهب والفضة قد خرجا من مصر فى عهد صلاح الدين ولم يعودا ، وصرفا فى تجهيز جيوش المسلمين لمحاربة الفرنجة فى بلاد الشام (٧٧) .

وعن تقسيط المهر من الناحية الشرعية ، فانه كما يصح تعجيل المهر كله أو تأجيله كله الى أجل قريب أو بعيد ، فأنه يصح تعجيل بعضه وتأجيل البعض الآخر ، كما يجوز ان يجعل المهر أقساطا معلومة يدفع كل قسط فى ميعاد كشهر أو سنة مثلا ، حسب اتفاق الزوجين ، فان لم يكن هناك اتفاق اتبع فى ذلك عرف البلد الذى تم فيه العقد . وقد جرى العرف فى بلاد الشام على تعجيل نصف المهر أو ثلثيه (٧٨) . وعلى تأجيل الباقى ، أى النصف أو الثلث لاقرب الاجلين الطلاق أو الموت (٧٩) .

أما عن قيمة الصداق أو المهر الذى كان يدفع للعروس فى ذلك الوقت فهو كما جاء فى نص العقود السالفة الذكر : « أصدقها على بركة الله وعونه وحسن توفيقه ويمنه جملة مبلغها من الدراهم النقدية الجيدة الحايرة ، خمس مائة درهم ، الحال من ذلك مائة درهم والمؤجل اربع مائة درهم مقسطة لها عليه فى سلخ كل سنة ،من الدراهم النقرة ، أربعون درهما . والعقد الثانى كان الصداق مائة درهم واحدة نصفها خمسون مما اعترفت الزوجة بقبضها .أما العقد

---

(٧٥) ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار على تنوير الابصار ج ٢ ص ٣١ كتاب النكاح .
(٧٦) محمد زيد الابيانى : الاحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية ص ٣٧ .
(٧٧) المقريزى : النقود الاسلامية ص ١١
(٧٨) كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٩١
(٧٩) عمر عبد الله : احكام الشريعة الاسلامية الاحوال الشخصية ص ٨٨ .

الثالث أصدقتها من الذهب العين (٨١) المثاقيل الجيد خمسمائة دينار ، الحال من ذلك مائة دينار وباقى ذلك أربعمائه مقسطة لها عليه الى تقضى عشر حجج من تاريخه •

ويعقد القران عادة فى المسجد الجامع فى كل مدينة أو قرية ؛ ففى دمشق يعقد بالمسجد الاموى حيث يصعد أحد مقيمى الشعائر به فيعلن على الناس من على المئذنة اسم الزوج واسم والد العروس ، وهكذا تتم عملية اعلان واشهار الزواج التى تنص عليها الشريعة الاسلامية • وقد عرفت المئذنة المخصصة لمثل هذا الاعلان باسم مئذنة العروس وهى ترجع الى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وان كانت قد حلت محل المئذنة القديمة التى بنيت فى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٢) (لوحة رقم «٣٠») • وفى حلب يعقد فى جامع الحلاوين (لوحة رقم «٣١») وفى حماة جامع أبى الفداء (لوحة «٣٣») وفى حمص فى جامع خالد بن الوليد (لوحة رقم «٣٤») ثم ينتقل الجمع الى بيت الزوجة حيث ينتظرهم احتفال فائق يحضره المطربون ويطاف على الحاضرين بكؤوس المرطبات أو المشروبات الساخنة وأنواع الحلوى الطازجة والمجففة • وبعد عقد القران بمدة أيام ينقل الجهاز الذى أعدته الزوجة الى بيت الزوج فى موكب حافل يتقدمه جماعة الحمالين ولاعبو السيوف والعصى ، ومنشدو الازجال ويسبق ليلة الزفاف ليال يسمونها « التعاليل » يحضر فيها المطربون والموسيقيون ، كما يدعو أهل الزوجة أقاربهم ليشاركوا العروس فى صبغ يديها ورجليها ومعصميها بالحناء ، وتعرف تلك الليلة بليلة النقش (٨٣) •

وفى ليلة الزفاف يأخذ الزوج زينته فى منزل أحد أصدقائه ويحضر الى منزله بموكب حافل من المطربين والموسيقيين وهو يسير الهوينى بين شابين يشبهانه يقال لهما « سخاديج (٨٤) » وقد حملت أمامه مصابيح ضخمة على عتلات ويتقدمهم منشدون ، وكلما أتم منشد مواله يهتف الجمع بقولهم « الله يساور جوز حوز جيز » تحريف « الله يصور الزوج جهاز (٨٥) » حتى اذا ماوصل هذا الموكب منزل الزواج أدخله وتتلقاه عروسه ويضع يدها فى يده ويدخلان الغرفة المعدة لهما ويفتح على رأسيهما طيلسان وردى اللون •

---

(٨٠) الدراهم النقرة هى الدراهم المسكوكة من الفضة الخالصة ، وكان سعر صرفها ١٣ ٣/١ درهم نقرة للدينار الذهب ، لتفصيل ذلك أنظر:

Hassanein Rabie, The finaincial System of Egypt, P. 174 and nate 4.

(٨١) العين : جاء فى الصحاح أن « التبر » ماكان من الذهب غير المضروب ؛ فاذا ضرب دنانير فهو عين ويقول صاحب اللسان فى مادة العين «بالفتح» المال العتيد والعين النقد يقال اشتريت العبد بالدين أو العين • والعين الدينار كقول أبى المقدام :

حبشى له ثمانون عينا بين عينيه قد يسوق أفالا

(٨٢) Creswell: Early Muslim Architecture vol. I P. 127.

(٨٣) ابن قطرى : مخدرات القصور ورقة(٦٢) مخطوطة بالمدينة المنورة •

(٨٤) سخاديج : واحدها سخدوج وهو الرفيق المملوك (مخدرات القصور ورقة «٦٢») •

(٨٥) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص٩٨

وفى صبيحة ليلة الزفاف يذهب الزوج الى الحمام العام ومعه جم غفير من الخلان والاخوان وبعد خروجه منه يعمل له اصدقاؤه الولائم على عدة أيام وهى المسماة بالصبحيات وفى اليوم الخامس عشر يولم الزوج وليمة لاهل زوجته يحرص أن تكون زاخرة بكل ما تشتهى الانفس تسمى عزيمة الخامس عشر (٨٦) •

ومن عادات الزواج التى ينفرد بها سكان ضواحى حلب ، أنهم يفرشون ليلة عقد القران غرفة العروس بقطيفة يجعلون ما التوى من وبرها الى جهة صدر الغرفة بقصد التيمن والفأل الحسن (٨٧) •

ومن الاحتفالات التى يقدرها أهل الشام حق قدرها ، دخول الطفل المدرسة أو الكتاب • فاذا ما بلغ الطفل الخامسة من عمره أرسل الى الكتاب أو الى الشيخة أو المعلمة اذا كانت بنتا • ومتى ختم تعلم القرآن تعمل له حفلة « تسمى نشيده » يحضر فيها الى منزل الغلام جماعة المنشدين والمطربين ودراويش الطريقة المولويه ، وبعد أن تقام نوبة « سماح » يطاف بالغلام ورفقائه بعض شوارع البلدة وهم ينشدون ازجالا فى المدائح النبوية بينما يسير خلف الغلام حامل المبخرة ، ورجل آخر ينثر الشعير على الرءوس دفعا للحسد (٨٨) • ثم يعود هذا الموكب الى منزل الغلام حيث تبسط الموائد فيأكل كل من سار فيه وملأ جيوب كل ولد فستقا وزبيبا مع شىء من النقود (٨٩) •

وقد اعتاد أهل الشام ختان اولادهم فى اليوم السابع من ولادتهم ، فتقام لهذه المناسبة حفلة يدعى اليها الاحباب والاصحاب وتقدم الاسمطة الزاخرة بكل ما لذ وطاب • ثم يزين الغلام بالحلى والحلل ويركب على برذون (دابة) ويركب وراءه رديف • يقال له العريف (٩٠) ويطاف به فى الشوارع يتقدمه كبير مشايخ الطرق الصوفية راكبا على برذون مجلل بسجادة الارشاد مكللا رأسه بطيلسان أحمر وفى يده عقافه (٩١) يشير بها الى جماعته وهم سائرون امامه يحملون اعلام طريقتهم ويضربون دفوفهم وطبولهم (٩٢) •

وبعد الانتهاء من الطواف يعودون الى منزل الغلام وتتلى قصة المولد النبوى وفى ختامها يختن الطفل (٩٣) • وقد يرافق تلك المواكب طائفة من الدراعين (لابسى الدروع) ولابسى

---

(٨٦) محمد شخاشيرو : العادات والتقاليد ص ٣٩١ •
(٨٧) كرد علي : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٨٢
(٨٨) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص٩٨
(٨٩) جلال الدين البصروى : تحفة الانام فى فضائل أهل الشام ورقة (٧٦) الخزانة التيمورية) •
(٩٠) علاء الدين الغزولى : مطالع البدرر فى منازل السرور ص ١٠٧
(٩١) العقافة : العصى المعوجة (الصحاح) •
(٩٢) ابن قطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٦٤) •
(٩٣) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص ٩٩ •

انجواش (٩٤) والخوذ وفى أيديهم السيوف والتروس ، ويتبارز بعضهم مع بعض بالسيوف والرماح • ويسير عادة وراء تلك الجموع وفى آخر الموكب رجل يقود جملا على ظهره منصه مهندمه بقوم فوقها رجل يرتدى ملابس نساء عرب البادية يقال له « عبلة » وقد أمسك بيديه صنوجا يرقص بها حتى يصل الى دار المختون ، ويسمى مثل هذا الموكب باسم «عراضة (٩٥)» •

ومن المتعارف فى مثل تلك الحفلات أن يهدى الى صاحب الحفل ، أهله وأصدقاؤه شيئا كثيرا من السمن والارز والغنم والغلال والطيور ، ويكون ذلك دينا عليه وفاؤه حين اقامة حفلة مثلها عند الهادين (٩٦) •

ويحتفل أهل الشام بولادة الطفل بأساليب مختلفة ، تبدأ بأن تلمسه القابلة بعد ولادته مباشرة فان كان غلاما صلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وان كانت جارية (بنتا) ترضت على فاطمة الزهراء ا ثم يقدم الى أحد أقربائه من المشهود لهم بالتفوق والصلاح فيؤذن فى اذنه الاذان الشرعى ثم يسمى من قبل وليه•

ثم يبدأ الاهتمام بأم المولود فتقدم لها الحلوى المصنوعة بالجوز ليكثر لبنها كما يقتصر شرابها على ماء الحمام المنقوع فيه أصول البنفسج مدة اسبوع كما يرسل لها الاقارب والاصدقاء موائد كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلابية ومعها أباليج السكر (٩٧) •

وفى اليوم السابع للولادة يولم أهل المولود وليمة كبيرة حافلة بانواع الحلوى قوامها الدبس (٩٨) والشمرة (٩٩) • وقد يحضر فى تلك الوليمة قيان يغنين ويرقصن للنساء ومطربون للرجال • ويحضر كل مدعو للابوين هدية بعضها مأكول والآخر ملبوس وثالث عبارة عن مسكوكات ذهبية تعلق فى قلنسوة الطفل تسمى « نهناية » وبعد مضى أربعين يوما على الولادة، تؤخذ النفساء الحمام مع اترابها من النساء ويكسين بدنها « بالشدود (١٠٠) » •

المآتم والاحزان :

وبرغم كثرة الاعياد والافراح الدينية والمدنية التى كان يحتفل بها المجتمع الشامى

(٩٤) الجوش : لباس من الزرد يلبس فى الحروب •
(٩٥) محمد شيخا شيرو : الاخلاق والعادات ص ٢٩٣ •
(٩٦) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٨٣ •
(٩٧) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص٩٧
(٩٨) الدبس : غسل البلح •
(٩٩) الشمرة : وتعرف بالمغلى •
(١٠٠) الشدود : وهو المرد قوش والخزامى المغربية (ابن قطرى البحيرى مخدرات القصور ورقه (٦٥) •

فى العصور الوسطى ، فان أحزانه قليلة ، تكاد تقتصر على حالة الوفاة، وفى اعتقادنا أن السبب فى ذلك ، هو أن كثرة الحروب والغزوات التى تعرضت لها بلاد الشام أكثر من قرنين من الزمان لم تترك فى نفوس أهله مكانا للحزن ، مما جعلهم يستهينون بكل مصيبة الا مصيبة الفراق .

فكانت اذا حضرت أحدهم الوفاه، تعلن وفاته اذا كان من الامراء والعلماء وأرباب الوظائف الكبرى وكذا كبار التجار ، وذلك فى مآذن مساجد المدينة (١٠١) ، ثم يحضر غسل المتوفى اصدقاؤه وذوو قرباه ، وحضور الاهل والاصدقاء غسل الميت عند أهل الشام أشبه مايكون بتقرير طبى ، ويثبت به أن الميت مات ميتة طبيعية ، فيطلع الغاسل على عامة جمسه أمام شهود ، فاذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ، ظهر ذلك لحاضرى الغسل ، وهم أهله ومحبوه ، فيشيع ذلك ويتصل بالحكام (١٠٢) .

وبعد اتمام غسل الميت ، يكفن فى نسيج شرعى ليس فيه بهرج ولا خروج عن المألوف عن كفن السلف الصالح، وتشيع جنازته الى احد المساجد حيث يصلى عليه صلاة الجنازة ، ثم يذهبون به بعد ذلك الى الجبانة ويوارى فى مثواه الاخير . ويمشى المؤذنون امام جنازة الميت ويذكرون االله اشهار لموته واعلانا له .

وبعد رجوعهم من دفنه يذهبون الى منزل عميد الاسرة يعزونه ، وفى المساء يجتمع الاهل والاصدقاء والجيران فى أقرب مسجد من دار المتوفى وبعد صلاة العشاء يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم ، يتصدقون على الفقراء والمعوزين بالطعام والكساء والنقود . ويستمر هذا الاجتماع مدة ثلاث ليال ، تعرف باسم « صباحية (١٠٣) » .

ومن العادات الخاصة بأهل حلب فى تلقى العزاء فى موتاهم ، أن يحضر بعض سكان اطراف البلدة، نائحات بدآيات ينثرن على رءوسهن الحناء ويشددن فى أوساطهن المآزر ويخدشن خدودهن ويسودن وجوههن بسخام القدور وعند خروج النعش من الدار يضربن بابها باناء خزفى ، على اعتقاد أن هذا العمل يمنع من أن يلحق بالميت غيره من أهله (١٠٤) . ومثل هذه العادات التى تستعملها النائحات ، ليست من الاسلام فى شىء فهى عادات سابقة على الاسلام عرفها المصريون (١٠٥) القدماء ونقلوها الى بلاد الشام ، كما أن كسر الاوانى الفخارية عقب خروج جنازة المتوفى ، تقليد يونانى (١٠٦) قديم، ادخله الصليبيون فى بلاد الشام .

---

(١٠١) احمد العدوى العثمانى : الاعلام فى فضائل الشام ص ١٣٩ .
(١٠٢) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص ١٠٧ .
(١٠٣) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص ١٠٧ .
(١٠٤) البدرى : محاسن الشام ص ١٤٨ .
(١٠٥) سليم حسن : تاريخ مصر القديمة ج ١٢ ص ١١٧ .
(١٠٦) ابراهيم نصحى : مصر البطلمية ص ١٣٦ .

وفى الجنازة لتشييع المتوفى الى مثواه الاخير ، يسير فى المقدمة المؤذنون الذين يؤذنون اذان الجوق وينشدون بعض المدائح النبوية ، كما يجهر الجميع بكلمة التوحيد وقد يمشى أمام النعش جماعة الصوفية والدراويش المولدية . فاذا وصل النعش الى القبر حطوه على الارض وأخرجوا الميت منه ولحدوه ثم يهال عليه التراب (١٠٧) .

وفى الليالى الثلاث الاولى من الوفاة يجتمع فى مسجد الحى كل أهله من الرجال والاطفال وذلك بين العشائين « المغرب والعشاء » يكررون كلمة التوحيد وفى أيديهم مسبحة كبيرة ينتظم فى سلكها خمسمائة حبة ، كل حبة منها فى حجم الجوزة (١٠٨) . فاذا دارت دورة سكتوا وتلا امام المسجد شيئا من القرآن ، ثم تدور دورا آخر فى ختامه ينتهى الذكر ويفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة باسم « الغريبة » (١٠٩) .

وفى صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع أهل الحى جموعا مع الاهل والاصدقاء على القبر وتمد البسط على أطرافه وتوضع عليه قماقم ماء الورد وتنثر فوقه الزهور ، ويفرق على الحاضرين أجزاء من الربعات ، وبعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس فى حلقات ويذكرون اسم الله سبحانه وتعالى ، حتى اذا ما انتهى الذكر وانتصف النهار ، تفرق الصدقات على الفقراء والمعوزين ثم يعزى الناس أهل الميت وهم فى المقبرة وينفرقون بعد أن يكونوا قد أقاموا ما يعرف باسم جناز اليوم الثالث (١١٠) .

وفى كل يوم من اليوم السابع ويوم الاربعين واليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من الفقراء الى بيت الميت يتلون القرآن العظيم فى نهارهم (١١١) . وفى المساء تبسط الموائد ويفتح باب الدار للفقراء فيأكلون ويزودون (١١٢) .

ويؤخذ فى استقراء بعض الاحداث المعاصرة للفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ، ونعنى بها القرن السادس والسابع للهجرة « الثانى والثالث عشر الميلاديين » فى بغداد ، انه كان للحزن لباس يناسب المقام ، الا أنهم ذكروا لونها وهو الابيض والاسود والازرق ، فقد ذكر ابن الجوزى (١١٣) ، عند وفاة الخليفة المستنصر العباسى ، أن رجال الدولة ارتدوا الثياب السوداء . كما اتخذ أهل الاندلس اللون الابيض للحزن والحداد (١١٤) .

---

(١٠٧) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص ١٢٧ .
(١٠٨) عبد الرحمن بن عبد الرازق : حدائق الانعام فى فضائل أهل الشام .
(١٠٩) ابن القطرى البحيرى : مخدرات القصور ورقة (٦٦) .
(١١٠) جلال الدين البصروى : تحفة الانام فى فضائل اهل الشام ورقة (٩٧) (الخزانة التيمورية) .
(١١١) عبد الرحمن عبد الرازق : حدائق الانعام فى فضائل ومحاسن الشام ص ١٢٥ .
(١١٢) الشيخ كامل الغزى : نهر الذهب ص ١٠٩ .
(١١٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٩٥
(١١٤) الادريسى : نفح الطيب ص ٢٤٥ .

وكان غير مسموح للمرأة المتوفى زوجهـا لبس الثياب المصبوغة الا ثوب عصب (١١٥) ، وقد حصر دوزى (١١٦) ألوان ثياب الحداد فى العالم الاسلامى فى اللون الاسـود والازرق واللون النيلى والابيض فى الاندلس .

---

(١١٥) ابن داود : مسند أبى داود جـ ١ ص ٦٧٥ .
(١١٦) دوزى : معجم الملابس ص ٢٦ ، ٣٥٠ المترجم .

الفصـــل الثـانى

ـ الخلع والملابس :

١ ـــ ملابس الرجال

٢ ـــ ملابس النساء

لقد كانت لبلاد الشام شهرة واسعة فى صناعة النسيج قبل الاسلام ، وكانت منسوجاتها الحريرية موضع التقدير ومضرب الامثال فى الدقة والروعة والجمال . وقد عرف العرب لها ذلك فعملوا على الاستفادة من هذا التراث الفنى وتشجيعه حتى ازدهرت صناعة النسيج فى العالم الاسلامى عامة وبلاد الشام خاصة ، وبلغت من الكمال والاتقان درجة قلما نجدها ممثلة فى أى ناحية أخرى من نواحى النشاط الفنى عند المسلمين .

ومن التقاليد الاسلامية التى كان لها أكبر الاثر فى ازدهار فن النسيج ، كسوة الكعبة التى يقدمها العرب قبل الاسلام وبعده ، كذلك كان لنظام منح الخلع وهو تقليد عرفه معظم شعوب العالم القديم . فعرفه المصريون القدماء . كما عرفه الفرس الاخمينيون وهناك ناحية لها أهميتها ينبغى ألا نغفلها ، الا وهى حب العرب للباس واقتنائهم للفاخر منه ، فكان ذلك عاملا من عوامل المنافسة فى الابتكار والاتقان.

وقد دفع اهتمام المسلمين بالمنسوجات الى العناية بالمصانع التى تصنع بها وهى دور الطراز ، فأخضعوها للرقابة الحكومية .

وقد شهدت بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة « الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين » ازدهارا فى صناعة المنسوجات الحريرية المعروفة بالديباج (١) والدمقس (٢). وقد رافق هذا الازدهار تفنن فى تنوع شكل اللباس وطرق زخرفته لارضاء جميع الاذواق والميول .

ولعل كثرة تنوع اللباس فى بلاد الشام فى العصور الوسطى ، قد نشأ عن كثرة اختلاف عادات وتقاليد الشعوب والحكام الذين وفدوا عليها وحكموها فى تلك الفترة . هذا بالاضافة الى أنه كان لكل طبقة لباس خاص يميزها عن سواها من حيث الشكل واللون بل ونوع النسيج ، كما كان لكل مناسبة لباسها الخاص الذى يلائمها .

وقد أشارت بعض المعاجم وكتب التاريخ الى أن ألبسة الناس كانت مرتبطة بزيّها ولونها ونوعها ، بطبقاتهم وحرفهم ووظائفهم . وفى ذلك يقول الجاحظ : ومنهم من يلبس القباء

---

(١) الديباج كلمة فارسية معربة تتكون من لفظين (ديو) بمعنى الجن و (باغ) بمعنى عمل أى انه نسيج من عمل الجان وذلك كناية عن دقته انه نسيج من عمل الجان وذلك كناية عن وقته واتقانه بحيث لايستطيع عمله غير الجان. والديباج نوع من النسيج الحريرى المركب المتعدد الخيوط السدى ، ويحتوى على عدد كبير من خيوط اللحمة الملونة التي يكون الزخارف الموجودة (سعاد ماهر) مشهد الامام على بالنجن ص ٢٢٩ .

(٢) الدمقس : كما جاء فى معاجم اللغة : هو السميك من الحرير . وقيل انه نسب الى دمشق نسبة الى اشتهارها بصناعة المنسوجات الحريرية منذ العصر الرومانى . أما من الناحية التطبيقية فالدمقس نسيج من الحرير المركب المتعدد السدى والالوان المستعملة فيه متقاربة غير متاينة ولايستعمل فيه الخيوط المعدنية .

(سعاد ماهر : مشهد الامام علي بالنجف ص ٢٤٢) .

ومنهـم من يلبس « البازيكند » (٣) وللخليفة عمة وللفقهاء عمة وللبقالين عمة • ولكل قوم زى ؛ فللقضاة زى وللشرطة زى وللجند زى(٤) ويضيف التنوخى (٥) الى ذلك قوله : وللامراء زى وللتجـار زى • ومن الطـريف أن يكون للصوص زى أيضا معروف بينهم • فقد روى ابن الجوزى (٦) : ان الذى يلبس الصـوف تحت الثياب ويلوح بكمة حتى يرى لباسه فهو لص ليلى ؛ والذى يلبس الثياب اللينة عـلى جسده ثم يلبس الصوف فوقها لص نهـارى مكشوف •

وبرغم الحرية التى تتمتع بهـا طبقات المجتمع الشامى فى العصور الوسطى ، فقد كان لكل طبقة اتخـاذ الزى واللباس الذى ترغبه ، الا أن الدولة فى بعض الاحيان كانت تصـدر أوامر وتعليمات حول تحـديد نوع اللبـاس وشكله وخاصة لأهل الذمة • ولكنه على الرغم من هذه الاوامر ، فان أهـل الذمة لم يكونوا أحيانا يذعنون لها بل كانوا يشاركون المسلمين لباسهم (٧) •

ونتيجة للرغبة المتزايدة فى اقتناء اللباس والعناية به من قبل الخلفاء والسلاطين والامراء وكبار رجال الدولة ، أن أعدوا فى قصـورهم أماكن خاصة بالخياطين (٨) ، كما أنشأوا خزائن الكسوة فى قصورهم ورتبوا لها العمال والموظفين وكانت تصدر اليهم الاوامر برسـم « خزانة الخلع السلطانية » (٩) •

ولم تغفل الدولة مراقبة محال اللباس ، فقد كان من بين واجبات المحتسب (١٠) ملاحظة المنسوجات ومنع الغش فيها • كما كانت الدولة تفـرض فى بعض الاحيان الضرائب والمكوس على الثياب (١١) •

لباس الرجال :

لقـد كان للتمـايز الطبقى فى المجتمـع الشامى فى العصور الوسطى أكبر الاثر فى تعدد الازياء وتنوعها، فكانت كل طبقة تختص بلباس يميزها عن سواها من الطبقات الاخرى • وربما اتسع تنوع اللباس خارج حـدود الطبقـات الاجتمـاعية الى الفرق والطـوائف الدينيـة

---

(٣) البازيكند : كساء يلقى عـلى الـكتف (الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٥) •
(٤) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٤ •
(٥) التنوخى : الفرج ج ١ ص ١٣٧ •
(٦) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٩٧ •
(٧) الجاحظ : ثلاث رسائل : رسـالة الرد النصارى ج ١٨ ص ٢٩ •
(٨) الصابى : الوزراء ص ١٩٦ •
(٩) الخطيب البغدادى : تاريخ ج ٦ ص ٥٦
(١٠) الشيزرى : الحسبة ص ١٢٤ •
(١١) ابن الجوزى : المنتظم ج ٧ ص ١٢٧ •

والفكرية ، فقد كانت العمامة مثلا لباسا عاما اتخذته معظم طبقات المجتمع ، فقد لبسها الخلفاء والسلاطين ، كما لبسها رجال الدين ورجال السيف والقلم ، ولبسها التجار بل وأصحاب الحرف والرعاع والصعاليك • كذلك كانت القلنسوة من اللباس الذى شاع استعماله بين مختلف الطبقات • وقس على ذلك الطيلسان والاقبية والدراعة • ومن ثم فقد رأينا أن نبين وصف كل لباس تبعا للطبقات التى تلبسه وتختص به ، معتمدين فى ذلك على ما جاء فى معاجم اللغة وكتب الادب والمراجع التاريخية والمخطوطات المصورة والآثار الباقية •

لقد أورد المؤرخون عددا من التسميات لأغطية الرأس التى يلبسها الرجال منها التاج وهو ما جاء فى معاجم اللغة (١٢) ، طاقية عالية لها هيئة خاصة وبه يتوج الملك نفسه ، أما الاعيان فانهم يتزينون به فى الاعياد الرسمية بحضور الملك • وهو منسوج من الصوف المكفت بالذهب ، وتحف به صفوف من المجوهرات والاحجار الكريمة • كذلك اعتبر التاج من جملة الخلع التى يخلعها الخلفاء على قادتهم (١٣) •

وقد أمدتنا الآثار الباقية بأوصاف مفصلة عن أشكالها وهيئتها ، ففى متحف بنسلفانيا (١٤) كسوة جدار من الجص ، ذى الزخارف البارزة عليها رسم السلطان طغرلبك (سنة ٥٩٠هـ / سنة ١١٦٤م) وحوله حاشيته وكبار رجال دولته •

وقد تعددت واختلفت أغطية الرأس فى اللوحة الجصية السابقة ، فبينما نجد السلطان يضع تاجا ذا ثلاثة فصوص تزينه مجموعة من حبيبات ،نجد رجال الحاشية وقد وضع بعضهم تيجانا من النوع المجنح المزين بحبيبات صغيرة متماسكة وهذا الشكل الاخير من التيجان يذكرنا بالتيجان الساسانية •

أما التيجان المصنوعة من الذهب والمرصعة بالاحجار الثمينة فكانت معروفة منذ أوائل العصر الاسلامى وظل يستعملها خلفاء وملوك وسلاطين المسلمين (١٥) ، تشهد بذلك التيجان الموجودة بمرقد الامام على بالنجف الاشرف (١٦) • كذلك وجد التاج مسكوكا على عملة الاتابكة ، ففى المتحف العراقى عملة نحاسية عليها صورة ناصر الدين محمود أتابك الموصل (١٧) الذى حكم خلال الفترة (٦١٦هـ — ٦٣٠هـ/ ١٢٢٠ — ١٢٣٤م) وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر ترمز لها حبيبات كبيرة ، كذلك وجد طست من النحاس المكفت بالذهب والفضة من صناعة الموصل فى القرن السابع الهجرى « الثالث عشر الميلادى » محفوظ بمتحف

(١٢) دوزى : المعجم ص ٨٦ — ٨٧ •
(١٣) القرمانى : اخبار الدول ص ١٥٧
(١٤) زكى محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية (شكب ٧٧٨)
(١٥) ديماند : الفنون الاسلامية ص ٩٨ •
(١٦) سعاد ماهر : مشهد الامام على بالنجف ص ٢٠٣ •
(١٧) صلاح العبيدى : تاريخ اللباس فى العصر العباسى •

برلين (١٨) ، وقد صور عليه رسم شخص على رأسه تاج يشبه ذلك الذى نقش على عملة ناصر الدين محمود « لوحة ٥٣ » .

ومن لباس الرأس عند الرجال التخفيفة ، التى يقول عنها دوزى ، نقلا عن النويرى : ان التخفيفة كانت من زى الندماء وأورد دوزى نصا آخر نقله عن ابن اياس جاء فيه « أن رجلا قلع تخفيفته ولبس عمامة وجوخة (١٩) من فوق ثيابه » . أما (Mayer) (٢٠) فقد اعتبر التخفيفة عمامة صغيرة ، كما أطلق لفظ « التخفيفة الكبيرة » على العمامة الكبيرة التى كانت تستخدم فى مقام التاج عند سلاطين المماليك . أما دوزى (٢١) فيرى أن التخفيفة ضرب من الطاقية (Bonnet) . ويذكر ابن أبى اصيبعة ، انه كان على رأس الحكيم موفق الدين يعقوب بن صقلاب النصرانى كوفية وتخفيفة ، واعتمادا على هذا النص يفهم أن التخفيفة تعنى الطاقية (لوحة رقم « ٥١ ») .

ومن ألبسة الرأس التى يلبسها قطاعات كبيرة من الشعب « الدنية » والتى جاء وصفها، انها قلنسوة فى شكل الدن طولها شبران (٢٣) ، وقد شاع استعمالها خلال القرن الثالث الهجرى « التاسع الميلادى » حيث عدت من ألبسة القضاه المميزة (٢٤) لهم، الا أنهم استبدلوها فيما بعد بالعمائم السود المصقولة (٢٥) ، « لوحة رقم ٣٧ » .

ويقول آدم متز (٢٦) : « ويبدو أن القضاه كانوا يزيدون من مقدار طول « الدنية » حتى بلغ طولها ذراعا ، وذلك لانها كانت ذات أهمية كبيرة لانها تضفى عليهم شيئا من الهيبة والوقار ، فقد ذكر الشابشتى (٢٧) أن أحد الملاحين فقد سفينته فقال « مثل قاض بلا « دنية » . وورد فى مقامات الحريرى ما يشير الى أهمية « الدنية » ، فقد جاء عن قاضى حلب ما نصه : ضحك القاضى حتى هوت دنيته وذوت سكينته » (٢٨) . أما عن شكل الدنية فنراه واضحا تصويره (٢٩) محفوظة فى المكتبة الاهلية بباريس ، وهى من مقامات الحريرى التى

---

(١٨) صلاح العبيدى : التحف المعدنية الموصلية ص ٦٤ .
(١٩) دوزى : المعجم ص ١٣٢ .
(٢٠) Mayer: The mamluk Costume. P. 31
(٢١) دوزى : المرجع السابق ص ١٣٢ .
(٢٢) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ج ٢ ص ١٧٧ .
(٢٣) الصابى : رسوم دار الخلافة ص ٧٩ ، الحنبلى : شذرات الذهب ج ١ ص ٢٣٤ ، بديع الزمان الهمذانى : مقامات الهمذانى ص ١٩٩،٤٤
(٢٤) الاصفهانى : الاغانى ج ١ ص ١٢٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٥٠ .
(٢٥) الصابى : المرجع السابق ص ٩١ .
(٢٦) آدم متز : حضارة الاسلام ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .
(٢٧) الشابشتى : الديارات ص ١٤١
(٢٨) الحريرى : مقامات الحريرى ص ١٤١
(٢٩) Ettinghausen: Arab Painting (Published by Skira) P. 82

يرجع تاريخهـا الى القرن السـابع الهجرى« الثالث عشر الميلادى » « أنظـر لوحة رقم ٣٦ » •

وهناك غطاء للرأس يطلق عليه اسـم« الرصافية » يقول عنها دوزى (٣٠) : « واننى أجهل ما اذا كانت الرصافية تنسب الى مكان صنعها وهى رصافة (٣١) بغداد ومن ثم تكون من نوع العرقية Calotte والمسماة فى مصر « كلوته » أم هى من نـوع الطـاقية bonnet أم هى قلنسوة • وقد قطـع الجاحظ (٣٢) الشك باليقين اذ قال أن القـوم كانوا يلبسون العمائم مباشرة أو تلبس عـلى القلانس أو الرصافية كما يسمونها ، ومن ثم تكون الرصافية تعنى العمامة والقلنسوة معا•

وكانت الرصافية لبس الخاص والعام على حد سواء الفرق بينهما كان ينحصر فقط فى نوع الخامة التى استعملت فيها ، سواء أكان ذلك فى نسيج العمامة أو مادة القلنسوة فقد عثر عـلى صورة (٣٣) فى المقامة الثالثة والعشرين من مقامات الحريرى مؤرخة سنة ٦٣٤/١٢٣٧م حيث نجد الوالى على منصة مرتفعة وعلى رأسـه الرصافية ، وصورة (٣٤) أخرى من مخطـوطة خواص العقاقير مؤرخة سنة ١٢٢٤م من دمشق ، تمثل طبيبين يقومان بصنع الدواء وعـلى رأسيهما الرصافية •

ومن أغطية الرأس «الشاشية» التى يبدو أن اسمها جاء منسوبا الى مدينة الشـاش فى ديار ماوراء النهر(٣٥) عند وصفهم «بأنهم أصحاب ذكر الجاحظ (٣٦) عند وصفهم « بأنهم أصحاب القلانس الشاشية • وقد أخذ العرب هذا النوع من اللباس عن الاعاجم منذ عهد الخليفة العباسى المعتصم بالله فقد ذكر المسعودى : «ان المعتصم سلك مسلك أخيه المأمـون وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك والاعـاجم ولبس القلانس الشاشيه ، فلبسها الناس اقتداء بفعله وائتماما به فسميت « بالمعتميات » من ذلك يبين لنا أن الشاشيه قد لبسها الخاص والعـام وأنها انتشرت فى مصر والشام منـذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميـلادى) انتشارا كبيرا وهى التى عرفت فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) باسـم « الشربوش » (٣٨) وعرفت حديثا باسـم الطربوش (٣٩) (لوحة رقم «٣٨») •

---

(٣٠) دوزى : المعجم ص ١٥٦ •
(٣١) الصابى : رسوم الخـلافة ص ٩٠، ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ١٣٦ •
(٣٢) الجاحظ : التاج ص ٤٨ •
(٣٣) العبيدى : تاريخ اللبـاس فى العصر العباسى ص ٩١ •
(٣٤) العبيدى : المرجع السابق ص ٩٢
(٣٥) دوزى : المعجم ص ٢٠٠ •
(٣٦) الجاحظ : رسائل مناقب الترك ص ١٩ - ٢٠ •
(٣٧) المسعودى : مـروج الذهب ج ٤ ص ٤١٩ •
(٣٨) دوزى : المعجم ص ٢٠٢ •
(٣٩) ماير : المـلابس المملوكيـة ص ٩٢ (المترجم) •

ويعرف دوزى (٤٠) نوعا آخر من لباس الرأس عند أهل الشام اسمه « الطرحة » فيقول ، هى خمار مقور مصنوع من الشاش الموصلى الذى يلاث على العمامة أو يطرح على الكتفين ويتدلى على الظهر • وتعتبر الطرحة لباس القضاه الخاص ، بل شعار قاضى القضاه فى الدولة العباسية ، فقد خلع على أحمد بن على النجار (سنة ٥٩٩ هـ / سنة ١٢٠٢ م) عندما قلد أقضى القضاه شرقا وغربا « خلعة سوداءوطرحة (٤١) كحلية »• ويبدو أن اللون الكحلى (٤٣) هو الغالب بينما يرى (٤٤) دوزى أن اللون الاسود هو الغالب (لوحة رقم «٣٩»)

ومن ألبسة الرأس المعروفة « العمامة » أنثى عرفها ابن سيده (٤٥) فقال : «انها اللباس الذى يلاث على الرأس تكويرا • وقد تعددت أسماء العمامة وأنواعها وألوانها تبعا لشخص ومركزه وأهميته فى الوظيفة وطبقته الاجتماعية• فقد كان للخلفاء والسلاطين عمة وللفقهاء عمة والبقالين (٤٦) عمة كما كان للاعراب عمة ، وللصوص عمة وللروم عمة وللنصارى (٤٧) عمة ، وللمعنيين (٤٨) عمة • وقد عرف عن قاضى قضاه مصر والشام فى العهد الفاطمى ان رتبته أجل رتب أرباب (٤٩) العمائم • كما كان قاضى القضاه الشامى يلبس من كتان ، وكان له كيسان احدهما يجعل فيه عمامته وقميصه فاذا خرج لبسهما (٥٠) (لوحة «٥٠») •

ومن لباس الرأس المشترك بين الرجال والنساء القلنسوة ، وهى مايلاث على الرأس تكويرا (٥١) ، كما هو الحال فى العمامة • وكانت القلنسوة تلبس غطاء للرأس ، اما وحدها أن تلف حولها العمائم (٥٢) • وقد بلغ من شيوع استعمال القلنسوة العصور الوسطى ، أن كثرت أنواعها وألوانها وتعددت اسماؤها تبعا لكل طبقة • ولعل من أهم أنواع القلانس ، قلانس السمورية التى كانت تصنع من جلود حيوان السمور (٥٣) ، وقلانس الملكية (٥٤) نسبة الى طبقة الملوك وان لم تذكر لنا المراجع شيئا عن شكلها وهناك قلانس الطاقية (٥٥) (لوحة رقم «٣٨») •

لباس البدن للرجال : ان اسماء لباس البدن للرجال التى وردت فى معاجم اللغة

(٤٠) دوزى : المعجم ص ٢١٢
(٤١) دوزى : المعجم ص ٢١٣
(٤٢) ابن الساعى : الجامع المختصر ص ١١٤
(٤٣) ابن الدبيثى : ذيل تاريخ بغداد ج ٢ ورقة (٩١) ب
(٤٤) دوزى : المعجم ص ٢١٤
(٤٥) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨٢
(٤٦) التنوخى : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٢٣ •
(٤٧) الجاحظ : البيان والتبين ج ٣ ص ٧٨، ١١٤ •
(٤٨) الاصفهانى : الاغانى ج ٥ ص ٤٢٠
(٤٩) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠٣
(٥٠) السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٠٥ •
(٥١) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٩٢
(٥٢) الجاحظ : التاج ص ٤٨ ، الهمذانى : مقامات ص ١٩٩ •

والمراجع التاريخية كثيرة ومتعددة اذا قيست التى جاءت عن أغطية الرأس ، لذلك مفسنكتفى بعرض البارز والمشهور منها فى بلادالشام فى العصور الوسطى •

ومن الملابس الداخلية للرجـــال الازار والمئزر والازارة بمعنى واحدوهى ما يلتحف (٥٦) به • على ان دوزى (٥٧) يقول ان الازار غير المئزر ، فالاول يدل على الغطاء الكبير أو الرداء الواسع الذى تلتف به نساء الشرق ، كما انه يعنى نوعا من الثياب لتغطية الارداف والعورة فى حين أن كلمة مئزر تعنى قطعة القماش التى تستر عورة الرجل والتى تلبس من السرة الى أسفل •

ولقد استعمل الازار أو المئزر فى حالات متعددة ، فقد استعمل فى الحمامات لســـتر العورة (٥٨) ، كما استعمـــل الازار فى بعض الاحيان لباسا هاما يضفى على صاحبه الهيبة والوقار حيث كان يلبس فوق سائر اللباس (٥٩) (لوحة رقم «٤٦») •

والتبان : ضرب آخر من ملابس الرجال الداخليـــة ، وهو عبـــارة عن سروال يستـــتر العورة (٦٠) • وقد اعتبرها دوزى (٦١) محرفة عن كلمة تنبان ، التى تعنى بالفارسية سراويل من جلد ويبـــدو أن العـــرب لم تستسغ لبس التبان ، اذ قال اعرابى ، أنا واللـــه العـــربى لا أرفع الجربان ولا ألبس التبان (٦٢) • لهذا فالمعلومات التاريخيـــة التى وردت عن هـــذا اللباس ضئيلة ويبدو أن سبب احجام الرواه عن ذكره أنه لم يكن من لباس الخاصـــة التى كانوا يسهبون فى وصفها ، أما بالنسبة للباس العامة فلا تأتى فى كتبهم الا عرضا • وتفسير ذلك سهل ميسور لان جمهور مؤرخى العصور الوســـطى لم يعنوا بالكتابة عن حالة البـــلاد الاجتماعية وطبقـــات الشـــعب ، بل اقتصرت كتاباتهم على الحالة السياسية وتراجم الملوك والسلاطين وعلية القوم •

وقد انتشر لبس السروال فى العصـــور الوسطى ، والسروال كلمة دخيلة انتقلت الى

---

(٥٣) الشـــابشتى : الـــديارات ص ٤٨ ، الهمذانى : مقامات ص ١٩٩

(٥٤) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٥

(٥٥) ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ١١٦ ـ ١١٧ •

(٥٦) ابن سده : المخصص جـ ٤ ص ٦٨

(٥٧) دوزى : المعجم ص ٣١ •

(٥٨) ابن الجوزى : الاذكياء ص ٧١ •

(٥٩) الازدى : حكاية ابن القاسم ص ٨٥

(٦٠) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٠٠

(٦١) دوزى : المعجم ص ٨٠ ــ ٨١ •

(٨٢) الجاحظ : البيان جـ ٢ ص ٩٧

العرب من الفرس (٦٣) وهى مشتقة من« زردارد » وهى فى الفارسية الحديثة « شلوار » (٦٤) •

أما عن شكل السروال فهو يتكون من حجزة وساقين (٦٥) ، وهو يستر من الجسم أسفله وهو مفصل ومخيط وهو على أنواع بحسب هيئته • فهناك سروال اسماط أى غير محشو (٦٦) وسراويل محزفجة ومفرسخة أى سراويل واسعة (٦٧) • وكان السروال لباس الظرفاء ، اذ لم يكن ينبغى للظريف أن يمشى بلا سراويل (٦٨) ، فمن تكامل ظرف الظريف ظهور بزته ولا يتسخ له ثوب ولا يدرن له جيب ولا ينفق له ذيل ولا يرى فى سراويله ثقب (٦٩) وقد بلغ التأنق ببعضهم أن جعلوا جميع ثيابهم التى يظهرون بها من لون واحد فتكون جبته وسراويله وعمامته وطيلسانه من قطعة قماش واحدة (٧٠) •

وثمة لباس داخلى اتخذه الرجال والنساء على حد سواء سمى بالغلالة ، فلبسته طبقات متعددة من المجتمع الاسلامى • وكان زى الظرفاء من الرجال، الغلائل الرقاق ذات الالوان الزاهية التى كانت ترتدى فى مجالس الطرب واللهو والمنادمة (٧١) • كما كان هذا اللباس من بين الخلع التى يخلعها الخليفة ضمن خلع المنادمة (٧٢) ، كما كانت تخلع على كبار رجال الدولة • فقد ذكر الصابى (٧٣) عن على بن عبد العزيز صاحب النعمان قوله : « لما خلع الطائع على عضد الدولة ولقبه تاج الملة حمل اليه فى اليوم الثالث عشر غلالة قصب (٧٤) فى

---

(٦٣) أبو هلال العسكرى : كتاب التلخيص فى اسماء الاشياء ص ٢١٤ •
(٦٤) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨٣
(٦٥) ابن منظور : لسان العرب ج ١٠ ص ١٥٢ •
(٦٦) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨٢
(٦٧) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨٣
(٦٨) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٤٨
(٦٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨
(٧٠) الازدى : حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٥٣، ٥٤ •
(٧١) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ٢٠٦
(٧٢) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٢٤
(٧٣) الصابى : رسوم الخلافة ص ٩٦
(٧٤) القصب كما عرفه ابن سيده ، ثياب كتان رقاق ناعمة ، وقد غالى بعضهم فادخل المطروق من الذهب والفضه فى نسجه ، فكان منه مايسمى بالكلبدون (الصابى : رسوم الخلافة ص ٩١ حاشية «٤») • واستعمال خيوط الذهب الى صفائح رقيقة ثم يسحبون هذه الصفائح الى خيوط ثم يضفرون هذه الخيوط الذهبية مع خيوط من الجلد أو الكتان أو غيرهما من مواد النسيج • والمصريون القدماء هم أول من ابتدع هذه الطريقة ومن مصر انتشرت الى الشرق الهند والصين وفارس ، ثم أحيت مصر هذه الصناعة فى العصور الوسطى ولكن كثر استعمالها فى نسيج الديباج فى بلاد الشام وكانت خيوط الذهب أو المذهبة عبارة عن أمعاء الحيوانات لصقت بها صفائح الذهب •
John Strong: Foundation of Fabric Structure.

ويقول ناصر خسرو : وهناك ثياب رقيقة مهلهلة النسيج كأنها المنخل هى السلم بالقصب وكان هذا القصب يلون وكان الملون منه ينسج فى تنيس ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثله (سعاد ماهر : النسيج المصرى فى عصر الانتقال ص ٦٧ ، زكى حسن: كنوز الفاطميين ص ١١٤ ، عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ١٠٦) •

منديل دبيقى (٧٥) • كما كان الخليفة المكتفى يخلع على كل انسان يجىء اليه بمعدل غلالة قصب وجبة فوقها دراعه على قدر أقدارهم فى المنزلة ومنها المنسوج بالذهب ومن الوشى والديباج (٧٦) والعتابى (٧٧) •

ويعتبر القميص من اللباس الاساسى حيث قال عنه الجاحظ (٧٨) : « أن القميص والسروال هما الشعار وسائر الثياب الدثار »•ويمتاز القميص بوجود كمين واسعين يهبطان الى المعصم ويتدلى من حاشيته الى منتصف الساقين (٧٩) • واشترك الناس على جميع طبقاتهم ومراكزهم فى لبس القميص ، فقد لبسه الخلفاء (٨٠) والسلاطين واشترك الوزراء كذلك فى لبسه (٨١) ، وكان رسم الوزير فى لباسه رسم سائر العمال ، فكان يلبس دراعه وقميصا ومنطقة وخفاء ولبس الشعراء القميص وكانوا يظهرون به أيضا فى مناسباتهم المعروفة (٨٢) والقميص أحد أزياء القضاه (٨٣)•كما اتخذه الخطيب ، فكان لباسه الذى عرف به، الا أنه لم يفترض أن يظهر به فى كل المناسبات والاحيان (٨٤) • وامتازت قمصان الجند بأنها كانت محبوكة ، فقد ذكر اليعقوبى (٨٥) ، أن الجند من المشاه كانوا يلبسون القمصان المحبوكة على أجسامهم الى ما تحت الركبة »•ولبس رياضيو الجرى القميص القوهى (٨٦) الرقيق وقد حسر عن فخذهم (٨٧) •

ولبس الظرفاء القمصان ذات الالوان المختلفة • ومنها المصنوعة من جيد ضروب

---

(٧٥) دبيق من أشهر المدن المصرية فى العصور الوسطى فى صناعة المنسوجات وتقع على بحيرة المنزلة بالقرب من دمياط وينسب الى دبيق خيوط الثياب المثقله (أى الموشاه بخيوط الذهب والفضة والاحجار الكريمة) والعمائم الشرب الملونه والمذهبة وربما كان ينسج من خيوط الكتان نسيج عرف باسم الكتان الدبيقى وقد بلغ من شهرتها أن اطلق اسمها على أحد مراكز النسيج فى العراق وهى الدبيقية احدى قرى بغداد (المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٢٦ ، ياقوت : المعجم ، الصابى : رسوم الخلافة ص ١٩٧) •

(٧٦) القاضى الرشيد : الذخائر والتحف ص ٦٢٣ •

(٧٧) اشار ابن جبير الى محلة العتابية اثناء زيارته لبغداد سنة ٥٩٠هـ حيث قال محلة العتابيين ببغداد من ازهى الرحلات وفيها يصنع العتابية الزاهية (الرحلة ص ٢٠٤) ويذكر ابو الفداء فى حوادث سنة ٦٠٥هـ (تاريخ ج ٢ ص ١١١) ان الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل توجه الى دمشق راجعا الى بلاد الشرق ، ولما وصل الى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر وانزله القلعة وكان يحمل اليه فى كل يوم خلعة وفى كل واحدة منها خمسة أثواب عتابى وبغدادى وموصلى • (البيهقى : المحاسن والمساوىء ص ٢٤١ (ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢) •

(٧٨) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١٨ •

(٧٩) دوزى المعجم ص ٣٠٠ •

(٨٠) القرطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ١٨٢

(٨١) الصابى : الوزارة ص ٣٢٥

(٨٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥١ ، الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٦ •

(٨٣) الصابى : رسوم الخلافة ص ٩١ ـ ٩٢

(٨٤) القرطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ١٨٢

(٨٥) اليعقوبى : البلدان ج ٣ ص ٤٤

(٨٦) القوهى : ثياب خشنة صناعة فارس (ابو سيده ج ٤ ص ١٣٩) •

(٨٧) الاصفهانى : الاغانى ج ٢ ص ١٢٠

الكتان الناعمة النقية الالوان كالدبيقى (٨٨) ،ولبسوا كذلك القميص المعنبرة ، الا أنها لبست فى أوقات الشراب والخلوات (٨٩) • واستعمل الصغار القمصان ، وكانوا يفضلون القمصان الملونة (٩٠) •

والفوطة : من ألبســة البدن الداخلية للرجال ، ومصغرها فويطة ، وهى كلمة هندية الاصل ، وهى عبارة عن قطعة من النسيج غير مخيط تلبس فى الهنـد بدلا من السروال (٩١) ويعرف ابن سيده (٩٢) فيقول ، انها ضرب من الثياب قصار غلاظ تكون مآزر واحدتها فوطة • وكان الحمالون والخدم يئتزرون بالفوطة (٩٣)،وذلك ما يجعلها مسبلة بعد عقدها من الاعلى أو يلوونها على أفخاذهم ثم يخرجونها من بينها ويشدونها عند أوساطهم (٩٤) • كما كان يلبس الفوطة أيضا العامل الذى يشـتغل فى الحمام وهو الـذى يسـمى « بالدلاك » • ويشـير الطبرانى (٩٥) الى الدلاك فيقـول : « وكان يقوم بغسل رأس الزبون وتدليك جسده ، وكان يشد وسطه بفوطة » •

أما عن لباس الرجال الخـارجى فمنهـا « البت » وهو كما يقول ابن سيده (٩٦) ، ثوب من صوف غليظ شبه الطيلسان • ويقول صاحب العين ، البت هو الذى يسمى الساج ويقـول ابن السكيت ، البت كساء أخضر مهلهل تلتفب به المرأة فيغبيها (٩٧) • وقيل أن البت الطيلسان من خز ونحوه (٩٨) • ويذكر الفيروز بادى (٩٩) أن الطيالس المتخـذة من الخـز تسمى البت وبائعه يسمى البتى • كما قيل هو كساء غليظ مربع أخضر (١٠٠) • « لوحة رقم ٣٩ » •

نخـرج مما تقـدم أن البت ضرب من الطيالس ، مربع الشكل أخضر اللون يتخذ من الصوف والخز ، وهو لباس مشترك بين الرجال والنساء • ولعل من أحسن الامثلة التى توضح لنا شكل البت صـورة مخطوط كتاب الترياق لديسقوريد مؤرخ « سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م » ترجع الى الشام ، ظهر فيها الطبيب أو العالم وعليه لباس البت الذى يغطى أعلى الجسـم

---

(٨٨) الوشاء : الموشى جـ ٢ ص ١٢٤
(٨٩) ابن الجوزى : اخبار الحمقى ص ١٣٩
(٩٠) التنوخى : الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٣٢٣ •
(٩١) دائرة المعارف الاسلامية مادة (سروال)
(٩٢) ابن سيده : المخصص جـ ٤ ص ٧٢
(٩٣) ابن منظور : لسان العـــرب جـ ٧ ص ٣٧٢ •
(٩٤) الشريس : شرح مقامات جـ ٢ ص ٢١٧
(٩٥) الطبرانى : مجموع الاعياد ص ٤١
(٩٦) ابن سيده : المخصص جـ ٤ ص ٧٩
(٩٧) بدرى : الطيلسان (مجلة كلية الشريعة العراقية العدد الثانى ١٩٦٥ - ١٩٦٦) ص ١٧٠
(٩٨) دوزى : المعجم ص ٥٢
(٩٩) الفيروزبادى : القاموس المحيط
(١٠٠) ابن منظور : لسان العرب جـ ٢ ص ٨

ويتدلى على الظهر حتى القدمين تقريبا ، وقد أحاط برقبته من الامام ليتدلى أحد طرفيه من فوق ذراعه اليمنى والى أسفل وحتى القدمين (١٠١) « لوحة رقم ٤٨» •

والبرد : كساء يلتحف به الرجال ،وقيل اذا جعل الصوف شقه وله هدب فهى برده ، وقيل أيضا هى الشملة المخططة ، أى أن البردة والشملة بمعنى واحد (١٠٣) ،الا أن دوزى (١٠٤) يفرق بينهما اذ يقول أن حاشية البردة فيها شىء من الحياكة • وكانت البردة من اللباس الضرورى للرجال وخاصة فى فصل الشتاء ،وتاريخ البرد قديم ولعل أشهر البرد ما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم والتى أخذ يتوارثها خلفاء المسلمين واحد بعد آخر ودولة فى أعقاب دولة حتى انتهت كما يذكر ابن الاثير (١٠٥) ، أن برد الرسول صلوات الله عليه كانت عند الخليفة المسترشد بالله ، فقد ذكر أنه سار الى دبيس وكان عليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة وعلى كتفه برده البنى •ويبدو أن بردة الرسول ظلت متوارثة فى خلفاء بنى العباس وفقدت فى فتنة التتار (١٠٦)« لوحة رقم ٤٤ » •

واستعمل الرجال فى بلاد الشام فى العصور الوسطى البرنس وهو ثوب رأسه منه متصل به سواء أكان دراعه أو ممطرا أوجبه (١٠٧) • وكان البرنس من ألبسة اليهود ، واطلق على النوع الذى يلبسونه اسم براطيل (١٠٨) ، كما كان النصارى يلبسون البرانس فى القرن الثامن للهجرة (١٠٩) •

وقد اتخذ البرنس لباسا للخارجين على الدولة وللاسرى ، فقد جرت العادة أن يلبسوهم البرانس ويطوفون بهم فى الحوارى والدروب (١١٠) •

أما عن شكل البرانس فيقول دوزى (١١١) :أن كلمة برنس عنيت فى الازمنة القديمة طاقية الا أنها أصبحت فى العصور الوسطى معطفا ضخما له قلنسوة ولايزال يستعمل فى الوقت الحاضر فى بلاد المغرب ويحمل نفس الاسم •وقد وردت صورة البرنس فى مخطوطة لكتاب

---

(١٠١) العبيدى : تاريخ اللباس ص ٢١٥

(١٠٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٣ ص ٨٧ • الشقة جنس من الثياب •

(١٠٣) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨٠

(١٠٤) دوزى : المعجم ص ٥٥

(١٠٥) ابن الاثير : الباهر فى دولة الاتابكة ص ٢٥ •

(١٠٦) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٢ ص ٤١٤ •

(١٠٧) ابن سيده : المخصص ج ٤ ص ٨١

(١٠٨) العسكرى : كتاب التلخيص ج ١ ص ٢٠٥ ، الجواليقى : البرطلة كلمة نبطيه وليست من كلام العرب ص ١١٦ •

(١٠٩) آدم متز : حضارة الأسلام ج ١ ص ٨٠ •

(١١٠) القرطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ١٣

(١١١) دوزى : المعجم ص ٦٦

كليلة ودمنة ، تمثل لنا قصة الناسك وابنه والثعبان (١١٢) « لوحة رقم ٤٠ » •

والبقيار : نوع من أغطية البدن ،اختلف فى تحديد وصفه ، فيرى دوزى (١١٣) أن البقيار تعنى نوعا من الثياب المصنوعة من وبر البعير • ويقول Mayer (١١٤) أن البقيار لباس للرأس ، كان يصنع من قماش اسكندرانى رفيع فاخر يطلق عليه اسم طرح ، ومن ثم فهو نوع من العمائم وليس بقبعة من طراز القلنسوة •

يبين لنا من النصين السابقين تعارض واضح فبينما يصف دوزى البقيار على أنه لباس خارجى للبدن ، يصفه ماير بأنه لباس للرأس ، والذى نرجحه فى هذا الشأن ما ذهب اليه دوزى ؛ أن البقيار لباس خارجى للبدن ،ذلك أننا لم نعثر ونحن بصدد دراسة أغطية الرأس على ما يشير الى أن من بين أسمائها البقيار • واذا صح هذا الرأى ، فان أحسن مثل للبقيار يوجد فى صورة من مخطوط كليلة ودمنة مؤرخ (١١٥) « سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م » وهى تمثل قاضى معرة النعمان وقد جلس على منصة القضاء ، بينما وقف أمامه السروجى وابنه ، ويرتدى القاضى هنا نوعا من لباس البدن يميز زيه عن باقى الأزياء الاخرى « أنظر لوحة ٤١ » •

ويذكر ابن الجورى (١١٦) ما نصه : ان شيخ الشيوخ ببغداد وهو يومئذ شمس الدين ابن النيار ، ندب الى الوزارة سنة ٦٣٤هـ / سنة ١٢٣٧ م فأبى وامتنع عن تغيير زى المتصوفين فخلع عليه قميص مصمت أبيض وبقيار قصب أبيض » • كما أورد دوزى (١١٧) عن النويرى نصا فيه اشارة الى البقيار باعتبار انه من ألبسة القضاه ، وذلك بمناسبة تولى شمس الدين أحمد بن الخليل قضاء دمشق سنة ١٢٣٧ م فأبى وامتنع عن تغيير زى ثياب القضاة الطرحة والبقيار والفوقانية » •

ومن اللباس الهام عند الرجال ، الجبة : التى عرفها ابن منظور (١١٨) فقال : انها ضرب من مقطعات الثياب ويصفها دوزى (١١٩) فيقول : الجبة رداء يوضع فوق الرداء الاول وهو القفطان وردنا الجبة « الردن هو الكم » قصيران بالنسبة لردنى القفطان الجبة فى الشتاء ببطانة من الفرو • ولما كانت الجبة لباسا عاما لبسه أعاظم الناس وأصاغرهم ، لذلك فقد

---

(١١٢) العبيدى : تاريخ اللباس ص ٢٢٠

(١١٣) دوزى : المعجم ص ٨٤

(١١٤) ماير : الملابس المملوكية ص ٩٠ ــ ٩١

(١١٥) العبيدى : تاريخ اللباس ٢٢١ (لوحة رقم ١٣٢) محفوظة بالمكتبة الاهلية بباريس) •

(١١٦) ابن الجوزى : الحوادث الجامعة ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥

(١١٧) دوزى : المعجم ص ٧٤

(١١٨) ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٢٤٢ •

(١١٩) دوزى : المعجم ص ٩٤

اختلفت أشكالها وأنواعها وألوانها من طبقةالى أخرى ، فمثلا كانت جبة الاغنياء تمتاز بعرضها وطول ذيلها (١٢٠) وتتخذ من نسيج غالى الثمن (١٢١) • بينما امتازت جبة البقالين بأنها كانت من النوع القصير ، وحظت جباب المتصوفة بالرقاع العديدة ، وكذلك الحال مع الفقراء فقد كانت جبابهم هى الاخرى مرقعة (١٢٢) « لوحة ٤٣ ، ٤٥ » •

وقد كان الخطيب ملزما بلبس الجبة فى الصلاة ولم يسمح له بتركها فى مثل هذه المناسبات (١٢٣) •

وقد استعملت أردان « أكمام » الجبة فى أغراض متعددة ، فقد كانت تقوم مقام الجيوب ، فقد كان يحفظ فيها الدنانير (١٢٤) والدراهم (١٢٥) كما وضعوا فيها مناديلهم (١٢٦) ، وكان القاضى يضع فيها الكراسة التى يقرأ فيها خطبة (١٢٧) الجمعة ، والكاتب يحفظ فيها الرقعة (١٢٨) كذلك أفاد صاحب الحيل والشعوذة لحفظ حيلهم فى أكمامهم عن عيون الناس ، وبالغ بعضهم فى توسيع الاكمام فكان الفلاحون يحملون قسما من حاصلاتهم كالحنطة وغيرها (١٢٩) •

ومن الملابس الخارجية الدراعة وهى جبة مشقوقة المقدم (١٣٠) ، ويصف المقريزى الدراعة فيقول : الدراعة مفتوحة من جهتها الامامية حتى أعلى القلب ومزررة بأزرار وعرى • ويعتبر الدراعة لباس الشعراء (١٣١)، وكان الظرفاء يلبسون دراريع الدرجرد • « وهى بلدة بين الكرخ وهمد ان تشتهر بصناعة نوع خاص من النسيج يعرف باسم الدرجرد (١٣٢) » والاسكندرية (١٣٣) والملحم الخزى (١٣٤) •

---

(١٢٠) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٤٢
(١٢١) الشابشتى : الديارات ص ٢٩
(١٢٢) التنوخى : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٥٧ •
(١٢٣) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ٩٢
(١٢٤) التنوخى : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٢٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٩ (تشبه أردان الجبة أردان الدروع وهى من الالبسة الداخلية للرجال) •
(١٢٥) ابن الجوزى : الاذكياء ص ١٥٢
(١٢٦) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٨٨ •
(١٢٧) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩٠
(١٢٨) التنوخى : الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٧٢ •
(١٢٩) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٥٩
(١٣٠) ابن سيده : المخصص ج ١ ص ٣٦
(١٣١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩٢
(١٣٢) الشابشتى : الديارات ص ٤٤
(١٣٤) مراصد الاطلاع ج ١ ص ١٢٥
(١٣٤) الاسكندرانى : نسيج من الكتان البحت ينسب الى مدينة الاسكندرية ، وان كان يصنع فى مراكز أخرى بمصر (الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٩) •

وقد صنعت الدراريع من ألوان متعددة ،فهناك الدراريع البيضاء (١٣٥) والسوداء (١٣٦) والخضراء (١٣٧) ،كما اتخذت من اللون الاحمر،فقد قيل أن السيدة صبيحة زوجة المتوكل قد أهدت زوجها دراعة حمراء فريدة فى نوعها(١٣٨) « أنظر لوحة رقم ٤٢ » ٠

وضرب آخر من الملابس الخارجية للرجال يدعى الشملة،وهو كساء من صوف يشتمل(١٣٩) به ، ومن أنواع الشملة نوع يدعى الصماء ،ويقال اشتمل فلان الشملة الصماء حين يدير الثوب على جسده كله لا يخرج منه يده (١٤٠)، وقيل أن الشملة الصماء التى ليس تحتها قميص ولا سراويل وكرهت الصلاة فيها (١٤١) ٠ « لوحة رقم ٤٧ » ٠

أما الفرجية فهى نوع من الاقبية التى تتألف من ثوب واسع له كمان وفيه شق من خلفه (١٤٢) ، وتصنع الفرجية من الوبر وتعتبر من لباس الشتاء (١٤٣) ٠

القباء : لباس خارجى للرجال ، وهوفارسى الاصل (١٤٤) ، ثم اتخذته العرب مع ما أخذت من أزياء الفرس ٠ وقد كان القباء لباسا رسميا ، لذلك فلم يكن يسمح لأحد أن يقبل الى مناسبة رسمية والا والقباء (١٤٥) كما كان على الداخلين الى المقصورة من يوم الجمعة لبس القباء والا منعوا من الدخول ٠ وظل لبس القباء جاريا فى جميع المساجد الجامعة حتى « سنة ٤٠٠هـ » ثم أصبح مقصورا على الخطباء والمؤذنين (١٤٦) « لوحة رقم ٥٤ » ٠

وثمة لباس آخر للرجال **هو المبطنة** ، وهوضرب من الاردية يلبس فوق الثياب له بطانة قوية ثخينة ٠ ويذكر ياقوت (١٤٧) فى معجمه ،انه يمكن اعتبار المبطنة لباسا ملازما للكتاب يظهرون فيه ولا يظهرون بدونه ٠ وقد شارك الظرفاء الوزراء والكتاب فى لبس المبطنة ، فقد

---

(١٣٥) القاضى الرشيد : الذخائر ص ١٢٣

(١٣٦) التنوخى : الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٢٥٧ ٠
(١٣٧) الشابشتى : الديارات ص ٤٤
(١٣٨) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٠ ٠

(١٣٩) ابن منظور : لسان العرب جـ ١١ ص ٣٦٨ ٠

(١٤٠) الشريشى : شرح مقامات الحريرى جـ ٢ ص ١١٩ ٠
(١٤١) ابن منظور : جـ ١١ ص ٣٦٨
(١٤٢) ابن سيدة : المخصص جـ ٤ ص ٨٦

(١٤٣) ابن الاثير : الباهر فى الدولة الأتابكيه ص ٥٤
(١٤٤) الجواليقى : المعرب ص ٣١٠

(١٤٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٢٢٠ ٠

(١٤٦) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٢٩ ، ٤١٦ ٠
(١٤٧) ياقوت : المعجم جـ ١ ص ٢٣٤ ٠

ذكر الوشاء (١٤٨) ، « أن الظرفاء من الرجال وذووى المروءات الادباء كان زيهم المبطنات » . كما كانت المبطنة من بين خلع المنادمة عند السلاجقة والاتابكة فى بلاد الشام (١٤٩) .

والى جانب الملابس التى تقدم ذكرها ، هناك لباس يعرف **بالمطرف** وهو ثوبا مربع اعلام (١٥٠) . وقد اتخذ الظرفاء المطارف لباسا لهم . وكانوا يزينونها بالاشعار وكانت المطارف من بين الخلع التى يخلعها الخليفة على حاشيته (١٥١) . وقد كانت المطارف تصنع من المنسوجات الغالية الموشاه بالذهب والفضة والمكللة بالاحجار الكريمة (١٥٢) ، فقد ذكر أن اسحاق الموصلى كان يرتدى مطرف خز اسود قيمته مائة ألف درهم (١٥٣) « أنظر لوحة رقم ٥٥ » .

ولباس آخر يطلق عليه اسم « **المستقة** » وهى جبة فراء طويلة الكمين (١٥٤) وأصل الزى فارسى من كلمة « مشتة » (١٥٥) وهى من ملابس الشتاء القارص يلبسها أهل الجبال والسواحل فى بلاد الشام . ومن ملابس الشتاء كذلك **المطر** ، وأشهرها الوارد من الصين ، فقد كانت المماطر المشمعة من طرائف الصين (١٥٦) .

الخفتان : لباس آخر للبدن ، عرفه المجتمع الشامى فى العصور الوسطى ، وهو عبارة عن رداء مفتوح من الجهة الامامية ومزررا من ناحية الصدر (١٥٧) ، وله كمان قصيران يصلان الى المرفقين ، وقد يتدلى حتى يبلغ منتصف الساقين بل قد يهبط حتى يبلغ أكثر من ذلك (١٥٨) . وقد شارك الغلمان فى لبس الخفتان ، فيذكر القاضى الرشيد (١٥٩) ، انه عندما أرسل ملك الصين الى الخليفة العباسى أربعة مشايخ من مشايخ الصين ووصلوا بخارى ، أقام نصر بن أحمد أربعين حاجبا بين يدى كل حاجب ، ألف غلام تركى بخفاتين ديباج ، كذلك كان الخفتان من جملة ملابس الادباء فى بلاد الشام (١٦٠) .

---

(١٤٨) الوشاء : الموشى جـ ٢ ص ١٢٤
(١٤٩) الصابى : رسوم الخلافة ص ٩٦
(١٥٠) ابن سيدة : المختصر جـ ٤ ص ٦٨
(١٥١) القاضى الرشيد/الذخائر ص ١٣٨
(١٥٢) ابن الزبير : التحف والهدايا ص ٦٢
(١٥٣) الاصفهانى : الاغانى جـ ١٠ ص ١٢٠
(١٥٤) ابن سلام : الغريب المصنف مخطوطة رقم (٧٧) (بمكتبة المتحف العراقى) .
(١٥٥) الجواليقى : المعرب ص ٣٥٦
(١٥٦) المقدس : احسن التقاسيم ص ٩٦
(١٥٧) دوزى : المعجم ص ١٣٤
(١٥٨) القرطبى : صلة تاريخ الطبرى ص ١٧٦
(١٥٩) القاضى الرشيد : الذخائر ص ١٣٩ ــ ١٤٥ .
(١٦٠) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ١٩٠ .

ويقول دوزى أن كلمة « خفتان » قد حرفت الى قفطان بعد فتح العثمانيين لمصر والشام (١٦١) .

وقد استخدم الرجال **النبد** لتثبيت اللباس الخارجي للجسم (١٦٢) ، والنبد عبارة عن شريط من الحرير الاصفر أو من القطن المصبوغ الملون (١٦٣) .

الزنانير : من الاشياء التى يثبت به اللباس الخارجى ، والزنار وسط المجوس أو النصرانى أو ما يلبسه الذمى على وسطه ، وهى عبارة عن خيوط تعقد وسط الجسم (١٦٤)، ويقول دوزى أن كلمة حزام التى تستعمل فى مصر والشام تشير الى الزنار الذى يشده الرجال فوق القفطان (١٦٥) .

وكان الرجال يشدون وسطهم فوق سائر البستهم بالمنطقة ، وهى كل ما شد به الوسط (١٦٦) . وتعتبر المنطقة من لباس العسكريين ، فقد ذكر المقدسى أن الخطباء كانوا يظهرون باللباس الحربى ولذلك فقد كان من غير المسموح للخطباء أن يدخلوا الجوامع دون الاقبية والمناطق (١٦٧) . وكان القواد والامراء يلبسون فى عيد الفطر فى بلاد الشام قباء اسود ويتمنطقون بالمناطق (١٦٨) ، كما كان لبس الكتاب فى القرن الثالث الهجرى القباء والسيف والمنطقة (١٦٩) .

كذلك عرفت بعض أنواع الاحزمة التى كان الرجال يشدون بها وسطهم باسم وجمعها حوائص وهى التى تعرف بالمنطقة فى القديم ، وكانت تصنع من معدن ثمين مثل الذهب والفضة ورصعت أحيانا بالاحجار الكريمة وبحجر الوشم (١٧٠) . ويبين المقريزى (١٧١) ثمن الحوائص عند حديثه عن «سوق الحوائصين» فيقول : « وكانت حوائص الاجناد أولا اربعمائة درهم فضة ونحوها ، ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الكبار (١٧٢)

---

(١٦١) دوزى : المعجم ص ١٣٤
(١٦٢) المصدر السابق ص ٧٦
(١٦٣) ماير : الملابس المملوكية ص ٣٤
(١٦٤) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٤١٩ .
(١٦٥) دوزى : المعجم ص ١١٥
(١٦٦) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٩٨
(١٦٧) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٢٩
(١٦٨) الصابى : رسوم الخلافة ص ٩١
(١٦٩) التنوخى : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١١
(١٧٠) ماير : الملابس المملوكية ص ٤٨
(١٧١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩٩
(١٧٢) كان أمراء المماليك ينقسمون من حيث رتبهم العسكرية والقيادية الى اربعة طبقات الاولى امراء المئتين أو امير كبير وعدد كل منهم مائة فارس ويقود فى القتال الف طبقة وقد عرفت هذه الطبقة فى الشام ومصر فى عصر الاتابكة والايوبيين ، فقد عثر على هذا اللقب منقوشا على باب مدرسة قرب باب البريد بدمشق باسم الامير كبير الاسفهلار معين الدولة انربز عبد الله سنة ٥٢٤هـ /١١٣٠م (القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٢٦) .

ثلثمائة دينار وأمراء الطبلخانات (١٧٣) مائتى دينار ومقدمى الحلقة (١٧٤) من مائة وسبعين الى مائة وخمسين دينار • ثم صار الامراء والخاصكية فى الايام الناصرية وما بعدها يتخذون الحياصة من الذهب ومنها ما هو مرصع بالجواهر » « أنظر لوحة ٤٩ » •

أما عن أنواع اللباس الخاصة بالقدم فهى قليلة جدا اذا قيست الى ملابس البدن ولعل السبب فى ذلك قلة التطور فى هذا النوع من اللباس • ولعل من أهم أنواع لباس القدم الجورب • والجورب كلمة فارسية معربة (١٧٥) وهو لفافة للقدم وفى الفارسية «كورب» (١٧٦) وكانت الجوارب فى بلاد الشام تصنع من مواد أولية مختلفة كالحرير (١٧٧) والصوف (١٧٨) والخز (١٧٩) ،وكان الاغنياء يتخذون الجوارب المصنوعة من المرعزى (١٨٠) وكانوا ينتعلون فوق الجوارب النعال (١٨١) • وقد لبست الجوارب طبقات قليلة من المجتمع الشامى ذكر منها الملوك والسلاطين والامراء والقواد •

وضرب آخر من لباس القدم يدعى **الخف** وهو ما لبس فى القدم (١٨٢) • ويذكر الجاحظ أن الخفاف كانت تلهج بذكرها الغربى ، بينما تلهج العرب بذكر النعال (١٨٣) • وقد عرفت بعض أنواع الخفاف باسم « النساخين » ،وعرف الخف الصغير باسم « جرمق » واسم ثالث هو « الموزج » (١٨٤) « انظر لوحة رقم ٥٢ » •

وقد اتخذ الخف فى بلاد الشام من قبل أكثر الطبقات ابتداء من السلطان حتى عامة الشعب • وكان للخلفاء العباسيين عند جلوسهم خفاف حمراء (١٨٥) كما ذكر

---

(١٧٣) والطبقة الثانية من المماليك امراء الطبلخانة وعدة كل منهم فى الغالب اربعون فارسا والطبلخانة لفظ فارسية بمعنى بيت الطبل ، أحد مخازن السلطان التى يحفظ فيه الطبول والابواق كما تستخدم للدلالة على فرقة الموسيقى التى تقوم بدق النوبة ليلا ونهارا أثناء اقامة السلطان أو سفره أو حربه (القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦ حاشية

(١٧٤) لقد كان لكل من أربعين من جند الحلقة مقدم أى كبيرهم ، ليس له عليهم سلطان اذا خرجت العسكر كانت مواقفهم معه ، وترتيبهم فى مواقفهم اليه (المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠١ القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٦) •

(١٧٥) الجمهرة ج ٣ ص ٣٦ ، الجواليقى : المعرب ص ١٤٩ •

(١٧٦) ابن منظور : لسان العرب ج ٨ ص ١١٨ •

(١٧٧) الاصفهانى : الاغانى ج ١ ص ٨٥

(١٧٨) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ١ ص ٢٩٩ •

(١٧٩) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٢٥

(١٨٠) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٢ ص ٢٢٩

(١٨١) المرعزى : هو الزغب الذى تحت شعر العنز ، وقيل اللبن من الصوف ابن الجوزى : ذم الهوى ص ١٨٦

(١٨٢) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ١١٤

(١٨٣) الجاحظ : البخلاء ص ١٠٤

(١٨٤) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ١١٤

(١٨٥) الصابى : رسوم الخلافة ص ٩٠

التنوخى (١٨٦) أن الخفاف الحمر من زى المتعطلين من الكتاب . وقد لبس القضاه والفقهاء الخفاف أيضا . وكانت التقاليد تقضى على موظفى الدولة الا ينزعوا خفافهم أثناء الواجب وكان المخالف يتعرض لعقاب صارم (١٨٧) . أما الظرفاء فكان زيهم من الخفاف أن يشرك اسودها بأحمرها وأصفرها بأسودها (١٨٨) ، ولبسوا أنواع من الخفاف يدعى بعضها بالخفاف الهاشمية ومن الادم الثخين الاسود (١٨٩) . وكان محظورا على طبقة الشطار لبس الخفاف ، واعتبروا ذلك شركا (١٩٠) .

وكان الفقراء يلبسون النعال العربية والخفاف . وفى فصل الشتاء يلبس الكثير من الاغنياء أكثر من خف فى آن واحد (١٩١) فيذكر دوزى ، أن أحدهم كان يلبس ثلاثة خفاف ، خف من صوف وفوقه خف مبطن من كتان وفوقه خف من البر الخالى ، وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب (١٩٢) .

وقد قامت الخفاف مقام الجيوب فى كثير من الاحيان (١٩٣) ، كما اتخذت مكانا لحفظ الرقاع (١٩٤) ، وكان الندماء يضعون مخازن مملوءة دهانا فى خفاف غلمانهم أو اللفات مدرجة فى المناديل ، فاذا أمضهم الجوع وشحذهم الشراب تناولوا ما أعدوه من ذلك (١٩٥) وقد عرف المجتمع الشامى نوعا من لباس القدم يشبه الخف يسمى **الران** الا أنه اطول منه على هامشه خرقة تعمل كالخف محشوة قطنا تلبس فى الشتاء وتمنع البرد (١٩٦)

والجرموق : نوع من الخف وسع يلبس فوق الخف (١٩٧) ، أما سرموزه ، فهو غطاء من لباد للساق يلبس فوق الخف (١٩٨) .

لباس النساء :

برغم قلة ما جاء عن المرأة فى المصادر والمراجع ، الا أنه يبدو واضحا انها لعبت دورا

---

(١٨٦) التنوخى : نشوار جـ ٨ ص ٢٧
(١٨٧) الصابى : المرجع السابق ص ٧٢
(١٨٨) : الوشى جـ ٢ ص ١٢٥
(١٨٩) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢٦
(١٩٠) الجاحظ : الحيوان جـ ٢ ص ٢٦٦
(١٩١) ابن قتيبة : عيون الاخبار جـ ٣ ص ٣٩٩
(١٩٢) دوزى : المعجم ص ١٥٩
(١٩٣) ابن الطقطقى : الفخرى ص ٢٩٨
(١٩٤) الصابى : رسوم الخلافة ص ١٨٨
(١٩٥) أدب النديم : ص ١٥
(١٩٦) الجاحظ : التاج ٣ ص ٢٢٣
(١٩٧) دوزى : المعجم ص ١٦٧
(١٩٨) المرجع السابق ص ١٦٧

لا يستهان به فى المجتمع الشامى فى العصور الوسطى وخاصة فى العصر المملوكى • فقد تمتعت المرأة بقسط وافر من الاحترام سواءذلك فى طبقة المماليك أم سائر طبقات المجتمع • فالمماليك نظروا الى نسائهم نظرة تفيض بالاجلال والتقدير وخصوا لهن الالقاب مثل خوند وخاتون (١٩٩) ، كما أضفوا عليهن فى مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيل (٢٠٠) • كما لم يضن المماليك على نسائهم بالمال والمتاع حتى اننا لو أردنا وصف ملبوس كل منهن وتجميل بيوتهن لاحتجنا الى عدة جلدات (٢٠١) •

ولم يقتصر ذلك الاحترام للمرأة على نساء السلاطين وأمرائهم ، فهناك من الشواهد مايثبت احترام عامة الشعب السورى فى القرنين السادس والسابع للهجرة لنسائهم ، فمن ذلك الالقاب العديدة التى أطلقوها على بناتهم ونسائهم ، مثل ست الملك وست الناس وست الكل وست القضاء وست الخلق ، وذلك كما يقول ابن الحاج من باب الفخر والتزكية والثناء والتعظيم (٢٠٢) •

ولم يقتصر نصيب المرأة فى الحياة العامة على تدخل نساء السلاطين والامراء فى شئون الحكم ومشاركتهن فى توجيه سياسة الدولة ،وانما شاركت مشاركة فعالة فى الحياتين العلمية والدينية ويسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن فى العصر الايوبى والمملوكى بالعلوم المدنية كالطب والهندسة والكيمياء وصنفن فيها المصنفات الطوال نذكر منهن (روضة الزمان) الطبيبة العالمة والمهندسة البارعة والكاتبة الاديبة ابنة زكريا يحيى البياس من أطباء صلاح الدين (٢٠٣) •كذلك نذكر الطبيبة والفلكية والفيلسوفة (ست العرب الحلبية) بنت على ابن النقاش الذى كان يعتبر أوحد زمانه فى فى صناعة الطب وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه كانت تتصدره ابنته ست العرب (٢٠٤) ونذكر من عالمات القرن السادس الهجرى كذلك زاكية بنت موفق الدين بن المطران التى أخذت عن أبيها علوم الطب والفلسفة كما كانت من الاعيان فى الفنون الادبية ولها عدة مصنفات (٢٠٥) • ومن الاديبات تقية بنت غيث الارمنازى الصورى الفاضلة الشاعرة الاديبة ولها شعر سائر (٢٠٦) •

---

(١٩٩) كان لقب خوند خاصا بزوجات السلاطين كما نراه فى بعض المواضع يخاطب به السلاطين أنفسهم • أما لفظ خاتون فمعناه فى الاصل أميرة ثم أصبح يستعمل لتكريم المرأة بصفة عامة مثل السيدة أو الآنسة •
(خليل من شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٢١) •

(٢٠٠) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٧٧ ص ١٦٦
(٢٠١) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٢١
(٢٠٢) ابن الحاج : المدخل جـ ١ ص ٢٣٨
(٢٠٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص١٥٩
(٢٠٤) ابن العديم : زبدة الحلب ص ٣٣٤
(٢٠٥) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٤٠
(٢٠٦) ابن القاضى شيبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام جـ ٢ ص ٩٠

أما من اشتغلن بالفقه والحديث والعلوم الدينية عامة فعددهن لايحصى ، وقد دأبت الكثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر ،شأن فقهاء ذلك العصر ، للسماع من كبار المحدثين والعلماء [٢٠٧] • ومن أشهر الفقيهات المحدثات فى القرن السابع الهجرى ، السيدة كريمة بنت عبد الوهاب بن على القرشية الزبيرية مسندة الشام وفاطمة بنت أحمد بن السلطان صلاح الدين المحدثة وفاطمة عساكر المحدثة وست العرب بنت يحيى بن قايماز أم الخير الدمشقية الكندية الفقيهة المحدثة • وزينب بنت على بن أحمد بن فضل الصالحية الاديبة المحدثة [٢٠٨] وقد أستمع الكثير من الفقهاء الى تلك العالمات المحدثات والمسندات اللائى اجزن لهم [٢٠٩] ، لم يأنف هؤلاء الفقهاء مع عظم مكانتهم من الاعتراف بفضل تلك العالمات بل على العكس فانهم افتخروا بأنهم سمعوا عن فلانة وفلانة من المحدثات وأن بعضهن اجزن لهم [٢١٠] • نذكر على سبيل المثال ابن حجر الذى قال انه حصل على اجازتين الاولى من شمس بنت ناصر الدين محمد والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية •

كذلك سلكت بعض النساء فى العصر المملوكى طريق التصوف ، فلبسن الخرقة [٢١١] واطلق عليهن الشيخات ، وقد لازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والربط التى خصصت لهن تحت رئاسة شيخهن [٢١٢] •

هذا ولاننسى أن المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام وغيرها من البلاد الاسلامية كان يضم طائفة كبيرة من الجوارى ، وأن كثيرات من تلك الجوارى قدر لهن أن يلعبن دورا هاما فى قصور السلاطين والملوك والامراء ، بل حدث أن تزوج السلاطين بعضهن فارتفعن الى منزلة خوند الكبرى فى الآدر الشريفة [٢١٣] • كذلك اقتنى الملوك والسلاطين وعلية القوم الجوارى للغناء والطرب حتى أصبح من الاشياء المألوفة فى العصر المملوكى ، أن يكون لكل ملك أو أمير جوقة معان كاملة من الجوارى [٢١٤] •

وبرغم كثرة ماذكرته المراجع المعاصرة عن المكانة السامية التى تمتعت بها بعض الجوارى عند سادتهن الا ، أن هناك اشارات عديدة فى كتاب الاغانى [٢١٥] وغيره [٢١٦] الى أن بعض

---

(٢٠٧) العينى : عقد الجمان ص ٤١٦
(٢٠٨) كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٤٧
(٢٠٩) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ١١٩
(٢١٠) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٣٨
(٢١١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٦٩
(٢١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥
(٢١٣) ابن حجر : أبناء العمر جـ ٢ ص ٢٦٩، ص ٣٦١ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٢
(٢١٤) الحريرى : المختار فى كشف الاسرار ص ٣٥
(٢١٥) العينى : عقد الجمان سنة ٧٢١ هـ
(٢١٦) سهير القلماوى : ألف ليلة وليلة جـ ٤ ص ١٠٨ (قصة مريم الزنارية) •

السادة أكثروا من ايذاء جواريهم حتى حكى عن بعضهم أنه كان اذا ضرب احدى جواريه ، فان ضربه يصل فى بعض الاحيان الى الخمسمائة عصا و عاشت الجوارى فى قصور وبيوت أسيادهن كجزء أساسى من الحريم فطبق عليهن العادات والتقاليد المرعية بالنسبة لنسائهم الاحرار ، ففرضت عليهن العزلة والحجاب ، ولم يكن لهن حرية الاختلاط بأحد اللهم الا الخصيان والطواشى فهن الفئة الوحيدة التى كان يباح لافرادها غشيان الحريم بحكم مالهم من وضع اجتماعى خاص (٢١٨) •

وبرغم كل القيود التى فرضت على المرأة ، فانها كانت تخرج الى الاسواق وتباشر معظم أمور الشراء من الاسواق ، بل الغالب أن المرأة كانت تشترى لزوجها كل ما يحتاج اليه من لباس لنفسه (٢١٩) • فاذا لم يكن لهن حاجة من الاسواق فانهن يذهبن الى الاعراس • وكثيرا ما خرجت النساء الى المتنزهات والى الجبانات وغيرها من أماكن اللهو والفرجة • التى يقول فيها المحتسب (٢٢٠) ، أنه ينكشف فيها ستر الحياء ويختلط النساء بالرجال ، مما جعله ينادى بمنع النساء (٢٢١) من الخروج اليها •

أما عن المرأة فى الريف ، فان وضعها الاجتماعى يختلف اختلافا بينا عن المرأة فى الحضرة فهن تكاد تكون مساوية تماما للرجل ، اذ يقع عليها العبء الاكبر فى العمل داخل البيت وخارجه فى فلاحة الارض • كما أن قيود العزلة والحجاب لا مكان لها فى المجتمع الريفى فهو مجتمع متحرر نستطيع أن نقول بمفهوم علم الاجتماع الحديث أنه مجتمع صحى سليم من آفات وأمراض المدن وقد سبق أن تناولنا المرأة الريفية ولباسها وزيها فى الفصل الثانى •

١ — **لباس الرأس** : ولباس الرأس عند النساء شأنه شأن لباس الرأس عند الرجال من التنوع والتعدد ، تبعا لتعدد الفئات والطبقات وطبقا لاختلاف العادات والتقاليد • فالاخرون من نساء السلاطين والامراء ومن فى مستواهم • والآخرون (٢٢٢) نوع من التيجان الصغيرة المصنوعة من الذهب المرصعة بالاحجار الكريمة فى أعلاه ريش الطواويس •

ومن لباس الرأس الخاص بالنساء البخنق ، وهو عبارة عن برقع صغير تلبسه المرأة تغطى به رأسها ، ماقبل وما دبر من غير وسطها « • وقيل أن البخنق خرقة تتقنع بها

(٢١٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ٥ س ٥٠٥

(٢١٨) السيوطى : أحكام العقبان فى أحكام الخصيان ص ١ـ٣ ، فقد قال «ان نظرة الخصيان الى النساء كنظرة الفحل الى المحارم : كما قال : ان الخصى ينقضون الوضوء باللمس شأنهم فى ذلك شأن النساء « (نقلا عن سعيد عاشور المجتمع المصرى فى العصر المملوكى ص ١٣٥) •

(٢١٩) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٤٢٦ ، ٨٢٣

(٢٢٠) ابن الحاج : المدخل جـ ٢ ص ١٧ـ٢٣

(٢٢١) الشربينى : هز القحوف ص ٥٤

(٢٢٢) دوزى : المعجم ص ٣٠

المرأة وتحيط طرفها من تحت حنكها (٢٢٣) • أمـــا عن شـــكل البخنق فنراه واضـحــا يظهرن فى الجزء الاسفل من الصورة ، امرأة على جمل يغطى رأسها ووجها البخنق •• (لوحة رقم «٥٦») •

والبرقع من أغطية الرأس الخاصة بالنساء وقد اختلف فى وصفه كتاب المعاجـم واللباس والازياء • فقد وصفه ماير ((Mayer)) فقال انه غطاء الوجه الذى يغطى الوجه الى ما تحت العينين فى حين قال دوزى (٢٢٤) • » اننا حتى هذا اللحظة لم نقع على أية حكاية تصلح لتعيين خمار المرأة الذى يحدث فيه ثقبان فى موضع العينين » • أما ابن سيدة (٢٢٥) ، فان وصـفه أقرب الاوصاف الى الحقيقة ، فهو يقول : « أن البرقع خيطان تشدهما المرأة فى قفـا الرأس بسميان الشبامان (٢٢٦) • وتبين لنا ذلك مـن صورة فى بلاد الشام ومحفوظة فى المعهد الشرقى فى أكاديمية العلوم فى لينينجراد وفيها تظهر سيدة بين الرجال متشحة ببرقع مثقوب إمـام العينين وهو ذو لون أسود •

وقد شاع استعمال الخمار بين نساء العصور الوسطى حتى قيل « الخمار للمرأة » (٢٢٧) وهو ماتغطى به رأســها (٢٢٩) ، ووصـــفه ابن سيده (٢٣٠) بقوله «الخمار هو السب والجلباب» أما صاحب العين فيقول عن الجلباب هو ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تغطى به المرأة ظهرها وصدرها • ويفهم من النص السابق أن الخمار لم يقتصر استعماله كلباس للرأس فقط وانما استعمل لباسا للبدن كذلك كما استعمـل الخمار فى مناسبات مختلفة وفى ظروف متباينة ، فقد استعمل فى خارج الدور ، كما استعملته المرأة الريفية وبقية جوارى القصور كما تلبسه المغنيات والموسيقيات •

كذلك شاركت المــرأة الرجـــل فى لبس الشاشيه ، ومع أن المصادر التاريخية لم تشر صراحة الى نساء لبسن الشاشيات فى بـــلاد الشام ، غير أننا عثرنا على آثار ماتزال باقية بها الكثير من الامثلة التى تثبت استعمال المرأة الشاشيات على أقل تقدير فى القرنين السادس والسابع للهجرة فى مصر والشام • ومن خير الامثلة صحن من الخزف ذى البريق المعدنى محفوظ فى متحف المتروبليتان (٢٣١) جاء بـين رسومه صفان من الجوارى تلبس كل واحـدة

(٢٢٣) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٤٨ ، ابن منظور : لسان العرب ج ١١ ص ٩٤
(٢٢٤) دوزى : المعجم ص ٣٤٢
(٢٢٥) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٨
(٢٦) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٩
(٢٢٧) Ettinghausen: Arab Painting. P. III
(٢٢٨) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٧
(٢٢٩) ابن منظور : لسان العرب ٤/٥٧
(١٣٠) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٣
(٢٣١) العبيدى : تاريخ املباس ص ١٥٩

شاشيه مخروطية الشكل قد لف حولها عصائب بشكل متقاطع ويبرز من وسط الشاشيه عند السطح العلوى زوائد صغيرة بالزر ، ويبدو أن الشاشيات منسوجة من قماش القطيفة (٢٣٢) • (أنظر لوحة رقم «٥٦») •

وبرغم أن العمامة تعتبر من ملابس الرجال المميزة لهم ، الا أن النساء لبسن العمائم ، يذكر الوشاء ، أن النساء الظريفات شاركن الرجال فى لبس العمائم ، بينما ينفى دوزى لبس المرأة للعمائم ، الا أن المصادر الاثرية تؤيد الوشاء وتبين أن النساء فى بلاد الشام والعراق ومصر لبسن العمائم على نطاق ضيق ، فهناك صورة فى مقامات الحريرى ترجع الى (سنة ٦٣٤هـ / سنة ١٢٣٧ م) رسمت فى بلاد الشام ، وهى محفوظة فى المكتبة الاهلية بباريس ، وفيها ظهرت زوجة السروجى فى القصة وهى فى حضرة القاضى وتغطى رأسها عمامة ذات طيات متعددة وتتدلى منها عذبه الى الكتف الايمن •

والعصائب من ألبسة المرأة الخاصة ، وكل ما يعصب به الرأس والعمائم يقال لها العصائب (٢٣٣) • ويعتقد دوزى (٢٣٤) أن كلمة عصابة ربما كانت تعنى فى أوائل العصر الاسلامى شبه عمامة • ويبدو أن الجوارى فى العصور الوسطى قد أكثرن من استعمال العصائب ، وكانت الجوارى يزين عصائبهن بمجموعة من الاشعار التى تدور حول الحب والحبيب والفرح والسرور وقد أورد الوشاء (٢٣٥) طائفة من الاشعار كانت تكتب على العصائب وكانت النساء فى بلاد الشام يرصعن العصائب بالجواهر والاحجار الكريمة ، وهى من ابتكار عليه أخت هارون (٢٣٦) الرشيد •

والقناع أو المقنعة من بين الاغطية التى اتخذتها المرأة للرأس والوجه معا • والقناع ما تقنع به المرأة ثوب تغطى به رأسها ومحاسنها (٢٣٧) ويبدو أن الرجال شاركوا النساء فى لبس القناع خصوصا كطبقة الشطار (٢٣٨) والمقنعة كالقناع الا أن الاخير أوسع من المقنعة (٢٣٩) • كذلك اشتركت المغنيات والموسيقيات فى لبس المقنعة •

ونعود مرة أخرى الى القلانس من ألبسة النساء ، فقد شاركت المرأة الرجل ، فلبست القلانس ويبدو أن الجوارى كانوا يفضلن لبس القلانس فى مناسبات الافراح وكن يطوقنها بعصابة • وتلبس الموسيقيات قلانس ذات نتوء يخرج من جهتها الامامية •

---

(٣٢) سعاد ماهر : مشهد الامام على ص ٢٥١
(٢٣٣) ابن منظور : لسان العرب ٦٠٢/١ ابن دردير : كتاب الجمهرة ج ١ ص ٢٩٦
(٢٣٤) دوزى : المعجم ص ٢٤٦
(٢٣٥) الوشاء الموشى ج ٢ ص ١٧٠
(٢٣٦) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٠
(٢٣٧) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٨ ، ابن منظور : لسان العرب ١٧٥/١٠
(٢٣٨) الجاحظ :الحيوان ج ٢ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧
(٢٣٩) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٨

ولبست النساء النقاب وهو من أنواع البراقع لكنه صغير يوضع على الوجه دون المحجر • (٢٤٠) والنقاب قد يكون شفافا أومخرما يرى الوجه من خلاله (٢٤١) وكانت النساء يلبسنه عند حضور مجالس الوعظ أومجالس الطرب أو الاعراس (٢٤٢) ، كما كانت المرأة ترتدى النقاب أثناء خروجها من المنزل (٢٤٣) • على أن النقاب كلمة عامة تختلف باختلاف الاوضاع التى يتخذها على الوجه ،فاذا أدنت المرأة النقاب الى عينيها اطلق عليه الوصوصة (٢٤٤) وتوصوص المرأة أى تنظر من حاشية النقاب (٢٤٥) • (لوحة رقم «٥٧») •

ومن ألبسه الرأس عند النساء الوقاية ،وقيل فى شرح الوقاية ، أنها السيدارة تحت المقنعة والعصابة (٢٤٦) • ويستنتج من هذا الوصف أن الوقاية تشبه الطاقية •

أما عن ملابس المرأة الداخلية فاننا قليلاما نصادف هذا النوع من اللباس فى المعاجم ويندر أن نجدها مصوره فى المخطوطات أو فى التحف الاثرية وذلكحتى لايخدش حياء المرأة ومن ثم فاننا لانجد وصفا مفصلا أو دقيقا لملابس المرأة الداخلية •

ومن لباس المرأة الداخلية « الاتب » وهوثوب تشقه المرأة وتلقيه فى عنقها من غير كمين أو جيب (٢٤٧) • وقيل الاتب من الثياب يصل الى نصف الساق غير الازار لا رباط له وليس على خياطه السراويل ولكنه قميص غير مخيط الجانبين (٢٤٨) تلبسه النساء وربما اقتصرت عليه فى أوقات الخلوة عند التبذل (٢٤٩) •ويصفه دوزى بقوله : « الاتب بصورة عامة يعنى كافة الملابس القصيرة التى لاتصل الى أكثر من منتصف الساقين ، كما أن الاتب يعنى أيضا نوعا من السراويل الذى لافتحه فيه لدخول السيقان أو أنه قميص لاكم له (٢٥٠) •

وقد شاركت المرأة الرجل فى لبس الازار ولكنها استعملته استعمالا يختلف عن استعمال الرجل له ، فهى تضعه على رأسها أو تلقيه على وجهها (٢٥١) أو تشتمل به (٢٥٢) • فقد كانت

---

(٢٤٠) ابن سلام : الغريب المصنف ورقة (٧) (مخطوطة فى مكتبة المتحف العراقى رقم ١٦٢٨)
(٢٤١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ص ٦٤٨
(٢٤٢) الجاحظ : الحيوان ص ١١٥
(٢٤٣) الحريرى : المقامات الحريرية ص ١٢٦
(٢٤٤) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٩
(٢٤٥) ابن دريد : كتاب الجمهرة ج ٢ ص ٣٢٤
(٢٤٦) دوزى : المعجم ص ٣٤٧
(٢٤٧) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٥
(٢٤٨) ابن منظور : لسان العرب ١/ ٢٠٠.
(٢٤٩) الثعالبى : فقه اللغه ص ٢٥٣
(٢٥٠) دوزى : المعجم ص ٢٩
(٢٥١) الازدى : حكاية ابن القاسم البغدادى ص ٥٤
(٢٥٢) الجاحظ : الحيوان ص ١١٧

الجارية الراقصة فى العصر العباسى تضع على وجهها ازارا ازرق (٢٥٣) • أما زى المتظرفات فكانت ازر الملحم (أى المصنوعة من نسيج لجمته حرير) الخرسانية (٢٥٤) ، بينما كان لبس القيان والاماء فى وقت الخلوات الازر المعصفرة (٢٥٥) • وقد فرضت على أهل الذمة قيود فيما يخص لبس الازار ، فكان على المرأة الذمية أن تشد زنارا فوق الازار وتحته (٢٥٦)•

واتخذت النساء الاصدة لباسا من الالبسة الداخلية • والاصدة والموصدة كالاتب عبارة عن ثوب تشقه المرأة فى عنقها من غير كمين ولا جيب (٢٥٧) ، وهذه الملابس الداخلية كان يرتديها الصبيان (٢٥٨) من قبل فى مناسبات الافراح كالاعراس (٢٥٩) •

ومن ألبسة المرأة الداخلية كذلك البقير والبقيرة ، ويعتبره ابن سيدة هو والاتب والاصد شىء واحد اذ يقول : « ثوب تشقه المرأة وتلقيه فى عنقها من غير كمين ولا جيب »•

وقد اتخذت النساء التكك الى جانب الرجال ، وكانت الجوارى الراقصات تتخذ التكك المصنوعة من الابريسم ، فقد ذكر الازدى (٢٦١) ، ان لباس الجارية الراقصة غلالة وسراويل وتكه ابريسم خضراء • واتخذت الظريفات التكك الخزية القطنية (٢٦٢) • وكانت الظريفات لايشاركن الرجال فى التكك المنسوجة (٢٦٣) • ولعل المقصود بكلمة المنسوجة هنا ، أى التكك المنسوجة من مواد أخرى غير مادة الحرير كالقطن والكتان والصوف وغيرها من الالياف الخشنة •

ويبدو أن المرأة قد أعطت التكك الكثير من اهتمامها ، فقد طرزت الجوارى الظريفات والاشعار على التكك وزينت بفرائد الاقوال من ذلك ماذكره الوشاء (٢٦٤) ، من أن احدى الجوارى طرزت على تكتها :

غابوا فأضحى الجسم من بعد هم لا تبصر العين فينـــا

---

(٢٥٣) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٢٦
(٢٥٤) الازدى : المرجع السابق ص ٥٤
(٢٥٥) الوشاء : المرجع السابق ص ١٧٦
(٢٥٦) الطرطوس : سراج المنير ص ٢٣٢
(٢٥٧) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٥
(٢٥٨) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥
(٢٥٩) ابن منظور : لسان العرب ٨ : ٢٨
(٢٦٠) ابن سيدة :المصدر السابق ج ٤ ص٥٣
(٢٦١) الازدى : حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٥٤
(٢٦٢) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٢٧
(٢٦٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ١١٢٧
(٢٦٤) الوشاء : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٧

وتبين لنا مثل هذه العبارات فى وصف التكك ، أن هذا اللباس لابد وأن يكون ظاهرا حتى يرى ويقرأ ماعليه من أشعار وتطريز وخلافه • ومن ثم فالذى نرجحه فى هذا الشأن ، هو أن الجارية لا تخفى التكة داخل السروال وانما تربطها ظاهرة وانها كانت تكتب الاشعار على الجزء الظاهر السائب • ويمكن أن نتبين شكل التكة وكيف كانت تلبسها الراقصات من الصورة (٢٦٥) الموجودة فى مخطوط كتاب الترياق المؤرخة (سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م) والتى يبدو فيها رسم أربع جنيات يرقصن وهن مرتديات سراويل مثبتة على البدن بواسطة التكة (أنظر لوحة رقم «٥٧») •

والغلالة بكسرها ، شعار يلبس تحت الثوب يلى الجسد ، وهو لباس اختصت به النساء (٢٦٦) وكثير من الرجال ، فلبستها الجوارى أكثر من غيرهن من باقى النساء ، ذلك أن ليس الغلالة يناسب مجالات اللهو والطرب ،حيث أن الغلالة يناسب مجالات اللهو والطرب، حيث أن الغلالة كانت ثوبا مفرطا فى الشفافية والخفة (٢٦٧) • وقد كثر ترديد لفظ الغلالة فى كثير من كتب التراجم والمعاجم منسوبة الى اقليم بعينة أو معروفة برائحتها أو بشكلها فيضاف الى اسم الغلالة • فقد اختصت النساء الظريفات بالغلائل الرخانية (٢٦٨) ، وكان زى القينات والاماء فى أوقات الشراب والخلوات الغلائل الممسكة (٢٦٩) •

ومن لباس المرأة الداخلى النوع المعروف بالمجسد ، وهو الثوب الذى يلى جسد المرأة وتعرق فيه (٢٧٠) وقد وقف ابن سيدة عند هذا الحد ولم يقل شيئا عن وصفه • والذى نستطيع أن نتخيله فى هذا المجال ، هو أن المجسد من الالبسة الداخلية التى لا يمكن للمرأة الظهور به، فالمجسد اذن يدرج فيه ضمن اللباس اليومى المنزلى •

والقميص من أهم الالبسة الداخلية للمرأة ، فلبسته جميع الطبقات على كثرتها واختلاف أجناسها ، لكن الكتاب والشعراء أطنبوا فى ذكر قميص الجوارى المغنيات فيقول البغدادى (٢٧١) : أن الجارية كانت ترتدى قميصا وقناعا مصبوغين ، وأخرى كان عليها قميص (٢٧٢) جلنارى (٢٧٣) ، وكان بعضهن يزخرفن قمصانهن بالاشعار ، فيذكر

(٢٦٥) العبيدى : تاريخ اللباس ص ٢٠٤ (لوحة ١٢١ شكل ١١٨) •
(٢٦٦) الهمذانى : (بديع الزمان) : مقامات ص ١٩٨
(٢٦٧) دوزى : المعجم ص ٢٦١
(٢٦٨) الرخانية : نسبة الى قرية صغيرة من قرى مرو اشتهرت بصناعة الغلائل الرقيقة الشفافة نسبت اليها (الوشاء — الموشى ج ٢ ص ١٢٦) •
(٢٦٩) الوشاء : المرجع امسابق ج ٢ ص ١٢٤
(٢٧٠) ابن سيدة : المخصص ج ٤ ص ٣٧
(٢٧١) البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤١٤
(٢٧٢) جلنارى : لفظ مكون من «جل» بمعنى الورد و«نارى» صفة أى انه وردى اللون (الجواليقى)
٢٧٣ صلاح المنجد : الظرفاء ص ٧٥ •

الوشا (٢٧٤) عن الماوردى : ان جارية يقال لها « عريب » عليهـا قميص ملحم موشى بالذهب مكتوب فى وشاحه (٢٧٦) :

وأنى لأهواه شيئا ومحسـنا ∴ وأقضى عـلى قلبى لـه بالذى يقضى

أما قميص الراقصات الذى كثر ذكره فى المراجع ، فهو قميص له فتحة مستديرة حول الرقبة وينتهى أسفله بفتحة قصيرة من أمام أو بفتحتين من الجانبين تعطى الراقصة حرية الحركة • وله ردئتين تغطيان ثلثى الذراع الى أسفل الكوعين وعادة ما يحيط الاردان أشرطة زخرفية كما يحيط الفتحات الامامية والجانبية كذلك (٢٧٧) •

والصدار لباس داخلى اتخذته النساء الى جانب أنواع اخرى واختصت به دون الرجال • ويعرفه ابن سيدة (٢٧٨) بقوله أنه ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر والمنكبين أمـا ابن (٢٧٩) منظور فيقول : الصدار قميص صغيريلى الجسد ، وقد عثر على قطعة خزفية عليها صورة امرأة ترتدى صدارا أسـود اللون ذى كمين قصيرين لايتعديان المرفق، ويكسو النصف العلوى من الصدر حتى أسفل الثديين • وهـوكما يبدو فى الصورة ملتصقا على جسم الراقصة وانه من نسيج شفاف رقيق يشف عمـا تحته(لوحة رقم «٥٧») •

وضرب آخر من لباس البدن الداخـلى يطلق عليه اسم الشوذر ، وهو الاتب (٢٨٠) ، يصفه الجوهرى (٢٨١) فيقول : الشوذر الملحفة وهو معرب وأصله بالفارسية جاذر • من هذين الوصفين يتبين لنا أنه ثوب ليس له كمان •

والدروع ومفرده درع ، قميص تتخذه المرأة لباسا (٢٨٢) لها تجوب وسطة وتجعل له يدين وتخيط فرجية (٢٨٣) ، وهو قميص قصيرتلبسه الجارية فى بيتها (٢٨٤) • والدروع غالبا

---

(٢٧٤) الوشاء : الموشى جـ ٢ ص ١٦٣

(٢٧٥) الملحم : نسيج سداته من القطن ولحمته من الحرير • ولما كان الحرير غالى الثمن فقد نسب الى لحمته الحريرية فعرف الملحم كناية عن اللحمة الحريرية •
(سعاد ماهر: مشهد الامام على بالنجف ص ٣٦٥)

(٢٧٦) الوشاح بالكسر شئ ينسج عن أديم (جلد) عريضا ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها، وشحتها فتوشحت ،لبسته وربما توشح الرجل بثوبه وسيفه أى لبسه فى الواقع السالف ذكره (الصحاح)

(٢٧٧) Goetz: The History of Persian costume. vol III P. 2236

(٢٧٨) ابن سيدة : المخصص جـ ٤ ص ٣٩

(٢٧٩) ابن منظور : لسان العرب ٤/٤٤٧

(٢٨٠) ابن سيدة : المرجع امسابق) جـ ٤ ص ٣٥ •

(٢٨١) دوزى : المعجم ص ١٨٠

(٢٨٢) ابن سيدة : المخصص جـ ٤ ص ٣٦

(٢٨٣) ابن منظور : ٨ : ٨٢

(٢٨٤) المرجع السابق : ٨ : ٨٢

ما تكون مصنوعة من نسيج ذى لون واحد يكون لونه عادة ازرق فاتح مائل الى الاخضرار وخال من الزخرف ، وهو منسوج بطريقة «الايكات» (٢٨٥) الذى يحتوى على تمويجات من نفس النسيج • وهذا النوع من اللباس يتخذ من نسيج لين طرى من الحرير أو القطن الرقيق لانه يلبس على الجسم مباشرة •

وهناك نوع من الدروع تحتوى على أكمام قصيرة يخاط جانباها ، تلبسه ربات البيوت يسمونه السبجة أو السبيجة (٢٨٦) ويبدو أن المرأة كانت تتخذه فى ساعات العمل تشد به وسطها (٢٨٧) وورد أيضا انه يصنع من الجلود (٢٨٨) • والرجح أن السبجة درع تلبسه المرأة تقى به ملابسها الخارجية من الاساخ عندما تشتغل فى أعمال المنزل اليومية •

أما عن ملابس المرأة الخارجية فقد شاركت المرأة الرجل فى الكثير منها من حيث أسمائها وان اختلفت معه فى تفصيلها وشكلها وأنواع المنسوجات التى اتخذت منها فقد شاركت المرأة الرجل فى البرنس ، وان كان يبدو ان لبسه قد اقتصر على طبقة الراقصات والمغنيات والموسيقيات ، اذ أن معظم ماعثر عليه فى كتب المعاجم جاء فى تراجم الفئة سالفة الذكر اذ يقول الأصفهانى (٢٨٩) : ان جميلة لبست يوما برنسا طويلا وألبست من كان عندها برانس دون ذلك • ثم قامت جميلة ورقصت وضربت على العود وعلى رأسها البرنس الطويل وعلى القوم أمثالها • ويقول مسكويه (٢٩٠) ،وكانت النسوة يتفنن فى تزين برانسهن بخلاف الرجال ، وتمتاز برانس النساء بكثرة ألوانها •

ويشارك المرأة الرجل فى لبس الجلباب وهو بالنسبة للمرأة ثوب تغطى به صدرها وظهرها ، (٢٩١) وتلتحف به من الرأس الى القدمين حين تريد الخروج من منزلها (٢٩٢) • وترتدى المرأة الجلباب عادة أثناء مجلس الوعظ (انظر لوحة رقم ٥٧) •

ولبست النساء كذلك الاردية ، وكانت الجارية تلبس الانواع الجيدة من الأردية وذلك لمكانتها المرموقة فى قصور الملوك والسلاطين ، اذ يذكر الازدى أن لباس الجارية الراقصة ، كان غلاله وسراويل وتكه ورداء قصب مطرز بألوان جذابة مرصع بالزبرجد

---

(٢٨٥) سعاد ماهر : مشهد الامام على بالنجف ص ٢٠١

(٢٨٦) ابن سيدة جـ ٤ ص ٣٦
(٢٨٧) الوشاء : الموشى جـ ٢ ص ١٢٦

(٢٨٨) الازدى : حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٥٣-٥٤

(٢٨٩) الاصفهانى : الاغانى جـ ٨ ص ٢٢٦
(٢٩٠) مسكويه : تجارب الامم جـ ٦ ص ٥٠١
(٢٩١) ابن سيدة : المخصص جـ ٤ ص ٣٩
(٢٩٢) دوزى : المعجم ص ١٠٣

والياقوت [٢٩٣] وقد ارتدت الظريفات الاردية الطبرية والقصب الملون والحرير [٢٩٤] • وكانت النساء يبالغن فى بعض الاحيان فى العناية بأرديتهن فى تطريزها وزخرفتها بأسعار الغزل أو بما له علاقة بالشراب واللهو والطرب •

وثمة لباس آخر شاركت المرأة الرجل فى لبسه هو القباء ، فقد ارتدته النساء عامة والجوارى خاصة ، فكن يزينه بتطريز ابيات من الشعر مرصعة بالاحجار الكريمة [٢٩٥] • وقباء المرأة رداء مفتوح من الامام طويل يمتد الى القدمين وهو فضفاض وله كمان طويلان واسعان وقد ثبت جانباه عند الوسط بواسطة نطاق [٢٩٦] •

أما عن الالبسة التى كانت النساء تحيط بها خصورهن فكثيرة نذكر منها البريسم وهو نوع من أربطة الجسم مثل الحبل المفتول يكون فيه لونان وربما شدته المرأة على وسطها وعضدها • والزنار [٢٩٧] فرضته الدولة على المرأة الذمية تشده فوق الازار وتحته ويكون فى عنقها خاتم يدخل معها الحمام [٢٩٨] وذكر الوشاء [٢٩٩] أن زى النساء المتظرفات أن لا يشاركن الرجال فى الزنانير العراض ولا يذهبن فى ألوانها الى البياض ولا مكان منها كثير الالوان والتخطيط ويتطيبن من الالوان • كما كانت المرأة تتخذ النطاق فى ساعات العمل لتشد به وسطها ، لذلك نعتوا المرأة الثرية بعدم الانتطاق [٣٠٠] والتشمر للعمل •

أما عن لباس المرأة للقدم فهو مشابه للباس الرجل ، فقد استخدمت المرأة النعال والخف والحذاء والجورب وان اختلفت قليلا فى الشكل والمواد الخام •

وعن لباس الرجل والمراة الريفية ، فقد سبق أن تناولناه فى شىء من التفصيل فى الفصل الثانى عند الكلام عن الريف واهله •

لباس العسكر :

وقد رأينا قبل ان نختتم موضوع اللباس والازياء ، ان نكمل الصورة بدراسة ازياء ولباس ، رجال السيف ونعنى القادة والعسكر ، لأنهم يكونون جزءا كبيرا من المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة لايمكن اغفاله •

---

(٢٩٣) الازدى : حكاية أبى القاسم البغدادى ص ٥٣
(٢٩٤) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٢٦
(٢٩٥) المصدر السابق : ج ٢ ص ١٧٤
(٢٩٦) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفيه شكل (٨٣١)
(٢٩٧) دوزى : المعجم ص ٦٥
(٢٩٨) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ صة ٥٥
(٢٩٩) الوشاء : الموشى ج ٢ ص ١٢٧
(٣٠٠) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٤٩

من المعروف ان العصر الايوبى قد اتسم بالطابع العسكرى نتيجة للحروب المتكررة التى خاضها سلاطين الايوبيين فى بلاد الشام ومصر ضد الصليبيين ، ومن ثم فقد كان اهتمامهم بالجند ، شغلهم الشاغل ولاشك ان معظم موارد الدولة كانت تنفق على كساء الجيش وتسليحه وغذائه وخيله (٣٠١) .

ولما كان العصر الايوبى يتسم بالطابع العسكرى فقد كان لباسه الرئيسى هو الزى الحربى . وجله يعتمد اعتمادا كليا على السلاح . وكانت أسلحتهم فى ذلك الوقت تتكون من القوس والسهام والسيوف (٣٠٢) والخناجر المقوسة ، والحراب والاطبار والرماح والدبابيس . أما أسلحة الدفاع (٣٠٣) فكانت تضم الخوذ وواقيات الايدى والارجل والتروس وعدة أنواع من الدروع المعدنية القصيرة والطويلة .

وكان الجندى فى بلاد الشام فى العصور الوسطى يقاتل بالسلاح الايسر والاصغر أولا (٣٠٤) ، كالرمح والسيف والطر والدبوس والخنجر (٣٠٥) ويؤخر استعمال السلاح الاعظم أو الثقيل (٣٠٦) . وكان الجندى يعتز بسلاحه الاصغر اعتزازا كبيرا ، فقد كان يعد النشاب سلاحه والترس حصنه والرمح خندقه والسيف حارسه والسكين كمينه (٣٠٧) (أنظر لوحة رقم « ٥٨ ، ٥٩ ») .

أما عن طريقة لبس هذه الاسلحة ، فقد كان الفرسان مثلا يحملون الدبوس فى السروج تحت أرجلهم وتعرف بالعمد ، والدبوس عبارة عن هراوة (مدملكة) الرأس فى طرفها كتلة

---

(٣٠١) البار العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٩٣ نظير حسان : التاريخ الحربى ص ٢٧ ، محمد مصطفى زيادة الدوله الايوبيه (تاريخ الحضارة) المجلد (٢) العدد ٦ ص ٤٧٤ .

أنظر أيضا :
Claud Cahen: Un trait d'Armurerie composé pour Saladin . P. 103.

(٣٠٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، العماد الاصفهانى : الفتح القس
ابن شداد : النوادر السلطانية ،
أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين
ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

(٣٠٣) عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ج٢ ص ٣٤ .

(٣٠٤) الانصارى تفريج الكروب فى تدبير الحروب ص ٩٢

(٣٠٥) كوركيس عواد : الجيش والحرب والسلاح فى الآثار المخطوطة لمجله العسكرية فى العراق العدد ٤١، ٤٢ لسنة ٦٤، ١٩٦٥ .

(٣٠٦) عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥١)

(٣٠٧) مرضى بن على الطرسوسى عاش فى القرنين ٥-٦ هـ/ ١١-١٢م) .
الطرطوسى : تبصره أرباب الالباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء ونشر أعلام الاعلام صفحة ١٢٧ (نشر كلود كاهن . مجلة الدراسات الشرقية المعهد الفرنسى بدمشق ج ١٢ سنة ١٩٤٧-١٩٤٨ م) .

صغيرة وكانت تستعمل فى تهشيم الخوذة المعدنية (٣٠٨) • أما الطبر أو البلطة أو الفأس فكان له رأس نصف مستدير يركب فى قضيب من الحديد أو الخشب تحفر عليه بعض النقوش أو العبارات الدينية ويطلق على حامليه الطبردارية (٣٠٩) • وكان المقاتلون يلبسون الزرد أو الدروع المزردة ، وقد سميت كذلك للينها وتداخل بعضها فى بعض حيث انه يصنع من حلقات معدنية صغيرة (٣١٠) • وكان الجندى يلبس الدرع على ثوب من النسيج عرف من أجل ذلك باسم الزردخان (٣١١) • وقد وصلت صناعة الدروع أوجها فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، وقد نقلت صناعة الدروع الى أوربا على أيدى الصليبيين •

وقد كان لصلاح الدين (٣١٢) خوذة مذهبة انتشرت فيما بعد بين سلاطين المماليك ولم تكن الخوذة فى العصر الايوبى أو المملوكى تغطى الوجه كله ، كما كانت الخوذات عند الصليبيين (٣١٤) •

وكان العسكر فى الحروب أو فى الاستعراضات العامة يقسمون الى تسعة أقسام تبعا لنوع السلاح الذى تحمله فئة منهم ، فكان الصف الاول يخصص لاصحاب السلاح التام ، ويحمل عساكر الصف الثانى المجان (٣١٥) • وكان المحاربون فى الصفوف الثلاثة الاولى من المشاة وكان عساكر الصف الثالث من النفاطين (٣١٦) • ويضم الصف الرابع الفرسان حملة الرماح والخامس فرسان الرماية بالمزاريق (٣١٧) والسادس فرسان الرماية بالنشاب (٣١٨) • ويخصص الصف السابع لفرسان الاحتياطى • والصف الثامن لركبان الخيل الذين يجرون الجنايب (٣١٩) • أما الصفان الاخيران فقد خصصا للغلمان •

---

(٣٠٨) عبد الرحمن زكى • معركة المنصورة ص ١٤٤

(٣٠٩) كان الطبردارية يمشون أمام السلطان بأيديهم الاطبار بعد صلاة الجمعة والعيدين وكان كبيرهم يسمى أمير الطبر (السبكى : معيد النعم ص ٣٥، القشقلندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٨) •

(٣١٠) عبد الرحمن زكى : معركة المنصورة ص ١٤٤

(٣١١) سعاد ماهر : منسوجات المتحف القبطى ص ٥٩

(٣١٢) وقد عرف صناع الجواشن باسم جوشنيه وكان لهم سوق فى حلب ، وقد عرف جامع الاقصرارى بحلب باسم الزاوية الجوشنية وربما سمى بذلك لقربه من صناعة الجواش (محمد أسعد طلس : الآثار الاسلامية والتاريخية فى حلب ص ١٤٩) •

(٣١٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥٤، ٦٥٩

(٣١٤) عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ١٤٤

(٣١٥) المجان : هو الترس (عبد الرؤوف عون: الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ١٨٦) •

(٣١٦) النفاطون : هم الذين يلقون بقذائف النفط المشتعلة بواسطة أسلحة الرماية كالرمح والقوس والنشاب والمجانيق أو بواسطة قارورات أو قدور النفط وقد عرفوا فى العصر المولوكى بالزراقين (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٩٨ الحاشية) •

(٣١٧) المزراق : يتكون من يد مجوفة من خشب تنتهى بسنان حادة من معدن ، أى انها تشبه الرمح فى شكله وفى وظيفته فى الطعن •
(الانصارى : تفريج الكروب فى الحروب ص ١١٢) •

(٣١٨) النشاب : هو السهم أو النبل وهو يضع فى غاب أ وخشب ، أما النصل فيصنع من معدن عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى ج ٢ ص •

(٣١٩) الجنايب : وهى الخيول التى تسير وراء السلطان فى الحروب بصفة احتياطية (المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣١ حاشية) •

الفصل الثالث

الرياضة ووسائل التسلية :

١ ــ رياضة طبقة الخاصة

٢ ــ رياضة وتسلية العامة

وكما اختلفت الملابس والازيــاء تبعــا لاختلاف الطبقات ، كذلك اختلفت الرياضــة ووسائل التسلية نتيجة للاختلاف الطبقى الذى ساد بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة • ومن ثم فقد رأينا أن نتناول الرياضة ووسائل التسلية لكل من طبقة الخاصة وطبقة العامة على حدة •

رياضة طبقة الخاصــة :

لقد دأب الملوك والخلفاء والســلاطين والامراء وعلية القوم منذ أقدم العصور على اللهو فى ساعات فراغهم يروضون بها عقولهم وابدانهم • وكان لكل أمة ألعاب تلائم عاداتها وتشاكل أخلاق أهلها ، ولكن الملوك يتشابهون فى أكثرها لتشــابه مرادهم (١) منها • وقــد اشتهر سلاطين الايوبيين والمماليك وامراؤهم بولعهم الشديد بألعاب الفروســية والصــيد والرياضة على اختلاف أنواعها لما فى ذلك من تمرين النفس على اكتئاب باب التأبيد وحصول المسرة بكل ظفر (٢) جديد • ولهــذا الغرض اهتم الســلاطين بعمــل الاحراش وزودوها بالشباك والصيادين (٣) • كما اهتم السلاطين بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها ، فانشأوا لها المطــاعم وعينــوا لهــا الموظفين المشرفين عليهــا الــذين عــرفوا باســم البازدارية (٤) •

على أن رياضة الصيد كانت معروفة عند العرب منــذ العصر الجاهلى ، ولكنهــا كانت قاصرة على صــيد الغزال ، أو الطــير بالنبل والفخ ، فلما اختلطوا بالفرس والروم بعــد الاسلام توسعوا فى طرائق الصــيد والقنص فاتخــذوا الجوارح من الطــير وهى البــاز والشاهين والعقاب والصــقر يعلمونها صــيد الطيور (٥) وقد غالى بعض السلاطين فى اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعين بها على صيد الغزلان وحمر الوحش والخنازير (٦) • كمــا بذل خلفاء الدولة العباسية الاموال الطــائلة فى اقتنائها وتربيتها وأقاموا عليهــا أناســا

---

(١) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى جـ ٥ص ١٥٥

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٦٦

(٣) خليل بن شــاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٨

(٤) البازدار : كلمة فارســية مكونة من بازبمعنى صقر ودار بمعنى ممسك ، أى حامل الصقر والبازدار من أرباب الخدم المكلف بحمل الطيور الجوارح المعدة للصــيد على يده عند الخروج للصيد • وقد نشأت وظيفة البازدار منذ عهــد السلاجقة ثم انتقلت الى الاتابكة فى الشام ومنهم الى الايوبيين ثم صارت لها نظمها وتقاليدها فى العصر المملوكى •
(القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٦٩ ، الراوندى : راحة الصدور ص ٣٧٧) •

(٥) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ص ١٥٥

(٦) اول من اشتغل بالصيد فى الشام معاوية بن ابى سفيان وكان صاحب طرد وجوارح وقرود وفهود وله كلف بالصــيد فاتخذه للهو وليس للرياضة • وكان يلبس سلاقيه الاساور من الذهب والاجلة المنســوجة بالذهب ويهب لكل كلب عبدا يخدمه واشتغل به غيره من خلفاء بنى امية على تفاوت (المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٦٥)

ينظرون فى شئونها منهم البيازرة (البازدارية) والحجالون (٧) والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب وأطلقوا لهم الارزاق الجليلة وأقطعوا الاقطاعات السنية (٨) • وتسابق الشعراء أرضاء للملوك والسلاطين فى وصف طيور وحيوانات الصيد حركاتها وطبائعها وخصالها (٩) • كما ألفت فى العصر العباسى (١٠) المراجع والمؤلفات الطوال فى فنون الصيد وأساليبه مثل كتاب البزاه والصيد وكتاب المصائد والمطارد (١١) •

وحذا حذو العباسيين فى بلاد الشام وغيرهم من ملوك السلاجقة والاتابكة والايوبيين والمماليك • فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقى من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس حتى قيل انه بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التى صادها (١٢) • وكان السلطان مسعود السلجوقى يبالغ فى ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الاطلس الموشاه وسورها بالاساور الذهب •

وقد خصص أسامة بن منقذ فصولا طويلة للكلام عن الصيد وطرقه فى بلاد الشام فهو يذكر طرق أمراء الايوبيين فى الصيد فيقول : كانوا يستعملون الطرق العباسية القديمة وذلك ببناء حوائط طولها فراسخ كثيرة يجدون عندها الصيد • وتبدأ العملية بمطاردة رجالهم لحيوانات الصيد من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ، ولايزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم ، وهى تثب بين الاعشاب والادغال حتى يضايقوها ، ويحصروها عند الحائط فلا يبقى لها مجال لنجاة فيقبل الملوك والامراء وخواصهم ويتأنقون فى القتل والصيد ، فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقى (١٣) •

ومن الالعاب التى انتشرت فى بلاد الشام فى العصور الوسطى الرمى بالبندق (١٤) ، وقد كلف العرب بهذه الرياضة منذ عهد الخلفاء الراشدين حتى أنهم شكلوا فرقا من الجند

---

(٧) الحجل : هى القيد أو الخلخال والتحجيل بياض فى قوائم الفرس وكذا قيلت للطائر ، والحجالون هنا قد تكون للمشرفين على الخيل أو على الطيور (لسان العرب ومختار الصحاح) •

(٨) الفخرى : الآداب السلطانية ص ٤٩ •

(٩) الحسن بن عبد الله : ترتيب الدول ص ١٣٦ ، ابو الفرج الاصفهانى : الاغانى ج ٩ ص ١١٦ •

(١٠) اول من احب الصيد من العباسيين المهدى فالرشيد وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير (الاغانى ج ٩ ص ٩٧) وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبابيد (المسعودى ج ٢ ص ٢١٣) ببغداد حائطا طوله فراسخ كثيرة يجدون الصيد وكان المعتصم الهجم به فبنى فى أرض دجيل قرب عنده (الفخرى : ص ٤٧) •

(١١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٣٥ •

(١٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٢٤ •

(١٣) اسامة منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٥٠

(١٤) البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وهى فارسية بلفظها واستعمالها ويسمونها كذلك الجلاهقات جمع جلاهق • فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال • واقتبس العرب هذه اللعبة فى اواخر ايام عثمان بن عفان وعدوا ظهورها فى المدينة المنورة منكرا (ابن الاثير ج ٣ ص ٩٠) •

ترمى بها . وكان الرشيد عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمى بالبندق علــى من يقف فى طريق الموكب (١٥) .

وقد حرص الخليفة العباسى الناصر لدين الله « سنة ٦٢٢هـ / سنة ١٢١٤م » علــى أن يجعل لرمى البندق شأنا ، لانه كان مولعا به وباللعب بالحمام المناسب وكان يلبس سراويل الفتوة (١٦) . وقد كان من حرصــه علــى أن يجعل رمى البنــدق فنــا لا يزاوله الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبســون سراويلها ، وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة ، يدخل فيهــا من شاء ويحرم من شاء . وقد كتب « ســنة ٦٠٧هـ / سنة ١٢٠٠م » الى ملوك الاطراف الــذين يعترفون بخــلافته أن يشربوا كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها وأن ينتسبوا اليــه برمى البندق ويجعــلوه قدوتهم فأجابوه الى ذلك ، ولهذا فقد أتى الى بغداد كل من أراد الفتوة فى البلاد جميعها ومن بينها بلاد الشام ، الانتظام فى سلك هذه الطائفة فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه (١٧) . وعلى ذلك فقد بطلت الا من لبس سراويلها منه ومنع الرمى بالبندق الا من ينتسب اليه (١٨) .

ويتم ابن الاثير قصة رياضة البنــدق وانتشارها فى بلاد الشام فيقول : وقد استجاب الناس لرغبــة الخليفــة النــاصر لدين اللــه الا شخصا اسمه ابن السفت الذى هرب من بغداد الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمى عنه البندق وينتسب فى الرمى اليه ولكنه رفض قائلا : « يكفينى فخرا انــه ليس فى الدنيا أحد لا يرمى البندق للخليفــة الا أنا (١٩) » .

وكان لرمى البندق فى العصور الوسطى شأن كبير بالعراق والشام ومصر وغيرها فقد كان هناك أخطاطا بأسرها تختص بصــــناعة أقواس البندق ، مثل البندقانيين (٢٠) بمدينة القاهرة الفاطمية . وقد تطــور رمى البندق فاستخدم فيه المزاريق (٢١) أو الانابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشــبه أنابيب البنادق (٢٢) . فلما اخترعوا البارود صــاروا

---

(١٥) الحسن بن عبــــد الله : ترتيب الــدول ص ١٣٣ .

(١٦) سبق الاشارة الى فئة الفتوة ضمن فئات المجتمع المدنى فى الفصل الاول .

(١٧) ابن خلدون : المقدمة جـ ٣ ص ٥٣٥

(١٨) ابو الفدا : جـ ٣ ص ١١٩ ، ١٤٢

(١٩) ابن الاثير : جـ ١٢ ص ٢٠٢

(٢٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١

(٢١) الطرسوسى : تبصرة ارباب الالباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء ونشر اعلام الاعلام (نشر كلود كاهن جـ ١٢ ص ١٣٩) .

(٢٢) ابو ســــعد العلاء بن سهل : كتاب الحرقات ورقة (١٤) (مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات رقم ١٠) .

يرمون البندق من تلك الانابيب وسموا هـذه الآلة بندقية نسبة اليه (٢٣) ٠

ومن الالعاب التى شغف بها أهل الشام وخاصة فى العصر المملوكى رمى القبق (٢٤) ، وتفصيل هذه اللعبة هو أن تنصب خشبة عالية فى ميدان اللعب ويعمـل بأعـلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماه بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها الى هـدف معين ، وذلك تمرينا لهم على احكام الرمى (٢٥) وقد يكون بـدل الدائرة الخشـبية فى بعض الاحيان قرعة عسلية من الذهب أو الفضـة بداخلها حمام ، فاذا ما رمى اللاعبون الهدف بالسهام أو النشاب وهم عـلى ظهور الخيل وأصاب الهدف (أى القرعة) طار الحمام فحاز قصب السـبق وأخـذ القرعـة الذهبيـة أو الفضية (٢٦) ، وعند ذلك ينعم السلطان على من يصـيب القبق بفرس اذا كان من الامراء وبخلعة اذا كان من المماليك (٢٧) ٠

وكانت لعبة القبق من الرياضـات التى تلعب عدا أيام المرح والتسـلية فى المناسبات العامة كالاعيـاد القومية ومناسـبات الفرح والسرور ، فقد حدث سـنة ٦٩٢هـ / سـنة ١٢٩١م عنـد ظهور أخى الملك الاشرف خليل وظهور ابن أخيه الامير مظفر الدين موسى ، أن أمر السلطان أشرف خليل بلعب القبق (٢٨) ٠ وكان للمماليك زى معين عند لعبهم القبق فقـد كانوا يرتدون أجمل العـدد والخوذ والآلات والسلاح الكامل (٢٩) ٠

من وسـائل التسـلية التى اهتمت بهـا الطبقة العليا فى بلاد الشام فى العصور الوسطى اللعب بالكرة والصولجان (٣٠) وهى فضلا عن أساسها الاول وهو التدريب الحربى ، فانها لم تخل من تسلية حقيقية وتعرف هذه اللعبة الآن باسم البولو (٣١) ٠ وقد شغف بهذه اللعبة معظم السلاطين وامرائهم ، فانشـاوا لها الميادين ووضـعوا لها نظاما خاصـا وحددوا الاوقات

---

(٢٣) الرباس : ابراهيم بن احمد بن غانم بن زكريا الاندلسى) العز والمنافع للمجـاهدين فى سبيل الله (مخطوطة مصورة بمعهـد المخطوطات رقم ٢٤) ٠

(٢٤) القبق : كلمـة تركيـة معناها القرع العسلى (المقريزى : السـلوك جـ ١ ص ٥١٨ حاشية ٦) ٠

(٢٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٠ ٠ عن صفة القبق وتفصيل هذه اللعبة انظر :
Rabie: The Training of the Mam luk Faris

(٢٦) ابو المحاسن : النجـوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦ ٠

(٢٧) العينى : عقد الجمان سنة ٦٧٥ هـ

(٢٨) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٢٦

(٢٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١١

(٣٠) الكرة والصولجان لعبة فارسـية لم يعرفها بنو امية ، واول من لعبهـا بنو العباس وكان اسبقهم اليها الرشـيد وهى عبارة عن كرة فى أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافهـا تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه ، تلقى بعصا عقفاء (معوجة) يسمونها الصولجان او الجوكان ٠ ويرسـلون الكرة بها فى الهواء وهم على خيولهم ، وكان الخليفة المعتصم شديد الرغبة فيهـا (الحسن بن عبـد الله : ترتيب الدول ص ١٣٠) ٠

(٣١) سعيد عاشـور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٧١

التى تلعب فيها • كما اعدوا لها مايلزمها من خيول كما خصصوا لها الموظفين والمشرفين الذى كان يعرف الواحد منهم جوكندار (٣٢) •

ويتألف اسم جوكندار من لفظين جوكان بمعنى العصا المنحنية او المجن الذى تضرب به الكرة كما سبق القول ودار بمعنى ممسك • (٣٣) والجوكندار موظف مهمته حمل الجوكان للسلطان اثناء لعبة الكرة والصولجة (٣٤) وكان الجوكندار اذا نصب اميرا منح شارة أو (رنكا) على هيئة عضوى البولو والكرة (٣٥) • وممن اطلق عليهم لقب الجوكندار ووصلتنا كتابات أثرية باسمائهم قراسنقر ، منها نص تذكارى بأعلى محراب المسجد الجامع بحلب مؤرخة (سنة ٦٨٤ هـ / سنة ١٢٨٥ م) جاء فيها « بالاشارة العالية المولوية الاميرية الشمسية قراسنقر الجوكندار الملكى المنصورى كامل المملكة المحروسة (٣٦) • كما عثر على كتابة منقوشة بأعلى ظاهر البرج الذى يحمل القاعة الكبرى بقلعة حلب مماثلة من عهد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ومؤرخة (سنة ٦٩١ هـ / سنة ١٢٩٢ م (٣٧)) •

وقد أعطانا الرحالة (Pera Tafur) (٣٨) صورة حية عن لعبة الكرة والصولجان ، فقال : ان الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء • وكان يقف على جانبى الميدان عدد كبير من الفرسان وقد تمنطق كل منهم بمنطقة ذهبية (٣٩) • فقد اعتاد السلاطين عند الخروج للعب الكرة أن يفرقوا حوائص من ذهب على بعض الامراء المقدمين (٤٠) • وكان بيد كل منهم عصا طويلة ، وفى وسط الميدان كرة • ويبدا كل جانب بمحاولة اجتذاب الكرة الى جانبه ، والذى ينجح فى ذلك تكون له الغلبة • وجرت العادة أن يقوم المهزوم فى اللعب بعمل مهم حافل او وليمة كبيرة ، وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة الى مائتى الف درهم نظرا لما يذبح من مئات المواشى والطيور ، عدا الحلوى والمشروبات ، وكثيرا ما تحمل السلطان عن المغلوب هذه النفقات (٤١) •

---

(٣٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٥٨
(٣٣) السبكى : معيد النعم ص ٣٥
(٣٤) كان الجوكان : عبارة عن عصا مدهونة طولها نحو اربع اذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة جـ ١ ص ٤٢٥ حاشية)
(٣٥) Hitti, Wistory of Syria P. 480.
Mayer: Saracenic Heraldry P. 5.
(٣٦) Herzfeld., La Syrie du Syriedu Nord P. 166 (no 79 Pl. IXV b.,
Demombynes: La Syrie à l'epoque des Memlouks P. 65.
(٣٧) Mayer: Ibid P. 184 Pr. XXVII.
Repertoire. P. 250 No. 5171 Pr. XIII
(٣٨) Tafur (Pero): Travels and Adventures. P. 80
(٣٩) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٥٢ـ ٥٥
(٤٠) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٤٤ حاشية •
(٤١) ابن حجر : ابناء الغمر جـ ١ ص ٤٣٦

وإذا لعب السلطان الكرة والصولجان مع أمرائه ، انقسم اللاعبون الى فريقين على رأس كل فريق (باش) (٤٢) احدهما السلطان والآخر آتابك (٤٣) العسكر • ويعرف خروج السلطان لهذه اللعبة باسم (موكب لعب الكرة) ويكون ذلك عادة مرتين فى الاسبوع • وقد اشتهرت هذه الرياضة حتى لعبها الامراء فى منازلهم ،بل نبغ فيها الكثير من الامراء كما شغف الشعب برؤية لعبة الكرة والصولجان حتى سمح لهم بدخول الاحواش وميادين اللعب للفرجة (٤٤) •

وتعتبر الفروسية أهم ميزة لطبقة خاصة فى المجتمعات الاقطاعية ، ذلك أن الفروسية تعتبر من أهم سمات الارستقراطية (٤٥) الحربية • ومن ثم فقد عنى الملوك والسلاطين بأن يؤلف فى الفروسية الكتب والمراجع لتفصيل وتوضيح دستورها وقوانينها ونظمها وآدابها (٤٦) كما حرصت المراجع على وصف كيفية التدريب عليها وتوضيح ملاقاة الفارس لخصمه وكيفية الركوب على الفرس والنزول عنه وحمل الرمح (٤٧) واستعمال السيف والقوس والنشاب وأنواع القس والمادة التى تصنع منها ، ومراعاة مناخ البلد فى طول الوتر وقصره (٤٨) •

كذلك عنى السلاطين بالخيل وبسلالتها وأنواعها وكيفية علاج الفرس ونحو ذلك

---

(٤٢) باش : كلمة تركية بمعنى رأس او رئيس (الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٦) وكانت لفظة باش اسم وظيفة فى عصر المماليك ، اذ كان لكل مائة جندى من اجناد الحلقة فى عصر المماليك البحرية (باش) اى رأس او رئيس ، كما اطلقت التى كانت تعقد فى الجمعية مرتين فى عصر والطبلخاناه بالحوش ، ويكونون فرقتين وباشين، كلمة باش بصفة عامة على الرئيس ط وذكر الظاهرى انه فى موكب لعب الكرة المماليك ، وكانت تجتمع الامراء مقدموا الالوف احدهما للسلطان ونصف الامراء والاخر اتابك العساكر المنصورة ونصف الامراء (الظاهرى : المرجع السابق ص ٧٨) •

(٤٣) اول من شغل وظيفة اتابك العسكر فى عصر المماليك هو عز الدين ايبك فى عهد شجرة الدر (فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٣٧٢) اتابك لفظة تركية تتكون من كلمتين هما (اطا) بمعنى أب « بك » بمعنى امير ، وقد ذكرها عماد الدين فى تاريخه ان اصلها اطابك بمعنى الولد الامير (الرحلة جـ ٢ ص ٢٥٨) وقلبت الطاء « تاء » فى الاستعمال (القلقشندى : جـ ٦ ص ٦) • وقد شاع نظام الاتابكية فى الدولة السلجوقية (البندارى : زبدة العصر ونخبة النصرة ص ١٤٩) وظلت معروفة وظيفة الاتابك فى العصر الايوبى فقد عثر على اسم الملك الرحيم طغرل عتيق السلطان الظاهر غازى بن يوسف واتابك ولديه الملك العزيز والملك الصالح منقوشا على لوح رخام بالمدرسة الاتابكية بحلب مؤرخا سنة ٦١٨ هـ / سنة ١٢٢١ م كما عثر على مدخل المدرسة الظاهرية بحلب هذا النص (اتابك الملك العزيز) غياب الدنيا ابن السلطان صلاح الدين (مؤرخ سنة ٦٢٠ هـ / سنة ١٢٢٣ م) •

(٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٠٩ ، جـ ٢ ص ١٧ ، ١١٨ ، ١٤٥ ، ٣٤٧) •

(٤٥) طرخان : النظم الاقطاعية ص ٣١٦

(٤٦) الرماح (نجم الدين حسن) الفروسية والمناصب الحربية ورقة (١٢) (مخطوطة رقم ٥٠ بمكتبة الحرم المكى) •

(٤٧) الرماح (بدر الدين بكتوت) علم الفروسية وعلاج الدابة ورقة (٢٧) (مخطوطة رقم ٢٦٢٣٩) بمكتبة جامعة القاهرة

(٤٨) واصف بطرس غالى : **تقاليد الفروسية** عند العرب ص ٣٧ (ترجمة انور لوقا دار المعارف سنة ١٩٦٠ م) •

فألفت العديد من الكتب عن البيطرة (٤٩) • وقد بلغ من حب السلاطين وولعهم بهذه الرياضة وان احتفلوا فى خروجهم لممارسة هذه الرياضة الحربية احتفالا رسميا عرف باسم (موكب ركوب الميادين) (٥٠) ينزلون فيه بالملابس الفاخرة والاسلحة المزركشة والخيول المزدانة بفاخر الثياب • كما عنى بعض السلاطين كالناصر محمد بن قلاوون باقتناء الخيول (٥١) ، وعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس فيقيد اسمه واسم صاحبه ونسب الفرس والتاريخ الذى أحضر فيه • فاذا حملت فرس من خيول السلطان أحيط علما بذلك وأخذ يترقب الوقت الذى تلد فيه (٥٢) • ويذكر المقريزى فى خططه أن الناصر محمد كان يصرف المبالغ الطائلة دفعة واحدة فى أثمان الخيول حتى مات عن أربعة آلاف وثمانمائة (٥٣) فرس •

وبعد ، فان أنواع الرياضة والتسلية السابق ذكرها ليست هى ضروب النشاط الوحيدة التى عرفتها طبقة الخاصة ، فهناك أنواع أخرى من التسلية ولكنها أقل شيوعا من الاخرى مثل مسابقات الهجن والخيل فى الاماكن الفسيحة الواسعة (٥٤) • هذا بالاضافة الى أنواع التسلية والرياضة الفردية التى يصعب حصرها • كالمشى والجرى لمسافات طويلة ، وكذا السباحة ، فقد اشتهر السلطان (٥٥) الظاهر بيبرس بتلك الرياضات وخاصة السباحة التى كان مولعا بها ، حتى قيل انه يسبح وهو يرتدى ملابس الحرب ويسحب خلفه بعض أمرائه وهم جلوس فى عوامة مسطحة •

رياضة وتسلية العامة :

لعل من أهم أنواع التسلية والرياضة النفسية التى أقبل عليها المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام بجميع طبقاته طوال العصور الوسطى اقبالا شديدا ، الموسيقى والغناء • ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة فى تلك العصور بفضل تشجيع الملوك والسلاطين واغداقهم على المغنين والمغنيات ، ثم انتقال الموسيقى والغناء الى الناس عن طريق السماع • فالموسيقى هى التى سماها المتأخرون الغناء لان النفس تستغنى به عن غيره من الملاذ البدنية فى حال سماعه (٥٦) • وقد اختلف الناس فى تعريف كلمة الموسيقى ، فقال الفلاسفة الموسيقى حكمة عجزت النفوس عن اظهارها فى الالفاظ فأظهرتها الاصوات

---

(٤٩) كتاب البيطرة مخطوطة نسخها على بن حسن بن هبة الله سنة ٦٠٥ هـ بدار الكتب المصرية
(٥٠) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٩٨ الظاهرة : زبدة كشف الممالك ص ٨٦) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ورقة ٣٨٦ جـ ٢) •
(٥١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٦٩ (٥٢) ابن حجر : ابناء الغمر جـ ١ ص ٢٣٥
(٥٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٩
(٥٤) ابن حجر : ابناء الغمر جـ ٢ ص ٢٥٨
(٥٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٧ ٢٣٨
(٥٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٨٦

البسيطة ، فلما أدركتها عشقتها ، فاسمعوا من النفس حديثها (٥٧) • وعرف الأدباء ومصنفوا الفنون ، علم الموسيقى بأنه من أشرف العلوم الرياضية وألطف الفنون الواجبية (٥٨) ، وهو حديث النفس وجلاء القلوب (٥٩) ، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن والنغم الجميل يسرى ويجرى فى العروق فيصفوا له الدم وتنقى له النفس ويرتاح له القلب (٦٠) • ويذكر الفارابى من علماء الفلك ، أن الموسيقى استخراج من علم الهيئة (٦١) وعلم الحكمة وعلم الطبيعة ، فان له تعلقا بجميع هذه العلوم (٦٢) •

ولا نود أن نتكلم عن تاريخ علم الموسيقى والغناء فى بلاد الشام فليس هذا مجالها ولكننا سنقصر كلامنا عنها فى العصور الوسطى ، فقد ألف المسلمون المخطوطات المسهبة عن الموسيقى فضلا عما استنبطوه من الالحان أو اخترعوه من الآلات (٦٣) ، كالآلة المعروفة بالقانون التى اخترعها الفارابى الفيلسوف (٦٤) ، وهو أول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه • كذلك اخترع الفارابى آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها • فقد ذكر أن الفارابى حضر مجلس غناء لسيف الدولة الحمدانى ولم يكن أحد من الحاضرين يعرفه، فعاب المغنين ، فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان فى المجلس، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب عليها فبكى كل من كان فى المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضربا آخر فـ نام كل من فى المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج (٦٥) • كذلك عرف أهل الشام العود الذى زاده زرياب بالاندلس وترا خامسا أحمر متوسط ولون الاوتار وطبقها على الطبائع ، كما استعملوا مضراب العود الذى اتخذه زرياب من قوادم النسر وكانوا قبله يضربون بالخشب (٦٦) •

ويذكر كثير من المؤرخين القصص الطوال عن تنافس سيف الدولة الحمدانى مع الوزير المهلبى للاستئثار بالمغنيات ، مما يدل على ولع القوم فى بلاد الشام بالغناء والموسيقى ، من تلك القصص حكاية المغنية المشهورة « الجيداء » (٦٧) التى تسببت فى الكثير من

---

(٥٧) شمس الدين النواجى : حلبة الكميت ص ٦٣
(٥٨) ابو الفرج الاصفهانى : الاغانى جـ ١ ص ٢٠
(٥٩) ابن اصبيعه : طبقات الاطباء جـ ١ ص ١٧٥ •
(٦٠) ابو الفرج الملطى : مختصر الاول ص ٢٣٦
(٦١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣
(٦٢) شمس الدين النواجى : حلبة الكميت ص ١٨
(٦٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٧
(٦٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٨٣
(٦٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٨
(٦٦) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٨٣
(٦٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ١٧٨

الأزمات لما امتازت به من حسن الصوت واجادتها ارتجال الالحان والادب البارع (٦٨).
ولم تبرح الشام تخرج من الموسيقيين ماتفخر بهم مثل أبو المجد بن أبى الحكم من الحكماء المشهورين من أهل القرن السادس (٦٩) الهجرى « الثانى عشر الميلادى » الذى كان يجيد الغناء ويجيد استعمال الكثير من آلات الطرب والايقاع ، حتى انه استطاع صنع آرغن بالغ فى اتقانه (٧٠) . كذلك حاول أحد أبناء الشام فى نفس القرن وهو أبو زكريا يحيى البياسى من أطباء (٧١) الملك الناصر صلاح الدين ، عمل الارغن . وبرغم ما كانت تعانيه بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع للهجرة من حروب وما يتبع ذلك من تحطيم الروح المعنوية للمجتمع ، الا انه قد نبغ العديد من أبنائه فى فن الغناء ، ولعلهم قد وجدوا فيه هروبا ومتنفسا لما عانوه من ويلات الحروب . ومن هؤلاء العلماء النوابغ قسطا بن لوقا البعلبكي وصفى الدين عبد المؤمن بن فاخر ونجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة وفخر الدين الساعاتى (٧٢) .

ومن أشهر مغنى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى وأطيبهم صوتا ونغمة ، رشيد الدين بن خليفة (٧٣) أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود ، وكثرت عنه القصص التى تشبه فى مضمونها ما حكى عن الفارابى من التلاعب بالانغام حتى يأخذ بعقول ونفوس مستمعيه . وكان من المعجبين به الملك المعظم (٧٤) . كما برز فى ذلك القرن علم الدين قيصر الذى درس الموسيقى على يدى الفيلسوف كمال الدين موسى بن يونس فى الموصل (٧٥) . ومنهم الجمال البستى وكان يلعب الجغانة (٧٦) « الاصل الصغانة وهى القيثارة » ولى خطابة جامع التوبة بدمشق فى عهد الملك الاشرف (٧٧) . كما كان محمد بن على

---

(٦٨) ابو الفرج الملطى : مختصر الاول ص ٢٢٧
(٦٩) ابن الاثير : جـ ٨ ص ٦١

(٧٠) الخوارزمى : رسائل الخوارزمى ص ٩٧ : يقول الارغانون آله لليونانيين والروم يضم بعضها الى بعض ويركب على رأس الزق تعمل من ثلاثة رقاق كبار من جلود الجواميس صفر ، لها قصب على نسب معلومة يخرج منها الاوسط رق كبير ثم يركب على هذا الرق انابيب اصوات طبيعية مطربة مشجية على ما يريد المستعمل .
(٧١) ابن اصيبعة : طبقات الاطباء جـ ١ ص ١٧٥ .
(٧٢) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٣٠٧
(٧٣) ابو الفرج الملطى : مختصر الدول ص ٢٤٠
(٧٤) التنوخى : الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ٨٧
(٧٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٧٧
(٧٦) وكان احمد بن صدقة طنبوريا مقدما حاذقا ، حسن الغناء ومحكم الصنعة ، وكان ينزل فى الشام فاستدعاه الخليفة العباسى المتوكل الى بغداد واجزل له الصلات (شمس الدين النواجى : حلبه الكميت ص ٦٣) كذلك ذهب زرياب المغنى والملحن المشهور مولى الخليفة المهدى ، الى بلاد الشام وبقى بها مدة طويلة تتلمذ على يديه كثير من المغنيين والمغنيات ثم رحل الى بنى امية فى الاندلس .
(المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٨٣) .
(٧٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٣٥

الدهان (٧٨) شاعرا وموسيقيا ملحنا كما كان يلعب على القانون ، كذلك كان الكمال القانوني من المشهورين فى الغنــاء فى بلاد الشــام فى عصره (٧٩) .

وذكر ابن حجــر (٨٠) « أن دنيــا بنت الاقباعى المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقــدم فى صناعتها فاستدعاها السلطان شعبان عــلى البريد الى مصر فأكرمها ، ثم وفدت على الملك الاشرف فحظيت عنده (٨١) » ومما يذكر عن السيدة دنيا المغنية انها عندما مثلت بين يدى السلطان الحسن بمصر طلبت منــه اســقاط المكوس على المغانى فأجابها (٨٢) اليه ، واستمر ذلك حتى نهاية دولة المماليك البحــرية (٨٣) . كذلك اشتهرت بدمشــق فرحــة بنت المخايلة المغنية ذات الصوت العذب والقد المياس (٨٤) . ومن المغنيــات التى ذاعت شــهرتهن فى بلاد الشام فى القرن السابع الهجرى وخاصة بين العسكر ، المغنية المعــروفة بالحضرمية ، وهى كما يقول ابن الساعى (٨٥) ، التى كانت مــع عرب « آل مرا » يوم وافوا دمشق لحــرب التتار فى زهاء أربعــة آلاف فارس فــكانت تغنيهم من الهودج سافرة وكانوا يرقصــون بتراقص السهارى .

وهكذا نرى أنه لم يخل عصر من تاريخ بلاد الشام الا وقد برز فيه جماعة من نوابغ الموسيقيين والمغنيين ، ويقول ابن عساكر (٨٦) « ومنذ الزمن الاول الى أيامنا ما خلت الشام من عواده وطنبورية وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة » وقد ذكر الكنجى (٨٧) ، ترجمة ستة وعشرين مغنيا فى دمشق منهم المؤذن والمنشد فى الاذكار والمغنى على الآلات الموســيقية . واذا كان الكنجى قد ذكر تراجم أهل الغنــاء فى دمشق فقط فما بالك بعددهم فى حلب وغيرها من المدن ، فقد عرفت حلب منذ أقدم العصور بغرام أهلها بالموسيقى .

كذلك زخرت بلاد الشــام بطــائفة من المغنيين والموسيقيين أقل شــهرة ومرتبــة من

---

(٧٨) ابو الفــــرج الملطى : مختصر الــدول ص ٢٢٧

(٧٩) التنوخى : الفرج بعد الشــــدة جـ ١

(٧٩) التنوخى : الفرج بعد الشــــدة جـ ١ ص ٨٧ ، كما وصفه عبد الرحمن بن الســــجف الدمشقى (سنة ٦٢٥ هـ / سنة ١٢٣٠ م) فقال :

لو كنت عاينت الكمال وجســـه ... اوتار قـــانون لـــه فى المجلس
لرأيت مفتــاح السرور بكفــه الـ ... يسرى وفى اليمنى مفتاح الانفس

(داود الانطاكى : تزيين الاســواق ص ١٦٣ ، ابن الاثير : جـ ٨ ص ٦١) .

(٨٠) ابن حجر : ابناء الغمر ص ٧١ (اخبار سنة ٧٧٨ هـ) .

(٨١) الابشيهى : المستطرف جـ ١ ص ١٦٤ .

(٨٢) لقد فرضت الدولة على المغنيين والمغنيات فى العصر المملوكى ضريبة ، عرفت باسم (ضمان المغانى) وهى جملة المكوس الاقطاعية (طرخان : النظم الاقطاعية ص ٨٧)

(٨٣) ابن حجــر : ابناء الغمر . ص ٧١ ، العينى : : عقد الجمان (اخبار سنة ٧٧٩ هـ) .

(٨٤) ابو الفدا : جـ ٢ ص ٧٣

(٨٥) ابن الساعى مختصر اخبار الخلفــــاء ص ٥٧ .

(٨٦) ابن عساكر : تاريخ دمشق ص ١٩٦

(٨٧) الكنجى : تراجم اهل الغناء ص ٣٧

الطائفة السالف الاشارة اليها ، وهم الـذين مارسوا الموسـيقى للتكسب ومنهـم من كان يخدم هذا الفن عشـقا له وحبا فيـه ، ومن هؤلاء طبقة من الرجال والنساء لا يستهان بها، كانت تخفى أمرها مخافة أن يرموا بما يثلم الشرف (٨٨) . ولعل السـبب فى هذا التخفى يرجع الى أن بعض الفقهـاء تشـددوا مـع المغنيـين بأجـر فعـدوهم « سـاقطين من العدالة (٨٩) » . هذا بينما نجد البعض الآخر،لا يجد حرجا فى حضـور مجـالس الغنـاء والموسـيقى نذكر منهـم قاضى القضـاه ، العز بن عبد السلام فقد كان من ورعه ونسكه، يحضر لسماع الموسيقى ، حتى أصـبح هناك مثل سائر يقول « ما أنت الا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام (٩٠) » . وصناعة الغناء كما يقول ابن خلدون (٩١) : آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لانها كمالية وأول ماينقطع من العمران عند اختلافه أو تراجعه » .

أما عن الآلات الموسيقية وأدوات الطرب التى استعملها أهل الغناء والموسيقى فى بلاد الشام فكثيرة ومتعددة ، بعضـها قد أخذ عن الفرس والانباط كالعود والصنج والزنج وهى آلة وترية ذات سبعة أوتار يشبه ايقاعها ايقاع الصنج والطنبور والعيروارات وهى آلة وترية تشبه الطنبور (٩٢) .

كذلك أخذوا بعض الآلاتهـم عن الروم كالاوعر وهى آلة وترية تحتوى عـلى سـتة عشرة وتر والسلبان وتحتوى عـلى أربعـة وعشرين وترا . واللوزا وهى كالربـاب مـن خشب وتحتوى على خمسـة أوتار والقيثارة ولها اثنى عشر وترا (٩٣) . ومن الآلات غـير الوترية ، أخذوا عن الروم الصليح المصنوع من جلود العجول والارغن (٩٤) . وأخذوا عن الهند آلة الكيكة (٩٥) وهى آلة وترية تحتوى على وتر واحد يشد على قرعة فيقـوم مقام العود والصنج ، هذا فضلا عما كان عند العرب من الدف والطبـل والصـفوح وهى الآلات الصـدمية التى تسـتخدم بالضرب أو الخشخشة (٩٦) . وآلات الصـفير وهى التى يضربون بها نفخا بالفم أو ما يقوم مقامه ومنها المزمار والفلوت والنفير والناى (٩٧) .

وعلى الجملة فقد كانت جميـع طبقات المجتمع الشامى فى العصـور الوسطى تطرب للموسيقى فلم يكن يخلو مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم ، أو نزهة من نزهاتهم

---

(٨٨) الكنجى : تراجم أهل الغناء ص ٤٥
(٨٩) ابن الاثير : جـ ٨ ص ٦١
(٩٠) ابن خلكان : وفيات الاعيـان جـ ٢ ص ٢٣٥
(٩١) ابن خلدون : المقدمة جـ ١ ص ١٤٤
(٩٢) الاصفهانى : الاغانى جـ ١ ص ٢٠
(٩٣) شمس الدين النواجى : حلبـة الكميت ص ٦٣
(٩٤) ابن خلكان : جـ ١ ص ٦٦
(٩٥) ابن عبد ربه : العقـد الفـريد جـ ٣ ص ١٨٦
(٩٦) ابو الفـرج الملطى : مختصر الـدول ص ٢٣٨ .
(٩٧) التنوخى : الفرج بعد الشـدة جـ ١ ص ١١٠

من أناس أتقنوا هذا الفن • وكانت الموسيقى والأنشاد من الامور المألوفة التى لا يمكن الاستغناء عنها (٩٨) •

ولم يقتصر الغناء والموسيقى على أهل المدن بل انتشر فى القرى والبوادى فكان لهم الغناء والحداد (٩٩) ، وهو نوع من الغناء يتغنى به الحداة فى سوق ابلهم والفتيان فى قضاء خلواتهم • كذلك كانوا يترنمون بالشعر أو يعبرون (١٠٠) بغير الشعر •

أما البوادى الشامية القريبة من المدن أو القرى ، فقد كان الغناء عندهم على ثلاثة ألحان وهى ، النصب وهو غناء الركبان وغناء الفتيان فى المراثى ويسمى الغناء الخبابى (١٠١) واللحن الثانى هو « السناد » (١٠٢) وهو لحن ثقيل ذو الترجيع الكثير والنغمات والنبرات • أما « الهزج » فهو الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف (١٠٣) والمزمار •

ومن توابع مجالس الغناء والطرب المضحكون والماجنون ، ولعل من أشهر من عرفهم التاريخ فى بلاد الشام أشعب فى دولة الامويين وأبو الحسن الخليع الدمشقى فى العصر العباسى وغيرهما كثيرون • وكانوا اذا عقدت مجالس الطرب والغناء والانس والسمر ودارت الاقداح ، لبسوا ملابس يقلدون بها الدببة والقرود ويعلقون فى أعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك المجتمعين (١٠٤) •

ومن وسائل التسلية التى شاعت بين كافة الطبقات فى بلاد العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، انواع متعددة من التمثيل الشعبى غير المباشر مثل ماعرف باسم «صندوق الدنيا (١٠٥)» وهو عبارة عن عرض مستمر متتابع لمجموعة من صور الابطال والاحداث وهذا النمط يدخل فى باب التمثيل على سبيل المجاز ، لان عارض الصور يتخذ منهج المنشد أو القصاص فى السرد وتلوين الصوت (١٠٦) • ونوع آخر عرف باسم « القره كوز » تستخدم فيه

---

(٩٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٦

(١٠٠) التعبير بالعين والباء : هو ترنيم القراءة لغير الشعر (القاموس المحيط) •

(١٠١) « الغناء الجنابى » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه ناب بن عبد الله يزعمون ان اصل الحداء منه وهو يخرج من الطويل فى العروض (الاغانى ج ٢ ص ١٣٠ (الكامل للمبرد ص ٣٧٧) (ابن سيده ج ٦ ص ١٢٧) •

(١٠٢) السناد على ستة طرق منها الثقيل الاول وحفيفه والثقيل الثانى وحفيفه • (الاغانى ج ٢ ص ١٣١ ، ابن سيدة ج ٦ ص ١٢٧) •

(١٠٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٨٦

(١٠٤) الاصفهانى : الاغانى ج ٢٠ ص ٩٢

(١٠٥) فؤاد حسنين : محمد بن دانيال ص ١٦٥ (نشرت فى ملة الثقافة عدد (٢٠٨) سنة ١٩٤٢) •

(١٠٦) عبد الحميد يونس : خيال الظل ص ١٠ (المكتبة الثقافية عدد ١٣٨ سنة ١٩٦٥) •

الدمى وهو يشبه « صندوق الدنيا » فى قدرة أصحابه على حرية الحركة والتنقل من مكان الى مكان ولا يحتاج الى ضوء خاص ، وهوبذلك يحتاج الى مسرح مكشوف (١٠٧) .

« خيال الظل » نوع من التمثيل الشعبى غير المباشر لعب دورا لايستهان به فى جميع الاوساط والطبقات فى البلاد الاسلامية فى العصور الوسطى (١٠٨) ، وتحدث عنه المؤرخون والشعراء والادباء ورجال السياسة ، وهو يتوسل بالصورة والضوء معا ، ويحتاج تبعا لذلك الى مكان محكم يتركز فيه الضوء على التمثيل ، ومع ذلك فقد اتسم بالمرونة وبنوع من الحركة تجعله (١٠٩) صالحا لان يؤدى فى فناء دار أو داخل فسطاط معين ، ومكان مسرح خيال الظل كان مسرحا متنقلا تتولاه فرق معينة تجوب المدينة الكبيرة ويستأجرها الخواص وأشباه الخواص ، وترحل الى الريف فى المواسم والاعياد وحفلات العرس والختان ، وتزدهر فى الاعياد ومواسم الحج والموالد وما أنيها من المجتمعات المحتاجة الى التسلية والترفيه واشاعة السرور (١١٠)) لوحة رقم «٦٠») .

والمؤكد (١١١) ان خيال الظل كان مزدهرا فى مصر والشام فى العصر الفاطمى واستطاع بما يؤديه من مواعظ أن يتجاوز مجرد السمر البرىء وغير البرىء السواء وهذا الاقتران بالوعظ والارشاد تسجله ثلاثة أبيات مشهورة منسوبة الى وجيه الدين ضياء بن عبد الكريم (١١٢) من أعيان القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) اذ يقول :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصا واصواتا يخالف بعضها ... بعضا وأشكالا بغير وفاق
وتفنى جميعا والمحرك باقى

وهناك ألفاظ واصطلاحات معينة عرف بها لاعبو خيال الظل ، فقد عرف اللاعب المتخصص

---

(١٠٧) Paul Kahle: The Arabic Shadow Play P. 31

(١٠٨) لقد كانت مصر صاحبة السبق فى هذا الميدان وذلك لمجىء ابن دانيال اليها كما سنوضح ذلك فيما بعد .

(١٠٩) عبد الحميد يونس : خيال الظل ص ١١

(١١٠) دائرة المعارف الاسلامية . مادة خيال الظل (المترجمة) .

(١١١) اعتمدوا فى ذلك على الرواية الاتية : اخرج السلطان الملك الناصر صلاح الدين من قصور الفاطميين من يعانى « خيال الظل » ليريه القاضى الفاضل ، فقام عند الشروع فيه ، فقال له الملك « ان كان حراما فما تحضره » . وكان حديث عهد بخدمته قبل ان يلى السلطنة فما اراد ان يكدر عليه فقعد الى اخره . وكان حديث عهد ان يكدر عليه فقعد الى آخره ، فلما انقضى قال للملك ، كيف رأيت ذلك ؟ فقال : رأيت موعظة عظيمة ، رأيت دولا تمضى ، ودولا تأتى ، ولما طوى الازار ، طى السجل للكتب اذ للمحرك واحد . « المراجع » : ابن اياس : بدائع الزهور ص ٢٢ ، فؤاد حسنين : محمد بن دانيال ج ٢ ص ٢٤٧ ، احمد تيمور : خيال الظل ص ١٦٥ ، عبد الحميد يونس : خيال الظل ص ٢٢) .
Paul Kahle: The Arabic Shadow Pley. 34.

(١١٢) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٤٨

فى تحريك الشخوص باسم « المخايل (١١٣) » جاء هذا اللفظ فى شعر صلاح الدين ابن ابيك انصفدى (١١٤) ، وهو من شعراء القرم الثامن انهجرى (الرابع عشر الميلادى (١١٥)) .

وهناك رئيس للخايلين يقوم على الاخراج يعرف (بالريس) وفى ذلك يقول ابن دنيا (١١٦)، اذا فرع الريس من هـــذا الانشـــاد (أى الاستهلاك) يشرع فيما بنى وشاد ، ثم ينادى ياطيف الخيال ، ياكامل الاعتدال ، فيخـــرج شخص أحدب وينقض كالبازى الاشـــهب ، فيسلم سلام القادم ويقف مطرقا كالواجم ، فيرد عليه الريس السلام ، وكان المقـــام « يقوم بالاســـتفتاح والاســـتهلال ، « والحازق (١١٧) » هو الذى يقوم بتحـريك شخوص خيال الظل، وكان يشترط فيه أن يكون حاد الصوت حتى يستطيع أن يركز الانتباه فى حفل يغلب الصخب عليه (١١٨) وهناك « الرخم » الذى يقـوم بوظيفة المهـــرج فيأتى ببعض الحركات المضحكة سواء أكان ذلك فى صورته التى تعرض على الشاشة أو بلاده حركتـــه وانتقاله أو فى عـدم اتســـاق افكاره ، وكان ظهوره على الشاشة بمثابة الفاصـــل بـين المشاهد (١١٩) .

وكانت تمثيليات خيال الظل تعرف باسم البابات (١٢٠) . وكانت وكانت كثيرة ومتعددة حتى تناسب كل مقام فهناك « الحجية » الخاصة بالحج « والاعراس » . كما أن هناك الكثير من البابات التى تصور النقد السياسى ، مثل بابة الامير وصال (١٢١) الذى يصور فيها ابن دنيال

---

(١١٣) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٣ ، ابو المحاسن : حوادث الدهور جـ ١ ص ١١٧

(١١٤) ابن اياس : بدائع الزهـــور جـ ٢ ص ٣٣

(١١٥)

فحـــايل قد بدت عليـــه — فحايل البـدر فى الكمال
تريــك باباته فنـــونا — تروق فى الحسن والجمال
فقد غدا وصـــله يقينا — احسن ما كان فى الخيال

(١١٦) ابن دانيال الموصـلى (شمس الدين محمد) طيف الخيال ورقة (١٧) (مخطوطة فى دار الكتب الخزانة التيمورية ١٦ القاب) محمد غنيمى هلال : الادب المقارن ص ١٧٠ (والبابة هى تمثيلية خيال الظل) .

(١١٧) الحازق بالزاى : لغة معناه ارتفاع الصوت وحدته (القاموس المحيط)

(١١٨) عبد الحميد يونس : خيـــال الظل ص ٣٦

(١١٩) المرجع السابق ص ٣٧ ، Paule Kahle: Ibid P. 35.

(١٢٠) يعتبر ابن دانيال ابو البابات النقدية ، وابن دانيـــال هذا هو شمس الدين محمد بن دانيال ولد بالموصـل سنة ٦٤٦ هـ وحفظ القرآن فى مكاتبهـا وتدرب على الطب والكحـالة (طب العيون ببيمارستاناتها . وهاجر ابن دانيال من الموصل بعد ان اجتاحها المغول سنة ٦٦٥ هـ الى القاهرة واستقر بها حيث اكمل فيها دراسة الطب الذى كان يحقق منه وجـوده المادى فحسب ، وكانت نفســـه نزاعه الى الادب فتخرج على ادبائهم وشعرائهم . وقد نبع ابن دانيال كشاعر ساخر ومؤلف للتمثيليات الهزلية وبرغم مجونه وخلاعته اشتهر باسم الحكيم لانه كان طبيبـــا (ابن حبيب : دره الاسلاك جـ ١ ص ١٧٨ ، ابن خلكـان : وفيـــات الاعيـــان جـ ٢ ص ٢٤٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٤

(١٢١) كان البـــاعث على تأليف « الاميروصال » كما يقول ابن دانيال هو رغبتـه فى ان يملأ الفراغ الذى احدثه السلطان بيبرس بالقضاء على الخلاعة والمجون (ابراهيم حمادة : خيـال الظل وتمثيليات ابن دانيال ص ٦٩ ، Paule Kahle. op. cit. P. 39.

الخليفة العباسى الذى استقدمه السلطان من بغداد واحتفى به ثم صار بعد ذلك دمية فى يده حتى كان الشعب يطلق على الخليفة العباسى المسلوب السلطة والارادة « حاكم الريح » ومن البابات الناقده كذلك « عجيب وغريب (١٢٣) » الذى ينقد فيه ابن دنيال المجتمع بجميع طبقاته الذى عايشه بنفسه عندما كان يمارس فهد الكحالة بحانوته « داخل باب الفتوح (١٢٤) بالجمالية اما بابه « المتيم والضائع اليتم (١٢٥) » فهى تختلف عن البابتين السابقتين لابن دنيال فهى نقد للغزل وللحب والمحبين •

والى جانب بابات ابن دنيال التى ذاعت شهرتها فى القرن السابع الهجرى ، هناك بابات وتمثيليات شعبية سبقته تناولت جميع نواحى الحياة مثل « حسن ظنى » التى تناولت حياة الريف و « جرب العجم » و « لعبة النار (١٢٦) » التى تناولت حرب التتار والحروب الصليبية وما تخلف عنها من خراب ودمار فى القرنين السادس والسابع للهجرى •

أما عن طريقة عرض هذه التمثيليات والبابات وخيال الظل فتتلخص فى عمل عرائس وصور من الجلد (انظر لوحتى رقمى ٦٠ ، ٦١) أو الورق المقوى ، وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الستارة ليراها النظارة من الوجهة الاخرى ، وتحتوى العرائس والشخوص على ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة الحركة ، ويحركها « الحازق » بـ عصا فى يده حسب الحوار الذى ينطلق به « المقدم (١٢٧) » •

ومن أنواع التسلية الشعبية فى بلاد الشام فى العصور الوسطى ، انشاء البلاليق (١٢٨) وهو عبارة عن نوع من الادب الفكاهى ، ينشده شاعر تعاونه جوقه من المغنين وغالبا ما يصاحب ذلك الرقص • وكان موضوع البلاليق عادة هو الفخر والبطولة والشجاعة وكثيرا ما يكون من بين الموضوعات التعريض ببعض الشخصيات دعابة وتندرا (١٢٩) •

---

(١٢٢) سهير القلماوى : سيرة الظاهر بيبرس ج ٩ ص ٤١

(١٢٣) جورج يعقوب : طيف الخيال لابن دانيال ج ٣ ص ٣٧) •

(١٢٤) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٥٣

(١٢٥) يبين ابن دنيال موضوع هذه البابة فيقول : ارتجلت لك هذه البابه كرزما الاجابة ، وهى بابه المقيم والضائع اليتيم وضمنتها طرفا من أحوال المحبين وطرفا من الغزل (جورج يعقوب ج ٣ ص ٣٧) •

(١٢٦) فؤاد حسنين : قصصنا الشعبى ص ١٠٤ ، عبد الحميد يونس : خيال الظل ص ٨٥ — ٩٠ •

(١٢٧) • Paul Kahle: op. cit. 49

(١٢٨) ابو المحاسن : المنهل الصافى ج ١ ورقة ٣٠٤ ، ٣٠٥

(١٢٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٧

وهناك أنواع كثيرة للتسلية الهادئة البريئة كلعب النرد والشطرنج، ولعبة الشطرنج من أنواع التسلية التى عرفها المسلون منذ عهد الرشيد ، فهو أول من لعبها من الخلفاء وقرب اليه اللعاب وأجرى عليهم الارزاق (١٣٠) ، ثم انتشرت بعد ذلك فى جميع انحاء الدولة الاسلامية ، الا أنها لاقت رواجا وتشجيعا كبيرا فى بلاد الشام فى العصر المملوكى (١٣١) فى القرن السابع الهجرى ، حتى نسب بعض الاشخاص (١٣٢) اليها فقد ترجم ابن حجر لشخص يدعى أحمد بن محد الشطرنجى (١٣٣).

وترجع لعبة الشطرنج فى أصلها الى الهند ، فقد وجدت مدونة باللغة السنسكريتية ثم نقلت الى الاسلام عن طريق الفرس ومن ثم فان الكثير من الاصطلاحات المستعملة فيها ترجع الى أصول فارسية (١٣٤) . وقد ألف فيها كثير من كتاب (١٣٥) العرب وخاصة فى القرن الثالث عشر الميلادى فى العالم الاسلامى فحسب بل والعالم العربى (١٣٦) أيضا . فقد اغرم بهده اللعبة وغيرها من تراث المسلمين (١٣٧) ملك قشتالة وليون ، الفونس (١٣٨) الخاص الملقب بالحكيم (El-Sabia)ووضع فيها مؤلفا خاصا هو كتاب « الالعاب (١٣٩) » . (لوحة رقم «٦٢») .

وبرغم زعم الناس فى ذلك الوقت، أن لعبة الشطرنج ، هى لعبة الملوك والسلاطين والامراء لا « للفقراء والأراذل » أو كما جاء فى المثل السائر فى تلك العصور « مثل الفقير الذى يلعب

---

(١٣٠) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ص ٣٦٥
(١٣١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٠٧
(١٣٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٣٠
(١٣٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ص ٢٥٣
(١٣٤) H.J.R. Murray: Ahistory of Chess P. 5 (Oxford 1913).

(١٣٥) ابو زكريا الحكيم : كتاب فى الشطرنج، مخطوطة فى الشطرنج : مجهولة المؤلف من القرن ٩ هـ (بدار الكتب المصرية) .

(١٣٦) لقد ذكر الشطرنج للمرة الاولى فى اوربا فى اسبانيا ، فقد عثر على وصيتين لفردين من اسرة نبلاء برشلونة يرجع عهدها الى ما بين (سنة ١٠٠٨ م ـ سنة ١٠١٧ م) يوهب فيهما بيادق الشطرنج الى اشخاص معينين (المترجم)
J.B. Trend: Spain & Portuguei P. 64 (The Legacy of Islam: vol I).

(١٣٧) تراث الاسلام ص ٦٢ (المترجم) .

(١٣٨) حكم الفونس الخامس من (سنة ١٢٥٢ الى سنة ١٢٨٤ م) وكان من اكبر دعاة الثقافة الاسلامية فى اسبانيا المسيحية ، فقد تم تأليف عدد كبير من الكتب فى رعايته أو تحت اشرافه المباشر . وقد جمع أكثر هذه الكتب من المصادر العربية .

(١٣٩) ليس من شك فى ان الفونس اعتمد فى اللوحة رقم (٦٢) التى تمثل اللاعبين فى ملابس كتابه « الالعاب » على مصادر عربية ، يؤكد ذلك شرقية يصاحبهم موسيقيون شرقيون ويرى الموسيقيون يلعبون ، بينما تمسك ايديهم اليسرى بالاتهم مستعدين للعزف اذا ما طلب منه ذلك . (واللوحة مأخوذة من مخلوط الفونسو الحكيم بمكتبة الاسكوريال بمدريد) . وهى ترجع الى القرن الثالث عشر الميلادى .. (تراث الاسلام ج ١ ص ٦٢) .

الشطرنج يمثل الاعمى ينظر فى النجوم (١٤٠) »، الا أن الكثير من المراجع تذكر أنها كانت منتشرة بين مختلف الطبقات كالتجار والفقهاء وغيرهم (١٤١) .

وهكذا نرى أن المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابع الهجرى (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) قد زاول العديد من ضروب الرياضة والصيد وألعاب التسلية التى تدل دلالة واضحة على مدى ماوصل اليه هذا المجتمع من تمدين ورقى رغم ما كان يعانيه من ويلات الحروب الصليبية والتترية وما تعرض له من الخراب والدمار .

---

(١٤٠) ابو زكريا الحكيم : كتاب فى الشطرنج ص ١٤

(١٤١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٩٦ السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٣٠

البَابُ الخامِسُ

الباب الخامس

التأثيرات المتبادلة بين المجتمعين الاسلامى والصليبى

الفصل الاول ــ اثر الحروب الصليبية على المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام :

(أ) الاثر الاقتصادى . (ب) الاثر السياسى .

الفصل الثانى ــ أثر المجتمع الشامى فى المجتمع الغربى فى عصر الحروب الصليبية :

(أ) الاثر الاقتصادى والسياسى . (ب) الاثر الثقافى .

الفصل الثالث ــ أثر العمارة الاسلامية على العمارة فى الغرب الصليبى :

(أ) الاستحكامات الحربية . (ب) العمائر المدنية .

الفصل الرابع ــ أثر الحروب الصليبية على الفكر العسكرى الصليبى :

قبل أن نختتم موضوع المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أى فى عصر الحروب الصليبية ، يود الباحث أن يبين فى ايجاز النواحى التى تأثر بها هذا المجتمع الاسلامى من الصليبيين الذين مكثوا فى بلاد الشام نحوا من ثلاثة قرون . وليس من شك فى أن بعض هذه المؤثرات قد تغلغلت فى المجتمع الشامى خلال هذه السنوات الطوال حتى أصبح البعض منها وان كان يسيرا يختلط بعاداته وتقاليده كما يجدر الاشارة الى المؤثرات الاسلامية التى نقلها الصليبيون الى أوربا والتى أدت الى الاخذ بيد الحضارة الاوروبية عابرة بها عصورها المظلمة الى عصر النهضة .

لقد كان اعلان الحروب الصليبية عام ١٠٩٥ م / ٤٩١ هـ بمثابة ايذان بقيام علاقات من نوع خاص بين الشرق والغرب شملت كل نواحى الحياة . ولما كانت الجيوش هى واجهة الامم بحضاراتها وثقافاتها ومبادئها وقيمها ، فان الحروب الصليبية كانت الميدان الذى تقابلت فيه الثقافتين المتحاربتين الاسلامية والاوروبية الصليبية ، وكان لابد أن يكون النصر فى النهاية لاصحاب الحضارة والثقافة المتقدمة .

لقد وفد الغرب غازيا للشرق الاسلامى بجماعات مختلفة المشارب والاهواء تمثلت فى الحملة الصليبية الاولى ، فقد جاء السواد الاعظم منها ليتخلص من ربقة العبودية والبعض الثانى ضم النبلاء والامراء الذين أرادوا تكوين امارات خاصة بهم فى بلاد الشام والبعض الثالث وفد على رأس الحملات التى تلت هذه الحملة وهم قلة قليلة من الملوك الذين نشدوا المجد الشخصى تحت لواء الصليب (١).

ولايمكن أن يخطر على بال أحد أن الغرب الصليبى والحالة هذه ، قد جاء طلبا للعلم وانما جاء ليؤسس دويلات وامارات صليبية فى الشرق الاسلامى لذلك لا نستطيع أن نقول أن هناك تأثيرات قد انتقلت من أوروبا أو الغرب الى المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام الا بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وتكوين الامارات الصليبية . على أن الحروب الصليبية لم تكن هى أول اتصال بين العالم الاسلامى وبين الغرب المسيحى ، ذلك أن بوادرا ظهرت فى أوروبا فى نهاية القرن الثامن الميلادى تنبأ عن وجود اتصال وثيق سبق أن وجد طريقة بين الطرفين الاسلامى والمسيحى ، فقد تأثر الادب الغربى بالادب الشعبى الاسلامى عن طريق أسبانيا (٢) . اما المعبر الثانى للتأثيرات العربية كان صقلية التى خضعت للحكم الاسلامى من القرن التاسع الميلادى الى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكان من أهم حكامها المسلمين خلفاء الدولة الفاطمية (٣) ، لذلك فقد ظلت صقلية فى القرنين العاشر

(١) Tout: The Empire and the Papacy. P. 473.
(٢) Chapman: A History of Spain P. 117
(٣) Dozy: (R.P.A): Moslems in Spain. P. 293.

والحـــادى عشر جزءا لا يتجزأ من الدولة الفاطمية فى مصر ومنها أنتشرت اللغة العربية الى ايطاليا ثم الى باقى أوروبا (٤) .

وقد اتسمت الفترة التى سبقت الحروب الصليبية بوجود اتصالات فردية محدودة ذات طابع رسمى تمثل هذا فى تبادل الهدايا والكتب بين حكام الشرق وملوك الغرب عن طــريق السفراء ، هذا فضلا عن الزيارات الدينية التى كان يقوم بها حجاج الغرب الاوروبى الى بيت المقدس ، الا أن هذه الزيارات لم تكن ســوى زيارات فردية ، ولــم يكن ليســمح لهؤلاء الزائرين القلائل بالتجول فى البلدان الانسلامية الا فى قيود معينة . أما العـــلاقات بين مصر والشام والغرب الاوروبى قبيل الحـــروب الصليبية فقد كانت جـــد محدودة (٥) . ثم مالبثت أن جاءت الحملة الصليبية الاولى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى واستطاعت أن تثبت دعائمها فى بلاد الشام . وكان لابـــد لهؤلاء الصليبيين ــ وهم فى بلاد غـــريبة معادية ــ أن يكونوا على اتصال بالوطن الام أى أوروبا . فبدأ الاتصال عن طريق موانى الشام مكونين بها رأس جسر بربطهم بالغرب الاوروبى (٦) . كما ان هؤلاء المحاربين الذين عادوا الى أوطانهم فى أوروبا اعتقادا منهم أن المهمة التى قاتلوا من أجلها قد أنتهت باستيلائهم على بيت المقدس (٧) ، قد حملوا معهم مشاهد رأوها فى بلاد الشام قصوا منها على أقرانهم .

---

(٤) H.R. Gibb: The Legacy of Islam. Litrature. vol I.P. 149 & Leo Wiener: Contribution To-wards A History of Arabico-Gothic Culture vol I P. 120 (New York 1917).

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشـــور : اوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٥٨٧

(٦) Schlumberger, g: Les Principautés du Levant. P. 37.

(٧) Vincent (H.), Abel. (R.): Jerusalem. P. 132

الفصل الأول

أثر الحروب الصليبية على المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام :

(أ) الاثر الاقتصادى :

ظهر على قمة الاثار التى أحدثتها الحروب الصليبية داخل المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ، الاثر التجارى الذى يمكن أن نطلق عليه ازدياد النشاط التجارى (٨) فمن المسلم به أن الصليبيين ما جاءوا الى بلاد الشام الا من أجل اسباب وبواعث كان من أهمها غنى هذه البلاد • فما استقر الصليبيون فى بلاد الشام حتى نشط تجارهم من أهل ايطاليا من البنادقة والجنوية والبيازنة وأهل مرسيليا والأسبانيا وقاموا بنشاط تجارى كبير بين بلاد الشام وأوروبا ، فاسسوا لانفسهم مراكز واحياء ثابتة فى كل من عكا وصور وصيدا والسويدية واللاذقية وغيرها (٩) • وعن طريق هذه المراكز احتكروا تصدير حاصلات الشرق كالمنسوجات القطنية والحريرية والاوانى الزجاجية واللؤلؤ والاحجار الثمينة الواردة من سيلان والهند والعاج والاخشاب والعقاقير والتوابل الواردة من الشرق الاقصى وتصديرها الى أوروبا (١٠) وتدعم مركز الصليبيين التجارى فى بلاد الشام فى القرن الثانى عشر الميلادى فتدفقت حاصلات بلاد العرب والعراق الى دمشق ومنها الى موانى بلاد الشام ثم الى أوروبا (١١) الا أن هذا المركز التجارى المتفوق للصليبيين فى بلاد الشام ما لبث أن أضمحل فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة للغزو المغولى ، فقد شجع المغول التجار على اتخاذ طريقهم من الشرق الى الغرب عبر امبراطوريتهم فكان الطريق من الصين الى تركستان فموانى البحر الاسود وقد تأثر النشاط التجارى فى بلاد الشام تأثيرا كبيرا لم يكتفوا بتغيير مسار الطريق التجارى البرى السابق الاشارة اليه ، بل قفلوا الريق الاخر الذى كان يبدأ من الخليج العربى الى بغداد فدمشق ، ونجم عن ذلك انتقال مركز النشاط التجارى الى مصر التى كانت تأتيها تجارة الشرق الاقصى عن طريق البحر الاحمر ثم الى دمياط والاسكندرية ، فكانتا حلقة الوصل بين توابل وحير وبخور الشرق الاقصى وسفن البنادقة والبيازنة والجنوية وتجار مرسيليا وأسبانيا (١٢) •

---

(٨) Fletcher (C.R.L) The making of Western Europe P. 227.

(٩) Ebersolt. (J) Orient et Occideit. P. 174.

(١٠) Heyd (W): Hist du Commerce du Levant (Leiprig 1936) I, P.P. 131 - 132.

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٦٢

(١٢) Heyd: Ibid; II. P. 73.

ولا شك أن هذه التجارة قد عادت بالخير الوفير على الغرب الصليبى الى جانب ما كانت تنقله اليهم من حضارات الشرق عن طريق حركة التجارة الدائبة التى استمرت طوال فترة العصور الوسطى وعن طريق التحف التى كان ينقلها التجار الاوروبيين الى اوروبا الامر الذى اطلع المجتمع الاوروبى على أنواع من الصناعات الصغرى لم يكن لهم بها عهد (١٣) ، أما المماليك فقد أفادوا اقتصاديا من هذه التجارة (١٤) .

(ب) الاثر السياسى :

أما الاثار السياسية التى خلفتها الحروب الصليبية داخل المجتمع الشامى فيمكن ايجازها فى اثرين هامين كان لهما أثرهما على ذلك المجتمع الذى عانى الكثير خاصة فى عهده بهذه الحروب .

الاول : لم يكن نجاح الحملة الصليبية الاولى فى بلاد الشام وشمال العراق فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى الا نتيجة التفكك السياسى الذى تفشى فى بلاد الشام فى ذلك الوقت ، الامر الذى جعلها لاتستطيع ان تواجه الخطر الصليبى (١٥) . فقد كانت الخلافة العباسية فى بغداد فى حالة يرثى لها من الضعف وكذلك الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية فى القاهرة . هكذا كان حال المسلمين فى بلاد الشام متفرقين تعوزهم تلك الشخصية القوية التى تستطيع أن تجمعهم تحت قيادتها . ولاشك أن هذه الحاجة الماسة التى أمس فيها المسلمون فى بلاد الشام وفى العالم الاسلامى أجمع ، هى التى خلقت المناخ المناسب لظهور شخصيات هامة كشخصية عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الايوبى والبيت الايوبى الذى اخذ على عاتقه تخليص بلاد الشام من الخطر الصليبى (١٦) . ثم أخذ سلاطين المماليك على عاتقهم الاستمرار فى الجهاد لتصفية الخطر الصليبى فى بلاد الشام ،تدفعهم حميتهم الدينية الناتجة عن حداثة دخولهم فى الاسلام فقد كانوا فى حاجة ماسة لسند شرعى يدعم حكمهم وهم من أصول غير حرة فرموا بثقلهم فى محاربة الصليبيين ثم المغول (١٧) .

واذا كانت الحروب الصليبية قد استمرت مدة طويلة فقد كان السلطان تلو الآخر لا يأل جهدا للدخول فى غمارها بعدده وعدته ، مما كان له أكبر الاثر فى استمرار دولتهم فهى المجال لاظهار كفائتهم الحربية (١٨) . بل خلقت الانتصارات الملوكية على الصليبيين كانتصارات

(١٣) Grousset (R): L'Empire du Levant. P. 146.
(١٤) Byrne (E.H): Genoese Colonies in Syria. P. 96
(١٥) Amedroz (H), Margoliouth (D): The Eclipse of the Abbasid Caliphate. P. 212.
(١٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٣
(١٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠
(١٨) ابو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٥٨هـ

الظاهر بيبرس [19] والمنصور قلاوون والاشرف خليل ، سببا هاما لوجود المماليك فى مصر والشام [20] • ولهذا فان رد فعل الخطر الخارجى الذى تعرضت له بلاد الشام بقدوم الحملات الصليبية كان من أقوى العوامل السياسية التى دعمت الوجود الايوبى والمملوكى فى مصر والشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر •

الثانى : ولا ننسى ان الحروب الصليبية كانت نتيجة للنداءات المتكررة للامبراطورية البيزنطية التى استنجدت فيها بالغرب المسيحى لحمايتها من التهديد السلجوقى ، ولبت أوروبا النداء وسيرت الحملات الصليبية نحو الشرق، واستطاعت القوى المسلحة الصليبية أن تدعم وجودها فى آسيا الصغرى والشام وكونت الامارات وسيطرت على بيت المقدس ، الا أن القسطنطينية سرعان ما وجدت نفسها قد استجارت من الرمضاء بالنار وعانت من هذه الحملات وما احدثته فى البلقان وآسيا الصغرى من تخريب وتدمير أثناء تقدمها نحو بلاد الشام [21] •ثم مالبثت أن دخلت الامبراطورية البيزنطية فى نزاع مرير مع الصليبيين حول أحقية كل منهما فى ملكية المدن التى فتحها الصليبيون فى بلاد الشام وخاصة انطاكية [22]، ذلك النزاع الذى استنفد البقية الباقية من قوة الامبراطورية البيزنطية الامر لذى ترتب عليه سقوط القسطنطينية فى يد الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠٠ هـ / سنة ١٢٠٤ م ، بل أقام الصليبيون امبراطورية لاتينية اقطاعية مكان الامبراطورية البيزنطية استمرت أكثر من نصف قرن ، استطاعت بعدها عام ٦٦٥ هـ / سنة ١٢٦١م أن تعود للحياة مرة أخرى الا أنها كانت هزيلة ضعيفة [23] • وبالتالى تخلصت بلاد الشام من خطر هذه الامبراطورية البيزنطية التى كانت دائما مصدر قلق للمجتمع الاسلامى فى بلاد الشام •

---

(١٩) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٨

(٢٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ص ١٠٢

(٢١) Thompson: Economic and Social History of the middle Ages vol. I P. 393.

(٢٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ص ١٢٦٧

الفصل الثانى

أثر المجتمع الشـــامى فى المجتمع الغربى فى عصر الحروب الصليبية :

(أ) الاثر الاقتصادى والسياسى :

أثرت الحروب الصليبية فى النظام الاقطاعى الغربى . ذلك أن الجيش الصليبى كان يحارب فى منطقة تبعد كثيرا عن أوروبا ، وكما نعرف فان الجيوش تحتاج لمدد لا ينقطع من الاموال كى تستمر ، مهمـــا كانت غلـــة الاراضى والاقطاعات التى فى حوزة المنضـــمين لتلك الجيوش ، ناهيك عما يسببه بعد الشـــقة بين القاعدة أى اوروبا والجيش الذى يحارب فى بلاد الشام من صعوبات بالاضافة الى الاموال التى بددت أثناء هذه الرحلة الطويلة . ولمـــا كان الغرب المسيحى مجبر على اتمام ما شرع فيه ، كان لزاما عليه توفير الاموال اللازمـــة لتستمر رحى الحرب الصليبية ، فباع الكثير من الصليبيين الكثير من ممتلكاتهم وأراضـــيهم فانخفضت أثمان الاراضى والعقارات فى أوروبا فى العصور الوسطى لكثرة العرض (١) . وقد استغل اليهود كثرة اقبال الصليبيين على بيع عقاراتهم وأراضيهم ، فأقرضوا الصـــليبيين بالربا الفاحش ، وهذا يفسر لنـــا السبب فى سلسلة الاضطهادات التى تعرض لها اليهود فى اوروبا زمن الحروب الصليبية (٢) . وكان من أثر بيع الصليبيين ممتلكاتهم أن اضطرب النظام الاقطاعى مما أدى الى اختلال نظام الضرائب الاقطاعية ، الامر الذى أجبر ملوك أوروبا على فرض ضرائب جديدة فى نوعهـــا (هى ضريبة العشور) وأول من استنها لويس السابع عند شروعه فى قيادة الحملة الصـــليبية الثانية لاحتياجه للمال الذى يمول به هـــذه الحملة ففرض ضريبة العشر على جميـــع المنقولات الخاصة برجال الدين فى مملكته ، واقتدى به كل من فيليب اغسطس وريتشارد قلب الاسد ففرضوا ضريبة العشور عـــلى رجال الدين والعلمانيين عند الاستعداد للحملة الصـــليبية الثالثة . وقد عرفت هذه الضريبة باسم (عشور صلاح الدين) Saladin Tithe (٣) .

نضـــيف الى ذلك اختلال الزراعة وتحول الاقتصاد الاوروبى نحو التجارة نتيجة لرواج التجـــارة الآتيـــة من الشرق خاصـــة من بلاد الشام . وقد أسهمت فى هذا الرواج

---

(١) Thompson. Economic and Social History of the Middle Ages. vol I. P. 393.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشـــور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٧٤ ، نخص بالذكر مذبحة نتانيا التى قامت بها الحملة الصليبية الاولى ضد اليهود .

(٣) Thompson: Economic and Social Hist of the middle Ages (2 vols) I.P.P. 393 - 394

مدن جنوب أوروبا مثل البندقية وجنوا وبيزا ومارسيليا وناربون وبرشـــلونة وأمالفى ، واستطاعت ان تسوق صادرات الشرق فى أقليم لمبارديا فلاندرز وحوض الراين فى وســـط أوروبا (٤) • ونتيجة لحركة الرواج التجارى هذه ، حصلت المدن التجارية عـلى اعترافات من السادة الاقطاعيين تنص على احقيتهـــا وحريتها فى التصرف فى النـــواحى الادارية والقضائية والمالية ، مما جعلها مثلا تحتذيه بقية المدن الاوروبية حتى صارت كل مدينة بمثابة (كومون) أى وحدة سياسية واقتصــــادية مستقلة فى شئونها الداخلية ، وبالتالى اضطلعت بدور كبير فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتمـــاعية فى اوروبا (٥) فى العصـــور الوسطى •

وكان من نتيجة نشاط التجارة فى اوروبا العصور الوسطى أن نشطت أعمال المصـــارف وحسنت طرق التجارة بل انشـــئت اخــــرى جديدة ، وازدهرت الاسواق ، وتركز الاعتماد على الطرق البحرية والسفن فى الاتصـــال على الطرق البحرية والسفن فى الاتصـــالات التجارية وغير التجارية مما أدى الى انشـــاء طرق ملاحية منتظمة بين البلدان الاوربية بعضها وبعض ، وبينها وبين بعض بلدان الشرق (٦) • وقد ساعد على ذلك حرص سلاطين المماليك على تنشيط التجارة المصرية والشـــامية بتوثيق صلاتهم بالغرب ، فقد رحبوا بالتجار الايطاليين فى موانى مصر والشـــام ، ومنحوهم بعض الامتيازات ، فقد عقد الظاهر بيبرس معاهدات تجارية مع جنـــوة ، ومنح البنادقة امتيازات سهلت عليهم سبل التجارة ، وأباحت لتجارهم حق التقاضى أمام قناصلتهم وفقا لقوانينهم الخاصة • وقد كان لهذه الجمهوريات قناصـــل فى الاسكندرية ودمياط ورشيد وبعض مـــدن الشام التجارية مسئولين عن سلامة مواطنيهم وعن تنفيذهم لاحكام المعاهدات •

كما أتاحت الحروب الصليبية الفرصـــة أمام الاقنان للتخلص من ربق العبودية بتلبيتهم نداء الكنيسة لحماية الاماكن المقدسة المسيحية فى الشام من أعدائها المسلمين فقد ضمت الحملة الصليبية الاولى وحدها (٧) عشرة الاف تركوا فلاحة الارض وآثروا الذهاب الى بلاد الشام مما جعل الســـــادة الاقطاعيين فى اوروبا فى العصور الوسطى يواجهون مشكلة نقص الايدى العاملة الامر الذى جعلهم يستبـــدلون اولئك الاقنان بآخرين من الاحرار ليقوموا بفلاحة الارض • وقد حدث من جراء ذلك أن هـــدد النظام الاقطـــاعى الغربى بســـبب النقص التدريجى الذى أصاب قاعدته الاساســـية العريضة أى الاقنان (٨) ونجم عن ذلك أن قل نفوذ الامراء الاقطاعيين فى أوروبا فى الوقت الذى زادت فيه قوة السلطة المركزية ممثلة فى

---

(٤) طرخان : النظم الاقطاعية ص ٢٦٦
(٥) Seignobos: L'Europe Feodel P. 29.
(٦) Cam. Med. History, vol 5, P. 324. Thompson: Tbid. I. P. 430.
(٧) Stephenson: Medieval feudalism. P. 245.
(٨) Cam.: Med. Hist. vol 7, P. 727. Qainter: Med. Society, P.P. 57 - 59

الملكيات الاوروبية ، واذا عرفنا أن أغلب الامراء الاقطاعيين ذوى البأس قد استجابوا لاغراء كنوز الشرق فانخرطوا ضمن الحملات الصليبية ومات منهم الكثيرون مثل امراء بيت تولوز الذين كانوا من أقوى البيوت الاقطاعية فى فرنسا (٩) .

كل ما تقدم أدى الى ضعف النظام الاقطاعى الاوروبى الوسيط وشد من أزر الملكية الاوروبية .

ثانيا ــ الاثر الثقافى :

كانت صقلية قد خضعت للحكم الاسلامى منذ القرن التاسع الميلادى حتى القرن الحادى عشر ، وازدهرت اثناء الحكم الفاطمى ولم يزل عنها ذلك بزوال حكم الفاطميين عنها ، بل استمرت دون انقطاع أثناء الحكم النورماندى لها . فقد كان الشعر العربى يمارس فى بلاط الملوك النورمانديين ، كما كانت تدرس الفلسفة الاسلامية . وظلت الحياة الاجتماعية مصبوغة بالصبغة العربية فكانت كل المغنيات والراقصات اللائى وجدن فى حاشية فردريك ملك صقلية فى القرن الثانى عشر من العربيات (١٠) . ومهما يكن مقدار ما للشعر العربى من فضل فى اثارة العبقرية الشعرية فى الشعوب الرومانية الجنوبية ، ما تدين به اوروبا فى العصور الوسطى للادب العربى لايكاد يكون موضعا لجدل ، ذلك ان الاقبال على المؤلفات العربية من فلسفية وعلمية وخاصة ماكان يقع حصر (١١) ولا يوجد شك فى أن بلاد الشام ساهمت فى هذا المجال الى أبعد مدى . فهناك أوجه شبه قريبة بين القصص العربية الخيالية الغرامية وبين الملكة ايزولد ذات اليد البيضاء Isolde Rlanchemain والقصة الالمانية التى عنوانها رولاند (Rolandslied) وقصص أخرى عرفت فى شمال أوروبا ، بل ان صاحب احدى تراجم قصة البحث عن جبريل (Grail — Saga) (١٢) يقول انه أخذها عن أصل عربى .

ومن الأداب العربية ما كان موضوعه واضحا فى الادب الاوروبى . حدث هذا فى الرحلات وعجائب المخلوقات التى تركت أثرا واضحا فى الادب الاوروبى وحدث هذا فى عصر كانت فيه أوروبا لاتكاد تعرف السفر الا بقصد الحج الى الاراضى المقدسة . ولم يكن

---

(٩) مات منهم اربعة فى مدى أقل من خمسين عاما واندثرت ذريتهم من الذكور من بيت بويون Bouillon وانتقلت الى الاناث بموت اخر سلالة هذا البيت فى الحروب الصليبية . (سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٧٣) .

(١٠) S. Singer: Arabiche und Europaische Poesie im mittelalter (vissenchaften 1916). P. 221

(١١) Gibb (H.A.R.) Littrature P. 162 (The Legacy of Islam). (ترجمة عبد اللطيف حمزة)

(١٢) Trend (J.B): Spain and Portuguese (The Legacy of Islam) P. 65 (ترجمة حسين مؤنس)

بد مع هذا النقل الشفوى الذى كان يصحب الاسفار من ذيوع العناصر الخرافيــة العجيبة وانتقالها الى جهات بعيدة نائية مثـــل ايرلندا واسكتلندا نتيجةاحتكاك هؤلاء الحجاج والتجار بالمجتمع الشــامى وغيره من المجتمعـــــــات الاسلامية •ومن أحسن الامثلة لهذا النقل قصة شوسر Chauecer المسماة بحكاية الفارس الغلام (Squires-tale) ليست الا واحدة من قصص ألف ليلة وليلة التى يحتمل أن تكون جاءت الى أوروبا على أيدى التجار الايطاليين، وآية ذلك أن قصة شوسر هذه تدور فى بلاط خان المغول أو كما يقول شـــوسر نفسه فى السراى ببلاد التتار ((At Sarray inthe Land of Tartarye)) •

هذا فضلا عن مجموعات من القصـــص العربية التى ترجمت ابان القرن الرابــع عشر لتتسلى بها طبقة من القراء كانوا يومئذ يؤثرون هذا النوع من القصص الشرقى على ما خلفته لهم القرون الوســطى من آثارهـــا الادبية المعروفة ، ويقول جب : (Gibb) (١٣) أن ايثار هـــذه الطبقة الحديثة للاداب العربية عــلى غيرها من آداب العصور الوسطى لم يكن الالما امتازت به تلك الاداب من تنوع فى الموضوعات أو تنميق فى الاسلوب الادنى فحسب ، وأنمــا كان ذلك راجعا الى أن تلك القصص العــربية كانت أخصب خيالا وأنبل غرضا وغاية •

ويقول الاستاذ ميكل (١٤) (Mackail)أن أوروبا مدينة بقصصها للعرب كمــا يقول : انحيوية التى جعلت اوروبا العصور الوسطى الهضــبة السورية ندين بأكبر قســط من تلك الحيوية التى جعلت اوروبا العصور الوسوطىتختلف من الناحيتين الفكرية والروحيــة عن الامبـــراطورية التى كانت تحت الحكـــم الرومانى » •

كذلك كان لنشأة المدارس والجامعــات الاسلامية فى بلاد الشام ومصر أثــر كبير فى نشأة جامعات أوروبا (١٥) فقد عرفت سالرنو بايطاليا (١٦) فى القرن العاشر الميلادى بمعهدها الطبى الذى يقول عنه الفريد جيوم (Alfred Guillaume) (١٧) ، ان الطب العربى قد أثر من غير شك فى هذه المدرسة تأثيرا قويا فسقاها بمائه وغذاها بلبانه ، ان لم يكن السبب لوجود الطب بها وتدريسه بين جدرانها (١٨) • ولم تكن سالرنو جامعة وانما كانت مدرســة للطب ، وأقدم الجامعات المسيحية فى أوروبا قد ظهرت ابان القرن الثانى عشر الميلادى • وقد

---

(١٣) Gibb: Legacy of Islam P. 123.

(١٤) Mackail: Lectures on Poetry. P. 97 - 125.

(١٥) من امثـــلة الجامعـــــات او المدارس الاسلامية : المدرسة النورية بدمشق ، مدرســة المسجد الاموى بدمشق ، امع خالد بن الوليــد الحلويين بحلب ، مدرســــة ابو الفدا بحماه ، بحمص ، اما فى مصر فالجامع الازهر الذى انشىء عام ٩٧٢ م ليكون مسجدا ثم اســبغ عليه ثوبه الجامعى سنة ٩٨٠ م •

(١٦) Rashdall's: The Universities of Europe in the middle Ages (Campridge Medievel History) Vol. VI P. 560.

(١٧) Legacy of Islam (Philosophy and Religion) P. 231.

(١٨) Goeje and Dozy: Description de L'Afrique &de L'Ecpagne (Guillaume Le Bon II)

كانت أول جامعة فى أوروبا مدينة بوجودهـا للعلوم الاسلامية وان لم يكن المسلمون هـم الذين قاموا بتأسيسها •

وقد نقل الصليبيون عن العرب فى ميدان العلم والفلسفة الشىء الكثير، ولعل أهم من قام بعملية النقل هذه ادلارد الباثى Adelard of Bath الذى درس على العرب علمى الفلك والهندسة ، فلقد طاف بمصر وسوريا وآسيا الصغرى وكذلك اسبانيا ابان النصف الاول من القرن الثانى عشر (١٩) ومن الثابت أيضا ان ليوناردو فيبوناتشى (Leonardo Fibonacci) قد طاف بمصر والشـام ، وهو أول عالم أوروبى اشـتغل بعلم الجبر ، وكان معاصرا لفردريك الثانى واليه قدم بحثه فى الاعـداد المربعة (Square Numbers) (٢٠) • وربما كان ذيوع الارقام العربيـة وعلم الحسـاب راجعا بعض الشىء الى التجارة التى راجت بين الثغور الايطالية وبين الشام ومصر •

وفى مجال الفنـون والاداب كان تأثير الحروب الصليبية أعمق وأشد تأثيرا • وقـد أدى تعلم اللغة العربية واللغات الشرقية الى نمو المعلومات الجغرافية لدى الغرب ، هـذا بالاضافة الى التجارب العملية التى قام بهـا الصليبيون فى رحلاتهم المتكررة نحـو الشرق وآسيا وافريقيا •

ولعل من أهم الاعمال الثقافية التى أدتها الحروب الصليبية ونقلتهـا من الشرق الى الغرب ، المعلومات التاريخية ، فمن مـؤرخى الحروب الصليبية ، رجل نورماندى لم يشأ أن يعلن عن اسمه ، صنف كتاب (٢١) (Gesta Francorum) وصف فيه تاريخ أول حملة صليبية والمؤرخ (Fulcher Chartres) الـذى ألف كتاب (Historia Wierosolymitana) الـذى عنى عنـاية خاصـة بوصـف بيت المقدس حتى عام ١١٢٧ م (٢٢) • هذا بالاضافة الى الموسـوعة التاريخية التى ألفها وليم الصورى أسقف مدينة صور تحت اسم « تاريخ فيما حدث فيما وراء البـحار » ، الـذى يقع فى ثلاثة وعشرين فصـلا ينتهى فيهـا الى أحـداث عام ١١٨٣ م • وقـد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى اللغة الفرنسية أهم مرجع ومصدر فى العصور الوسطى عن قصـة الحروب الصليبية ، وعن أحوال بلاد الشـام فى تلك الفترة (٢٣) •

J. K. Wriont: Geographical Lore of the time of the Crusades P. 115.

(٢٠) Rashdall's: The Univesities of Europe in the Ages I. P. 561.

(٢١) Rashd all's: Ibid. P. 567

(٢٢) Henne-am Rhyn's Allgemeine Kulturgeschichts des Mittlclatters Y. III P. 498.

(٢٣) Hans Prutz: Kulturgeschichte der Kreuzzug. Vol VI P. 327.

ولم يكتف وليم الصورى بالكتابة عن الاحوال الاجتماعية والحربية لبلاد الشام فقط ، بل ألف كتابا عن « تاريخ الامراء المسلمين منذ ظهور النبى » (٢٤) .
History of the Muhamadan Princes from theappearce of the Prophet.

وبرغم فقدان هذا المرجع الا أن هناك آثار منه حفظها لنا وليم الطرابلسى فى كتابه المسمى (بحث فى حالة العرب To actatus de Statu Seracenorum) تبين لنا بوضوح مدى تفهم المؤلف للاسلام والمسلمين فى اطار المجتمع الشامى فى القرن الثانى عشر الميلادى . ومن المصادر الشرقية التى صدرت ابان الحروب الصليبية ونقلت الى الغرب ترجمة اسامة بن منقذ لنفسه وهى تتناول تاريخ القرن الثانى عشر كله ، وكتاب تاريخ الاتابكة لابن الاثير ، وحياة صلاح الدين لبهاء الدين بن شداد (٢٥) ومهما يكن من شىء فسرعان ما استحالت المؤلفات التى سجلت تاليخ الشرق ابان الحروب الصليبية من تاريخ الى أساطير (٢٦) ، كما ذكرنا من قبل فى أنشودة (Song of Roland) وغيرها كثير من الاساطير (٢٧) التى تمجد الابطال .

ولعل خير ما قيل عن علاقة الصليبيين بالمسلمين ماذكره العالم جيزو (٢٨) (Guizot) عن لويس فيليب ملك فرنسا فى كتابه « تاريخ الحضارة فى أوروبا » قال : « من الطريف أن نتبين فى كتب التاريخ القديمة شعور المسلمين نحو الصليبيين ، فانهم كانوا ينظرون الى هؤلاء الاوروبيين البرابرة وكأنهم أكثر الناس غلظة وغباوة وأقلهم مدنية وتهذيبا . أما الصليبيون فقد أدهشهم ما رأوه عند المسلمين من ثروة ومدنية وخلق كريم . ثم تبع ذلك صلات ود عديدة بين المسلمين والصليبيين امتد أثرها وأصبحت أعظم شأنا مما يظن عادة » .

ولم يؤد انتصار المماليك فى جميع المعارك التى خاضوها ضد الصليبيين فى بلاد الشام الى اعتراف هؤلاء على مضض بتفوق المسلمين فى الناحية الحربية فحسب ، لكنهم لم يلبثوا يومئذ ، كما يقول الاستاذ جب (Gibb) (٢٩) ، أن لاحظوا فى شىء من الخجل أن الحضارة الاسلامية تبزهم فى الناحية العقلية أيضا . وما أن اقتنعوا بصحة هذه الفكرة حتى عم فيض العلوم العربية ، وصحب هذا الفيض مجموعات أدبية نثرية كان لها حظ يسير أو خطير من التغلغل فى جميع الاداب الاوروبية (٣٠) الناهضة التى مهدت طريق الانقلاب الفكرى الذى تمثل فى عصر النهضة .

ويقول العالم الاثرى كرستى (٣١) ، ان الفضل فى انتقال فن الكتب وتجليدها يرجع

---

(٢٤) William of Tyr. P. 396.
(٢٥) Parker: The Crusedes. p. III
(٢٦) Von Sybel: Geschichte des crsten Kreutzzuges
(٢٧) De Senctis, Storis dell Letterature Italians. vol II. p. 161-168.
(٢٨) Parker: Ibid. p. 113.
(٢٩) Gibb Legaoy of Islam. p. 196.
(٣٠) Ch. Perrault: Cons, Le chet botté, chaper on rouge, de me mére peau d'ane.
(٣١) A. H. Christie: Islamic minor arts and its influence on Europian Arts 227.

للشرق . فقد أكتسب الغرب شيئا فشيئا كثيرا من مهارات المسلمين ومشروعاتهم فى هذا الميدان ابان العصور الوسطى . فالطباعة فن عرف وأتقن فى أوروبا قبل أن تنتشر فى العالم الاسلامى بزمن طويل ، ولكن الاوروبيين مع ذلك مدينون لمصر والشام بمادة كانت املا كبيرا فى تطور فن الطباعة ، فالورق وهو اختراع صينى قد عرفه العرب فى القرن الثامن الميلادى . لكنه لم يصل أوربا المسيحية حتى القرن الثانى عشر الميلادى وكان نادر الوجود فيها خلال القرن الثالث عشر . وانتقلت الطباعة الى ايطاليا ، والطباعة الاوروبية ليست مدينة للاسلام بالورق فحسب بل وفن التجليد والزخرفة . اذ أننا نجد مسحة شرقية غالبة على الكتب المجلدة فى ايطاليا وألمانيا فى القرن الخامس عشر ، وخاصة اللسان الذى يطوى لحماية الاطراف الامامية من الكتاب ، كما أن زخارفها مرسومة باسلوب الارابيسك ثم تزين الرسوم المطبوعة بملىء الاجزاء المنخفضة بصبغات ذهبية وفضية .

الفصل الثالث

أثر العمارة الاسلامية على العمارة فى الغرب الصليبى :

أ ـ الاستحكامات الحربية :

لم يقتصر أثر الحضارة الاسلامية على الغرب على النواحى الادبية فحسب ، بل ان أثرها كان أكثر وضوحا فى الفنون التشكيلية وأهمها فن العمارة ، فقد أخذ الاوروبيون عن الشرق ، جعل المدخل الموصل من باب القلعة الى داخلها على شكل زاوية قائمة (Bententrance) كما هو الحال فى أبواب القاهرة والقلاع الاسلامية فى بلاد الشام التى بنيت فى العصر الفاطمى فى القرن الحادى (١) عشر الميلادى وذلك حتى لا يرى العدو الذى يصل الى باب القلعة ، الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه الى من فيه . كذلك فان الفضل فى وجود العقود على اختلاف أنواعها وتطورها فى العمارة الغربية راجع الى المسلمين (٢) .

ومما اقتبسوه أيضا انشاء المراقب الصغيرة أو الساقطات Machicolation على الاسوار والابراج الصغيرة البارزة والكرانيش ، كما هو الحال فى شاتوجايا (Chateau Gaillard) الذى يرجع الى عام ١١٨٤ م شايتون عام ١١٨٦ م ، ونورويتش (Norwich') عام ١١٨٧ م ووينشتر (Wincheste) عام ١١٩٣ م (٣) . ولعل من أحسن الامثلة التى يتجلى فيها الابراج المستديرة وكذا الساقطات بوابة قصر فيلنيف ليزافينون (Villeneuve Lés-Arignon) من القرن الرابع عشر . فالابراج المستديرة (Semi-Circular Tpwers) مأخوذة من أسوار مدينة حوران (٤) التى ترجع الى القرن (١١) م .

اما الساقطات فتشبه تلك الموجودة فى قلعة بانياس والحصن أو الاكراد وحلب والمرقب وقلعة جزيرة ارواد والشقيف وقلعة صهيون وقلعة البحر بصيدا .

---

(١) Creswell: Muslim Architecture in Egypt val I. p. 72.

(٢) E. B. Wavell: Indian Architecture. p.p. 82-6 (London 1927).

(٣) M.S. Briggs: The Art of Architecture p. 139 (Legacy of Islam).

(٤) De L'institute prancais (Cairo 1924).

(ب) العمائر المدنية :

وقد شيد النورمانديون فى صقلية عمائر كثيرة يتجلى فيهـا التأثـيرات الاسـلامية فى تصميمها وقبابها وعقودها وأعمدتها وزخارفها وكان ذلك كله بعد أن زال عن صقلية سـلطان المسلمين (٥) • فقد اقتبسوا تصـميم قصر (العزيزة) Ziza وقصر لاكوبا La Cuba من القصر الشرقى والغربى للخلفاء الفاطميين ،كما نقلوا الزخارف الموجودة فى تلك القصـور الى سقف كنيسة كابلا بلاتينا (Chappelle Palatina) ببلرمو بصقلية (٦) • كذلك استعملت المقرنصات فى تحويل المربع الى مثمن فى منطقة الانتقال تقوم عليـه القبة فى قباب كنيسة كابلا بلاتينا • كما هو الحال فى قباب ضريح الظاهر بيبرس بدمشـق (٧) • كذلك رسوم الفرسكو التى كانت تزين حمامات قصر عمره والصرغ (بالاردن حاليا) (٨) • كمـا نجد التأثير بالقباب الاسلامية فى كنيسة سان سان كاتدالو (St. Catadalou) فى بالرمو التى ترجع الى القرن ١٢ (L' Golvin: Les Plafonds a muqu)

---

(٥) J. Strzygowsk: Origin of Christien Church. p. 64. Creswell: Archeologie Orientale. vol. xxIII (Bulletin).

(٦) Rriggs and E.M. Whishew: Arabic Spain p. 122.

(٧) فى المدرسـة النورية بدمشـق ومدفن صلاح الدين بدمشق ايضا •

(٨) وغيرها من المدارس الوارد ذكـرها فى الفصل الاول •

الفصل الرابع

أثر الحروب الصليبية على الفكر العسكرى الصليبى :

لقد أثر الفكر العسكرى الاسلامى فى بلاد الشام على الفن العسكرى الصليبى الى حد كبير • فقد كانت الحروب الصليبية مجالا خصبا للتطوير والابتكار فى المجال العسكرى ، فقد كان واجب كل جيش من الجيشين المتصارعين ، أن يجلب النصر لامته ليعوضها عن التضحيات التى قدمتها لحاجاته ومهامه العسكرية (١) • وقد أثبت المسلمون تفوقهم على العنصر النورماندى الصليبى الذى كان صاحب السطوة العسكرية على أوروبا فى القرنين الحادى (٢) عشر والثانى عشر ، والذين لعبوا دورا رئيسيا فى الحملات الصليبية • لقد كانت الجيوش الاوروبية تعتمد أساسا على عنصر المشاه فى حروبها ، الى أن هزمت المشاه من حملة الفؤوس الانجلو سكسون فى معركة هاستنجر (٣) فى القرن الحادى عشر ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الفرسان صاحبة قصب السبق فى الحروب ومثلت المشاه فى الحروب بعناصر ضعيفة رديئة التسليح والتجهيز (٤) • ولما كان النظام الاقطاعى هو النظام السائد فى أوروبا فى ذلك الوقت ، وهو النظام الذى كان يعتمد أساسا على الفارس الراكب • فقد كانت طبقة هؤلاء الفرسان تعتمد اعتمادا كاملا على القلاع التى كانت رمزا لقوتهم وسيادتهم امام من هم دونهم أو اعدائهم ، لذلك تطور فن هندسة المبانى العسكرية فى القرن الحادى عشر الميلادى • ومما يدل على قصور الفن العسكرى فى أوروبا فى ذلك الوقت أنه لم يكن أمام التطور فى بناء القلاع والحصون تطور مماثل فى الاسلحة الهجومية وأساليب الحصار (٥) •

---

(١) ليدل هارت : المناورات الحربية الدفاعية (ترجمة ابراهيم جزينى) ص ١٦١

(٢) Runcimant: A History of the Crusades, I.p. 155. Cam Mad: Hist vol 5. p. 282.

(٣) مونتمرى : الحرب عبر التاريخ ج ٣ ص ٢٢١ •

(٤) لم تستعد المشاه مكانتها الاولى الا بعد ظهور المشاه السويسرية والانجليزية فى القرن الرابع عشر •

(مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ ج ٣ ص ٢٢٢) •

(٥) بقيت ادوات الحصار منذ سقوط الامبراطورية البيزنطية دون تغيير يذكر ، وكانت الكباش وابراج الحصار ويطلق عليها (بيفرواس) وسلالم التسلق والسقيفات وهى عبارة عن حجرة اعلى برج الحصار مكتظة بالجنود ، والساتر المتحرك وهو عبارة عن حاجز يحمى الجنود من القذائف التى ترمى عليهم من فوق اسوار القلاع ويطلق عليها (مانتليت) وآلات رمى القذائف وكانت هذه القذائف عبارة عن احجار او سهام وقذائف نارية وكتل الجيفة •• الخ •

وقد كان اسلوب الاستيلاء على القلاع ينحصر فى الحصار وقصف الاسوار واحداث المجاعات وكانت المجاعات هى انجح هذه الاساليب • ولم فيما عدا استيلاء فيليب اغسطس على قلعة شاتو تنجح معظم عمليات الحصار التى تمت فى اوربا جالارد (لوحة رقم) فى الفترة من ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ م ••

كانت القوة الضاربة الرئيسية للقوات الصليبية فى بلاد الشام هىقوة الفرسان الثقيلة الا أن هجماتها كانت فردية تفتقر الى الحشد ،أما المشاه فكانوا يقومون بالاعمال الادارية ، وأعمال الحصار ، وكانت أهم مجموعات المشاه هى مجموعة رماة السهام وخاصة حملة النشاب المرتزقة من شمال ايطاليا •

ونتيجة لاستمرار الصراع المسلح فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين فى القرن الثانى عشر الميلادى (٦) زادت كفاءة فرسان الصليبيين القتالية الى حد ما ، تمثل هذا فى قوة تدريبهم فأصبحت دروعهم أكثر احكاما واتقانا، ووصلت القمصان المعدنية حتى الركبة ، كما أن أطراف الجسم أى الايدى والارجل أصبحت تحميها قطع من الدروع على شكل شبكة، كما أصبحت القلنسوة المعدنية ضيقة لحماية الرقبة ، كما أن الخوذات المخروطية الشكل قد حلت محلها خوذات ضخمة على شكل قدور ، وغطت هذه الخوذة كل رأس مع وجود فتحات لتمكين الرؤية • والتنفس •أما حصان الفارس فكان من فصيلة خاصة يطلق اسم (ديستريية) ويحميه أيضا رداء معدنى أو قماش سميك يشبه الالحفة ، كما زاد طول الرمح زيادة طفيفة (٧) •

فى الجهة الاخرى كانت القوة الرئيسية للجيوش الاسلامية هى رماة السهام الراكبة ، ويعتبروا قمة فى خفة الحركة اذاقورنوا بالفرسان الثقيلة الصليبية هذا بالاضافة الى أن خيول المسلمين كانت أسرع ،وكان الرامى الراكب يحمل الى جانب قوسه درعا صغيرا مستديرا ورمحا قصيرا وسيفا وهراوة •وغالبا ماكان المسلمون يقومون بالمبادأة بالهجوم التكتيكى مستغلين تفوقهم العددى وخفة حركة فرسانهم التى تمثلت فى كثرة الهجمات وعمليات التطويق (٨) •

وقد اتسمت تشكيلات قتال فرسان المسلمين بالتشكيلات المفتوحة المرنة المنتظمة وكانوا يحافظون على أن يكونوا على مسافة تسمح لهم بالانقضاض المفاجىء فى اللحظة المناسبة ، هذا بالاضافة الى عمليات الانسحاب الخداعية التى كانوا يهدفون منها جذب الصليبيين الى الاراضى الوعرة والضيقة ولارهاقهم واستنزافهم توطئة للقضاء عليهم • ونظرا للروح الهجومية للمسلمين وخفة حركتهم ، وضع بوهيموند نتيجة للدروس المستفادة من احتكاكه بالمسلمين ونتيجة لزيادة فهمه لطبيعة أرض بلاد الشام تكتيكات صليبية جديدة كانت فى مجموعها تكتيكات دفاعية ، راعت الحرص واليقظة أثناء التقدم لتجنب التطويق والمفاجأة (٩) ، فكانت القوات الصليبية تتحرك مع وجود حرس قوى على

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ص ١٧٢ وما بعدها ، حسن حبشى : الحملة الصليبية الاولى •

(٧) مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ ج ٣ج ٣ ص ٢٥٥

(٨) Eracles, II.p. 183.

(٩) Greusset: Hist. des Croisades III p.p. 67-70.

الأجناب والمؤخرة مكون من رماة السهام لحماية الفرسـان حتى تحين اللحظة المناسـبة لهجـومهم(١٠) •

ولقـد كان لتكتيكات المضـايقة التى اتبعها المسلمون اسـوأ الاثر على الصليبيين ولم يكن من السهل ازاء هذا كبح جماح الفرسان الصليبيين من القيام بعمليات فردية متهورة ، لذلك وضع فرسان الداوية عقوبات قاسية على أى فارس يترك الصفوف دون أوامر ، الا أن هذه العقوبات لم تكن رادعا للفرسان الصليبيين فلم يستطع ريتشارد قلب الاسد ابان الحملة الصليبية الثالثة فى معركة ارسـوف من منـع فرسان الاسـبتارية من الهجـوم بدون أوامر (١١) •

ولقد تحددمصير الحروب الصليبية عندما وطأت اقدام صليبى الحملة الصليبية الاولى بلاد الشام ، فقد كانوا يعانون مـن نقص فى القوة البشرية لذلك تجنبوا المعارك المفتوحة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ عـلى قـدر الامكان والاعتماد على الحصون بدرجة فاقت اعتمـاد الغرب الاوروبى عليها (١٢) •واختار الصليبيون أماكن قلاعهم لتكون بالدرجة الاولى للاغراض الادارية مثل تلك التى بنيت على الساحل كانت قواعد ادارية أكثر منها للاغراض الاستراتيجية• فلم يكن هدفهم الدفاع بقوة الحدود عـلى جبال لبنان أو على نهر الاردن •فقد كان معروفا لدى الصليبيين ان القلاع ماهى الامجرد قواعد أو ملاجىء للانسحاب اليها وليسـت مدنا حصينة على الحدود لمنع تقدم المسلمين •

ويمكننا أن نسـوق مثلا من عـديد من الامثلة فقد ترك الصـليبيون الطـريق الجبلى من دمشـق وعبـر الاردن عنـد جنـوب بحيرة طبرية بدون دفاع ، ثم أراد الصليبيون تدارك ذلك فقاموا ببناء عـدد كبير من القلاع على طول الحدود مثل كرك معاب، وكرك الفرسلن ويوفرت ، ومونت فيراند وقـد راعى الصليبيون عند بناء هذه القلاع أن يتم بها تنظيم للتعاون فيما بينها • فكانت كـل واحدة منها ترى التى تليها ، واستخدمت فيما

---

(١٠) مونتجمرى : الحـرب عبر التاريخ جـ ٣ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

(١١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٠٥ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٩٨
مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ جـ ٣ ص ٢٥٧

(١٢) وفى منتصـف القرن الثانى عشر تغير شكل القلعة جاء هذا بعد ما اكتسبه الصليبيون من دروس مسـتفادة فى بلاد الشام ومثال هذا التغيير (قلعة هودان) فى فرنسـا التى بنيت الداخل اما اسـوارها فكانت دائرية من الخارج مزودة بأربعة ابراج بارزة ومستديرة ، ويوجـد حوالى عام ١١٣٠ م وكانت مربعة الشـكل من السـور الخارجى الدائرى فتحات محفورة • وايضا فتحات اخرى فى الابراج لاطلاق السهام •وكانت هـذه الفتحات اكثر فاعلية من الشرفات المفتوحة على اسـوار الحصن لان المدافعين عن رؤيتهم ، وتوفير الحماية للمدافعين • وكانت هذه القلعة كانوا يطلقون قذائفهم على عدوهم من هذه الفتحات ، فى نفس الوقت لا يسـتطيع العدو ثم اتخذت شكل الصليب لتتيح للرامى مجالا افقيا الفتحات فى طورها البكر عبارة عن شقوق طولية ، اوسـع • وفى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى جاء تطوير اخر فى فن البناء الهندسى الغربى نقل عن الشرق وقد اتى هذا التطوير نتيجة ازدياد قوة آلات قذف الحجارة لذلك بنى سـتاد ضخم من الاسوار ومضاعفة المسـاحات التى تطوقها هذه الاسـوار ، وجاءت قلعة (شاتو جيلارد) مثلا لهذا التطوير فضمت جميع الخصـائص المميزة لافضل اساليب التحصينات لذلك العصر •

بينها الاشارات المرئية والحمام الزاجل (١٣) ،وذلك يحتم بطبيعة الحال على كل قوة مسلمة مهاجمة أو متقدمة أن تهاجم هذه القلاع والا تغفل واحدة منها ، ذلك أنه عند محاصرة قلعة من هذه القلاع ستقوم الاخرى بمساعدتها وتبقى القوة المحاصرة محاصرة هي الاخرى وتصبح بين شقى الرحى ، مدافعى القلعة من جهة وفرسان القلاع من جهة أخرى • على أن البدايه الحقيقية لتطور الصليبيين فى أساليبهم الحربية جاءت بعد قرن من بداية الحروب المائة عام فى أوروبا (١٤) •

ولم يقف تناول الخبرات بين المسلمين والصليبيين عند فن القتال فحسب ، بل وصل الى صناعة الاسلحة (١٥) • وتعتبر الحروب الصليبية من أهم الاسباب التى أدت الى ادخال اشكال مستحدثة فى السيوف الاسلامية وقد لعبت التجارة دورا بارزا فى تطوير السيف الاسلامى منذ القرن الثانى عشر الميلادى ومابعده ، فقد اشتهرت مدن امالفى (Amalfi) وجاتيا ونابلى وسوليرنو ، وكان من أهم السلع التى تصدرها هذه المدن الى موانى شرق البحر المتوسط الاسلامية السلاح والمواد الاستراتيجية كالحديد والخشب (١٦) •

ومما يدل على اتجار المدن الصليبية مع المسلمين خاصة فى مجال السلاح والمعادن والحديد والخشب وغيرها من المواد الضرورية فى صناعة السفن والتسليح ، صدور قرارات الحرمان ، نخص منه ذلك القرار الذى وافق عليه المجلس الكبير فى جمهورية البندقية عام ١٢٥٤ م والذى نص على انزال اقصى العقوبة بمن يتاجر فى المواد الاستراتيجية مع البلاد الاسلامية (١٧) • وبرغم توتر العلاقات بين العالمين الاسلامى والمسيحى فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين كانت بعض الدول المسيحية تتجر مع البلدان الاسلامية فى تلك الازمنة ضاربة عرض الحائط بأوامر البابوات نيقولا الرابع وبونيفاس الثامن ، هذه الاوامر كانت تنطوى على عدم شرعية الاتجار مع أعداء المسيحية (١٨) وعموما لم يتأثر العالم الاسلامى تأثرا ملحوظا بالصناعات الحربية الصليبية ، فقد كانت أساليب الصين وآسيا الوسطى فى العصور الوسطى منذ القرن الثالث عشر الميلادى أى بعد فتح المغول لايران والعراق ، هى التى أثرت على الاسلحة الاسلامية وعلى السيف على وجه الخصوص (١٩) •

---

(١٣) سعيد عاشور : الحكرة الصليبية ج ١ ، ج ٢

(١٤) Tout The Hist. Of England. p.p. 408-412.
Levisse: Hist. De France 4, premiere partie p. 169.

(١٥) كان هناك تبادل تجارى بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى منذ القرن العاشر الميلادى شمل السيوف ، قام بهذا النشاط التجارى التجار اليهود ، فكانوا يحملون ضمن بضائعهم الاتية من بلاد الفرنجة السيوف •
ابن خرداذبة : المسالك الممالك ص ٥١٣ ، زكى حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٩ هامش •

(١٦) Lewis, Archibald R: Naval Power and Trade in the Mediterranian 500-1100 A.D.

(١٧) Maslatrie: Histoire d I'ile de chypre vol II. p.92-93.

(١٨) Heyd: Histoire du Commerce du Levaut du Moyen Age vol. II p. 25.

(١٩) د • عبد الرحمن زكى : السيف فى العالم الاسلامى ص ١٩٧

(الخاتمـــــة)

ان دراستنا للحياة الاجتماعية للمسلمين فى بلاد الشام فى القرنين السادس والسابـع للهجرة تناولت مختلف العلوم والمعارف التى تدخل فى نطاق الدراسات الانسانية من دراسة لفئات الشـــعب فى الحضر والريف والثروة والمال وأثرها فى انتعاش المجتمع الشامى خلال تلك الفترة . وما يؤديه كل فئة من فئـــات المجتمع من أعمال وصناعات وحرف وأسلوب معيشة كل فئة منها وطراز مبانيهم المتعـــددة وعادات وتقاليد وزى كل منها .

وقد تطلبت هذه الدراسة المتشعبة التى تناولت بعض نواحى الدراسات الانسانية ، الرجوع الى معظم ما تركه لنا السلف من مصادر ومخطوطـــات فى مختلف العلوم والفنـــون ، كالتاريخ والتراجم والخطط والاثار والجغرافيا والفقه والتصوف والادب والعلوم الطبيعية ، كالفلاحة والزراعة والطب والفلك وما اليهـــا هذا فضلا عن التراث الشعبى من قصـــص وبلاليق وتمثيليات وأغان معاصرة . هـــذا بالاضافة الى المعاجم التى خصـــصت لبيان اللباس والازياء وكذا المخطوطات المصورة التى أمـــدتنا أحيانا بشكل ولون اللباس والزى ، والاثار المنقولة الباقية التى تزخر بها المتاحف والمجموعات الخاصة التى وضحت لنا فى يسر وسهولة كل ما استغلق علينا فهمه أو تصوره من المعاجم والمخطوطات .

وبمناسبة الحديث عن المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الكتـــاب ، أود أن أسجل هنا ظاهرة انفردت بها مصادر بـــلاد الشام دون غيرها من بلاد العالم الاسلامى ، ذلك أن تلك المصادر انقسمت الى ثلاثة أقسام رئيسية ، تناول القسم الاول التاريخ السياسى والثانى التراجم ، أما القسم الثالث ، وهو الذى انفردت به الشام فى العصور الوسطى ، فقد قامت بعملية مسح شبه شاملة للاثار والمنشـــآت المعمارية التى أقيمت فيما بين القرنين الثـــانى عشر والثالث عشر .

واذا كانت مصادر التاريخ الســـياسى وتراجم الاعيان قد امدتنى بقدر لايستهان به فى معرفة المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فان جزءا كبيرا وهاما فى معرفة خصائص هذا المجتمع لم أصل اليه الا بدراسة المنشآت المعمارية ، مـــن مدارس ومساجد وخوانق وربط وبيمارستانات ودور وقصور وحمامات وما اليها . هـــذا بالاضافة الى ان الاستحكامات الحربية التى كانت وماتزال ، الدليل المادى على أن جزءا كبيرا من المجتمع الشامى فى ذلك الوقت كان من رجال الحرب .

وهكذا نستطيع أن نتبين أنه برغم كثرة المصادر والمراجع التى تناولت بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، الا أن قلة المادة التى تتكلم عن المجتمع صراحة وتشتتها

فى بطون المصادر ، شكل صعوبة لأيستهان بها فى جمع هذه الشذرات المتفرقة والتنسيق بينها لعمل بحيث مترابط يقوم على أساس علمى متين •

واحتوى الكتاب على خمسة أبواب ، تناولت فى الباب الاول الخاص بالبناء

الاجتماعى للمسلمين فى بلاد الشام ، الحديث عن العرب والبيوت العربية الحاكمة فى شمال سوريا ، واستطعت أن أبرز أنه منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أخذت بعض العناصر العربية فى أطراف الشام تظهر على مسرح الاحداث مع احتفاظها بالكثير من أصول حياتها البدوية ، مما انعكست صورته على المجتمع فى عصر الحروب الصليبية • أما فى القرن الخامس فلعل أبرز قبائل الشام ، التى قامت بالدور الرئيسى فى اثارة العصبية القبلية هى قبائل بنى طىء اليمنية فى الجنوب ، وبنى كلاب فى الشمال وبنى كلب القيسية فى الوسط ، ولم تلبث تلك القبائل أن بدأت تتحول الى حياة الاستقرار فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وقد بلغ ذلك التحول ذروته بالوثوب الى مركز السلطة واقامة امارات عربية فى الشام ، لها كافة مظاهر الحكم المستقل من وزراء وكتاب وحجاب ودواوين • فقد قامت امارة بنى مرداس فى حلب وامارة بنى عمار فى طرابلس وبنى منقذ فى شيرز •

وبرغم قصر عمر تلك الامارات ، اذ لم يبق منها الى أواسط القرن الثانى عشر سوى أمارة شيرز ، فان العنصر العربى ظلت بصماته واضحة فى المجتمع الشامى على عصر الحروب الصليبية ، وكل ما فقده هو نفوذه السياسى •

وكان البناء الاجتماعى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، يشتمل على عناصر غير عربية من الموالى والمماليك والغلمان أخذ يزداد عددها وخطرها تدريجيا فى بلاد الشام حتى غدت ركنا أساسيا فى المجتمع الاسلامى على عصر الحروب الصليبية ومن أهم هذه العناصر الترك والتركمان والاكراد • ومن العوامل التى كان لها أثر واضح فى بناء المجتمع الشامى على عصر الحروب الصليبية ، والعصبيات المذهبية والعقائدية ، فقد بلغت حدا من التناقض والتنافس فيما بينها وأحدثت شروخا عميقة ومتشعبة •

وقد قسمت فئات السكان فى الباب الثانى الخاص بحياة المدن الى قسمين كبيرين هما طبقة الخاصة وتوابعها وطبقة العامة وفروعها ، ولعل الجديد فى هذا الموضوع اننى حرصت أن أبين ألقاب الخاصة والعامة موثقة من الآثار التى ماتزال باقية حتى الآن •

وفى الحديث عن العمال من طبقة العامة عرضت الاراء المتضاربة الخاصة بنقابات العمال وبرهنت على صحة الرأى القائل بأن تلك الطوائف غير مطابقة تماما للنقابات العمالية التى وجدت فى أوروبا فى العصور الوسطى أو لمفهومنا للنقابات فى العصر الحديث •

ولما كانت الثروة النقدية هى العمود الفقرى للحياة الاقتصادية التى يقاس بها حالة المجتمع من حيث الانتعاش أو الضيق المالى ، لذلك فاننا نستطيع القول بأن حالة المجتمع المدنى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت فى ضائقة مالية اللهم الا كبار التجار والملوكين الذين استفادوا من تلك الحروب استفادة كبيرة أما عامة الشعب فكان فى ضيق وضنك اقتصادى •

وبرغم حالة عدم الاستقرار والطمأنينة بالنسبة للحاكم والمحكوم فى بلاد الشام الا أن الحالة التجارية وخاصة الخارجية منها كانت نشطة نسبيا ، حيث أن بلاد الشام كانت سوقا دولية لكلا الطرفين المتحاربين • ولسنا فى حاجة للتدليل على ذلك ، فان الآثار الباقية التى انشأت فى تلك الفترة والتى تربو على الالفين من مساجد ومدارس وبيمارستانات وحصون وقلاع وحمامات وما اليها ، لدليل قاطع على الازدهار الثقافى والصحى والمعمارى الذى تمتع به المجتمع المدنى فى بلاد الشام •

وتناولت فى الباب الثالث المجتمع الريفى ، الذى كان يتكون من الزراع والبدو • وقد بينت فى وضوح أن المزارع والفلاح فى بلاد الشام كان من الوجهة القانونية أكثر حرية من القن أو العبد ، أما من الناحية الفعلية العملية فانه يشبهه من حيث أن كليهما كان يعيش على أرض لا يستطيع مفارقتها •

كما أن جميع الشواهد تشير الى سوء حالة الفلاحين بالنسبة الى باقى طبقات المجتمع فى بلاد الشام خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر نظرا لكثرة الضرائب من جهة وتعرضهم للاغارات من جانب الصليبيين من جهة أخرى • ويبدو أن الخطر الاخير كان أشد قسوة ، اذ دأب الصليبيون على الاغارة على الاراضى والارباض المحيطة بالمدن الشامية يخربونها ويحرقونها ويحرقون ما بها من زرع وضرع ، وعندئذ يهجرها أهلها ويسرع من يستطيع الفرار منهم الى المدن يلوذون بها ويتحصنون داخلها •

واذا أضفنا الى ما تقدم شيوع نظام الاقطاع الحربى فى العصرين الايوبى والملوكى وما تبع ذلك من استرقاق الفلاح وشبه عبوديته للاقطاع ، لتبين لنا فى وضوح الوضع الحقيقى للفلاح بالنسبة للمجتمع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر •

أما البدو فى الريف الشامى فقد كانوا أشبه بخفر الحدود بالنسبة للريف ، كما انه يلاحظ أنه اذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف الشام فى العصر الايوبى والملوكى قد لجأت أحيانا الى الخروج عن الطاعة ، فانه قد وجد قسم آخر من تلك العشائر منتشرا داخل البلاد وحول ريفها وقراها ، كانوا أكثر ارتباطا بشعور الولاء للدولة ، وخضوعا لسلطانها • وقد لجأ الحكام ببلاد الشام الى محاولة درء خطر أولئك البدو عن طريق ادخال عشائرهم فى بلاد الشام داخل اطار النظام الاقطاعى • كذلك واصل سلاطين الايوبيين والماليك تلك

السياسة ، فأضفوا على تلك العشائر ألقاب (الامارة) للعرب و (المقدم) للتركمان والاكراد ، وأقطعوهم الاقطاعات وفرضوا عليهم التزامات معينة ، أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية ،وتقديم الرجال وقت الحرب واستضافة الغرباء وتقديم خيول للسلطان وللبريد •

ولكن عشائر البدو أنفت الخضوع لذلك النوع من التنظيمات التى تفقدها الكثير من حريتها فأخذت ما فى النظام من مميزات وتخلصت مما فيه من التزامات •

وان كان المجتمع المدنى قد استطاع هضم ما به من عصبيات مهما تعددت أصولها أو اختلفت عقائدها ، فان الريف الشامى الذى امتاز باتساع رقعته وقلة سكانه من الفلاحين

والمزارعين البسطاء الذين يعيشون فى جماعات ريفية مترابطة ، فان العصبيات المتعددة التى انتشرت فى ربوعه ، كانت من أهم العوامل التى أدت الى عدم استقراره ، ومن ثم فقد كانت عبئ ثقيلا على المجتمع الريفى فى بلاد الشام عامة وفى عصر الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر خاصة • فقد كان لكل عصبية منها تقاليد وعادات فضلا عما كان بينها وبين بعضها من صراعات وخلافات • وقد استطعنا تقسيم العصبيات الريفية الى عصبيات قبلية وعصبيات عقائدية وعصبيات عنصرية •

ولما كانت دراسة الريف من الناحية الاجتماعية تخضع خضوعا تاما للحياة الاقتصادية التى تقوم أساسا على النظم الاقطاعية ، لذلك فقد رأيت أن أتناول النظام الاقطاعى فى الريف فى شىء من التفصيل • واذا كان النظام الاقطاعى فى مصر قد حظى بالمراجع الكثيرة والفصول الطوال ، الا أنه لم ينل حقه فى بلاد الشام واقتصر على أجزاء من فصول متناثرة ومتداخلة فى ابحاث تعالج التاريخ السياسى أو الاقتصادى ، لايشفى غلة الباحث • ومن ثم رأيت قبل أن أتناول النظام الاقطاعى فى المجتمع الريفى فى بلاد الشام أن أبدا بملخص موجز لتاريخ الاقطاع وتطوره منذ القرن الثانى عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر •

وقد انتهيت فى هذا الموضوع الى أن حالات الفوضى التى تواكب حالات الحروب وما يستتبع ذلك من عدم اهتمام المقطعين باقطاعاتهم وانشغالهم عنها بالقتال أحيانا وايثار السلامة وتفضيل النجاة مما أدى الى كثرة الأقنان وكثرة المزارعين الذين ذهبت أراضيهم للغزاة من الصليبيين •

وتناولت فى الباب الرابع العادات والتقاليد للمجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولا ننسى أن العادات والتقاليد ، تظل على شىء من الثبات وعدم التغير لقرون عديدة وخاصة فى المجتمع الاسلامى فى العصور الوسطى • ومن

ثم فاننى لجأت فى بعض الاحيان الى المراجع المتقدمة قليلا أو المتأخرة قليلا عن العصر الذى فيه ، أو تعرض لدول مجاورة ذات مجتمع متشابه للمجتمع الذى أبحث عنه ، لا ستكمال صورة ناقصة أو للعثور على حلقة مفقودة •

ومما يسترعى الانتباه فى مجال كثرة الاعياد والافراح الدينية والمدنية التى كان يحتفل بها فى تلك الفترة التى قاسى فيها المجتمع الشامى من ويلات الحروب الصليبية والتترية وما لحق ذلك من خراب ودمار ،ويظهر أن كثرة تلك الافراح والاعياد كان مظهرا عكسيا لما تعانيه النفس من آلام ومحن،والعيد أو الفرح يفرج عنها ويخفف من وطأة تلك الحروب القاسية •

وقد شهدت بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ازدهارا فى صناعة المنسوجات الحريرية المعروفة بالديباج والدمقس • وقد رافق هذا الازدهار تفنن فى تنوع شكل اللباس وطرق زخرفته لارضاء جميع الاذواق والميول • ولعل كثرة تنوع اللباس فى بلاد الشام فى العصور الوسطى قدنشأ عن كثرة اختلاف عادات وتقاليد الشعوب والحكام الذين وفدوا عليها وحكموها فى تلك الفترة • هذا بالاضافة الى أنه كان لكل طبقة لباس خاص يميزها عن سواها من حيث الشكل واللون بل ونوع النسيج ، كما كان لكل مناسبة لباسها الخاص الذى يلائمها •

وبرغم تعدد المراجع والمعاجم التى تناولت تسميات الزى واللباس الاسلامى الا أن جميعها أغفل تحديد الوصف الذى يميز لباس عن غيره أو زى الرجال عن زى النساء ، ومن ثم فقد لجأت بصفتى دارس للآثار الاسلامية الى المخطوطات المصورة والى النقوش والرسوم الادمية الواردة على التحف الاثرية لتوضيح أسماء اللباس والازياء التى ورد ذكرها فى تلك المعاجم والمراجع •

وكما اختلفت الملابس والازياء تبعا لاختلاف الطبقات ، كذلك اختلفت الرياضة ووسائل التسلية للاختلاف الطبقى الذى ساد بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ ومن ثم فقد رأينا أن نتناول الرياضة ووسائل التسلية لكل طبقة • وقد تبين لنا بعد دراسة شاملة للعديد من ضروب الرياضة والصيد وألعاب التسلية مدى ما وصل اليه المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من تمدين ورقى رغم ما كان يعانيه من ويلات الحروب الصليبية والتترية وما تعرض له من خراب ودمار •

وانتهيت فى الباب الخامس الى النتيجة الحتمية التى تقتضيها طبيعة الاشياء ، وهى دراسة مدى تأثر المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام من الصليبيين ، وكذا مظاهر التطور

والارتقاء التى بلغهـا المجتمـع الاوروبى عن طريق اتصاله بالمجتمع الاسلامى ابان الحروب الصليبية •

وقد حرصت على توضيح هذه الآثار فى كلا المجتمعين فى الحياة السياسية والاقتصادية ، ثم الحياة الثقافية والاجتماعية •

الملحق الاول

مقتطف من وقف البيمارستان القيمرى فى دمشق (١)

بالصالحيه التى وقفت (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)

هذا وقف أبى الحسن بن أبى الفوارس القيمرى على بيمارستانه فى الصالحيه على معالجة المرضى والمعالجين والاشربة واجرة الطبيب يصرف الى الطبيب فى كل شهر لواحد (٢) وسبعون درهما ونصف غراره من قمح والادنى ستون درهما ونصف غراره قمح • وللمشارف فى كل شهر أربعون درهما ونصف غراره قمح ، وللكحال فى كل شهر خمسه وأربعون درهما ونصف غراره قمح وللحوائج فى كل شهر ثلاثة عشر درهما وربع غراره قمح • والى ثلاثه رجال يقوم لكل من الرجال فى كل شهر ثلاثه عشر درهما وسدس غراره قمح • ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات فى كل شهر لكل واحده عشره دراهم وسدس غراره قمح • والى الشراب وبائعه لعمل الاشربه والمعالجين فى كل شهر سته وعشرون درهما وثلث غراره قمح ولأمين المشارفين والمتولين فى الوقف الى كل واحد فى كل شهر ستون درهما وغراره قمح وغراره شعير وللامام فى كل شهر أربعون درهما وثلث غراره قمح • وللمعمار المرتب لعمارته فى كل شهر ثلاثه عشر درهما وسدس غراره قمح • وللحوائج فى كل شهر ثمانيه دراهم وسدس غراره ، وللناظر العشر عن المغل وربع الوقف يصرف الى رجلين أثنين بخدمه البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرس ولحف ومخدة وفى كل شهر الى قيمة • والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهما فان فضل يصرف الى فكاك الاسارى من الكفار وبعد ذلك عاد وقفا على الفقراء » • ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التى وقفها على بيمارستانة •

---

(١) الوقفية موجودة بديوان الاوقاف بدمشق «رقم (٢٣٧) وثائق وحجج»
(٢) كذا فى الاصل وصحتها (واحد)

فهرس الخرائط

فهـرس الاشـكال

فهرس اللوحات

٢٢ ـ لوحة من كتاب (كشف الاسرار) تبين شجرة البان • من سوريا فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر • ويظهر فيها شخص يرتدى عمامة وجبة •
(بمكتبة جامع السلطان سليمان باسطنبول)

٢٣ ـ لوحة من مقـــامات الحـــريرى تبين (أبو زيد) يطلب أن ينقل فى السفينة (ويرى البحارة والربان وقد ارتدوا (الازار) الخاص بالعمال •
(بالمجمع العلمى بلننجراد)

٢٤ ـ لوحة من كتاب (مختار ومحاسن الكلم) تمثل سقراط وتلميذان وقد ارتدوا العمامة الجبة والشملة والجلباب • من سوريا فى القرن الثالث عشر •
(بمكتبة جامع السلطان سليمان باسطنبول)

٢٥ ـ لوحة من مقـــامات الحريرى مؤرخـــة (٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) تبين بوضوح شكل الطيلسان وزخارفه ورسومه •
(بالمكتبة الاهلية بباريس)

٢٦ ـ لوحة من مقامات الحريرى من المخطوط السابق • تظهر فيها أنواع متعددة من العمامة والمناطق والحذاء •

٢٧ ـ لوحة من كتاب (رسالة دعوة الاطباء) تبين الطبيب يستيقظ من النوم ليجد تلاميـــذه يعدون وليمة غذاء فى داره • وقد ظهر فيها أنواع مختلفة من غطاء الرأس : العمـــامة والتخفيفة والدينة • كما يظهر الطيلسان والجلباب •
(بالمتحف البريطانى بلندن)

٢٩ ـ لوحة من كتاب (مادة الـــطب) تبين تلميذين يرتديان عمامة وجلبـــاب مقلم ، الذى الذى يكاد ينحصر فى لباس اهـــل مصر والشام • وكذا الحذاء • من سوريا فى القرن الثالث عشر •
(بمكتبة متحف طوبقبوسراى باسطنبول)

٣٠ ـ لوحة من مقامات الحريرى تبين فاتحـــة الكتاب وفيها أمير متوج • وقد ظهر فيها مجموعة واقية من غطاء الرأس : التاج والعمامة والدينة والعقال والكوفية •
(بالمكتبة الوطنية بفيينا)

٣١ ـ لوحة من مقامات الحـــريرى تبين قافلة حج • وقد ارتدى الحجاج القبـــاء والعمـــامة والمنطقة •
(بالمكتبة الاهلية بباريس)

٣٢ ـ لوحة من (رسائل اخوان الصفا) تبين كاتبا وقد ارتدى العمامة والشاشية والمطـــرف والوشاح •
(بمكتبة جامع السلطان سليمان باسطنبول)

٣٣ ـ لوحة من مقامات الحريرى وقد ظهر فى اعلاها صور نساء يرتدين انواعا مختلفـــة من غطاء الرأس : البخنـــق والشـــاشية والعصائب •
(بالمكتبة الاهلية بباريس)

٣٤ ـ لوحة من مقامات الحريرى وقد ظهر فى اعلاها صور نساء يرتدين النقـــاب والصـــدار والجلباب والحبرة •
(بالمكتبة الاهلية بباريس)

٣٥ ـ لوحة تبين شكل السيف المستقيم •

٣٦ ـ لوحة تبين شكل سيف مستقيم من العصر الاسلامى

٣٧ ـ لوحة تبين الرسوم الجلدية المستعملة فى لعبة (خيال الظل) وقد ظهر فيها صورة فارس ممتطى صهوة جواده ويحمل على ذراعه الباز •

٣٨ ـ لوحة تبين الرسوم الجلدية المستعملة فى فى لعبة (خيال الظل) وقد ظهر فيها صـــورة سفينة وبها الربان والبحارة •

٣٩ ـ لوحة من مخطوطة (الفونس الحكيم) تبين لعبة الشطرنج •
(بمكتبة الاسكوريال بمدريد)

٤٠ ـ لوحة تبين صـــحن الجامع الاموى وبه بيت المال •

٤١ ـ لوحة تبين واجهة ايوان القبله بالجامع الاموى بدمشق •

٤٢ ـ لوحة تبين اللوحة التاسيسية بجامع ابى الفدا بحماه •

أولا – المخطوطات

ابن اياس (ابو البركات محمد بن احمد ت ٩٣٠٠هـ / ١٥٢٤م) :

نزهة الامم فى العجائب والحـكم (فى مجلدين رقم ٢٢٩٦٣ بمكتبة جامعة القاهرة) .

ابن القطرى البحيرى (احمد بن محمد من علماء القرن الحادى عشر) :

مخدرات القصور (مخطوطة مصـورة بمكتبة شيخ الاسـلام عارف حكمت بالمدينة المنورة .

ابن دقماق (برهان الدين بن محمد ت ٨٠٩هـ):

الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ)

ابن حبيب : (الحسـن بن عمر ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :

ودرة الاسلاك فى دولة الاتراك (مخطوطة بجامعة القاهرة رقم (٢٢٩٦١) وتوجد نسخة أخرى بدار الكتب رقم ٦١٧٠ح) .

ابن الشحنة (ابو الوليد محب الدين محمد بن محمد ت ٨١٥هـ) :

روض المناظر فى علم الاوائل والاواخر (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٥م تاريخ) .

ابن العديم (كمال الدين بن ابى جـرادة ت ٦٦٠هـ) .

بغيـة الطلب فى تاريخ حلب (نسـخة مخطـوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥١٦ تاريخ وصورة منها بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٣٥٨ تاريخ) .

ابن الفرات : (محمد بن عبد الرحيم بن على ت ٨٠٧هـ) :

تاريخ الامم والملوك (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣١٩٧ تاريخ) .

ابن قاضى شهبه (أبو الفضل محمود بن أبى بكر ت ٨٧٤هـ) :

الكواكب الدرية فى السـيرة النبوية (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٢٧ تاريخ – تحقيق محمـود زايد ، بيروت ١٩٧١) .

ابن الامام : (أبو العباس احمـد بن محمـد البصراوى من علمـاء القـرن الحادى عشر الهجرى) :

تحفة الانام فى فضائل الشام (مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٦٤٣ وغيـر مرقمـة الصفحات) .

الازدى (جمال الدين ابو الحسن على بن كمال الدين ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) :

أخبار الدول المنقطعـة (مخـطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ) .

الأسدى (محمد بن محمد ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) :

كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار (مخطوطة مجلد قرم ٥٤٨٦ بدار الكتب المصرية حققه عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٧) . **بيبرس الدوادار : (ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) :**

زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة جـ٦ مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٦) .

التحفة الملوكية فى الدولة التركية (مخطوط رقم ٢٤٠٢٩ بمكتبة جامعة القاهرة) .

الحنبلى (احمد بن ابراهيم) :

شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٤١٣١) .

الذهبى : شمس الدين ابى عبد الله محمد بن احمد ت ٧٤٨) :

دول الاسلام (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٩ تاريخ) .

تاريخ الاسلام الكبير (مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ) .

الرماح : (نجم الدين الاحدب الرماح قرن ٧هـ) :

الفروسية والمناصب الحربيـة (مخطوطة بمكتبة الحرم المكى الشريف رقم ٥٠ تاريخ) وصورة منه بمعهد المخطوطات العربيـة رقم ٨٣) .

الاقصرائى : (محمد بن عيسى ت ١٣٥٠ م) :

كتاب نهاية السؤال والامنية فى تعليم اعمال الفروسية (مخطوطة بمتحف طوب قابو سراى باستانبول رقم ٢٦٥١) .

سبط ابن الجوزى : « شمس الدين ابى المظفر يوسف قزاوغلى التركى ت . ٦٥٤هـ) :

مراة الزمان فى تاريخ الاعيان ج ٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ وطبعة شيكاغو ١٩٠٧م ، وطبعة حيد أباد ١٩٥١م) .

سبط ابن العجمى : (موفق الدين ابى ذر احمد بن ابراهيم الحلبى ت. ٨٨٤هـ) :

كنوز الذهب فى تاريخ حلب (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٨٣٨ تاريخ تيمور) .

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر متوفى ٩١١هـ) :

السماح فى اخبار الرماح (نسخة دار الكتب المصرية رقم ٥١٧ (حديث) .

الصفدى : (صلاح الدين خليل بين ايبك توفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٥١٧ م) :

اعيان العصر وأعوان النصر (مجلدان رقم ٢٠٢ بمكتبة الحرم المكى غير مرقم الصفحات) .

طيبغا البكلمشى (ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م) :

× نزهة النفوس فى لعب الدبوس (نسخة دار الكتب المصرية ـ المكتبة التيمورية رقم ١٢ فروسية)

× الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية (نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٣٣ فنون حربية) .

× بغية الرامى وغاية المرامى بالقوس والنشاب والبندقية (نسخة بمكتبة بلدية سوهاج رقم ٦ صناعة) .

العمرى : (شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله توفى سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) :

مسالك الابصار فى الممالك والامصار . (فى ستة أجزاء مصورة رقم ٥٥٩ بدار الكتب) .

العينى : (بدر الدين محمد محمود بن احمد بن موسى ت ٨٨٥هـ / ١٤٥١م) :

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (٢٣جزءا فى ٦٩ مجلد . مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تصوير شمس رقم ١٥٨٤تاريخ) .

الغسانى الحلبى (يحيى بن أبى طيىء النجار الغسانى الحلبى من القرن ٩هـ) :

معادن الذهب فى تاريخ حلب (مخطوطة رقم ١١٥ آثار بمتحف حلب) .

لاجين الحسامى (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) :

× كتاب تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين (نسخة كتبت برسم السلطان المملوكى قنصوة الغورى سنة ٩٠١هـ ويضم المجلد عدة أخرى للمؤلف نفسه ـ مكتبة احمد الثالث بمتحف طويقانى سراى باستنبول رقم ٣٤٧١) .

الحنبلى (مجير الدين العليمى ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) :

الانس الجليل فى تاريخ القدس والخليل (مجلد رقم ٩ ـ ١٠ ـ ١١ بدار الكتب وقم ١٢٢ بمكتبة الحرم المكى ، وطبع بالقاهرة سنة ١٢٨٢هـ) :

المقدسى : (مرعى بن يوسف بن أبى بكر من علماء القرن العاشر الهجرى) :

نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من السلاطين (مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٠٧٦ تاريخ) .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) :

نهاية الارب فى فنون الادب (فى ٣٠ جزء برقم ٥٤٩ بدار الكتب المصرية ونسخة أخرى رقم ٥٥١ معارف عامه) .

ثانيا ـ المصادر المطبوعة

ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبي العباس القاسم بن خليفة بن يونس ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) :
عيون الانباء فى طبقات الاطباء ـ جزآن (١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م) :
ابن اياس : (أبو البركات محمد بن احمد ت٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) :
× بدائع الزهور فى وقائع الدهور (فى ثلاثة مجلدات ـ طبع بولاق ـ ١٣١١هـ ٠ الجزء الناقص ٠ ويشمل من سنة ٨٥٧ هـ الى سنة ٨٧٢ هـ نشره الدكتور محمد مصطفى ، طبع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥١ ـ الجزء الرابع نشره الدكتور محمد مصطفى والمستشرق « كاله » طبع استنبول ١٩٣١ ٠ والجزء الخامس نشره الدكتور محمد مصطفى القاهرة ١٩٦١م) ٠
× تعليم فى فنون القتال والفروسية (رسالة مخطوطة من أواخر عصر المماليك الجراكسة (نشرها محمد مصطفى بمجلة المجمع العلمى المصرى مجلد (٥١) ١٩٧٠/٦٦م) ٠
ابن ايبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن ايبك توفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) :
كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٥ ، الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية (تحقيق صلاح المنجد ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) جـ ٦ الدر المطلوب فى اخبار بنى أيوب تحقيق الدكتور سعيد عاشور) وجزء ٩ (الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر (تحقيق هانس روبرت رويمر القاهرة ١٩٦٠) ٠
ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتى ت ٧٧٩هـ) :
رحلة ابن بطوطة المسماة تحفه النظار ، بيروت ١٩٦٤ ٠
ابن جبير (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :
رحلة ابن جبير المسماة تذكرة بالاخبار فى اتفاقيات الاسفار (القاهرة ١٩٥٥) ٠
ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن الجزرى) ٠
التاريخ القاهر فى الدولة الاتابكيه الكامل فى التاريخ ٠
ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ت ٥٩٧هـ) :
المنتظم فى تاريخ الملوك والامم (الطبعة الاولى ـ حيدر اباد الدكن جـ ٧ ١٣٥٨هـ / جـ ١٣٥٩هـ) ٠
ابن حجر العسقلاني (أحمد بن على بن محمد ت٨٥٢هـ) :
الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة (حيدر أباد ـ الدكن ١٣٤٨هـ) ٠
ابن الحوراني : (من علماء القرن العاشر) :
الاشارات فى أماكن الزيارات (دمشق ١٣٠٢هـ) ٠
ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبى ت ٠ أواخر القرن الرابع الهجرى) :
صورة الارض (الطبعة الثانية ـ القسم الاول ليدن ١٩٣٨) ٠
ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله عبد الله) :
كتاب المسالك والممالك (طبعة دى غوية ـ ليدن ١٨٨٩م) ٠
ابن خلدون (٠عبد الرحمن ، توفى سنة ٨٠٨هـ /١٤٠٥م) :
العبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة ١٢٨٤ م) ٠
ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد توفى سنة ٦٨١هـ) :
وفيات الاعيان وأنباء الزمان (القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ م) ٠
ابن الاخوة (محمد بن محمد توفى ٧٢٩هـ /١٣٢٨ م) :
معالم القرية فى احكام الحسبة (نشره المستشرق الانجليزى روبن ليفى ، لندن ١٩٣٨)
ابن دانيال : (محمد بن دانيال بن يوسف الموصلى ت ٧١٠هـ / ١٣١٠ م) :
طيف الخيال (نشر مجورج يعقوب ١٩١٠م)
ابن دقماق (غرس الدين ابراهيم بن ايدمر العلائى ت ٨٥٩هـ / ١٤٠٦ م) :
الانتصار براسطة عقد الامصار (الجزء الرابع ـ الخامس ـ القاهرة ١٣٠٩هـ) ٠
ابن سحنون (محمد بن سحنون ت ٢٥٦هـ /٨٦٠م) ٠

آداب المعلمين (نشر فؤاد الاهـوانى ـ القاهرة ١٩٦٨م) ٠
ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شـاهين الظاهرى ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) :
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ وهو مختصر كتابه كشف الممالك فى مجلـدين ـ نشره بول رافيس ـ طبع باريس ١٨٩٤م)
ابن الشحنة (قاضى القضاة محب الدين ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م)
الدر المنتخب فى مملكة حلب (تحقيق يوسف سركيس ـ بيروت ١٩٠٩م) ٠
ابن شداد (بهاء الدين المعروف بابن شـداد ت٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) :
سيرة صلاح الدين المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية القاهرة ١٣١٧ هـ ، ونسـخة أخرى تحقيق الشيال ٠ القاهرة ١٩٦٤ ٠
ابن شداد (عز الدين ابو عبد الله محمد بن على بن ابراهيم بن شداد الانصارى الحلبى ت ٦٨٤هـ)
الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشـام والجزيرة ٠ جزئين حـ ١ نشر وتحقيق دومنيـك سورديال ـ دمشق ١٩٥٣ جـ ٢ ، دمشق ، نشر سامى الدهان (دمشق ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦م) ٠
ابن الشدياق : الشيخ ابن يوسف الشدياق الحدثى المارونى ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م) :
اخبار الاعيان فى جبل لبنـان (بيروت ١٨٥٩م) ٠
ابن طولون (شمس الدين أبى الفضل بن محمد) :
× الشمعة المضـيئة فى اخبار القلعـة الدمشقية (دمشق ١٣٤٨هـ) ٠
× القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية (تحقيق محمد احمد دهمان دمشق ١٩٤٩)
× قضاة دمشق فى الاسـلام (وحققه صلاح الدين المنجد) ٠
ابن عبد الحق البغدادى :
مراصد الاطلاع فى أسماء الامكنة والبقـاع ، طبعة ليدن ١٨٥٠) ٠
ابن عبـد الظاهر (محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) :
الالطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية (سيرة السلطان خليل قلاوون طبع ليبسك) ٠
ابن العبرى (عز يغوريوس بن الفرج بن هارون الطبيب الملطى ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) :
تاريخ مختصر الدول (بيـروت ١٨٩٠ ـ ١٩٥٨م) ٠
ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١ هـ) :
× التاريخ الكبير (دمشـق ١٣٤٩ هـ / ١٣٢٩هـ) ٠
× تاريخ مدينة دمشق (دمشق : مجلدين (دمشق ١٣٧١هـ / ١٩٥١م) ٠
× نصوص من ابن عساكر : ولاة دمشق فى العهد السلجوقى ٠ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ مطبعة الترقى بدمشـق ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ م) ٠
ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) :
زبدة الحلب فى تاريخ حلب ـ تحقيق سامى الدهان جزآن (دمشق ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م) ٠
ابن العماد (أبو الفـلاح عبى الحى بن على بن محمد ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) :
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ ٠
× **ابن العميد (الشيخ جرجس بن العميد ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) :**
× اخبار الايوبيين ٠ نشر كلود كاهن
× تاريخ المسلمين طبعة ١٩٢٥ م

ابن الفرات (ناصر الدين محمـد ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤ م) :
تاريخ الدول والملوك (المجلد التاسع فى جزئين ـ نشره الدكتور قسطنطين زريق ـ بيروت ١٩٣٦ م) ٠
ابن القـلانس (ابو يعلى حمـزة ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) :
ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨م) ٠
ابن القيم الجوزية (شـمس الدين ابو عبد الله محمد الدمشقى المتوفى سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م) :
× الفروسية (القاهرة ١٩٤٢م) ٠
× الطب النبوى (مصر سنة ١٣٧٧) ٠
ابن القفطى (جمـال الدين ابى الحسن على بن القاضى الاشرف يوسف ت ٦٤٦هـ) :
اخبار العلماء باخبار الحكماء (القاهرة ١٩٣٦م) ٠
ابن كثير : الحافظ عماد الدين اسماعيل ت ٧٤٤هـ / ١٣٧٣م) :

البداية والنهاية فى ١٤ جزء (القـاهرة.

ابن مماتى : (القاضى الوزير شرف الـدين ابوالمكارم بن ابى سعيد ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) :
كتاب قوانين الدواوين (نشره الدكتـور عطية سوريال ـ القاهرة ـ القاهرة ١٩٤٣ م) .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الانصارى المتوفى سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) :
لسان العرب ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م) .

ابن ميسر : (ابو عبد الله تاج الدين محمد بن على ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م) :
اخبار مصر ج ١ (القاهرة ١٩١٩م) .

ابن ناصر الحسينى (صــدر الدين ابو الحسن على) :
اخبار الدولة السلجوقية (نشره محمــد اقبال سنة ١٩٣٣) .

ابن هذيل الاندلسى (على بن عبد الرحمن الاندلسى):
حلية الفرسان وشعار الشجعان (تحقيق محمد عبد الغنى حسن ـ القاهرة ١٩٤٩م) .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن ســالم ت ٦٩٧هـ) :
مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب (الاجزاء الثلاثة نشر الشيال مصر ١٩٥٣ ، ١٩٦٠ الجزء الرابع نشر حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢م) .

ابن الوردى (ابو حفص زين الدين عمر بن مظفر ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) :
تتمة المختصر فى اخبار البشر ويعرف بتاريخ ابن الوردى (القاهرة ١٢٨٥هـ) .

ابو شامة (شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن ت ٦٥٥هـ / ١٢٦٧ م) :
كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين (الجزء الاول فى قسمين ، نشر محمد حلمى محمد احمد القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢ م) .

ابو الفداء : (اسماعيل بن على محمود الملك المؤيد صاحب حماة ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢ م) :
× المختصر فى اخبار البشر ويعرف بتاريخ ابى الفدا (فى أربعة مجلدات ، القســطنطينية ١٢٨٦هـ) .

أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغر بردى ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) :
× النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب وصلت الى الجزء السادس عشر ١٩٧٢) .
× منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور (كليفورنيا ١٩٣٠ ـ ١٩٤٢م) .

أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم الانصارى الكوفى ت ١٨٢هـ / ٧٩٨ م) :
كتاب الخراج (القــاهرة ١٢٨٧ هـ رقم ١٥٢ بمكتبة الحرم المكى) .

اسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر اســامه بن مرشد الكنانى الشيزرى ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م)
الاعتبــار ـ نشره فيليب حتى ـ مطبعــة جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠م .

الانصارى عمر ابراهيم الاوس الانصارى القرن ١٥م) :
تفريج الكروب فى تدبير الحروب ـ (تحقيق جورج سكانلون ـ مطبوعات الجامعة الامريكية ـ القاهرة ١٩٦١ م)

البدرى (أبو البقاء عبد الله بن محمد) من علماء القرن التاسع الهجرى :
نزهة الانام فى محاسن الشام .

البلاذرى (احمد بن يحيى بن جابر ت ٢٦٩هـ /٨٩٢م) :
× فتوح البلدان ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ .
× انساب الاشراف (نشر

الذهبى (الحافظ الذهبى توفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٨ م) العبر فى خبر من غبر (٥ أجزاء ـ نشر صلاح المنجه وفؤاد السيد ـ الكويست ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦م)

الربعى (أبو الحسن على بن محمد) :
مجمل فضائل الشام ودمشق (تحقيق صلاح الدين المنجد ـ دمشق ١٩٥٢) .

السبكى (تاج الدين عبــد الوهاب ت ٧٧١هـ /١٣٦٩م) :
× معيــد النعم ومبيد النقم (القاهرة ١٩٨٤ م) .
× طبقات الشافعية الكبرى .

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ـ توفى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) :
× الضوء اللامع لاهل القرن التاسع (١٢ مجلد) القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦م .
× التبر المسبوك فى ذيل الملوك (القاهرة ١٨٩٦م) .

السهمودى (جمال الدين أبو المحاسن عبد الله ت٩١١هـ / ١٥٠٥ م) :
وفا الوفا باخبار دار المصطفى (القاهرة١٣٢٦ هـ) .
السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) :
حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .
الشـــدياق :
تاريخ الاعيان فى جبـــل لبنان (بيروت١٨٥٩ م) .
الشعرانى (أبو محمد عبد الوهاب بن احمد بن على ت ٩٧٣هـ / ١٥٦٥ م) :
الميزان فى مجلدين جـ ١ القاهرة ١٣٥١هـ /١٩٣٢ م) .
الاصطخرى (ابى اسحق ابراهيم بن محمـــد الفارسى ت فى النصف الفارسى ت النصف الاول من القرن الرابع الهجرى :
المسالك والممالك (القاهرة ١٩٦١ م) .
الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك ت ٧٦٤ هـ) :
امراء دمشق فى الاسلام (دمشق ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م) .
الطباخ الحلبى (محمد راغب بن هاشم) :
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (طبعة أولى جـ١ ، جـ٢ ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م جـ٣ ١٣٤٣هـ / ٩٢٢ م) :
الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ /٩٢٢م) :
تاريخ الامم والملك (طبعة دى غويه ــ ليدن١٨٨١م) .
الطرسوسى (مرض بن على الطرسوسى قرن ــ ٦هـ / ١١ ــ ١٢ م) :
تبصرة أرباب الالباب النجاة فى الحروب من الاسواء ونشر اعلام الاعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الاعداء (نشر كلود كاهن ــ مجلة الدراسات الشرقية ــ المعهد الفرنسى بدمشق جـ ١٢ ــ ١٩٤٧ ــ ١٩٨٤ م) .
العمرى (شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضـــل الله العمرى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) :
× التعريف بالمصـــطلح الشريف (مصر١٣١٢هـ) .
× مسالك الابصـــار فى ممالك الامطار (الجزء الاول ــ تحقيق احمد زكى باشا ــ القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م) .
الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ت٥٠٥هـ / ١١١٠م) :
كتاب احياء علـــوم الدين (فى مجلدين ــ القاهرة ٢٨٩هـ / ١٣٤٨م) .
الغزى (كامل بن حسن بن مصطفى بأبى الحلبى ت ١٣٥١هـ) :
نهر الذهب فى تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ١٣٤٢ ١٣٤٥هـ .
القابس (أبو الحسن بن محمد بن خلف ت ٤٠٣/ ١٠١٢ م) :
الرسالة المفضلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين (نشر فؤاد الاهوانى الاهرة ١٩٦٨م)
القرمانى (ابو العباس احمد حلبى بن يوســـف بن احمد الدمشقى ت ١٠١٩هـ) :
اخبار الدول وآثار الاول (بغداد ١٢٨٢هـ)
القلقشندى (ابو العباس احمد بن على بن أحمد ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :
صبح الاعشى فى صناعة الانشا (فى ١٤مجلدا ــ القاهرة ١٩١٩ ــ ١٩٢٢م) .
المجدوع (الشيخ اسماعيل بن عبد الرســـول الاجينى من علماء الاسماعيلية فى القرن الثانى عشر للهجرة :
فهرســـة الكتب والرسائل ولمن هى من العلماء والائمة والجدود الافاضل . منشـــورات مكتبة الاسدى بطهران رقم (٩) (١٣٤٤هـ / ١٩٦٦م) .
المسعودى (ابو الحسن على بن الحسن بن على ت ٣٤٦ هـ) :
مروج الذهب ومعادن الجوهر ــ الطبعـــة الثالثة ــ القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) .
المقدسي (المعروف بالبشارى ت ٣٧٥ هـ) :
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (طبعة ليدن ١٩٠٩م) .
المقرى (احمد بن محمد ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٣م):
نفح الطيب فى غصـــن الاندلس الرطيب (القاهرة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م) .
المقريزى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥هـ /١٤٤١ م) :
× السلوك لمعرفة دول الملك (نشر وتحقيق مصطفى زيادة الجزء الاول والثانى سنة ١٩٣٦ والجزء الثالث والرابع سعيد عاشـور٧٠ / ١٩٧٤ ــ القاهرة) .

× المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (طبعة النيل فى ٤ مجلدات ١٣٢٤ هـ طبعة بولاق فى مجلدين ١٢٧٠هـ)
× المبان والاعراب عمن بأرض مصر من الاعراب (جوتيجن) .
× اغاثة الامة بكشف الغمة (نشر زيادة والشيان . مصر ١٣٥٩هـ / ١٩٣٠م) .
× رسالة فى النقود الاسلامية (القسطنطينية ١٢٩٩هـ) .
× الذهب المسبوك فى ذكرى من حج من الخلفاء والملك (القاهرة ١٩٥٥م) .

النسفى (حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفى ت ٧١٠هـ / ١٣١٠ م
كنز الدقائق فى فروع الحنفية (طبع حجر بالهند رقم ٦٥ بمكتبة الحرم المكى) .

النعيمى (محيى الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ) :
الدارس فى تاريخ المدارس ج ١ ـ ج ٢ (دمشق سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م) .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م) :
نهاية الارب فى فنون الادب (نشر دار الكتب المصرية وصلت الى الجزء الثامن عشر) .

الصيادى (محمد عز الدين ت ٨٢٩هـ) :
الروضة البهية فى فضائل دمشق المحمية (دمشق سنة ١٣٣٠هـ) .

الهروى (على بن أبو بكر) :
الاشارات الى معرفة الزيارات (نشر سورد بل بدمشق سنة ١٩٥٣م) .

ياقوت الحموى (شهاب الدين بن ابى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الروسى البغدادى ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) :
معجم البلدان (بيروت ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م)

صالح ابن يحيى (الامير صالح بن محيى بن الحسين أمير الغرب) :
تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين (نشرة الأب لويس شيخو اليسوعى ـ بيروت ١٩٦٧ م) .

عماد الدين الاصفهانى (محمد بن محمد بن محمد ت ٥٦٧هـ / ١٢٠١م) :
× تاريخ دولة سلجوق ـ اختصره البندارى (القاهرة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م)
× الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبيح ـ القاهرة سنة ١٩٦٥م) .

أحمد بن على بن عمر صالح المضيفى :
الاعلام بفضائل الشام (تحقيق احمد سامح الخالدى ـ يافا .

مغلطاى (الامير ابراهيم) :
تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وامرائها (ويشمل من ٦٩٠ الى ٧٤١ هـ طبع ليدن ١٩١٩ م) .

مجهول (من القرن الثامن للهجرة) :
تاريخ سلاطين المماليك (نشر زيتر شتين ـ ليدن سنة ١٩١٩م) .

ثالثا ــ المراجع العربية والمترجمة

ابراهيم على طرخان :

× الاقطاع الاســـلامى وتطوره (المجلة التاريخية المجلد السادس ١٩٥٨) ٠

× النظم الاقطاعية فى الشرق الاوســـط (القاهرة ١٩٦٨) ٠

× مصر فى دولة المماليـك الجراكســـة (القاهرة ١٩٦٠) ٠

احمد بن فارس :

اشتقاق اسماء البلاد (دمشق ١٣٠٩هـ) ٠

أبو الفرج العش :

آثارنا فى الاقليم السورى (دمشق ١٩٦٠م) ٠

حسان هندى :

الحياة العسكرية عند العـــرب أو الجيش العربى فى الف عام (٥٠٠ ــ ١٥٠٠ م دمشق ١٩٦٤ م) ٠

احمد احمد بدوى :

الحياة الادبية فى عصر الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٢م) ٠

احمد ابن ابراهيم الصابونى :

تاريخ حماة ، حماه ١٣٣٢ هـ ٠

احمد بن زينى دحلان :

تاريخ الدولة الاسلامية بالجداول المرضية ، القاهرة ١٣٠٦هـ ٠

احمد تيمور :

التصوير عند العرب (أخرجه وزاد الدراسات الفنية عليه ، الدكتـــور زكى محمد حســـن القاهرة ١٩٤٢م) ٠

احمد عارف الزين :

تاريخ صيدا (صيدا ١٣٣١ هـ) ٠

احمد عبد الرازق احمد :

دراسات فى المصـــادر المملوكية المبكرة (المصادر التاريخية ــ القاهرة ١٩٧٤م) ٠

احمد عيسى :

تاريخ البيمارستانات (دمشق ١٩٣٩م)

ارتين (يعقوب باشا) :

الاحكام المرعية فى شـأن الاراضى المصرية (مصر ١٣٠٦هـ) ٠

أمين سعد خير الله :

الطب العربى (بيروت ١٩٤٦) ٠

اسطفان الدويهى :

تاريخ الطائفة المارونيـــة (طبعة بيروت ١٨٩٠م) ٠

بروكلمان (كارل) :

تاريخ الشعوب الاســـلامية (٥ اجزاء ــ بيروت سنة ١٩٥٠ م)

بيشرف الجرمانى :

تحفة الانباء فى تاريخ حلب الشـــهباء (بيروت ١٨٨٠م) ٠

ترتون (أ ٠ س) :

اهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة الدكتـــور حسن حبشى (القاهرة ١٩٤٩م) ٠

جورجى زيدان :

تاريخ التمدن الاسلامى (خمسة اجزاء ــ القاهرة ١٩٠٢ ــ ١٩٠٦م) ٠

جوزيف نسيم يوسف :

مجموعة دراسات القلقشندى وكتاب صبح الاعشى ، القاهرة ١٩٧٣ ٠

حسن الباشا :

× الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار (القاهرة ١٩٥٧ م) ٠

× الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية (ثلاثة أجزاء ــ القاهرة ٦٥/١٩٦٦م) ٠

حسن ابراهيم :

× تأريخ الاسلام السياسى (خمسة اجزاء القاهرة) .
× الفاطميون فى مصر ، القاهرة) .
حسن احمد محمود :
العالم الاسلامى فى العصر العباسى (القاهرة ١٩٦٦) .
حسن حبشى :
نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨م)
حسنين ربيع :
النظم المالية فى مصر فى زمن الايوبيين (القاهرة ١٩٦٥ م) .
الحوليات الاثرية العربية السورية :
المجلد الرابع والعشرون (الجزآن الاول والثانى سنة ١٩٧٤م) .
دائرة المعارف الاسلاميه .
زامباور (المستشرق) :
معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى .. ترجمة المرحوم الدكتور زكى ١٩٥١ م) .
زكى مبارك :
التصوف الاسلامى فى الادب والاخلاق (القاهرة ١٩٣٨م) .
زكى محمد حسن :
× فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨ م) .
× اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية (مطبعة جامعة القاهرة عام ١٩٥٦) .
زيادة (محمد مصطفى) :
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١) .
سعاد ماهر محمد :
× مساجد مصر وأولياؤها الصالحون (جزآن - المجلس الاعلى للشئون الاسلامية) .
× مشهد الامام على بالنجف (دار المعارف ١٩٦٩) .
× البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية (مطبعة الدار القومية) .
سعيد عبد الفتاح عاشور :
× الحركة الصليبية . جزآن (القاهرة ١٩٦٣) .
× قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .
× أوربا العصور الوسطى ، جزآن ، القاهرة ١٩٥٩ .
× الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة .
× مصر فى عصر دولة المماليك البحرية (القاهرة ١٩٥٩) .
× المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢م) .
× الناصر صلاح الدين ١٩٦٥ م)
سليمان احمد سليمان :
قطع من السلاح الايرانى بمتحف الفن الاسلامى - الكتاب التذكارى بمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥٠٠ قرنا على تأسيس الامبراطورية الفارسية - القاهرة ١٩٧١ م .
السيد الباز العرينى :
× الفارس المملوكى (المجلة التاريخية المصرية جـ ٥ القاهرة ١٩٥٦ م) .
× مصر فى عصر الايوبيين (القاهرة ١٩٦٠ م) .
× الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٥ م)
× الشرق الاوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣) .
سيدة اسماعيل الكاشف :
× مصر فى عصر الاخشيديين - مطبعة فؤاد الاول القاهرة ١٩٥٠ .
× الفلاح ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٧٤ .
× الجيش والبحرية من الفتح العربى الى بداية العصر الطولونى (الرسالة ٨٤ من رسائل الثقافة العسكرية) .
عبد الرحمن فهمى :
النقود العربية ، ماضيها وحاضرها (القاهرة ١٩٦٤) .
عبد الرحمن زكى :
× السلاح فى الاسلام (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٥١ م)

× السيف فى العالم الاسلامى (القاهرة ١٩٥٧ م) .
× الجيش المصرى فى العصر الاسلامى (جزآن ـ القاهرة ١٩٧٠ م)
عبد الرحمن الرافعى وسعيد عبد الفتاح عاشور:
مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى (القاهرة ١٩٧٠ م) .
عبد الرءوف عون :
الفن الحربى فى صدر الاسلام (دار المعارف بالقاهرة ١٩٦١) .
عبد اللطيف ابراهيم :
× الوثائق فى خدمة الآثار (العصر المملوكى) القاهرة ١٩٥٩ .
× من وثائق التاريخ العربى (مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ـ العدد الثانى سنة ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٢ م) .
عبد المنعم ماجد :
× السجلات المستنصرية (القاهرة ١٩٥٤) .
× نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر (جزآن) القاهرة ١٩٦٧ م .
عبد المنعم محمد حسنين :
سلاجقة ايران والعراق (القاهرة ١٩٥٩م)
عثمان عبد الحميد عشرى :
الاسماعيليون فى بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (رسالة دكتوراة لم تنشر (كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م)
على البنا وعبد المنعم ماجد :
الاطلس التاريخى للعالم الاسلامى (القاهرة ١٩٦٧ م) .
على حسنى الخربوطلى :
الحضارة العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٦٣ م)
علية عبد السميع الجنزورى :
امارة الرها الصليبية (القاهرة ١٩٧٤) .
عمر الصالح البرغوثى وخليل طوطح :
تاريخ فلسطين .
عيسى اسكندر المعلوف :
صناعات دمشق القديمة (محاضرة المجمع العلمى العربى بدمشق) .
فؤاد حمزة :
قلب جزيرة العرب (القاهرة سنة ١٩٣٣م)
فيليب حتى :
× تاريخ العرب (بيروت سنة ١٩٦٦ م)
× تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (ترجمة كمال البازجى بيروت سنة ١٩٥٨م) .
الكرملى (الاب انستاس مارى) :
النقود العربية وعلم النميات (القاهرة ١٩٣٩م) .
كوستى ـ ارنولد ـ بريجر :
تراث الاسلام (مترجم ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م) .
كوبلاند وفينوجرادوف :
الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة (طبعة ثالثة ، القاهرة ١٩٥٨ م) .
لويس (برنارد) :
النقابات الاسلامية (ترجمة عبد العزيز ٣٦٢) سنة ١٩٤٠ .
اصول الاسماعيلية (ترجمة خليل احمد جلو الدورى ـ مجلة الرسالة العدد (٣٥٥ ـ ٣٥٧ ـ وجاسم محمد الرجب) .
لويس شيخو اليسوعى :
بيروت تاريخها وآثارها (بيروت سنة ١٩٥٢ م) .
محمد باقرطم :
العملة الاسلامية فى العهد الاتابكى (رسالة ماجستير لم تطبع جامعة القاهرة سنة ١٩٦٤) .
محمد جمال سرور :

× مصر فى عهد الدولة الفاطمية (القاهرةسنة ١٩٦٠ م)
× النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق (القاهرة سنة ١٩٦٤ م) .
× تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق (القاهرة سنة ١٩٦٥ م) .
× دولة بنى قلاوون فى مصر (القـــاهرةسنة ١٩٤٧ م) .
× دولة بنى قلاوون فى مصر (القـاهرةسنة ١٩٤٧م) .
× دولة الظاهر بيبرس فى مصر (القاهرةسنة ١٩٦٠م) .

محمد سليمان الجندى :
تاريخ معرة النعمان (دمشق سنة ١٩٦٣م)**محمد عبد الرحيم غنيمة :**
تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى (المغربسنة ١٩٥٣م)

ميخائيل موسى آلوف البعلبكى :
تاريخ بعلبك (بيروت سنة ١٨٨٩ م) .

نعيم زكى فهمى :
طرق التجارة الدولية بين الشرق والغربفى أواخر العصور الوسطى (القـــاهرة سنة ١٩٧٣م) .

هنرى لامنس اليسوعى :
تسريح الابصار فى ما يحتـــوى لبنان من الآثار فى أربعة اجزاء الاول فى قســـم لبنان الشمالى (طبعة ثانية بالمطبعة الكاثوليكيةللآباء اليسوعيين ببيروت) .

واصف غالى بطرس غالى :
تقاليد الفروسية عند العرب (ترجمة انورلوقا ، القاهرة سنة ١٩٦٠ م) .

وصفى زكريا :
عشائر الشام (دمشق سنة ١٩٤٠م) .

وزارة الاوقاف ـ قسم المساجد :
الفقه على المذاهب الاربعة (أربعة مجلداتمصر سنة ١٩٣٥م)

يوسف الدبس :
تاريخ سوريا . (بيروت سنة ١٩٠٠ م)

محمود فرج :
المدرسة العسكرية الاسلامية (القاهرة سنة١٩٧٠م)

محمد كامل بابا :
جوامع طرابلس (طبعة دمشق سنة ١٣٣٦هـ)

محمد كرد على :
× خطط الشام (٦ أجزاء دمشق ســـنة١٩٢٥م) .
× الاسلام والحضارة العربية (القاهرة)

محمد محمد أمين على :
تاريخ الاوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك (رســـالة دكتوراة لم تطبع ـ جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م) .

محمد محمد الشيخ :
الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ ـ ١١٤٤م)
الاسكندرية سنة ١٩٧٢ م .

محمد ياسين الحموى :
دمشق فى العصر الايوبى (دمشق ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م) .

نبيلة ابراهيم مقامى :
فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر (رسالة ماجستير لم تنشر (كلية الآداب جامعة القاهرة ســـنة١٩٧٥م) .

نظير حسان :
ـ جيش مصر فى أيام صلاح الدين (القاهرة١٩٥٦م)
ـ التـــاريخ الحـــربى المصرى فى عصرصلاح الدين (القاهرة سنة ١٩٥٧م)
ـ المؤرخون المعاصرون لصـــلاح الدين الايوبى (القاهرة سنة ١٩٦٢ م)

نعمان قسطاطى :
الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء (بيروتسنة ١٨٧٩ م) .

Abd Ar - Razig, (Ahmad):
La femme au temps des Mamlouks en Egypt, le Caire 1973.
Abel, Le R.P.P.:
Geographie de la palestine, 2 vols (Paris 1936-1938)
Aquensis, A.:
Historiae liber, vol III Hist Occid. T.4
Al - Ghaziri: (B)
Rome et L Eglise syrienne - Maronite Paris 1906
Ali Shah:
Islam Sufism - (London 1933).
Ali, Syed Ameer:
A Short History of the Saracens, London (1949).
Ashbel:
Rain foll map of palestin, transjordin southern syring southern lebanon 3rd ed (Jerusal am 1942).
Ashtor (E):
Some Unpublished sources for the Bahri Period Studies in Islamic History and civilization ed. Uriel Heyd (Scripta Hierozolymitana, vol. IX 1961.
Awad (H.A):
Seventh century arab jmitations of Alexandrian Dodacanummia (germany 1972).
Ayalon (D):
The structure of the mamluk army (Bulletin of the School of oriental and Africa studies), vois 15, 16 (1953 - 1954).
The System of payment in Mamluk miltary Society. JESHO, (1947).
Bacharach (J) H.A. Awad:
The problem of the obverso and revers in Islamic numismaties (Oxford University 1973).
Baer (G):
Guilds in the Middle eastern History Jerusalam
Balog, (Paul):
The coinage of the mamluk sultans of Egypt and Syria (New York 1964).
Becker, (C.H.)
Medieval History (Cambridge medieval History) vol II (New York 1913).
Berchem (Max Van):
Materiaux pour corpus Inscriptionum Arabicarum (Egypt. T.I. Paris 1903).
Reserches Archeaologique en Syrie (Paris 1906).
Bidair (Sh):
Habous ou wakf dans le droit de L'Islam (Paris 1924).
Blackmore (H):
Arms and Armour (London 1965).
Blankenhorn (M.):
Handbuch der regionalen geologie. vol. V pt4, Syrien und Mesoptamien (Heidelberg 1914).
Bullock (R): ?
Oriental Arms and Armour
(Bulletin of metropolitan Museum of Arts-New -York 1947).
Burton (R).
The Book of the sword, London 1884.
Caetani (L.):
Annali dell Islam, vol II.5.
Cahen (Claude):
La syrie du Nord à L'Epoque des croisades (Paris 1940).

Les chroniques arabas concernant la Syria, L'Egypte et la mesopotamie de la conquéte arabe à la conquete ottomane, dans les bibliotheques d'Istambul, REI, IV (1936).
Quelques mots sur le declin commercial du monde Musulman à la fin du Moyen âge (Paris)
Carleton (A):
Aleppe as a muslum centre. Muslim world, vol 27 (1937).
Chalandon(F):
Histoire de la premiere croisade, paris, 1925.
Codrington:
A manual of Musalman Numismaties (London)
Combe (E): Sauraget-J' et Wiet (g):
Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe (15 vols) (Le caire 1931 - 1934).
Cook, M.A. (Editor):
Studies in the Economic History of the MidlleEast (Oxford University Press 1970).
Cowper (H.S):
The Art of Affack and development of weapons (Ulverston 1906).
Crecelius (D):
The Organization of Wakf Documents in Cairo(International Journal of Middle East studies, vol 2 1971).
Creswell (K.A.C)
The works of sultan Bibars al Banduqdari in Egypt (Oxford)
The Origin of the Cruciform plan of Cairene Madrassas
The Muslim Architecture of Egypt (Oxford 1940, 1955).
A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt.
Bulletin de L'institut Francais d'Archaéologie orientale XVI, P.P 39-104. (1919).
Cuinet:
Syrie, Liban et Palestine.
Darrag (Ahmad):
La vie d'Abu el mahasin ibn Tagri Birdi et son Oeuvre fnnales Islamologiques, XI (1972).
Day (A.E):
Geology of Lebanon (Beirut, 1930)
Deschamps, P.
Les Entrées des chateau des croisés et leurs Defenses en Syria vol XIII.
Le Cracdes chavalier, (2 vols) Paris 1954).
Day (A.E) :
Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, seconde Edition. 1886.
Dib, P.
L'Eglise Maronite Paris 1930.
Dozy (R):
Supplément aux dictionaires arabes (2 vol) (Leiden 1881).
Dube Ludig (L):
The caravan Route between Egypt and Syria (Trans from german 1881).
Dictionaires de Vetement.
Dussaud, R. et (auties):
La syries Antique, medievale illustrees, paris, 1931.
Les Arabes en Syrie avant l'Islam.
Topographie historique du la Syrie antique et et medievale (Paris 1927).
Ecochard (M):
Nole sur un Edifice j'Alep. (Syrie XXVII 1950).
Ehrenkreutz (A.S):
«Kashf al - asrar al-ilmiya bider al- drab al Misriya» of Mansur ibn Bara al shahabi al-

kamili (Bull school, or and afucan studies 1953).
Salah ad Din. New Yor . 1974.
Elbeheiry (Salah):
Les .Institution de L'Egypte au Temps des Ayyubides, univ d'lille 1973.
Ellen. C. Semple:
The geography of the mediterranean Region (London 1932).
Enlart (C):
Les Monuments croisées (Paris 1925 - 8).
Etting hausen (R):
Arabe Painting (Skira 1962).
Gardiner:
The Military Road between Egypt and palastine.
Gauefroy-Demombynes, M:
La syrie à L'epoque des Mamlouks (Paris 1923)
Gennap. A. Rauge Van:
La ducat Venietien - en Egypte (Revue Numismatique Paris 1897).
Gibb (H.A.R.)
The Damascus chroniche of the Crusades. (London 1932).
The Arabic Sources of the life of Saladin. CA-Journal of the medieval studies January 1950.
The Achievement of Saldin.
Bulletin of the John Ry lands lebrary manchister vol, 35 No 1 September 1952.
Islamic biographical literateure in Histoians of the middle East by lewis. B. and P.M. Holt. London 1962.
Gibb (H.A.R.) and Bowen (H):
Islamic society (vol I).
Goitein (S.D):
Mediterranean trade inthe Eleventh century, some Lacts and problems.
Grant (J.C.)
The Economic Background of the Gosples (New York, 1926)
Grousset (R)
L'Empire du Levant. (Paris 1949)
Histoire de L'Armenie. (Paris 1947).
Histoire des Croisades. (Paris 1943 — 1945).
Guyer (5):
La Madrass a al-Halawiya d'alep Bulletin del'Institut francais d'Archaeologie Oriental XI 1914.
Hanz (E):
Die Mamlukischen SuHansurkunden des sinai klosters, wieshaden (ottoharrassewi,t X 1960)
Hassan (M):
Hunting as practised in Arab countries of the middle ages (Cairo 1937).
Herz Leld (E):
Materiaux pour un corpus Inscriptionum ara-bicaman Dimxiem partie du Syrie Nord. (Le Caire 1954 — 1956).
Heyd (W):
Historie du commerce du Levant au Moyen age 2 vols, Leipzing 1923.
Hill:
A History of Cyprus. vol II.
Hitti. (P.K.)
History of the arabs 4th edition (London 1949).

Hoffmeyer (A):
Islamic Swords of the middle ages. (Kobenhagen 1936).
Ivanow (W):
The Selaged founder of Ismailiair (Bombay india 1945).
Joinville, jean de:
Histoire de Saint lowis (ed. N. de wailly. Paris 1874).
orga:
L Armenie Cilicienne.
King (E.J):
The Knight Hospitallers in the Holyland (London 1931.)
Etudes sur le régne du califonaiyade mo'auia les (welenges de la faculte orientale. vol II 1907).
Labib (S):
Egyptian commercial policy in the middle ages in cooked studies in the economic Hist. of the middle east.
Lammens (H)
La syrie (Beyrouth 1921)
Lane - Poole (S):
Saladin and the fall of Juresalem (New York 1898).
Lapidus (Ira Matvin):
Muslim cities in latter Middle ages (Harvard 1967).
Lawrence. T.E.
Crusader castles vol I (London 1936).
Lavoix, Henri:
Catalogue des monaies. Musulmanes (Bibl. Notional. Paris 1896).
Le Strange (G):
Palestine under the Muslems (Cambridge 1890)
the lands of the Eastern caliphate (cambridge 1930).
Lewis (B):
The Assassins. (London 1967).
Historians of the meddle East Oxford 1907.
Sources for the Economic History of the middle east cook, ed.
Studies in the Economic Hest. of the meddle East. (London 1971).
The Origins of Jsmailisim (Lodon 1940).
Little (Donald):
An Jntroduction to Mamluk Historiography (Wiesbaden 1970)
Loewel:
Notice of a Mamluk coin, struck by command of the Sultan Melik Dhahar Rokn-el-Din Bibars Bondokdari.
(Numismatic chronicle 1856).
Longnon:
Les Franuais d'autremer an moyen Age (Paris 1930).
Lopez, R. and athers:
England to Egypt, 1350 — 1500
Long term trends and long distance trade in cook, M. Editon studies in the Economic Hist.
Maryon (G.F.H):
A History of Technoloy, vol II (London 1954)

Maspero:
The struggle of Nations.
Mayer (L.A)
Some problems of Mamluk coinage (transactions of international Numismatic congress. London 1933).
Saracenic Heraldly (Oxford 1933).
Michaud (J.F):
Histoire de croisades, vol I
Miles, george:
Islamic coins in antioch-on-the orientes (princeton University press 1948).
Mrgoliouth (David):
Lectures on arabic historians (calcutt, 1930)
Musil, A.
Arabia Deserta (1922)
The northern Hegaz (New York 1926)
Arabia petraca vol I. (Vienne 1907).
Niclosou, R.
Studies in Islamic Mysticism (combridge 1921).
Olab, C:
A History of the Art of war in the middle Ages 2 vols. London 1924.
Pasder madjian (H).
Histoire de l'Armenie Paris 1964.
Paul (F.V):
Mohammedan Arms and Armour (mussum of fine Arts, Bulletin XIV (Boston, june 1916)
Pliny:
Natural History (BK. v, ch 17, 20).
Poliak, A.N:
Feudalism in Egypt syrie, palestine and lebanon. (London 1939) (2).
The Ayyubid feudalism (J.R.A.S, 1939).
Quatremére (N):
Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte I - II (Paris 1844 - 1845).
Rabie, (Hassanein):
The size and value of IQTAC in Egypt, in cook (ed): studies in the economic History of the middle East, (London, 1970), P.P. 129 - 38.
«The training of the mamluk FARIS» in parry and Yapp (ed) History of war, techonology and society in the middle East (London, 1975).
The Financial system of Egypt. 564 — 79 — H 1169-1341, D (London 1971).
Some financial aspects of wagf system in Medieval Egypte, in al-Majalla al-tarikkiyya al-misriyya, vol. 18(1971).
P.P. 3 - 24.
Recueil des Historiens des croisades.
Reg, E.G.
Les colonies frenques en Syria aux XII et XIII et Sieles, paris 1833.
Les monuments de l'architecture militaire des croises n syrie et dans l'ile de chypre (paris 1871).
Richard:
Le Royanme latin (Paris 1898).
Richardson: (M.E)
Archery. London. 1970

Risler (J.C)
le civilization Arabe. (Paris 1955).
Robinson (B.W):
The swords of Islam (in Apolloannuel 1949).
Rosenthal (Frans)
A History of Muslim Histoicography 2 ed. leeden. E.J. Brill, 1968.
Runciman, S.
A History of the crusades, vol, I (cambridge University 1951).
Sadeque (S.F):
Bybers I of Egypt (Pakistan 1956).
Sauvaire, (H):
Materiaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la metrologie musulmanes (Journal asistique. 1880 - 18 - 82).
Seignobos, M.C:
L'Europe feodale (H.G.T.II) paris 1893.
Setton. K.M.
A History of the crusades vol I. (pennsylvania 1958).
Shilleto, A.R.
The works of Flavius Josephies (V Bonn 1923).
Smith (G.A)
Historical geography of the Holy land (1894). Stevenson:
The crusaders in the east (cambridge 1967).
Stuar: D.M.
Chivolry and Social life in the middle ages. (London 1927).
Toynbie, A.T.:
Study of History vol II
Tritton (A.S)
The caliphs and their Non-Muslim Pubjects (Oxford 1930).
Vassiliev. A.A:
The History of the Byzantine Empire (Madison 1961).
Wellhausen (J.)
Das arabische Reich und sein eturs (Berlin 1902).
Tr. by Margaret (g). Weir. the arabs Kingdom and its jall (calcutta 1927).
Werthington. E.B.
Middle East science. (London 1945).
Wiet, g:
Catalogue du Musée Arabe «Lamps et Bauteilles verre Emeille» Le Caire 1929
Memorial, Hennri Masset (Paris 1928).
L'Egypte Arabe Hest. de La nation Egyptienne T. 1 (Paris 1937).
A Brief chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt.
Bulletin de L'institut francais d'Archaéologie orientale XVI, PP. 39 — 104. 1919.

مرفقة

الخرائط والاشكال واللوحات

" ٢ "

حلب
اللاذقية
حماة
بحر الروم
طرابلس (البحر المتوسط)
دمشق
جبل حوران
عكا
يافا
١ السهل الساحلي
٢ سلسلة مرتفعات من جبال الأمانوس شمالاً حتى سيناء جنوباً
٣ السهول الوسطى
٤ سلسلة الجبال الشرقية
٥ بادية الشام
(١)

خريطة رقم (١)

(٢) توزيع القبائل العربية في بلاد الشام

خريطة رقم (٢)

الآثار الإسلامية الباقية
في بلاد الشام (٣)

خريطة رقم (٣)

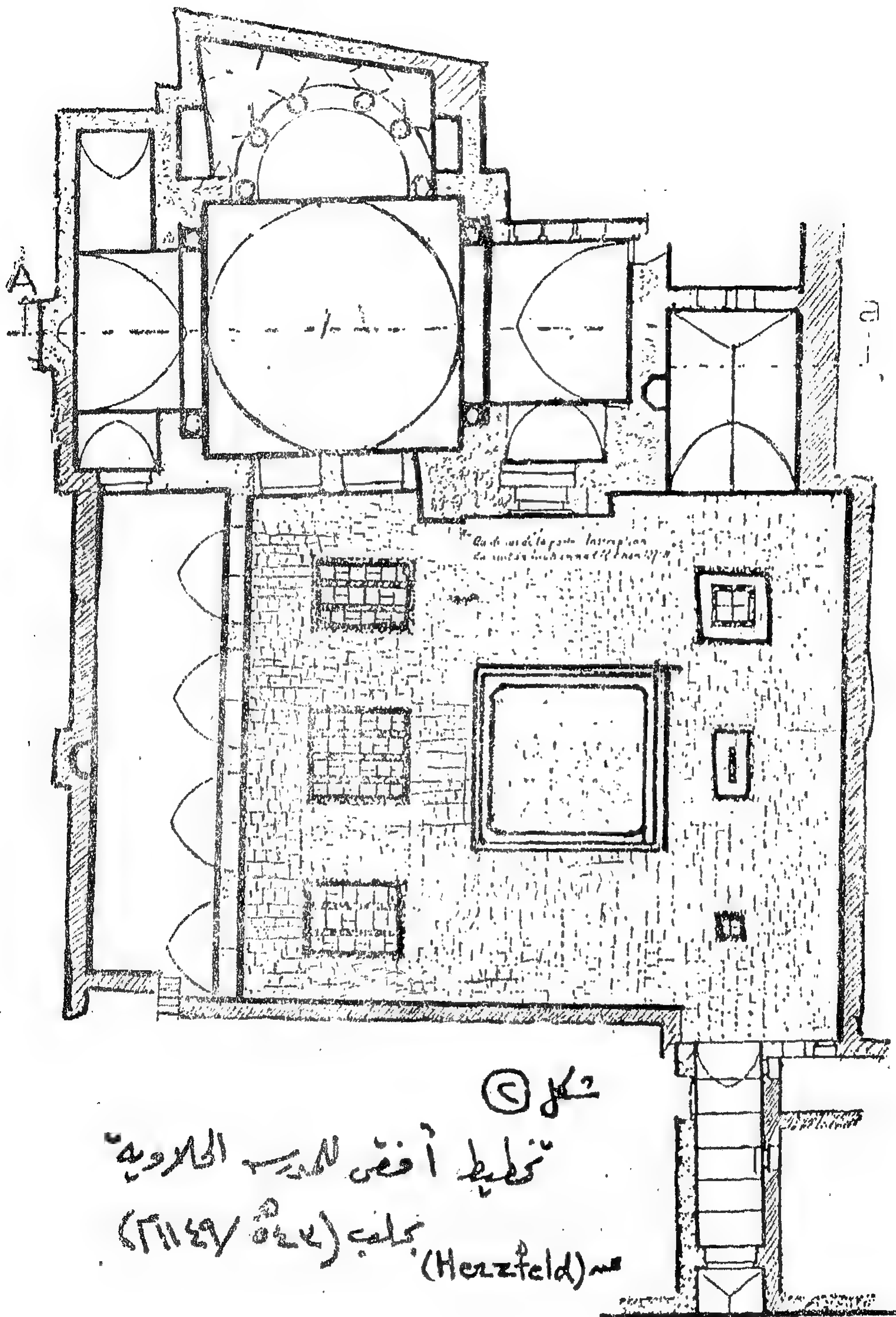
خريطة رقم (٤)

الولايات الإسلامية والصليبية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (٥)

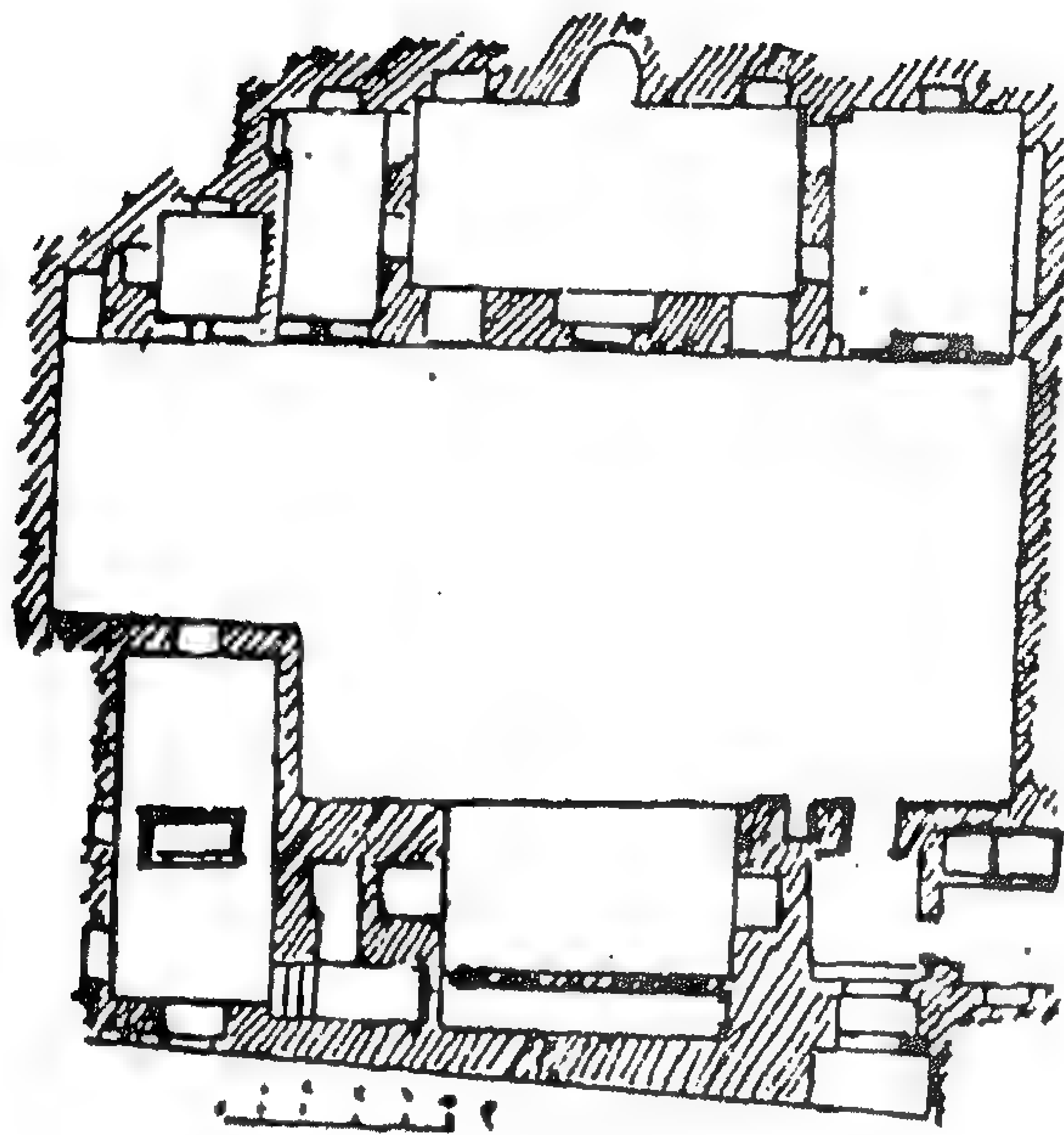
خريطة رقم (٥)


شكل ١ مدينة حلب القديمة وآثارها الباقية
١ سور المدينة القديم
٢ باب قنسرين
٣ باب النصر
٤ باب انطاكية
٥ باب الفرج
٦ باب المقام
٧ باب الحديد
٨ قلعة حلب
٩ الجامع الكبير
١٠ جامع الخسروية
١١ المدرسة السلطانية
١٢ المدرسة الفردوسية
١٣ خانقاه الفرافرة
١٥ جامع الطونبغا
١٦ بيمارستان أرغون
١٧ خان الصابون
١٨ خان الوزير
٢٠ حمام اللبابيدية
٢١ جامع العادلية
٢٢ قصر جنبلاط
٢٣ المدرسة العثمانية

شكل رقم (١)

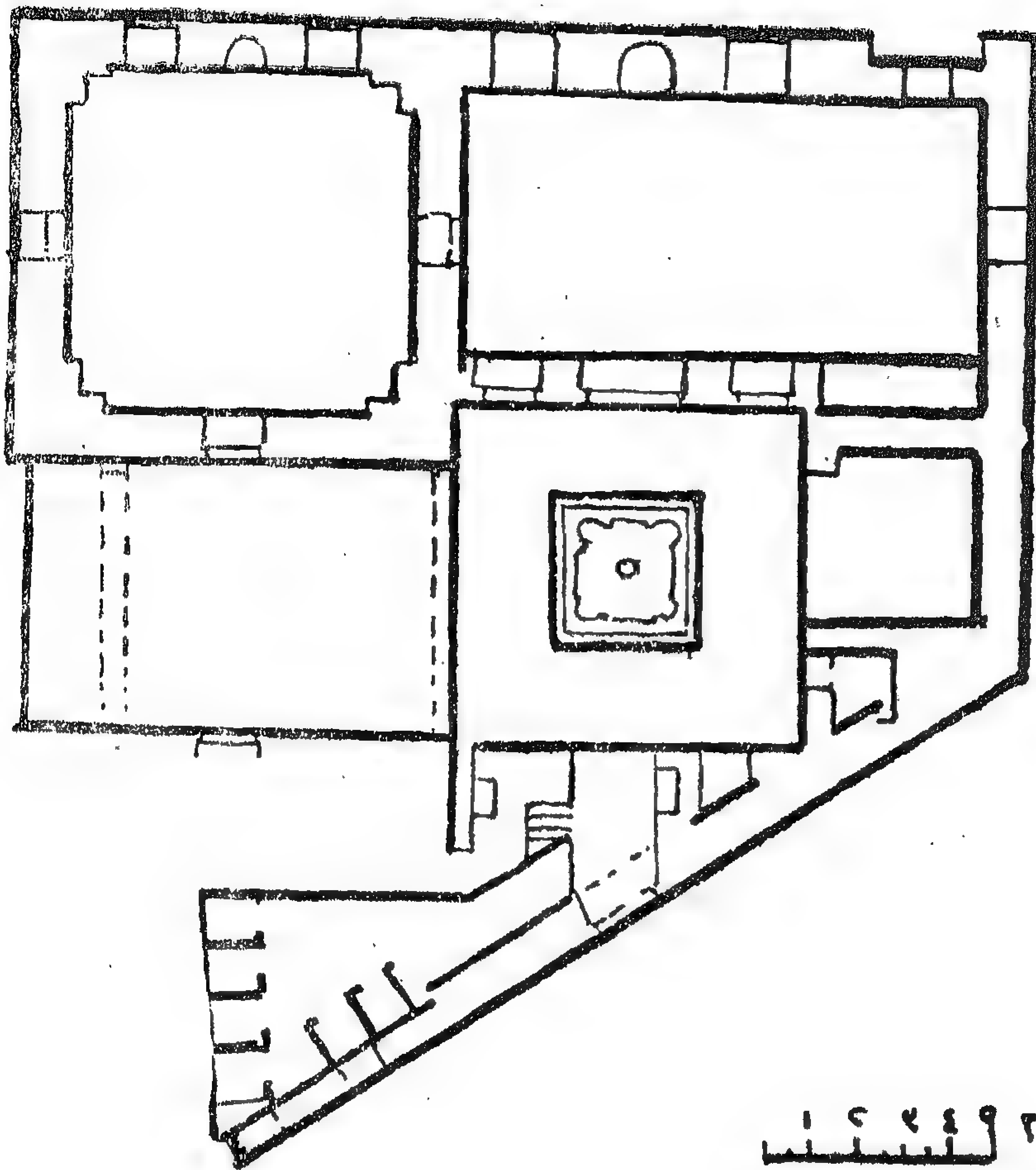

شكل ٢
"تخطيط أفقي للمدرسة الحلاوية"
بحلب (٥٤٤هـ/١١٤٩م)
عن (Herzfeld)

شكل رقم (٢)



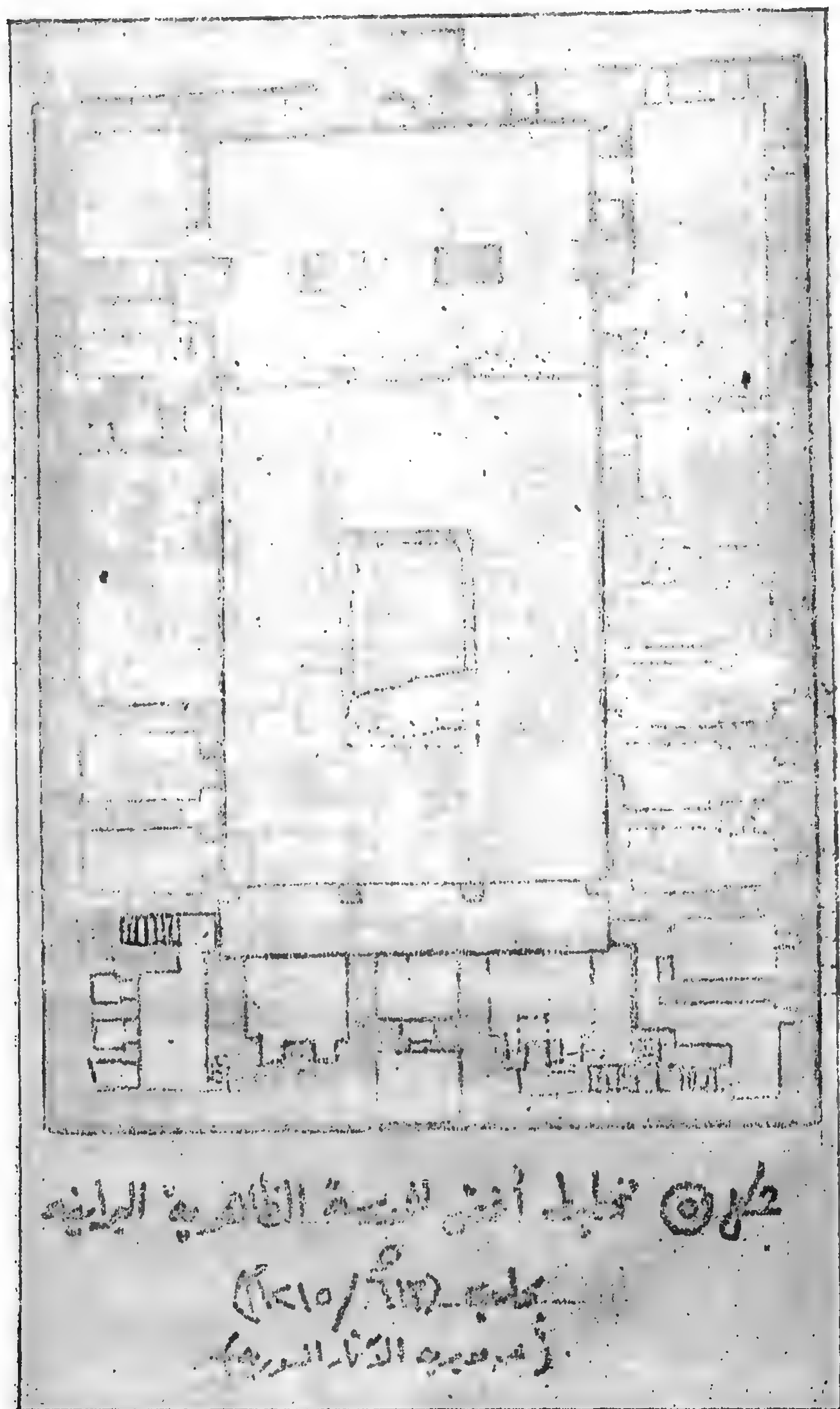
شكل ② تخطيط أفقي للمدرسة الشاذبختيه
بحلب (٥٨٩هـ/١١٩٣م)
(عن مديرية الآثار السورية)

شكل رقم (٣)

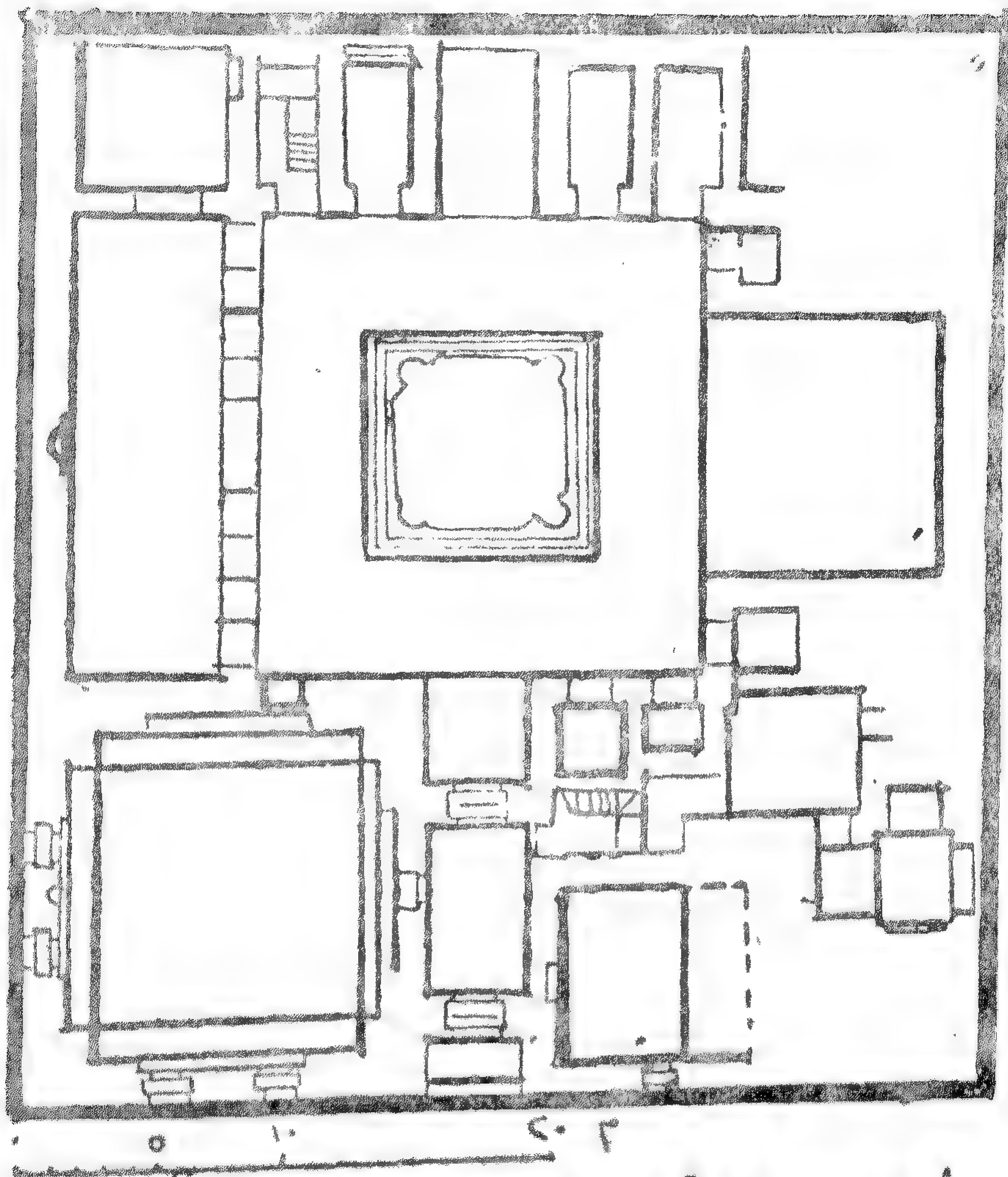


شكل (٤) تخطيط أفقي للمدرسة الماردينية
بدمشق (٦١٠هـ/١٢١٣م)
(عن مديرية الآثار السورية)

شكل رقم (٤)

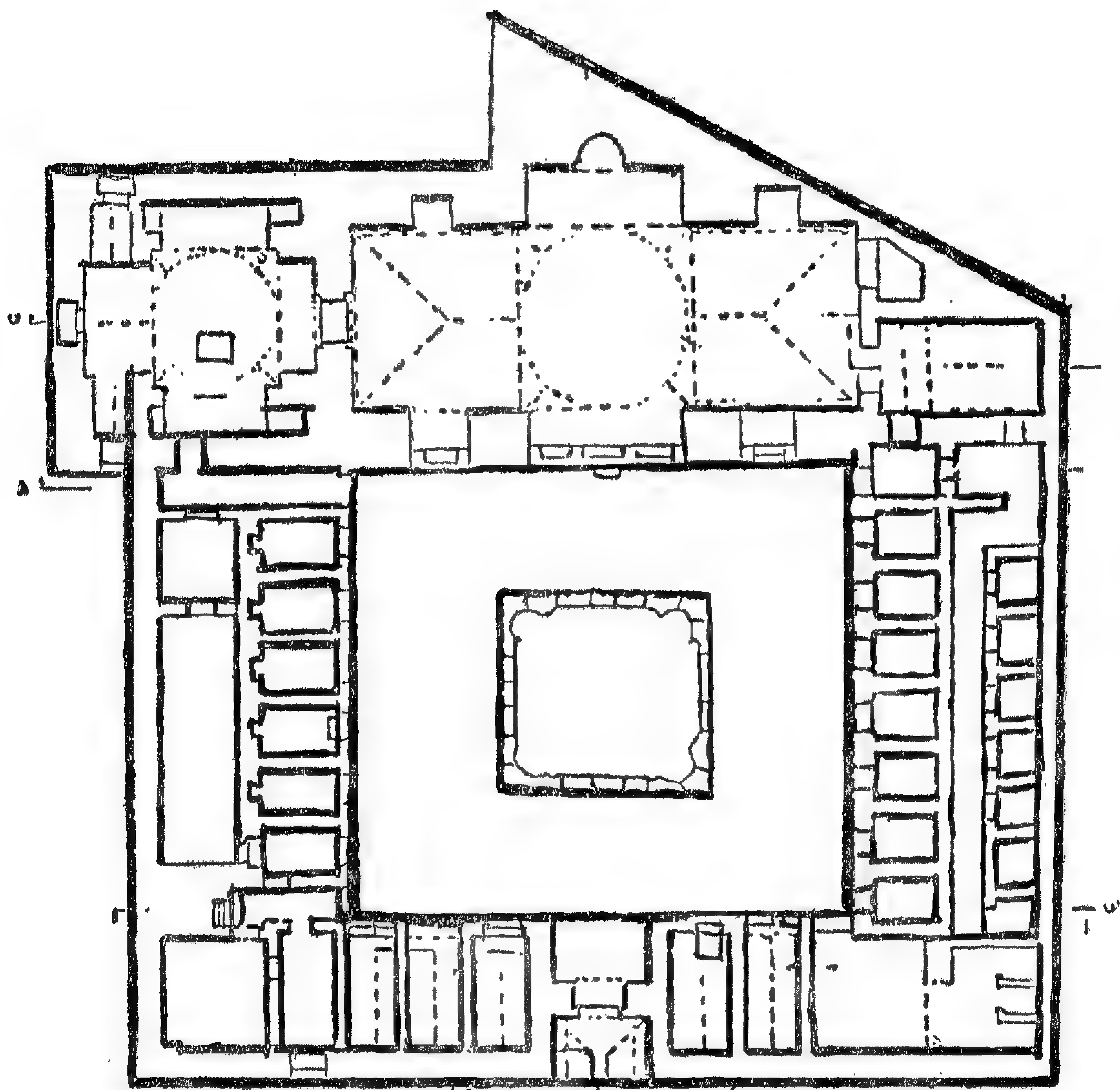


شكل رقم (٥)



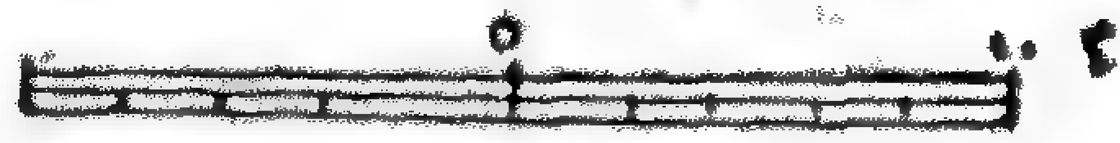
شكل (٦) تخطيط أفقي للمدرسة العادلية
بدمشق (٦١٥هـ/١٢١٨م)
(عن مديرية الآثار السورية)

شكل رقم (٦)



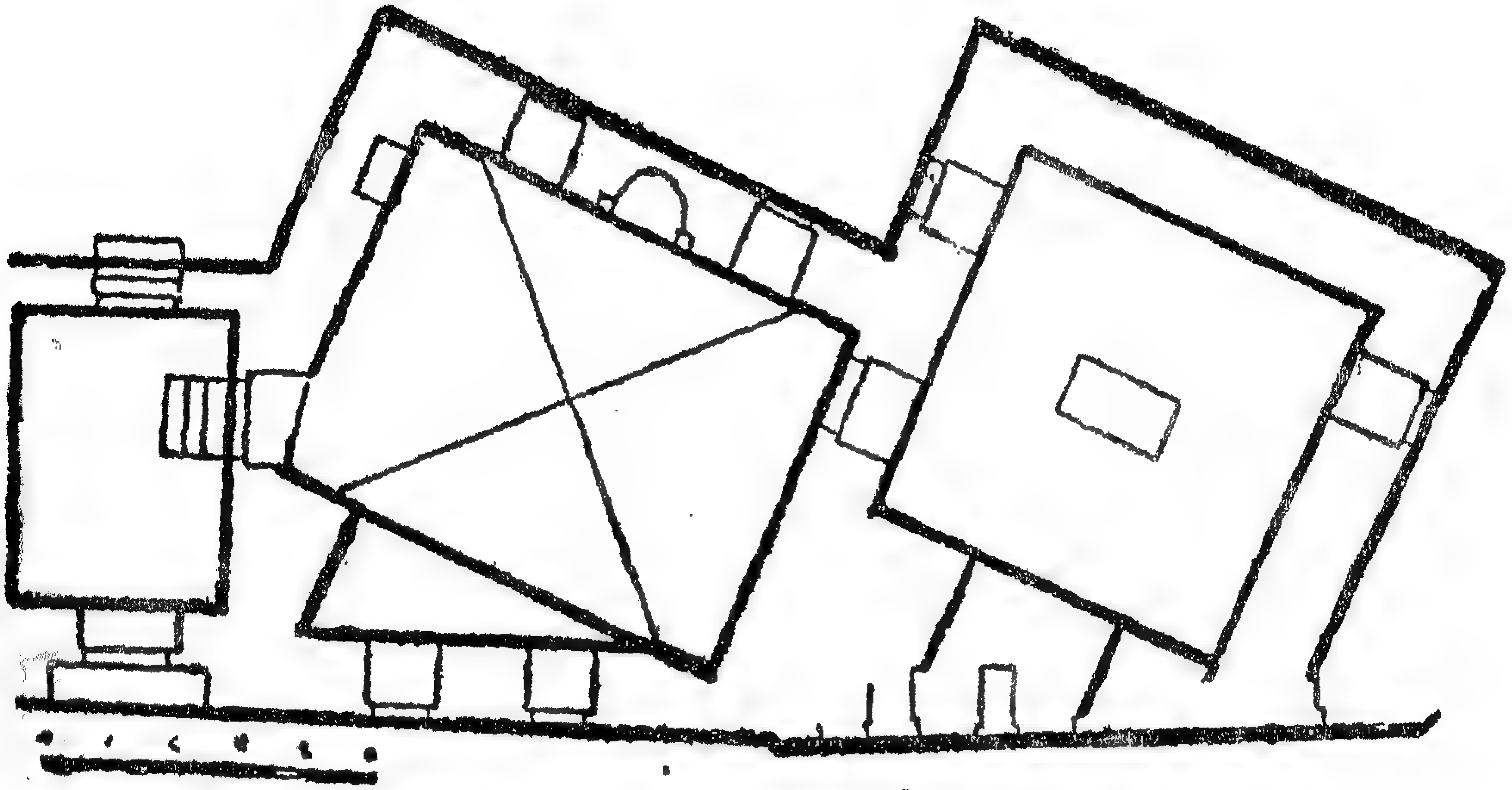
شكل ⑦ تخطيط أفقي للمدرسة السلطانية
بحلب (٦٢٠هـ/١٢٢٣م)
عن (Lauffray)

شكل رقم (٧)



شكل ⑧ تخطيط أفقي للمدرسة الشرفية بحلب حوالي (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) (عن هرتزفيلد)

شكل رقم (٨)

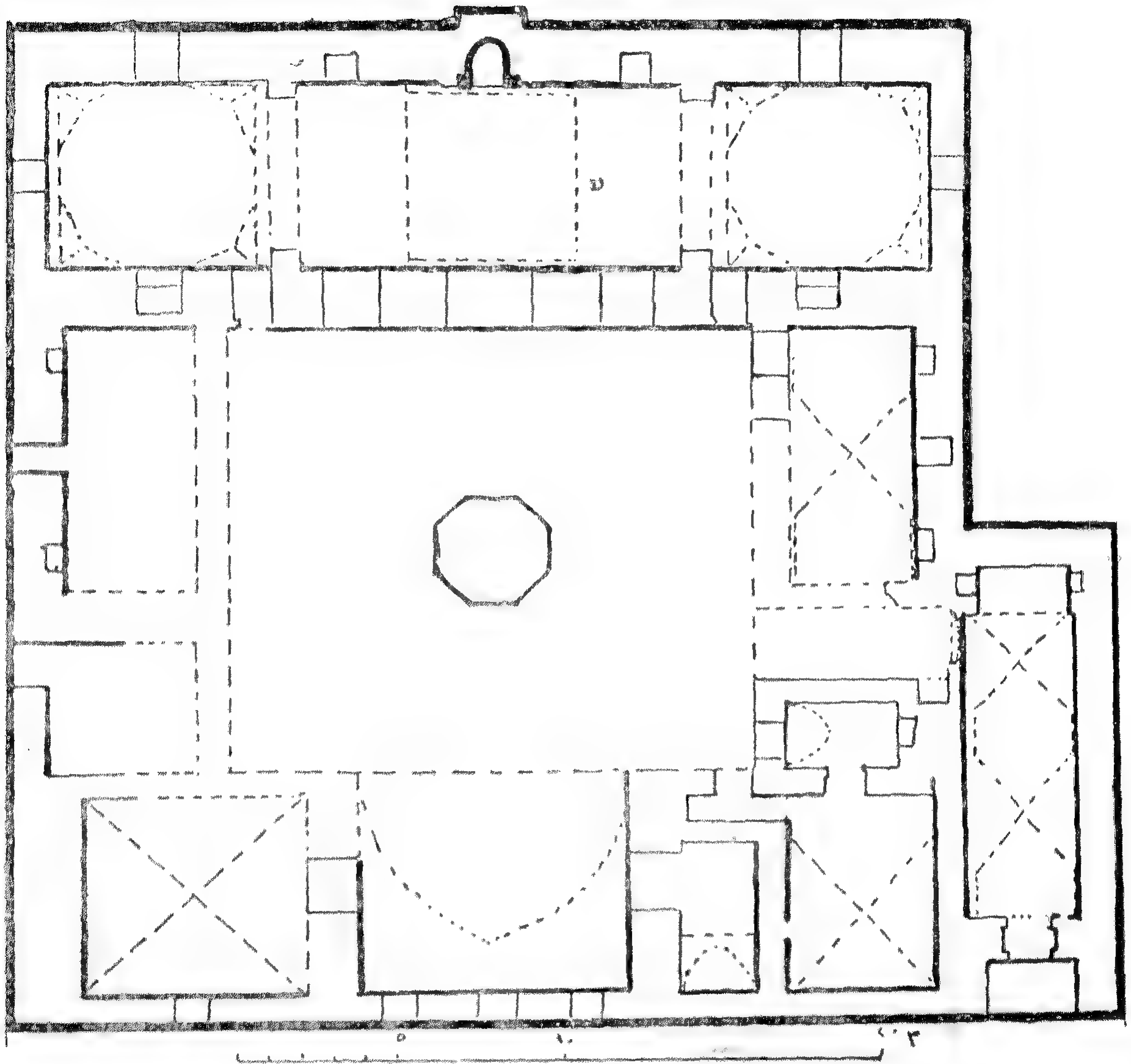


شكل (٩) تخطيط أفقي للمدرسة المرشدية

بدمشق (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)

(عن مديرية الآثار السورية)

شكل رقم (٩)



شكل ١٠ تخطيط أفقي للمدرسة الكاملية
بحلب (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)
(عن مديرية الآثار السورية)

شكل رقم (١٠)



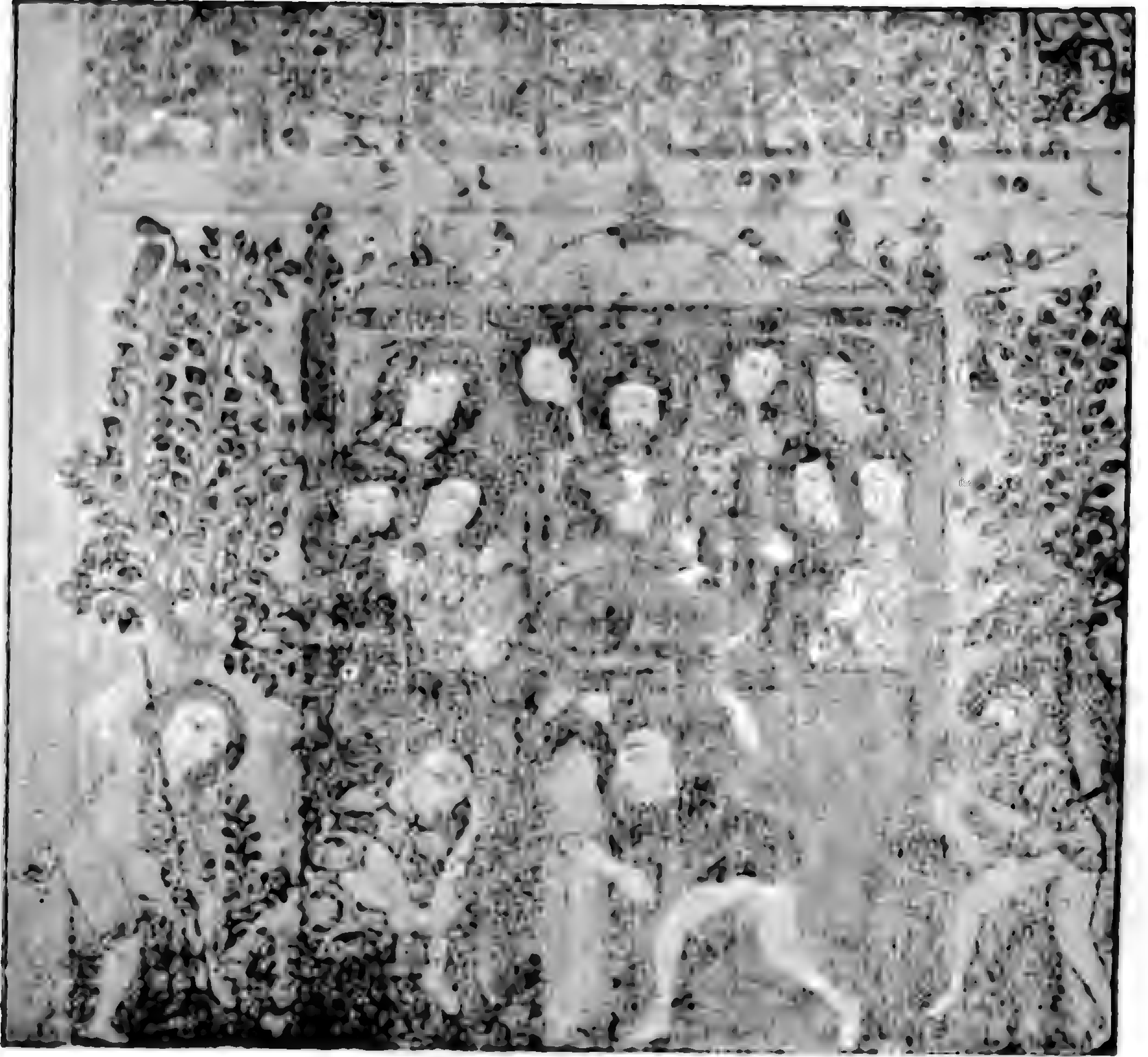
لوحة رقم (١)



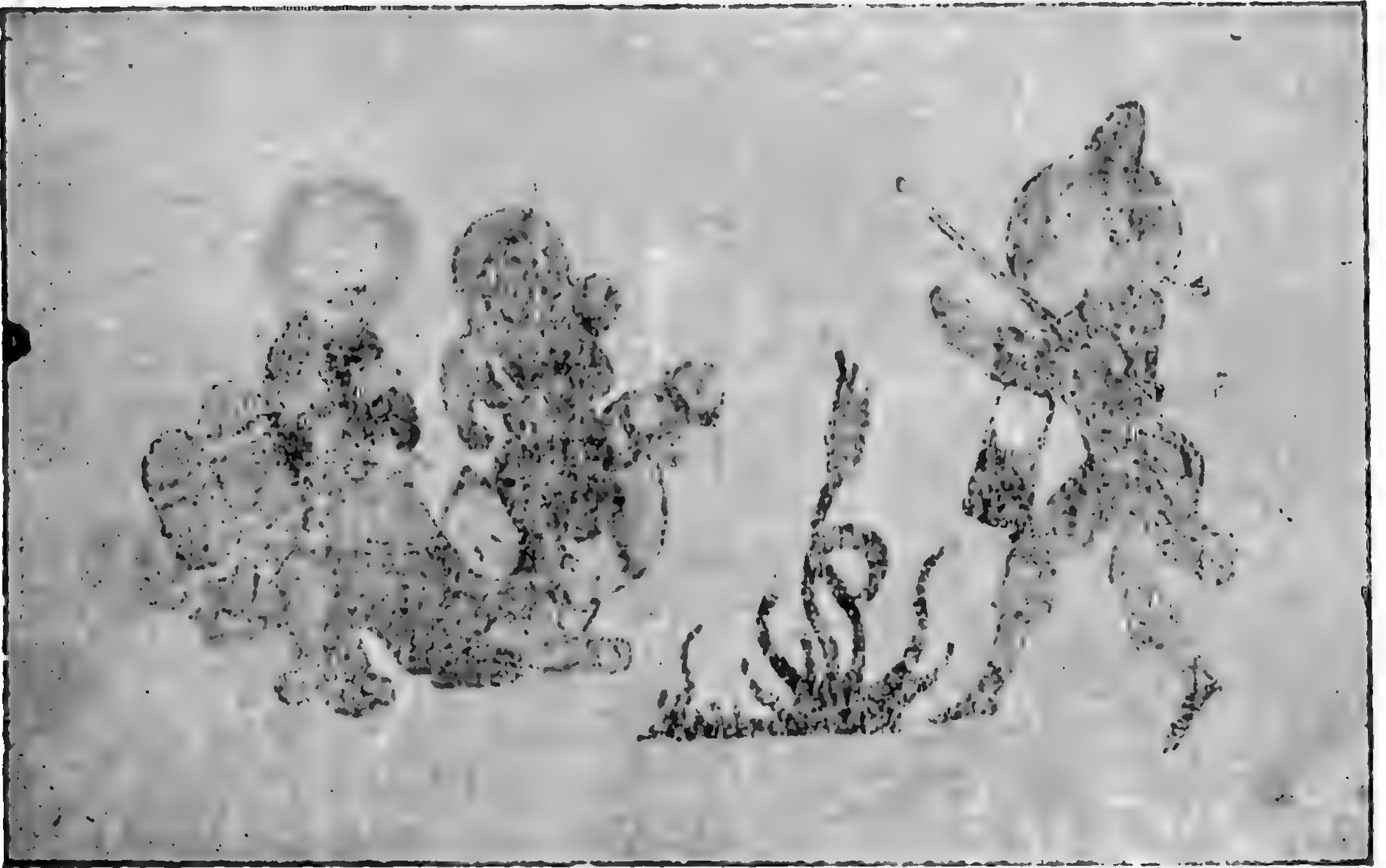
لوحة رقم (٢)



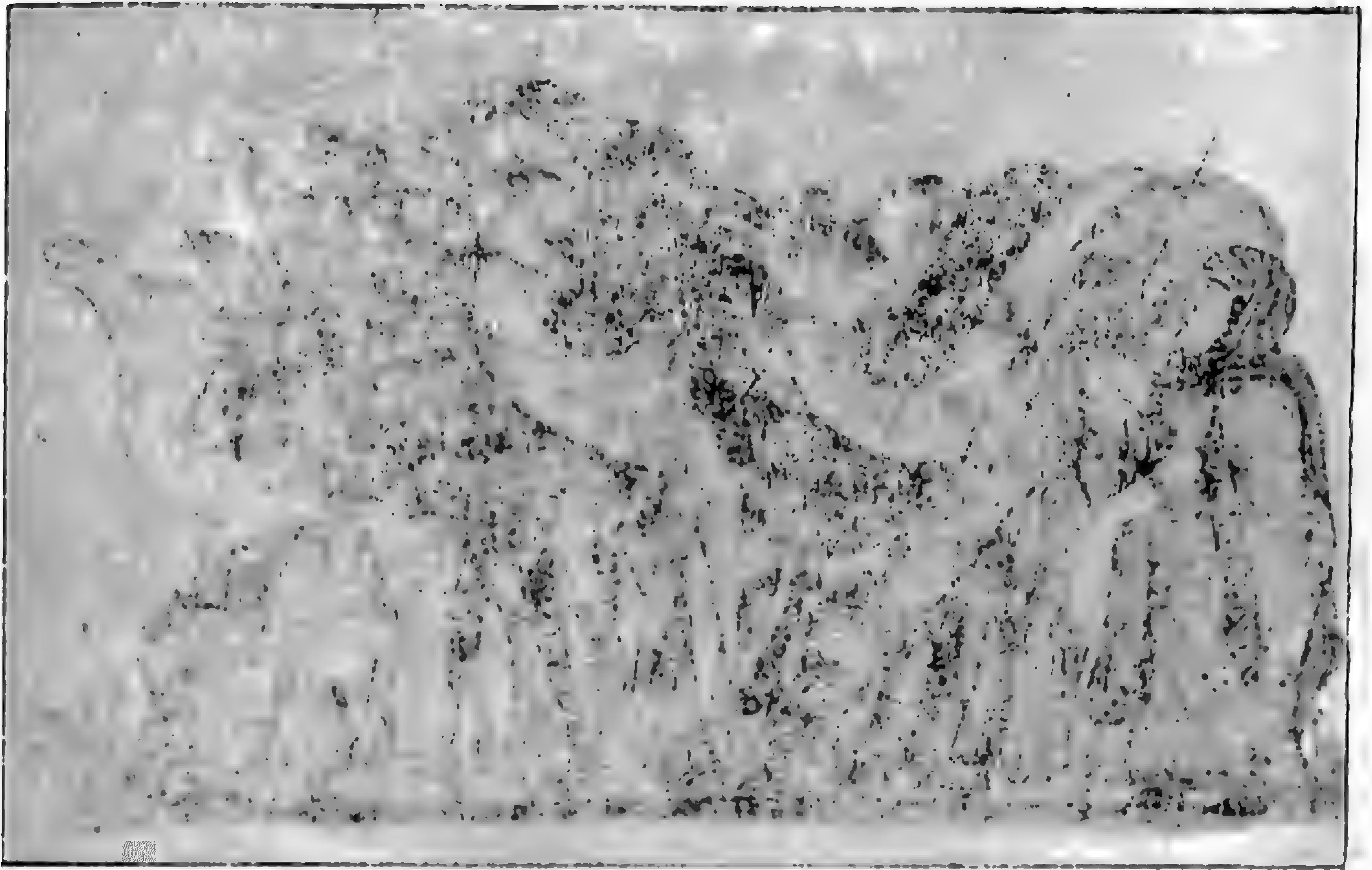
لوحة رقم (٣)



لوحة رقم (٤)



لوحة رقم (٥)



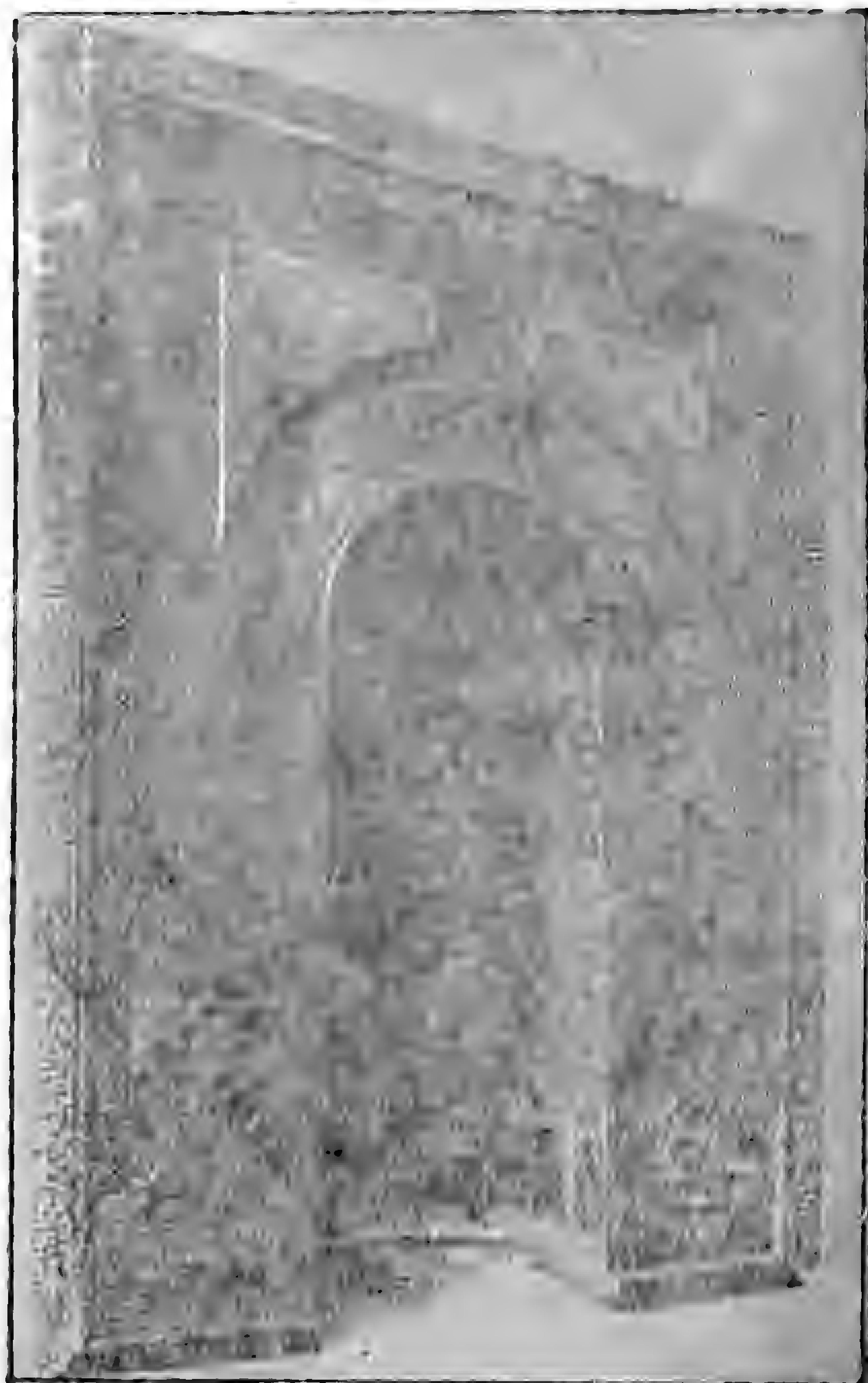
لوحة رقم (٦)



لوحة رقم (٧)



لوحة رقم (٨١)



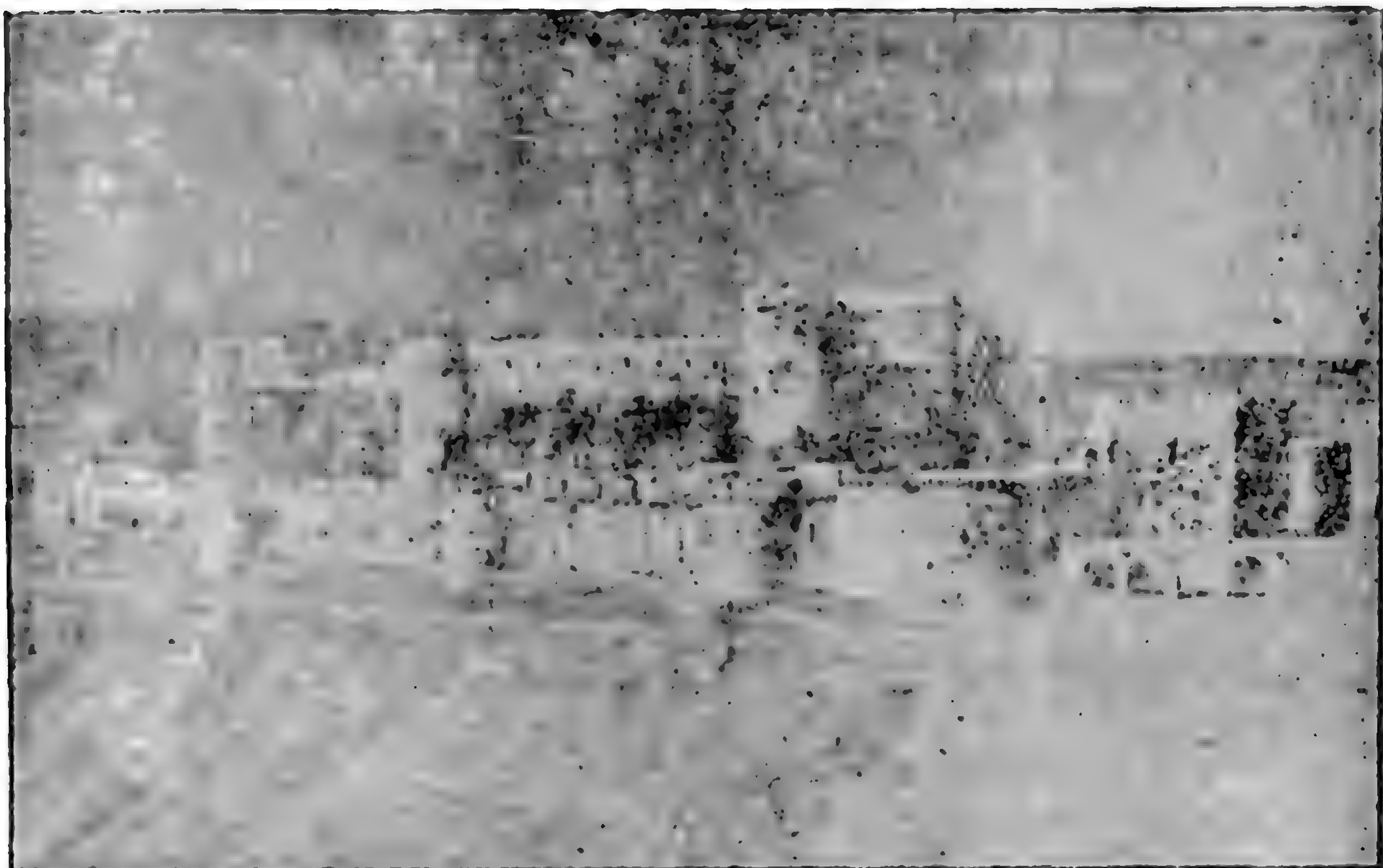
لوحة رقم (٩)



لوحة رقم (١٠١)



لوحة رقم (١١)



لوحة رقم (١٢)



لوحة رقم (١٣)



لوحة رقم (١٨)



لوحه رقم (١٥)



لوحة رقم (١٦)



لوحة رقم (١٧)



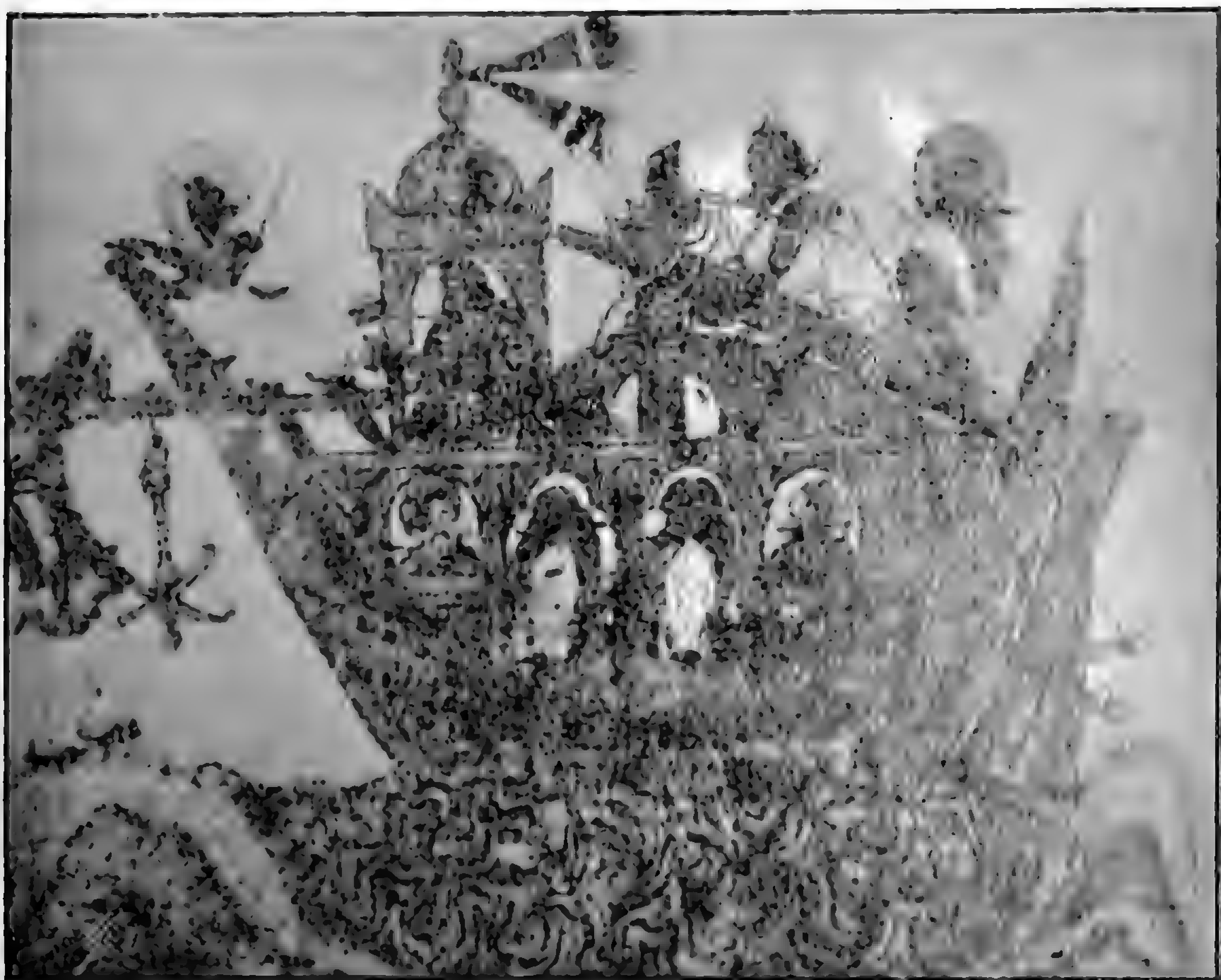
لوحة رقم (١٨)



لوحة رقم (١٩)



لوحة رقم (٢٠)



لوحة رقم (٢١)



اللوحة رقم (٢٢)



لوحة رقم (٢٣)



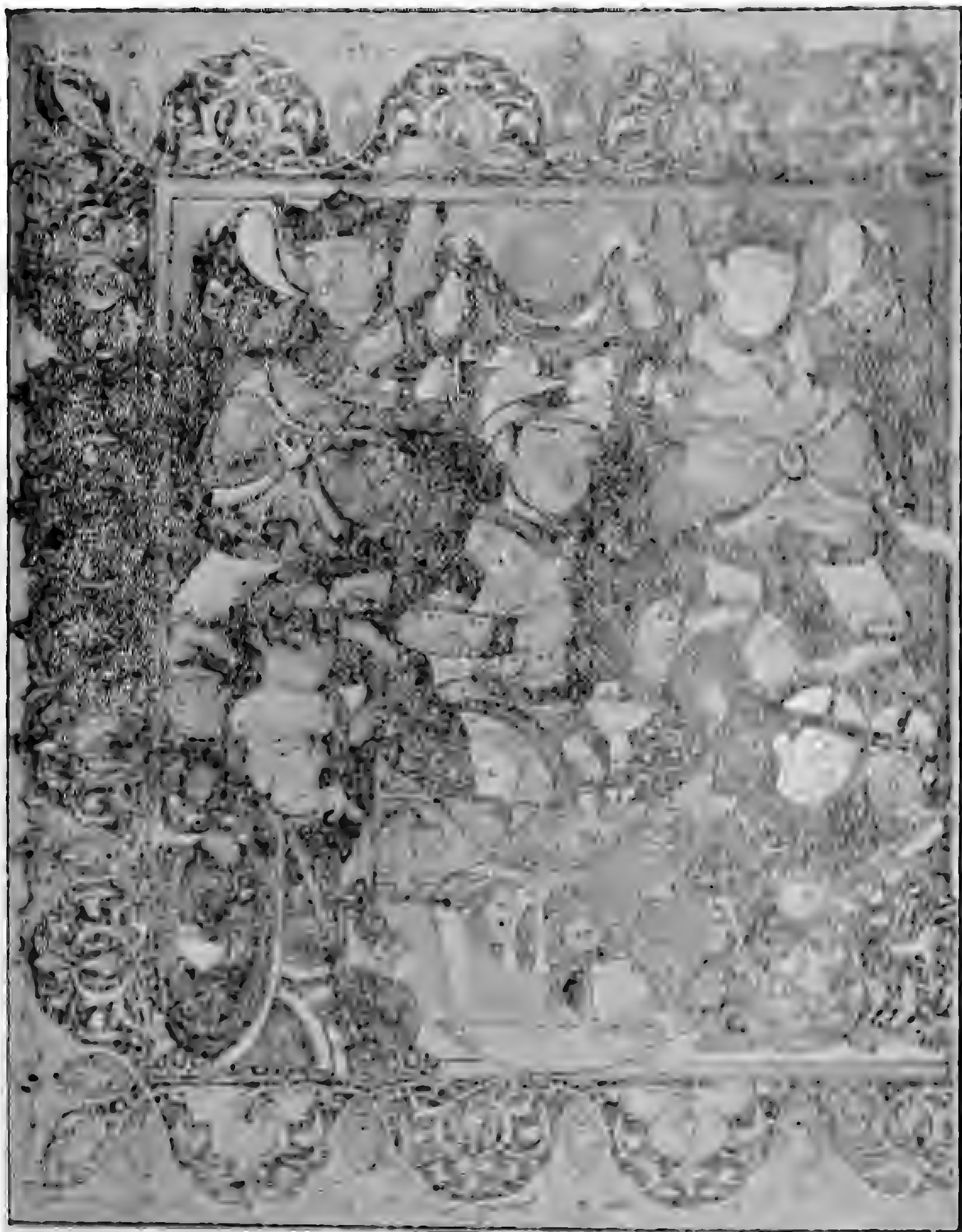
لوحة رقم (٢٤)



لوحة رقم (٢٥)



لوحه رقم (٢٦)



لوحة رقم (٣٧)



لوحة رقم (١٦٨)



لوحة رقم (٢٩)



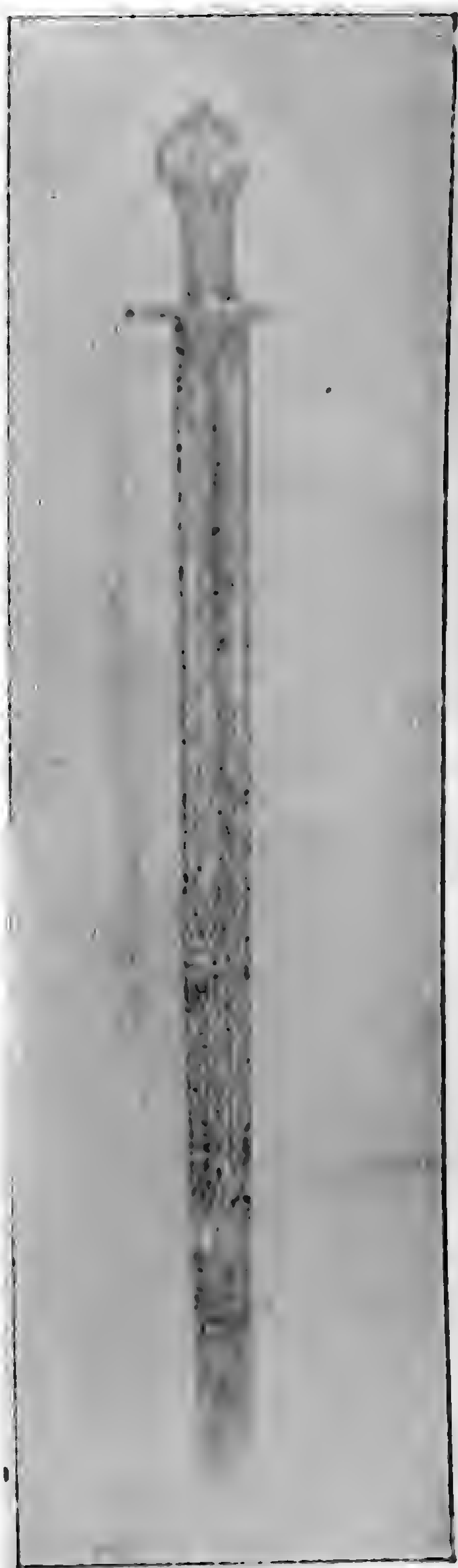
لوحة رقم (٢٠١)



لوحة رقم (٣١)



اللوحة رقم (٣٣)

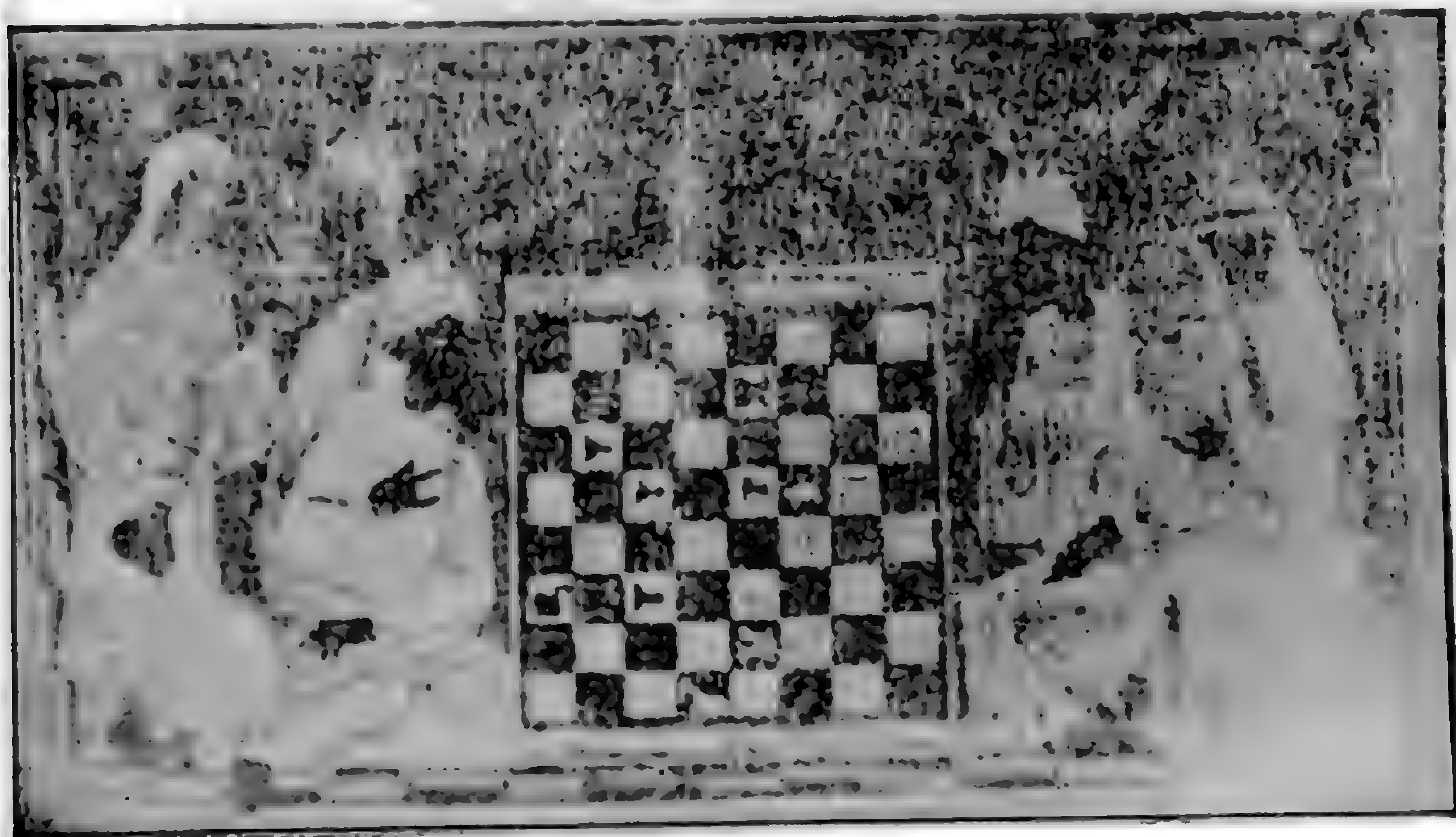


اللوحة رقم (٣٢)

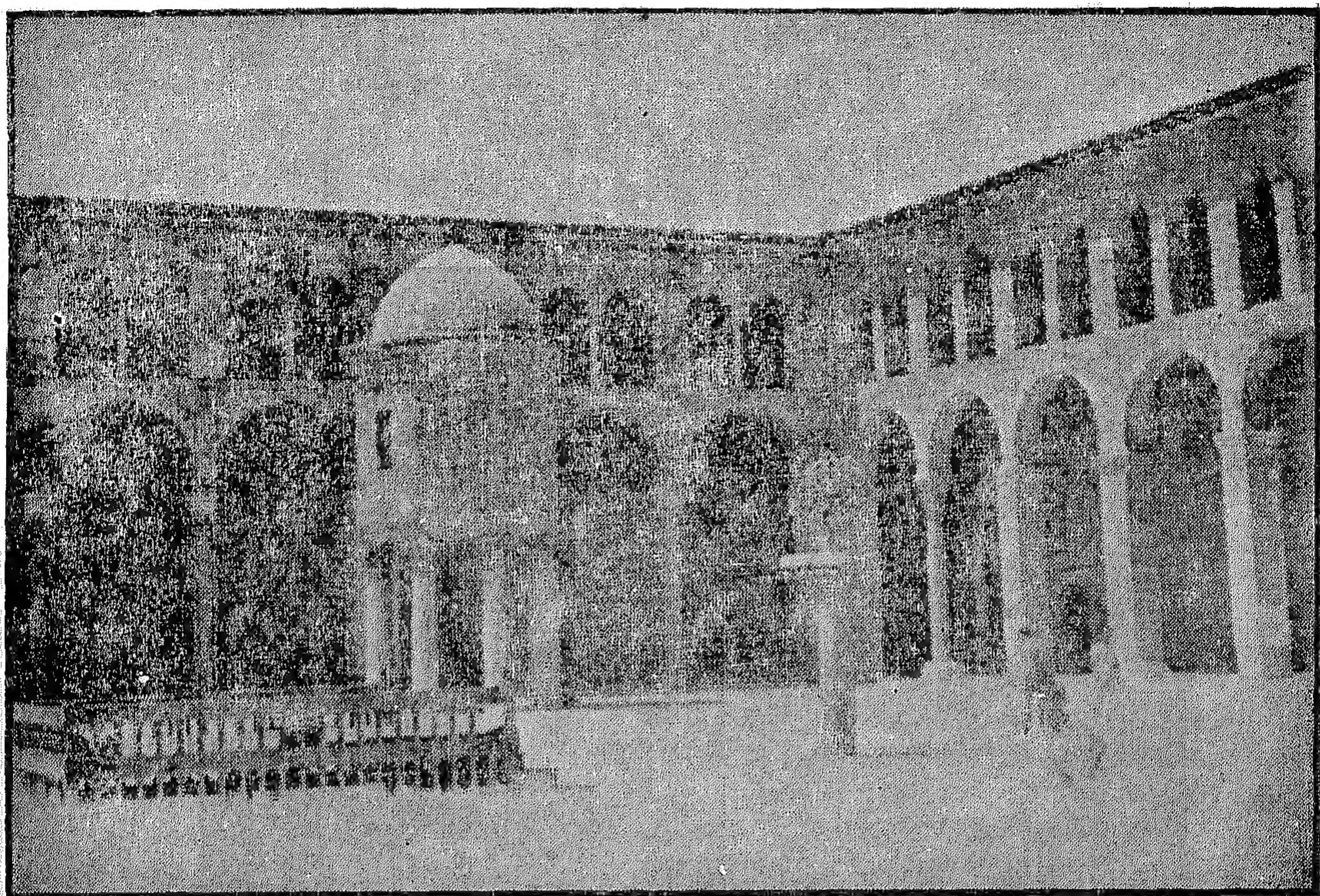


اللوحة رقم (٣٤)

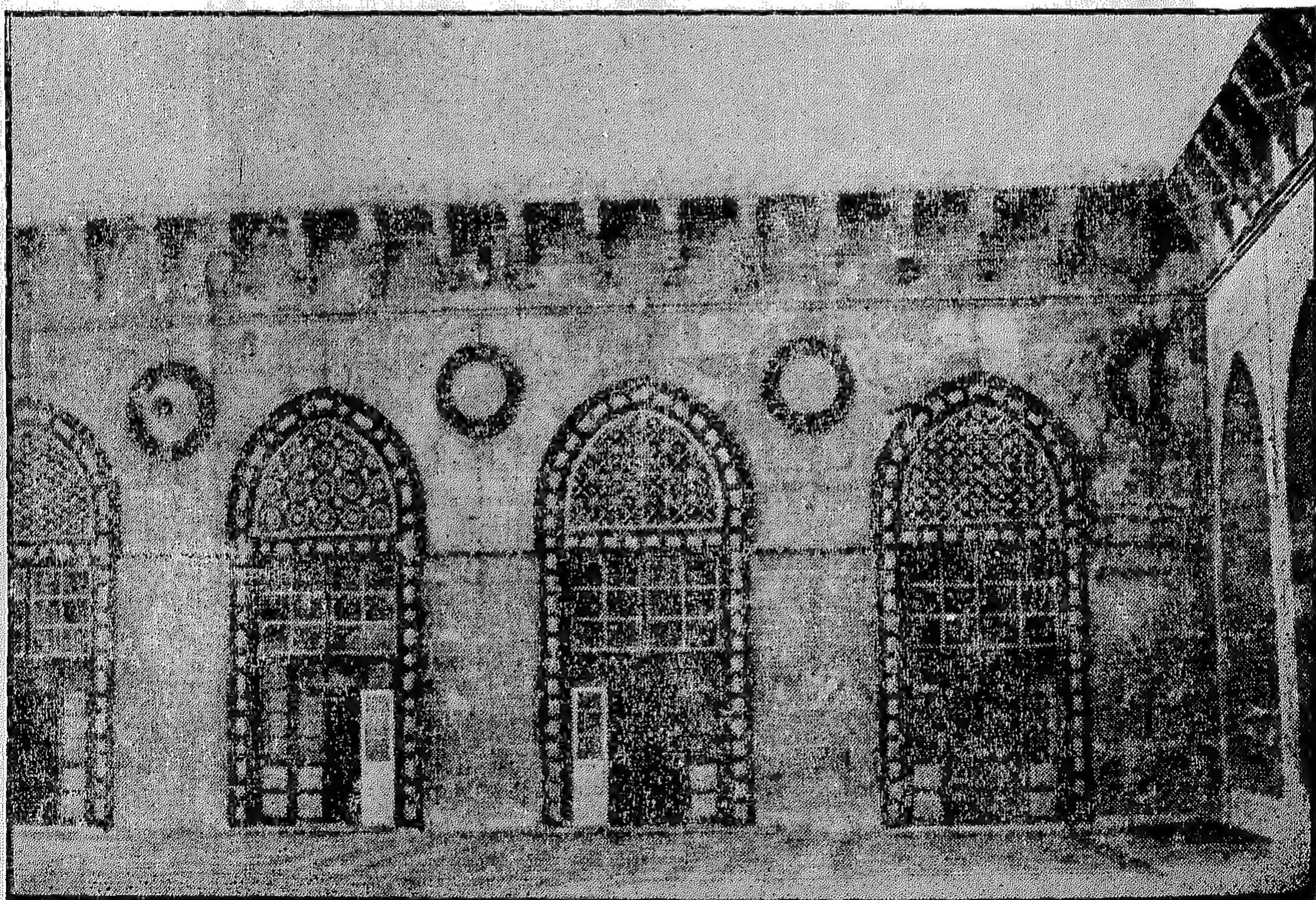
لوحه رقم (٣٥)



لوحه رقم (٣٦)



لوحة رقم (٣٧)



لوحة رقم (٣٨)



لوحة رقم (٣٩)



مؤسسة
روز اليوسف

الثمن ٢٧٠ قرشا

